

أحبابك عبد الباقى من الميلاد إلى الرحيل



د. عبدالوهاب محمد الزنتانى

جمال عبد الناصر رجل العرب
(من الميلاد إلى الرحيل)

جمال عبد الناصر رجل العرب

من الميلاد إلى الرحيل

تأليف

عبد الوهاب محمد الزنتاني

الحائز على جائزة ابن سينا

في الأدب من أجل السلام

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

بطاقة فهرسة

فهرسة الناء النشر اعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ادارة الشؤون الفنية

الزنتانى، عبد الوهاب محمد.
جمال عبد الناصر رجل العرب (من الميلاد إلى الرحيل)/ تأليف عبد الوهاب
محمد الزنتانى. - ط ١ - القاهرة. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨.
٥١٢ ص ٢٤٤ سم.
تدمك: ١ - ١٠ - ٤٦٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - مصر - الملوك والحكام. ٢ - عبد الناصر، جمال، ١٩١٨ - ١٩٧٠
١ - العنوان ٩٢٣، ١٦٢

الكتاب : جمال عبد الناصر رجل العرب.

المؤلف : عبد الوهاب محمد الزنتانى

رقم الايداع : ٢٠٠٨ / ٢٠٠٨٥

تاريخ النشر : ٢٠٠٩

الترقيم الدولى : 1 - 010 - 463 - 977 - 978

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة للمؤلف ولا يسمح بإعادة

نشر هذا العمل كاملا أو أى قسم من أقسامه ، بأى شكل من

أشكال النشر إلا بإذن كتابى من المؤلف

التوزيع : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع، ١٢ شارع نوبار لاطوغلى (القاهرة)

ت: ٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس: ٢٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣.١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة

ت: ٢٥٩٠٢١٠٧ - ٢٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق } ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

ت: ٢٢٧٣٨١٤٣ - ٢٢٧٣٨١٤٢

والمعرض الدائم }

www.darghareeb.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

**اللهم اشهد أنى أكتب بصدق وإيمان من
أجل الحق ولا شئ غيره إنك سميع عليم،،**

إهداء

إلى تلك السيدة الفاضلة (تحية) زوج الرئيس جمال عبدالناصر (ست البيت)
المصرية الطيبة رحمها ورحم رفيقها الله وأسكنهما فسيح جناته ، آمين .

وإلى كل ناصري آمن بالمبادئ والمثل النبيلة التي ناضل ومات من أجلها جمال ،
إلى من لم يتغير أو يتخلى أو يرتد عن تلك المبادئ من أجل وظيفة أو مال أو خشية
حاكم ظلوم أو تغير ظروف حياتية في ظل مستجد دولى ومحلى رهيب نأمل ألا يستمر
في حياة أمتنا العربية ، إلى كل من يؤمن بأن دولة الوحدة العربية لابد أن تقوم ،
والنضال من أجلها لابد أن يستمر بحيث يصير رأس الإنسان العربي مرفوعا تحت راية
العروبة من الخليج إلى المحيط كما قال جمال عبدالناصر (ارفع رأسك ياأخى فقد زال
عهد الظلم والطغيان) ، وعهد الظلم والطغيان يتمثل الآن في بوش وإدارته وأزلامه في
حملتهم على العروبة والإسلام، هؤلاء الذين بلغ بهم ظلمهم إلى الإساءة والتجنى على
رسولنا الكريم محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام ، وعلى كل من هو مسلم في
بلادهم وخارجها مما يسقط ادعاءهم بما يسمونه حقوق إنسان وديموقراطية ويؤكد
أنهم لا يؤمنون إلا بالمصالح والنهب والعدوان ...



تحية وترحما على روح هذه السيدة الفاضلة التي تركها زوجها بمشيئة الله
مساء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م وهو فى قمة مجدة وجهده من أجل كل المصريين وكل
العرب ، وكانت أكاليل الغار التي أضفاها عليه شعبه تتمثل فى ذلك الوداع الذى
(ربما) لم يسبق له مثيل فى تاريخ الإنسانية بأنشودة تقول (الوداع الوداع يا جمال
يا حبيب الملايين - ابكى ابكى يا عروبه على بذاك طوبه طوبه) .

تحية لهذه السيدة التي حفظت وحافظت على العهد ولم يمر زمن طويل حتى
لحقت برفيقها إلى جنة الخلد إن شاء العزيز القدير ...



مقدمة تاريخية
الوحدة العربية هاجس وأمل
جمال عبد الناصر

مقدمة تاريخية

الوحدة العربية هاجس وأمل جمال عبدالناصر

من المعروف أنه لم يحدث أن حظيت قضية فكرية أو سياسية أو اجتماعية في التاريخ العربي كلة بمثل الاهتمام الذي حظيت وتحظى به فكرة القومية العربية في العصر الحديث والمعاصر إذ صدرت في موضوعها مئات الكتب وآلاف المقالات والأبحاث والندوات على امتداد الوطن العربي شارك فيها كتاب وأدباء وفلاسفة وشعراء وساسة، ولا يستغرب ذلك الاهتمام، فالحديث عن الأمة العربية والنضالات والأمجاد العربية محبب إلينا نحن العرب لما لأمتنا من رصيد مشرف في ذلك، والبحث في واقع وتاريخ أمتنا يشغل بالنا جميعا، والقومية العربية كدعوة لوحدة الأمة ليست سوى محاولة من تحقيق ذاتنا وتجديد أمجادنا كمجموعة كبرى في المحيط الدولي والإنساني، ولعله يمكن القول إننا في الحقيقة ندعو لتحقيق الوحدة العربية في الوطن العربي الكبير دون أن نقوم بعملية تحليل لوضع المجموعات التي يتشكل منها سكان هذا الوطن في كل اتساعه، ولهذا كنا نقع في خطأ بل في سلسلة أخطاء تجعل دعوتنا وكأنها مجرد أمل بعيد المنال في حين أن الواقع يفرض علينا ضرورة إقامة الدعوة على أساس سليم ركيزته الواقع الحثي المعاش وغايته محددة بقدر الإمكان وليس على أساس المواقف العاطفية والاندفاع في حماس غير مجد ودون تفكير عملي عميق فيما سبق وما هو آت، ولقد استمر دعاة الوحدة العربية يرفعون شعار القومية العربية منذ عشرات السنين ويعملون على توكيده وترسيخه في نفوس الناس، ويدعون تبعا لذلك إلى إقامة دولة عربية واحدة يرفرف علمها على أرض العروبة كلها من الخليج إلى المحيط، حتى صار كل عربي يتمنى أن يتحقق هذا الحلم الكبير وحتى إن أشد الناس تمسكا بالإقليمية أصبح يتخرج من مهاجمة فكرة القومية العربية ولا يتجرأ على

مناهضتها إلا سرا ومن خلف ستار وباختلاق العراقيل في شكل تساؤلات لبلة الرأي العام والتخويف منها بين الناس ، ولهذا فإن الدعوة لم تعد في حاجة من الوجدوين إلى التماذى فى التبشير بها وإلا كانوا كالواعظ الذى ينصح جمهور المصلين بالضيام دون أن يفطن إلى أنهم لولا إيمانهم به فرضا ما كانوا صائمين ، ولقد تخطت الدعوة القومية فيما أرى مرحلة التبشير وأصبحت اليوم فى حاجة أشد إلى بحث وسائل التطبيق وتنفيذ الفكرة على الصعيد العملى ومن غير أن تتعرض التجربة لنكسات قد تحدث ردة تكون أخطر على الدعوة وعلى الجماهير العربية من مؤامرات القوى المضادة جميعا .



إن تنفيذ الفكرة يقتضى من الداعية أسلوبا فى طرحها يختلف كليا عن ذلك الذى يحتاجه الباحث عن إمكانيات تطبيقها الفعلى ، فالأول غايته الإقناع بها من طريق إبراز المحاسن والتركيز على الفوائد السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتى النفسية مع نفى كل ما يمكن أن يسبب الشك فيها أو النفور منها تمسكا بالإحساس الوطنى الإقليمى والخوف من فقدان بعض الامتيازات أو المميزات ، والداعية هنا محق فى أن يفعل هذا وهو كذلك مطالب به فى نفس الوقت ، أما الثانى فإنه إن سلك نفس الأسلوب وسار على نفس المنوال فقد يكون خدع نفسه وخدع الناس معه وكان بذلك معول هدم أكثر منه داعية بناء ، ولهذا فإن على داعية الوحدة فى شكلها الجديد أى فى مرحلة التخطيط والتطبيق أن يدرس واقع العالم العربى وكل تناقضاته وتعقيداته وأن يركّز على تلك المسائل التى تعوق قيام الوحدة وتلك التى ربما تسبب لها مشاكل خطيرة بعد قيامها (كما حدث فى السابق) ومن المستحسن أو الواجب أن تثار وأن تبحث بعمق تلك المسائل فى محاولة البحث لها عن حلول جذرية منذ البداية ، وباختصار شديد فإن على داعية الوحدة فى المرحلة الجديدة هذه أن يسلك بها الطريق الملائم لها فى تطورها الذى دخلته أو وصلت إليه ، على اعتبار أن العالم قد تغير كثيرا ، وهذا التغير يفرض

ويفترض مواقف جديدة وأساليب أيضا جديدة ومقبولة ، وإذا نحن لم نأخذ في الحسبان تلك التغيرات وتبعاتها تلك المصالح الإقليمية والدولية التي قد تتأثر بوحدة الأمة (على الأقل من منظور غير عربي) فإننا سوف نصطدم بصخرة صلداء لا يمكننا تعديها بل ربما أعادتنا إلى وضع التشرذم والتقاتل (مثلما يحدث الآن في العراق وفلسطين والسودان ولبنان والصحراء الغربية والصومال مع الأسف من تقاتل ، والبلدان العربية الأخرى من تشرذم الخ) والمقصود من هذا تقدير مصالح الآخرين وفي حيز ولو ضيق نسبيا وتقدير مصالحنا الوطنية والقومية ذلك أن الوطن العربي بالتحديد الجغرافي المعروف يشغل مساحات كبيرة جداً من جنوب غرب آسيا وسائر الشمال الإفريقي بامتداد الجنوب وسطا وشرقا وإلى حد ما غربا حتى يتصل بمنطقة السافانا وشمال هضاب الحبشة ، وهكذا فإن مساحته الكلية تربو على اثني عشر مليوناً من الكيلومترات المربعة ويضم في داخله مجموعات من البشر ليست كلها من أصل واحد علما بأن حالة الوطن العربي هذه ليست الفريدة أو الشاذة إذ لا يوجد في العالم تقريبا بلد يضم أناس من جنس واحد صاف أو أصل واحد حتى بين تلك الأجناس الصفراء مثل الصين ، على أن الشعب الصيني يغلب عليه الجنس الهاني ولكنه ليس في مجمله من ذلك الجنس ويذكر أن حوالي ٩٤% منه ينتمون إلى قبيلة الهان وهذه في الواقع ربما أكثر نسبة في العالم وبين كل الشعوب ، وهؤلاء البشر في الوطن العربي كانوا وما زالوا في سائر مجتمعاتهم يتحدثون اللغة العربية وإن وجدت لبعضها لهجات خاصة بها ، وشعوب هذا الوطن الكبير وإن كانت تدين في أغلبها بالدين الإسلامي فإن فيها جماعات تعتنق المسيحية دينا وجماعات أخرى ماتزال على وثنيها الأولى ولا بد لنا لهذا وذاك من مراعاة كل ذلك ونحن ندعو إلى قيام وحدة تشمل كل الوطن العربي ، ولقد سبق أن تعرضت هذه المناطق وهؤلاء الناس وما زالت تتعرض لتأثير فكري حضاري من مصادر مختلفة الجذور والبيئات ، ونتج عن ذلك التأثير اعتناق قطاعات واسعة من الأمة العربية مذاهب ومعتقدات فلسفية واقتصادية وسياسية شتى نبتت وترعرعت واستكملت تكوينها في الغرب والشرق الأوربيين .



ولقد ربط بعض دعاة الوحدة العربية بين ما اعتنقوا وبين الدعوة للوحدة العربية فكان ذلك عاملاً آخر من عوامل التعقيد الذي عاق ويعوق تحقيقها حتى الآن ، ويعيش العالم العربي في وحدات إقليمية يشعر كل من فيها بكيانه المستقل سياسياً واقتصادياً واجتماعياً في حين تتقارب إمكانيات كل منها ثقافياً وهي ليست متقاربة في تعدادها السكاني ولا بد أن يشعر سكان كل إقليم من هذه الأقاليم بالذاتية الصغرى له ، ومن الطبيعي أن يخشى الحكام في هذه الأقاليم ، وهم بطبيعة الحال مسؤولون أمام شعوبهم عن سلامة تلك الذاتية أو على الأقل هكذا يعتقدون وبالتالي يخشون الانصهار في الوحدة الكبرى حتى إن تحدثوا أو فاوضوا ، وعلى الرغم من إيمانهم بالقومية وبضرورة قيام الوحدة فإنهم إنما ينطلقون من مضمون تلك الذاتية الصغرى بسبب ما تأصل في أعماقهم من المجتمع الإقليمي الذي عاشوا وترعرعوا فيه ، (ويذكر مؤلف هذا الكتاب أحداث وظروف ومحادثات الوحدة بين بلاده ومصر خلال السبعينيات وكيف أن كل هذه العراقيل قد ظهرت جلية وكانت سبباً في عرقلة مشروع الوحدة بين البلدين وما زالت حتى الآن وذلك هو الشيء الذي يجعله ينبه إلى تلك العقبات وهو يقدم لكتاب يتناول : حياة رائد القومية العربية الرئيس جمال عبدالناصر ويأمل تداركها مستقبلاً) ومن المؤكد أنه لا يتعالى عن هذا الواقع إلا قلة قليلة وهي لندرتها في العالم العربي لا يفهمها الآخرون ، ففي الواقع المعيشي الاجتماعي والنفسي للأفراد والجماعات يظهر للوهلة الأولى أنه من غير الممكن أن تقبل مجموعة ما الانصهار في مجموعة أكبر منها وربما أفقر ومن الوهم كذلك أن تنطلق الدعوات من خلال الأمل وحده مهما كان كبيراً وأن يتم التغاضي عن الواقع الذي يشد المجتمعات إليه (صغيرة كانت أو كبيرة غنية أو فقيرة) وهذا عامل آخر يعيق تحقيق الوحدة العربية الكبرى يضاف إلى سواه ويحتاج إلى كثير من التدبر ولا نقول التضحية لأن التضحية لابد أن تنهياً لها ظروفها المقنعة ، إن العالم العربي يعيش اليوم في دوامة تتجاذبه تيارات فكرية ومذاهب ودعوات متباينة وعديدة في ظل التطور الإعلامي والعلمي والتكنولوجي السريع (الفضائيات والإنترنت والفاكسات والهواتف المنقولة مسموعة ومرئية

الخ (مما جعله في المجلد قلقا لا يستقر على حال ، أفراده يعيشون في ضياع وتششت فكري ، ومجتمعاته تتحرك في أكثر من اتجاه ينقصها التصميم والإدراك الحقيقي لما يجب أن يكون ، وحكوماته تتصارع فيما بينها إقليميا على أمور لا تحقق للأمة العربية شيئا كأمة ذات تاريخ حافل بالأمجاد عندما كانت موحدة الكيان تشع منجزاتها على عالم ذلك العصر ، هذه هي الصورة الحقيقية التي نرى العالم العربي عليها الآن من غير إطار ولا رتوش أو تزويق ، وهي صورة واقعية وليست نظرة متشائمة متحاملة أو ناقمة على العرب والواقع العربي ، ذلك أنها في حقيقتها صورة حية متحركة تعكس التفاعلات العنيفة التي تجتاح هذا الجزء من العالم وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على بداية يقظة حقيقية ورغبة أكيدة في العمل من أجل تحقيق الذات ، وهذه اليقظة جاءت من سبات عميق ران على شعوب الأمة العربية دهرا انعدمت فيه الحركة الفكرية وتلاشى فيه الإحساس بالذات السياسية نتيجة تسلط الغير على الحكم (وهذا الغير قد يكون أجنبيا أو محليا مغروسا مأجورا) واستمرت فيه الأمة بسبب الجهل والسيطرة مع السلبية والتواكل والكسل وهي حالة واقعة أوجدها وأذكأها حين يقظة العرب وتزاحم الحضارات وتصادم الثقافات وتضاد المذاهب وتباين العقائد وتعاكس الاتجاهات وهو الوضع الذي تعيشه الأمة العربية نتيجة توزع الوطن الواحد إلى أقاليم عدة وظهور حكومات في تلك الأقاليم أوجدت لها كيانات مستقلة وذاتيات متميزة رسخت الروح الإقليمية في نفوس سكانها بحيث أصبح مفهوم الوطن محددا بحدود الإقليم ، وفي هذا الخضم من المذاهب والعقائد والاتجاهات الفكرية والنزعات الإقليمية تنطلق الدعوة إلى الوحدة العربية فتجاذبها شتى الاتجاهات وتضفي عليها المذاهب العقائدية من عندها مفاهيم خاصة وتقيدها باشتراطات معينة وتقف منها الطوائف الدينية التي تمثل الأغلبية بمعتقداتها في داخل الوطن العربي كما يقف منها ذوو الجنس المختلف في الأمة العربية مواقف معينة تتفق ومصالحهم فيها أو ضدها وتتخذ الحكومات العربية اتجاهات سياسات مختلفة متباينة بسبب أوضاعها الداخلية وعلاقاتها الخارجية الموجهة لها والمتحكمة فيها فتبدو الدعوة إلى الوحدة

العربية بهذا ولكل هذا (وهي الحقيقة السهلة البسيطة السافرة) فكرة غامضة ينقصها الوضوح وتترأى للبعض وكأنها خيال أو أمل بعيد صعب التحقيق ، ونصل بهذا إلى أنه إذا كانت اللغة هي الوعاء الحاوي لفكرة الأمة فإن ألفاظها هي مرآتها العاكسة ، ولذا فإن الحديث عن الفكر القومي إنما هو رهن بوضوح المعاني الدقيقة المتصلة به كمفهوم والمرتبطة به في أي من تلك اللغات وهذا الأمر يكشف لنا كما سنرى عن اختلاف جوهري بين معنى القومية في المفهومين العربي والأوربي إذا نحن قمنا بهذه الدراسة اللفظية المقارنة لتحديد المفاهيم لغويا وفكريا لارتباطه الشديد بالفكرة التي نعتنقها وضرورة تنقيته من الشوائب التي تلتصق به نتيجة ما دخل عليه من طريق الترجمة وأصحاب الفكر الشديد التأثير بالمفاهيم الأوربية وحدها أو مفاهيم الذين يعيشون مشدودين إلى فكر التغريب أو ما غرسه المستشرقون الأوربيون في ثنايا كتب أحداث التاريخ ، وأصطلاح القومية في حد ذاته جديد على اللغة العربية وهو يبدو في الفكر العربي المعاصر واضحا لا غموض فيه والواقع أنه ليس كذلك ، والباحث في معنى اصطلاح القومية بتعمق وعلى أساس دراسة مقارنة بين ما يقابل هذا المصطلح في اللغات الأخرى لا يجده كذلك ، ولا سيما إذا ما ربط بينه وبين مفردات تلك اللغات ، إن الأمة غير القوم سواء في أصلها اللغوي أو في مدلولها ذلك أن الأمة في اللغة العربية متعددة المعاني حيث ورد في القرآن الكريم لهذه الكلمة عدة معاني مثلا ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ (سورة النحل : ١٢٠) وكذلك نرى في كلمة القومية ذاتها إذ نجد أن القومية من قوم في اللغة العربية ، والقوم تعبير يطلق على الجماعة من الناس كثرُوا أو قَلُوا ، وقوم الرجل هم أقرباؤه الذين يجتمعون معه في أصل واحد ، وبهذا المعنى أصبحت القومية في اللغة العربية هي المبدأ الذي يجمع العرب كقوم على أهداف مشتركة وغايات سياسية محددة ، ولفظ قومية يأتي في المعاجم اللغوية الحديثة مقابلا في اللغة الإنجليزية مثلا لكلمة (ناشيوناليزم) وهذه جاءت من كلمة (نيشن) والكلمة الثانية هذه تقابلها في اللغة العربية لفظة (الأمة)

وليست اللفظة المشتقة من (القوم أو القومية) وهذه الترجمة هي ما اتفق عليه اللغويون العرب لأن الأصل المنسوب إليه هو الأمم وليس الأمة ولا يوجد مثل هذا في قوم أو قومية، وضرورة أخرى فإنه لا يمكن أن يقال (قومه) لأن المعنى سيصبح حيثئذ غير المقصود من الكلمة التي استعيرت وهي (أمة) وكلمة قوم أو قومية لا تعطى المدلول المرادف لكلمة (نيشن) ولذا فلا مندوحة من استخدام الأصلين، القومية في مقابل (ناشيوناليزم) والأمة في مقابل (نيشن) وللدلالة على جماعة قليلة من الناس جاء في القرآن الكريم ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾ (سورة القصص: ٢٣) كذلك للدلالة على الشعب أو القوم جاء في القرآن الكريم ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ (سورة الرعد: ٣٠) وللدلالة على مجموعة الشعوب أو الأقوام التي اعتنقت ديننا واحداً أو آمنت بعقيدة واحدة جاء في القرآن الكريم ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٢) وجاء في القرآن الكريم من أجل الدلالة على الجنس الواحد ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨) ثم ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ (سورة الأعراف: ١٦٠) أما الدلالة على العقيدة أو التقاليد أو العادات فقد نص القرآن الكريم ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾ (سورة الزخرف: ٢٣) وتأتي الدلالة على الزمن بنص القرآن الكريم ﴿وَلَكِنَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مُّعْدُوذَةٍ﴾ (سورة هود: ٨) كذلك ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (سورة يوسف: ٤٥) هذه المعاني والدلالات جاءت في القرآن الكريم ولقد رأينا أن من معانيها ما يقابل كلمة قوم وترجمة كلمة (نيشن) قد لا يقصد بها معنى الأمة وإنما قد يعنى الدولة وهذا معنى تتضمنه كلمة (نيشن) في اللغة الإنجليزية بينما لا يعنى كلمة قوم، وإضافة إلى

هذا فإن استخدام المترجم العربي لكلمة أمة في مقابل كلمة نيشن وكلمة قومية في مقابل كلمة ناشيوناليزم كان لأكثر من ضرورة فبالنسبة إلى القوم وقومى ممكنة مع انعدام اللبس بغيره من المعانى بينما لو نسب الأمة لقييل (أمى) وهذا يوقع في الالتباس بالنسبة إلى (الأمية) أى الجهل وعدم القدرة على القراءة والكتابة كما أنه يعد خروجاً على القاعدة اللغوية ، وكذلك لو قيل أمية فسوف يحدث الالتباس في مفهوم أشمل لأن الأصل المنسوب إليه هو الأمم وليس الأمة ولا يوجد مثل هذا في قوم أو قومية، وضرورة أخرى فإنه لا يمكن لغة أن يقال قومية لأن المعنى سيصبح حينئذ غير المقصود من الكلمة التى أريدت وهى أمة ، وكلمة قوم أو قومية لا تعطى المدلول المرادف لكلمة نيشن ولذلك فلا مناص من استخدام الأصلين في مقابل ناشيوناليزم ونيشن وهذا الأمر يشكل أول تعقيد في مفهوم القومية لدى الباحث العربي فالقومية عند الأوربي تحمل معنى الدولة بينما القومية في اللغة العربية لا تحمل هكذا معنى ولا تدل عليه وتلك تمثل إشكاليات في الفهم وفي الترجمة ولا بد من التأكيد على أن القومية تعنى الوحدة العربية أى الدولة العربية الواحدة ، هكذا هو مفهوم القومية عندنا نحن العرب أهل لغة الضاد وهو بمفهوم آخر لدى الأقوام واللغات الأخرى ، وهذه تعنى أن القومية في مفهومنا هى الوحدة، أى الوطن الواحد والدولة الواحدة وما عدا ذلك يصبح ضرباً من ضروب تضییع الوقت ولغوا تردد صداه الوديان ، ولكن من خلال تجارب سابقة قلنا إنه علينا أن نحدد كيف يمكن أن تكون هذه الدولة الواحدة والأمة الواحدة ، ومن البديهي أن نقول : إننا أصحاب لغة واحدة وأهل أرض واحدة وتاريخ واحد وربما أمل مشترك فرق بيننا الاستعمار في الأرض وترسخت لدينا كيانات أسميناها دولا وصار المواطنون يتسمون بأسماء تلك الكيانات ، ومن هنا فإن البحث لا بد أن يتناول الكيان والمواطن ، وتتواتر علينا عدة أسئلة نأخذ منها ثلاثة :

أولاً : هل تمحى الحدود وتنتهى الكيانات بقرار وجرة قلم ؟

ثانياً : هل ينتهى انتماء وارتباط الإنسان بذلك الكيان أو البلد بمجرد فتح الحدود وإلغاء الإجراءات ؟

ثالثاً : ما الذى سيحدث بفتح الحدود وإلغاء الإجراءات البوليسية وغيرها ؟



نذكر أن الحدود قد وجدت بجرة قلم وإن لم يكن بأيدينا وإنما بيد الإنجليزى (بيرسى كوكس سنة ١٩٢٢ م) أى عندما خط بقلم أحمر كان في يده الحدود بين العراق والكويت ، ومنذ إذ صار لكل مغامر غربى أن يخط أى حدود وأى مسافات وأن يقسم ويمنح أو يمنع كيفما شاء أو شاءت له رغبة بلاده (ومن المعروف أن سياسة خلط واقسم في أى مكان وفى ظل أى حكم إنما الغرض منها خلق المشاكل والعداوات) ومع الحدود التى اختطوها نصّبوا حكاما (ملوك ورؤساء وأمراء ومشايخ وسلاطين الخ) وهؤلاء فرضوا إجراءات وقيودا أشد وأقسى في ترسيخ تلك الحدود باستعمال الشرطة والجيش وكل وسائل المنع والإيقاف ثم عملوا أعلاما وأناشيد وإذاعات لإبلاغ القاصى والدانى بالأسماء والألقاب والنعوت ، ولأن هؤلاء الحكام جاء بهم الغرب الاستعماري فقد صاروا موالين له فإذا لم يشركوه معهم في البلاد على شكل شركات ومشاريع وقواعد ظلوا معتمدين دائما على نجدة لهم كلما أحسّوا بأن تلك الحدود قد تمس أو تواجه أى تهديد ، وبطبيعة الحال فإن تلك الحدود قد ضمت كيانات متمثلة في النظم والألقاب والعائلات والقبائل والمصالح ومن هنا فهى لابد أن تبقى ولو على جماجم كل الناس ولا يجب تحديها أو تعديها إلا باتفاق أو وفاق وهذا لا يمكن أن يحدث حتى لو تحدّثوا عنه ، وما يجرى في العراق الآن هو نفس ما كان قد عملة الإنجليزى المدعو (بيرسى كوكس سنة ١٩٢٢ م) (وإن كان الذى يعمل له الآن أمريكى اسمه (بوش الابن) ولقد سمعت هذا اليوم وأنا اكتب هذه المقدمة أن مجلس الشيوخ الأمريكى قد صوت على تقسيم العراق إلى ثلاث (قطع) سوف تصبح بعد زمن قد لا يطول ثلاث دول !! وقالوا إن قرار هذا المجلس غير ملزم ، وهم بهذا يخادعون .. هذا أولا .

وثانيا: فإن المواطن العربى ذكراً كان أو أنثى صغيراً أو كبيراً صار منتمياً لهذا الكيان ومرتبطة به بوهم الحفاظ على مصالحه الخاصة أولا وبسبب ما فرض عليه من إجراءات من طرف الكيانات الأخرى قريبة أو بعيدة ثانيا ، وحتى لو

تحت أمامه بعض الحدود فهو أمام أولئك الناس المتتمين للبلد الذي فتح حدوده يعد أجنبيا بالواقع والقانون ويمكن طرده في أى وقت أو حتى حبسه ، أما الذي يحدث بفتح الحدود وإلغاء الإجراءات دون احتياط أو تنظيم وعناية فهو الفوضى وانعدام الأمن وانتشار المرض والفساد بمعنى أنه حسب التعبير اللغوى العربى (اختلاط الحابل بالنابل) على اعتبار أنه إجراء شاذ لمواجهة وضع شاذ وبذلك فإن النتيجة عكسية مؤثرة على مطلب الوحدة التى تمثل القوة والأمن وتوفير الفرص المتساوية لكل أبناء الوطن الواحد والتوزيع العادل للدخل القومى على امتداد الوطن العربى ، وعلى ضوء ما يتوقع في حالة الوضع الشاذ الذي قلنا إنه يتمثل في فتح الحدود ، نسأل ، هل نعارض الوحدة أو هل نكفر بها ونقاوم حتى مجرد التفكير فيها لا باعتبارها حاجسا وأملا وإنما ضرر وألم ؟ الجواب بالتأكيد ، لا ، إذ لا أحد يمكن أن يلغى ذاته ويتنكر لأمتة ووطنه الكبير ، وهنا فإن سبلا أخرى لا بد أن تتبع ، كأن نقول :

أولا : نحن جميعا عرب وندرك غايتنا ونعى قوميتنا (وهما افتراضا ، الاستقلال والوحدة) ولكن هذه يمكن أن يقال أنها بديهية ولا جديد فيها لأن الدول قائمة والحدود باقية ، إلا أنني أعتقد أن الحدود تمثل القطر الذي يجب اعتباره خصوصية داخل الإطار القومى الواحد ، بمعنى أنه أحد أقطار الوطن الكبير ، والذين يقيمون فيه مواطنون عرب ولاءهم الوطنى لا بد أن يكون متمما للولاء القومى لا متناقضا معه ، ذلك أن الولاء الوطنى عامل نفسى ومصلحى ، وعندما يجد الإنسان أن مصلحته مصانة ولا تضارب بل تتعزز فإن ذلك يجعله نفسيا قابلا للوضع الجديد والأشمل ليس فقط على مستوى الفرد وإنما على مستوى الكل ، كأن تتقدم الخدمات الصحية وينمو الإنتاج الزراعى والصناعى ويتوطد الأمن والاستقرار وينهض مستوى التعليم ويرقى البحث العلمى ، بحيث يمثل هذا الوطن الواحد الكبير ركنا بارزا في التقدم العالمى (كما كانت أمتنا العربية في السابق ، الخ) أى أن المواطن حيثئذ لا بد أن يحس بمزايا وفوائد الوحدة ليس

كشعار فقط ولا لموقف سياسى بحث وإنما في معاشه اليومى ومصالحه الآنية وسمعته في الخارج بين دول وشعوب العالم كمواطن من بلد يساهم في رفاهية العالم وتقدمه ، وعادة ما تمثل المصلحة الوطنية أو الشخصية دافع قوى للقبول بأى وضع جديد وربما ذلك القول الذي يشبه (النكتة) يمثل خير دليل على ما نقول ، إذ يذكر أن سودانيا كان يسير في مظاهرة مؤيدة للوحدة وكان يهتف قائلا (مصر والسودان هته واهده) وفجأة اكتشف أن محفظة نقوده قد فقدت فصار يهتف قائلا (مصر والسودان هتتين) كذلك فإن أولئك الذين تأمروا على أول وحدة عربية في التاريخ العربي المعاصر وقاموا بفصل سوريا عن مصر لم يجدوا ما يرروا به تلك الجريمة إلا القول : بأن مصالح المواطنين السوريين قد أضررت وأن المصريين سيطروا على الإقليم الشمالى (أى على سوريا) مع أنه لم يكن خافيا على أحد مقدار الفائدة التى جناها ذلك القطر من الوحدة وبها ..

ثانيا : أن يحدث التوازن في النمو بحيث لا يكون نمو بلد على حساب الآخر ولا يحرم مجتمع قطر بمنح القطر الآخر في ظل الوحدة إلا ما زاد عن هذا القطر ليتنفع به ذاك وبموافقة أهله علنا ورسميا ..

ثالثا : أن تشرع قوانين وحدوية مع الإبقاء على القوانين السارية لبعض الوقت وإلى أن يحس الناس بفوائد الوحدة والاندماج على أن توحد مناهج التعليم والعقائد العسكرية ويؤخذ بأفضلها تدريجيا ..

رابعا : أن يسمح بالتملك والإقامة والعمل وأن توحد الجوازات والبطاقات الشخصية ويتاح التنقل بحرية بين الأقطار دون تعسف في المنع أو الإجبار على الانتقال كذلك لا يجب إحداث تغييرات مفاجئة في الوضع القائم لدى أى قطر من أقطار الوحدة خصوصا في الجانب الاقتصادى أو الوظيفى بالنسبة للناس وعلينا أن نستفيد من تجاربنا السابقة ذلك أن فرض القوانين الاشتراكية على سوريا بعد الوحدة (رغم كل مزايا تلك القوانين وفوائدها) كان أحد الأسباب الذي دفع بالمتأمرين إلى تنفيذ مؤامرتهم بنجاح حيث لا قوا بعض التأيد وكذلك تكليف

المشير عبدالحكيم عامر رحمه الله بإدارة ذلك الإقليم وهو (لا يعرف عنه شيئا) ونقل عبدالحميد السراج الذي كان قد اتهم بالتسلط والدكتاتورية في سوريا ربما فقط لأنه كان متشددا في أداء واجبه القومي بالاعتماد على أجهزة الأمن وما كان من الرئيس جمال عبدالناصر إلا أن نقله من سوريا ليقيم في مصر وتكليفه بمهام أخرى وربما كان عبدالناصر بذلك يسترضى بعض الأطراف في الإقليم الشمالي ، أما عبدالحكيم عامر فقليل إنه كان كسولا غير مدرك للمصلحة العامة في ذلك الإقليم المضطرب دائما وربما يصدق على هذا الوضع القول الشائع (أن الواجب أساس الأخلاق والمصلحة عماد السياسة) وبين السراج وعبدالحكيم عامر ضاع الواجب والمصلحة في سوريا ، كذلك يذكر أن الرئيس شكرى القوتلى عندما وقع مع الرئيس عبدالناصر على وحدة البلدين قال لعبدالناصر (الآن سلمتك خمسة ملايين زعيم) وعلى أى حال فإن انفصال سوريا أو فصلها قد فتح ثغرة كانت سببا في الكارثة التى مازلنا نعانى منها ..

هذه لمحات سريعة وربما هناك أمور أخرى ساعدت على إفشال تلك الوحدة التى كانت أملا يدغدغ المشاعر في تحققه وأدمى القلوب عند فشله ، وبطبيعته الحال لا بد أن هناك قوى خارجية كان يهمها ويمثل شغلها الشاغل إفشال الوحدة ، وأذكر أننى قرأت في مذكرات رئيس وزراء إسرائيل (بن غوريون) قولا يوحى بأنهم كانوا حجب الزاوية في مؤامرة إفشال الوحدة وشن الحروب على مصر جمال عبدالناصر ، قال (إن إسرائيل لا يمكن لها أن تسمح بظهور محمد آخر في شخص عبدالناصر كى يوحد العرب) والحقيقة أن تأمر أولئك النفر من الضباط السوريين ما كان يمكن أن ينجح لو لم يجد في الأرض خصوبة لذلك التأمر ولا بد أن التاريخ سيلعنهم وكذلك كل العرب كما لعنوا (أبورغال دليل أبرهة قبل الإسلام) وكما صاروا يلعنون الشيطان بعد الإسلام ، أما أمتنا العربية بكل ما وقع عليها وما أحاط بها من عنت وتآمر واستعمار وغزوات كانت تقاتل متحدة ضد الخطر على كيائها ، فقد قاتل المسيحيون المصريون مع جيش عمر بن العاص وقاتل المسيحيون الغساسنة في سوريا ضد نصارى الروم ، وكان المسلمون متسامحون حتى في نعت تلك الغزوات الغربية فقالوا إنها غزوات الفرنجة كما

جاء في كتاب (أسامة بن منذر) المعنون (الاعتبار) بينما كان النصارى يقولون: إنها الحرب الصليبية يقودها البابوات وأول من قال عنها أنها حرب صليبية كان: (مكسيموس مورنورد سنة ١٠٩٩م) وموقف أولئك وهؤلاء البابوات لم يتغير أبداً، منذ ذلك الوقت إلى البابا الحالي (بيندوتكس الرابع عشر) وتبقى الوحدة العربية الكاملة هاجسا وأملا إلى أن تتحقق بإذن الله وعزائم الرجال، ولأنها كانت كذلك بالنسبة لجمال عبدالناصر أردنا أن يكون هذا الكتاب سيرة حياة هذا الرجل الذي أعطى بعد الله العروبة الضياء، وأذكر أن جزءا مما سيرد في الكتاب إنما هو من خلال علاقة شخصية مع هذا الزعيم قبل أن يتوفاه خالقه عن عمر يناهز الثانية والخمسين سنة ناقصة ثمانية أشهر وتسعة أيام وساعات ..



وأنا أجزم وعن يقين أن جمال عبدالناصر ستخلد ذكراه كل أعماله ومنجزاته ومواقفه النضالية في الداخل والخارج كما خلّد التاريخ الكثير من الزعماء والرواد في الفكر والأدب والسياسة والعلم والنضال الثورى، رجالات أفذاذ مثل (غاريبالدى في إيطاليا وبسمارك في ألمانيا وماو تسى تونج في الصين، الذين حققوا وحدة شعوب بلدانهم) ومثل (ديجول في فرنسا وتيتو في يوغسلافيا وبن بيللا في الجزائر وعمر المختار في ليبيا الذين مثّلوا قدرة وإرادة شعوبهم في مقاومة العدوان وتحرير بلدانهم، وغير هؤلاء كثير) وأرى بكل تجرد وموضوعية أن جمال عبدالناصر يقف في مستوى عمر بن عبدالعزيز في الطهارة ونقاء السريرة ونظافة اليد، ومثل صلاح الدين في النضال من أجل العزة والكرامة المتمثلة في الوحدة العربية مع بعض الفوارق التي يجب أن يحتكم إليها في سياقها التاريخى، أى الزمان والمكان والظروف والأدوات الخ، وأقول إننى عندما أكتب أعتمد غالبا على ما عاشرت وشاهدت وسمعت عن قرب خلال مرحلة هامة من حياة أمتنا جرت فيها أحداث مثيرة ومدوية محليا وإقليميا وعالميا وهى جزء من تاريخ الماضى القريب، وأدرك بداية أنه لا أحد معصوم من الخطأ، ومن تلك الأحداث التى عايشتها أروى تفاصيلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية لأننى شغلت خلالها مناصب سياسية وتنفيذية ودبلوماسية متمسكا بعقيدة

فكرية ودينية، ملتزما بمصلحة وطنية وقومية من أعماقي أرى في مخالفتها كفرا، ولهذا عندما قررت أن أكتب عن جمال عبدالناصر وعهده صممت أن ألتزم الحقيقة والصدق تاركا الحكم للقارئ الكريم على فترة عاشها جمال عبدالناصر وعشنا أغلبها معه ابتداء من ١٥ يناير ١٩١٨م إلى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م، وأخلص إلى القول في هذه المقدمة أن هناك ما لعبدالناصر وهناك ما عليه، وأعتقد أنه لا مؤيد أو معارض عليها خصوصا بعد أن توفي هذا الرجل وأصبح جزءا من تاريخ الشعب المصري، ولا بد أنه يحوز مكانا بارزا في هذا التاريخ، وما لعبدالناصر أو عليه يتمثل في الأمور التالية من وجهة نظري كمعاصر لفترة حكمه وقريبا منه أحيانا :

- ١- كان جمال عبدالناصر أول رئيس مصري حقيقى ولم يكن هناك قبله (خلال آلاف السنين) إلا حكاما من الفراعنة والأباطرة والخلفاء والأتراك ..
- ٢- وكان أول حاكم يلتفت حوله المساكين والفقراء من الفلاحين والعمال في مصر وينحاز إليهم بالكامل حيث كان يدغدغ مشاعرهم ويعبر عن إحساساتهم وآمالهم وهم غالبية الشعب المصري .
- ٣- وكان أول حاكم يحظى بالتمجيد والأضواء والتهنئ حتى تبج الحناجر عن نية وإخلاص على مدى قرابة عقدين من الزمان رغم كل محاولات الإساءة والتشكيك من طرف قوى عالمية وحتى خلال هزيمة جيشه في حرب سنة ١٩٦٧م وتلك أول مرة في التاريخ أن تزيد الهزيمة رفعة لحاكم كان مسؤولا عنها (ربما) لأنه أعلن تحمل المسؤولية كاملة بشجاعة وعلنا أو لأن شعبه كان يرى فيه القادر على المواجهة والنهوض من الكبوة .
- ٤- وكان أول وآخر حاكم عربى طاهر السريرة نقى الضمير نظيف اليد صادق الإيمان ولم ينل شيئا من متاع الدنيا على عكس غيره ممن ينهبون ثروات بلادهم ويعيثون فسادا في الأرض .
- ٥- وكان أول حاكم ألهم مشاعر الجماهير العربية في كل مكان من المحيط الى الخليج عندما حقق أول وحدة عربية في التاريخ المعاصر .
- ٦- وكان أول حاكم في العالم الثالث يقول لا للاستعمار ، لا للأحلاف ، ولا للسيطرة الأجنبية، وهو أول من تجرأ على التعامل مع الاتحاد السوفيتى رغم أنف الإمبريالية ، وأول من طرق

بعنفوان ودراية مجالات التصنيع بكل أنواعه ومستوياته (التسلح بمختلف أنواعه) من الكتلة الشرقية وعلى رأسها الاتحادى السوفيتى رغم الحصار الأمريكى وفرض منع بيع القطن المصرى والتهديد بفرض حصار بحرى وجوى على بلاده .

٧- وكان أول حاكم يقول (ارفع رأسك ياأخى فقد زال عهد الظلم والطغيان) وبذلك حرر الفلاح المصرى من الإقطاع وجعل الملايين يملكون الأرض التى كانوا خدما فيها فى ظل الإقطاع .

٨- وأول حاكم جعل مداخل المصانع ترتفع متشابكة كسنايل زرع خصيب فى كل أرض الكنانة تديرها أيدي الفنيين والعلماء والمهندسين والعمال المصريين بجدارة وقد بلغ عددهم قرابة سبعة ملايين .

٩- وكان أول حاكم تحدى غطرسة الولايات المتحدة الأمريكية ومن يقف خلفها عندما أمم قناة السويس من أجل إقامة السد العالى العظيم الذى وفر لمصر كل أسباب الاستقرار والتقدم من كهرباء وزيادة فى الرقعة الزراعية رغم الحرب التى شنت على مصر وعليه بسببها والتى ظهر منها منتصرا (ولو سياسيا) عندما وقف على منبر الأزهر الشريف ليعلن (حنحارب) وكان الشعب المصرى لا يحصل على أكثر من ثلاثة ملايين دولار سنويا من ريع القناة التى كانت تحتكرها بريطانيا وغيرها فصار الآن يديرها بواسطة أبنائه ويحصل منها على بلايين الدولارات إضافة الى فرض سيادته الوطنية على قناته وأرضه (١) كما أنجز مشروع السد العالى الذى يقف الآن شامخا كعنوان على العزة والكرامة .

١٠- وكان أول حاكم ينحاز إلى صفوف العمال والفلاحين عندما منع بالقانون الفصل التعسفى وجعل للعمال نصيبا فى الأرباح وحققا فى الإدارة وعضوية مجالس الشركات والمؤسسات وقرر مجانية التعليم من الابتدائى إلى الجامعى ومنع أسلوب الفوارق الاجتماعية التى كانت تحول دون ابن الفلاح والعامل من دخول الكليات والجامعات وقرر حق العمل لكل خريج الخ ..



(١) كان دخل القناة هذه السنة ٢٠٠٧م قد بلغ أربعة بلايين دولار وسبعمائة مليون وقد أعلن ذلك رسمياً يوم أمس الموافق (٢٩ يوليو) من خلال الإعلام المصرى .

لقد كان جمال عبدالناصر زعيما وقائدا ومرشدا نزيها متفانيا وكان عظيما في صوابه وفي خطئه (وجل من لا يخطئ) ولا يمكن القول أن من يعمل لا يخطئ ومن يحاط بأعوان لا يستغلون ، كذلك لا يمكننا أن نقول : أن عبدالناصر لم يخطئ وأن أجهزته لم تتجاوز القانون بل إنها كانت هي القانون ، ولكن كيف كانت تلك الأخطاء ولماذا ؟ ..

١- لقد كانت الإعدامات خطأ في مسيرة الثورة رغم أنها في البداية كانت انقلابا أيضا وما حدث مع الملك فاروق أقوى دليل على الابتعاد عن إراقة الدماء .

٢- ولقد كانت معاملة زعامات البلاد (حزيين وسياسيين) على شكل خط المسطرة خطأ ففي تاريخ البعض منهم أعمال صادقة خيرة .

٣- وكان وضع كل الخيوط في يد جند من العسكر (ضباط بمختلف الرتب) خطأ رغم أدوارهم في التغيير .

٤- وكان العمل السياسي بحزب واحد وحيد (هيئة التحرير ، الاتحاد القومي ، الاتحاد الاشتراكي) رغم أهمية المراحل التي جاءت فيها خطأ لأن الحزب الواحد الذي تنشئه الحكومة لا يجمع إلا المصنفين والانتهازيين غالبا .

٥- وكان ضرب الإخوان المسلمين بالجملة (رغم ما حدث من بعضهم) خطأ بل وأكبر من الخطأ إعدام كبار السن منهم مهما كانت الأسباب كحالة الشيخ (سيد قطب) .

٦- وكانت محاولة تطبيق المنهج الاشتراكي بواسطة إداريين انتفاعيين وضرب كل عناصر اليسار خطأ مهما كانت شطحاتهم .

٧- وكان تطبيق الإصلاح الزراعي بعد الوحدة في سوريا دون معرفة لوضع الناس وعقلياتهم وقيم مجتمعاتهم وظروف حياتهم خطأ ممت قضي على أمل عظيم .

٨- وكان استئساد أجهزة المباحث والمخابرات وتجاوز رجال هذه الأجهزة لكل القوانين والأعراف بممارسة أبشع أنواع التعذيب خطأ وجريمة في حق عبدالناصر كما هي في حق المواطنين .

٩- وكانت ممالة بعض القادة والتغاضي عن أخطائهم كما هو الحال مع عبدالحكيم عامر خطأ مدمر إذ لا يجوز أن تحكم العاطفة العمل الوطني .

١٠- وكان حدوث الانفصال في سوريا وتدمير أول أمل عربي يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م خطأ ليس في حق مصر بل في حق كل الأمة العربية ، وعار في أعناق أولئك النفر الذين قاموا به ..

١١- وكانت قمة الأخطاء تتمثل في هزيمة سنة ١٩٦٧م وهي أم الكوارث في تاريخ جيش كان يحمل أكاليل الغار كما هي ضربة أريد بها تحطيم عبدالناصر ومشروعه القومي ..



ومع كل هذا يظل عبدالناصر عظيماً حياً أو ميتاً حيث أنه قد رسخ دورة التاريخي وطنيا وقوميا وعالميا، وسيبقى له حيزاً في تاريخ أمتنا العربية لن يصل إليه أحد في وقت قريب ، وسيذكره الناس جيلاً بعد جيل ، بكل منجزاته وأخطائه شامخاً (بالسد العالي ، بقناة السويس ، بمئات المصانع ، بتطوير التعليم في الأزهر الشريف ، بمجانية التعليم والصحة، بالأرض للفلاح والمكاسب للعامل .. إلخ .

وأخيراً أقول وقد عزمت بإذن الله على تأليف كتاب عن جمال عبدالناصر (ربما) يكون هو الأخير بعد مسيرة جاوزت نصف قرن في مجالات الكتابة والصحافة وقد ألفت وترجمت قرابة خمسين كتاباً والعديد من المسرحيات والروايات فإنني أرجو أن أنهى هذا الكتاب الذي أراه من أوجب واجباتي عن رجل عرفته وأحبته قبل أن أغادر هذه الدنيا راضياً قانعاً ..

ومن الله التوفيق

د- عبدالوهاب محمد الزنتاني

بلدة الزنتان في ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٧م

ملاحظة ،، كان بيني وبين الأستاذ محمد مصطفى بازامه رحمه الله رحمة واسعة اتفاقاً على الاشتراك في إعداد كتاب عن حياة الرئيس جمال عبد الناصر وتم الاتفاق على عنوان الكتاب (رجل العرب ، جمال عبد الناصر ، من المولد إلى الرحيل) ولكن الأستاذ بازامه رحل إلى جوار ربه حتى قبل أن تنتهي من مقدمة الكتاب وتحتم عليّ أن أكمل المشوار إذا أعانني الله وفاء بعهد والتزام بمبدأ ، ولذلك واصلت المهمة والتوفيق من الله ،،

الفصل الأول

- ١- المولد والنشأة .
- ٢- الوضع العائلي .
- ٣- الوضع الاجتماعي .

الفصل الأول

١ - المولد والنشأة

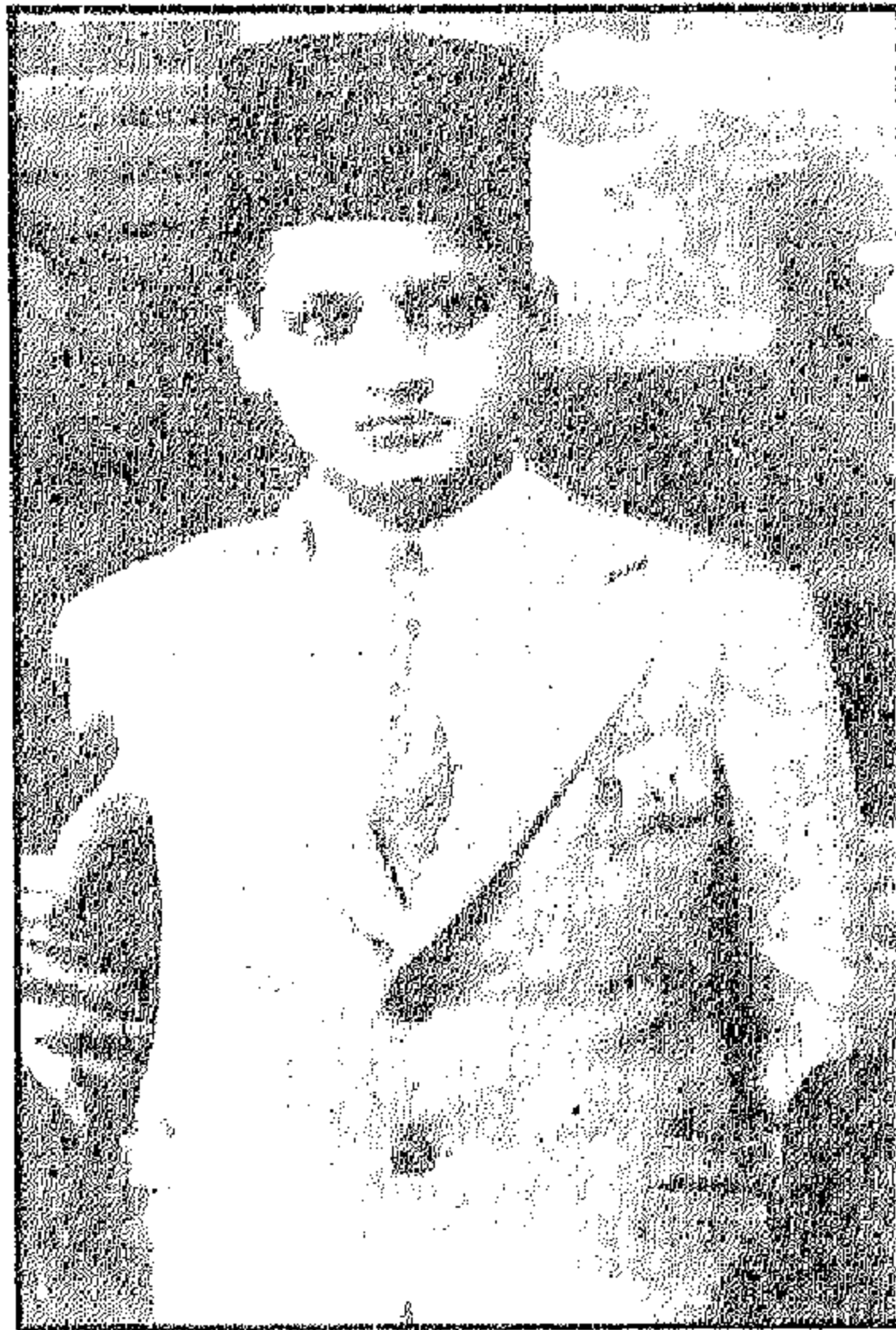
٢ - الوضع العائلي

٣ - الوضع الاجتماعي

المولد والنشأة :

١ - ولد جمال عبدالناصر حسين كما يولد أى إنسان وعاش أعظم من كل الرجال في عصره ، حياته حافلة بالمعارك والنضالات بصرف النظر عن اختلاف الآراء والاجتهادات في معاركه ونضالاته (وجلّ من لا يخطئ) ولد في شارع القنواى رقم ١٨ بحى يسمى باكوس في الإسكندرية يوم ١٥ يناير ١٩١٨م والده عبدالناصر حسين كان قد ولد سنة ١٨٨٨م في قرية بنى مر بصعيد مصر وهكذا فهو أى جمال من عائلة صعيدية فلاحية نشأ في أحضان عائلة محافظة (وهذا ديدن أهل الصعيد) ولكنها لم تكن مستقرة عكس فلاحي مصر في ذلك الوقت حيث إن جمال لم يكمل الثلاث سنوات من العمر حتى فتح عينيه في أسيوط عندما نقل والده عامل البريد عبدالناصر حسين إلى بريد مركز أسيوط ، وعندما بلغ جمال سن الخامسة كان في منطقة تسمى (الخطاطبة) وهى تبعد حوالى خمسة وثلاثون كيلو مترا شمال غرب القاهرة وألحق هناك للمرة الأولى بالدراسة فيما يعرف وقتئذ (بالكتاب) أى أن الدراسة لم تكن نظامية منهجية (طريقة التعليم الدينى) وهذا يسمى في المغرب العربي (الجامع) بينما يسمى في المشرق (كتاب) وفى الكتاب هذا يتم التعليم على يد فقيه يجلس القرفصاء وأمامه الطلبة كذلك يجلسون على حصير مطروح على الأرض يحفظون سوراً من القرآن الكريم ، وعندما بلغ الطفل جمال الثامنة من العمر ألحق بمدرسة ابتدائية في القاهرة ، وفى هذه

المدينة الكبيرة أقام مع عمه خليل حيث توفيت فى هذا الوقت والدته وكان لها ثلاثة أولاد غير جمال على أن جمال لم يطل به المقام في القاهرة بعد وفاة أمه حتى انتقل إلى الإسكندرية ليلتحق بمدرسة هناك ويقيم مع خاله إلا أنه سرعان ما عاد مرة ثانية إلى مدرسته وخاله في القاهرة منتظماً بالدراسة إلى أن أتم المرحلة الابتدائية وبلغ من العمر أربع عشرة سنة ونظراً لعدم استقرار الموظفين الصغار في مكان واحد فقد نقل والد جمال إلى السويس ونقل عمه إلى حلوان وفى هذا الوقت تزوج والده عندما استقر في السويس لبعض الوقت في حين التحق جمال بمدرسة داخلية في منطقة حلوان التي تقع بضاحية من القاهرة وبعد سنة أعيد عمه إلى القاهرة مما هيا الفرصة لجمال أن يعود مرة ثانية إلى القاهرة مقيماً مع عمه ومستأنفا الدراسة بها ثم انتقل إلى مدرسة ثانوية بالإسكندرية مقيماً مع أخواله وحدث أنه بعد فترة قصيرة نقل والده من السويس إلى القاهرة ولهذا طلب منه أن يرجع ليقوم معه في القاهرة ويتنظم في الدراسة الثانوية فلبى رغبة والده والتحق بمدرسة النهضة المصرية التي أتم فيها مرحلة دراسته الثانوية وكان عمه ثمانية عشرة سنة وفى هذا الوقت قال والده إنه قد تهيأ لوظيفة حكومية لكن القدر أراد غير ذلك .



صورة الطالب جمال



أثناء فترة الدراسة الابتدائية ، الطالب جمال يتوسط والده وعمه (واقفا)

الوضع العائلي :

لم يكن الوضع العائلي مستقرا معيشيا ولا مريحا اقتصاديا فرب العائلة موظف بسيط يتعرض في وظيفته لكثير من التنقلات في الخدمة ، من قرية بنى مر إلى الإسكندرية إلى منطقة خيل العربان إلى خطاطبة إلى دمنهور إلى الإسكندرية مرة أخرى ثم إلى القاهرة الخ ، وزواج لم يدم طويلا من امرأة في الإسكندرية تدعى فهيمة محمد حماد بعد إنجاب عدد من الأطفال كان أولهم جمال ثم زواج

آخر مع تعدد الأطفال (خمس من الزوجة الأولى وست من الثانية) وعدم الاستقرار فى الواقع يعود إلى عبدالناصر حسين كموظف فى مصلحة البريد هذا العمل الذى يخضع لإجراءات التنقل بين وقت وآخر ومن مكان إلى غيره بعيدا عن العاصمة أو قريب ، ولقد بدأ تنقل عبدالناصر حسين من قريته (بنى مر) إلى الأسكندرية سنة ١٩١٧م ثم إلى أسيوط سنة ١٩٢١م ثم إلى قرية قطبطة سنة ١٩٢٣م ثم إلى أسوان سنة ١٩٢٨م فالرجوع الى الأسكندرية سنة ١٩٢٩م وأخيرا إلى القاهرة سنة ١٩٣٠م ويظهر هنا جليا عدم الاستقرار فى أى بلد لأكثر من سنتين عدا القاهرة حوالى ست سنوات ولم يحدث الاستقرار فى مدينة أو قرية ريفية وتبع هذا التنقل عدم الاستقرار بالنسبة للطفل جمال على الرغم مما فى هذا التنقل من فوائد وبعض العيوب منها أن الطفل أو الشاب فى هكذا حالات تنمو لديه الهوية الوطنية والقومية أى الأفق الأوسع الاجتماعى ، ولقد حدث أنه فى آخر مراحل هذه التنقلات توافقت مع ظهور حركة سياسية نشطة متمثلة فى حزب ذى أفكار ليبرالية ذلك هو حزب الوفد الذى كان ينادى بالوحدة الوطنية والاستقلال فى ظل نظام برلمانى وكان هذا خلال أو قبيل أن يكمل الطالب جمال مرحلة الدراسة الثانوية وكانت البلاد ترزح تحت ظل وضع اجتماعى رهيب وسيطرة إقطاعية أجنبية ربما لا مثيل لها فى العالم وقتذاك أى فى بداية سنة ١٩٣٦م ثم التحاقه بالكلية العسكرية وبعدها نقل إلى منقباد فى السودان لثلاث سنوات ١٩٣٩ - ١٩٤٢م كأنما عدم الاستقرار صار قدره انتقالا من بداية رحلة والده عبر البلاد من بنى مر إلى أكثر من مدينة وقرية ، ونعرف من تاريخ العائلة أن عبدالناصر حسين بن خليل بن سلطان قد التحق بمدرسة قبطية فى أسيوط وأنه حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩١٣م وهذا يعنى أنه قد شهد بداية الحرب العالمية الأولى وعاصر حكم المندوب البريطانى اللورد كرومر ثم ثورة سنة ١٩١٩م ونضال مصطفى كامل والأفغانى ومحمد عبده وعرابى وسعد زغلول وغير هؤلاء كما عاصر ظهور الأحزاب الوطنية بمؤسساتها الإعلامية مثل جريدة المصرى وجريدة القاهرة واللواء والسياسة والأخبار وكوكب الشرق والبلاغ

وروز اليوسف وكانت هذه الصحف بلا استثناء تشن حملات على الفساد وتدافع عن المصالح الوطنية وتشجذ الهمم للدفاع ضد الاستبداد وظلم الاستعمار الإنجليزي والمرتبطين به وتطالب بالاستقلال الوطنى على الرغم من إنها صحف حزبية أنشأتها قوى بورجوازية وكان من أبرز كتابها مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد وأمين الرافعى ومحمد حسين هيكل ومكرم عبيد وأحمد حافظ وعبدالقادر حمزة وفاطمة اليوسف ومحمود سليمان ومحمد صبحى أبوعلم ومحمد التابعى وأحمد نجيب الهلالي وكوكبة أخرى من الرجال الذين ألهموا الحركة الوطنية الشعبية طريق النضال الذى صاحب وأعقب ثورة سنة ١٩١٩م ذلك النضال والتضحيات التى أدت إلى تحقيق معاهدة سنة ١٩٣٦م مع بريطانيا والتى جاءت نتيجة لنضالات الشعب المصرى خلال القرن الثامن عشر وهى رغم بعض إيجابياتها لم تلتقى بالكامل مع ما كان يهدف إليه ذلك النضال الطويل والتضحيات الجسام كتلك التى حدثت فى سنوات (١٨٧٩ و ١٨٨٨) ولا حتى القليل من أهداف ثورة سنة ١٩١٩م لكنها على أى حال فتحت الأبواب لنضالات أكثر وأهداف أهم مثل :

أولا : الاعتراف لمصر بالسيادة على أراضيها وحرية التصرف فى شئونها الداخلية مع قيد على السياسة الخارجية ينص على عدم التعارض مع سياسة بريطانيا .

ثانيا : اعتراف بريطانيا بالسيادة المصرية على قناة السويس مع شرط اعتبارها ممرا دوليا للمواصلات وحق بريطانيا فى إبقاء قواتها فى منطقة القناة .

ثالثا : انسحاب القوات البريطانية من القاهرة والإسكندرية وإبقائها فى قناة السويس بشرط أن تقوم الحكومة المصرية ببناء سككيات للقوات البريطانية فى الأماكن التى تحددها هناك مع إقامة وإعداد طرق بين القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والإسماعلية والسويس حسب مواصفات بريطانية .

رابعا : إلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة ويسمح لمصر بأن تحصل على عضوية عصبة الأمم فى مايو ١٩٣٧م .

خامسا : السماح للقوات المصرية بالعودة إلى السودان بعد أن كانت قد سحبت سنة ١٩٢٤م مقابل اتفاق ببقاء القوات البريطانية في مصر لمدة عشرون سنة إلى أن تكون هذه قادرة على حماية القناة وتقوم بريطانيا بتدريب الجيش المصرى وتزويده بالمعدات مع وجود بعثة عسكرية بريطانية بأفرع الجيش المصرى ..

كانت هذه أهم ما جاء فى تلك المعاهدة وقد جرت محاولات وطنية من أجل زيادة أعداد أفراد وضباط الجيش المصرى وتسليحة رغم القيود التى تضمنتها المعاهدة منها فتح أبواب الكلية الحربية للشباب القادرين على دفع تكاليف الدراسة وقدرها ستون جنيها سنويا علما بأن مرتب خريج الجامعة لم يكن يتجاوز ثمانية جنيهات فى الشهر وهذا شرط مانع ثم كانت محدودية المعاهد والمدارس الثانوية التى تؤهل الطالب للالتحاق بتلك الكلية وهذا كان أيضا المانع الثانى بينما كان المانع الثالث يتمثل فى شرط الانتماء العائلى والاجتماعى .

الوضع الاجتماعى :

الوضع الاجتماعى فى مصر قبل الثورة (ربما) لم يكن له مثيل فى العالم إذ لم يكن للمواطن العادى (عامل وفلاح) أى قيمة ذلك أن الباشا (أى باشا) كان يملك الأرض ومن عليها ووسيلته الوحيدة فى التعامل مع هؤلاء هى (الكرباج) وكان أولئك الباشاوات وهم غالبا غير أصلاء فى البلاد (شركس وبلغار وألبان ويونان وترك إلخ) ولم يكن للفلاح حتى شبر من أرض ولا كانت للعامل أى حقوق قانونية أو إنسانية ، وكان الأول ينام مع الجاموسه بينما ينام الثانى على البلاطة وكلاهما خالى الوفاض لا شئ على الجسد ولا طعام فى البطن ولا أنين يسمع من كبير أو صغير ، حتى إن نكتة كانت دائرة بين الشفاه تقول : (إن أحد الفلاحين عضه كلب الباشا فتجراً على الشكوى إلى القضاء ، وحدث أنه فى يوم النطق بالحكم تجمع عدد كبير من الفلاحين أمام المحكمة انتظارا للنطق بالحكم ذلك أن هذه الحادثة كانت الأولى من نوعها حيث تشجع فلاح برفع صوته أمام الباشا ، وعندما خرج الفلاح من دار المحكمة هتف الفلاحون سائلين ، ماذا حدث يا حمددين ؟ قال ، لقد أثبت محامى الباشا للمحكمة أنني أنا الذى غص كلب الباشا) .

ولقد كانت ثورات الفلاحين والعمال ضد الضيم والظلم الاجتماعى وبشكل خاص ضد ملاك الأرض تتكرر لكنها لا تجد آذانا صاغية وبالتالي تضيع ويستمر البؤس عاما والبذخ خاصا لأن أولئك الملاك الإقطاعيين يسيطرون على كل أجهزة وإدارات الحكومة ويحولون دون أى تغيير اجتماعى مهما كان صغيرا ، كما كانت السيطرة الاحتكارية بين يدى الرأسماليين المرتبطين بالإقطاع مما جعل الظلم الاجتماعى يزداد ويتأصل على الرغم من أن البلاد نظريا تعيش تحت نسائم الديمقراطية متمثلة فى الدستور والبرلمان (مجلس النواب) وحكومة مسؤولة أمام هذا البرلمان وصحافة خاصة يفترض أنها حرة وتعكس رأى العام وأحزاب متنافسة على إرضاء الأجنبى وملك فاسد تحكمه نزواته وبعض المرتزقة ، بينما الواقع يقول أن هذه كلها ديكورات لأن الكلمة العليا كانت للإقطاعيين والرأسماليين وفوقهم وقبلهم الوجود الأجنبى (قوات وسفراء وقناصل وشركات) لها كل السلطة الفاصلة فى الأمور والمتفصلة فى الدولة ولا شئ يحول دون تحقيق مصالحها ورغباتها ، وكان الفقير يزداد فقرا ويثقل كاهله الجهل والإهمال من طرف حكومة تسمى برلمانية قامت سنة ١٩٢٤ م ...



الفصل الثانى

- ١- قيام الثورة .
- ٢- إعلان المبادئ الستة .
- ٣- بداية المسيرة وحدث الخلافات .

الفصل الثانى

١ - قيام الثورة .

٢ - إعلان المبادئ الستة .

٣ - بداية المسيرة وحدوث الخلافات .

على ضوء هذه التطورات والأحداث كان لابد من رجل يقوم بالدور التاريخى لإنقاذ البلاد والعباد ، شخص يعى أسباب الانهيار فى البلاد وأسباب الظلم والقهر الاجتماعيين السائدين فى المجتمع ويواجه بقوة غطرسة المال والسلطة، وكانت القوة الوحيدة فى هكذا حالة لابد أن تكون منظمة فى شخوصها وقادرة فى قوتها ولم يكن هذا موجودا فى غير المؤسسة العسكرية (الجيش) بحيث يحدث التغيير الذى يخلص الناس وينقذ البلاد ، وليكن انقلابا أو ثورة ، وكان الخيار بين الاثنين ليس سهلا (الثورة وتحدث بالشعب وهذا لم يكن ممكنا بسبب من فشل انتفاضات وثورات سابقة أجهضت وقمعت وتم القضاء على أغلب عناصرها - قادة وأفراد -) والانقلاب وأداته موجودة بل هى ربما جاهزة ولا تحتاج إلا إلى فئة تقتحم الخطر وتقوم بالمغامرة ، وكان هناك نفر من الرجال (الضباط) ممن أدركوا الواقع وأحسوا بمعاناة الفقراء والمساكين وشاهدوا عن كثب جر البلاد إلى الضياع تحقيقا لمصالح فئة ظالة إما عميلة أو هى غريبة عن البلاد ، والذى احتاجه التغيير هو فئة من الرجال حفظوا الدرس جيدا وأعدوا العدة للتغيير وركوب المخاطرة والانقضاض على إعداء البلاد (إقطاعيون ورأس ماليون وعملاء ومرتزقة) رغم وجود قوات وقواعد عسكرية أجنبية كانت مهمتها حماية الوضع القائم وحراسة مصالح بلادها المتمثلة فى استغلال موارد وإمكانيات البلاد حتى العظم ، كان جمال عبدالناصر ورفاقه من ضباط الجيش قد وعوا الدرس

جيدا وقرروا بضربة واحدة القضاء على نظام أعمدته قائمة على مساندة ودعم الأجنبي ، وكانت مقدمات حدوث الثورة قد تجلت في المبالغة بإقامة الحفلات الصاخبة من جانب الملك ووزرائه تلك التي يشار إليها في وسائل الإعلام بكثير من التطويل والمبالغة في وقت كان فيه الفقر متفشيا بين المواطنين وكان المرض يطحن عظام أغلبهم وكان العامل المصري يكدح ليل نهار مقابل قروش قليلة نظير ذلك العمل المصني (إذا وجد إليه سبيلا) لا يزيد على (ستة قروش في اليوم) وليس له أية مزايا ولا حقوق في السكن أو التأمين ولا حق تقاعدي ، أما الفلاح المصري فكان يحصل على ثلاثة قروش في اليوم وهو يعمل في أطيان الباشا ، وأحيانا لا يحصل على هذه القروش وإذا ما اشتكى أو تضرع فإن الكرباج هو الرد على تضرعه أو احتجاجه ، ولم تكن الدولة قادرة على مرتبات الموظفين ورجال الأمن الزهيدة حتى أن هؤلاء اضطروا إلى أن يضربوا عن العمل احتجاجا على سوء الحال هذا ، فكان أن أضرب رجال الأمن جميعا في مصر وخرجوا في مظاهرات وكانوا يرفعون أرغفة الخبز على رؤوس بنادقهم طلبا لهذا الرغيف الذي ندر وجوده وجوع أبنائهم ، وفي ٢٥ يناير ١٩٥٢ وبحجة أن البوليس المصري يساعد الفدائيين في السويس قامت قوات الاحتلال البريطاني بالهجوم على مبنى مديرية الأمن ومبنى المحافظة بالدبابات والمدفعية فقتلت من قتلت وقد قاوم رجال الأمن المصريين بأسلحتهم الخفيفة ذلك الهجوم البربري وماتوا دفاعا عن شرفهم وكرامتهم ، وبعد هذا الحادث بيوم واحد أي يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ م حرق القاهرة كلها وبقيت النار مشتعلة مدة طويلة وقد أكلت الأخضر واليابس تشفيا وانتقاما من المصريين ، ثم دبرت المكيدة وجهزت التهم وتم القبض على آلاف الأبرياء من أبناء مصر ، ويذكر شوقي عبدالناصر وهو شاهد عيان معاصر في كتابه (ثورة عبدالناصر) أن الملك فاروق يوم حريق القاهرة كان يحتفل بعيد ميلاد ابنه الطفل (أحمد فؤاد) حيث جمع كل قادة الجيش وضباطه العظام وكل الوزراء والكبراء والوجهاء في قصر عابدين احتفالا بهذا المولود وكان الإنجليز وجواسيسهم هم

سادة البلاد يأمرهم فيطاعون دون مناقشة ولا حتى مجرد احتجاج أو إظهار أى تدمير ، وهنا يقول شوقي عبدالناصر فى كتابه (ثورة عبدالناصر) لم يصف الحاقدون لأجيالنا كيف احتلت مصر سنة ١٨٨٢م وكيف أن الإنجليز دخلوها بدعوة من خديوى مصر وحاكم مصر توفيق وبمساعدة من كبار الأسر والعائلات العريقة الذين خانوا مصر وخانوا عربى ، والأسماء كبيرة وكثيرة ، ولن يسقط التاريخ فى حسابه أبدا (خيانة الخونة) وستلاحقهم الأجيال مهما طال الزمن ، ولن يذكر أحد منهم إلا بالعار ، وكان ثمن الخيانة الباشوية والباكوية وآلاف الأفدنة وأكياس الذهب والفضة ، ونفخ أعداء مصر فى أصدقائهم من الخونة ووضعوا على صدورهم الشوهار كثيرا من الرتوش ليجعلوا منها لوحات مزوقة ونسوا أن القليل من الماء يزيل كل الطلاء ، ويضيف ، فحتى سنة ١٩٤٧م كانت كل منطقة جاردن سيتى فى القاهرة محاطة بالأسلاك الشائكة لأنها مخصصة للسفارة البريطانية وسكن لضباط الاحتلال الإنجليزى ، وكانت أرض الجامعة العربية وفندق هيلتون أكبر معسكر مبنى للإنجليز فى القاهرة يجلس فى نوافذه آلاف العساكر لا يرتدون إلا السراويل ولا يلوحون للمصريين إلا بالبنادق ، ومنه خرجوا سنة ١٩١٩م وسنة ١٩٣٦م وسنة ١٩٤٥م وقتلوا آلاف المصريين وكانت المنطقة التى تضم الآن عمارة رمسيس فى القاهرة وما خلفها حتى نفق شبرا معسكرا للبوليس الحربى الإنجليزى ، وكانت القلعة وكل منطقة العباسية (مدينة نصر) الهايكستيب وأماظه ومطار القاهرة وما حوله والمعادى والمعصرة وحلوان كلها معسكرات لقوات الاحتلال ، ونفس الحال كان فى الإسكندرية ، منطقة كوم الدكة ومنطقة الرمل ومعسكرات مصطفى كامل حاليا وضواحي سيدى بشر والرأس السوداء وأبو قير والدخيلة والعامرية كلها معسكرات للقوات البريطانية المحتلة ، ثم كانت كل منطقة الدكتا بدء من الكيلو ٩٩ على طريق الإسماعيلية وكل السويس ومحافظة الشرقية والقصاصين والإسماعيلية والتل الكبير وبورسعيد .. إلخ وقناة السويس وسيناء كلها مناطق خاضعة للاحتلال ، وغير مسموح بدخولها إلا لمن يعملون فى خدمة جيش الاحتلال ، وكان لجيش

الاحتلال البريطانى الأولوية فى التمويل لهم ولخلفائهم أثناء الحرب العالمية النازية وكانت لهم كل المرافق وكل الخدمات ، انتهى^(٢) هكذا كان الحال ، الكثير قبل حركة الضباط الأحرار وهذه الأحداث والتطورات مع غيرها من الكوارث كهزيمة حرب سنة ١٩٤٨ م وقضية الأسلحة الفاسدة وغيرها مثلت إرهابات التغيير^(٣) أو الانقلاب ، وكان التغيير خطوة واسعة إلى الأمام وفى يوم الأربعاء منتصف ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م قاموا بعمل عسكري يمكن تسميته انقلابا حينها وسيطروا على كل مرافق الدولة وما كاد ينبجج فجر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م حتى قبضوا على مفاتيح مستقبل بلادهم ، وكانوا تسعون رجلا من مجموع عدد الضباط المنضمين فيما عرف بعد باسم (تنظيم الضباط الأحرار) ولقد جاءتهم جماهير العمال والفلاحين والمثقفين الشرفاء زاحفة مؤيدة مستبشرة ذلك أن دولة الظلم لا تدوم ، ومع زحف الجماهير وتكاتف الأيدي وصفاء القلوب ووحدة الهدف كان على قادة الانقلاب أن يقدموا ما يمكن أن يكون دليلا مرشدا يبدأوا به مسيرتهم مع شعبهم الذى لم يبخل عليهم بالتأييد والمساندة وهكذا أعلنوا المبادئ الستة كدليل عمل أنى لابد أن يؤدى فى المستقبل القريب إلى ما يجعل الانقلاب يتحول إلى ثورة وطنية وكانت تلك المبادئ كما يلي :

- ١ - القضاء على الاستعمار وأعوانه .
- ٢ - القضاء على الإقطاع .
- ٣ - القضاء على الاحتكارات وسيطرة رأس المال على الحكم .
- ٤ - تحقيق العدالة الاجتماعية .
- ٥ - خلق جيش وطنى قوى .

(٢) كتاب ثورة عبد الناصر تأليف شوقي عبد الناصر .

(٣) يلاحظ أننى أقول التغيير أو الانقلاب أو حركة الضباط الأحرار لأن الذى حدث فى البداية حقيقة وواقعا كان انقلابا ثم تحول إلى ثورة بكل معنى الكلمة .

٦ - إقامة ديموقراطية سليمة .

ولقد كانت هذه المبادئ تمسّ بشكل محدد ومباشر مواضع المرض لأن الاستعمار وأعوانه متمفصلون فى أجهزة الدولة ، فالإقطاع قائم ومرسّخ ، والاحتكار وسيطرة رأس المال شامل فى كل شئ ، والعدالة الاجتماعية لا وجود لها ، والجيش الوطنى ليس جيشا بالمعنى المفهوم فلا تسليح جيد ولا تدريب متين ولا استراتيجية واضحة ، والديموقراطية ليست سليمة على الإطلاق وهى كانت مثل المكياج على وجه قبيح .

هكذا بالضبط كانت الحالة السائدة وهكذا كان القصد والمقصود بالمبادئ الستة ، وهى على أى حال تدل بكل وضوح على أن هؤلاء النفر من الرجال كانوا قد درسوا جيدا وضع بلادهم وحال أهلهم وأرادوا بما أعلنوا من مبادئ أن يبلّغوا القاصى والدانى إن هدفهم واضح وإرادتهم قوية وتصميمهم جازم من أجل حرية الوطن والمواطن وبالتالي لابد أن تكون الطريق واضحة سالكة نحو الهدف الوطنى القائم على المبادئ الستة المعلنة ، أى أنه لابد من توزيع ملكية الأرض الزراعية بشكل عادل من أجل تحقيق نوع من الحرية والكرامة للفلاح المصرى وهى أرض محدودة وبيد فئة من السكان (الباشاوات والإقطاعيون) كما أنه لابد من توجيه رأس المال من أجل زيادة وتدعيم الثروة الوطنية بحيث تخدم المشروع التنموى الوطنى ، أما القوة القادرة على حماية المكاسب الوطنية التزاما بمبادئ التحول الجديد فلا بد أن تكون متمثلة فى الجيش الوطنى القوى المؤمن بهذه المبادئ والأهداف ، وعلى ضوء تحقيق هذه الأهداف يمكن إقامة ديموقراطية سليمة وصحيحة .

وإذا كانت هذه أهداف التغيير الذى قام به ضباط الجيش الذين أطلقوا على أنفسهم اسم (الضباط الأحرار) وكانت الساحة السياسية والاجتماعية كما مرّ بنا تحكمها قلة من الناس لا همّ لهم غير جمع المال والاستمرار فى الاحتكارات وممارسة الظلم والعنت والضييم الواقع على أهل البلاد متآلفين فيما بينهم مع ملك

خليع فاسد يعتمد على بطانة ضالة لا ترتبط بتراب الوطن ، ومجلس نواب يجمع شتاتا من الناس فى الغالب إما جهلة لا يعلمون وإما عملاء جاء بهم الاستعمار والقصر الملكى ، وقلة (ربما) من الوطنيين الذين لا يزيد عددهم على عدد أصابع اليد الواحدة أصواتهم إذا أبدوها ضائعة لا يستمع إليها أحد ، وأحزاب متنافسة متفرقة لا تقوى على عمل شئ ، ودستور جملة وعباراته جميلة لا يزيد عن كونه حبر على ورق .

ولما كانت الساحة على هذا الشكل فكان لابد من إجراء عملية جراحية قيصرية بحيث توضع الأمور فى مكانها الصحيح ، وبهذا الإجراء لابد أن تختلف الآراء والتوجهات بين الناس من جهة وبين الرجال الذين قادوا التغيير بل بينهم أنفسهم بعض الخلاف وإن لم يعق المسيرة ..



١ - حدوث الخلافات .

٢ - أولى الخطوات فى التغيير .

عندما حدث انقلاب ٢٣ يوليو كان انقلابا أيضا رغم أن الأعداء كانوا كثيراً (محلون وأجانب) بل وكل من يمكن أن تمس مصالحه والتغيير (أى تغيير سياسى واقتصادى بالقوة أو غيرها) لابد أن يضار منه البعض (عن حق أو غيره) ولهذا فإنه لابد لهذا الانقلاب أن ينزع سلاح كل أولئك الأعداء المعروفين والمحتملين ، وسلاحهم هو المال والسلطة والارتباطات الخارجية ، وهذا من أجل القيام بخطوات التغيير والتطوير السياسى والاجتماعى والاقتصادى ولقد أنجز رجال الانقلاب هذه الخطوات دون إراقة دماء خلافا للمعتاد فى كل الانقلابات وأساليب أغلب الثورات التى حدثت فى العالم غربا وشرقا وجنوبا وشمالا فى ذلك الوقت (وحتى فيما بعده) وكان الفضل فى هذا الأسلوب السلمى والمعالجة الحضارية يعود لمواقف جمال عبدالناصر فقد حدث أنه فى أول اجماع للجنة

التنفيذية لهؤلاء الضباط أن نوقش الأمر واختلفت الآراء والرؤى أولا فيما يتصل بمصير الملك وثانيا فيما يتصل بأول مشروع للانقلاب أى (الإصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ م) الذى كلف به رئيس الوزراء المدنى (على ماهر) وهذا نص وفحوى النقاش والمواقف بين الأعضاء .



كان الملك فاروق كعادته خلال تلك الفترة يستجم فى الإسكندرية منتقلا بين قصورة وقت حدوث الانقلاب وتقرر أن يوجه إليه الضباط إنذارا بضرورة النزول عن الحكم لابنه الطفل (أحمد فؤاد) وبعد أن أعد الإنذار كلف رئيس الوزراء (على ماهر) بتسليمه للملك ثانى يوم التغيير وكان نصه (حيث إنك أسأت بعملك لسمعة مصر على مشهد من البلدان الأخرى ، وحيث إنك قد تغاضيت عن الرشوة والخيانة التى أعقبت هزيمتنا فى حرب فلسطين ، أنا اللواء محمد نجيب باسم الجيش الذى يمثل إرادة الشعب ، قد خوّلت مطالبتك بالتخلي عن العرش لصالح ابنك الأمير أحمد فؤاد قبل الساعة الثانية عشرة ومغادرة البلاد نهائيا قبل الساعة السادسة مساء اليوم ، وإذا رفضت الرضوخ لهذا الإنذار فإنك ستتحمل مسؤولية العواقب) فى هذا الوقت كان الصاغ جمال سالم يتأفف ولا يوافق على قرار إبعاد الملك سلميا ويقول إنه لا يجب أن يسمح لهذا الملك الذى أفسد فى البلاد أن يرحل بل يجب أن يوقع عليه العقاب المناسب وهو الشنق فورا، يسأله جمال عبدالناصر ما إذا كان يرى أن عقوبة الشنق ضرورية ؟ ويضيف عبدالناصر أنا أرى نفى الملك فاروق ، كان جمال سالم مع اللواء نجيب والسادات وزكريا محى الدين فى الإسكندرية يعدّون لحصار قصور الملك بحيث لا يهرب ولا تحدث مشاكل من حرسه أو من الناس ، جمال سالم بإصراره على موقفه غادر بالطائرة إلى القاهرة حيث يوجد جمال عبدالناصر يسيّر الأمور لأنه يريد إقناع عبدالناصر بأهمية شنق الملك ، يقول عبدالناصر : إن شنق الملك قد يؤدى إلى كثير من المشائق وسيل الدماء التى لا يمكن الحد منها عند حدوثها ، لكن رأى الآخر

يقول لابد من الشنق والقتل من أجل تنظيف البلاد من الخونة والعملاء والمرتزقة ، ولكن جمال كان يرى أنه إذا ما شنق الملك فإن الناس الذين وقع عليهم ضيم هذا الملك سينكّلون بالمئات من الذين لهم علاقة به فوراً ويستمر القتل والشغب الذى لا يمكن وقفه ولقد كان هناك من بين الأعضاء من يطالب بإقامة المقاصل أمام قصر عابدين وفى ميدان الإسماعيلية ، فى هذا الوقت تم حصار قصور الملك وحدث تبادل إطلاق بعض النيران من جانب حراس القصور ولم تحدث إلا حالات بسيطة بين الجنود فقد جرح عدد قليل منهم ، وبعدها وافق الملك على التنازل لكنه طلب بعض الضمانات منها:

- ١- يتم التنازل عن العرش بطريقة تحفظ له كرامته .
 - ٢- طلب أن يغادر إلى نابولى بإيطاليا بواسطة اليخت الملكى (المحروسة) .
 - ٣- أن تطلق له المدفعية تحية التكريم وهى ٢١ طلقة .
 - ٤- أن يكون اللواء محمد نجيب فى وداعه حفاظاً على سلامته .
 - ٥- أن يسمح لاثنتان من خدمه مرافقته وهما (الإيطالى بوللى والمصرى محمد حسن) .
 - ٦- أن يسمح له بأخذ مجموعاته القيمة من عملات وهدايا وطوابع .
 - ٧- وأبدي رغبته فى استخدام ثرواته و ثروات إخوته داخل مصر لحسابهم .
- وبعد دراسة هذه المطالب بشكل عاجل وافق جمال عبدالناصر أيضا بشروطة الخاصة وهى :
- ١- اليخت (المحروسة ملك للشعب المصرى ولا بد أن يعاد فوراً بعد وصول الملك
 - ٢- بالنسبة للخدم لا نوافق عليهما إذ قد يلحقهما التحقيق .
 - ٣- بالنسبة للعملات والهدايا والطوابع .. إلخ هذه من أموال الشعب ولا يسمح بإخراجها .
 - ٤- بالنسبة لثرواته وإخوته لا يمكننا أن نعد بشئ من ذلك .

بعد رد جمال عبدالناصر أبلغ الملك بذلك الرد ووافق على التنازل والمغادرة ووقع في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا وكان قرار التنازل قد أعده اثنان من القضاة وقد كان نصه كما يلي :

(نحن فاروق فؤاد الأول رغبة منا في رفاهية وسعادة وتقدم بلادنا ، وأملا في مساعدتها على التغلب على الصعوبات التي تواجهها في الظروف الراهنة الحاسمة ، قررنا التنازل عن العرش لابننا ولي العهد أحمد فؤاد الثاني ، ونحن بذلك نخوّل السلطة لسعادة على ماهر رئيس الوزراء للعمل طبقا لهذا (القرار) وعندما قرئ قرار التنازل على أسماع جمال عبدالناصر ، قال : هذا لا يكفي ، يجب وضع نصا يحدد القول (بإرادة الشعب) في مقدمة القرار ، ووضع النص المطلوب الذي يقول (طبقا لإرادة الشعب) مباشرة بعد كلمة (قررنا) أمتنع الملك في البداية لكنه بعد قليل من الوقت وقّع ، وسمح له بحمل حقائبه التي بلغ عددها أكثر من مائتي حقيبة ، خرج متجها إلى اليخت وكان بصحبة كل من زوجته ناريمان وابنه الطفل وبناته الثلاثة ومربية ابنه الإنجليزية وحراس من أصل ألباني ، كما كان في الوداع السفير الأمريكي (كافري) ..



انتهى الوضع السابق وخرج الملك فاروق نهائيا على غير رجعة رغم أن تنازله كان لابنه ولي العهد (نظريا) وما كان لهؤلاء الضباط وقد كسبوا الجولة الأولى أن يرضوا بغير الحكم دون منازع لتنفيذ مشروعاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية (الذي ما زال في ضمير الغيب) غير ما يمكن أن تفسره المبادئ الستة التي أعلنت ، وكان ضباط الجيش وعلى رأسهم جمال عبدالناصر على بيّنة من الأحداث السابقة ومن تعثر وفشل الانتفاضات والثورات السابقة وبشكل خاص ما واجه حركة الجيش سنة ١٨٨٢م وثورة الشعب سنة ١٩١٩م على الرغم من أن هذه الأخيرة قد تمتعت بالتأييد الشعبي الكامل في مطالبها من أجل إجلاء الأجنبي وإنهاء الاحتلال العسكري البريطاني لكنها واجهت عنادا من المحتل وخلافا بين

السائرين بها الذين أغرتهم المناصب والوظائف حتى وقع بينهم التنافس بل والعداء ولم يستثمروا ذلك التأييد لخدمة الثورة فانصرفوا بعيدا عن هدف ثورتهم وغرق الشعب فى البؤس الدائم والإذلال البشع ، ومن المعتاد أن الخلاف يحدث عند التطبيق بعد نجاح الثورة أو الانقلاب وتدور عجلة الزمن فتظهر الشهوات ويبرز المهرجون والمصفقون والنافخون فى المزامير وتحدث الوشوشات حيث تزين المواقف لهذا أو ذاك ، ونرى إنه من المفيد المرور ولو ببعض الإيجاز على ما واجه تلکم الأحداث وهى التى قلنا أن جمال عبدالناصر كان يعيها جيدا فقد حدث فى ثورة عرابى سنة ١٨٨٢م ما يلى :

(كان الباب العالى قد أرسل بناء لطلب الخديوى بعثة إلى مصر حيث طلبت من عرابى أن يذهب إلى إستانبول على وعد بأن ينال منصب كبير هناك (طبعاً من أجل إبعاده أولاً ثم محاكمته ثانياً رغم الوعد بالمنصب) لكن عرابى رفض قائلاً ، إن السلطة التى أتمتع بها الآن لم أقم باغتصابها بل قلدنى إياها الشعب ويتوجب على أن أنزل على إرادته وأعطى أذناً صاغية لشكاويه ، وعقب فشل البعثة بدأ تنفيذ خطة جديدة صاحب فكرتها المعتمد البريطانى وهى إثارة اصطدامات داخلية تكون سبباً فى تدخل خارجى مسلح ، وهكذا حدث يوم ١١ يونيو ١٨٨٢م أن استؤجر مالطى كان فى خدمة القنصل الإنجليزى بالإسكندرية حوزياً حمله إلى إحدى الحانات وعندما طالبه الحوزى بأجرة نقله حدثت بينهما مشادة أطلق فيها المالطى النار على الحوزى وظهر عدد من الأجانب المشتبه بهم فأطلقوا النار على الأهالى الهائجين ، وفى توقيت معلوم ظهر فريق من البدو كان الخديوى قد استأجرهم فشاع الاضطراب فى الإسكندرية وقتل ١٤٤ مصرياً و ٥٠ أوربياً فى المدينة التى كان الأجانب من المراكبين والمضاربين والرأسماليين قد بدأوا يتدفقون عليها بعد بداية الضائقة الاقتصادية الناتجة عن الديون، ولكن عرابى استطاع السيطرة على الاضطرابات وإعادة الهدوء إلى المدينة وانكشف أمر المدبرين وفشلت خطة التدخل ، ولقد شقت هذه الحادثة المجتمع شقين ، الخديوى

وكبار الملاك والأعيان فى جانب والقوى الوطنية من المدنيين والعسكريين فى جانب آخر، وسار الخديوى إلى الإسكندرية ومعه كبار الرجعيين والإقطاعيين مثل نوبار باشا ورياض باشا وانضم إليهما أيضا شريف باشا وسلطان باشا، وهناك ألف الخديوى وزارة خاضعة فى الإسكندرية برئاسة راغب باشا بينما القاهرة كانت تحت سيطرة الوطنيين، ونبئت خطة ثالثة للتدخل الأجنبى عندما قرر أحمد عرابى ترميم الحصون الساحلية عقب زيارة الأسطول البريطانى والفرنسى للإسكندرية، وأرسل الباب العالى يطلب وقف الترميمات، ووجد الأميرال سيمون قائد الأسطول البريطانى فى ذلك فرصة للتدخل فأرسل إنذارا إلى رئيس حامية الإسكندرية يوم ٦ يوليو ١٨٨٢م مطالبا بوقف التحصينات، وأجاب عرابى بأنهم يقومون بالترميم فقط دون إقامة أى تحصينات جديدة ومع ذلك قدم سيمون إنذارا جديدا يوم ١٠ يوليو مطالبا بتسليم التحصينات خلال ٢٤ ساعة ورفض عرابى ذلك رفضا باتا، فأطلق سيمون مدافع أسطوله يوم ١١ يوليو على الإسكندرية فحولها إلى أنقاض ومع ذلك ظل الخديوى وكبار الأعيان فى قصورهم بالضواحي بعد تحذير سيمون لهم فى الوقت المناسب وأصدر عرابى أمرا بانسحاب الحامية من المدينة المحترقة وغادرها معه آلاف السكان، وبعد أربعة أيام احتل الإنجليز المدينة المهجورة، وكان ذلك إيذانا بالحملة على مصر التى صوت مجلس العموم البريطانى على اعتماداتها يوم ٢٧ يوليو ١٨٨٢م تحت قيادة الجنرال «ولسلى» .. وينتهى المؤلف إلى القول (وهزيمة ١٤ سبتمبر ١٨٨٢م أدت إلى نتائج وخيمة للحركة الشعبية وللقوى الوطنية فى الجيش) (٤).



ثورة سنة ١٩١٩م :

وانفجرت ثورة سنة ١٩١٩م تحت ضغوط وإصرار البريطانيين على فرض الحماية على مصر وحالة الإرهاب التى امتدت طوال سنوات الحرب، والمعاملة

(٤) أحمد حمروش قصة ثورة ٢٣ يوليو .

الحشنة والسخرة للمصريين من جانب قوات الاحتلال وارتفاع الأسعار وما صاحبها من ضائقة اقتصادية ، والتطلع إلى الاستقلال التام (مصر للمصريين) بعد المبادئ التي أعلنها (ويلسون) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

واشتعلت الثورة بين مختلف الفئات ، بدأت بالطلبة ثم العمال والفلاحين وإضراب الطوائف وتظاهر السيدات وأخيرا إضراب الموظفين ، ولم يكن للجيش دور إيجابي في أحداث ثورة ١٩١٩م كما كان في ثورة عرابي ، وكانت الأعوام التي انقضت بين الثورتين نفذت فيها قوات الاحتلال مخططا يقضى بفصل الجيش عن الحركة الوطنية ، وتولية نوعية خاصة من الضباط ذات جذور اجتماعية وفكرية تجعلها في موقع بعيد عن مرسل الثورة ، وكان الضباط يدخلون المدرسة الحربية بتعليم محدود لا يتجاوز الابتدائية يمرون خلال مجهر استعماري خاص يفحص أصولهم الطبقية وهم كانوا غالبا أما أبناء ضباط معروفين أو أبناء أسر إقطاعية أو ثرية فشلوا وعجزوا عن مواصلة التعليم .



وقد أدى توقف النمو الفكري والثقافي للضباط إلى خلق فجوة واسعة بينهم وبين المثقفين الذين انجذبوا إلى حضارة الغرب ، ونقلوا الأفكار العصرية مبشرين بمجتمع جديد ، أحمد عرابي وضباط الجيش الوطنيين كانوا أقرب ما يكون إلى مثقفي عصرهم جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وأديب إسحق وعبدالله النديم ويعقوب صنوع (أبونضاره) وسليم نقاش وغيرهم ، أما ضباط الجيش عام ١٩١٩م فكانوا أبعد ما يكون عن مثقفي ذلك العهد ، محمد فريد ولطفى السيد وطه حسين .

خطب لورد كيرزون الوزير البريطاني يوم ٢٤ مارس ١٩١٩م والثورة في قمة التهابها يثنى على موظفي (الحكومة ورجال البوليس والجيش المصري) ويشيد بحسن سلوكهم أثناء الاضطرابات في الوقت الذي أعلن فيه أن الحكومة البريطانية لا تنوى العدول عن الحماية ، وكان رد فعل هذا الخطاب عند الموظفين

قيامهم بإضراب طويل شامل بدأ فى ٢ أبريل وانتهى بسقوط وزارة حسين رشدى باشا رغم الإفراج عن سعد زغلول يوم ٦ إبريل وسفر الوفد بعد ذلك بخمسة أيام إلى مالطه ومنها إلى باريس وذلك لشعورهم بالخرج لما انطوى عليه الخطاب من اتهامهم بالانحياز إلى صف الاحتلال والحماية والتكر للحركة الوطنية ، أما ضباط الجيش فلم يتحركوا حركة ثورية ، ليس لأنهم قد تنكروا لوطنيتهم فإن مواقفهم تدل على عكس ذلك فقد ذهب حشد منهم بملابسه الرسمية إلى بيت الأمة عقب نفي سعد زغلول وحملوا صورته أمام مصورى الصحافة دون أن يعبأوا بأثر ذلك عليهم ، وكان من بينهم اللواء محمد نجيب وهو مازال فى رتبة الملازم .



وينتهى المؤلف إلى القول أن ثورة سنة ١٩١٩م استطاعت أن تجبر الاستعمار والسرايا على وضع دستور سنة ١٩٢٣م الذى تشبث به الشعب ووجد فى تطبيقه تعبيرا عن إرادته رغم أنه كان ناقصا من الوجهة الديمقراطية إذ كان يعطى الملك حق حل مجلس النواب وتأجيل انعقاده وإصدار مراسيم فى غيبته ، ومع ذلك فإن القوى المعادية لانطلاقة ثورة ١٩١٩م إلى أهدافها بادرت قبل أن تصل وزارة الثورة الأولى إلى إصدار (قانون الاجتماعات العامة والمظاهرات فى الطرق العمومية وقانون الأحكام العرفية اللذين أصدرتهما وزارة يحيى إبراهيم فى مايو ويوليو ١٩٢٣م كما عينت فنكس باشا البريطانى مفتشا عاما للجيش .



وخلال هذه الفترة التى بدأت فيها إرهابات الثورة داخل الجيش وخارجه فى السودان قتل السردار العام سيرلى ستاك يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٤م فى أحد شوارع الزمالك بالقاهرة وانتهزت إنجلترا الفرصة وقدمت إنذارا للحكومة المصرية عن طريق اللورد اللبى الذى توجه إلى سعد زغلول برئاسة الوزارة فى موكب من ٦٠٠ فارس بريطانى مطالبا بسحب الجيش المصرى من السودان وتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى إلى قوة سودانية تكون خاضعة وموالية للحكومة

السودانية وحدها على أن تصدر الحكومة المصرية بياناً بذلك خلال ٢٤ ساعة ، رفض سعد زغلول الإنذار وقدم استقالته يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ م بعد عشرة شهور فقط من توليه الحكم ، وأسرت الحكومة البريطانية لتنفيذ مخططاتها بمحاصرة القوات البريطانية للقوات المصرية فى الخرطوم ورفضت الكتبية الثالثة المصرية السفر إلا بأمر وزير الحربية المصرى - انتهى .



على ضوء تلك الأحداث التى واجهت الثورتان السابقتان وقد وعاهما جيداً جمال عبدالناصر وأراد أن يحتاط بحيث لا تتكرر ، أصدر أمراً يقول : (إنه على جميع الضباط ألا يدلوا بشئ لوسائل الإعلام ولا يتحدثوا عن أحد أو يذكروا أسماءهم ولا يدعوا فضلاً فى شئ أو ينسبوا أى عمل لأحد أو لأنفسهم) .

وكان عبدالناصر نفسه فى الظل فلم يظهر ولا تحدث لأحد من الصحفيين أو الإعلاميين على الرغم من أن التعليمات والأوامر تصدر منه ، وكان اللواء محمد نجيب هو الذى فى الواجهة بما فى ذلك خلال الفترة التى كان فيها إنذار الضباط يقدم إلى الملك فى الإسكندرية حيث كان هناك محمد نجيب وحسين الشافعى وجمال سالم وأحمد شوقي مع رئيس الوزراء المعين على ماهر فقط ، وكان جمال عبدالناصر فى القاهرة يرجعون إليه فى كل أمر دون أن يذكروا اسمه ، وبعدها مباشرة وقد تمت لهم السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد كان الوجه البارز والمعروف ضابط برتبة عالية يدعى محمد نجيب وهو أكبر الضباط سناً ، وفى هذا الخصوص ذكر جمال عبدالناصر ذات مرة أنه أمر ألا يذاع أو ينشر اسم أى من ضباط التنظيم الذين عرفوا فيما بعد باسم (الضباط الأحرار) والسبب فى ذلك كما قال : (إننى لم أكن أريد أن يحدث أى خلاف أو انشقاق فى صفوف هؤلاء الضباط لأننا بشر وأعداؤها فى هذا الوقت يمكن أن يستغلوا الفرص ويحدثوا الخلاف بتمجيد هذا أو ذاك وتفضيل البعض عن غيرهم ويمكن) وهذا متوقع (أن يحاولوا إثارة البعض واستعداد هذا ضد ذاك ، والإنجليز لهم باع طويل

وكبير فى هذا الشأن ، وكان لابد أن نحتاط بحيث نحافظ على وحدتنا وموقفنا ..
بداية التغيير :

بسرعة كبيرة ودون إراقة دماء أو حدوث مشاكل وهى التى كان ربما ينتظرها البعض ومنهم بريطانيا العظمى تخلص الضباط من الملك فاروق والمحيطين به ، وكان عليهم أن يواجهوا أموراً أخرى قد يصعب التعامل معها وهى :

١- الوجود البريطانى - قوات وقواعد وجواسيس وعملاء .

٢- الفساد المستشرى فى مرافق الدولة والمجتمع - رشاوى ومحسوبية وسيطرة أموال وتقديس ألقاب ... إلخ .

٣- فقر ينشب أنيابه فى أجساد سكان مصر ، عمال وفلاحين ومتوسطى الدخل وعاطلين ، وكان عدد هؤلاء يزيد على العشرين مليوناً من البشر (إذا صح أنهم يعاملون كبشر) .

٤- وأناس ذوى أنياب زرقاء سمتهم التعالى والغطرسة .

وكان لابد من الإسراع بالقرارات الحاسمة بحيث يحس كل المظلومين والمقهورين والمستغلين بأن التغيير يستهدف مصالحهم وحقوقهم وأن تلك الإجراءات من أجل تحريرهم من ربة الظلم والظيم والطغيان ، ولأن فترة التغيير لم يصاحبها عنف أو دماء فقد يحس البعض أن رجالها ضعاف أو مترددين ، وهم كانوا اثنى عشر ضابطاً من مجموع تسعون ضابطاً تحركوا ليلة الانقلاب أى أنهم جزء من تنظيم الضباط الذين عرفوا فيما بعد باسم (الضباط الأحرار) البالغ عددهم ثلاثمائة ضابط من مختلف أفرع الجيش ، وكانت القرارات :

١- إلغاء عادة انتقال الحكومة وراء الملك إلى الإسكندرية كل فترة صيف .

٢- إلغاء كل الألقاب التى كانت تمنح بالواسطة والرشوة كمظهر من مظاهر الإثارة والتبجيل مثل (بيك وباشا .. إلخ) .

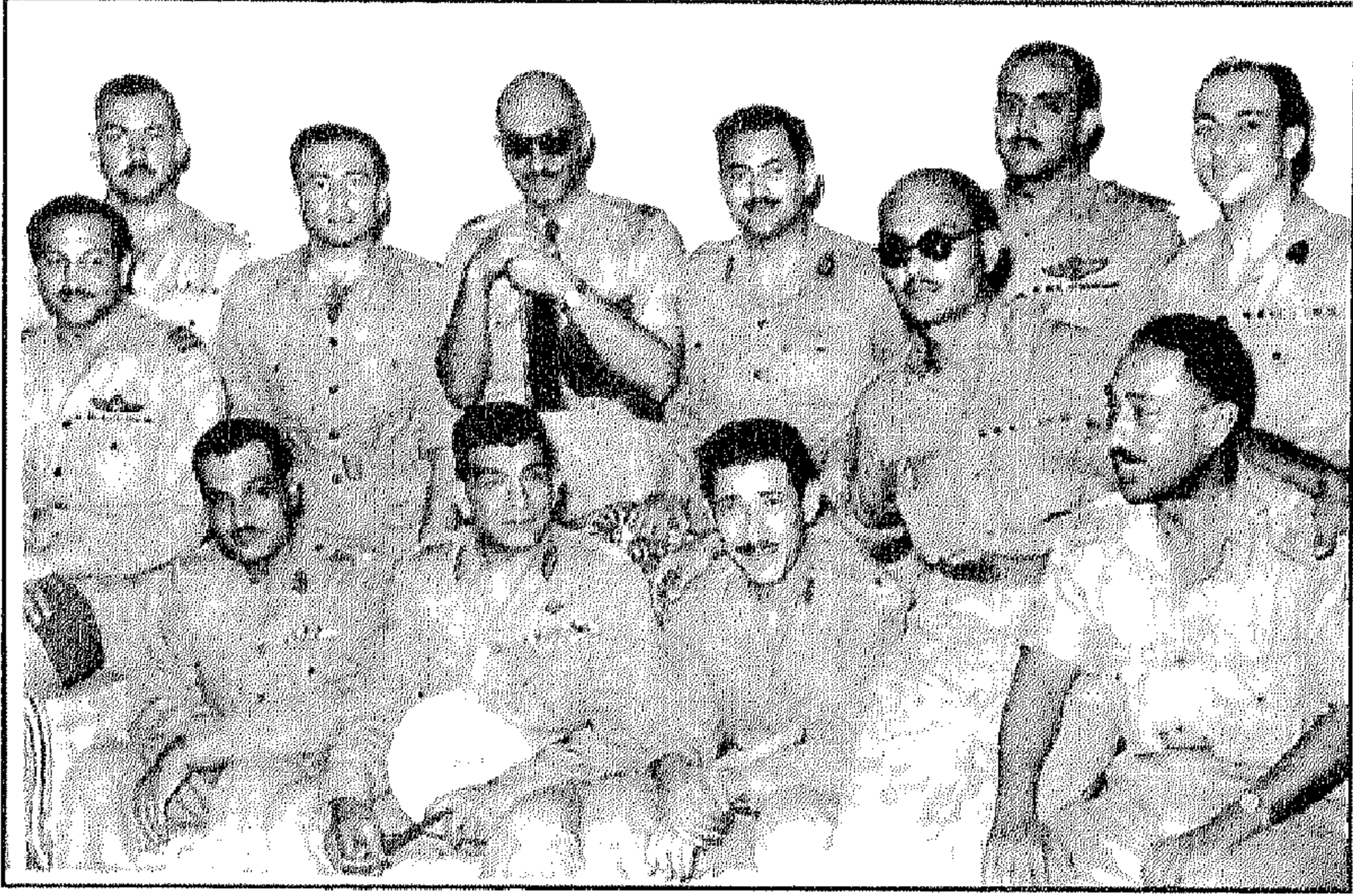
- ٣- تعيين أوصياء على العرش حيث كان ولى العهد الطفل (أحمد فؤاد) صغيرا وهى خطوة كانت من أجل التمهيد بعدها يتخذ الإجراء الذى كان يجول بأذهان الضباط إذ ليس من المعقول أن يتم الإبقاء على جزء من نظام حكم فاسد أطيح برأسه ، كذلك فقد كان هؤلاء الضباط حذرين من حدوث أى شغب قد تستغله بريطانيا وقواتها على بعد خطوات جاهرة للتدخل .
- ٤- إعلان مجانية التعليم لكل المواطنين الشئ الذى لم يكن متاحا لغير القادرين .
- ٥- وكذلك مجانية العلاج وهذه منحة أو هبة للعامل والفلاح خصوصا إذا علمنا أن ما يتقاضاه عامل التراحيل هو قرشان فى اليوم ولا يعمل إلا ثلاثة شهور فى السنة .
- ٦- قرار تشكيل هيئة خبراء يقدمون المشورة فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والقانونية والعلاقات الدولية ، وقد جمعت هذه الهيئة العديد من رجالات الخبرة ، علماء وأساتذة جامعات ومهندسون وقانونيون وأطباء.. إلخ .
- ٧- إقالة أول رئيس وزراء كانوا قد اختاروه بعد حدوث الانقلاب وهو (على ماهر) الذى تلقا فى تطبيق مشروع قرره الضباط كأول عمل لصالح الفلاحين والعمال وهو (قانون الإصلاح الزراعى) وكان هؤلاء قد أرادوا أن يطبق المشروع فورا من أجل تحرير الفلاحين من ملاك الأرض الإقطاعيين بحيث لا يبقى لأحدهم إلا مائتى فدان وتوزع بقية الأطيان على الفلاحين وتكون هذه الخطوة أول ما يقدم للفلاح المصرى الذى لم يملك فى حياته أرضا كذلك لأنهم يرون أن الإصلاح الزراعى وتوزيع الأرض من شأنه أن يخلق سوقا لتنمية الصناعة الوطنية ذلك أن الإنتاج المحلى يستطيع الفلاح والعامل أن يشتريه عندما يتوفر له دخل من إنتاجه، وتم تعيين اللواء محمد نجيب رئيسا للوزراء بدلا من على ماهر ، ومن المؤكد أن هذه الإجراءات وهى تستهدف مصلحة المواطنين تمثل رؤية شاملة للمستقبل وإرادة وطنية قوية لتحقيق تلك الرؤية حيث إنه لا يمكن تحقيق البناء الوطنى فى ظل الهيمنة الأجنبية والاستغلال والاحتكار وسيطرة القوى العميلة وبلا تحقيق العدل

الاجتماعى ، كذلك فإن هؤلاء الضباط عندما قرروا تسريع هذه الإجراءات ومنها كما قلنا مشروع الإصلاح الزراعى وتوزيع الأرض كانوا إنما يقررون فى نفس الوقت تغيير البنية الاجتماعية ويمكن القول إنهم أرادوا مواجهة الصعاب التى يتوقعونها فى وقت حدوده هم أنفسهم دون انتظار لتحرك تلك القوى التى ستضار بسبب تلك القرارات أو الإجراءات ، ولا بد أن اللواء محمد نجيب قد أدرك هذه الحقيقة عندما قال فى مذكراته التى أصدرها فيما بعد (لقد ظن عبدالناصر بكل عدم تروى ابن السادسة والثلاثين أن بمقدورنا أن نحول انتباه كل جزء من رأى العام المصرى إذا كان ضروريا من أجل أن نتمكن من تحقيق أهدافنا ، ولقد اعتقدت بكل تدبر ابن الثالثة والخمسين أننا بحاجة إلى أكثر قدر ممكن من التأييد الشعبى ، وأكثر من ذلك فقد كان اعتقادى أنه من الأفضل أن نضحى أو على الأقل نؤجل تحقيق بعضنا من أهدافنا لكى نضمن تحقيق باقى الأهداف ، وباختصار فإننى كنت أؤمن بأن نصف رغيف أفضل من لا شئ ، أما عبدالناصر فقد اقتنع بالمخاطرة خارجا عن حدود ما كان فى رأى هو الحكمة - فى محاولة للحصول على الرغيف كاملا (٥)

٨- هذا ما قاله اللواء محمد نجيب بعد أن فقد بريق الحكم والنياشين رغم إنه جدير بتلك النياشين لإقدامه وشجاعته فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م ثم شجاعته فى المواقف الكثيرة ضد نظام الحكم الملكى ، ولعله من الإنصاف القول : أن الإنسان عندما يفقد وضعه فى الحكم كيفما كانت الأسباب يتأثر نفسيا وبالتالى غالبا ما تكون كلماته أو كتاباته منعكسا عليها ذلك الوضع النفسى ولهذا نعتقد أن مذكراته حملت كثير من التجنى على الثورة وقادتها ، وسيكون الحكم فى ذلك للتاريخ ...

(٥) كتاب مصير مصر ، تأليف محمد نجيب ، ص (٢١٥ - ٢١٦) .

أعضاء اللجنة التنفيذية لضباط الانقلاب ويرى اللواء محمد نجيب فى الوسط
بين جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر .



كان اللواء محمد نجيب قد قدم للشعب على أنه قائد الثورة أو الانقلاب
ظاهريا أو هكذا فهم ، وكان الضابط الوحيد الذى يتحدث فى المناسبات وهى
كثيرة لتوضيح أهداف التغيير ويلتقى بالصحافة ووسائل الإعلام ليرد على الأسئلة
والاستيضاحات ، وهو فى الحقيقة لم يكن عضوا فى تنظيم هؤلاء الضباط الشباب
الذين قدموه كزعيم لهم بسبب من كونه ضابط كبير فى الرتبة العسكرية وفى
السن ، إضافة إلى أنه محترم وله تاريخ ناصع البياض فى الخدمة العسكرية وقد
أكسبته شجاعته وإقدامه فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م سمعة طيبة وكذلك
مواقفة من الملك والحكومة وعدم رضاه على ما كان يجرى فى البلاد عموما وفى
الجيش خصوصا قبل الانقلاب ، وهكذا صار بإرادة هؤلاء الضباط الشباب رئيسا
للوزراء وقائدا للجيش ورئيسا للجمهورية لأنهم رأوا فيه من خلال ماضية
الاستقامة والأمانة لضابط يريدونه واجهة لثورتهم أو انقلابهم ، وعلى هذا الوضع
حظى اللواء محمد نجيب بتأييد شعبى منقطع النظير ، ومع الوقت وخلال المسيرة
الظافرة وبريق المناصب حدث الخلاف فى رأى والتناقض فى المواقف بينه وبين

الضباط الأحرار وكلهم كانوا برتب عسكرية أدنى منه وفي أعمار أصغر ، وكان لا يستسيغ تطلعاتهم الجامحة ورغباتهم في تحقيق كثير من الأعمال وإقدامهم على قرارات يراها غير صائبة ، وفي هذا الوقت كان الخلاف قد دبّ بشكل ينذر بأحداث مخيفة بين الضباط وحركة الإخوان المسلمين لأن هؤلاء اعتقدوا أن من حقهم أن يملوا شروطهم أو على الأقل أن يستشارون فيما يجب أن يتخذ من قرارات ومنها تشكيل الوزارة ، وحدث أنه قد طلب منهم ترشيح أربعة من الأعضاء بحيث يمكن اختيار اثنان منهم ليكونا وزيرين في الحكومة الجديدة لكن مكتب المرشد العام للجماعة أرسل أسماء أربعة وطلب تعيينهم جميعا في مناصب وزارية ولما لم تتم الموافقة على تعيين الأربعة رفض المرشد العام أن يشغل أى عضو من الإخوان منصب وزارى أو غيره ، وكان أن وقع الاختيار من جانب ضباط الجيش على الشيخ أحمد حسن الباقورى ليكون وزيرا للأوقاف في الوزارة الجديدة وقد استشير فوافق وما كان من المرشد العام الأستاذ الهضيبي إلا أن فصله ، ومن هنا بدأ الخلاف والاحتكاك واتجه كل جانب وجهة مختلفة ، الضباط يريدون الحفاظ على حركتهم وهم أصحاب حق ، والإخوان وهم أصحاب جهد وتضحيات خصوصا أثناء العمليات الفدائية ضد الإنجليز في السويس وخلال حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ م ، ولقد انصرف الضباط إلى ترتيب البيت الداخلى وهم يتوجسون خيفة من كل شئ وصار الإخوان يبحثون عن نقاط الضعف ليستغلوها إما لفرض شروطهم أو للإطاحة بالحكم الذى يقيمه هؤلاء الضباط الشباب ككل ، وكان هذا الذى وصل إليه الطرفان (الخلاف والمواجهة) خسارة لهما في وقت واحد في تلك الفترة الحرجة ، وإذا كان الإخوان قد قرروا فرض رغباتهم أو مشرووعهم ولو بالقوة صاروا يترقبون أى بادرة خلاف أو ثغرة في الصف يمكن أن يضربوا من خلالها أو ينفذوا منها ، وسرعان ما بان الخلاف ولاح الضوء من الثغرة بين ما حدث من الصاغ صلاح سالم وزير الإعلام في الوزارة الجديدة ضد اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية (وأبناء سالم صلاح وجمال) يتمتعان بقدر كبير من التهور حتى إن جمال سالم كان أكثر المتشددين بشأن شنق

الملك فاروق وعدم الموافقة على إخراجهم من البلاد سالما وبسبب إصراره كان قد أثر على عدد من زملائه الأعضاء وكان يمكن أن يشنق الملك فاروق لولا موقف جمال عبدالناصر الذى وصل إلى درجة التهديد بالاستقالة إن هم أصرروا على شنق الملك، وإضافة إلى ذلك كانت هناك قضايا ملحة تشغل بال وقت هؤلاء الضباط منها مطلب جلاء القوات البريطانية التى كانت تقبض على رقاب الناس وتجتثم على صدر مصر منذ قرابة ثمانية عقود من الزمان وبجانبها المناورات وتحسين الفرص التى تقوم بها القوى المعادية للنظام الجديد محلية ودولية ، وفى شأن هذه القضايا كان موقف اللواء محمد نجيب مخالفا وقد أظهر معارضته لتناولها فى وقت مبكر ولهذا التقى موقفه بشكل مباشر أو غير مباشر مع مواقف وآراء جماعة الإخوان المسلمين وغيرهم من المعارضين ولا يعرف بداية ما إذا كان نجيب قد سعى إليهم أو أنهم هم الذين انتهزوا الفرصة ومدوا أيديهم إليه باعتباره الرئيس الذى يمكن أن يكون ممسكا بمقاليد الأمور فى حين أنهم (كما كانوا يعتقدون) يحوزون على تأييد شعبى هائل فى البلاد يمكن تحريكه فى أى لحظة ، ويظن أنهم أقنعوا نجيب بأن يفجر الصراع فى الوقت المناسب وذلك بتقديم استقالته وذلك ما فعله فى ٢٣ يوليو ١٩٥٥ وحدث فى نفس الوقت نوع من الإضراب أو العصيان عندما عقد ضباط سلاح الفرسان (المدرعات) اجتماعا أعلنوا منه بعض المطالب منها :

١ - تعيين قائد عام للقوات المسلحة يكون من الضباط القدامى الذين يتمتعون بالخبرة والمقدرة (وهذا يعنى رفضهم لتعيين عبدالحكيم عامر قائدا عاما للجيش) .

٢ - إلغاء تعيين وترقية عبدالحكيم عامر كقائد عام للقوات المسلحة .

٣ - حل مجلس قيادة الثورة (الانقلاب) وعودة أعضائه إلى وحداتهم العسكرية بالجيش ، وكان قبل هذا الوقت قد أعلن عن أسماء أعضاء مجلس قيادة الثورة .

وعلى الرغم من أن جمال عبدالناصر ومعه حسين الشافعى قد حاولا التفاهم مع ضباط سلاح الفرسان رغبة فى تهدئة الوضع وإقناع هؤلاء الضباط ومنهم عدد من الضباط الأحرار وعلى رأسهم خالد محيى الدين لكنهما فشلا وكان الرد قد جاء سريعا عندما تسرب خبر العصيان أو التمرد وتلك المطالب التى

قدمها ضباط سلاح الفرسان حيث تحرك عدد كبير من ضباط الجيش كرد على ضباط سلاح الفرسان وحاصروا مقر القيادة العامة للقوات المسلحة مطالبين باستمرار مجلس قيادة الثورة وعدم ترك مواقعهم بحيث لا تسرق الثورة ، وهكذا اجتمع أعضاء المجلس وقرروا عدم قبول استقالة اللواء محمد نجيب وبقاءه رئيسا للجمهوريه واختيار خالد محي الدين رئيسا للوزراء ، وكان محمد نجيب فى هذا الوقت مضربا عن العمل ومقيما فى منزله بحلمية الزيتون إلا أنه وافق على العودة عن الاستقالة عندما بلغ بما تم الاتفاق عليه وأعلن بالإذاعة ، وهو فى معنى ما نصرا مؤزرا إلى حين ، على أن الوضع ظل متوترا والأعصاب مشدودة والمقابض على السلاح وكاد أن يحدث التقاتل بين مختلف وحدات الضباط المؤيدين والمعارضين وحدث أن حاصر سلاح المدفعية ثكنات سلاح الفرسان ووجهت مدافع الميدان والمدافع المضادة للدبابات إلى المدرعات التى يتوقع تحريكها وكانت هذه القوات بقيادة ضباط قتل : إنهم موالىون لجمال عبدالناصر وهم :

١- أبو الفضل الجزاوى

٢- أحمد شهب

٣- سعد زايد

٤- وإبوالىسر الأنصارى

٥- وعماد رشدى

وفى ذات الوقت تحرك البوليس الحربى بمختلف قواته ليحاصر مناطق العباسية وكوبرى القبه وكان له أن اعتقل كل ضباط سلاح الفرسان الذين كانوا متجهين إلى أماكن وحداتهم وقد بلغ عددهم بين ٣٥ - ٤٥ ضابطا ، كما كان سلاح الطيران الموالى للثورة يحلق فى الأجواء أيضا بقيادة الضباط المؤيدين لمجلس قيادة الثورة ، ولأن الأمر صار فى حقيقته مؤامرة على الثورة أوصى بها أو رتبها الإخوان المسلمون عن طريق اللواء محمد نجيب وحركتها استقالته (ربما فى الوقت غير المناسب) فقد تقرر اعتقال اللواء نجيب وأمر الصاغ كمال رفعت وعدد

من الضباط بالتوجه إلى منزله بحلمية الزيتون ليحتجزوه في منطقة المأظه (بنادى الضباط) ولكن عبدالحكيم عامر لم يقبل بهذا التصرف وما كان منه إلا أن أعاد اللواء نجيب إلى بيته وكان غاضبا حتى إنه طالب بطرد الذين قاموا بهذا العمل من مناصبهم مهما كانت أهميتها (وربما كان تعاطفه مع نجيب يعود إلى كونه هو الذى قدمه أصلا وزكاه لدى عبدالناصر ليكون واجهة للانقلاب) وأن خالد محي الدين أيضا كان وراء أحداث تمرد ضباط سلاح الفرسان فقد طالب البعض باعتقاله وأخيرا رأى أن يمنح أجازة مفتوحة يقضيها فى أوربا ويذكر أنها لأسباب صحية ، وفى هذه الأثناء عندما تسربت أخبار ما لحق باللواء محمد نجيب جرت مظاهرات وإضرابات مؤيدة له وكاد الوضع أن ينفجر حتى داخل القوات المسلحة إذ هددت بعض الأجنحة باستخدام القوة العسكرية لإعادة محمد نجيب وحتى فى السودان جرت مظاهرات تأييد له سارت فى شوارع الخرطوم تهتف بحياته (تعاطفا معه لأن أمه سودانية) ولقد اضطر أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى التراجع مؤقتا من أجل تهدئة الوضع فعقدوا اجتماعا طارئا فى ٢٧ فبراير ١٩٥٤م وأعلنوا موافقتهم على عودة محمد نجيب رئيسا للجمهورية وما كان من نجيب وقد وافق على العودة إلا أن ظهر ليلقى خطابا من مقره فى قصر عابدين وكان يمكن أن يمر ذلك دون إثارة لشكوك لكن الذى حدث أن أحد زعماء الإخوان المسلمين كان يقف إلى جانبه وقد ألقى خطابا هو الآخر فى المتظاهرين المؤيدين لعودة نجيب الشئ الذى مثل تحديا للضباط وهو ما أكد لرجال الانقلاب أن نجيب يخطط للعمل مستعينا بالإخوان المسلمين علنا وخصوصا أن الذى ظهر بجانبه كان (عبالقادر عوده) أحد الذين دارت حولهم شبهات التآمر ، وإن لم يكن نجيب قد خطط لذلك فلا بد أن الإخوان هم الذين استطاعوا استخدام نجيب ، وفى أى الحالين فإن ذلك يعد عملا مضادا للتغيير ولتوجهات هؤلاء الضباط ، وقبل هذه الأحداث كان الإخوان قد أوحوا لبعض العناصر بمهاجمة ضباط الجيش الذين استولوا على الحكم بالقوة فى خطب الجمعة علما بأن مكتب المرشد العام للإخوان المسلمين كان فيما سبق وبعد اتخاذ قرار حل الأحزاب قد أطلق على حركة الضباط تعبير (الحركة المباركة) ذلك أن قرار حل الأحزاب الذى اتخذ سنة

١٩٥٣م لم يشمل تنظيم الإخوان حيث تأخر حل حركتهم إلى سنة ١٩٥٤م عندما توضح موقفهم من كل إجراء يقدم عليه ضباط الانقلاب ، ولقد تم إبلاغ محمد نجيب بواسطة عبدالحكيم عامر عن خطورة التعاون مع الإخوان لكنه رفض التوقف بل بالغ فى توسيع النشاط الذى كان يخشاه الضباط فمد يده لأعضاء ما كان يعرف بالحزب الاشتراكى والتنظيمات الشيوعية هؤلاء الذين يقفون موقفا مشابها للإخوان المسلمين من حركة التغيير ، أما الضباط فقد كانوا رغبة فى إتقاء العاصفة التى قد تطيح بالجميع قد قرروا اتخاذ خطوات اعتقدوا أنها ستهدى الوضع المتفجر ، وهى :

- ١- إلغاء الأحكام العرفية .

- ٢- إلغاء الرقابة على الصحف .

- ٣- إقامة جمعية تأسيسية بالاقتراع الحر العام تعقد أول اجتماع لها فى يوليو ١٩٥٤م بحيث تبحث فى مشروع الدستور وإتمام المهام التشريعية إلى أن ينتخب مجلس نيابى طبقا للدستور الذى تقره هذه الجمعية التأسيسية على أن يتم إلغاء الأحكام العرفية قبل الجمعية التأسيسية وعلى أن يمارس مجلس قيادة الثورة السلطة إلى أن تتم إقامة الجمعية التأسيسية التى تنتخب انتخابا حرا وبلا قيود .

- ٤- الإفراج عن الضباط الذين اعتقلوا خلال أحداث مارس وما عرف بقضية سلاح الفرسان .

- ٥- لا يتم حرمان أحد من حقوقه السياسية فيما عدا أولئك الذين أخضعوا لقانون الإصلاح الزراعى (أى الإقطاعيون والرأسماليون وملاك الأراضى من الباشاوات) والذين كانوا وزراء قبل التغيير فى سنة ١٩٥٢م .

- ٦- السماح بحرية تكوين الأحزاب .

- ٧- حل مجلس قيادة الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٤م بحيث يتم تسليم حكم البلاد لممثلى الشعب .

٨- يتم انتخاب رئيسا للجمهورية من طرف الجمعية التأسيسية حال انعقادها ..



لكن هذه القرارات لم تفد شيئا بل هى بالعكس زادت من نشاط أولئك الذين اعتقدوا أن الفرصة سانحة للتخلص نهائيا من الضباط الذين قادوا بالتغيير إذ إن قراراتهم هذه تعنى العجز عن مواجهة المعارضة وعدم القدرة على حكم البلاد ، وكانت أغلب تلك الأنشطة المضادة بإيعاز أو بالتعاون مع اللواء محمد نجيب الذى وقع تحت تأثير عدة عوامل ربما كانت سببا فى هذا الموقف ، منها:

١- إحساسه بأن هؤلاء الضباط الشباب الذين جاؤا به سوف يتخلصون منه بشكل (ربما مهين وهو الضابط المحترم) وبالتالي لابد أن يسبقهم .

٢- وأنه رمز للثورة أو بمعنى ما أصبح قائد الانقلاب الذى لولاه ما كان يمكن أن ينجح كما أفهمه أولئك المقربون منه أو المتعاونون معه وبشكل محدد الإخوان وقيادات حزب الوفد .. إلخ ومن المؤكد أن تعاونه فى بداية الثورة عمل يحسب لصالحه ، ولقد كانت المراهنة خاسرة بكل المقاييس سواء من جانب اللواء نجيب أو من جهة الإخوان المسلمين وقيادات حزب الوفد ..

وفى مواجهة هذه التحركات التى كانت أجهزة الحكم الجديد ترصدها بدقة تقرر مواجعتها بانقلاب مضاد وباتخاذ قرار إلغاء تلك الإجراءات التى أعلنت فى ٢٥ مارس سنة ١٩٥٤م بشأن الجمعية التأسيسية وحرية تكوين الأحزاب .. إلخ ، وهكذا تم تحريك بعض القوى المرتبطة والمستفيدة من التغيير وهى :

١- نقابات العمال . ٢- بعض قطاعات الطلبة .

٣- القوى الوطنية الأخرى التى كانت تدرك مفاسد الحكم السابق .

وفورا أعلن المؤتمر العام لنقابات العمال الإضراب العام من أول مارس ١٩٥٤م مطالبا بإلغاء القرارات التى اتخذت منها حل مجلس قيادة الثورة ، واشترك فى الإضراب نقابات النقل العام وسائقى سيارات الأجرة وعمال السكة الحديد وعمال الغزل والنسيج ، ونتج عن هذه الإجراءات الاحتياطية المضادة

لإعداد التغيير أن أقيـل اللـواء محمد نجيب الذى كان يراد له من طرف المعارضين للضباط أن يمثل ضمانتهم داخل القوات المسلحة ، كذلك إقالة خالد محى الدين من مجلس قيادة الثورة وهو الذى اعتبر مؤيدا لنجيب وسببا فى أحداث مارس ١٩٥٢ م وكان لابد من الإسراع فى ترتيب الأمور فاتخذت القرارات التالية :

- ١ - تعيين جمال عبدالناصر رئيسا لمجلس الوزراء .
- ٢ - اعتقال الضباط التابعين لسلاح الفرسان (المدرعات) وهم الذين حاولوا التمرد على القيادة واعتبر عملهم محاولة لقلب نظام الحكم الجديد .
- ٣ - اعتقال قيادات الإخوان المسلمين الذين كانوا سببا فى دفع اللواء نجيب إلى ما قام به محاولين معه الانقلاب على الانقلاب .
- ٤ - اعتقال بعض قيادات الشيوعيين الذين أثاروا كثيرا من الشغب حسب تقديرات أجهزة الأمن والمخابرات ، ولقد قالت تلك التقارير إنه من الغريب أن يلتقى الشيوعيون والإخوان على موقف واحد من التغيير وفى ترتيب مؤامرة قد تدمر البلاد إذا ما صحت تقارير المخابرات ، وكانت نتيجة فترة الاضطراب هذه ما يلى :

- ١ - حل الأحزاب السياسية .
- ٢ - عزل اللواء محمد نجيب .
- ٣ - حل تنظيم الإخوان المسلمين .
- ٤ - تعطيل بعض الصحف (صحيفة المصرى) .
- ٥ - القبض على ضباط سلاح الفرسان .
- ٦ - حل نقابة الصحفيين .
- ٧ - حل نقابة المحامين .
- ٨ - إقالة خالد محى الدين من المجلس .

وكان الجهاز السرى للإخوان المسلمين قد حاول اغتيال جمال عبدالناصر يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤م وإذ كانت المحاولة قد فشلت حيث تم القبض على الجانى المدعو (محمود عبداللطيف) وبالتالى القبض على أغلب عناصر الجهاز السرى للإخوان وتكشفت خطوط المؤامرة وكان من ضمن عناصرها اللواء محمد نجيب ..

وإلى هنا أسدل الستار على حياة رجال وتنظيمات كانت تطمح إلى تولى الحكم من بين أيدي الضباط الذين قاموا بالتغيير ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، وبدأت مسيرة طويلة وشاقة أخرى ستواجهها مؤامرات وحروب وتقلبات ، الحكم فيها وفى أسبابها ونتائجها للتاريخ على أننا سنرويها دون تحيز أو تغيير .



الفصل الثالث

التنمية الوطنية (الخطوات التى يتوقع فيها

أن يزدهر الحاضر ويولد المستقبل ..)

١- فتح الأبواب رغبة فى الاستثمار الأجنبى .

٢- بناء التنمية الوطنية .

٣- المشاريع الصناعية والزراعية .

الفصل الثالث

التنمية الوطنية

الخطوات التى يتوقع فيها

أن يزدهر الحاضر ويولد المستقبل ..

١ - فتح الأبواب رغبة فى الاستثمار الأجنبى .

٢ - بناء التنمية الوطنية .

٣ - المشاريع الصناعية والزراعية .

فى أول اجتماع لهيئة الخبراء برئاسة جمال عبدالناصر أولئك الذين تم اختيارهم سنة ١٩٥٢م من مختلف القطاعات والتخصصات طرح عبدالناصر سؤالاً بسيطاً (كيف نبني ، وعلى ماذا ؟) فقبل له :

١ - التعجيل بمعدل النمو والتوزيع العادل للنتاج الوطنى .

٢ - إجراء تغيير أساسى اجتماعى بحيث يمنع ملاك الأراضى والثروات الزراعية من تعطيل التغيير الإقتصادى .

٣ - إصدار قانون خاص بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية بحيث يحدث التوازن بينهما .

٤ - تأسيس هيئة للتخطيط الوطنى تكون مهمتها جمع البيانات وتحليلها بحيث تقدم للجهات المختصة فى كل فرع من فروع التنمية .

ومقابل هذا لابد من دور حاسم للدولة لأنه لا يمكن أن يتحقق البناء والتطوير المستقبلى ما لم تمتلك الدولة أعنة قطاع إنتاج كبير ، وفتح الباب لرأس المال الأجنبى من أجل الاستثمار واستمر البحث والنقاش لتحديد أساس

موضوعى للعمل وخطة قابلة للتنفيذ على ضوء إمكانيات البلد العلمية والفكرية والفنية والتنفيذية والمالية فى وقت كان فيه أمام عبدالناصر ورجاله أهم مشروع يروونه عاجلا لتحقيق طموحاتهم فى نوع من التوازن وإحداث كثير من التغيير ، ذلك هو مشروع الإصلاح الزراعى الذى من أجله أطيح بأول حكومة كانت برئاسة مدنى هو (على ماهر) الذى جاؤا به بعد الانقلاب مباشرة ، وتنفيذ هذا المشروع كان يعنى الكثير وقتئذ من وجهة نظرهم وطبقا لنصائح الخبراء :

- ١- يعنى تحرير الفلاح المصرى من الاستغلال والعبودية .
- ٢- يعنى تملك قطعة أرض زراعية لفلاح لم يحلم فيما مضى بتملك شبر من هذه الأرض .
- ٣- يعنى تحرير الفلاح من كرباج (الباشا) وضيمة وغطرسته .
- ٤- يعنى أن خمسة عشر مليونا من الفلاحين المصريين سيملكون أرضا زراعية وسيعملون لأنفسهم ويحسّون بكرامتهم ، خمسة عشر مليونا من مجموع السكان وقتذاك البالغ عددهم واحدا وعشرون مليونا ، أى أكثر من ثلثى سكان مصر .
- ٥- يعنى أبلغ ما يعنى تحرير لقمة العيش لإنسان كان مقهورا مستغلا لعدة قرون من الزمان .

هذا مجمل ما كان يعنى ويستهدف أول مشروع أراده هؤلاء الرجال ، ولقد كانت مساحة الأرض الزراعية أو المزروعة قبيل حدوث التغيير سنة ١٩٥٢م ستة ملايين فدان فقط منها خمسة ملايين فدان مملوكة لقلّة من السكان (٦) ولذلك حدث إنه فيما يتعلق بتعجيل معدل النمو والتوزيع العادل للنتاج الوطنى صدر قانون الإصلاح الزراعى رقم (١٧٨) فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢م الخاص بتوزيع الأرض وتنظيم الزراعة التعاونية وهو القانون الذى وضع حداً للملكية الفرد بما لا يزيد على ٢٠٠ فدان مع إمكانية إضافة ١٠٠ فدان أخرى للزوجة والأولاد وما زاد

(٦) إحصاء سنة ١٩٦١م - النشرة الاقتصادية .

عن ذلك يصادر ويوزع على الفلاحين بين فدانين إلى خمسة فدادين لكل مزارع ويقوم التوزيع ونسبته على أساس عدد أفراد أسرة الفلاح وعلى صلاحية الأرض الموزعة ، وكان الغرض الأساسى المستهدف من هذا القانون محو القيود الاقتصادية والاجتماعية بحيث تنقل ملكية الأرض من قلة محتكرة إلى أغلبية محرومة، ذلك أن تلك القلة كانت تسيطر على كل شئ بما فى ذلك القرار السياسى وورقة الانتخاب أو حتى إذن الدفن بسبب الثروة والمكانة الاجتماعية التى كانت تحدها ملكية الأرض والمال ، وهذان الوضعان (المكانة والثروة) كانا إما بالإرث أو الاغتصاب ، والأخيرة هى الأرجح، وبصدور وتنفيذ هذا القانون وضع حداً للملكية الزائدة وأحدث التغير الاجتماعى المطلوب.

أما بالنسبة للتفسير الأساسى الاجتماعى بحيث يمنع ملاك الأراضى من تعطيل ذلك التغير فقد صدر قانون ثانى للإصلاح الزراعى برقم (١٢٧) بتاريخ ١٥ يوليو ١٩٦١م أنقص حق ملكية الفرد من ٢٠٠ فدان إلى ١٠٠ فدان كما حدد هذا القانون نسبة الأراضى المستأجرة بما لا يزيد على ٥٠ فدان ، ويذكر تقرير الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء بمصر أن مجموع ما وزع على صغار الملاك بلغ حوالى مليون فدان (٧) ..

وبالنسبة للقانون الخاص بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية بحيث يحدث التوازن بينهما فقد نص الدستور الذى صدر بقرار جمهورى فى ١٦ يناير ١٩٥٦م على التنمية المخططة والتنظيم الاجتماعى والاقتصادى للسكان حيث جاء فى المادة (٧) ما يلى :

(يتم تنظيم مبادئ العدل الاجتماعى واستهداف تشجيع الإنتاج ورفع مستويات المعيشة) وهذا يعنى بكل وضوح أن الدولة يتعين عليها أن تعنى بسرعة التنمية الاقتصادية خدمة لعامة الشعب ، وإن تكون التنمية فى المجالين

(٧) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء - القاهرة .

(الاقتصادى والاجتماعى) متوازية بحيث يحدث فيما يتعلق بالجانب الاقتصادى أن تكون سياسة الدولة تتركز على الإسراع فى التنمية ورفع مستوى الإنتاج المحلى لمواجهة تزايد السكان وتحقيق نوع من الرفاهية ، ومن الجانب الاجتماعى تسريع الخدمات لمواجهة زيادة الاستهلاك الذى سيحدث من جانب مواطن يتحسن دخله إذ إنه لا يمكن إيجاد سوق للإنتاج المحلى دون تقدم فى الإنتاج الزراعى لأن الفلاحين وهم النسبة الكبيرة بين السكان سوف تزايد دخولهم وبالتالي يقدمون على شراء الإنتاج المحلى كما تتحسن معيشتهم ، وينتهى حرمانهم الذى عانوا منه طويلا (٨) .



وبالنسبة لتأسيس هيئة تعنى بالخطيط الوطنى تكون مهمتها جمع البيانات وتحليلها لتقدم إلى جهات الاختصاص فى مختلف الفروع ، فقد شكلت لجنة التخطيط الوطنى سنة ١٩٥٧م وهى تابعة فى البداية لرئاسة الجمهورية ولكن فيما بعد رأى أن تلحق بوزارة التخطيط التى أنشئت هى الأخرى بعد الهيئة مباشرة ، وكانت تلك الهيئة تجمع نخبة ممتازة من خبراء الاقتصاد والإصلاح الزراعى والصناعة والكهرباء والنقل والمنافع العامة والخدمات والصرف الصحى والمياه الجوفية والمواصلات والتجارة والسياحة .. إلخ ونتيجة للبحوث والدراسات الفنية والعلمية الدقيقة تقرر أول خطة خمسية يتوقع خلالها إنجاز قرابة ألفى مشروع خدمى وإنتاجى (زراعى اقتصادى صناعى تجارى) ولقد كانت الخطة الخمسية الأولى هذه تستهدف تحقيق مجموعة من المشاريع التنموية وهى :

- ١ - خلق توازن بين التوسع فى إنتاج السلع والزيادة فى إنتاج الخدمات بحيث يكون التوسع فى إنتاج السلع المصدر المناسب الذى يضمن الزيادة فى إنتاج الخدمات .
- ٢ - إيجاد الحلول الواقعية التى تضمن زيادة الدخل الوطنى التى من خلالها يمكن ارتفاع المستوى المعيشى للسكان يتوافق مع تزايدهم المستمر .

(٨) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء - القاهرة .

٣- تحقيق توسع كبير فى الصناعات دعما للاستقلال الوطنى بحيث تكون عماد الاقتصاد الوطنى مما يتوافق مع الزيادة الممكنة فى الإنتاج الزراعى .

٤- خلق فرص للعمل بحيث يقضى على البطالة أو التخفيف منها حتى يحس المواطن بفائدة الخطة وأهدافها .

٥- تحقيق العدالة الكاملة والصحيحة فى التوزيع بزيادة الإنتاج الذى يرسى القاعدة لعدالة التوزيع .

٦- إيجاد الحلول لأى عجز قد يطرأ فى ميزان المدفوعات مع الخارج أثناء المرحلة الأولى للتنمية بحيث لا يحدث العجز فى المدفوعات ويحدث التراكم .

لقد كانت الخطة الخمسية هذه تشير وتحدد أهداف الإنتاج لكل فرع من أفرع الاقتصاد والعمالة فى كل منها والزيادة المستهدفة فى القيمة المضافة ومصادر استخدامات السلع الرئيسية فى الاستيراد والتصدير وتوقعات الزيادات السكانية والتحويلات المحلية والخارجية .

وثانيا : كان الهدف المباشر الثانى من الخطة زيادة حجم الإنتاج الوطنى لتحديث استفادة الناس ، ولابد أن الزيادة فى الإنتاج يقابلها زيادة فى الأيدى العاملة المدربة وهذا يؤدى إلى تسيير العمل الإنتاجى بشكل جيد تكون فيه الفائدة لأكبر عدد من الناس مما يعنى عدالة اجتماعية حقيقية ، وكذلك فإن هذا يوفر موردا ثابتا لدخل الفرد فلا تحدث الكثرة دون إنتاج ولا القلة من العمالة خلال سنوات الخطة الخمسية هذه ، وتأخذ الخطة فى تقديراتها بشكل جلى العمل فى الإنتاج الزراعى الذى يفى باحتياجات تلك القوى العاملة التى ربما تكون زائدة ، وحيث إن الزراعة فى بلد نامى تكون أساس البناء الاقتصادى وتدعيم سوق الإنتاج المحلى فلا بد من اعتبارها تفى بالتالى :

١- الدخل المناسب لسكان الريف وهم الغالبية من عدد السكان .

٢- تتمثل فيها النسبة العالية لسد حاجات الفرد من استهلاكه اليومى .

٣- تقدم للصناعات المحلية ما تحتاج نسبيا من الخدمات المطلوبة التي تساعد على التبادل التجارى المنتج مع مختلف الدول .

٤- توسع سوق المنتجات المحلية ذلك أن توفر الإنتاج لدى الفلاح يوفر له دخلا يمكنه من شراء السلع .

٥- تتكون مع الصناعة دعامة النشاط الاقتصادى .

وقد أستهدف الجزء المتعلق بالصناعة فى الخطة الخمسية عدة أمور هامة على أساس أن تنفيذ هذه الخطة سيرفع من مستوى الإنسان المصرى المعيشى بحيث يتقدم فى معاشه وسكنه وكذلك ترتقى الخطة إلى مستوى مواجهة الزيادة السكانية مع ملاحظة ذات أهمية فى الوقت الذى ينصب فيه الاهتمام على توفير السكن المناسب فإن ظاهرة سكنى المقابر لم تكن موجودة فى ذلك الوقت بينما هى الآن قاعدة وليس استثناء فقد بلغ عدد سكان المقابر عدة ملايين بل إن الأحزاب ومراكز الشرطة صارت لها مكاتب ومقار فى تلك المقابر ، وكان المتوقع أن يحدث :

١- توفير فرص العمل الدائم للمواطنين بحيث تنتهى أزمة البطالة .

٢- زيادة الدخل الوطنى باستغلال الموارد وثروات البلاد الطبيعية .

٣- تحسين وضع المنتجات للتصدير من أجل الحصول على النقد الأجنبى وكذلك الميزان التجارى .

٤- تحرير الاقتصاد الوطنى من تبعيته للاقتصاد الأجنبى وحمايته من التدخل والتأثير .

ثم اهتم المخطط بالعناصر الأخرى المرافقة للإنتاج سواء أكان زراعيا أو صناعيا إضافة إلى العنصر البشرى وتمثل ذلك فى :

١- المواصلات . ٢- النقل .

٣- التخزين .

وقدرت دراسات وزارة التخطيط وكذلك الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء فى مصر أن تنهض وتحقق الخطة الخمسية ما يلى :

- ١ - ٤٠٪ زيادة فى الدخل الوطنى سنة ٥٩ - ٦٠ .
 - ٢ - ٤٢٪ زيادة فى إجمالى الإنتاج الوطنى سنة ٦٤ - ٦٥ .
 - ٣ - إجمالى الإنتاج الوطنى التئوى سىبلغ قرابة ٨٪ عند انتهاء الخطة الخمسية الأولى .
- ويورد شوقى عبدالناصر فى كتابه (ثورة عبدالناصر) إحصائيات كثيرة فى الصناعة والزيادة نستدل بجزء منها فى الصناعة ، يقول :

- ١ - سنة ١٩٥٢م كان الدخل القومى لمصر ٦٦٠ مليون جنيه .
- ٢ - سنة ١٩٥٩ أصبح الدخل القومى لمصر ١٣٠٠ مليون جنيه .
- ٣ - سنة ١٩٥٢م كان إنتاجنا الصناعى ٢٣٩ مليون جنيه .
- ٤ - سنة ١٩٥٩م أصبح إنتاجنا الصناعى ٥٠٥ مليون جنيه .

ثم يضيف :

- ١ - زاد إنتاجنا حتى نهاية ١٩٥٩م من غزل القطن بنسبة ٧١٪ .
- ٢ - زاد عدد المغازل فى نفس التاريخ بنسبة ٣٤٠٪ نفس المدة .
- ٣ - زاد إنتاجنا من الأسمنت الأزوتى بنسبة ١٣٥٪ نفس المدة .
- ٤ - زاد إنتاجنا من الأسمدة ٥٦٪ نفس المدة .
- ٥ - زاد إنتاجنا من السكر بنسبة ٧٠٪ .
- ٦ - زاد إنتاجنا من الورق بنسبة ١٤١٪ .
- ٧ - زاد إنتاجنا من غزل الصوف بنسبة ٢٣٥٪ .
- ٨ - زاد إنتاجنا من نسيج الصوف بنسبة ١٨٠٪ .
- ٩ - زاد إنتاجنا من غزل الحرير الصناعى بنسبة ٢٠٠٪ .
- ١٠ - زاد إنتاجنا من نسيج الحرير الصناعى بنسبة ٩١٪ .

- ١١ - زاد إنتاجنا من غزل الجوت بنسبة ٢٢٣ ٪ .
- ١٢ - زاد إنتاجنا من مسطح الزجاج بنسبة ٢٦٤ ٪ .
- ١٣ - زاد إنتاجنا من البطاريات السائلة بنسبة ٣٧٢ ٪ .
- ١٤ - زاد إنتاجنا من المصابيح الكهربائية بنسبة ٢٠٠ ٪ .
- ١٥ - زاد إنتاجنا من خامات الألوان بنسبة ٣٨٠ ٪ .

ولا ينتهى الأستاذ شوقى عند هذا الحد بل يقدم مئات الإحصائيات فى الصناعة والزراعة فى مختلف وسائل الإنتاج الخفيف والثقيل .. إلخ ولقد أردت أن أستدل ببعض منها فقط كنموذج من نتائج الخطط التى أعدت وقتذاك فى كل المجالات الصناعية والزراعية والاقتصادية والثقافية وغيرها على الرغم من أننى أردت بكتابتى هذا أن أبتعد عن الصياغات الجاهزة أو الكتابات المكررة حتى لو كانت عن جمال عبدالناصر الذى أسعى أن أقدمه فى ثوب مختلف كما عرفته عن قرب وما سمعته من أولئك الرجال الذين كانوا معه وعونا له ..



ونجد جمال عبدالناصر وهو يبدش أول خطوات تنفيذ الخطة الخمسية يقول :

(إن اشتراكيتنا فى التوزيع تقوم على مبدأ كل بقدر إنتاجه وعمله وليس حاجته وفى هذا تكريم للعمل وإثارة للحوافز والإتقان وزيادة الإنتاج بعكس الماركسية التى تطبق مبدأ لكل حسب حاجته، إن اشتراكيتنا لم تأخذ بتأميم ملكية الأرض وإنما أمنت بالملكية الخاصة فى قطاع الزراعة وبما لا يسمح بالاستغلال عن طريق تفتيت الملكيات الكبيرة بمقتضى قوانين الإصلاح الزراعى وزيادة عدد الملاك من صغار المعدمين من الفلاحين ، وهكذا فهى بيت سعيد لكل أسرة يقوم على عمل القادرين أو المهنيين للعمل رجالا ونساء (مجتمع الرفاهية) مجتمع تكافؤ الفرص ، مجتمع العدالة الاجتماعية لكل أسرة ، ثم يقول - نحن نؤمن بأن لكل فرد فى الدولة حقاً وعليه واجبا يكافئ هذا الحق ، وأن على الدولة لكل فرد فيها

واجبا ولها عليه حقًا يكافئ هذا الواجب ، فهي تبعات متبادلة بين الحاكمين والمحكومين ليس فيها قهر ولا إذلال ولا تسلط ولا طبقات قليلة العدد من السادة وطبقة ضخمة من العبيد ، هذا ديننا وذلك دين الشيوعية فلتؤمن الشيوعية بما تشاء فليس يعيننا ما تؤمن به وما تكفر به ، وإنما يعيننا أن نؤكد إيماننا بديننا الذي ندين لله عليه ونترسم دستوره فيما نعمل لأنفسنا ولقومنا (٩) ..



وفى مناسبة توزيع أول دفعة من قطع الأراضي على الملاك الجدد قال جمال عبدالناصر :

(لقد ثرنا من أجل الفلاح والعامل ، إن مصر يجب أن تحيا كريمة عزيزة قوية، إن مصر جديرة بحبنا لها واستشهادنا من أجلها وفي سبيلها ، ولقد قامت الثورة لتدافع عن حقوق الفلاح والعامل ، قامت لتوزع ثروة الأرض في مصر على أهل مصر ، إن الله يحب الأقوياء ويكره المستضعفين ، لقد ضعفنا كثيرا ودفعنا ثمن ضعفنا غاليا ، يجب أن ننظر إلى الماضي ولا ننساه ولنتخذ من كل ما رأيناه عظة وعبرة ، لقد مكنا حفنة من الناس لا تحس بإحساسنا وآلامنا أن تتحكم فينا وفي رقابتنا ، لقد استبدوا بنا واتخذونا مطية لأغراضهم ، لن ننسى الماضي ولن تعود عقارب الساعة إلى الوراء ، إن الطريق أمامنا وعرو وصعب ، شاق وصعب ، سنستمر في الكفاح حتى نصل إلى أهدافنا وحررتنا ، إذا تحررت مصر فقد تحرر الإسلام ، يجب أن نحرر أنفسنا أولا وثق في وطننا ، يجب أن نتحرر من الخوف والفرع لنسير في طريقنا ونحقق آمالنا (١٠) .

وإذ أشارت الخطة الخمسية إلى أهمية الادخار والاستثمار فقد فتحت الأبواب من أجل استدعاء الاستثمار الأجنبي ، فما الذي حدث وما هي المشاريع التي جاء من أجلها الاستثمار الأجنبي وكم كانت ؟

(٩) كتاب سنوات وأيام مع جمال عبد الناصر - تأليف سامي شرف - ص ٢٩١ .

(١٠) كتاب ثورة عبد الناصر - تأليف شوقي عبد الناصر - ص ٦٤ .

صدر قانون الاستثمار رقم ١٥٦ سنة ١٩٥٢م وقد حدد المال الأجنبي للاستثمار بأنه يشمل تلك الأموال التي تحول عن طريق البنوك والآلات والمعدات الزراعية ووسائل النقل والمواد الأولية ، وتقرر أن يتنفع بهذا القانون من كان مستثمرا في مشروعات الصناعة والزراعة والتعدين والقوى المحركة والنقل والسياحة ، كما بين القانون نسب تحويل الربح وحصص الخبراء الأجانب الذين يعملون في المشروع ، وكذلك نص على تشكيل لجنة بوزارة المالية المصرية عملها استثمار المال الأجنبي تمثل فيها الوزارات المعنية وتقدم إليها طلبات المشروعات الاستثمارية وتكون مهمتها المساعدة في الحصول على التأشيرات للأجانب واعتماد تحويل المكافآت ، واستتبع هذا القانون بقانون آخر نص على المزيد من الضمانات لرأس مال الأجنبي حيث أعفاه من ضريبة الأرباح التجارية والضريبة على القيم المنقولة لمدة سبع سنوات ، وأعفى شركات المساهمة وشركات التوصية والتي تنشأ ويكون غرضها لازما للتنمية سواء من طريق الصناعة أو التعدين أو القوى المحركة أو الفنادق أو استصلاح الأراضي البور (١١).

ورغم كل هذه المزايا والتشجيع فقد سجل خلال ثلاث سنوات إن مساهمات رأس المال الأجنبي لم تدخل في غير السياحة وصناعة الأحذية بمبالغ لم تتجاوز نصف مليون جنيه (١٢).

ولقد أورد شوقي عبدالناصر رأى جمال عبدالناصر في مسألة الاستثمار الأجنبي وكانت كما يلي :

(من أول يوم في الثورة جاء رأس المال الأجنبي عاوزه يتغل ، قلنا مافيش مانع نعمل له قانون خاص ، نضمن له حقوقه وأمواله ، قعدنا نحاول فيهم ونطبطب عليهم ومع ذلك كل ما دخل مصر في تسع سنوات ثمانية ملايين جنيه ،

(١١) تقرير المجلس القومي للإنتاج ٥٦ .

(١٢) ثورة عبد الناصر - تأليف شوقي عبد الناصر - ص ٣٤٨ .

معظمها فى البترول ، بعد كده أنا قلت موش عاوز رأس مال أجنبى خالص يدخل لاستثمار لأن احنا بناخد فى هذه الأمور خازوق كبير خالص ، الأجنبى عاوز يجيب معاه قرشين تافهين ويعمل بيهم مشروع تافه وبعدين طبقا للقانون يحول أرباحه إلى الخارج إلى الأبد ، أنا ضد أى استثمار أجنبى إلا إذا كان فى مشروعات تحتاج إلى تقدم علمى نفتقر إليه ، أو أبحاث جديدة علينا مثل صناعة الأدوية .

رأس المال الأجنبى عاوز يعمل مشروعات سريعة تجيب ربح سريع كبير ، مصلحته قبل مصلحة البلد ، ممكن يعمل مصانع كوكاكولا أو ١٠ لوكاندات أو عشر قرى سياحية يكسب فى السنه ٥٠٪ ولو قدر يرفعها ١٠٠٪ ما فيش مانع ، ولهذا فإن الاستثمار لازم يكون له هدفين :

١ - أن الناس تجد فرص عمل .

٢ - أنه يخدم خطة البلد لزيادة الدخل القومى .. انتهى (١٣).

والواقع أن برامج وأهداف الثورة الطموحة لم يقابلها حماس المواطن ولا دعاية الموظف لأسباب عدة منها :

١ - تلك الموروثات التى تعشعش فى أدمغة الناس ، الموظف كسول مرتشى ، والمواطن لا مبالى اتكالى .

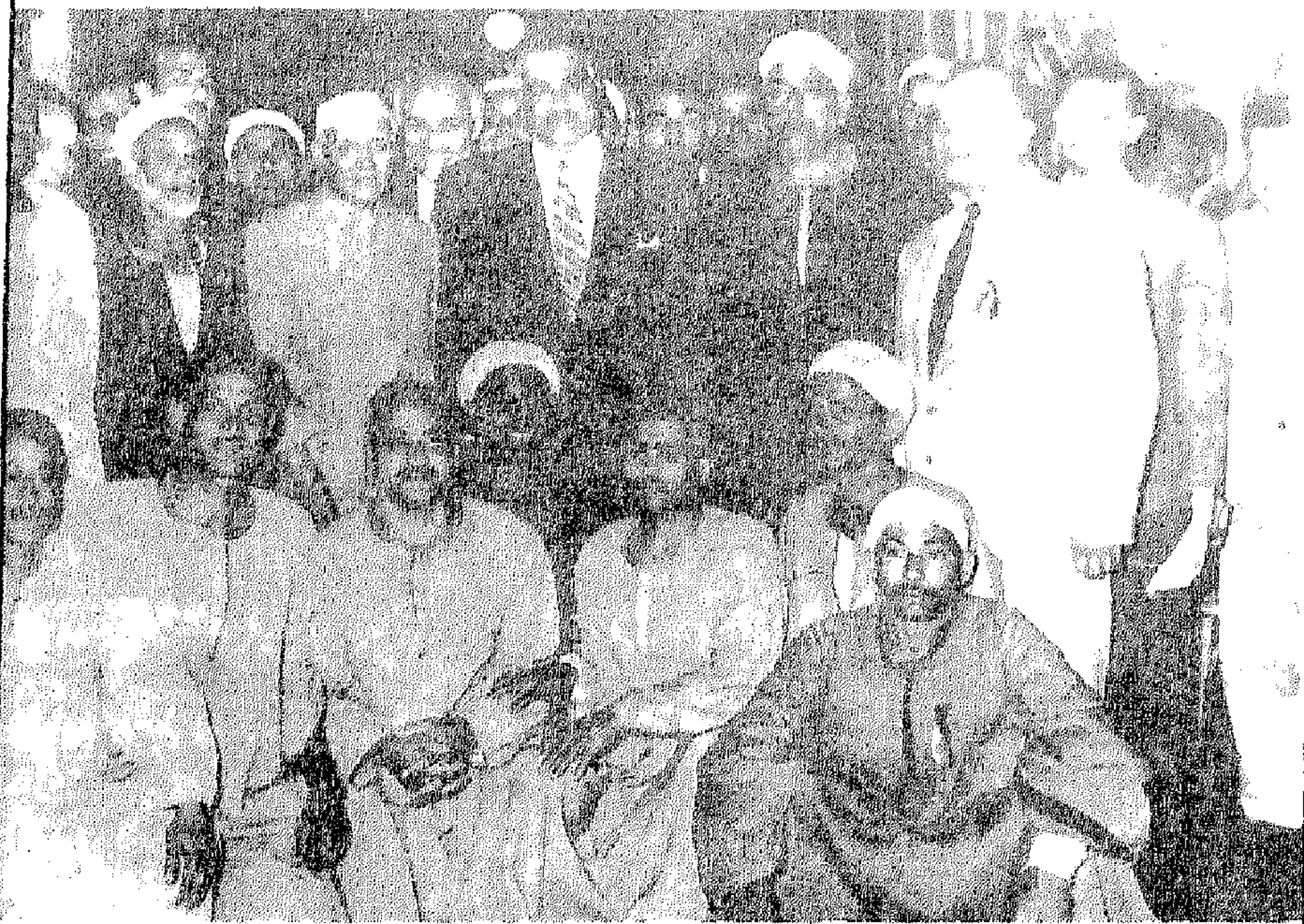
٢ - جهاز الدولة بيروقراطى قاتل ممل يحتاج إلى وقت طويل لإنجاز أى عمل بلا رغبة .

٣ - منظر الملفات والأوراق المكدسة والموظف الذى ينظر شزرا لكل من يتقدم إليه

٤ - عدم إدراك أهمية المشاريع الجديدة التى جاءت بها الخطط ، وكما يقال : (الناس أعداء ما جهلوا) .



أرض الإقطاعيين وزعت على أصحابها من الفلاحين



عبد الناصر ونهرو مع الملاك الجدد للأرض

في الصورة العليا عبد الناصر يوزع أرض الإقطاعيين على الفلاحين .
وفي الصورة السفلى عبد الناصر وصديقه رئيس وزراء الهند نهرو مع الملاك
الجدد للأرض ..

حتى إن عبدالناصر نفسه قال ذات مرة :

بعد كده بدأ الانحراف .. الانحراف إزاي ؟

كان فيه قطاع خاص فقط أصبح فيه قطاع عام أيضا ، كنا نصرف على الصناعة فى السنة اثنى مليون جنيه أصبحنا نصرف عليها سنة ١٩٥٥ م ٨٨ مليون ، ميزانية المباني كانت ٥ مليون أصبحت ١٦٠ مليون ..

الرأسمالية المستغلة تريد أن تربح الربح الفاحش الحرام ، وبدأت عملية الفساد ، اللى عايز عملية يكسب فيها ٢٠٠ ألف جنيه ماعندوش مانع يدفع ٢٥ ألف جنيه رشوة .

نرفض آلات من صنع مصانعنا مطابقة للمواصفات العالمية ونقبل عروض للاستيراد من الخارج بالعملة الصعبة والسبب الرشاوى . أصبح الاستيراد كله تهريب ورشاوى . وكان الأحسن والأسلم أن نسد باب الفساد ونضع جميع مصادره تحت سيطرة الدولة ، لهذا جعلنا الصناعات الثقيلة والمقاولات ضمن القطاع العام وجعلنا الاستيراد وجزء من التصدير حق للدولة فقط (١٤) انتهى .

هكذا حدث بالضبط ، وهذا حال التحول من نظام رأسمالى إلى نظام اشتراكى وعند التحول يحدث فى الغالب تنفيذ الاشتراكية بأدوات رأسمالية ، أى تنفيذ منهج بأيدي أعدائه ، ومن هنا يحدث إما فشل المشاريع بالكامل أو إدخالها فى مشاكل اقتصادية وخسائر فادحة ، وأذكر أننى رأيت الكثير من الفساد والتسيب والبيروقراطية عندما كنت مقيما فى موسكو كسفير لبلادى رغم مرور ثلاثة أرباع القرن على التطبيق الاشتراكى المتشدد هناك ، ورأيت أساليب الرأسمالية والبيروقراطية بشكل أشد وأبشع عن قرب عندما كنت كاتباً متجولاً وزرت أغلب الجمهوريات السوفيتية ، ولهذا أقول : إن عيوب الممارسة فى اشتراكية عبدالناصر ومظاهر البيروقراطية والتسيب فى بداية عهده لا يمكن اعتبارها معرّة لتلك التجربة بسبب قصر زمنها ، ولو استمر الحكم الوطنى فى ظل

(١٤) كتاب ثورة عبد الناصر - شوقى عبد الناصر - ص ٣٤٨ .

ثورة عبدالناصر وقتا أطول لكان يمكن أن تنضج التجربة ويستقيم الطريق ، كما أنه يمكن القول أن النظام أو الرجال الذين جاءوا بعد عبدالناصر لو كانوا صادقين في توجهاتهم وملتزمين بمنهج الثورة لكانت مصر أفضل مما هي عليه الآن..



الفصل الرابع

محاولات التكريع وكسر العظم

- ١- الضغوط والمؤامرات المحلية .
- ٢- الضغوط والمؤامرات الخارجية ، إقليمية ودولية .
- ٣- ردود الفعل من أجل حماية النفس والمكتسبات .

الفصل الرابع

محاولات التركيع وكسر العظم

١ - الضغوط والمؤامرات المحلية .

٢ - الضغوط والمؤامرات الخارجية ، إقليمية ودولية .

٣ - ردود الفعل من أجل حماية النفس والمكتسبات .

تغيير أى حكم بانقلاب أو ثورة وخصوصا فى العالم الثالث لابد أن يضار منه بعض الناس فى المال أو الممتلكات أو الوظائف أو حتى الحياة ، وحجم الضرر (إذا صح التعبير) يعتمد على وضع المجتمع والبلاد ونظام الحكم السابق ، (أى قبل حدوث الانقلاب) وكان النظام القائم فى مصر ملكى رجاله غالبا غرباء ألبان من محمد على الكبير سنة ١٨٠٥ وهو رجل عظيم على الرغم من أنه أول من استن قاعدة الإقطاع الزراعى فى مصر إلى فاروق سنة ١٩٥٢م وهو حاكم فاسد ، ومن المعروف أن محمد على الكبير جاء من مقدونيا ويعد من بناء الصناعة فى مصر وقد توفى سنة ١٨٤٥م وترك وشركس ويونان وطلبان إلخ) والانقلاب أو التغيير لا يكون إلا أحد اثنين :

١ - انقلاب من أجل الحكم فقط وبالتالى استبدال شخص بآخر يجلس على كرسى الحكم ، وهذا غالبا لا يحدث أى تغيير ولا يبدل حال وقد لا يواجه صعب أو مشاكل فىبقى كل شئ على حاله .

٢ - انقلاب أو تغيير يتطور إلى ثورة يقضى على كل عيوب وسوءات ومفاسد ما قبله وهنا يمس مصالح بعض الناس وخصوصا أولئك الحكام الذين أطاح بهم والمرتبطون معهم بالمصالح أو الوظائف ..

وانقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢م كان من النوع الثانى وسرعان ما تحول إلى ثورة غيرت كل شئ فى مصر غالبا إلى الأفضل ولقد مست كل مفاصل المجتمع لتقطع الفاسد منها وتبقى على الصالح ، وهكذا تجمع الفاسدون والمفسدون والطامعون المرتبطون بغرب أو شرق أملا فى إيقاف عقارب الساعة وعجلة الزمن ، ويمكن القول أن أول عناصر الصدام كان مشروع الإصلاح الزراعى ، هذا المشروع الذى استهدف مصادرة الأراضى الزراعية من ملاكها الإقطاعيين أو بالأحرى مغتصبها وتوزيعها على الفلاحين أصحاب الحق فيها والمحرومين منها منذ قرون ، ولقد كان الإقطاع والاستيلاء على الأراضى الزراعية قد بدأ مع محمد على الكبير خلال بداية القرن التاسع عشر حيث صار يوزع الأرض على أقاربه وضباط جيشه من الألبان والأكراد والشراكسة والأتراك وعلى الأعيان وكبار الموظفين ، وتملك هو نفسه آلاف الآلاف من الأراضى مع من عليها من فلاحين ، وبذلك يكون قد وضع سنة أصبحت قاعدة بعده ، ويذكر أن الملك فاروق قد ورث عن أبيه فؤاد ١٥ ألف فدان زادت أثناء حكمه إلى ٤٨ ألف فدان كما استحوذ على ٤٥ ألف فدان من أراضى الأوقاف ، وكان والده فؤاد الأول عندما تولى الحكم سنة ١٩١٧م يمتلك ثلاثمائة فدان زادها فيما بعد وكانت قد بلغت ٢٨ ألف فدان عند وفاته سنة ١٩٣٦م كما كان الخديوى إسماعيل عندما تولى الحكم يمتلك ١٥ ألف فدان زادها خلال ١٧ سنة من حكمه لتبلغ ٥٩٠ ألف فدان ، وتبعاً لهذه السنة اتسعت طبقة الاحتكاريين والإقطاعيين وزادت سيطرتها فى امتلاك الأراضى حتى أن ٢٧ منالكا من أسرة محمد على الكبير كانوا يملكون حوالى ١٤٤ ألف فدان غير أراضى الأوقاف أما الأسرة والأقارب والأصهار فكانوا يملكون حوالى نصف مليون فدان سنة ١٩٣٩م وكان عدد ١٣ ألف مالك يستحوذون على قرابة ثلاثة ملايين فدان من إجمالى الأراضى الزراعية البالغة ستة ملايين فدان (١٥) ولقد استمرت عملية الاستحواذ والاعتصاب والاحتكار من سنة ١٨٠٥ إلى سنة

(١٥) قصة ثورة ٢٣ يوليو ، أحمد حمروش - ص ٢٥٢ .

١٩٥٢م وقت صدور قانون الإصلاح الزراعى وعند هذا الحد كان الصدام حتميا بين هذه الطبقة والمرتبطين بها من جانب وحركة الضباط من جانب آخر وهى الطبقة التى كان المستعمر يستند على زعمائها فى تأييدهم ومباركتهم لوجوده وفرض سيطرته على البلاد ولقد استطاعت أن تثبت بالغش أو التخويف فى عقول الفلاحين أن ملكيتها تعتبر حقاً ربانيا لا يجوز الاعتداء عليه وقد تبنى هذه الفكرة أو العقيدة وروج لها أيضا الإخوان المسلمون ^(١٦) علما بأن الإخوان لم يطالبوا مطلقا بتحديد الملكية وإنما طالبوا على لسان مرشدهم العام حسن الهضيبى وهو المشرف العام على أطيان الملك عندما سأله مندوب صحيفة (شيكاغو دايلى نيوز) فى أبريل ١٩٥٢م عن الإصلاح المطلوب بالنسبة للفلاحين فقال (يجب ألا يسمح للملاكى الأراضى بأن يؤجروا أراضيهم للفلاحين نظير مبالغ ثابتة بحيث إذا طرأ ما يؤثر فى المحصول وقع الفلاحون فى الدين ، يجب أن يقوم إيجار الأرض على أساس نصيب من غلتها وبهذا يحصل المستأجرون على الأقل على جزء من مجهودهم) ولقد كانت نظرة الإخوان المسلمين لهذا الوضع والقضية الاجتماعية مؤيدة لكبار الملاك إذ إنه فى الوقت الذى أدلى فيه حسن الهضيبى بهذا الحديث كانت شكاوى الفلاحين قد ارتفعت من نظام المزارعة الذى ينهب عرق الفلاحين ^(١٧).

ولأن موقف الإخوان كما جاء فى عديد من المقالات والكتب والدراسات كان مؤيدا للإقطاع فقد صاروا يهاجمون خطوات الضباط وبشكل خاص عندما أعلن عن مشروع الإصلاح الزراعى بعد أن كانوا يطلقون على حركة ضباط الجيش اسم (الحركة المباركة) ويتحدث أحمد حمروش فى الجزء الأول من كتابه (قصة ثورة ٢٣ يوليو) عن مرحلة الصدام تلك فيقول :

اعتمدت الحركة فى توطيد مركزها على الشعبية الجارفة التى حازتها بعد عزل الملك فاروق وفضح مفاصل النظام المنهار ومبازله وتطلع الجماهير إلى حكم جديد يرفع عنها قبضة الاستغلال ويحقق أملها فى مجتمع نظيف ، ويضيف ، ولم

(١٦) نفس المصدر ونفس الصفحة ، والرواية على ذمة الكاتب .

(١٧) نفس المصدر والكاتب .

تضيق الوزارة الجديدة وقتاً لإعداد هذه المشروعات ولكنها كانت جاهزة ومعدة في الملفات بل إن بعضها كان مصدراً للخلاف مع على ماهر وهو ما ظهر في قانون الإصلاح الزراعي الذي أصدرته الوزارة الجديدة فور تعيينها يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٢ م ، هذا المشروع وغيره من المشروعات التي نتحدث عنها كانت تحمل التأيد للحركة في نفس اللحظة التي سببت فيها الصدام الفعلي مع قوى اجتماعية وسياسية مختلفة - انتهى (١٨) .

لقد حدث الصدام مع الإخوان المسلمين الذي سنرى أنه تصاعد إلى درجة تستعمل السلاح عندما اتخذ الجهاز السري للإخوان (كما ذكر) قرار اغتيال جمال عبدالناصر وتصفية الثورة بحيث يمكن للإخوان ومن يساندهم أو يعاونهم استلام الحكم لتنفيذ ما كانوا يعتقدون أنه ممكناً من خلال دعاوى إسلامية أو أشياء تنسب إلى الإسلام ، وكما ذكر فقد كان على رأس أولئك المتعاونون اللواء محمد نجيب ، والقصة من بدايتها محلياً ودولياً كانت كما يلي :

١- العدوان والتآمر المحلي :

لقد كان في حسابان هؤلاء الضباط الذين قاموا بحركة التغيير أن هناك قوى كثيرة لابد من مواجهتها عاجلاً أو آجلاً ، المحلية أو الخارجية ، إذ ليس من السهل القبول بهذا الذي قاموا به حتى لو كان تغييراً محدوداً يتمثل في الإطاحة بنظام حكم والاستمرار في نفس طريقه ، بمعنى تغيير حاكم بحاكم ، حتى لو كان الأمر هكذا فإن القوى السياسية والاجتماعية المتمكنة أصلاً لا تستسيغ التعامل مع العسكر ، أي الزعامات الحزبية والباشوات وحركة الإخوان ، ولأن حركة الضباط لم تكن عملية استبدال حاكم بحاكم آخر ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ (الأحزاب : ٢٥) فإن أغلب تلك القوى قد تهيأت للعمل وكشرت عن أنيابها للحفاظ على مصالحها وامتيازاتها ووظائفها وألقابها .. إلخ وتلك القوى كانت :

(١٨) قصة تاريخ ثورة ٢٣ يوليو - أحمد حمروش .

- ١ - الإنجليز وهم دهاة التآمر وأصحاب الحنكة فى تدبير الانقلابات وقواتهم تجثم على أرض مصر بينما جواسيسهم يقبعون فى دهاليز الإدارات الحكومية والمتعاملين معهم من كبار الموظفين كثر .
 - ٢ - الأمريكان بما لهم من إمكانيات وارتباطات واستراتيجيات وتطلع إلى إيجاد مواقع أقدام فى هذا البلد أو ذاك ، بل والحلول محل ما أطلقوا عليه اسم (الاستعمار القديم) .
 - ٣ - الإقطاعيون والباشوات والرأسماليون وقوى الأحزاب والإخوان المسلمون الذين تمرّنوا سرا وعلنا على القتل وتنظيم المظاهرات والمسيرات رغبة فى إسقاط هذا النظام أو ذلك ، أى ما لا يكون فى دائرة نفوذهم ومحل رغباتهم .
 - ٤ - أصحاب الصحف الصفراء التى كانت تعبر وتعيش على فتات أجهزة المخابرات الغربية والشرقية وبشكل (ربما) محدد على حساب أموال المخابرات المركزية الأمريكية .
- ١ - وكان على حركة الضباط أن تتعامل مع كل هذه القوى بحذر شديد منها ما يمكن أن يحيد ولو مؤقتا (تطمين القوى الخارجية على مصالحها ورعاياها _ الإنجليز والأمريكان) وكان معروفا أن الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية يريد حاكما طيعا لا يمتد نظره إلى أبعد من حدود بلاده ولا يتجاوز تفكيره ما يرسم له سياسيا وعسكريا واجتماعيا وحتى (ثقافيا وتعليميا ودينيا) لأنهم صاروا يطالبون بالتغيير والتبديل حتى فى آيات القرآن الكريم وإن لم تحدث الاستجابة للتغيير فى القرآن الكريم وقتذاك فقد بادر الحكام العرب بعد عبدالناصر بعدة عقود بتحقيق رغبة الغرب وبشكل خاص رغبة الولايات المتحدة الأمريكية ، ولا يمكن لنا أن ننسى أن السيدة وزيرة خارجية أمريكا (كوندوليزا رايس) قد قالت وعلى الملأ (إن بعض آيات القرآن تحض على كراهية الشعوب !!) وما كان يطالب به الغرب بالتأكيد لا يقبله أى حاكم وطنى يحترم نفسه

وشعبه وتاريخ بلاده ، وعبدالناصر ليس من أولئك الطيّعون الذين يقبلون الإملاءات أو القرارات والشروط وارتداء ما يفصله هذا الغرب ، وسنرى ماذا حدث مع محمد على الكبير خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ومع جمال عبدالناصر خلال النصف الأول من القرن العشرين .

٢- وكذلك كان يمكن مهادنة حركة الإخوان المسلمين وربما الاستعانة بقدرات هذه الحركة النضالية والسياسية والفكرية وليس تحييدها فقط لو أدرك زعماءها أن التغيير الوطني جاء لخدمة البلاد والعباد حتى أن عملية تطهير الأحزاب ثم إلقاؤها لم يطل حركة الإخوان المسلمين في البداية ، وهذا ما يعنى أن نوايا الضباط كانت طيبة تجاه هذه الحركة .

٣- أما المواجهة العاجلة المتوقعة فقد أريد لها أن تكون مع الإقطاعيين والرأسماليين والزعماء الحزبيين المرتبطين بتاريخ مشين .

وكانت البداية بتنفيذ مشروع الإصلاح الزراعى الذى صدر فيه قانونا ينظم العملية المتعلقة بملكية الأرض الزراعية ، ولقد ظهر جليا أن ضباط الحركة عازمون مصممون على تنفيذ المشروع مهما كان الثمن وذلك عندما أطاحوا بوزارة السيد (على ماهر) الذى كانوا قد اختاروه ليشكل أول وزارة بعد التغيير والسبب أنه ماطل فى تنفيذ قانون الإصلاح الزراعى وما لبث الأمر حتى تفجر الخلاف مع اللواء محمد نجيب وكان تمرد ضباط سلاح الفرسان وبرز اتجاه ومواقف الإخوان المسلمين أحد الأسباب المؤدية إلى الحسم ، ولقد كان جمال عبدالناصر مياالا إلى التعاون مع حركة الإخوان المسلمين بدليل أنه طلب منهم ترشيح أربعة أسماء لاختيار اثنان منهم ليكونوا أعضاء فى الوزارة لكنهم كانوا يريدون الحكم كله وقبل ذلك يريدون أن يكون رأى رأيهم ، وهذا ما أكدته روايات ومذكرات وكتابات أغلب الرجال الذين تناولوا تاريخ ثورة ٢٣ يوليو بل هو ما جاء على لسان الرئيس جمال عبدالناصر عندما سألناه عن ثلاثة أمور كنا نراها هامة وذلك أثناء زيارته لليبيا بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٧٠م فى بنى غازى وهى:

١ - لماذا كان ذلك الموقف المتشدد من جماعة الإخوان المسلمين وهي جماعة مجاهدة ناضلت بشرف في فلسطين ثم ضد الإنجليز في القناة ؟

٢ - لماذا حل الأحزاب السياسية مباشرة بعد نجاح انقلاب ٢٣ يوليو وبعضها كان وطنيا عملا وسلوكا ؟

٣ - ما هو الموقف من المشروع الأمريكي المعروف باسم (مشروع روجرز) وهو المشروع الذي تهاجمه بعض الجماعات الفلسطينية على اعتبار إنه يعنى تفريطا في القضية، وقد ذهب بعضها إلى اتهامكم شخصا وكذلك كان موقف حزب البعث السوري والجماعات التابعة له ومنها البعض هنا في ليبيا ؟

قال :

١ - لقد كنت أنظر إلى جماعة الإخوان المسلمين نظرة خاصة وكنت أتمنى أن يتم التعاون معهم على الأقل إلى أن تستقر الأمور ويتم إخراج الإنجليز من البلاد لكنهم أرادوا أن يفرضوا علينا أفكارهم ومواقفهم وكأنهم هم الذين أحدثوا التغيير ورغم استفادهم واستثنائهم من قرار حل الأحزاب بدأوا في التآمر علينا أولا بالتشهير والتشكيك ، وثانيا بالسلاح بل إنهم أفسدوا العلاقة بيننا وبين اللواء محمد نجيب الذي كنا قدمناه كرئيس لنا .

٢ - بالنسبة للأحزاب المصرية فقد رأينا بداية أن نطلب منها أن تظهر نفسها ، بمعنى أن يبقى الصالح ويخرج الطالح ، أى يبقى الذى يؤمن بأن التغيير لصالح البلاد ويخرج الانتفاعى الذى لا يؤمن إلا بمصالحه ووضعه ، وقدّرنا فى أول الأمر أننا يمكننا أن نستفيد منها رغم المعارضة الشديدة التى أبدّاها بعض الزعماء أو القادة فى تلك الأحزاب ورغم أيضا معارضة بعض أعضاء الثورة لهذا الاتجاه ، لكن الأحزاب لم تستفد من تلك الفرصة ، وبعد كل النجاحات التى تحققت فى مصر والوطن العربى لابد لنا مستقبلا أن ندرس أمر التعددية الحزبية وتداول السلطة ديموقراطيا إن شاء الله .

٣- المشروع الأمريكى جاء فى وقت عصيب فنحن لابد لنا أن نحرر أرضنا بالسلاح ولعلكم ترون أن الشعب المصرى يردد تعبير (ما أخذ بالقوة لا يرد إلا بالقوة) ونحن نعد لذلك ليلا نهارا ولكن خسائرننا فى الرجال كبيرة لأن الطيران الإسرائيلى يشن عشرات الغارات على مواقعنا ورجالنا الذين يقيمون قواعد الصواريخ ، وبدون غطاء جوى بالطائرات والصواريخ لا يمكننا عبور قناة السويس والدخول فى مواجهة عسكرية كاملة مع القوات الإسرائيلىة الرابطة على ضفة القناة الشرقية ، وأنا بعد أو اثنين من هذا التاريخ سأزور الأصدقاء السوفيتى للتشاور فى هذا الشأن ، علما بأن خبراءنا يقولون : إن المشروع الأمريكى يعطينا فرصة لبناء حائط الصواريخ دون خسائر والتقدم بها بحيث تغطى المساحة التى ستدور فيها الحرب شرق السويس ، وعليكم أن تتأكدوا من أن جيشكم (هكذا قال) سوف يحرر الأرض وسوف يهزم العدو ..

وفعلا غادر جمال عبدالناصر إلى موسكو وحدث إنه قبل المشروع الأمريكى المعروض باسم (روجرز) للأسباب التى كان قد ذكرها ، ولقد ثبتت رؤياه رغم إنه لم يقدر له أن يشهد تحرير أرض بلاده ، وتلك إرادة الله التى لا راد لها ..

أعود إلى موقف الإخوان المسلمين من عبدالناصر وثورة ٢٣ يوليو فأعرج على كتابات بعض شهود تلك الأحداث ومنهم الصاغ (أحمد طعيمة) وهو أحد الضباط الأحرار وكان (كما قال) عضوا فى جماعة الإخوان المسلمين قبل الثورة أو الانقلاب ، وبالتالى فهو شاهد من أهلها ، يقول فى كتابه الذى صدر فى تسعينيات القرن الماضى بعنوان (شاهد حق - ص ٩٥) ما يلى :

كما ذكرنا فيما تقدم أن نسبة عدد الفلاحين فى مصر كانت حوالى ٧٠٪ من عدد السكان أى ثلثى عدد المصريين ولم يكن لهم نصيب فى الأرض الزراعية غير الجهد الذى يبذلونه بمقابل لا يذكر ، وكان من أولويات حركة الضباط وهم من الطبقة المتوسطة أن يهتموا بحال الفلاحين والعمال وبالتالى كان الإصلاح الزراعى من أهم المشروعات التى يلح عليهم تنفيذها ، وهكذا فقد كان لابد من تحقيقه ،

على إنهم كانوا يدركون مدى صعوبته وهو الذى يجب أن يكون عنوانا لانحيازهم إلى الطبقة الفقيرة المظلومة من أهلهم ، على أن هناك عقبة كأداء تقف فى مواجهة تنفيذ هذا المشروع الحيوى ، كان الباشوات وملاك الأتبان والمتفعين من أعيان وقيادات حزبية وإقطاعيين ... إلخ .

كانت من أول المعارضين علنا قيادات حزب الوفد بحجة أن الوفد كان قد عالج هذه القضية سنة ١٩٥٠م عندما فرضت وزارته ضرائب تصاعدية تدرجت حتى وصلت قرابة ١٠٠٪ وبالتالي فهو لا يرى ضرورة لقانون الإصلاح الزراعى وقاد مواقف متوارية للتشكيك فى أهمية المشروع ويظهر أن اتجاه حزب الوفد كان مدعوما من جانب جماعة الإخوان المسلمين وإن بشكل غير مباشر رغم اختلاف الطرفين ، ومن هنا اقتنع ضباط الحركة أن مشروعهم لن يكتب له النجاح ما لم يتخذوا خطوات أخرى خصوصا بعد أن تبين تردد رئيس الوزراء (على ماهر) عن تنفيذ قانون الإصلاح الزراعى ، فأصدروا بيانا يطلب من الأحزاب تطهير نفسها وكان ذلك فى أواخر يوليو ١٩٥٢م وبعد التطهير يجب على الأحزاب أن تعلن برامج واضحة يقتنع بها الشعب ، وهذا يعنى تحديد مواقفها من قانون الإصلاح الزراعى ، وكان الضباط يعرفون أنها لن تفعل بحيث تنهيا لهم الفرصة لاتخاذ إجراء آخر كان (ربما) جاهزا وهو حل كل الأحزاب على الرغم من أن بعض الأحزاب قد حاولت التخلص من أعضاء فيها فى حين أن حزب الوفد وهو فى ذلك الوقت من أقوى الأحزاب على الساحة قد قدم برنامجا قريبا من طموحات الضباط تحدث فيه عن الحد الأدنى لأجور العمال والتأمين الصحى لهم والتأمين الاجتماعى والموافقة على تحديد ملكية الأرض الزراعية .. إلخ وبعد كثير من محاولات الترقيع من جانب هذا الطرف أو ذاك استمرت قرابة سنة صدر فجأة ما كان يعد له حيث أعلن القائد العام للقوات المسلحة فى ١٧ يناير ١٩٥٣م قرار حل جميع الأحزاب السياسية ومصادرة أموالها وكان القرار يحمل ما يمكن اعتباره تحذيرا يقول (منذ اليوم لن أسمح بأى عبث أو إضرار بمصالح الوطن وسأضرب

بمنتهى الشدة على كل من يقف فى طريق أهدافنا التى صنعتها آلامكم الطويلة) وكان القرار بتوقيع اللواء محمد نجيب ، وبعد بعض الإجراءات ضد فئات حزبية أعلنت حركة الضباط اسمها الجديد (مجلس قيادة الثورة) وجدير بالذكر أن قرار حل الأحزاب لم يشمل جماعة الإخوان المسلمين وكان فى هذا الوقت اللواء محمد نجيب رئيسا للوزراء وقائدا عاما للجيش وقد صدرت القرارات والقوانين باسمه ، وبعد قرار حل الأحزاب مباشرة فكر أعضاء مجلس قيادة الثورة (وهذا اسمه الجديد) خلق بديل سياسى يتولى دور تلك الأحزاب وإن بشكل مختلف ويكون معبرا عن توجهاتهم ، فأنشأوا ما يسمى (هيئة التحرير) ولقد اختلفت الآراء حول دور هيئة التحرير أو الحزب الذى أقامه العسكر والواقع أن أى حزب أو تنظيم يقيمه النظام الحاكم لابد أن يكون فاشلا لأنه غالبا لا يجمع إلا المنافقين الراغبين فى خدمة السلطة ، أى سلطة ، وهذا أحد الذين أشرفوا على تأسيس هيئة التحرير يقول :

(كانت فكرة جمال عبدالناصر فى إنشاء هيئة التحرير تستند إلى أن صناع الثورة كلهم من ضباط الجيش العسكريين ولم تكن لنا قاعدة شعبية يستند إليها مؤيدو الثورة من أبناء الشعب فلا بد إذن من وجود جهاز مدنى يجمع شملهم ، فكان قراره بإنشاء هيئة التحرير ، وكانت تجربة تستحق التسجيل والتوضيح ، ومازلت أؤكد أن هيئة التحرير كانت الجهاز السياسى الوحيد الذى أقامته الثورة ونجح نجاحا لم يلاقه أى جهاز سياسى آخر حتى يومنا هذا وذلك للأسباب التالية :

١ - ولدت هيئة التحرير ولادة طبيعية ولم تصدر بقانون أو قرار جمهورى فكل الناس الذين آمنوا بثورة ٢٣ يوليو ومبادئها انضموا إلى هيئة التحرير بقلوبهم وأرواحهم وأموالهم ، لقد كانت هيئة التحرير أملهم المنتظر فى أن يشعروا بأنهم مشاركون فى صناعة هذه الثورة ، فلم يترددوا أبدا عن المشاركة عندما أتيحت لهم الفرصة لمقاسمة الضباط الأحرار شرف الثورة ، (١٩) .

(١٩) أحمد طعيمة - شاهد حق - ص ٦٧ .

٢- على الرغم من أن الثورة هي التى أنشأت هيئة التحرير إلا أنها لم تخصص لها أية ميزانة أو موارد مالية فتكفل أعضاؤها بدفع النفقات والمصروفات لضمان استمرار هيئة التحرير فى أنشطتها واعتبروها هيئتهم وكيانهم وحزبهم الذى يملكونه ، ولم تكن هيئة التحرير حزبا سياسيا يحصل على دعم مالى ومبالغ من مالية الدولة سنويا وإنما كما قلت فهى تعتمد على أعضائها .. (٢٠) ونكتفى بهذا القدر مما ذكره أحمد طعيمه عن هذه الهيئة ونعتقد أنه فى حديثة الطويل عنها يكون قد بالغ كثيرا لأنها ومن اسمها قد أنشئت لسبب واحد ومرحلة محددة باعتبار أن المرحلة هى مرحلة تحرير البلاد ويجب أن تضم كل الناس دون تمييز وكان عمرها قصيرا ..

وهذا رأى آخر جاء فى كتاب (قصة ثورة ٢٣ يوليو) لمؤلفه أحمد حمروش ، وهذا الكاتب أيضا من ضمن تنظيم الضباط الأحرار ، يقول :

١- اعتقد مجلس قيادة الثورة أنه قادر على ملء الفراغ السياسى الناتج عن حل الأحزاب ووقف نشاطها بتكوين هيئة التحرير التى أعلن عنها يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م بمناسبة مرور ستة شهور على الحركة وسط مهرجانات صاخبة حافلة ، وافتتح مقرها فى ثكنات الحرس الملكى (سابقا) بميدان عابدين يوم ٦ فبراير من نفس السنة ، أعلن محمد نجيب ميلاد الهيئة بعد أن هاجم الأحزاب هجوما عنيفا مفيدا أنها وراء كل تأخر وتناؤد وتردد وأقسم ومن خلفه الحاضرون قسما يقول: (اللهم إنك تحب الأقوياء وتكره المستضعفين وتنشر رحمتك على الذين يؤثرون الموت العزيز فى سبيل الحرية على الحياة الذليلة فى مجال الاستعباد ، اللهم إنك لقريب ترى وتسمع وإنا لنقسم بذاتك العلية على أن نعمل ما وسعنا العمل لإرساء قواعد الحياة المقبلة لوطننا المصرى على أصول محررة من العبودية منزّهة عن الهوى موصولة بالحق والعدل وأن نبذل فى سبيل ذلك كل ما تقتضيه مصلحة

(٢٠) نفس المصدر .

أمتنا ويبتغيه شرف بلادنا وأن يكون شعارنا دائما الاتحاد والنظام والعمل ، اللهم فاشهد وأنت خير الشاهدين) هذا القسم الإنشائي المجرد كان وحده صلة الجماهير بهيئة التحرير عند مولدها وفي وقت ضمت جدران سجونها قادة الأحزاب السياسية والتنظيمات الشيوعية ولم يكن مطلق السراح سواء الإخوان المسلمين تماما كما كانوا في فترة حكم نجيب الهلالي بعد حريق القاهرة (٢١) ويستمر الأستاذ حمروش فيقول ، وقد قام بالإشراف على هيئة التحرير إبراهيم الطحاوي وأحمد عبدالله طعيمه وهما ضابطان بعيدان عن معترك العمل السياسي، وكان التصور أن تملأ هيئة التحرير الفراغ السياسي في مصر ولكنها لم تستطع أن تضم إلى صفوفها أحدا من الذين مارسوا العمل السياسي من قبل عدا قلة محدودة، كما أن قبضة الجيش فيها كانت واضحة وتبين أنها على قدر ما هزت حركة الجيش قواعد النظام المنهار على قدر ما وقفت هيئة التحرير حائلا دون اندفاع الطبقات العاملة نحو إحداث تغييرات جذرية ديموقراطية في المجتمع .. انتهى .

قلنا إن قانون الإصلاح الزراعي وإصرار ضباط الحركة على تنفيذه مهما كانت العقبات ، وهذا البرنامج أو المشروع هو الصخرة التي تحطمت عليها الرؤوس التي كانت بارزة في حكم البلاد أي أولئك الذين اعتقدوا أن وراثتهم للحكم أبدية ومعهم كل الإقطاعيين الذين وقفوا متضامنين ضد أول خطوة إصلاحية كانت الغاية منها إعطاء الحق لأصحابه وكانت مواقفهم في غاية الشراسة بما فيهم الملك فاروق الذي كان من أكبر الإقطاعيين أبا عن جد، وحدث حتى بعد الانقلاب (أي الثورة وهو الاسم الجديد لتنظيم الضباط) ومن بين الضباط أنفسهم أن ظهرت تحفظات واعتراضات ، فمثلا كان اللواء محمد نجيب أحد المعارضين (وقد رأينا فيما بعد كيف قدم مشروع الإصلاح بنفسه) ومعه في

(٢١) قصة ثورة ٢٣ يوليو - أحمد هكروش - جدير بالملاحظة أن الأستاذ أحمد حمروش كان عضواً في حركة (حدثو) الشيوعية التي كان لها نشاط داخل الجيش المصري وهو كذلك عضو في حركة الضباط الأحرار وربما كان له عذر في الحملة على هيئة التحرير .

الاعتراضات عضوا مجلس الوصاية على العرش قائلين : إن القانون يعنى مصادرة الأراضي وهذا يتنافى مع الدستور الذي مازال قائما (تم إلغاؤه فيما بعد) رغم أن قانون الإصلاح الزراعى قد أعدّه قانونيون متخصصون روعيت فيه مصلحة البلاد حيث إنه يحد إن لم يقض على نفوذ الإقطاعيين ، وبعد أن شكل محمد نجيب وزارته عندما أقيمت وزارة على ماهر بادر إلى إصدار قانون الإصلاح الزراعى إما عن اقتناع أو لأسباب أخرى خصوصا أن بوادر الخلاف كانت بينه وبين ضباط الانقلاب أى الثورة ، والفتنة كانت تطل برؤوسها فى وقت كان فيه الإخوان المسلمون يناصبون جميع مشاريع وقرارات الضباط العداء وكانوا يهاجمون هؤلاء الضباط الذين لا يفهمون فى السياسة شيئا (كما يقولون) وكان يحدث هذا علنا وبشدة ، ومع بداية تنفيذ القانون واشتداد المعارضة تشكل مجلس عسكرى لمحاكمة الذين يعارضون من جماعات الأسر الإقطاعية ، والواقع أنه ما كان لأحد أن يقف ضد هذا التيار خصوصا إذا كان صاحب القرار لديه أدوات التنفيذ بالقوة المدعومة بالقناعة والمزايا ، وهكذا فقد كانت القرارات نافذة وتقليم أظافر الطبقة الإقطاعية جاريا وسريعا ، وتلى ذلك ضرب القوى الأخرى المتمثلة فى قيادات الأحزاب ، وكانت أول خطوة تمهيدية فى هذا الاتجاه عندما طلب ضباط الحركة من الأحزاب تطهير نفسها بموجب أمر القيادة العامة للجيش فى ٣١ يوليو ١٩٥٢م أى بعد التغيير مباشرة ، ثم تلى ذلك أمر حل كل الأحزاب مع استثناء جماعة الإخوان المسلمين وكان ذلك قبل أن يحدث خلافهم مع الضباط وقبل تشكيل الوزارة التى خلفت وزارة على ماهر والتى كان رئيسها هذه المرة اللواء محمد نجيب وهو الذى استماله الإخوان فيما بعد أو بالتحديد إنه هو الذى رأى فيهم قوة يمكن أن يستند عليها ضد هؤلاء الضباط الشباب المندفعين دون وعى (حسب رأيه عندما أطيح به) فى هذا الوقت ظهرت فى السماء غيوم ملبدة وبدأت جماعات الأحزاب تتحرك ومعها انفجرت مظاهرات طلابية رفعت شعارات ضد ضباط الانقلاب وكانت مدعومة ببعض الجماهير المؤيدة للأحزاب التى حلت ، وكان رد فعل الضباط شديدا لأنهم لا يستطيعون المهادنة أو المساومة لكى لا يعتقد أحد أنهم ضعفاء وتم اعتقال رجال الأحزاب والمؤيدين لهم ولاحت بوادر الخلاف تبعا لذلك بين ضباط الانقلاب أنفسهم (أى مجلس قيادة الثورة) لكن مع ذلك كان

أمر العودة إلى الوراثة مستحيلا لأن ضباط الحركة أو مجلس قيادة الثورة كما صار يعرف كانوا منذ البداية (رغم مهادنة بعض القوى ومنها الإخوان المسلمون) مدركين لتطورات المستقبل وكانت أهدافهم واضحة (إن لم تكن للجميع فقد كانت في ذهن جمال عبدالناصر والمؤيدين له) وبعد تلك الاعتقالات وبعض الإجراءات الاحتياطية كان على أعضاء المجلس أن يقدموا أنفسهم للشعب فقام بعضهم مع اللواء محمد نجيب ببعض الزيارات وإلقاء الخطب في الوقت الذي أصدروا فيه الدستور المؤقت يوم ١٠ فبراير ١٩٥٣م وظهروا في مناسبة أخرى قالوا: إنها السنة الخامسة والأربعين (١١ فبراير ١٩٠٨م) (على وفاة مصطفى كامل حيث نقل رفاته إلى القلعة، وتأكيذا لرغبتهم في إرضاء أو تهدئة الإخوان المسلمين توجه اللواء نجيب وعبدالناصر لزيارة ضريح الشيخ حسن البنا بمناسبة الذكرى الرابعة (١٢ فبراير ١٩٤٨م) ولقد كانت سياسة مجلس قيادة الثورة واضحة من أجل الاحتفاظ بالسلطة ولم يكن ممكنا ولا مقبولا أن يقوم انقلاب عسكري وينجح ثم يسلم مقاليد الأمور لغيره (فيما عدا حدث واحد وهو يعد أول ظاهرة صحية خلال النصف الأول من القرن الواحد والعشرين عندما حدث انقلاب عسكري ناجح في موريتانيا وسلم قاداته السلطة للمدنيين بكل هدوء وعن رغبة) ولا بد لنا أن نثني على موقف هؤلاء الرجال الذين استنوا سنة حميدة لعلها تكون مؤثرة في مستقبل العرب وحكامهم الذين لا يتخلون عن الحكم الذي يقيمونه على جماجم مواطنيهم ولا يحترمون شرعا ولا قانونا في كل تعاملاتهم وتصرفاتهم.

في هذا الوقت تخلص مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م من حزب الوفد الذي كانت قياداته تعتقد أن من حقها استلام الحكم وتم بعد ذلك تصفية بقية القيادات الحزبية من يمين ويسار، وقد تم اعتقال الشيوعيين في ١٩ يناير ١٩٥٣م وبالنسبة للإخوان المسلمين نظرا لما كانوا يتمتعون به من ضخامة التنظيم وقوته وتغلغله في أعماق الريف بل وفي صفوف الجيش فإن الأمر كان يتطلب معالجة من نوع آخر (٢٢) فقد عملت الثورة على تجميعهم عن طريق إبداء رغبتها في

(٢٢) الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر - د. عبد العظيم رمضان - ص ١٤٦.

إشراكهم فى الحكم ، ولقد حانت الفرصة حين تقرر إسناد رئاسة الوزارة للواء محمد نجيب خلفا لعلى ماهر حيث عرضت الثورة على المرشد العام للإخوان المسلمين أن يشترك الإخوان فى الوزارة الجديدة بأربعة أعضاء (٢٣) فقبل المرشد العام من جانبه هذا العرض لكن مكتب الإرشاد فى الجماعة كان يرى أن اشتراك الإخوان بهذا العدد القليل يقوى الثورة ويضعف الإخوان ولذلك قرر عدم الاشتراك فى الوزارة (٢٤) وفى بيان لمجلس قيادة الثورة يذكر أن اثنين من جماعة الإخوان قابلا جمال عبدالناصر وقالاه الآن بعد حل الأحزاب لم يبق من مؤيد للثورة إلا جماعة الإخوان المسلمين ولهذا فإنهم يجب أن يكونوا فى وضع يمكنهم من أن يردوا على كل أسباب التساؤل ، وقد سألهما جمال عبدالناصر عما هو الوضع المطلوب ؟ فأجاباه بأنهما يقصدان الاشتراك فى الوزارة ، فرد عليهما جمال قائلا ، إننا لسنا فى محنة وإذا كنتم تقصدون أن هذا الظرف هو ظرف المطالب وفرض الشروط فأنتم مخطئون ، فأقترحا عليه حلا آخر يشركهم فى الحكم من وراء الستار ويقضى بأن تتكون لجنة من جماعة الإخوان تعرض عليها القوانين قبل صدورهما للموافقة عليها واعتبرا هذا حلا ، ثم قالاه هذا هو سبيلنا لتأييدكم إن أردتم التأييد ، ولكن جمال عبدالناصر أجابهما بأنه قد سبق أن قال للمرشد العام إننا لن نقبل الوصاية وإنه يكررها اليوم مرة أخرى فى عزم وإصرار (٢٥) وكان ذلك يمثل نقطة التحول فى موقف الإخوان المسلمين فقد أدركوا بما لا يدع مجالا للشك أن الضباط ينوون الاستئثار بالحكم ولا شريك لهم فيه وأن الآمال التى عقدوها على توجيه مركب الثورة نحو تحقيق أهدافهم هى آمال خائبة لا سبيل إلى تحقيقها فأخذوا عن طريق تصريحات المرشد العام يهاجمون الثورة وحكومتها فى الصحافة الخارجية والداخلية وفى مختلف اللقاءات والتجمعات

(٢٣) بعض الروايات تقول الاشتراك بأربعة وزراء أو أعضاء حيث يختار مجلس الثورة من بينهم وزيرين والبعض الآخر يقول ترشيح ثلاثة أعضاء يختار المجلس من بينهم اثنين .

(٢٤) كان مجلس قيادة الثورة بعد أن رفض عرضه قد عين الشيخ أحمد حسن الباقورى وزيرا للأوقاف وما كان من الإخوان إلا أن ردوا بفصله من عضوية الجماعة كدليل على عدم رضاهم .

(٢٥) نفس المصدر .

وإلى أن حدث الصدام فى الجامعة يوم ١٢ يناير ١٩٥٤م بينهم وبين منظمة الشباب التابعة لهيئة التحرير وهنا اتخذ أعضاء مجلس قيادة الثورة قرار حل الجماعة فى ١٤ يناير ١٩٥٤م ومباشرة تم اعتقال عددا منهم وعلى رأسهم المرشد العام ، وبعد ذلك تهيأت الظروف المناسبة لبروز نوع من الثورة المضادة بانقسام مجلس الثورة على نفسه حيث تمرد اللواء محمد نجيب الذى استغله أو أراد الإخوان المسلمون عنصرا للقضاء على الثورة ، ولقد اختلفت الروايات والقصص التى قيلت ونشرت عن هذه القصة لأن الإخوان لم تتوقف اتهاماتهم لجمال عبدالناصر حتى بعد أن توفاه الله ، ومن ذلك ما جاء فى كتاب عنوانه (عبدالناصر المفترى عليه) لمؤلفه الأستاذ حسنين كروم ونصه :

(لقد حاول الإخوان المسلمون ومعظم الذين اشتركوا فى الحملة ضد عبدالناصر الترويج لقرية كبيرة ، وهى أنه قام بتدبير حادث إطلاق الرصاص عليه فى ميدان المنشية بالإسكندرية ليتخذ ذريعة لتصفية الإخوان المسلمين ، وقالوا إنه لفق لهم تهمة إقامة تنظيم سرى مسلح فى أغسطس سنة ١٩٦٥م ليقوم بتوجيه ضربة إجهاض لهم ، ومن أعجب الأقاويل التى يرددونها أنه ناصب الإخوان العداء لأنه أراد تصفية الدعاة لدين الله بدافع من الحادة ، ووصل الأمر إلى حد اتهام عبدالناصر بأنه ضرب الإخوان عام ١٩٦٥م بتعليمات من المخابرات الأمريكية والروسية ، وليس هذا القول بنكتة ، إنما قالته السيدة (زينب الغزالي) وهى من الوجوه البارزة للإخوان التى اعتقلت سنة ١٩٦٥م فى حديث لها نشرته مجلة الإذاعة والتليفزيون بتاريخ ١ فبراير سنة ١٩٧٦م ، قالت - إننى أعتقد يقينا لا يداخله شك أن الأمر قد صدر من المخابرات الأمريكية والمخابرات الروسية لجمال عبدالناصر بتدبير هذه القضية لأن هناك فكرا سليما لفهم الإسلام صاحبه الشهيد (سيد قطب) وأن هناك نشاطا للتجمع على هذا الفكر بقيادة الشهيد عبدالفتاح عبده إسماعيل وزينب الغزالي ، ونفذ عبدالناصر تعليمات المخابرات الكافرة الفاجرة لروسيا وأمريكا فكانت ملحمة السجن الحربى أو مجزرتة بمعنى آخر) .

اتهام واضح صريح لعبدالناصر بأنه تلقى تعليمات من المخابرات الروسية والأمريكية لضرب الإخوان !! وعلى الرغم من روح الفكاهة فى هذا الاتهام المرح فالسيدة زينب الغزالي قد نفته دون أن تتنبه عندما قررت أنه كان هناك نشاط للتجمع بقيادتها ومعها عبدالفتاح عبده إسماعيل ، وهو اعتراف صريح بتشكيل تنظيم وأن الضربة التى وجهت إليهم لم تكن بدون مبرر ..

ويضيف الكاتب قائلا ، ويشاء الله سبحانه وتعالى أن يقوم الإخوان أنفسهم بتبرئة عبدالناصر من تهمة تلفيق الاتهام لهم سنة ١٩٦٥م بإقامة تنظيم سرى مسلح ويعترفون بأنهم أنشأوا بالفعل تنظيما سريا ، والأهم أنهم يعترفون أن التعذيب لم يشمل جميع الذين اعتقلوا فى السجن الحربى ، وهذه الاعترافات جاءت بالحرف فى كتاب (مذابح الإخوان فى سجون ناصر) الذى ألفه جابر رزق وهو أحد الذين قبض عليهم عام ١٩٦٥م وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاما قضى منها عشر سنوات وأفرج عنه السادات ، وصدر كتابه فى القاهرة عام ١٩٧٧م ، وقال فى الصفحات ٣٧-٤٣) ما يلى :

(وأضرب مثلا لذلك ضابط المباحث الذى ألقى القبض علىّ يوم ٢١ أغسطس ١٩٦٥م فقد كان مؤدبا متعاطفا معى سهلا ، قام بتفتيش شقتى بطريقة ليست همجية كما كانت تفعل الشرطة العسكرية التى سرقت إسورة زوجتى فى إحدى الزيارات التى حدثت بعد القبض علىّ ، لقد أخذ معه بعض أوراقى الخاصة وكان من بين تلك الأوراق خطاب أرسله إلى سيد نزيل صاحب مأساة قرية كرادسه ، حدثنى فى هذا الخطاب فى الصفحة الأولى عن مشروع زواجه بأخت أحمد عبدالمجيد عبدالسميع عضو قيادة التنظيم ، وفى الصفحة الثانية من الخطاب كان حديثا عن التنظيم بصريح العبارة ، ورغم أننى كنت قد صفيت أوراقى الخاصة إلا أننى لا أعرف كيف سقط هذا الخطاب ولم أتخلص منه ، وأردت بحركة سريعة أن أخفى الخطاب مع بعض الأوراق الخاصة ولكن الضابط بأدب قال لى ، هات هذه الأوراق سنأخذها معنا لنقرأها هناك ، وسقط قلبى وأحسست أن أمر التنظيم قد اكتشف واستسلمت لأمر الله ، أكمل الضابط عملية التفتيش وصحبنى إلى وزارة الداخلية وبدأ يقرأ أوراقى ، وكان هذا الخطاب أول ما قرأ ولم يقرأ منه إلا الصفحة الأولى واستسمحنى أن يمزق الخطاب فرحبت بذلك ، .. وكان .. انتهى) .

إذن فقد كان هناك تنظيم وقيادة ولم يكن الأمر ملفقا ، انتهى .. (٢٦) أما العملية التي أقدمت عليها جماعة الإخوان المسلمين والتي خطط لها جهازهم السرى فقد كانت محاولة اغتيال جمال عبدالناصر فى ميدان المنشية بالإسكندرية وهى التى كانت القشة التى قصمت ظهر البعير وكانت تراجيديا بكل معنى الكلمة رغم إنهم (أى الإخوان المسلمين) حاولوا أن يفهموا الناس أنها أكذوبة وأن عبدالناصر اخترعها ليجد مبرر القضاء عليهم ، وظلوا يرددون هذه القصة حتى بعد وفاته ، ومن هنا نرى أن بعض الكتاب قد أعطوا القارئ فكرة عن تلك العملية حتى يمكنه أن يتصور أى الجانبين كان على حق ، على أننى شخصا أعلم أن محاولة الاغتيال كانت فعلا حقيقية ومن تدبير الجهاز السرى للإخوان المسلمين وبموافقة المرشد العام شخصا لأننى سمعت الرواية شفويا من الأستاذ أمين هويدى وكان قريبا من جمال عبدالناصر كوزير ثم كمدير للمخابرات الحربية ، ونفس التفاصيل سمعتها من الأستاذ (سامى شرف) والرجل كان مديرا لمكتب جمال عبدالناصر نفسه طيلة ثماني عشرة سنة وكان بدرجة وزير وسمعتها من عبدالناصر نفسه عندما صار الحديث معه عن الإخوان وكان فى بنغازى بليبيا سنة ١٩٧٠م (كما ذكرت فيما تقدم) وقال بالحرف الواحد (إنهم قتلة) وفيما يلى روايات بعض شهود تلك المرحلة ، فقد ذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه (لمصر .. لا لعبدالناصر) قائلا:

(أتذكر أننى فى سنة ١٩٦٥م ذهبت إلى عبدالناصر أقول له إن معلوماتنا فى الأهرام تقول : إن عدد المعتقلين خلال الشهر الأخير قد زاد على خمسمائة معتقل ، وكان رده ، قد وصلوا الآن إلى ستمائة مع الأسف ، لقد كان بين خطط التنظيم السرى الذى قبض على قيادته خطط بنسف كبرى وجسور والقيام بعمليات اغتيالات بالجملة ، ولقد وافقت على اعتقالات واسعة أخذا بالاحتياط لأننى لا أستطيع أن أقبل بنسف كبرى أو جسور ثم إن (البلد) لا يستطيع فى هذه الظروف أن يتحمل احتكام بعض الناس إلى المسدس يقتلون به من يخالفهم فى رأى ..

(٢٦) كتاب عبد الناصر المقترى عليه - حسنين كروم - ص ١٧١ .

ولاحظ هو ترددى ، وكان قوله ، مشكلتى أننى لا أستطيع أن أتردد ، أنت صحفى تستطيع أن تفكر من اليوم إلى الأبد ، ولكن مسؤوليتى عن البلد تحتم على أن أفكر حتى لحظة معينة ثم أقرر وأتحمل المسؤولية (٢٧) .

ثم جاءت شهادة أحمد طعيمة فى كتابه (شاهد حق) عندما قال :

علاقة عبدالناصر بالإخوان المسلمين موضوع شائك ترددت فيه الروايات المختلفة وخاصة تلك الادعاءات التى أطلقتها جماعة الإخوان ومحاولاتها المستمرة للتضليل والتشكيك فى كل الحقائق ، حتى بلغت بهم الجرأة الادعاء بأن حادث المنشية الذى تعرض فيه جمال عبدالناصر لمحاولة الاغتيال وأطلقت عليه عدة رصاصات إنما كان حادثا مدبرا من رجال عبدالناصر إن لم يكن من عبدالناصر نفسه ، وهو ادعاء باطل يرد عليه تاريخ جماعة الإخوان الإرهابى الدموى كما سبق وأوضحنا لأننى علمت باسم محمود عبداللطيف منفذ العملية قبل إطلاقه النار على جمال عبدالناصر فى المنشية وأبلغت جمال عبدالناصر باسمه ضمن عشرة أسماء سيكلف أحدهم بالقيام بمحاولة الاغتيال وقد حصلت على هذه المعلومات وهذه الأسماء العشرة من أعضاء فى جماعة الإخوان المسلمين كانوا متعاطفين معنا وضد سياسة حسن الهضيبى .. ويضيف طعيمة قائلا :

وفضلا عن ذلك كيف يمكن أن يبادر شخص ما وأن يقبل أن يطلق عليه النار من مسافة عشرة أمتار تقريبا فيصاب سكرتير هيئة التحرير الواقف ملتصقا بجانبه وهو الأستاذ أمين بدر ، كيف يمكنه التأكد بأنه لن يصاب هو أيضا لو حدث خطأ فى التصويب ، وكيف لا يحسب رجل مثل عبدالناصر عامل الخطأ البشرى الذى يجب أن يحسب حسابه فى أى تقدير أو تدبير ، انتهى (٢٨) ويستمر قائلا ، لقد بدأت بحادث المنشية باعتباره قمة العداء والتآمر من جماعة الإخوان المسلمين ضد ثورة ٢٣ يوليو عامة وجمال عبدالناصر بصفة خاصة على الرغم من أن جمال عبدالناصر كان متعاطفا منذ البداية مع جماعة الإخوان إلى أقصى الحدود وأمل

(٢٧) - هيكمل - لمصر .. لا لعبد الناصر - ص ٨١ .

(٢٨) طعيمة - شاهد حق - ص ٩٥ - ٩٦ .

دائماً فى التعامل معهم وتعاونهم مع الثورة ، كما حاول اكتساب ثقتهم من أول لحظة بالإفراج عن أعضاء الجماعة المسجونين فى الحوادث السابقة واستثنائهم كجماعة من قرار حل الأحزاب السياسية على الرغم من أن جماعة الإخوان تعتبر النشاط والعمل السياسى يسبق الأداء الدينى ،

ويؤكد السيد طعيمة أن ما يقوله ليس منطلقاً من خصام أو عداً لأنه كما قال من قدامى الإخوان المسلمين ، وهذا نصه :

وقبل حادث المنشية تطوع بعض الإخوان المتعاونين معى أنا والأخ الطحاوى بحكم أننا من قدامى الإخوان وقدموا لنا أسماء ٣٠٠ من أعضاء الجهاز السرى للإخوان المسلمين بعد ما كثرت الشائعات عن احتمال لجوء الإخوان لعمليات الاغتيال وتوجهت معهم إلى جمال عبدالناصر واقترحوا على جمال عبدالناصر إصدار قرار بفصل هؤلاء الثلاثمائة من الخدمة وبذلك ينشغلون بأنفسهم وعائلاتهم عن أى نشاط إجرامى آخر ، ولكن عبدالناصر لم يصدر القرار الذى طالبنا به أكثر من مرة بناء على استعجال هؤلاء الإخوان إلى أن نقد صبرهم وطلبوا لقاء عبدالناصر مرة ثانية ، وفعلاً توجهنا إليه قبل حادث المنشية بأيام ، استقبلنا عبدالناصر ولما سألوه عن القرار أجاب بأنه أجرى حصة بسيطة ٣٠٠ فى ٥ متوسط عدد أفراد الأسرة للشخص الواحد يعنى ١٥٠٠ فرد سيتعرضون لأخطار ومصائب لا حد لها وأن ضميره لم يقبل التوقيع على القرار .. انتهى (٢٩) ..

وفى ملاحظة أخرى يقول السيد طعيمة إن عبدالناصر أقسم بأنه أمسك القلم عدة مرات ليوقع قرار الفصل لكنه فى النهاية أحس أنه غير قادر على التوقيع رغم أن القرار كان معداً وقال معقبا ، من يريد اغتيالى فليفعلى ولكنى لن أوقع هذا القرار الذى يشرد عائلات كاملة .. انتهى .

ولقد كان الإخوان المسلمون ضد اتفاقية إجلاء القوات البريطانية من السويس (مصر) لأنهم اعتقدوا أن نصوص الاتفاقية لا تخدم مصلحة مصر وكان موقفهم واضحاً وصريحاً حيث صاروا يهاجمون عبدالناصر ورجال الثورة ، ومن

(٢٩) شاهد حق - أحمد طعيمة - ص ٩٥ - ٩٦ .

المؤكد أن معارضة الاتفاق ليس على أساس أنه لا يخدم مصر وإنما اعتقاداً منهم بأنه يقوى موقف جمال عبدالناصر شعبياً ، وهناك سابقة تؤكد ما نقول وهى إنهم عندما طلب منهم ترشيح أربعة أعضاء من الجماعة رفضوا رغم موافقة المرشد العام فى البداية ، وعندما رفضوا قالوا : إن هذا يقوى موقف الثورة وضعف جماعة الإخوان ، بمعنى أنهم أصلاً لا يريدون شيئاً يقوى وضع الثورة ، ولهذا صاروا يهاجمون الثورة علناً فى ندوات يعقدونها ويقولون : إن عبدالناصر تخاذل بل هو استسلم للبريطانيين ، وكان فى هذا الوقت موقفهم قد صار معروفاً متعاونين مع اللواء محمد نجيب فى محاولة الإطاحة بالحكم ، ولأن عبدالناصر كان عليه أن يرد على ادعاءات الإخوان فى مهرجانات لا بد أن يعقدها (وهذا شئ طبيعى) فقد كانت تلك فرصة مناسبة لأمر دبروها بليل حيث قرروا التخلص منه بالإغتيال وهو يلقي خطاباً بالإسكندرية ، يقول السيد طعيمة :

كنت أنا فى القاهرة فى مكتبى بهيئة التحرير عندما سمعت طلقات الرصاص والاعتداء من الراديو واطمأنت على سلامة جمال عبدالناصر وقد فوجئت بعد قليل بالسيد عبدالعظيم فهمى وكان مديراً للمباحث العامة يتصل بى قائلاً ، بأن اسم الفاعل هو محمود عبداللطيف وأنه ضمن الأسماء العشرة التى دونها جمال عبدالناصر فى مفكرة سوداء صغيرة يسجل فيها عادة أهم الموضوعات ، وقصة الأسماء العشرة ترجع إلى أن أحد أشقاء عائلة السعدوى الذين كانوا أعضاء فى جماعة الإخوان المسلمين الذين حضروا إلى مكتبى فى هيئة التحرير وأملانى عشرة أسماء مؤكداً أن أحدهم سيكلف باغتيال جمال عبدالناصر وأن هؤلاء العشرة يتدربون على إطلاق النار فى إحدى قرى محافظة الجيزة ، قابلت الرئيس جمال عبدالناصر فوراً بالأسماء العشرة ودونها فى مفكرته .. انتهى (٣٠).

ويتحدث الأستاذ أحمد حمروش عن نوايا الإخوان المسلمين وتنظيمهم السرى فيقول :

لم يفتن الإخوان المسلمون إلى أن اتفاهم مع حركة الجيش عقب الإفراج عنهم وإعادة تنظيم جماعتهم هو أمر لا يمكن أن يدوم لتنازل السلطة، كما أن

(٣٠) - أحمد طعيمة - شهادة حق - ص ٩٦ .

حركة الجيش لم تكن لتسمح بوجود تنظيم قوى آخر ، خاصة وهى تعرف أنه جهاز سرى مسلح وأنه متسرب فى الجيش ، وبدأت حركات التصادم تعود من جديد ، وكانت نقطة الخلاف المعلنة هى اتفاقية الجلاء التى تم توقيعها يوم ٢٧ يوليو ١٩٥٤م بالأحرف الأولى وقد وقعها عن الجانب المصرى جمال عبدالناصر وعن الجانب البريطانى أنطونى هيد وزير الحربى البريطانى (٣١) وقد حدثت فى أواخر أغسطس اشتباكات كانت بين البوليس والإخوان المسلمين عندما وقف حسن روح بعد صلاة الجمعة يحرض الناس على مقاومة الثورة ويدعوهم إلى العنف ، وتبلورت معارضة الإخوان للثورة فى موقف الرفض الذى وقفته كافة القوى السياسية ضد ما ورد فى اتفاقية الجلاء التى ورد فيها تعبير حق عودة القوات البريطانىة إلى مصر فى حالة وقوع هجوم مسلح على أى بلد يكون طرفا فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية أو تركيا ، وعندما تم التوقيع النهائى على الاتفاقية يوم ١٩ أكتوبر لم تستقبلها الجماهير استقبالا طيبا وانتهز بعض الإخوان المسلمين فرصة الشعور المعارض لتدبير اغتيال جمال عبدالناصر أثناء إلقاء خطابه بالإسكندرية يوم ٢٦ أكتوبر احتفالا بتوقيع الاتفاقية فى ميدان المنشية بالإسكندرية ، وكانت تقارير البوليس الحربى تدل على أن الشعور المعادى لسود الإسكندرية وتختلف الأقوال فى جو سرادق الاحتفال بينما يقول إبراهيم الطحاوى سكرتير عام مساعد هيئة التحرير إن رجال الحرس الوطنى تحت قيادة اللواء عبدالفتاح فؤاد الذين حضروا إلى السرادق كانوا يهتفون هتافات خاصة بهم لا يذكرون فيها اسم جمال عبدالناصر ، ويقول حسين عرفه : إن جماهير الإسكندرية التى احتلت السرادق تعالى هتافها ضد النظام ومن أجل الحرية ، وبينما يقول الطحاوى إن رجال الحرس الوطنى قد افتعلوا ضجيجا مفتعلا فى السرادق عندما حضر الوفد السودانى معتقدين أنه موكب عبدالناصر ، ويضيف الطحاوى ، أنهم أخلوا السرادق من الجماهير فى الخامسة بعد الظهر ، ويتفق الطحاوى وعرفه على أن غالبية الموجودين فى السرادق كانوا عشرة آلاف من عمال مديرية التحرير الموالين للثورة موالاة تامة والذين تسرب من بينهم محمود عبداللطيف أحد أعضاء الجهاز السرى للإخوان المسلمين وقد أدت إجراءات

(٣١) - حمروش - قصة ثورة ٢٣ يوليو - ص ٣٥٤ .

إخلاء السرادق وإعادة ملئها إلى تأخير حضور عبدالناصر وزملائه بعض الوقت ، وما إن بدأ خطبته حتى أطلقت من مسدس محمود عبداللطيف ٩ طلقات وكان يجلس فى الصفوف الأمامية على بعد ١٥ مترا من منصة الخطباء والضيوف ، أصيب ميرغنى حمزه وزير السودان والمحامى أحمد بدر الذى كان يقف بجانب جمال عبدالناصر الذى لم تصبه الطلقات والذى أصر على متابعة خطبته بعد ما حدث فى السرادق من هرج مردها ، أيها الرجال فليبق كل فى مكانه حياتى لكم ، دى فداء لمصر ولشعبها (٣٢) ولقد كان حادث الاعتداء نقطة تحول هامة فى مشاعر الشعب الذى كان يسخطه إرهاب الإخوان المسلمين قبل ٢٣ يوليو والذى يرفض بطبيعته المسالمة مثل هذا الأسلوب الدموى ويستنكر أن تكون طلقات الرصاص هى لغة التفاهم والإقناع ..

اعتقل بعض الضباط الموجودين فى السرادق محمود عبداللطيف الذى أطلق الرصاص واعتدوا عليه بالضرب الشديد ولكن أحمد نور تحفظ عليه فى غرفة بجوار مكتبه طوال فترة التحقيق ولم يلبس ملابس السجن (٣٣) .

كان محمود عبداللطيف العامل البسيط الذى يسكن إمبابه مقتنعا بما أقدم عليه متأثرا بما أوحى به إليه محام إخوانى اسمه هندأوى دوير من أن اتفاقية الجلاء ليست فى مستوى ما يطلبه الشعب بعد نضاله الطويل ، إنها تكلف مصر أعباء طائلة وتضعها تحت رحمة الإنجليز فى المستقبل ، ولقد حولت طلقات الرصاص مشاعر الجماهير نحو عبدالناصر الذى قام بجولة فى الشوارع قابلته فيها الجماهير بحماس ، وخطب صلاح سالم ليلتها فى نقابة المحامين بالإسكندرية فتأثر بعضهم حتى البكاء ، وفى نفس الليلة صدرت الأوامر باعتقال الإخوان المسلمين وبدأت أكبر حملة اعتقال شهدتها مصر حتى وصل الأمر إلى حد إعطاء المعتقلين بطاقات يسجلون فيها أسماءهم وعناوينهم لتدون فى كشوف سليمة ، وشكل مجلس قيادة الثورة فى أول نوفمبر ١٩٥٤م محكمة خاصة باسم محكمة الشعب كانت برئاسة جمال سالم وعضوية أنور السادات وحسين الشافعى فكانت رابع نوع من

(٣٢) قصة ثورة ٢٣ يوليو - أحمد حمروش - ص ٣٥٥ .

(٣٣) نفس المصدر أعلاه ص ٢٥٦ .

المحاكم تشكله الثورة بعد المجالس العسكرية ومحكمة الغدر ومحكمة الثورة وشكلت ثلاث دوائر فرعية فى محكمة الشعب الأولى برئاسة اللواء صلاح حتاته والثانية برئاسة قائد الجناح عبدالرحمن عنان والثالثة برئاسة القائم مقام حسين محفوظ ندا .. بلغ عدد الذين حكمت عليهم محاكم الشعب ٨٦٧ وعدد الذين حكمت عليهم المحاكم العسكرية ٢٥٤ شخصا ، وصدر الحكم بإعدام محمود عبداللطيف ويوسف طلعت وهنداوى دوير وإبراهيم الطيب وعبدالقادر عوده ومحمد فرغلى ونفذ الحكم فعلا ، كما صدر حكم إعدام حسن الهضيبي ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم حكم على سبعة آخرين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وكان محمد نجيب مازال حتى لحظة محاولة الاعتداء على حياة جمال عبدالناصر رئيسا للجمهورية بلا سلطات عملية تقريبا يقوم بمعظم واجباته ويحضر مقابلاته حسن إبراهيم وزير الدولة لشئون الرئاسة ، وعندما وجد محمد نجيب فى اتفاقية الجلاء بعض ما يستحق النقد كتب مذكرة إلى مجلس قيادة الثورة ثم فوجئ بها مطبوعة يوزعها الإخوان المسلمون ، انتهى (٣٤) .

نلاحظ هنا أن نجيب قد وجه المذكرة إلى مجلس قيادة الثورة فكيف قام الإخوان بالحصول عليها وهم فى صراع مع هذا المجلس وأغلب قياداتهم وأعضائهم فى السجون والمعتقلات لو لم يكن اللواء محمد نجيب فعلا متعاوناً معهم وهو الذى سرب المذكرة إليهم وبالتالي فهو لا يمكن أن يكون قد فوجئ بها توزع من طرفهم كما ذكر المؤلف ، والإخوان المسلمون رغم كل الحقائق التى ذكرت فى مقالات وكتب ونشرات بعضها منهم أنفسهم وما جاء فى حيثيات المحاكم ظلوا يشككون فى كل إجراء سواء جاء من المؤيدين لحكم عبدالناصر أو المعارضين له بل ومن طرف أناس لحقت بهم إجراءات الاعتقال كحالة الشيوعيين ، ثم إن هؤلاء الإخوان لم يتركوا فرصة إلا واستغلوها فى الهجوم على عبدالناصر ونظامه وكل منجزاته حتى بعد وفاته وخصوصاً خلال الفترة التى أتاحتها لهم الرئيس السادات عندما أطلق سراح المعتقلين منهم وأطلق أيديهم وألستهم وكان غرضه من ذلك ليس رحمة بهم (كما رأينا فيما بعد) وإنما

(٣٤) قصة ثورة ٢٣ يوليو - حمروش .

لاستخدامهم من أجل ضرب الناصريين والتخلص منهم، علما بأنه عند وفاة جمال عبدالناصر لم يكن منهم أكثر من ٤٥٠ في السجون بعضهم كانوا متهمين بالتخابر مع إسرائيل، وذكر الأستاذ عبدالله إمام في كتابه (عبدالناصر والحملة الظالة) ما يلي:

(في ٣٠ مايو ١٩٥٦م وقبيل تأميم قناة السويس وما تبعه من عدوان ثلاثي ذهب المرحوم كامل الشناوى رئيس تحرير جريدة الجمهورية ليجرى حوارا مع جمال عبدالناصر وفي الحوار قال له لقد قررت رفع الرقابة على الصحف نهائيا وبصورة كاملة فهل سيتبع ذلك اتخاذ قرار تخفيض قيود الأحكام العرفية التي فرضت على البلاد أثناء فترة الانتقال؟

فقال عبدالناصر: إن الأحكام العرفية استمرار لقرار آخر برلمان في ٢٦ يناير ١٩٥٢م مع فارق أنها كانت تستغل ضد الوطنيين أما بعد الثورة فقد اتخذت ضد أعداء الوطن وسأعلن وجهة النظر في هذا الخصوص نهاية الأسبوع..

وقال كامل الشناوى: والمعتقلون؟

أجاب عبدالناصر: قررنا الإفراج عنهم (٣٥).

فقال الشناوى: جميعا؟

قال عبدالناصر: جميعا وبلا استثناء، ولكن هل تعرف عدد المعتقلين؟

قال الشناوى: ليس عندي معلومات أكيدة عن عددهم وكل ما أعلم أن كثيرين ممن أعتقلوا أو صدرت عليهم أحكام قضائية ونشرت قوائم بأسمائهم قد تم الإفراج عنهم في صمت ولست أعرف ما هي الحكمة في كتمان هذه الأنباء.

قال عبدالناصر: سأذيع خلال أيام قليلة بيانا عن اعتقالناهم ومن أفرجنا عنهم وسيفاجأ الرأى العام حين يعلم أن حملات التضليل قد ضربت الرقم الحقيقى للمعتقلين فى عشرة أو عشرين وسيعلم الرأى العام أيضا أننا لم نؤذ معتقلا فى رزقه ولم نهمل شأنه أو شأن أحد ممن يعولهم وأن الاعتقال كان إجراء تحفظيا لسلامة الدولة وحماية مصلحتها العليا، وأن الاعتقال بالنسبة إلى كثير من المعتقلين لم يكن عقوبة بل كان علاجا ووقاية.

(٣٥) عبد الناصر والحملة الظالة - عبد الله إمام - ٣٠.

الشناوى : هل أستطيع أن أعرف عددهم ؟

عبدالناصر : إن عدد المعتقلين الآن ٥٧١ سيفرج عنهم جميعا قبل ٢٣ يوليو (٣٦) ..

بعد ذلك بيومين كان عبد الناصر يفى بوعدده ويعلن عن عدد المعتقلين وقصة اعتقالهم كاملة فى مؤتمره الصحفى ، فقال : إن أكبر عدد من المعتقلين طوال هذه الأيام فى ٢٤ أكتوبر ١٩٥٥م كان ٩٤٢ بعد اكتشاف القنابل ومخازن الأسلحة والمنظمات السرية وكلكم تعلمون الفترة التى مررنا بها ، وقبل هذا الوقت وهذه الحوادث كان عدد المعتقلين فى أكتوبر ١٩٥٤م عددهم عامى ٥٢ - ٥٣ حوالى ٢٣٧ شخصا فقط ولما قامت الحوادث المؤسفة باسم الدين قام بعض الناس ممن خدعوا وغرر بهم ودفعوا دفعا لمقاومة هذه الثورة ، ورغم هذا كله فإن عدد المعتقلين وصل إلى ٢٩٤٣ شخصا وفى ستنى ١٩٤٨ - ١٩٤٩ لم تكن البلد تحكم حكما عرفيا استثنائيا وصل عدد المعتقلين إلى خمسة آلاف شخص ..

ثم شرح عبدالناصر أسباب الاعتقال أو التى دفعت إلى الاعتقال فقال : علينا أن نفكر فى الأسباب والدوافع قبل الحكم على قرار ما حتى نستطيع أن نحكم حكما سليما ، وأضاف ، فى السنوات الماضية أقيمت محاكم عسكرية وحكمت على الأشخاص الذين كانوا يقاومون الثورة والذين كنا نعتبر أى نجاح لهم يعد انتكاسا لهذه الثورة وأن أى نجاح قد يثبت الاستعمار وأعوانه ، وعلى ما أعتقد أن الأحكام لا يتجاوز أقصاها ثمانى سنوات انتهى (٣٧).

والواقع أن الثورة أى ثورة أو أى انقلاب لابد أن يتخذ إجراءات حماية والأعمال التى تواجهه ينظر إليها على أساس أنها تستهدف القضاء عليه ، وهذه حقيقة واجهت أغلب الثورات أو الانقلابات التى حدثت فى العالم وما تختص به ثورة عبدالناصر أنها كانت بيضاء من البداية واستمرت كذلك ولم يحدث على الإطلاق أن وافق أو أمر جمال عبدالناصر بقتل أو اغتيال أى إنسان رغم كثرة المخالفين والمتآمرين والمارقين فى الداخل والخارج ، وأذكر أننى سمعت قصة من الأستاذ سامى شرف وهو صديق أعتر ب صداقته أكتبها هنا للتدليل على بعد جمال

(٣٦) نفس المصدر أعلاه .

(٣٧) نفس المصدر أعلاه .

عبدالناصر عن أعمال القتل وتصفية الحسابات بتلك الطريقة أو غيرها من أعمال التآمر بالليل ، قال :

كان أحد المصريين يشرف على إذاعة تنعق ليلا ونهارا ضد عبدالناصر وتذيع أخبارا مضللة وتصفه بأشنع الأوصاف ، وحدث أن وزير الداخلية (لم يذكر اسمه) قال لعبدالناصر أثناء جلسة لمجلس الوزراء (يا ريس فلان زودها وقد رصدناه ونود أن نستأذن في التخلص منه) لم يرد عبدالناصر ولكنه نهض وانفض اجتماع المجلس ، وحدث في جلسة أخرى أن ردد الوزير نفس الكلام وهذه المرة أقاله عبدالناصر من منصبه (كوزير للداخلية) ولكن بقية الوزراء قالوا للرئيس (يا ريس الرجل يريد حمايتك فتعاقبه بالفصل) !! قال عبدالناصر إقالته أفضل من أن يقنعني بالقتل .. هذا ما ذكره سامي شرف وهو أقرب مسؤول لعبدالناصر ، وأنا أروى حديثه وهو حي يرزق أطال الله عمره ، وأثق في شهادته خصوصا إنها كانت بعد وفاة جمال عبدالناصر ، وهناك قصص وروايات أخرى سأذكرها في مكانها من هذا الكتاب ..



محاولة اغتيال عبدالناصر فى ميدان المنشية بالإسكندرية

٢- الضغوط والمؤامرات الخارجية :

(قيل إن السياسة فن المستحيل)

وقالوا إن سياسة الدنيا تقوم على المصلحة وأخذ شئ وترك شئ آخر ، فمن أراد الحق كاملاً وإلا ، فلا ، فليتشيد ذلك في المثل الأعلى للأخلاق لا في السياسة أو فلينتظر حتى تخضع السياسة للأخلاق .

لكن في وقتنا الحاضر جرت العادة أن تخضع السياسة للمصالح ويخضع الحق للقوة ، وأظن أنه ما كان لعبد الناصر أن ينتظر ولا كان للسياسة أن تخضع للأخلاق أبداً ، وكان عبد الناصر بالتأكيد يدرك أن حروباً شرسة من مختلف الجهات ستشن عليه وعلى مشاريعه التي لا يرضى عليها الغرب الاستعماري وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية ، لأن هذا الغرب اعتاد أن يملأ إرادته (مهما كانت) فيطاع ولأن الصدام المحلي والمؤامرات المحلية لم تكن بعيدة عن خدمة النوايا والرغبات والمصالح الخارجية ، وكذلك لأنها لم تنجح فقد بدأت الضغوط والمؤامرات الخارجية ، والقوى الخارجية هذه أدواتها أقوى وأمضى وهي تبدأ من الاقتصادية والسياسية والمالية والصناعية وليس آخرها العسكرية ، ونعلم كم مارست الولايات المتحدة الأمريكية من أنواع تلك الضغوط على عبد الناصر ومصر عندما أقدم على ما عرف وقتذاك (بكسر احتكار السلاح) وتعامل مع دول كانت تعرف في وقته (بالكتلة الشرقية أي الشيوعية) وتحديداً (تشيكوسلوفاكيا) حتى أن الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور هدد بضرب حصار بحري على مصر بحيث يمنع التصدير أو الاستيراد منها وإليها وقال إنه سيجعل القطن المصري يتكدس في الحقول وتجويع الشعب المصري عقاباً له بسبب حكم عبد الناصر وأنه سيمنع وصول السلاح الشيوعي إلى مصر أو غيرها اعتقاداً منه أن عبد الناصر سوف يرتعب ويتراجع بالعناوين ورغباته وربما سيطلب الرحمة من سيد البيت الأبيض (كما يفعل حكام العرب الآن) ولكن ذلك كان صفيح ريح في واد عميق ، وكان هيكلاً قد ذكر في كتابه (لمصر .. لا لعبد الناصر) الصادر في طبعته الرابعة سنة ١٩٨٥م ما كانت تخطط له المخابرات المركزية الأمريكية ، حيث قال :

(نقلت وكالات الأنباء العالمية قصتين إخباريتين مصدرهما واشنطن ،
القصة الأولى كتبها (دونالد روتريج) أحد مراسلى وكالة (الأسوشيتدبرس)
نصها كما يلى :

(أعلن جون ماركس) أحد مؤلفى كتاب (عبادة المخابرات) أن وكالة
المخابرات المركزية الأمريكية حاولت ثلاث مرات فى أواخر الخمسينات اغتيال
جمال عبدالناصر ، وقد رتبت المخابرات الأمريكية فعلا ثلاث فرق للاغتيال تقوم
بهذه المهمة ، ولكنها لم تنجح فقد قبض على إحداها وعجزت الأخرى عن تنفيذ
المهمة ، كما أن الثالثة وهى مكونة من عرب (٣٨) فى خدمة المخابرات المركزية لم
تبلغ عما حدث لها بعد أن وصلت فعلا إلى مصر ..)

وقال (جون ماركس) إن التخطيط لمحاولات اغتيال جمال عبدالناصر بدأ فى
اجتماع لمجلس الأمن القومى الأمريكى كان يحضره (جون فوستر دالاس) وزير
الخارجية الأمريكية الأسبق وكان يحضره أيضا شقيقه (آلان دالاس) الذى كان فى
ذلك الوقت يشغل منصب مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، وحدث أن
عرض فى هذا الاجتماع تقريرا عن الأضرار التى تسببها سياسات جمال عبدالناصر
لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية فى المنطقة وقال (جون فوستر دالاس) ألا
تستطيع المخابرات تصفية هذه المشكلة ؟

واعتبر آلان دالاس أن هذه العبارة تكليف رسمى بتصفية جمال عبدالناصر
وبدأ الترتيب لاغتياله ، هذا ما نقلته وكالة (الأسوشيتدبرس) على لسان (جون
ماركس) ويعلق هيكلى على القصة قائلا :

(٣٨) هذه القصص ذكرها الأستاذ محمد حسنين هيكلى فى كتابه ثم فى برنامج الذى كانت
تبثه محطة تليفزيون الجزيرة الفضائية بعنوان (مع هيكلى) خلال شهر يونيو ٢٠٠٧م .. ومع
الأسف فإنه ليس جديدا تأمر بعض العرب على بلادهم وأهلهم من خلال المخابرات
الأجنبية ، ونجد فى وقتنا الحاضر وفى نهاية القرن العشرين من يبيعون أنفسهم ليس رغبة
فى مال ولكن عمالة وسفالة مثلما فعل الأمير السعودى (بندر بن سلطان) وكان سفير
السعودية فى واشنطن عندما قال لبوش الابن إنه يصلى كل صباح داعيا له أن يدمر
العراق، جاء هذا فى كتاب (خطة الهجوم) لمؤلفه (بوب وودوارد - ص ٣٤٨ ...).

هكذا إذن وبشهادة خير عارف بما يقول ، حاولوا تصفية عبدالناصر كإنسان باغتياله تماما كما فعلوا مع (السيلفادور الليندى) فى تشيلى وباتريس لومومبا فى الكونغو وغيرهما ، ونأتى للقصة الإخبارية الثانية وهى تتعلق بتقرير أذيع من واشنطن عن تحقيقات لجنة السيناتور (تشرش) فى نشاط وجرائم وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وكانت جريدة (نيويورك تايمز) بين الوسائل الصحفية التى نقلت كثيرا من تفاصيله ، يتحدث التقرير فى جزء منه عن الأساليب التى اتخذتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى مجال توجيه الرأى العام فى العالم ومنذ بدأت نشاطها أثناء الحرب العالمية الثانية تحت اسم (وكالة الخدمات الخاصة) ثم تحولت بعد ذلك بقانون أصدره الرئيس الأسبق (هارى ترومان) إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، ويرسم التقرير صورة عجيبة لنواحي النشاطات التى لجأت إليها المخابرات المركزية فى مجالات الصحافة والنشر والإعلام بصفة عامة لكى تضمن تحقيق أغراضها ، من ذلك مثلا أن الوكالة أنشأت من وراء الستار دورا صحفية فى العديد من دول العالم الثالث وكان تمويل هذه الدور كله من مصادر الوكالة كما أن هناك دورا أخرى ساعدت الوكالة على إنشائها ولم تطلب الوكالة من أصحابها شيئا محددا بالذات ولكن مجرد ربط مصالحهم بالوكالة حتى تحقق (تكييف) اتجاهاتهم من أغراض هذه الوكالة على حد نص تعبير القرار ، ثم يقول المؤلف :

أعود إلى الحرب المستمرة على جمال عبدالناصر ، فقد حاولت قتله وقتل سياساته ماديا وحاولوا ثلاث مرات يعترف بها (جون ماركس) ، انتهى (٣٩).

ومؤامرات الغرب على الزعماء والقادة الذين لا يسيرون فى ظل هذا الغرب ويخدمون مصالحه كثيرة عبر كل الأزمان وبالنسبة لمصر بالذات كانت المؤامرات والضغط كثيرة جداً من محمد على الكبير مرورا بأحمد عرابى إلى جمال عبدالناصر ، فمثلا كان محمد على الكبير على خلاف مع السلطان العثمانى لاعتقاد السلطان أن محمد على يريد بناء مجد على حساب الإمبراطورية العثمانية وقد أصدر فرمانا فى شهر مايو ١٨٣٣م يعلن فيه خروج محمد على عن طاعته

(٣٩) لمصر .. لا لعبد الناصر - هيكى - ص ١٥ .

وكذلك ابنه إبراهيم وعزله عن ولاية مصر ، لكن بعد هذا الفرمان مباشرة سعت فرنسا وبريطانيا للتوسط بين محمد علي والسلطان العثماني محمود الثاني لرغبة هاتين الدولتين تعطيل الاتفاق بين السلطان وروسيا التي كان قد طلب منها المساعدة ضد طموحات محمد علي وفعلا دخلت جيوشها البحرية المياه المؤدية إلى البحر الأبيض المتوسط ، وبهذا المسعى الذي لم يكن لا من أجل عيون السلطان ولا رغبة في محمد علي وإنما لمنع الروس من وضع أقدامهم في مياه البحر الأبيض المتوسط ، وافق السلطان على إلغاء فرمان حرمان محمد علي وابنه إبراهيم ووافق على حقوقه في ولاية مصر والسودان والجزيرة العربية وكريت وفلسطين وسوريا ، وكان السلطان قد وقع معاهدة مع روسيا (كما أشرنا) خوفا من طموحات محمد علي لكن هذه المعاهدة لم ترض فرنسا وبريطانيا ولذلك بذلتا مساعي للتوفيق بين الاثنين ، ويذكر أن رئيس وزراء بريطانيا قد نبّه سنة ١٨٣٣م إلى أن محمد علي يسعى إلى تكوين مملكة عربية برئاسته في مصر بحيث تضم كل البلاد العربية وبتعبيره (البلاد التي تتكلم اللغة العربية) ومن المؤكد أن الرأي البريطاني هذا قد وصل آذان السلطان العثماني الذي سارع باتخاذ الإجراء المشار إليه ولم تتراجع بريطانيا إلا بعد اتفائه مع روسيا ، وقال المبعوث الفرنسي لدى إبراهيم باشا في سوريا إن ابن محمد علي الذي يحكم سوريا يعمل على إحياء الأمة العربية وغرس شعور وطني جديد عند العرب (٤٠) .

والحقيقة إن طموحات محمد علي كانت كبيرة وكان يرى في نفسه الرجل القادر على إقامة الدولة العربية القوية من المحيط إلى الخليج ، وكان ابنه إبراهيم يقوم في سبيل ذلك إلى جانب خطواته الحربية بخطوات أخرى اجتماعية فقد قام بعدد من الإصلاحات مثل التي قام بها والده في مصر لإنهاء العسف الإقطاعي وتحريم الابتزاز حيث أعفى الأرض البكر من الضرائب وأسكن البدو في الأراضي المناسبة ، وفي عهده زادت مساحة الأراضي المنزرعة في سوريا من مائتي ألف فدان إلى أربع مائة ألف فدان في منطقة حوران واستطاع الفلاحون أن يتاجروا بمحاصيلهم بدلا من تخزينها خوفا من الباشوات الأتراك وكبار الإقطاعيين الذين

(٤٠) تاريخ الأقطار العربية الحديث - لوتسكي .

أجبرهم إبراهيم باشا على الركوع للسلطة المركزية ، وأعاد إبراهيم تنظيم البلاد على أساس ست مديريات بنظام عصري مركزي كما أصلح نظم التعليم وإنشاء المدارس الابتدائية في كافة أنحاء سوريا والمدارس الثانوية في المدن .. (٤١) .

ولم تكن الحكومة البريطانية مرتاحة إلى نجاحات محمد علي في التقدم الصناعي والزراعي والعسكري الذي حققه في مصر وسيطرته على الجزيرة العربية وسوريا الشئ الذي يجعل طريق الهند تحت رحمة رجل قوى منظم يقود قوة هائلة ولعب (بالمرستون) وزير خارجية بريطانيا دورا خبيثا في تحقيق أهداف دولته بالاتفاق مع الباب العالي وكان محمد علي متعجلا في تحقيق أهدافه فأبلغ قنصلي بريطانيا وفرنسا أنه قرر إعلان استقلاله تمشيا مع سياسته الإصلاحية وتطور بلاده وأن بقاء مصر وسوريا في حظيرة السلطان يتنافى والواقع السياسي والاجتماعي في الشرق .. إلخ ، ويضيف المؤلف قائلا :

كان تفكير محمد علي سليما في استعداداته لمواجهة بريطانيا بالقوة ولكن حيل (بالمرستون) لم تنضب فركز على النشاط الدبلوماسي وحصل على موافقة كل من النمسا وبروسيا وروسيا وتركيا على اتفاقية لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠م حيث تم توجيه إنذار إلى محمد علي في ١٩ أغسطس ١٨٤٠م ينص على الشروط التالية :

- ١ - تسلم محمد علي مقاليد مصر كملك وراثي .
- ٢ - إنابة إدارة فلسطين (ولاية عكا) به كملك عليها مدى الحياة .
- ٣ - إعادة جميع الممتلكات الأخرى إلى السلطان .
- ٤ - في حالة عدم موافقة محمد علي على هذه الشروط المقترحة خلال عشرة أيام يحتفظ بمصر وحدها .
- ٥ - إن لم يوافق خلال عشرين يوما على هذه الشروط يعمل على عزله عندئذ بجهود الحلفاء المشتركة .

(٤١) - تاريخ ثورة ٢٣ يوليو - حمروش - ص ٣٦ .

رفض محمد على الإنذار وأعلن أنه ينوى أن يبقى بالسيف ما ربحه بالسيف وبدأت الحروب بنزول قوات بحرية بريطانية ونمساوية مشتركة على شواطئ لبنان وانتهت بسقوط بيروت واللاذقية والإسكندرية وعكا وتهديد الأسطول البريطاني بهدم الإسكندرية، اضطر محمد على أن يوقع على الاتفاقية يوم ٢٧ نوفمبر ١٨٤٠م تحت فوهات المدافع البريطانية بعد أن اقتضرت مساعدة فرنسا حليفة مصر على الإمداد بالأسلحة والتأييد المعنوي متحاشية دخول حرب أوربية ضد روسيا وإنجلترا في وقت واحد فتركت مصر وحدها في كفة الأقدار .

لقد أقام محمد على في مصر نظاما اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا انتكس بعد موته ولكنه لم يندثر ، وكان محمد على قد وضع أساسا سليما لإقامة بناء ينفرد به المصريون ولا يخضعون فيه لسلطة قوة خارجية عنهم . انتهى (٤٢) ..

وهكذا تحالفت قوى الغرب لضرب مشروع محمد على المستهدف تقدم مصر وأفشلوا خططه الصناعية والزراعية والثقافية والاجتماعية الشئ الذي أدى إلى عدة أمور :

أولها : عدم تمكين مصر من التقدم صناعيا أو زراعيًا وثقافيا ذلك أنها لو تقدمت وأمكن لهذا الزعيم أن ينفذ مشاريعه فسوف تمثل خطراً على مصالح الغرب .

وثانياً : سوف تحقق مصر مشروع التوحيد العربي أو بالتحديد سوف تقود العرب لتكوين الدولة العربية الواحدة التي تتوفر لها كل مقومات التقدم والرقى ، وهو نفس الشئ الذي سعى إليه جمال عبدالناصر وقد واجه نفس الصعاب والمشاكل والمؤامرات وإذ لم تكن هناك إسرائيل والصهيونية في عهد محمد على ولا في عهد أحمد عرابي فإن عهد جمال عبدالناصر كان في وقت وجدت فيه هذه الدولة التي صنعها الغرب لتكون شوكة في خاصرة الأمة العربية ، ولعله من المفيد أن نشير إلى ما ذكره (بن جوريون) أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل في مذكراته ، قال (إن إسرائيل لا يمكنها أن تسمح لمحمد جديد في شخص جمال عبدالناصر يقوم ليوحد العرب كما وحد النبي محمد العرب والمسلمين) ذلك كان عبدالناصر رحمه الله رحمة واسعة الذي توفاه الله في وقت مبكر ، وبعده ما جاء حاكم عربي إلا انطبق عليه قول الشاعر الفرنسي (لامارتين) :

(٤٢) - قصة ثورة ٢٣ يوليو - حمروش - ص ٤١ .

(فى الشرق لا وجود للنظم والأجهزة بمفهومها الصحيح ، ولا أثر للتقاليد السياسية ، ولا وجود فيه إلا لسيد من ناحية ولعبيد من ناحية أخرى ، الرجل الكبير فيه ليس سوى شخصية أو حدث ، بل هو أشبه بنجم يتلأأ لحظة فى ظلمات البرية ، هو رجل يقوم بأعمال كبيرة يسخر لها آلافا من الناس الذين يحكمهم ولكنه لا يغير شيئاً فى مستوى شعبه ، ولا يؤسس دولة وطيدة الأركان، ولا يخلق أجهزة ، ولا يضع قوانين ، فإذا غادر الدنيا طوى عبقريته كما يطوى البدوى خيمته وتوارى معها تاركا المكان خاليا كما كان قبل قيامه (٤٣) . ويذكر أن ورقة بن نوفل كان قد قال للرسول محمد عليه الصلاة والسلام (ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أودى) ومع عدم المقارنة بالرسول فإنه ما جاء حاكم وطنى مخلص صادق مع نفسه ومع أمته إلا حورب بكل أنواع الأسلحة ..

٢- دوافع تلك الضغوط والمؤامرات :

أسباب ودوافع الضغط والتآمر عديدة وكثيرة ، محلية وخارجية ، فهى ترتبط بغايات ومصالح وأهداف وعقائد وسياسات ، الخارجية منها :

ربما ليس هناك من لا يعرف كيف كان وضع الوطن العربى فى التاريخ المعاصر قبل حدوث ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وبروز جمال عبدالناصر على الساحة المصرية أولا وقد أراد القضاء على الفساد وتحرير الفلاح والعامل ومنع الاحتكار والاستغلال والاستعباد ، بمعنى إحداث تغييرات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وتعليمية وحتى نفسية ، وعلى الساحة العربية حيث يعمل من أجل الاستقلال الوطنى والتخلص من قوى الاستعمار بجميع أنواعه ، وعلى الساحة الإقليمية حيث ساند جميع حركات التحرير فى أفريقيا والشرق الأوسط وجعل من عاصمة بلاده (القاهرة) مركزا لنشاط حركات التحرير ورعاها أمنيا وسياسيا وماليا وقدم لعناصرها التوجيه والتدريب ، وعالميا حيث وقف ضد كل أنواع السيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية والتمييز وشارك فى ظهور حركة عدم الانحياز تلك الحركة التى رفضت وقاومت هيمنة الغرب والشرق فى وقت واحد ..

(٤٣) - قصة ثورة ٢٣ يوليو - حمروش .

٣- ولعله لم يكن هناك من لا يعرف كيف كانت الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية تتعامل مع العرب وبلدانهم ، فلقد كانوا يرون أن هذا العربى الذى يجلس على ثروات هائلة يجب أن يبقى جاهلا متخلفا لا يحصل إلا على فتات موائد السادة الأوربيين وقد نصبوا فى بلاد العرب حكاما جهلة بألقاب أمراء وملوك وسلاطين ورؤساء وبايات مهامهم قهر شعوبهم وسرقة أقاتهم ، ثم كيف أصبح بعدئذ الوطن العربى وكيف تعززت مكانة العرب ككل قبيل وفاة جمال عبدالناصر ، ولقد كانت هذه الأحداث والتغيرات والتطورات بالتأكيد هى الأسباب الرئيسية لكل الضغوط والمؤامرات ومحاولات التركيع ، وتفصيل ذلك كما يلى :

١- البلاد العربية كانت تداس بسنابك خيول الأجانب وتدنس بأقدامهم وكان بعضها اعتبر مستقلا ظاهريا ولكنها مكبلة إما بمعاهدات أو اتفاقيات أو قواعد عسكرية على أراضيها وجواسيس فى إداراتها وأجهزتها ، والبقية مستعمرة شرقا وغربا وجنوبا وشمالا لا تملك من نفسها شيئا ولا تدرى ماذا يسجرى فى أجوائها وسمائها وحتى أرضها .

٢- قبيل وفاة جمال عبدالناصر كانت كل البلاد العربية متحررة مستقلة ولا نقول بغير جهود وتضحيات أبنائها ولكن كان دور جمال عبدالناصر كبيرا فى تحفيز قدرات الرجال ودفع هممهم إلى العلى حيث كان صوت العرب من القاهرة يخاطب العرب من الخليج إلى المحيط وقد كان وسيلة عبدالناصر فى توصيل صوته إلى كل مكان ونعلم أن إذاعة صوت العرب قد بدأت فى منتصف يوليو ١٩٥٤م حتى إن عبدالناصر صار يحكم الوطن العربى من خلال صوت العرب فى القاهرة وكان يحدد العلاقة بين المواطنين العرب وحكامهم الذين كانوا يرون فى الاستماع لهذه الإذاعة جريمة يعاقبون الناس عليها ، ومن خلال صوت العرب وقف جمال عبدالناصر ضد الأحلاف وضد سياسات الهيمنة على العرب وضد الحكام الذين يتآمرون على شعوبهم ويبيعون ثرواتها إرضاء للغرب وأملا فى المساعدة منه للبقاء على كراسيهم التى كانت تهتز ، ولم يكن عبدالناصر يطلب الحق بالباطل وإنما الحق بالحق ، البلاد العربية لابد أن تتحرر والشعوب العربية لابد أن تستقل والثروات العربية لابد أن تكون فى خدمة الإنسان العربى ، وما كان هذا

مقبولا ولا مسموحا به ، فقالوا : إن الصغير لابد أن يبقى صغيرا وقد نعتوا جمال عبدالناصر بكل ما فى اللغات من أوصاف سيئة حتى إنهم قالوا : إنه (هتلر جديد) وأنه (طاغية) يعمل على تخريب العالم ولابد من كسر عظمه ليكون عظة وعبرة لكل من يتناول أو يرفع رأسه حتى يرى أبعد من قدميه ، وكانت بريطانيا العظمى وكانت فرنسا وكانت إسرائيل ، ومن وراء هؤلاء العم سام ، قالوا كيف يمكن لعربى أن يكسر احتكار السلاح وقد أعلن ذلك ناصر فى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥م وكيف له أن يمس مصالح الغرب ؟ وكانت البداية ، ولابد أن تستعرض إسرائيل عضلاتها بالدسائس أولا ، تخريب من الداخل لإرعاب الناس وتخريض الغرب بضرب مصالحه داخل البلاد وإظهار الحكم بأنه عاجز ، ثم بالعدوان المباشر لأنه لا يجوز لعبدالناصر أن يخرج الإنجليز من السويس وكان الهجوم على الجنود المصريين فى غزه يوم ٢٥ فبراير ١٩٥٥م فقد قتلت إسرائيل ٢٧ وجرح ٣٠ دون رادع أو راد ، ودمرت محطة السكة الحديد الواقعة شمالى غزة وكان على عبدالناصر أولا أن يطلب السلاح من الغرب للدفاع عن النفس ، قالوا ، السلاح ، لا ، لأنه يمثل خطرا على إسرائيل ، وعلى عبدالناصر أن يقبل شيئا آخر ، دفاعا مشتركا لأن الذى يخرج من الباب لابد أن يعود من الشباك ، بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية قدما مشروع خطة الدفاع المشترك لعبدالناصر ، أى أن يضع بلاده من جديد تحت الحماية وبعض الرحمة ! رفض عبدالناصر هذه الوصاية ، وقد اعتبرتا هذا الرفض تمردا على إرادتهما التى لا يجب أن ترد ، كذلك فإن المطالبة من طرف عبدالناصر بجلاء القوات البريطانية من السويس بمصر بعد ثمانين سنة من وجودها يعتبر خروجا على الطاعة ، معارضة حلف بغداد رغم نصائح (دالاس) وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية و (إيدن) وزير خارجية بريطانيا العظمى يعد تمردا على إرادات القوى الكبرى ، وهذا غير معتاد وغير مقبول ، فبريطانيا ترى مركزها الاستراتيجى فى السويس فوق كل نقاش أو اعتبار لأنه مركز الدفاع عن الشرق الأوسط ومصالح بريطانيا فى الهند والوقوف ضد الخطر الشيوعى الذى قد يجتاح المنطقة ، وكان ردها القاطع ، لا تفاوض ولا جلاء ، وبالمقابل كان تصميم قادة ثورة ٢٣ يوليو ، العمليات الفدائية التى يجب أن تجرى ليل نهار من أجل إجبار هذه الدولة المتغترسة على الفرار أو إجبارها على

الرضوخ لمطالب الثوار وهو فى النهاية رغم التضحيات الكبيرة ماذا حدث ؟ تم توقيع اتفاقية الجلاء فى يوليو ١٩٥٤م والمدة عشرون شهرا فقط ..

٣- وكان الفراق النهائى بين ثورة ٢٣ يوليو والغرب ، وتحديدًا بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية تلك المحاولات التى قامت بها هذه الأخيرة لإفشال أهم مشروع وضعته الثورة المصرية ضمن أولوياتها ، ذلك هو مشروع السد العالى ، ولقد تشكلت الكثير من لجان الخبراء والفنيين فقررت فوائده الاقتصادية ، وحدث أن الخبراء الألمان والإنجليز والفرنسيين التابعين لشركات كبرى فى بلدانهم أجمعوا على أن السد العالى من أهم المشاريع المائية فى العالم وعلى ضوء دراساتهم قرر البنك الدولى للإنشاء والتعمير تقديم قرض مالى وكذلك الحكومتان البريطانية والأمريكية حيث استعدتا بتوفير الأموال اللازمة من العملة الصعبة لإنجاز المشروع ، ولكن ما لبث الموقف أن تغير ذلك أن البلد الذى لا يقبل الشروط الدولية ومنها تلك التى تمس كرامته ومستقبله السياسى لا يجد القبول من جانب هذه الدول والمؤسسات فتراجعت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا عن وعدهما وسحب البنك الدولى عرض القرض ، وما كان من وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن قررت بلاده إلغاء موافقتها بتقديم الدعم المالى لبناء السد ومعها البنك الدولى إلا أن أعلن قائلا :

(إننا نشك فى أن المصريين يستطيعون أن ينفذوا هذا المشروع العملاق الذى يتكلف مجهودا هائلا والذى لا يوجد فى العالم كله مشروع للرى بمثل حجمه ، وشكك كذلك ليس فقط فى المجهود البشرى المصرى وإنما أيضا فى الاقتصاد المصرى - (٤٤) .

وكان لابد من رد قوى يتناسب مع مبادئ الثورة المصرية وزعامتها ويكون شاهدا على تصميم وإرادة وإصرار الشعب المصرى ويتكافأ مع تضحياته ، فإذا كان هؤلاء المتغطرسون قد قالوا لا للتصنيع ولا للسد العالى ولا لمجرد التفكير فى مصلحة العرب ناهيك عن وحدتهم ولا للتسلح ، فلا بد أن يكون الرد أقوى وأبلغ من لاءاتهم ، وهكذا كان رد الفعل دفاعا عن النفس والكرامة والمبادئ .

(٤٤) كان حديث الوزير الأمريكى فى مؤتمر صحفى عقده يوم ٢٠ إبريل ١٩٥٧م .

كان عبدالناصر قد أعلن فى خطاب رسمى يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥م كما مر بنا عن صفقة السلاح مع واحدة من دول المعسكر الاشتراكى أو الشيوعى كما يقول الغرب بعد أن باءت كل المحاولات بالفشل مع الغرب فى الحصول على بعض السلاح حيث قالت بريطانيا العظمى إن الموافقة على بيع بعض الأسلحة (لاحظوا تعبير بعض) لمصر لابد أن يتلازم مع التصالح مع إسرائيل ونهج سياسة مصرية تميل إلى الغرب ، وقالت الولايات المتحدة الأمريكية إنها لا يمكن أن تزود مصر إلا بأسلحة خفيفة للشرطة والاستعمال المحلى (الأمن الداخلى) وقالت فرنسا إن سلاحها لا يسلم إلا إذا تخلت مصر عن مساندتها للثورة الجزائرية ، ولم تكن واحدة من هذه الدول الكبرى تنظر إلى اعتداءات إسرائيل غير أنه عمل تآديبى ضد العرب ومصر بنوع خاص ، ولم تكن حاجة الجيش للأسلحة غير للدفاع فقط وهو ما كانت تردده بعثات محاولات شراء السلاح من الغرب ، وعندما أعلن عبدالناصر عن صفقة السلاح مع (تشيكوسلوفاكيا) تشيكيا الآن قامت قيامة الغرب وأرغت وأزبدت قيادات الإدارة الأمريكية ، كيف يجرؤ رجل صغير (حسب تعبيرهم) على هذا التحدى؟ تكرر التهديد والوعيد (سلاح شيوعى يستتبعه نفوذ شيوعى) غير مقبول ولن يسمح به ، وكان جمال عبدالناصر قد قرر أن يضرب على الحديد وهو حامى وأن يقدم على ما هو أكبر وأعظم صونا لكرامة شعبه وأمته ، (ديليسبس) تلك هى الكلمة السحرية فى خطاب على الشعب يوم ٢٦ يوليو ١٩٦٥م (ويوليو هو عيد الثورة) أعلن فيه تأميم شركة قناة السويس العالمية وقال (لقد كانت حاجتنا كبيرة وملحة لبناء قواتنا المسلحة ومع ذلك لم تكن هناك مساومة حول مبادئنا بسبب هذه الحاجة ولم نرض بقبول السلاح المشروط بسياسة مفروضة علينا) ومثلما قامت الضجة العالمية التى قادتها الولايات المتحدة الأمريكية ومن ورائها إسرائيل حول صفقة الأسلحة التشيكية والتى قالوا إنها أخلت بالتوازن العسكرى فى المنطقة وإنها جعلت سباق التسلح واقعا ، وانضم إلى جوقة المطبلين الباكين بعض الحكام العرب ليس فقط بشأن الأسلحة ولكن (كما قالوا) النفوذ الشيوعى والخطر على الإسلام (كلمة حق أريد بها باطل) على الرغم من أن الاتفاق المصرى التشيكى كان تجاريا وليس سياسيا ، والواقع أن الاتفاق قد فتح أبوابا واسعة لدول الكتلة الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى وربما كان السبب الأساسى فى ذلك يقوم على ثلاثة مبادئ :

١- إن الاتحاد السوفيتي ودول الكتلة الاشتراكية تعاملوا مع مصر تعاملًا كريماً وقبلوا بتبادل تجاري متواز حتى إن الأسلحة كانت مقابل منتجات زراعية وملابس وأحذية .. إلخ .

٢- إنه لم يكن هناك أية قيود على شراء الأسلحة التقليدية ومصر لم تكن تريد غير ذلك النوع من التسلح .

٣- إن الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية قد رفضت بعنت حتى مجرد دراسة طلبات الأسلحة المصرية .

ومثلما كانت هناك شروط قاسية بشأن شراء الأسلحة من الغرب وقد أشرنا إليها فيما سبق وكان عبدالناصر قد رفض تلك الشروط فقد كانت هناك شروط ومحاولات ابتزاز أقسى وأشد بشأن مشروع السد العالي ، وكان الاتفاق المبدئي ينص على أن تقدم الولايات المتحدة الأمريكية ٤٦ مليون دولار في حين تقدم المملكة المتحدة ٢٤ مليون دولار في المرحلة الأولى وتقدمان فيما بعد ١٣٠ مليون دولار ويقدم البنك الدولي ٢٠٠ مليون دولار، وفي زيارة مدير هذا البنك السيد (يوجين بلاك) لمصر اشترط أن يكون للبنك الحق في بحث الوضع الاقتصادي والمالي لمصر ، وهنا ظهرت أمام جمال عبدالناصر ورفاقه دروس سابقة كانت سبباً في احتلال مصر من جانب الإنجليز وفكروا في أحداث سنة ١٨٥٤م وموضوع شق قناة السويس ، وفي خطاب رسمي قال جمال عبدالناصر إن هناك عرضاً سوفيتياً مربحاً لكننا لم ندرسه بعد ، ولم تمر إلا شهور قليلة بعد حديث مدير البنك الدولي للإنشاء والتعمير مع عبدالناصر حتى بادر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية في يوم ١٩ يوليو ١٩٥٦م إلى التراجع وسحب العروض المتعلقة ببناء السد العالي ملمحاً إلى أن اقتصاد مصر لن يصمد في مواجهة أعباء مصاريف المشروع الكبير ، ولا بد أن هذا الموقف الأمريكي الغربي جاء كرد على اعتراف مصر بالصين الشعبية (الشيوعية) في مايو ١٩٦٥م وكانت السياسة الأمريكية وقتذاك قائمة على عزل هذا البلد الشيوعي العملاق بل وكل البلدان الشيوعية وينطبق على هذا التصرف المثل الشعبي الليبي القائل (ضربني وبكى وسبقني واشتكى) فهم يقدمون جميع أنواع الأسلحة لإسرائيل إضافة إلى الدعم

السياسى والمالى بل ويؤيدونها فى ضرب العرب وتأديبهم فى حين لا يريدون أن تشتري مصر سلاحا ولا تتعامل مع من لا يرضون عنه ، وهذا بالطبع ما لا يمكن أن يقبل به عبدالناصر ورفاقه ، لهذا وذاك فإن سياسة عبدالناصر لا تعجبهم ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية تريد ألا يخالف إشارة من بنائها والمملكة المتحدة تريده أن يقبل وجهة نظرها فى التعامل والتصالح مع إسرائيل وفرنسا تريده أن يتخلى عن الثورة الجزائرية ، أما إسرائيل وهى العدو الأساسى فتريده أن يتلقى ضرباتها متى رأت ذلك دون رد أو شكوى .. ولم يتوقف الأمر عند خطاب وزير الخارجية الأمريكية بل صحبه تشكيك وتسفيه عجيب ، وهذا ثروت عكاشة الذى عاصر تلك الفترة وكان سفيراً لبلاده فى باريس يتحدث فى كتابه المعنون (مذكراتى فى الثقافة والسياسة) فيقول (إن السد العالى مر فى الولايات المتحدة بمراحل اكتنفتها الأزمات ، وكان من نتيجة هذه الأزمات تأميم قناة السويس ثم حرب السويس وكانت الولايات المتحدة إذن تخفى عاملاً سياسياً هاماً وراء موقفها السلبي من إنقاذ معبد أبوسمبل لكنها لم تعلن أسرار هذا الموقف وحقائقه لاسيما بعد أن نجحت الدعوة إلى فصل العمل السياسى عن القيم الثقافية ، من هنا كان لابد من تركيز خاص فى أوساط الولايات المتحدة انتهى بنا إلى أن نوفد معرضاً على أعلى مستوى فى طوف فى أنحائها فيكون رأياً عاماً بين الشعب الأمريكى بحيث تجد الحكومة نفسها منساقة إلى العناية بمعبدى أبوسمبل والمساهمة فى إنقاذهما ويضيف ، وأذكر بمناسبة موقف الولايات المتحدة وقتذاك أن مدير عام اليونسكو ونائبه كانا على وشك زيارة مصر للتشاور فى بعض أمور حملة الإنقاذ وإذا بى أتلقي مكالمة تليفونية من السيدة كريستيان ديروش نوبلكير توقظنى فى الساعة السابعة صباحاً لتفاجئنى خلالها بصوتها المتهدج وفى انفعال شديد بقولها إنه لم يغمض لها جفن طوال الليل فقد كانت تتناول طعام العشاء على مائدة المستر راينهارت السفير الأمريكى فى مصر وإذا به يسخر من الجهود المبذولة لإنقاذ الآثار ، ويسر إليها بأن السد العالى لن يشيد وأنه أكذوبة سياسية ، ومضت تسألنى إذا كان ما يقوله السفير حقاً وإنها تخشى إذا ما وصل مدير اليونسكو ونائبه مصر أن تتطرق هذه الشائعة إلى آذانهما فتبسط همتهما وينال اليأس منهما ، وبطبيعة الحال طمأنتها بأن مشروع السد العالى مرتبط بنظام الحكم الحالى ولا معدل عن تنفيذه .. انتهى (٤٥) .

(٤٥) مذكراتى فى الثقافة والسياسة - عكاشة - ص ٥٦ .

ومع التشكيك ومحاولات التسفيه التقت النوايا والرغبات ، فلا العلاقة مع الصين مقبولة، ولا الحصول على السلاح من الشرق جائز ، ولا سد عالى يجب أن يقام ، ولا تأمين لشركة قناة السويس يمكن أن يتم ، كل هذه الأمور والتطورات تؤدي في رأى هؤلاء الفرقاء إلى شئ واحد وهو الإطاحة بنظام جمال عبدالناصر، وكان الاجتماع من أجل التخطيط لهذا عمل بين فرنسا وبريطانيا وإسرائيل في (سيفر) بفرنسا ، اجتمع جى موليه رئيس وزراء فرنسا ، وأنتونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا ، وديفيد بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل ومع كل منهم وزير دفاعه ومستشاريه ، وضعت الخطة للعدوان الثلاثي وتم الاتفاق وتحديد الموعد والهدف والأدوات ، ونعرف أن حرب سنة ١٩٥٦م تفاصيلها كتبت وقرئت ولا حاجة إلى كتابتها هنا مرة أخرى لكن الشئ الذى لم يذكر وربما لم يعرف لعامة الناس هو مقدار الفوائد المطلوبة أو المنتظرة من هذا العمل الذى تشترك فيه ثلاث دول جمعها العداء لعبدالناصر ونظامه ولكن هذا لا يكفى ، فقد ورد فى تفاصيل الخطة ما يلى :

١- فرنسا ترى أن القضاء على الثورة الجزائرية يكمن فى كسر رأس جمال عبدالناصر فى القاهرة .

٢- بريطانيا إضافة إلى ضرب عبدالناصر تريد إعادة سيطرتها وامتيازاتها فى وعلى قناة السويس وربما مصر كلها كما فعلت منذ حوالى قرن ونصف من الزمان .

٣- أما إسرائيل وهى التى ستكون مخلب القط فهى لا تكتفى بإسقاط عبدالناصر وعودة قناة السويس ولا القضاء على ثورة الجزائر ولهذا عندما عرضت الخطة للتوقيع ، تقدم جى موليه فوق ، وبعده أيدن ووقع ثم جاء دور بن جوريون فرفع القلم ولم يوقع ، قال ، أعرف غرض كل منكما وأنتما تريدان إسرائيل أن توفر لكما مبرر الحرب بحيث توجهان إنذارا لناصر وتعرفان أنه لن يقبل الإنذار وبالتالي تتدخلان فما هى فائدة إسرائيل من كل هذا ؟ سألاه ، ماذا تريد أنت وإسرائيل ؟ قال ، أولا توقيع وزير الدفاع الفرنسى الآن على تزويد إسرائيل بالمفاعيل الذرية المطلوب منذ مدة على أن يوافق جى موليه على تزويدنا بالخبرة واليورانيوم ، فوقع وزير الدفاع ورئيس الوزراء الفرنسيان على طلب بن جوريون ، ثم قال ومن بريطانيا العظمى أطلب موافقة رئيس الوزراء على أن تقوم إسرائيل باحتلال الضفة الغربية وهى تحت السيادة الأردنية ،

فقال ايدن هذا غير ممكن الآن لأننا نرربط باتفاقية دفاع مشترك مع الأردن ولا يجوز لدولة كبرى أن تخالف معاهداتها والاتفاق سينتهى سنة ١٩٦٧ م ، فقال بن جوريون ، لا بأس نطلب منك الموافقة مبدئيا الآن وسوف نتظر إلى أن تنتهى الاتفاقية كما قلت سنة ١٩٦٧ م ، وافق إيدن ، والبقية معروفة وهو الذى حدث سنة ١٩٦٧ م ..

٤- ومعروف أن إسرائيل بدأت الهجوم على الأراضى المصرية سنة ١٩٥٦ م أى أنها قدمت المبرر المتفق عليه نظير الثمن الكبير الذى دفع لها حسب اتفاق (سيفر) وقامت الدولتان الكبيرتان (بريطانيا وفرنسا) بتوجيه الإنذار إلى كل من مصر وإسرائيل تطلبان من كل منهما الانسحاب مسافة عشرة كيلومترات من قناة السويس حفاظا كما قالتا على سلامة الملاحة البحرية ، رفض جمال عبدالناصر الإنذار وكانت الحرب وربما كانت بريطانيا ومعها فرنسا تتوقعان ما حدث مع محمد علي منذ قرن ونصف أو أكثر أى فى (١٩ أغسطس ١٨٤٠ م) أنه سيتكرر من عبدالناصر ، ولكن عبدالناصر غير محمد علي والظروف الدولية غير تلك التى كانت فى ذلك الوقت ، وكان امتياز شق قناة السويس قد منح فى ٥ يناير ١٨٥٤ م وتم العمل وافتتحت القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٧ م وتمت إعادتها إلى أصحابها الشرعيين فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ م ..

وأريد أن أنهى هذا الفصل بالعودة إلى قصة الإخوان المسلمين وصراعهم مع جمال عبدالناصر الذى ابتداء من جانبهم مع بداية الثورة وبلغ قمته فى محاولة الاغتيال ، وعبر هذه المرحلة وحتى الآن لم يتوقف هؤلاء عن التبليغ بأعلى الأصوات ومن خلال كل منبر أن قصة الاغتيال مصطنعة بواسطة عبدالناصر أو رجاله لتبرير القضاء عليهم بل إنهم قالوا إن ما قام به عبدالناصر موحى به من جانب مخابرات دولية كافرة ! وعودتى إلى الموضوع فى نهاية هذا الفصل الغرض منها إلقاء الضوء على خطط هؤلاء الناس فى ممارسة الاغتيال قبل عبدالناصر وربما بعده ، فلقد ذكر مؤلف كتاب (٢٣ يوليو وعبدالناصر _ شهادتى) المحامى عصام حسونة الذى تولى التحقيق فى قضايا الاغتيال التى نفذها أو حاولها التنظيم السرى للإخوان المسلمين قبل ثورة ٢٣ يوليو ، قال فى كتابه - ص ٤١ _ ٤٦ مايلى :

(استيقظت مصر يوم ١٥ من نوفمبر ١٩٤٨ م لتعرف لأول مرة أن جماعة الإخوان المسلمين التى تعرفها حق المعرفة ، قد أنشأت فى الخفاء تنظيما سرى) لم

تعرف مصر بأمره من قبل ، وكان هذا التنظيم السرى العبقري الرائع المروع نتاج عقول رسمت وخططت وتآمرت وهى آمنة مطمئنة واثقة من نفسها ، ومن غفلة خصومها ، لا يعكر صفاءها شئ ، وليس يؤرقها خوف ، تنظيم استكمل قوته الضاربة والمدربة على القتال للاستيلاء على السلطة حين يصدر إليه الأمر من قادته ، تنظيم له مخابراته السرية التى لم تعرف مصر لها من قبل مثيلا ، مخابراته التى تسللت فى هدوء إلى أهم مراكز الدولة الحساسة ، واستكملت أهيئتها للاستيلاء عليها ، وشل حركتها ، وله أجهزة إعلامه ومحطة إذاعته لتكون فى خدمة التنظيم السرى العبقري الرائع المروع ..

اكتشفت مصر ذلك كله صباح يوم ١٥ من نوفمبر ١٩٤٨م وعرفت أن فى مصر دولة داخل الدولة الشرعية ، بل فوق الدولة ، تستعد للانقضاض عليها متى أصدر القادة أمرهم .. وقد كانوا على وشك أن يفعلوا ..

وفى صباح ١٥ من نوفمبر ١٩٤٨م لم يكن الإخوان قد دخلوا السجون بعد .. لا سجون السعديين فى العهد الملكى ، ولا سجون عبدالناصر وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م .. فلم تعرف مصر فى سنة ١٩٤٨م أن هناك فى طى الغيب ضابطا يدعى عبدالناصر سيقود بعد نحو أربع سنوات طوال ثورة تعرف باسم ٢٣ يوليو ..

وإذا كانت شهادة ميلاد التنظيم السرى قاطعة فى أن مولد التطرف الدينى نشأ فى مصر فى منتصف الأربعينات ، فقد كان لزاما على بناء التنظيم ، ومؤرخيه ، أن يطمسوا شهادة الميلاد الحقيقية ، وأن يزيّفوا وأنصارهم شهادة أخرى .. تقول : إن التطرف الدينى قد ولد فى حضان سجون السعديين وسجون عبدالناصر ، ولم يملّوا وأنصارهم ، ومؤرخوهم الذين يعرفون - قبل غيرهم - الحقيقة من تكرار هذه القالة ، حتى كتابة هذه الشهادة فى منتصف ١٩٨٩م ..

وهكذا أخفيت شهادة الميلاد الحقيقية واستبدلت بشهادة ميلاد زائفة ، وقد ضبّطت فى العربة الجيب أسلحة وذخائر ، وقنابل ومتفجرات ، لكن الأهم من ذلك السطور التى حرروها ، بأقلامهم ، واعترف بها قيادة التنظيم السرى ، والتى أرسّت المبادئ والقيم والشعارات ، التى لاتزال تعتبر دستور جماعات التطرف الدينى حتى اليوم ، فهم وحدهم جماعة المسلمين ، وكل من يحاول مناوأتهم ، أو

الوقوف فى سبيلهم مهدر دمه وأن قاتله مثاب على فعله ، وتحدث مؤسسو التنظيم عن الأجانب يهودا كانوا أو نصارى وحذروا من خدعة أنهم ذميون وقالوا : إنه إذا كان إعلان الحرب النظامية على أهل الذمة ليس فى مقدور أعضاء الجماعة ، فإن عليهم ألا يترددوا فى اغتيال أعداء رسول الله ، وأن من سياستنا أن الإسلام يتجاوز عن قتل المسلمين إذا كان فى ذلك مصلحة ..

وأعد قادة التنظيم عدتهم ، باعترافهم ، لنسف ثكنات الجيش المصرى ، وتعطيل أسلحته عن طريق العمال الموالين للتنظيم ، وإلى استعمال القنابل المتفجرة لنسف مكاتب شركة قناة السويس وورشها ومعداتنا ، وإلى تعطيل خطوط السكك الحديدية ونسف القطارات بواسطة الألغام ، ونسف الطرق والكبارى ، ونسف أقسام البوليس والاستيلاء على أسلحتها وقتل خيولها عن طريق وضع السم لها ..

وتحدث بناء التنظيم السرى عن سياستهم فى الإعلام فقالوا : إن الأمر قد يتطلب اغتيال شخصية معادية خارج القطر للفت أنظار العالم ، وأن برنامج إذاعتهم ينبغى أن يتم بسرد الإشاعات المثيرة لعواطف ومشاعر الجماهير على الطريقة الألمانية وبإصدار منشورات عن الحوادث التى يرتكبها أفراد الحركة بصورة مبالغ فيها تارة وبالنقد والتجريح للإيهام تارة أخرى وأنه يتعين تهيئة أشخاص للعمل فى بعض الأماكن والشركات والاشتراك فى أسهم الشركات أو تأسيسها ، واعترف أحد أفراد التنظيم (مصطفى مشهور) الذى كان يعمل بمطار أوماظه أنه سطر بخط يده لنسف مخازن المطار ومعداتنا ، ولقد كان من نصيبى كمحقق فى قضية العربية الجيب أن أفحص ما احتوته أوراق التنظيم السرى من بيانات عن المحال المملوكة لليهود فى القاهرة ، ولو تخفى أصحابها وراء أسماء مسيحية أو مسلمة ، وما احتوته تلك الأوراق عن السفارات الأجنبية ومنازل الشخصيات العامة من يهود ومسيحيين ومسلمين وكيفية القضاء عليهم .. ويضيف الكاتب ، وقد قلت فى موضع آخر : إننى لم أجد فيما دونوه بأوراقهم غير الحقيقة التى كشفها التحقيق .. وهنا يسأل المؤلف ، كيف تم اكتشاف الجهاز السرى ؟ ويقول :

كان ضباط القسم السياسى _ ما يقابل مباحث أمن الدولة اليوم _ قد علموا من التحريات بعد تعدد حوادث النسف بمدينة القاهرة ، أن نفرا من جماعة الإخوان المسلمين قد أخذوا يتخلصون من المواد الناسفة التى يخفونها فى منازلهم إلى أمكنة أخرى أكثر أمنا ، مستعملين فى نقلها سيارات من طراز جيب لا تحمل أرقاما معدنية، فوضع الصاغان محمد محمد الحراز ومحمد توفيق السعيد من ضباط القسم السياسى نظاما لمراقبة أحياء مدينة القاهرة بواسطة قوات من رجال البوليس الملكى تكون مهمتهم مراقبة الحالة ، وملاحظة هذا النوع من السيارات ، وقد وجه الضابطان عناية خاصة إلى حى الوايلية نظرا لما تبين من حوادث سابقة ، من أنه يضم نفرا من تلك الجماعة وعيّنا لمراقبة هذا الحى واحدا من سكانه وهو البوليس الملكى صبحى على سالم ..

فى الساعة قرابة الثالثة من ظهر يوم ١٥ / ١١ / ١٩٤٨ م اتصل صبحى هذا بالصاغ محمد الحراز تليفونيا وأبلغه أنه ضبط سيارة طراز جيب محملة بصناديق فى شارع جنينة القوادر بالوايلية ويركبها بعض أشخاص فانتقل الضابط مع زميله الصاغ محمد توفيق السعيد إلى محل ضبط السيارة أمام المنزل رقم ٣٨ شارع جنينة القوادر وأمرّا بالتحفظ عليها، وقد تبين لهما أن كلا من أحمد عادل كمال وطاهر عماد الدين وإبراهيم محمود على كانوا من ركاب السيارة ، وأن مصطفى مشهور ضبط قريبا من السيارة يحمل حافظة من الجلد تحتوى على أوراق ..

وقد شهد رجل البوليس الملكى صبحى على سالم أنه فى حوالى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ١٥ / ١١ / ١٩٤٨ م شاهد سيارة رمادية اللون من طراز جيب لا تحمل أرقاما تسير ببطء مقبلة من شارع لبيب بجهة الوايلية متجهة إلى شارع جنينة القوادر ثم وقفت أمام المنزل رقم ٣٨ وقد أثارت هذه السيارة ريبته إذ رأى عليها صندوقا وحقيبتين وأوراقا كما رأى ركابها ينزلون منها ويقفون بجوارها وعرف منهم أحد سكان ذلك المنزل وهو إبراهيم محمود على ، فتقدم من

ركاب السيارة وأمرهم بالوقوف فى أماكنهم فدفعه أحدهم وجرى مع أحد زملائه إلى جهة شارع عبده باشا فتبعهما الشاهد وجمهور من المارة وهو يصيح (صهيونى) إذ تبادر إلى ظنهم أن السيارة لجماعة من الصهاينة وقد تمكنوا من ضبط المشتبه فى أمرهم ركاب السيارة الذين سلفت الإشارة إليهم ، هذه هى قضية السيارة الجيب فى إيجاز ، وتعتبر أخطر قضية سياسية فى العهد الملكى وقد انكشفت بضبطها أسرار أخطر تنظيم سرى عرفته مصر وأعنى به التنظيم السرى لجماعة الإخوان المسلمين، وقد قرر عبد الحميد أحمد حسن المتهم بقتل دولة محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء فى ٢٨ / ١٢ / ١٩٤٨ م قضية الجناية العسكرية رقم ٥ سنة ١٩٤٨ م إن هذا التنظيم السرى هو الذى جنده فى الخلية السرية التى عهدت إليه بمهمة قتل رئيس الوزراء وهيات له كل أسباب الجريمة من زى عسكري والمسدس الذى استخدمه فى قتل المجنى عليه كما قرر أحمد عادل كمال أحد المضبوطين فى قضية السيارة الجيب أنه هو الذى حرضه على الانضمام إلى الخلية السرية سالفة الذكر ، ثم عرفه ببقية المتهمين فى قضية السيارة والمتهمين فى قضية قتل النقراشى باشا ، وأن محمد مالك يوسف المتهم الثانى فى قضية قتل النقراشى باشا حضر إليه يوم ١٨ / ١٢ / ١٩٤٨ م أى قبل قتل النقراشى باشا بعشرة أيام وطلب منه أن يذهب لمقابلة أحمد فؤاد ضابط البوليس وعضو الخلية فى منزله بالعباسية وقد زوده هذا العضو بالنقود لشراء سترة كاملة لضابط بوليس كما أعطى إليه التعليمات الأخيرة لاغتيال الرئيس ، وقد ضبطت بالسيارة الجيب متفجرات وأسلحة هى لغم وكميات كبيرة من المواد الناسفة من أنواع مختلفة والقنابل ولفافات من فتيل الإشعال ومدفع ستن وثلاثة خزانات لمدفع ستن و٢٧ مسدسا من أنواع مختلفة وأربعة خناجر وعدد كبير من الطلقات النارية والمتفجرات الكهربائية والطرقية وست ساعات زمنية وقناع أسود..

ولقد كانت الأوراق التي ضبطت بالسيارة أكثر خطرا من الأسلحة إذ كشفت خطط التنظيم السرى للجماعة .. هذا ما ذكره المحقق الذى تولى التحقيق فى قضية الاغتيالات تلك وهو عصام حسونة - انتهى (٤٦) .

ولابد لنا أن نسأل هل كل هذه المعلومات والأسلحة والقتل كانت مدبرة من أحد فى ذلك الوقت كما قالوا عند محاولة إغتيال جمال عبدالناصر بأنه هو الذى دبر القضية للتخلص منهم بل أكثر من ذلك عندما قالوا : إن المخابرات الروسية والمخابرات الأمريكية الكافرة هى التى أمرت عبدالناصر بالتخلص منهم !!



(٤٦) كتاب ٢٣ يوليو وعبد الناصر - عصام حسونة ص ٤١ - ٤٢ .

الفصل الخامس

- ١- ذمّة عبدالناصر
- ٢- سلوكه الشخصى
- ٣- اختيار وزرائه ومساعديه
- ٤- طريقة عمله الرسمى
- ٥- تعامله مع عائلته وأسرته

الفصل الخامس

- ١- ذمة عبدالناصر .
- ٢- سلوكه الشخصى .
- ٣- اختيار وزرائه ومساعديه .
- ٤- طريقة عمله الرسمى .
- ٥- تعامله مع عائلته وأسرته .

عفت فعقوا يا عمر ، حكمة أزلية قالها على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، هكذا بالضبط ، فقد روى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه خاطب جنود المسلمين عندما وضعوا أمامه أكداسا من الذهب واللالىء والتيجان المرصعة بالزمرّد الذى جاءوا به بعد سقوط الإمبراطورية الفارسية ، فقال : أشهد أنكم جند الله وكان بجانبه على بن أبى طالب فنظر إليه وقال : عفت فعقوا يا عمر ، موعظة وحكمة ، ذلك إنه إذا كان الحاكم ولى الأمر عفيفا عفّ المحكومون او الرعية ..

ومع عدم المقارنة بين الاثنين فقد رأيت أن أبدأ بما عرف عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو أعدل العادلين كدليل على العدل بين الناس ، وكان جمال عبدالناصر عفيفا لم يكن لزخرف الدنيا أثر فى نفسه رغم ما يوضع أمام الحاكم فى مصر من زخارف ومغريات ، وكان فيما نعلم يقيس أقدار الناس على قدر أخلاقهم ونزاهتهم ، كان بسيطا فى ملبسه معتدلا فى مأكله متواضعا فى تعامله ، لم يوافق على تغيير أى شئ فى بيته المتواضع جدّا منذ كان ضابطا بالجيش إلى أن توفاه الله ، شهد له كل من تعامل أو عمل معه فى وظيفة أو فى لقاء بما ذكرناه .

جمال عبدالناصر الذى غير وجه التاريخ وجسم آمال الفقراء والبسطاء حيث حولها إلى واقع معاش ، والذى عاش ومات مناضلا من أجل كرامة أمته العربية وحققها وحرّبتها من المحيط إلى الخليج ، تعرض لحملة إساءة ومحاولات تشهير وتشكيك من جانب جهات كثيرة وعديدة ، عربية وأجنبية ، أفراد وهيئات وحكومات ، حكّام ومسؤولين أثناء فترة حكمه من ٢٣ يوليو ١٩٥٢م إلى يوم

وفاته فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م وإلى الآن فى بداية القرن الواحد والعشرين ، ولقد كانت ومازالت الحملة شرسة حاقدة ظالمة من أناس أقل ما يقال فيهم أنهم (يشوّهون تاريخهم) وحق علينا أن نرد ليس تبريرا وإنما إحقاقا للحق ووضعنا للأمور فى موضعها الصحيح ، وعبدالناصر وقد توفاه الله منذ ثلاثة عقود ونيف لم يعد جالسا على كرسى الحكم بحيث (يمكن) أن يقال : إننا نتقرب إلى حاكم من أجل مال أو وظيفة ، وحقيقة إن مواقف أغلب العرب (مع الأسف) تكون (مع الحاكم طالما كان يمسك بالرقاب ومقاليد السلطة والبصق عليه وتشويه تاريخه إذا اختفى)

سأستأذن القارئ الكريم فى أن أقتطف من بعض الكتابات ما جاء فى هذا الشأن بحيث أتمكن من رسم صورة توافقية بين ما رأيت وسمعت وبين ما جاء فى بعض الكتب التى تناولت سيرة جمال عبدالناصر وخصصت أجزاء منها لدمته ، ولعلنى لا أخطئ إذا ما بدأت بما قدمته ابنته الكبرى الدكتورة هدى بعد فترة طويلة من الإحجام عن الكلام والرد على كثير من الكتابات المغرضة من داخل مصر وخارجها ، وإلى أن بلغ السيل الزبى (كما يقال) ولقد كان جمال عبدالناصر قائدا وزعيما وبعد مماته ظل مثار جدل ونقاش بين منصف ومغرض ، وطنى وعميل ، منافق وصادق ، وعلى أى حال فهذا شأن كل الذين كان قدرهم فى الحياة أن يتصدوا لمهام تاريخية ويتخذوا مواقف وقرارات مصيرية تمس مصالح بعض الناس ، وهم كذلك ملك للتاريخ والناس يتجادلون فى سيرهم مصيبين ومخطئين ، ولقد كتب الأستاذ عبدالله إمام رحمه الله كثيرا مدافعا عن الحق متصديا للمنافقين والمزورين على صفحات الجرائد وفى ساحات المحاكم ثم وجهها لوجه ، وفى كتابه (عبدالناصر والحملة الظالمة) قدم لما ذكرته الدكتورة هدى جمال عبدالناصر كما يلى :

(بعنوان وصلوا إلى ذمة جمال عبدالناصر ، قال : تحدثوا فى البداية عن الملايين التى هربها جمال عبدالناصر للخارج ثم تحدثوا عن مجوهرات أسرة محمد على .. وأخيرا أعادوا ترديد ما سمى بشيكات الملك سعود ، وبعد هذا كله تطفو على السطح فقاعات تحاول إثارة ضوضاء حول أمور جانبية وفرعية مثل ما نشره عثمان أحمد عثمان حول الفيلا التى تسكنها السيدة هدى عبدالناصر ، وقد ذهب عثمان أحمد عثمان نفسه إلى مجلس الشعب ليكذب ما ذكره فى كتابه ويدعى أنه

كان يقول كلاما مرسلا يدور على ألسنة الناس ولم يقصد أى شخص معين ، ولقد ثبت بالوثائق أن كل ما قيل عن فيلا السيدة هدى عبدالناصر غير صحيح ، وبقيت قضية الملايين التى هربها عبدالناصر للخارج ..

ولا يتصور عاقل أن القوى المعادية لعبدالناصر ومن ورائها أمريكا وإسرائيل لم تكن قادرة على معرفة البنوك التى اودعت فيها هذه الملايين وأرقام الحسابات مهما كانت سريتها ، فهذه القوى ظلت معركتها الأساسية لمدة سنوات وحتى الآن تشفيا فى جمال عبدالناصر وفكره وأعماله وسمعته ، فإذا مضت كل هذه السنوات ولم تقدم ما يثبت ادعاءها يكون التسليم بعدم صحتها هو المقبول ..

ويحاول البعض أن يلبس ثوب المدافع عن جمال عبدالناصر بطريقة لا تدعو للريبة بحيث يثبت الإشاعة فيدعى أن الأموال المودعة بالخارج مشروعة لأن هدفها تأمين الثورة ضد أى انقلاب من القوى المضادة ، وليس من المعقول أن تأمين الثورة فى الداخل يتم عن طريق أموال توضع فى الخارج ، وبأرقام سرية ، كما أنه لم يكن من المعقول تصور أنه فى حالة حدوث انقلاب مضاد يمكن أن يهرب عبدالناصر الى الخارج فلم يكن من طبيعة الرجل الهروب أو عدم المواجهة ، وحتى إذا حدث فهل كان عبدالناصر سوف يحتار كيف يعيش هو وأولاده حتى يؤمن نفسه بأموال يودعها فى الخارج ؟

ولقد قال لى صلاح نصر إذا كان جمال عبدالناصر قد هرب أموالا للخارج فلماذا لا تتدخل الدولة لتعيد هذه الأموال وقد كانت هناك سابقة فإن الأموال التى كانت مودعة بالخارج باسم الزعيم الجزائرى خيضر طلبتها الحكومة الجزائرية بعد مصرعه وكان الطلب باستعادة تلك الأموال من البنك على أساس إنها أموال عامة تخص جبهة التحرير وكانت مودعة باسم شخص وقد استجاب البنك ، وقد نشرت ذلك فعلا فى وجود الرئيس السادات وطالبت الحكومة المصرية بحسم هذا الأمر ولكنها لم تحسمه لأنها كانت تريد أن تظل الإشاعة المفرضة قائمة .

وإذا كانت هناك أموال أودعها عبدالناصر فى الخارج وعجزت عن بيانها أجهزة الدول العظمى التى مازالت تأخذ منه موقف العداء وتسعى لتشويه صورته فى أذهان الجماهير فإن التساؤل يكون عن قيمة وجدوى هذه الأموال ، هل عادت

إلى أسرته ؟ وكيف ؟ والناس جميعا يعرفون الأسرة فردا فردا ، وأنهم جميعا يعيشون حياة عادية وفي شقق يستأجرونها فيما عدا السيدة هدى وزوجها حاتم صادق والسيدة منى وزوجها أشرف مروان ، فمثلا الدكتورة هدى عبدالناصر كان قد اشترى والدها الأرض من الجمعية التعاونية المصرية لبناء المساكن لضباط القوات المسلحة على أن تسدد على خمسة عشر قسطا سنويا ، وتم السداد إلى أن أصدر مجلس الوزراء قرارا بعد وفاته بأن تتحمل الحكومة ديون جمال عبدالناصر فسددت الحكومة بقية الأقساط ، وقد تم الاقتراض من الجمعية لبدء البناء كما هو ثابت بالوثائق التي قدمت لمجلس الشعب عندما أثار عثمان أحمد عثمان هذه القضية في كتابه الذي تراجع عنه ، ولا يختلف كثيرا موقف فيلا السيدة منى عن ذلك ، (ملاحظة من أجل القارئ غير المصرى الذى ربما لا يعرف ترتيبات الزواج فى مصر نقول: إنه من التقاليد المصرية فى هكذا حالات يقوم أهل الفتاة ببناء أو شراء مكان السكن - شقة أو فيلا أو بيت عادى - ويقوم أهل الفتى بتأثيت هذا السكن) وعبدالناصر لم يكن استثناء ولذلك استدان كما ذكر من الجمعية التعاونية وأقام البناء لابنتيه هدى ومنى حيث تزوجتا..

كان زوج منى أشرف مروان مجندا بالقوات المسلحة ثم منتدبا للعمل بمكتب سامى شرف وقت وفاة جمال عبدالناصر (ملاحظة هامة أخرى ، لم يكن زوج منى أشرف مروان يملك شيئا غير مرتبه وقت وفاة الرئيس جمال عبدالناصر) ولم يكن قد أصبح من رجال الأعمال وقد استطاع أن يكون ثروة ابتداء من أراضي البناء التى وهبها له بعض شيوخ الخليج فى بلادهم (وأنا أعرفه شخصا حيث كان يرافق أحد أعضاء مجلس الثورة الليبية فى بعض زياراته منها أنه رافقه فى واحدة من زيارات العمل فى الاتحاد السوفيتى وقابلنى هناك حيث كنت سفيرا لبلادى وأعلم أنه حصل على عمولات من ألمانيا الغربية نظير وساطة فى شراء عربات للجيش الليبى وقد أبلغت الجهات المختصة رسميا عن ذلك ولم تكن نعرف فى بلادنا مسألة العمولات أو غيرها وقتذاك) المهم أنه عندما بدأت المضاربة على الأراضي وارتفع ثمنها عشرات الأضعاف والتهبت أسعار البترول وامتد العمران إلى الأراضي النائية استطاع أشرف مروان أن يبدأ الطريق إلى الثروة

من طريق بيع هذه المساحات من الأراضي ، ولم يكن لأشرف مروان أعمال تذكر داخل مصر ، وإنما كانت وظلت أعماله فى الخارج (٤٧) .

ولقد تغيرت الظروف بالنسبة له عندما اختلف مع السادات (أذكر أنه قبل أن يتعد عن السادات ومن مصادر مطلعة فى مصر أن سبب تقربه من السادات فى بداية الأمر قيامه بالإبلاغ عن أشربة وتسجيلات لكل أحداث الرئيس السادات كان يقوم بها وزراء عبدالناصر ، بل وقيل إنه هو الذى أحضر تلك الأشربة بحيث قام السادات بضربهم جميعا فيما عرف وقتئذ بأحداث مايو وقدمهم جميعا للمحاكمة وتم سجنهم ومن الوزراء محمد فائق وأمين هويدى وشعراوى جمعة وسامى شرف وليب شقير وبقية كل الوزراء) ولقد بقى فترة بجانب الرئيس السادات ثم عينه رئيسا لهيئة التصنيع الحربى العربية وهذه كانت ميزانيتها بالبلايين!؟ يقول الكاتب : إنه بعد أن ترك موقعه افتتح مكتباً حراً لأعماله ، ويضيف الكاتب ، أن القضية ليست فى ثروة أشرف مروان فهناك ألوف قد حققوا خلال السبعينات ثروات تفوق ثروته ولا أحد يذكرهم وإنما القضية هى محاولة النيل من ذمة عبدالناصر من طريق صهره أشرف مروان ، ولو كانت هذه الثروة التى حققها أشرف مروان مرتبطة بجمال عبدالناصر لكان الأولى بتحقيقها أولاد جمال عبدالناصر وهم ثلاثة ذكور وإبنتان ، خالد يعمل أستاذا بكلية الهندسة ، المهندس عبدالحكيم وشارك عبدالحميد فى شركة محدودة للمقاولات بعد أن أثرا الابتعاد عن العمل الحكومى (والشركة هذه أسست بعد وفاة جمال عبدالناصر) ولم نسمع أن واحدا من هؤلاء قد أصبح فى حياة أبيه من أصحاب الملايين أو أنه كوّن ثروة وسكن القصور فى مصر أو فى الخارج كما يحلو للبعض ، وكان أولاد عبدالناصر دون غيرهم إذا تحركوا أو عملوا أو سافروا فإن حركتهم مرصودة وأن أى مال يكسبونه لابد أن يكون من أموال الدولة ، ولم تبد مظاهر الثراء على أى منهم ، ولم يبد على واحد منهم أنه عاطل بالوراثة فكلهم يعملون من أجل توفير مستقبل أفضل لأسرهم وكلهم يستأجرون شققا يسكنونها هم وأسرهم ، مثل سائر أبناء الشعب المصرى ..

(٤٧) عبد الناصر المفترى عليه - عبد الله إمام - ص ٩٠ .

وبمناسبة الحديث عن أعمال أبناء وبنات جمال عبدالناصر نجد كل التفاصيل في كتاب الأستاذ (محمد هيكمل) المعنون (لمصر .. لا لعبدالناصر) وهي كما يلي :

أريد هنا أن أمس نقطة بالغة الأهمية ، تلك هي أسرة عبدالناصر ، بناته وأبنائه بالذات ، يمكن أن يحسبوا عليه حتى مساء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م وأما بعد ذلك فحساب كل واحد منهم على نفسه ، ويوم رحل جمال عبدالناصر كانت ابنته الكبرى هدى تعمل في سكرتاريته بمرتب قدره ستة وثلاثون جنيها ، وكان قرينها حاتم صادق يعمل معي في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام بمرتب قدره مائة جنية ، وكان قبل ذلك يعمل في سكرتارية رئاسة الجمهورية .

وكانت ابنته الثانية منى تعمل معي أيضا في دار المعارف المملوكة للأهرام بمرتب قدره ثلاثون جنيها ، وكان زوجها أشرف مروان يعمل في سكرتارية الرئيس للمعلومات موظفا في الدرجة السادسة بمرتب قدره اثنان وثلاثون جنيها في الشهر ، وقد يسأل سائل لماذا كان عملهم معه أو معي ؟ وأسمح لنفسي أن أشرح السبب لأول مرة ..

حينما تخرجت هدى وتخرج معها في نفس السنة قرينها حاتم صادق من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة كان جمال عبدالناصر في حيرة شديدة ، وأتذكره يومها يقول لي (لا أعرف ماذا يفعل حاتم وهدى ، لابد لهما بالطبع أن يعملوا ، ولا أستطيع أن أكلم وزيرا أو رئيس مؤسسة لكي يلحقهما بعمل عنده ، ولو تركتهما للظروف الطبيعية فإني أعلم أن كثيرين سوف يتسابقون عليهما وهذه مفسدة لهما في هذه السن ..) .

وسألني بطريقة عابرة ..

هل تستطيع أن تأخذهما معك في الأهرام ، معك أستطيع أن أتكلم بغير حرج وأعرف أنهما لن يجاملا ، فإنك بصداقتك لي لست في حاجة إلى استعمالهما زلفى أو تقربا ..

وقلت له :

إنني أعرف الاثنين ، وبالفعل أريدهما معي في مركز للدراسات السياسية والاستراتيجية أقوم بتأسيسه الآن .

وبعد يوم أو اثنين من هذه الحادثة ، قال لى بطريقة عابرة وسط حديث طويل على التليفون (لا تفكر فى موضوع حاتم وهدى ، لقد وجدت الأسلم أن أعينهما هنا فى الرئاسة حيث أستطيع أن أضمن ظروف العمل بما لا يفتح مجالاً لـ أى استغلال .. انتهى (٤٨) ..

جمال عبدالناصر لا يستطيع أن يكلم أى وزير من أجل تشغيل ابنته الكبرى التى تخرجت من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية لتوها ، وحتى عندما اشتغلت بسكرتارية رئاسة الجمهورية كان مرتبها ثلاثين جنيهاً ، وكان قبل ذلك قد طلب من هيكل استخدامهما هى وزوجها فقط لـكى لا يستغلا من طرف الوصوليين والانتهازيين الكثير ، وهو يعلم ذلك ، وابنته الثانية منى تعمل هى الأخرى بمرتب ثلاثين جنيهاً أما زوجها الذى صار بعد وفاة جمال عبدالناصر صاحب ملايين إن لم نقل مليارات فكان يعمل بسكرتارية الرئاسة وكانت درجته السادسة وبمرتب قدره اثنان وثلاثون جنيهاً ، ومازال هناك من يتجنى على جمال عبدالناصر وذمته ، عجباً ، ويقول هيكل فى هذا الشأن :

ومضت شهور ، ومضت سنة ومضت سنتان ، وجاءنى حاتم صادق يوماً وقد سمع عن خطط وخطوات إنشاء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ورغب أن يعمل فيه ، لأنه يشعر أنه فى سكرتارية رئاسة الجمهورية لا يجد فرصة كافية لـكى يتعلم ، ويخوض خبرة الحياة ، وتحدثت فى الأمر مع جمال عبدالناصر فى مرة من المرات ، وكان تعليقه ، (إننى أعرف أن ظروف عمله هنا فى الرئاسة لا تعطيه الفرصة لإظهار طاقته على العمل ، وإذا أردته معك فليكن ، ولكنك تعرف كيف أفكر فى الموضوع ..) .

وحين تخرجت منى من الجامعة الأمريكية وكانت قد دخلتها لأنها لم تحصل على مجموع كاف يؤهلها لدخول الجامعة المصرية ، وجدت جمال عبدالناصر يطلبنى على التليفون ليقول لى ذات صباح وهو يضحك (يظهر أننى سأقدم لك طلب استخدام لـكى تأخذ منى فى أى عمل معك) والتحقت منى بقسم نشر كتب الأطفال فى دار المعارف انتهى ..

(٤٨) لمصر .. لا لعبد الناصر - هيكل - ص ٢٩ .

رئيس جمهورية مصر عبدالناصر الكبير العظيم ابنته لا تستطيع أن تدخل الجامعة المصرية لأن مجموع درجاتها لا يؤهلها لذلك ، الجامعة المصرية لا تقبلها ولا أحد يمكنه أن يتدخل ، القانون هو القانون ، واللوائح لا بد أن تحترم ، هكذا العدل بين الناس ..

يتحدث الأستاذ هيكل ، بعد رحيل جمال عبدالناصر عرض الرئيس أنور السادات على هدى أن تواصل عملها معه فى سكرتارية رئيس الجمهورية كما كانت مع أبيها ، ولكنها استأذنته أن يسمح لها بالعمل فى الأهرام ، فبقاؤها فى الرئاسة أكثر مما تستطيع تحمله عاطفيا ، وإذن فإن أقرب شئ إلى الالتزام بمعايير أبيها هو أن تعمل معى ، وفى هذه المرة كان الرئيس السادات هو الذى طلب منى عملا لهدى .. وفى ذلك الوقت كان أبناؤه الثلاثة - خالد وعبدالحميد وعبدالحكيم فى سلك الدراسة أولهم فى كلية الهندسة والثانى فى الكلية البحرية والثالث فى الثانوية ، هكذا كانت ظروف الكل وأحوالهم ولست أعرف إذا كان فيها استغلال سلطة من جانبه أو إنها كانت عزوفا عن استغلال السلطة من رجل كان يملك أن يشير بطرف أصبعه فإذا الكل يتسابق ليعطى أحسن المناصب وأوسع الفرص لأبناء جمال عبدالناصر، تلك كانت ظروف الكل وأحوالهم عندما رحل وحسابه عنهم يتوقف عند تلك اللحظة من الزمان ، وأما بعدها فكل منهم مسؤول عن نفسه ،

لكن الرجل وتلك أمانة أمام الناس والتاريخ ، لم يحاول تأمين حياة أولاده بعده ، بل تركهم واثقا من طيبة قلوب الناس فى بلدنا ، وأنهم بعده سوف يضعون أولاده فى عيونهم .

هذه جوانب من تصرفات الرجل (كإنسان) وهى واضحة فى تعبيرها عن مجموعة القيم الاجتماعية التى يؤمن بها ، وعنهما تصدر تصرفاته ، ومنها تنتقل إلى مجموعة أخرى من القيم الإنسانية تظهر تصرفاته كمشتغل بالسياسة ..

وعود على بدء نقول : كيف هى ثروة جمال عبدالناصر؟ وما الذى كسبه فى حياته إذا كانت الأمور تحسب بالمال ؟ وكيف كان يعيش حتى فى مأكله ، وفى البيان الذى قدمته الدكتورة هدى عبدالناصر الرد الكافى الوافى وقد قدم لذلك الأستاذ عبدالله إمام بما يلى :

ثروة عبدالناصر ... وحتى نقف على الحقيقة والكذب حول ذمة جمال عبدالناصر فإننا لابد أن نعرف موقف الرجل ، ورؤيته للمال والملذات الحياة ، لم يعرف عن عبدالناصر حبه للمال ، أو جريه وراء مظاهر أو متع مهما كانت، فهو لم ينفصل عن بيته ، مكتبه في بيته ، حياته في بيته ، الزوار يستقبلهم في بيته الأصدقاء يذهبون إلى بيته ، فلم يكن عاشقا للرفاهية كما إنه لم يكن يستخدم مئات أو عشرات الاستراحات ،

ومثل هذا الرجل لم تستهوه ملذات الحياة ملبس أو مأكلا ، عندما رحل من دنيانا كانت كل ممتلكاته كما رصدتها الوثائق الرسمية لا تتجاوز ثلاثة آلاف جنيه من أسهم ومستندات وأموال سائلة ، وقد سجلت جميعها ، وسددت عنها ضريبة التركات ثم وزعت على أولاده ، تقول ابنته الدكتورة هدى :

(أود حسما لكل جدل أن أحدد ، مؤيدة بالوثائق ، ما كان لدى والدى حتى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م وهو التاريخ الذى ينتهى عنده تحمل اسم جمال عبدالناصر لمسؤوليتنا جميعا :

أ - مبلغ ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانية عشر جنيها و ٣٧٢ مليما في حسابه الخاص رقم ١٩/٦٤٢٢٢٦ في بنك مصر

ب - عدد من الأسهم قيمتها رمزية اشتراها من ماله الخاص مساهمة في بعض الصناعات الوطنية ، وقد أبقيناها باسمه .. ولقد تمكنت من الحصول على قيمة بعضها كما هو موضح أدناه ، وهذه الأسهم مودعة باسم والدى في بنك مصر :

- ١ - مائتا سهم شركة كيما .
- ٢ - خمسة أسهم شركة مصر للألبان .
- ٣ - سهم واحد بنك الاتحاد .
- ٤ - سهم واحد بنك العقارى .
- ٥ - ستمائة جنيه شهادات استثمار أسهم الحديد والصلب .
- ٦ - عشرة أسهم شركة نصر لصناعة الأقلام قيمتها الإجمالية ثمانية عشر جنيها وسبعمائة مليم .

٧- عشرة أسهم بنك الاتحاد التجارى قيمتها الإجمالية واحد وثلاثون جنيها وخمسمائة مليم .

٨- مائة سهم الشركة القومية للأسمنت .

٩- تسعة وثلاثون جنيها سندات تأمين .

ج- وثائق تأمين على الحياة لم يرد ذكرها فى شهادة الإفراج الضريبى عن الشركة حيث إن وثائق التأمين معفاة من الضرائب بحكم القانون بيانها كالتالى :

١- وثيقة بصندوق تأمين الجيش بمبلغ ألف وخمسمائة جنية مصرى .

٢- وثيقة لدى شركة الشرق للتأمين بمبلغ ألف جنية مصرى زيدت فى ١ / ٥ / ٧٠ إلى ألفين وخمسمائة جنية مصرى .

٣- وثيقة لدى شركة القاهرة للتأمين بمبلغ ألف جنية مصرى ثم زيدت إلى ألفين وخمسمائة جنية مصرى .

٤- وثيقة لدى شركة مصر للتأمين بمبلغ الف جنية مصرى .

٥- وثيقة لدى شركة التأمين الأهلية بمبلغ ألفين وخمسمائة جنية مصرى .

٦- السيارة الأوستن التى كان يملكها وهو ضابط وقاد بها الثورة ليلة ٢٣ يوليو ٥٢، ولقد تم تسديد ضريبة التركات ورسوم الأيلولة والبلدية المستحقة على هذه العناصر وبلغت مائتين وثمانين جنيها و ٦٣٣ مليما ..

هذا هو كل ما تركه والذى تدعمه الوثائق المرفقة وغير ذلك لم يكن هناك على الإطلاق أى شئ غيره ، لا محال ، ولا عقار ، ولا أرض ..

وتظل هناك مسألة أخيرة وهى تتعلق بسيارات أعطيت لأبناء جمال عبدالناصر ولا تشكل امتيازاً لأنها لم تكن متكررة وإنما أعطيت لمرة واحدة ، وكذلك قرار الحكومة بتسديد ما كان على جمال عبدالناصر من ديون ، وفيما يتعلق بهذا الدين الذى سدده الدولة عن والدى بعد رحيله وقد حصلت على

مسكن أستطيع تسديد ما يخصنى من هذا الدين وهو مبلغ وقدره ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه و ٦٨٥ مليمًا وبفوائده إذا كان ذلك هو الأصوب والأكثر ملاءمة دفعا لأى تأويل ولكى يستقر كل أمر فى نصابه ..) .

تلك هى قصة الامتيازات التى يقال إن أسرة عبدالناصر تتمتع بها ..

ولم تكتف الدكتور هدى عبدالناصر حيث كان هناك نوع من (اللغظ واللغيط) بين بعض المغرضين فى مجلس الشعب وربما هم أولئك الذين أضرخوا من الإجراءات الاشتراكية التى نفذها جمال عبدالناصر لصالح الفقراء أو من قانون الإصلاح الزراعى الذى قرره الثورة فى بدايتها واستفاد منه مئات الآلاف من الفلاحين المصريين المعدمين فقد تقدمت بمذكرة توضيحية طويلة هذا نصها وقد نشرت فى مجلة المصور : قالت :

(قال لى والدى قبل رحيله بعام : هذا المنزل ملك للدولة والأثاث فيه عهدة ويجب أن تتوقعوا كل الاحتمالات .

امتيازات أسرة عبدالناصر تقرر بعد رحيله فلم الزج باسمه فيها .
أتنازل عن نصيبى فى معاش والدى .)

هذا ما تقدمت به الدكتورة هدى عبدالناصر فى مذكرتها الموجهة إلى مجلس الشعب المصرى وقد نشرت المذكرة مجلة المصور وهى كما يلى :

(هذه المرة كان الموقف يتطلب مواجهة عملية ، فالقدرة على الصمت أصبحت مستحيلة، والمواجهة بالكلمات لم تعد ذات جدوى ، وكان لا مفر من مواجهة الموقف كله بالأفعال ، هذا ما قالته لنا هدى عبدالناصر بهدوء عندما زارت دار الهلال خلال الأسبوع الماضى ، قالت وهى تضع على المكتب ملفا به أوراق كثيرة ومضت ، وتبدأ وتنتهى وتدور كلها حول القرار الذى اتخذته كبرى بنات الرئيس الراحل جمال عبدالناصر والتى تعمل حاليا عضوة فى هيئة التدريس بجامعة القاهرة .



الخطاب وما فيه ،،

تقرأ الخطابات دائما من عناوينها والورقة الأولى فى أى ملف هى المدخل وهى أيضا العنوان ، هذه الورقة الأولى رسالة موجهة من هدى عبدالناصر إلى ممتاز نصار عضو مجلس الشعب تتكلم فيها عن القضية وعن القرار .

الصمت والكلام :

تقول هدى عبدالناصر ، خلال السنوات الأخيرة أمتعت عن الخوض فى طوفان من الجدل الذى حفلت به الصحف وغيرها من وسائل الإعلام فى مصر إلى الحد الذى كان معه توضيحى لبعض الوقائع المتصلة بوالدى فى إحدى المرات استثناء لا يقاس عليه ، ولم يكن ذلك ، علم الله ، من قلة اهتمام ابنة باسم أبيها أو عن سلبية إزاء ما يجرى فى وطن أعطاه عبدالناصر شبابه وحياته ، عمله وعمره ، فلم أملك أكثر من ذلك فى غيبة فرصة حقيقية للتصحيح ولا كان فى طاقتى شئ أواجه به حملات غير مبررة ، ثم إنها ظالمة فى حق مقاتل وشهيد مصرى لا يختلف أحد فى الدنيا على حجم إخلاصه وعطائه ، ولا على قيمة إسهامه فى التاريخ العربى المعاصر ولا على أنه أصبح بعد رحيله مثلما كان فى حضوره رمزا وتجسيدا لآمال وطموحات أمتة العربية ، وقد كنت أدرك فى كل الظروف التى لا أكاد أملك فرصة التصحيح ولا الشكوى وفى كل الأحوال فلقد كان اعتقادى أن والدى ليس ملك أسرته وإنما هو ملك شعبه وأمتة وعليهما وعلى التاريخ نفسه مسؤولية التصحيح وإحقاق الحق ، ووضع كل أمر فى موضعه الصحيح .

الشكوى لمن ؟؟

تكمل هدى عبدالناصر فى رسالتها ، ولم تكن ممارسة حق الشكوى وإرادة مهما كانت الضغوط ، فأول ما يخطر على البال فى شأنها هو السؤال ، ولمن الشكوى ؟ وقد عاش جمال عبدالناصر ثائرا ورحل مناضلا وليس لأحد بعده ، ولا أقرب الناس إليه أن يتقدموا باسمه أو نيابة عنه بشكوى ، لكننى فى الشهور والأسابيع الأخيرة لاحظت عودة إلى الزج باسم جمال عبدالناصر فى صدد ملابسات ليس من شأنى أن أخوض فيها رغم اعتقادى أن اسم جمال عبدالناصر قد أقحم فى هذه الملابسات المؤسفة إقحاما ليس له ما يبرره ، وكانت آخر هذه

الملابسات فى مناسبة مناقشة مزمنة فى مجلس الشعب لمخصصات أسرة عبدالناصر استغلتها بعض الصحف مرة أخرى بتناول إعلامى يجىء فى توقيت يصعب أن تخطئ حقيقة مقاصده ، وهى النيل من جمال عبدالناصر ، والرغبة فى التغطية على تجاوزات أخرى ، واتخذت هذه الصحف فى ذلك أسلوبا يتصف فى أقل تقدير بالتهويل وعدم التحديد لترك ، عن عمد ، لشطحات الخيال مساحات واسعة ، عكفت على استكمال الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع كى أضع بعض النقاط على الحروف من أمر الامتيازات التى قيل إن أسرة جمال عبدالناصر تتمتع بها .

امتيازات الأسرة :

يفرض السؤال نفسه ، عن هذه الامتيازات ما هى ؟ ما حدودها ؟ من الذى قررها ؟ ومذكرة هدى عبدالناصر تقدم الإجابة الدقيقة على كل سؤال :

بالتأكيد هناك بعض الامتيازات لكننى أنبه ذاكرة إلى أن هذه الامتيازات قد تقرر بواسطة مجلس الأمة فى أعقاب رحيل والدى وكبادرة حفاوة شعبية ورعاية كريمة لأسرته وكانت الامتيازات تنحصر فى ثلاثة أشياء .

١ - معاش شهرى مساو لمرتبه وقدره أربعمئة وواحد وأربعون جنيها ومخصصاته كرئيس للجمهورية وتبلغ خمسمئة جنيه مصرى فى الشهر وهذا هو المبلغ الذى تعيش عليه والدتى وتبقى به بيته مفتوحا .

٢ - مقر منزله بمنشية البكرى وخدماته وقد خصص لوالدتى مدى الحياة على أساس تحويله بعد ذلك إلى متحف .

٣ - استراحة المعمورة فى الإسكندرية .

هذه هى الحقائق :

١ - وتوضح هدى عبدالناصر الحقائق حول هذه الامتيازات فتقول : إن مجلس الأمة قد قرر هذه الامتيازات بعد رحيل والدى ، فكل محاولة إذن للزج باسمه فى هذا الموضوع مردود عليها سلفا بأن ما تقرر كان لاحقا على عودته إلى رحاب الله ..

٢- سبق أن أثير موضوع امتيازات أسرة عبدالناصر فى مجلس الشعب بعد رحيله بحوالى أربع سنوات ، وتوجهت يومها إلى السيد حسن كامل رئيس الديوان الجمهورى فى ذلك الوقت معترضة على إقحام اسم والدى فى هذا الموضوع ومطالبة بتخفيض هذه الامتيازات.

القرارات :

فى مذكرة هدى عبدالناصر تقف المفاجأة والقرار وراء المقدمات ، تقول هدى بالحرف الواحد :

١- إن مقر منزل والدى بمنشية البكرى والمخصص لسكنى والدى واستراحة المعمورة تحت تصرف مجلس الشعب فى أى وقت يراه وسأترك لها بيتى تنزل فيه مهما كانت العقبات وإلى أن نتمكن من تدبير منزل ملائم لها .

٢- إننى أعلن تنازلى عن حصتى الشرعية فى معاش والدى الذى قرره مجلس الأمة فى حينه ، وبصفة استثنائية ، ثم ينتقل إلى أولاده بعد حياة والدى ، أطال الله عمرها ، لأن الحكمة من هذا القرار الذى صدر حين كان أخوتى قصرا وفى المراحل الدراسية المختلفة قد انتفت بعد أن تخرجنا فى الجامعات وأصبح لكل منا عمله وحياته .. ثم توضح هدى بعد قرارها أمرين :

١- أولهما أن والدتها ليس لديها أى ممتلكات شخصية تدر لها دخلا .

٢- إنه فى ظل الظروف الاقتصادية السائدة الآن فإن المبلغ الذى تصرفه قرينة عبدالناصر شهريا قد يبدو ملائما ، فلا أحد ، إن كان منزلها عن الغرض ، يقبل لقرينة جمال عبدالناصر أن تعيش معتمدة على آخرين ولو كانوا أبناءها ، وخاصة من الناحية المعنوية ، فلقد تركها جمال عبدالناصر أمانة فى عنق شعبه ولم يحاول حتى أن يؤمن لها من بعده حياة وقد قضتها راضية فى ظل زوج كان لأمته وشعبه المكان الأول فى تفكيره ومشاعره ، فى همه وأمله ..

ومع كل التفاصيل التى جاءت فى المذكرة التفصيلية قدمت هدى عبدالناصر الوثائق الدامغة لما قالت ، وهى :

- ١- شهادة إفراج من مصلحة الضرائب مأمورية تركات القاهرة شعبة مصر الجديدة والملف رقم ٥٣٥ لسنة ١٩٧٠ م .
 - ٢- رسالة من بنك مصر مؤرخة فى ٢٩ / ١ / ١٩٧٧ م حول حساب المرحوم جمال عبدالناصر ورقمه ٦٤٢٢٦
 - ٣- خطاب خاص بتوريد مبلغ ٦٨٠ جنيها و ٦٢٣ مليما للضرائب من الورثة الشرعيين .
 - ٤- خطاب من رئاسة الجمهورية إلى بنك مصر لعمل اللازم نحو إيداع نصيب كل من الورثة الشرعيين من التركة بعد تصفيتها على النحو الآتى :
 - ١- ٤٢٧ جنيها و ٧٧٢ مليما باسم السيدة تحية محمد كاظم .
 - ٢- ٣٧٢ جنيها و ٧٧٢ مليما باسم السيدة هدى عبدالناصر .
 - ٣- ٣٧٢ جنيها و ٧٧٢ مليما باسم السيدة منى عبدالناصر .
 - ٤- ٧٤٧ جنيها و ٦٥٠ مليما باسم السيد خالد عبدالناصر .
 - ٥- ٧٤٧ جنيها و ٦٥٠ مليما باسم السيد عبدالحميد عبدالناصر .
 - ٦- ٧٤٧ جنيها و ٦٥٠ مليما باسم عبدالحكيم عبدالناصر .
 - ٧- وثائق شركات التأمين .
 - ٨- بيان بالمرتبات التى حصل عليها الرئيس جمال عبدالناصر فى فترة رئاسته للدولة .
 - ٩- قرار الرئيس أنور السادات رقم ٩٨١ لسنة ١٩٧٠ م فى شأن تقرير معاش لورثة المغفور له الرئيس الراحل جمال عبدالناصر حسين .
 - ١٠- شهادة من البنك الأهلى خاصة لمعاش السيدة تحية كاظم .
 - ١١- شهادة من الجمعية التعاونية المصرية لبناء المساكن لضباط القوات المسلحة الخاصة بقطعة الأرض التى بنتها السيدة هدى عبدالناصر مناصفة مع زوجها السيد حاتم صادق .. انتهى .
- ورغم كل محاولات تفنيد ادعاءات المدعين ظلما وعدوانا وبالوثائق والمستندات لم تتوقف الحملات المغرضة ولقد نسوا أو تناسوا جميع تلك الأعمال العظيمة التى تحققت للشعب المصرى ماديا ومعنويا وإلى حد كبير لكل العرب
- عبد الناصر .. رجل العرب

خصوصا فيما يتعلق بالنضال الوطنى والاستقلال، ومع ذلك فنحن لم نقل إن عهد جمال عبدالناصر خالد تماما من الأخطاء فهو من البشر (وكلنا خطاءون) ولقد أعلن هو نفسه وبكل شجاعة عن مسؤولياته فى بعض الأخطاء مثلما حدث بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م تلك التى حاول البعض أن يتحاشى عند الحديث عنها تعبير (هزيمة) فوقف هو وقال نعم إنها هزيمة وأنا أتحمل كل المسؤولية عنها وفيها وقدم إستقالته .. ونخلص من مذكرة الدكتور هدى عبدالناصر لنقدم كشفنا بما كان يتقاضاه عبدالناصر من مرتب شهرى ، والبيان التالى عن سنة كاملة ..

ويرى القارئ الكريم كيف أن جمال عبدالناصر كان يعامل مثل أى موظف فى الدولة من حيث الضرائب وما إليها وإن كامل مرتبه كان فى حدود ثلاثمائة وستين أو سبعين جنيها مصريا ..

ومعلوم أنه لا يوجد أى دخل آخر للرئيس جمال عبدالناصر ، ولقد كان أولاده فى ذلك الوقت مازالوا فى المراحل الدراسية بمعنى أنه لا أحد منهم يعمل أو يحصل على مرتبات أو مزايا على الرغم من أن عبدالناصر لم يسمح لأحد بالحصول على أى مزايا مادية ..

[illegible]

وإذ لم يكن ممكنا لهؤلاء المتجنيين وأغلبهم كانوا من المطبّلين السباقين إلى الإطراء لكل أعمال جمال عبدالناصر في حياته أن يقنعوا القارئ أو المستمع بأكاذيبهم حول ما حدث في داخل مصر ابتكروا أساليب أخرى للنيل من سمعة جمال عبدالناصر بكثير من الأقاويل عن الأرصدة في الخارج وتهريب الملايين التي أوعدت في حسابات سرية .. إلخ ، وهنا يطراً سؤال كما قال هيكمل : (من الذي يضع الأموال السائلة الطائلة تحت تصرف أصدقائه (المعسكر الرأسمالي أو المعسكر الاشتراكي ؟)

ويقول : لا يشك أحد في أن التعامل مع المعسكر الرأسمالي أقرب إلى تحقيق مزايا مالية لا شك فيها لمن يبحث عن ثروة تكون تحت تصرفه خفية وبغير أن يعرفها أحد ، ونقول : إن الدليل على ذلك ما ظهر حديثاً عن أموال الرشوة التي دفعتها الشركة البريطانية (كما جاء في الإعلام الغربي نفسه) للأمير بندر بن سلطان وغيره وكانت بالملايين نظير التوسط في صفقة شراء سلاح لبلاده من بريطانيا وإذ كانت الفضيحة قد أبرزها الإعلام الحر في بريطانيا فقد قام رئيس الوزراء (بليز) بإيقاف التحقيق ليس نفياً لما ذكر وإنما خوفاً على مصالح بريطانيا كما قال ، وهذه الحكومة الأمريكية قد بدأت تحقيقاً جديداً في الصفقة .. إلخ) نعود إلى كلام هيكمل ، يقول : ولا نذهب بعيداً ففي الوقت الذي تصور فيه الرئيس الأمريكي (دوايت إيزنهاور) أن النظام المصري بعد الثورة على استعداد لمسايرة السياسة الأمريكية ، بادر فوضع تحت تصرف سلطة الدولة العليا في مصر ثلاثة ملايين دولار لكي تصرف سرا في أي وجه تراه هذه السلطة ضرورياً لأمنها ، وأحدث تقديم هذا المبلغ لسلطة الدولة في مصر وقتها دهشة واكتنفته ظروف مثيرة ثم تقرر توجيه المبلغ إلى بناء برج القاهرة وشبكة مواصلات مع العالم فيه وأصبح برج القاهرة بعد هذه القصة رمزا عالياً لسخافة السياسات الخفية للولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن ذلك لم يوقف الأموال الضخمة المتدفقة أو المستعدة للتدفق على كل من يتوافر لديه الاستعداد ليساير ، انتهى .

ونقول نحن أيضاً : إنه ليس بعيداً ولم يمض وقت طويل حين كشفت عملية طائرات (شركة لوكهيد) وظهرت أسماء ملوك ورؤساء عرب حصلوا على أموال كثيرة وبالملايين دون أن يتشجع أحد منهم رغم أن أسماءهم قد ذكرت فيعلن عنها ، وهنا يقول هيكمل مرة أخرى : ولقد سائر كثيرون في الشرق الأوسط وخارجه ، والقصص والروايات عن المبالغ الخرافية التي أصبحت توضع خفية تحت تصرف الذين يتوافر لديهم الاستعداد لمسايرة شائعة ذائعة في دوائر لجان التحقيق في الكونجرس الأمريكي ، وبينها مثلاً أن (الجنرال ثيو) رئيس فيتنام الجنوبية كان يحصل سرا كل سنة على مائة مليون دولار توضع تحت تصرفه بترتيب

خاص بينه وبين الرئيس الأمريكى ، بل وأقرب من ذلك إلينا مكانا وزمانا فلقد تسرب قبل شهرين سر إعطاء زعماء الحزب الديموقراطى المسيحى فى إيطاليا مبلغ ستة ملايين دولار فى شهر ديسمبر الماضى وقد قدمت إليهم من اعتمادات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

ولم يكن جمال عبدالناصر قريبا من التعاون أو التواطؤ مع هؤلاء الذين يعطون المال بغير حساب ، ولو كان على استعداد ليساير؛ لاغترف ما يحلم به وما لا يحلم به ولكانت عنده الأموال بغير حساب ، لكن اختياره الدولى كان اختيارا مستقلا بعيدا عن ذلك كله ! انتهى (٤٩) وبمناسبة المال والباحثون عنه حلالا أو حراما وهم زائلون نعرّج الآن على ما ملك أو يملك جمال عبدالناصر إضافة إلى ما ورد أعلاه بشأن ذمة الرجل وهو فى ذمة خالقه ..

يقول السيد (رشاد كامل) فى كتابه المعنون (عبدالناصر الذى لا تعرفه) أشياء وأحداث كثيرة ومنها ما يتعلق بذمة جمال عبدالناصر مع ملاحظة أن الكتاب صدر بعد وفاة عبدالناصر بحوالى ثلاثة وعشرون سنة أى أن الرجل لا غاية أو غرض له غير التاريخ ونحن نقرأه ونقدمه من أجل التاريخ ، يقول : عندما كانت السيدة الجليلة قرينته تطلب منه شيئا يشعر هو بعقوبة المصرى الصعيدى أنه شئ غير عادى ، كان يقول لها برقته الباسمة التى كانت نعومتها تنطوى على الحزم : الله ، جرى إيه يا مدام ، أنت نسيتى ، وحدث ذات مرة أن قالت لسامى شرف ، ولم تكن الشئون الداخلية لبيت جمال عبدالناصر من اختصاصه وقد فوجئ ذات يوم قبل أيام قليلة من عيد ميلاد جمال عبدالناصر (١٥ يناير) أن السيدة حرم الرئيس تتصل به وتقول : أنا عاوزة منك طلب بس أرجوك موش عاوزة الرئيس يعرف عنه حاجه ، وقال لها سامى شرف تحت أمرى يافندم ، وقالت له السيده تحية ، أنا عايزاك تشتري طقم شاى مناسب عشان أقدمه للرئيس هدية فى عيد ميلاده ، لأن براد الشاى اللى عندنا (البزبوز) بتاعه انكسر ، وكل ما أجي أصب الشاى فى الفنجان (يندلق) والرئيس بيقعد يتريق على بسبب (البزبوز المشروخ) لأن طقم الشاى ده كان ضمن الجهاز بتاعى اللى اتجوزت بيه (٥٠) !! وأذكر أننى سمعت هذه القصة شخصا من الأستاذ سامى شرف قبل أن يكتبها

(٤٩) لمصر .. لا لعبد الناصر - هيكمل - ٣١ .

(٥٠) عبد الناصر الذى لا تعرفه - رشاد كامل - ص ١٦ .

المؤلف بحوالى عشرين سنة ، والأستاذ سامى كان يرويها أحيانا ضمن أمور كثيرة يذكرها عن حياة الرئيس جمال عبدالناصر وتقشفه فى حياته وفى بيته ، ولعل القارئ الكريم يعلم أن جهاز زواج السيدة تحية الذى قدم لها فيه جمال عبدالناصر طقم الشاى كان فى منتصف الأربعينات ..

ويذكر السيد منير حافظ قائلا ، كانت الرياضة وبشكل خاص السباحة والتنس هى هوايات عبدالناصر المحببة إلى قلبه ، وعندما كان يشعر بالزهق من ضغوط العمل كان يذهب إلى استراحة المعمورة بالإسكندرية وخاصة فى شهور الصيف ، وعندما زاد المرض عليه اقترح الأطباء بناء حمام سباحة صغيرا فى بيته بمنشية البكرى ، ولم يجرؤ أحد على مفاتحته فى شأن هذا الاقتراح ، المهم أن محمود فهم سكرتيه الخاص قال له : إيه رأيك يا ريس نعمل حمام سباحة هنا فى البيت ، وقال عبدالناصر شوف مع وزير الإسكان (على السيد) هيتكلف كام؟ وفعلا طلب محمود فهم من وزير الإسكان معرفة كم يتكلف بناء مثل هذا الحمام ؟ وقال له الوزير بعد أن أجرى حسابه بالورقة والقلم : إنه يتكلف حوالى سبعة آلاف جنيه ، واندعش محمود فهم من هذا الرقم وقال للوزير ولكن لو ذكرت هذا الرقم للرئيس سيرفض الفكرة ، واقترح أن يقول لعبدالناصر أن حمام السباحة سيكلف خمسة آلاف جنيه فقط حتى لا ينزعج من ضخامة المبلغ !

وبعد أيام كان محمود فهم يقول للرئيس ببساطته المتناهية ، يا ريس حمام السباحة هيكلفنا حوالى خمسة آلاف جنيه .. يا بلاش !! وكان عبدالناصر ينصت لمحمود فهم ثم صمت للحظات وعاد ليقول : بلاش يا محمود ، واستفسر محمود فهم قائلا ، ليه يا ريس ؟ قال عبدالناصر أنت عاوز الناس تقول : عبدالناصر بنى حمام سباحة فى بيته بخمسة آلاف جنيه .. بلاش يا محمود . انتهى (٥١) .

وأشهد وقد زرت البيت عدة مرات فى أوقات مختلفة أننى لم أر تغييرا فى هذا البيت على الإطلاق منذ سكنه الرئيس جمال عبدالناصر إلى أن توفاه الله فيه ، وأعرف أن أبناءهم وهم صغار كانوا كثيرا ما يلحون على السفر إلى الإسكندرية صيفا من أجل السباحة فى البحر كبقية المصريين ، وكان يقول ليس لدية الوقت لذلك ..

(٥١) كتاب عبد الناصر الذى لم تعرفه - رشاد كامل - ٣٧ .

كذلك يذكر منير حافظ قائلاً : كانت الملابس آخر اهتمامات الرئيس عبدالناصر ، ولو دقت النظر جيداً في الصور الفوتوغرافية التي كانت تنشر له بكامل هيئته تلاحظ أن بدلاته واسعة جداً وطالما حدثت مناقشات بسبب ملابسه، وكان يقال له : يا فندم : إنت بتروح وبتسافر وبتيجى وبتقابل ناس كثير وتكاد ملابسك تكون هى ، هى ، لم تتغير موديلاتهما ، وكان الرئيس يردد دائماً جملة واحدة هى ، ماحدث له علاقة أو يتدخل فى ملابسى !! بل أن الترسى الذى ظل يفصل ملابس الرئيس عبدالناصر كان قد تعرف عليه منذ كان عبدالناصر ضابطاً فى الجيش ولم يغير الرئيس هذا الترسى ، إلا بعد أن مات يرحمه الله قبل شهور قليلة من وفاة عبدالناصر نفسه .. ويضيف منير حافظ : أذكر مرة وكنت ضمن الوفد المرافق للرئيس عندما سافر إلى اليونان بدعوة من الملك جورج الخامس، ورغم فقر اليونان إلا أن أفراد العائلة المالكة كانت على درجة عالية جداً من الحرص على البروتوكولات الملكية العريقة فى الحفلات الرسمية ، وقيل لنا وقتها إن حضور كل الحفلات التى ستقام وقتها للرئيس عبدالناصر والوفد لابد من حضورها بالملابس الرسمية ، وبالطبع لم يكن عبدالناصر يملك مثل هذه الملابس الرسمية أو حتى يحبها ، ولم يخطر بباله أبداً أن يغير من طبيعة الملابس المدنية التى يرتديها وهو فى قمة السلطة ، فلم تكن تتغير عما كان يرتديه فى السابق ، المهم ذهبنا إلى الحفل بملابسنا العادية وكان ضمن المدعوين كل رجال السلك الدبلوماسى الأجنبى وجاءوا وهم يرتدون الملابس الرسمية وكنا نحن وسطهم أشبه بعمال نقابة النقل البرى أو عساكر الجهادية أيام زمان ، الملفت للنظر وقتها أن السيد (لم يذكر اسمه) أحد أفراد الوفد المرافق للرئيس حضر هذا الاحتفال وهو يرتدى جاكيت بنى وينظلون طحينى وحذاء أبيض، وبمجرد أن رأينا هذا المنظر حتى أتابتنا نوبة من الضحك !!

ومن المعروف أن المناسبات الرسمية لها طقوسها وترتيباتها فى الملبس والمأكول وحتى الحديث .. إلخ ونعرف أن هذه المناسبات كما ذكر يطلب من ضيوفها أن يرتدوا ملابس خاصة رسمية معروفة وبالنسبة للأجانب كالعرب مثلاً أو الأفارقة أو غيرهم فيقال لهم : أن اللباس إما أن يكون الرسمى الأوروبى أو اللباس الوطنى ، ولا أحد يتصور أن جمال عبدالناصر يمكن أن يرتدى الجلابة الصعيدية والعمامة وهى اللباس الوطنى المصرى أو قل لباس الغالبية العظمى من

شعب مصر زيادة على أن عبدالناصر لم يرتدى فى حياته كما نعلم الجلاية لأن حياته كانت غالبا فى المدن ، المهم أن التزام عبدالناصر وتقشفه ليس فى اللباس فقط بل فى الأكل أيضا ، ويذكر منير حافظ شيئا من هذا فيقول : فى إحدى الفترات كانت هناك بعض التعديلات والإصلاحات تجرى فى بيت الرئيس ، وحتى تنتهى هذه الإصلاحات تقرر سفر أسرة الرئيس إلى المعمورة بالإسكندرية ، ولكن حدث ظرف طارئ استدعى عودة الرئيس ، المهم ذهبت الأسرة إلى قصر القبة للإقامة المؤقتة حتى يصبح البيت جاهزا ، وفى أول يوم للإقامة فوجئ عبدالناصر على الإفطار وهم يقدمون له الطعام الذى كان يتكون من حمام وكبدة !! وصرخ عبدالناصر فى محمود فهميم سكرتيه الخاص ، إيه اللى أنت جايه ده ، فيه حد يفطر فراخ وحمام وكبده ؟ لما ولادى يتعودوا على الحاجات دى النهارده ، بكره أنا موش عارف مصيرى إيه ولا هيحصل لهم إيه من بعدى !! إعمل معروف يا محمود بلاش الأصناف دى كلها ولم تفلح اعتذارات محمود فهميم بأن طبأخى قصر القبة هم الذين تصرفوا هذا التصرف ، وأضاف عبدالناصر قائلا له : وإنت عارف يا أخى أنا موش بأكل غير حنة الجبنة والمربى ، وكان أول ما فعله عبدالناصر أنه طلب سرعة الانتهاء من الإصلاحات الجارية بالبيت حتى يعود إليه فى أسرع وقت ، فقد كان هو والسيدة حرمه يشعران بالغربة الشديدة فى هذا القصر الطويل ..

ويتحدث الأستاذ محمد حسنين هيكل الذى كان قريبا من عبدالناصر فى أغلب الأوقات عن هذه الناحية فى حياة جمال عبدالناصر فيقول :

ولقد كان بين المعايير الصارمة التى ألزم عبدالناصر نفسه بها ألا يملك أرضا ولا عقارا ، وكان يعتقد - واعتقاده صحيح - أن الملكية هى التجسيد العملى للامتياز الطبقي ، ولم يكن ضد الملكية كمبدأ ولكنه كان ضد تجاوز الحدود فيها فى مجتمع أغليته الساحقة من المعدمين ، وكان رأيه أن الحاكم فى مصر لا يجوز له أن يمتلك لأنه بذلك يفقد قدرته على التعبير عن مصالح الأغلبية ويجد نفسه ، مهما حسنت نواياه ، يعبر عن مصالح الأقلية ، ونراه يتساءل ، هل كان نمط حياته يزيد عن موارده وهل كان مضطرا إلى أن يجارى مستويات من المعيشة يراها من حوله مترفة ناعمة ، ومجاراته لها تفرض عليه أن يبحث لنفسه عن مصادر أخرى

لتمويل العجز ؟ وهنا يجيب :

لم تكن للرجل ، وهذه حقيقة عرفها كل الذين خالطوه في مصر أو في العالم العربى أو فى الدنيا الواسعة كلها ، شهوة فى طعام أو شراب ، وكان أفخر الطعام عنده على حد تعبيره ، لحما وأرزاً وخضاراً (وماذا يأكل الناس غير ذلك ؟) كان تساؤله دائماً مشوباً بالدهشة والاستغراب حينما كنت أقول له فى بعض المرات مداعباً : (أن الدنيا تقدمت ومع التقدم تطوّر المطبخ ولم يعد الطعام وسيلة للشبع ولكنه أصبح فناً من فنون الحياة) وكان ذلك فى رأيه تجديفاً يكاد أن يقترب من الكفر بنعمة الله .. ! وكان نهاره وليله عملاً متواصلاً ، وكانت لمسة الترف فى نهاره حينما يجلس للعمل فى مكتبه تسجيلاً لأغنية من أغانى أم كلثوم يدور وراءه خافتاً فى خلفية جو عمله ، وكانت لمسة الترف فى الليل ذهابه إلى قاعة السينما فى بيته يشاهد فيلماً أو فيلمين قبل أن يأوى إلى فراشه .. انتهى .

ما زال الحديث يدور حول عبدالناصر وذمته لأن كل الذى ذكر لم يردع أولئك الذين يدبرون بليل ومع قوى أجنبية هى الأخرى لم تستطع أن تجد ما تدين به عبدالناصر فى عيون شعبه ، فجاءوا بحديث شيكات الملك سعود ، وقصة الملك سعود ربما تكون معلومة للجميع فهو عندما كان ملكاً على العربية السعودية قرر أن يقتل جمال عبدالناصر (قتله بالتآمر والرشوة) فبحث هو ومن كلّفه على فرصة للجريمة ، كان جمال عبدالناصر فى سوريا وعند موعد عودته إلى مصر قام عملاء الملك سعود بالاتصال بالسيد (عبدالحميد السراج) وقدموا له ثلاثة ملايين دولار نظير موافقته على وضع قنبلة فى طائرة عبدالناصر ليموت هو ومن معه ، ولكن هذا المواطن السورى الشريف فضح العملية وأبلغ الرئيس بما كان يخطط له من عدوان ، وبالتالي فشلت العملية وصارت فضيحة يتحدث بها القاصى والدانى ، ولقد دارت الدوائر على الملك الذى أراد قتل جمال عبدالناصر فأطيح به من أقرب الناس إليه (إخوته وأقاربه) وقد أخرج من بلاده ليلاً ومن اليونان أرسل إلى عبدالناصر يطلب المجرى والإقامة فى أرض الكنانة (رغم جرمته التى كان قد دبرها ولم تنجح) قال عبدالناصر : إن القاهرة لا ترفض من يطلب اللجوء إليها ، وهكذا جاء الملك سعود ليقم فى القاهرة ربما لأنه اعتقد بما لديه من أموال أنه من هناك يستطيع أن يستعيد عرشه ، المهم فى الأمر أنه قد تبرع ببعض المال للمجهود

الحربى المصرى كما قدم قرضا للحكومة المصرية ، وكانت هذه القصة فرصة لأن يتلقفها المشككون فيقولوا : إن عبدالناصر قد هرب تلك الملايين وملأوا الدنيا ضجيجا وكان ضجيجهم كحفنة من تراب فى مواجهة ربح عاتية ، يقول الأستاذ عبدالله إمام فى كتابة : (عبدالناصر المفترى عليه) تحت عنوان (شيكات الملك سعود) ما يلى : (وقصة شيكات الملك سعود التى تحدث عنها جلال الدين الحمامصى بدأت عندما ترك الملك سعود السعودية وسافر إلى اليونان ثم أرسل رشاد الحسينى إلى القاهرة ليقول إنه يريد أن يبدأ صفحة جديدة مع مصر ويحضر ليقم بها ، وطلب عبدالناصر أن يرسل الملك خطابا بذلك يقول فيه : إنه يريد الإقامة بمصر لأنها مركز إسلامى حتى لا يهاجمه البعض لاستضافة مصر للملك سعود ، فالاستضافة هنا لعربى مسلم ، وتم الاتفاق على كل ترتيبات الإقامة وطلب عبدالناصر أن يستقبله فى المطار سعد زايد محافظ القاهرة ، ثم استقبله فى بيته بعد ذلك ، انتهى التسامح ، ملك مخلوع كان قد تأمر على قتله ومع ذلك كرمه ..

وكان صلاح نصر المسؤول عن إقامة الملك سعود وهو حلقة الاتصال بينه وبين جمال عبدالناصر ، ورصد الملك سعود مليونى جنيه لمعاونته فى استرداد عرشه ، وكتب شيكا بالمبلغ باسم صلاح نصر ، وبعد حرب ١٩٦٧م كان الموقف الاقتصادى فى مصر سيئا وكانت مصر فى حاجة إلى عملات صعبة وخاصة بعد إغلاق قناة السويس فأرسل عبدالناصر صلاح نصر للملك سعود ليقرض مصر عشرة ملايين دولار واستجاب الملك ، وتم توقيع بروتوكول بين الملك وحسن عباس زكى وزير الاقتصاد على قرض قيمته عشرة ملايين دولار ..

ولقد سلم صلاح نصر الشيك الذى كان باسمه إلى وزير الاقتصاد بعد استئذان الملك ، وحولت كل الشيكات على البنك المركزى ، هذه هى قصة شيكات الملك سعود ، كما أثبتتها وثائق البنك ، ولكن جلال الدين الحمامصى أصر على أن الشيكات دخلت فى حساب عبدالناصر ، وذكر ذلك فى كتاب أصدره ، وقد أثار هذا النشر ضجة لاتهام جمال عبدالناصر بالسرقة وكان منطقيا أن يسأل هؤلاء أنفسهم ، إنه إذا كان أراد أن يسرق ألم يكن أمامه إلا شيكات من الملك ؟

وعلى كل فقد حول الأمر إلى المدعى العام الاشتراكى للتحقيق وأرسل نتيجة تحقيقاته إلى مجلس الشعب ، ولكنها لم تنشر حتى اليوم ، ولا يمكن أن يكون فى التقرير الذى أعد فى زمن السادات وفى ظروف صعبة ، ما يدين جمال

عبدالناصر لأن ذمته فوق مستوى الشبهات ، كما أنه فى نفس الوقت يصعب أن يرى التقرير الذى وضع فى تلك الظروف جمال عبدالناصر ..

والنتيجة أن التقرير لم يعلن حتى الآن ، وسوف يمضى وقت طويل قبل أن ينشر ، إن وقائع الحياة التى عاشها عبدالناصر تؤكد أنه لم يكن عاشقا للمال ، أو الاستمتاع بملذات الدنيا ولكنه سىظل هناك من يشك فى ذمته لأن هناك إصرار ومصلحة لجهات معينة فى تشويه صورة الرجل ، فالهدف هو القضاء على صورة جمال عبدالناصر ، والهدف هو القضاء على النموذج الذى مازال الناس يتطلعون إليه، ثم القضاء على كل منجزاته .. والمواطن العربى العادى فى أى تجمع من العالم العربى يعرف هذه الحملة الشرسة ومن هم وراءها فيزداد تمسكا بعبدالناصر الفكر ، والعمل ..

ويتساءل ، وله كل الحق فى التساؤل ، ويستغرب وله الحق فى ذلك لأنه أحد الذين كانوا بجانب جمال عبدالناصر طيلة حياته فى النضال والعمل والسياسة ، يتساءل الأستاذ محمد حسنين هيكل قائلا:

هل كان فى طبعه الاستزلام للأغنياء طمعا فى أن يجودوا عليه بفضول أموالهم ؟ وهل كان رجلا تهون عليه كرامته فيقبل مالا من خصم قاتله فى مبدأ وضغط عليه حتى تنازل عن عرشه ، ثم فتح له باب وطنه لاجئاً تحت سلطانه ، كالملك سعود ؟

لقد كان بين مشاكل عبدالناصر أنه رجل شديد الكبرياء ، وكبرياؤه وحدها كانت تكفيه عاصما ضد مهانة الرشوة أو ذلك الاستجداء ؟! ولقد أردت أن أناقش الموضوع من زاوية مجموعة القيم التى أثرت فى تصرفاته كإنسان اجتماعيا وسياسيا ، ولم أشأ أن أتعرض للناحية البوليسية فى الموضوع ، ولم أشأ أن أسأل .. ألم يجد وسيلة للثروة غير شيكات الملك سعود مسحوبة على بنوك عالمية ؟ ألم يجد طريقا آخر غير اتفاقيات رسمية تعقدتها وزارة الاقتصاد وينفذها البنك المركزى المصرى ؟

ولم أشأ أن أسأل ، ألم تكن تحت تصرفه خزائن مصر ؟ ألم تكن تحت أمره اعتمادات بغير حدود لأوجه من النشاط السياسى معفاة من أى رقابة ؟

ولم أشأ أن أسأل ، لو أن له حسابا سريا خارج مصر ، حتى لو لم يكن فى

هذا الحساب غير ملين واحد ، فهل كان أعداؤه وهم الأقوياء فى هذه الدنيا ، خصوصا دنيا البنوك ، عاجزين عن خزائنها وعن أرقامها ؟ ويتهى هيكلى إلى القول : أفهم تماما لماذا تحاول بعض القوى العالمية ، ولأغراضها ، أن تشوه التجربة المصرية التى قادها جمال عبدالناصر ، ولكنى لا أستطيع أن أفهم ، حقيقة ، أسباب مسابقة بعض عناصر النظام المصرى الحاضر ، بل وحماستها الزائدة أحيانا لتشويه هذه التجربة !!؟

وبعد هذا كله تطفو على السطح فقاعات تحاول إثارة ضوضاء حول أمور جانبية وفرعية لا قيمة ولا تأثير لها مثل ما نشره عثمان أحمد عثمان عن الفيلا التى تسكنها السيدة هدى عبدالناصر ، وبعد ما كتب تراجع وذهب إلى مجلس الشعب ليكذب ما ذكره فى كتابه ويدعى إنه كان يقول كلاما مرسلا يدور على السنة الناس ولم يقصد أى شخص معين ، ولقد ثبت بالوثائق أن كل ما قيل عن فيلا السيدة هدى عبدالناصر غير صحيح وبقيت قضية الملايين التى ادعوا أن جمال عبدالناصر هربها للخارج ..

ونقول: إنه يمكن لأى إنسان عاقل أن يفكر فيما يريد أن يقدم عليه خصوصا إذا كان الأمر يتعلق بمصير أمة بكاملها سواء أكان ذلك الأمر دينى أو سياسى أو اجتماعى .. إلخ وفى الحياة وسلوك البشر أشياء كثيرة تناقش من أجل التصحيح أو الإيضاح أو حتى النفى والإلغاء ، ذلك أن حياة البشر كلها تجارب ما عدا ما يتعلق بالجانب الإلهى ، وكل فرد يمكن أن يخطئ ويكون خطأه أو صوابه كبيرا إذا كان يتصرف فى أمور الناس (الرعية) وفى هذا يتعرض للنقد والمساءلة ، وبالتالي فهو يحب ويكره ، يكتسب أصدقاء ويخلق أعداء ، ولقد صعد الفاروق (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه عندما سئل وهو فى المسجد عن ثوبه وكيف أن الثوب طويل مما يعنى أنه أخذ قماشا أكثر من غيره من المسلمين ، فقال (لا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فى إن لم أسمعها) ويين أنه أخذ جزءا من ثوب ابنه عبدالله ، ولكن عمر غير أى إنسان وزمنه غير زمننا ، المهم إن جمال عبدالناصر وقد حكم مصر بعد ثورة قام بها مع زملائه من ضباط الجيش وكان عليهم والحالة تلك كما هى قائمة فى مصر (إقطاع وباشوات ورأسمالية متحكمة ورشوة وفساد وارتباط بقوى خارجية ، وضيم واقع على الفقراء والمساكين فلاحين وعمالا) أن

يقوموا بإجراءات شديدة فى محاولات تصحيح الوضع وإحقاق الحق بحيث يسود مجتمعهم العدل إن أمكن أو بعض العدل ، والواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى كان معقدا صعبا، وخلال الثمانى عشرة سنة عملوا الكثير جداً وأوا أنه لصالح الشعب لصالح الفقراء والمعوزين ، وكانت تجربة فيها الصواب والخطأ ، لأنهم كانوا بشرا شأن كل الناس ، والحاكم لابد أن يرضى بعض الناس ويغضب البعض الآخر ويكون الحكم عليه حسب نواياه ونتائج أعماله ، هكذا كان جمال عبدالناصر ، فقد أقام نظام حكم وطنى قوى فى ظروف صعبة ومجتمع تتقاطع فى حياته آثار قرون وقرون من الاستغلال والاحتكار وحتى العبودية ، ورائد الحق يواجه الصعاب والمشاكل وذلك ما حدث مع جمال عبدالناصر ، فقد قدم وعودا وأنجزها ، (عدالة اجتماعية ، استقلال غير منقوص ، رغيف خبز لكل مواطن ، قطعة أرض زراعية تقى المزارع عضبة الجوع ، حرية وطن ومواطن) هزم وانتصر فى مواقف أو معارك ، وخلال سنوات حكمه كانت حياته مثار جدل فى الداخل والخارج ، من جانب الأصدقاء والأعداء ، وكانت حياته عريضة غير طويلة شغل بها الدنيا فى مواقفه الصحيح منها والخطئ ، وهى حياة حافلة بالأحداث الكبيرة جداً ، كان فيها رمزا عاليا شامخا فى بلاده مصر وفى أمته العربية وفى كل مكان من العالم الواسع ، فقد كان لمصر فى الداخل وللعرب فى الخارج ، كانت زعامته بلا منازع تاريخية بكل معنى الكلمة اكتسبها بحق فى قلوب العرب والمسلمين وبالتالي فإن تجربته وحياته لابد أن تواجه بالقبول والرفض وبالنقد أحيانا كثيرة ، على أننا لابد أن نقول ومن واقع الإخلاص : إن أجهزته (وهذا شئ طبيعى) ضمن الظروف التى ذكرناها لم تتح للناس فرصة المساءلة أو المناقشة أو النقد حتى لو كان بناء اعتقادا (ربما) من قياداتها أن كل شئ سوى وصحيح ، ولعل القول (أن الأجهزة السرية لا تقيم حكما ولكنها تخدم نظاما قائمة) بمعنى أنها تخدم أى حاكم مهما كان ، ولم تدرك أن النقد البناء يصلح الحكم والحاكم ويمثل حصانة لاستمرار النظام لأن النقد يشير وينبه إلى العيوب والأخطاء ، ومع الأسف فقد كانت الحملة على جمال عبدالناصر شديدة وشرسة ، ويمكننا القول : إنها غير عادلة ولا منصفة ولا كانت تستهدف الصالح العام ، وإنما بعضها كان إما شخصى أو مسخرا فى خدمة جهات أجنبية أو تلك التى تضررت مصالحها فى البلاد أو

خارجها ، وكان يمكن أن يخدم النقد مصلحة البلاد والنظام لو كان موضوعيا وصادقا ، وكان جمال عبدالناصر يقبل النقد البناء ويذكر له كل الذين عرفوه أو تعاملوا معه أنه ينصت بصبر كبير ، ولقد كانت في الغالب الأجهزة السرية لا توصل للحاكم إلا ما يرضيه ، وما يرضى الحاكم في الغالب شئ غير المديح والنفاق أما ماعدا ذلك فهي تتخذ الكثير من إجراءات العقاب محتمية بأنها تحرص على حياة الحاكم ونظامه ، ولا تختلف هذه الأجهزة في هكذا تصرف في كل البلاد العربية ، ويبقى على الحاكم أن يجد سبيلا لمعرفة الحقائق بحيث يمكنه أن ينصف الناس إذا ظلموا ، ولقد حدث مع الشاعر المبدع نزار قباني عندما نشر قصيدته الناقدة الرائعة (هوامش على دفتر النكسة) أن تحركت الأجهزة المصرية لتمنع دخوله لمصر وهو من عشاقها ، وثانيا لتمنع نشر أو حتى قراءة تلك القصيدة ، وثالثا لتمنع حتى الأغاني التي تكون كلماتها من شعر نزار قباني ، رحمه الله ، بل ومنعوا حتى كتبه ، وكان ذلك مؤلما لرجل أحب مصر وعبدالناصر ولأنه يعرف أن عبدالناصر لا يمكن أن يكون قد علم أو وافق على ما وقع عليه فقد بادر بالكتابة إلى جمال عبدالناصر برسالة رقيقة لا يشكوا فيها وإنما ينبه لما حدث وعندما وصلت الرسالة لعبدالناصر وقرأ القصيدة أمر فوراً بإلغاء جميع الإجراءات التي اتخذت ضد نزار قباني بل وقال : إن الرجل يجب أن يكرم ، ولأن رد جمال عبدالناصر قد ضمّد جراح الشاعر الكبير فقد كتب رسالة يقول فيها (أجد أن الأمانة التاريخية تقتضي أن أسجل للرئيس الراحل جمال عبدالناصر موقفا لا يقفه عادة إلا عظماء النفوس ، واللماحون والموهوبون الذين انكشفت بصيرتهم وشفّت رؤيتهم فارتفعوا بقيادتهم إلى أعلى مراتب الإنسانية ، والسمو الروحي ، فلقد وقف الرئيس جمال عبدالناصر إلى جانبي ، يوم كانت الدنيا ترعد ، وكسر الحصار الرسمي الذي كان يحاول أن يعزلني عن مصر بتحريض وإيحاء من بعض الزملاء الذين كانوا غير سعداء لاتساع قاعدتي الشعبية في مصر ، استعداد السلطة عليّ ، حتى إن أحدهم طالب وزارة الإعلام بمقال نشره في إحدى المجلات القاهرية بحرق كتبي والامتناع عن إذاعة قصائدي المغناة من إذاعة القاهرة ووضع اسمي على قائمة الممنوعين من دخول مصر .. وحين شعرت أن الحملة خرجت

عن نطاق النقد ، والحوار الحضارى ودخلت نطاق الوشاية الرسمية قررت أن أتوجه مباشرة إلى الرئيس جمال عبدالناصر وكتبت إليه هذه الرسالة :

(فى هذه الأيام التى أصبحت فيها أعصابنا رمادا ، وطوقتنا الأحزان من كل مكان ، يكتب إليك شاعر عربى يتعرض اليوم من قبل السلطات الرسمية فى الجمهورية العربية المتحدة لنوع من الظلم لا مثيل له فى تاريخ الظلم ..

وتفصيل القصة أننى نشرت فى أعقاب نكسة الخامس من حزيران قصيدة عنوانها (هوامش على دفتر النكسة) أودعناها خلاصة ألى وتمزقى ، وكشفت بها عن مناطق الوجع فى جسد أمتى العربية ، لاقتناعى أن ما انتهينا إليه لا يعالج بالتوارى والهروب وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا ، وإذا كانت الصرخة حادة وجارحة وأنا أعترف سلفا بأنها كذلك فلأن الصرخة تكون كجحم الطعنة ، ولأن النزيف يكون بمساحة الجرح ، من منا يا سيادة الرئيس لم يصرخ بعد ه حزيران ، ومن منا لم يחדش السماء بأظافره ؟ من منا لم يكره نفسه وثيابه وظله على الأرض ..

إن قصيدتى كانت محاولة لإعادة تقويم أنفسنا كما نحن بعيدا عن التبجح والمغالاة والانفعال ، وبالتالي كانت محاولة لبناء فكر عربى جديد يختلف بلامحه وتكوينه عن فكر ما قبل ه حزيران ..

إننى لم أقل أكثر مما قاله غيرى ولم أغضب أكثر مما غضب غيرى ، وكل ما فعلته أنى صنعت بأسلوب شعرى ما صاغه غيرى بأسلوب سياسى أو صحفى ..

وإذا سمحت لى سيادة الرئيس أن أكون أكثر وضوحا وصراحة ، قلت أنى لم أتجاوز فى قصيدتى نطاق أفكارك فى النقد الذاتى ، يوم وقفت بعد النكسة تكشف بشرف وأمانة حساب المعركة وتعطى ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ..

إننى لم اخترع شيئا من عندى فأخطاء العرب النفسية والسياسية والسلوكية مكشوفة كالكتاب المفتوح ، وماذا تكون قيمة الأديب يوم يجبن من مواجهة الحياة بوجهها الأبيض ، ووجهها الأسود معا ؟ ومن يكون الشاعر يوم يتحول إلى مهرج يمسح أذيال المجتمع وينافق له ..

لذلك أوجعنى يا سيادة الرئيس أن تمنع قصيدتى من دخول مصر ، وأن يفرض حصار رسمى على اسمى وشعرى فى إذاعة الجمهورية العربية المتحدة وصحافتها ، وليست القضية قضية مصادرة قصيدة أو مصادرة شاعر لكن القضية أعمق وأبعد ، القضية هى أن نحدد موقفنا من الفكر العربى ، كيف نريده ؟ حرا أم نصف حر ، شجاعا أو جبانا ؟..

القضية هى أن يسقط أى شاعر تحت حوافر الفكر الغوغائى لأنه تفوه بالحقيقة ، وقصيدتى أمامك يا سيادة الرئيس ، أرجو أن تقرأها بكل ما عرفناه عنك من سعة أفق وبعد رؤية ، ولسوف تقتنع برغم ملوحة الكلمات ومرارتها بأننى كنت أنقل من الواقع بأمانة وصدق ، وأرسم صورة طبق الأصل لوجوهنا الشاحبة والمرهقة ، لم يكن بإمكانى وبلادى تحترق الوقوف على الحياد .. فحياد الأديب موت له ..

لم يكن بوسعى أن أقف أمام جسد أمتى المريض أعالجه بالأدعية والحجابات والصراعات فالذى يحب أمته يا سيادة الرئيس ، يظهر جراحها بالكحول ، يكوى إذا لزم الأمر ، المناطق المصابة بالنار ..

سيادة الرئيس إننى أشكو لك الموقف العدائى الذى تقفه منى السلطات الرسمية فى مصر ، متأثرة بأقوال بعض مرتزقة الكلمة والمتاجرين ... وأنا لا أطلب شيئا أكثر من سماع صوتى ، فمن أبسط قواعد العدالة أن يسمح للكاتب أن يفسر ما كتبه ، وللمصلوب أن يسأل .. ولا أحد يعرف لماذا أشتم ، وأن أظعن بوطنيتى وكرامتى لأننى كتبت قصيدة ، ولا أحد قرأ حرفا من هذه القصيدة ، لقد دخلت قصيدتى كل مدينة عربية ، وأثارت جدلا كبيرا بين المثقفين العرب إيجابا وسلبا ، فلماذا أحرم من هذا الحق فى مصر وحدها ، ومتى كانت مصر تغلق أبوابها فى وجه الكلمة وتضيق بها ؟

يا سيدى الرئيس ، لا أريد أن أصدق أن مثلك يعاقب النازف على نزيفه ، والمجروح على جراحه ، ويسمح باضطهاد شاعر عربى أراد أن يكون شريفا وشجاعا فى مواجهة نفسه وأمته ، فدفع ثمن صدقه وشجاعته ..

يا سيدى الرئيس ، لا أصدق أن هذا يحدث فى مصر ..

انتهى نزار من كتابة رسالته ولحسن الحظ أنه وجد كاتباً مصرياً قريباً من جمال عبدالناصر وهو (أحمد بهاء الدين) سلمه الرسالة وهو في بيروت وكان بالتأكيد واثقاً من أن عبدالناصر لا يعلم بكل هذه الأمور، ثم يقول:

لم يطل صمت عبدالناصر، ولم تمنعه مشاكله الكبيرة، وهمومه التي تجاوزت هموم البشر من الاهتمام برسالتي فقد روى لى أحد المقربين منه أنه وضع خطوطاً تحت أكثر مقاطع الرسالة، وكتب بخط يده التعليمات الحاسمة التالية:

لم أقرأ قصيدة نزار قباني إلا في النسخة التي أرسلها إليّ، وأنا لا أجد أي وجه من وجوه الاعتراض عليها، يتخذ التالي:

١- تلغى كل التدابير التي قد تكون اتخذت خطأ بحق الشاعر ومؤلفاته، ويطلب إلى وزارة الإعلام السماح بتداول القصيدة.

٢- يدخل الشاعر نزار قباني إلى الجمهورية العربية المتحدة متى أراد ويكرم فيها كما كان في السابق..

ويواصل نزار قباني روايته قائلاً (بعد كلمات جمال عبدالناصر) تغير الطقس وتغير اتجاه الرياح وتفرق المشاغبون، وانكسرت طبولهم ودخلت (الهوامش) إلى مصر بحماية عبدالناصر، ورجعت أنا إلى القاهرة مرة أخرى لأجد شمس مصر أشد بريقاً، ونيلها أكثر اتساعاً ونجومها أكثر عدداً، وينتهي كلامه قائلاً (لقد كسر الرئيس عبدالناصر بموقفه الكبير جدار الخوف القائم بين الفن وبين السلطة، بين الإبداع وبين الثورة، واستطاع أن يكشف بما أوتى من حدس وشمول في الرؤية أن الفن والثورة توأمان ملتصقان وحصانان يجران عربة واحدة وأن كل محاولة لفصلهما سيحطم العربة ويقتل الحصان.. انتهى (٥٢).

وأنا أتذكر مناقشة جرت في اجتماع بين عبدالناصر وبين الأستاذ خالد محمد خالد وهو كاتب إسلامي معروف بمواقفه المتشددة في الحق، وفيما أعتقد كانت في مناسبة المراحل التحضيرية للتنظيم السياسي، ولقد أوضح عبدالناصر في بداية النقاش أهمية وضروية النقد ومشاركة الجميع في تقرير مصير البلاد ومصالح الناس والحكم السليم وكان نص ما قاله كما يلي:

(٥٢) عبد الله إمام - عبد الناصر المفترى عليه - ٢٠٠.

لا مانع من نقد الإجراءات .. بل لابد من أن ننتقد وننظم ونغير ، وإذا كان هناك شيء خطأ نصلحه ، ولكن لا نصور الحكومة بأنها روتين ، ثم ما هو الروتين ؟ إننا لو حذفنا الروتين ستكون لدينا كل يوم مليون قضية سرقة .. وحتكون العملية سلبية ، وفيها خطر ، فلا بد أن تكون هناك قواعد منظمة لعملنا ، وهذا هو الروتين ، وإذا كان هناك شيء نحن غير مقتنعين به نعدله ، ولكن بقاعدة أخرى أيضا ..

وبالنسبة لموضوع الصحافة ، أنا لا أنادى بفرض رقابة عليها ولكن لابد أن يكون هناك توجيه ، ولابد أن نعمل لجنة للصحفيين ، ولابد أن ينفذوا هذا الكلام في جريدة الأخبار ، إن حاتم مسؤول عن الصحافة وأنا أكلمه يوميا ، ولكن من المسؤول عن التنفيذ ؟ لابد أن يكون هناك شخص مسؤول في كل جريدة وتكون لديه فكرة عن سياستنا ، ثم لابد أن يشكل حاتم لجنة من رؤساء التحرير يجتمع بهم ويتكلموا ويعطيهم توجيهات ، انتهى (٥٣).

ويتحدث خال محمد خالد قائلا : لا أذكر أنني ترددت أمام كلمة أريد إلقائها مثلما ترددت اللحظة عندما طلبت الإذن بهذا التعقيب ، ولم أتردد لأنني أهاب مناقشة الرئيس جمال عبدالناصر فأنا منذ فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وأنا أدير في كتبي مناقشة أمينة لثورتنا ولقائد ثورتنا ، إنما ترددت لأن السيد الرئيس عندما عرض لموقف الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، يوم فتح مكة ذكر لنا إنه يعاود الحديث في هذا الأمر لأن راديو دمشق قال ما قال ، قلت لنفسى حين بدا لى أن من واجبي أن أعقب على كلمة السيد الرئيس ، ترى هل أتقدم لأعقب وأعطى راديو دمشق وغير راديو دمشق فرصة للمناوأة ؟

واللهمنى الله الرشيد سريعا ، فقد أدركت أن الحق هو الحق لا ينبغي أن يصدنا أى اعتبار عن الجهر به ، هذا أولا .

الأمر الثانى ، أنه لا شيء فيما أعلم ، يستطيع أن يرد كل إذاعة مناوئة خاسرة صاغرة ، سوى أن تسمع حرية الكلمة فى هذا المجتمع تجلجل وتدوى لا تخاف ولا تخوف ، السيد الرئيس ذكر أن الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، فى فتح مكة

(٥٣) سنوات وأيام مع عبد الناصر - سامى شرف - ص ٥٦٤ .

قال ، من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، لأن الإسلام كان قد انتصر وتم نصره ، في الحقيقة أنا عندما ذكرت هذه الواقعة في كلمتي ، في الجلسة الأولى كنت أحاول أن أعطي رمزا لا أكثر ولا أقل ، كنت أحاول أن أقول ليكن لنا في مجتمعنا الجديد مسجد حرام ، هو البناء الاشتراكي العادل الذي نقيمه ولنقل للناس هذا مسجدنا الحرام جميعا من دخله فهو آمن ، ومن ثم لم أكن أجدر في الحقيقة مبررا لأن أفيض في تبيان الواقعة التاريخية الخاصة بهذا الشأن ، الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم يقل ذلك وقد تم نصره ، قاله وهو في اللحظات الأولى من النصر ، الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد فتح مكة ظل يخوض حروبا ومغازي مع أعداء الله وأعداء دعوته ، لكنه ، عليه الصلاة والسلام أدرك أنه وقد فتح الله له معقل الكفر هذا فإن ثمة أناس كثيرين كانوا يناوئونه ظنا بأنه لن ينتصر ، كانوا يناوئونه خوفا من وجهاء قريش وقوة قريش ، أما الآن وقد فتح ، وقد دهم قريش في عقر دارها ، أما الآن وقد دهم وحطم سلطانها فإن كثيرين جدا سيقبلون على دعوته حتى من بين الذين كانوا يعادونه أو يظهرون معاداته ، عندئذ فتح لهم قلبه الكبير لأنه صاحب دعوة كبيرة ، وقال لهم ، ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء ..

أما أعداء الدعوة ، لا أقصد الأعداء الذين لم يؤمنوا بالدعوة ، الذين ظلوا على دينهم فقد اعترف بهم محمد ، عليه الصلاة والسلام ، أعضاء في مجتمعه وضمن لهم حقوقهم ، أهل الكتاب الذين لم يجدوا رعاية لحرمتهم وهم على دينهم لم يدخلوا الإسلام مثلما وجدوها في مجتمع محمد بن عبد الله ، لم يؤمنوا بالإسلام وأخذوا كل حقوقهم في مجتمع الإسلام ، هذا ما كنت أريد أن أقوله ، انتهى (٥٤).

لقد مررت على بعض مقتطفات من حوارات مع عبدالناصر تدليلا على أن حرية النقد كانت موجوده وقائمة بل وقد نادى بها الرئيس نفسه وغرضي من هذا أن من كان صادقا وحريصا على مصلحة الشعب كان له حرية النقد والتصحيح ، ولو كان هناك ما يتصل بدمه عبدالناصر لكان يمكن أن ينتقد أما وقد جاء الهجوم

والتجريح والافتراء والرجل فى ذمة الله فهو لا يعنى شيئاً غير الحق والانتهازية لأن الذى تولى الحكم بعد عبدالناصر كان قد فتح الباب لهكذا تهجم وإساءات ، وأعود لما قيل ونشر عن ذمة عبدالناصر فأجد الأستاذ حسنين كروم فى كتابه (عبدالناصر المفترى عليه) يقول :

وامتدت الحملة إلى ميدان الكتب ، وصدرت العشرات منها تهاجم عبدالناصر ، وتولت مؤسسة الأخبار ترويجها عن طريق عرضها بشكل مثير وعلى مساحات واسعة فى جريدة الأخبار (وأخبار اليوم) وهى عملية دعائية مجانية مؤثرة ، إضافة للإعلانات المكثفة فى الصحف والتلفزيون ، وفى المقابل صدرت كتب تدافع عن عبدالناصر ورغم أنها أقل عددا فلم تقم أى جريدة بعرضها أسوة بالكتب الأخرى ، وسمح بالإعلان عن بعضها بالأجر فى الصحف ، ولكن التلفزيون رفض بتعليمات مشددة قبول أى إعلانات عن معظمها فى الوقت الذى أذاع إعلانات للكتب التى هاجمت عبدالناصر ، وكان المطلوب محاولة منع وصول أصوات المدافعين وترويج ما يكتبه ويقولونه المهاجمون ، ولقد اتخذت الحملة شكلا متدرجا ، ففي البداية كانت الاتهامات توجه إلى مراكز القوى دون الإشارة لاسم عبدالناصر وكان ينعت بصفات الديكتاتورية والفردية والإرهاب والسجون والمعتقلات والاستبداد ، ثم تهدأ الحملة بعض الشيء ، لتنتقل إلى مستوى آخر أكثر حدة ، وكان أهم تطور فيها هو اتهام عبدالناصر بالسرقة كما ورد فى كتاب جلال الدين الحمامصى (حوار وراء الأسوار) وقد أثار الاتهام ضجة هائلة واستنكره الشعب ، واضطرت الحكومة إلى نشر التحقيق التى قامت بها وبشت فيها أن الأموال التى ادعى الحمامصى أنها دخلت جيب عبدالناصر ذهبت إلى خزانة الدولة ، صحيح أن الاتهام تم دحضه ولكن يبقى أنه نشر على نطاق واسع وتم التشكيك فى ذمة عبدالناصر المالية وهدأت الحملة إلى حد ما وبعد مدة تحركت مرة أخرى إلى مستوى آخر وهو التشكيك فى وجود علاقات نسائية سرية لعبدالناصر ونشرت جريدة (الجمهورية) و(الأخبار) هذا على لسان شوكت التونى المحامى الذى كان يترافع فى قضية تعذيب الإخوان المسلمين وضباط مدرسة المشاة ، إذ أدعى أن صلاح نصر مدير المخابرات العامة الأسبق الذى اعتقل فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧م أنه هدد عبدالناصر عام ١٩٦٨م بكشف علاقاته النسائية السرية إذا أمر باغتياله فى السجن ، وقد نفى صلاح نصر هذه الرواية نفيا قاطعا كما أن الدولة استنكرت هذا التشهير ولكن يبقى إنه نشر

على أوسع نطاق وفى الصحف الخاضعة لها ، ويبدو واضحا أن الهدف تهيئة أذهان الناس لسماع أشياء لم يتصوروا حدوثها لأن خصوم عبدالناصر قبل مؤيديه يعتقدون بنظافة يده ونقاء ذمته واستقامته ، حتى يمكن إثارة الشكوك فى هاتين الصفتين وفبركة أحداث لم تقع والكشف عن أسرار وهمية ، وكلها تخدم هدفا ثابتا محددًا رغم عدم معقولية ما يقال ويروى .. انتهى (٥٥).

٢ - سلوك جمال عبدالناصر :

لم يكن جمال عبدالناصر يعلن شيئا ويتصرف بعكسه ، ولا كان يبطن ما لا يعلن ، ولا كان يخفى الحقيقة ويستعد عن الصواب فى القول ، ولعله اكتسب هذا من حياته العسكرية وتربيته العربية الإسلامية فى حضان أسرة صعيدية ، ولم يتأثر بأساليب السياسة التى قال عنها ذات مرة السياسى المخضرم البريطانى السير (وينستون تشارشل) (أن السياسى لكى يمرر حقيقة واحدة يحتاج إلى كتيبة من الأكاذيب .. (٥٦) ولا بد فى هذا من العودة إلى بعض أحاديث وروايات أولئك الرجال الذين تعاملوا أو عملوا مع جمال عبدالناصر خلال مراحل حياته ومن قبل أن يكون رئيسا لمصر ، فهو منذ كان ضابطا فى الكلية الحربية لم يعرف عنه أنه اختلط بشلة سهر ولا تناول مسكرا أو لعب ورقا أو قال مزحة فيها مساس بشرف أو خدش حياء ، وقال عنه الدكتور (محسن عبدالخالق) وهو أحد الضباط الأحرار (أقول لمن يسأل : إن جمال عبدالناصر كان رجلا هادئا تميز بالاحترام المطلق بيننا ، قوى الشخصية، متزنا عميق التفكير ، مع امتلاكه قدرة فائقة على تحليل المواقف برؤية صافية ، كما كان يتمتع بجاذبية شخصية والقدرة على استقطاب جماعات الضباط الأحرار وهو رجل ليس له نزوات تشينه أو تدينه ، واسع الأفق مستمعا ممتازا قارئًا عميقا ، قادرا على الفهم والتحليل ببراعة كبيرة ، ومتعدد الجوانب والأبعاد ، وباختصار كان جمال عبدالناصر يمتلك كل مقومات الزعامة ، ولهذا اتفقت كافة الجماعات الوطنية التى انضمت إلى بعضها بعد حرب فلسطين على اختياره قائدا وزعيما ، أو على الأقل لم يعارض هذا الاختيار أحد ...) ويقول هيكل : (والزاوية التى تغرينى هى الزاوية الاجتماعية ، أقصد سلوك

(٥٥) عبد الناصر المفترى عليه - حسنين كروم - ص ٢٦ - ٢٧ .

(٥٦) كتاب الحرب العالمية الثانية - الجزء الثانى عشر - تشارشل .

عبد الناصر أو سلوك أى إنسان غيره على ضوء مجموعة القيم التى آمن بها ، والتى طبعت نمط حياته ، واتجاهات سياساته وتصرفاته اليومية ، والسؤال الذى يطرح نفسه هنا ، هل كانت الثروة أو كان الغنى بين مجموعة القيم الاجتماعية التى آمن بها جمال عبد الناصر ؟ ومن هذا السؤال تبرز أسئلة فرعية عديدة :

١- لمن انحاز جمال عبد الناصر اجتماعيا .. هل كان انحيازه للأغنياء أو كان انحيازه للفقراء ؟ إن ألد أعداء جمال عبد الناصر لا يكفون عن اتهامه بالحقد على الأغنياء ، ويعززون كثيرا من سياساته إلى هذا الحقد الذى يتصورونه ، ولم يكن جمال عبد الناصر حاقدا ، ولكنه كان يرى الغنى الفاحش فى وسط الفقر المدقع جريمة لا تغتفر ، وهكذا جعل هدفه الذى لا يحيد عنه تذويب الفوارق بين الطبقات ، ولو أنه وجد نفسه من الأغنياء ، أو أوجدته مطامعه بينهم ، لاختلفت تصرفاته ذلك أن كل إنسان حريص على مصالح الطبقة التى ينتمى إليها ، أو حتى تلك التى يتطلع يوما للانتماء إليها ، أى أن الذى يريد الثروة لنفسه يؤمن الثروة لغيره ، والذى يسعى إلى توسيع ملكيته الخاصة ، وذلك أساس أى غنى ، لا يسمح لنفسه أن يتدع مبدأ التعرض للملكية الخاصة أو المساس بحقوقها ، وإذا كان جمال عبد الناصر قد تعرض لأموال الأغنياء لصالح الفقراء ، وإذا كان قد تعرض للملكية من يملكون لصالح الذين لا يملكون ، إذن فإننا نستطيع أن نتصور ببساطة أن جمع الثروة والحرص على الملكية التى تتراكم فيها الثروة ، لم يكونا بين مجموعة القيم الاجتماعية التى آمن بها فى حياته أو لحياته .

٢- ولقد كان بين المعايير الصارمة التى ألزم بها نفسه ألا يملك أرضا أو عقارا ، وكان يعتقد ، واعتقاده صحيح ، أن الملكية هى التجسيد العملى للامتياز الطبقي ، ولم يكن ضد الملكية كمبدأ ولكنه كان ضد تجاوز الحدود فيها فى مجتمع أغلبيته الساحقة من المعدمين ، وكان رأيه أن الحاكم فى مصر لا يجوز له أن يملك لأنه بذلك يفقد قدرته على التعبير عن مصالح الأغلبية ويجد نفسه ، مهما حسنت نواياه ، يعبر عن مصالح الأقلية ..

٣- هل كان نمط حياته يزيد عن موارده ، وهل كان مضطرا إلى أن يجارى مستويات من المعيشة يراها من حوله مترفة ناعمة ؟ ومجاراته لها تفرض عليه أن يبحث لنفسه عن مصادر أخرى لتمويل العجز ؟ لم يكن للرجل ، وهذه حقيقة عرفها كل الذين خالطوه في مصر أو في العالم العربي أو في الدنيا الواسعة كلها ، شهوة في طعام أو شراب ، وكان أفخر الطعام عنده على حد تعبيره ، لحما وأرزا وخضارا ، و (ماذا يأكل الناس غير ذلك ؟) كان تساؤله ذلك مشوبا بالدهشة والاستغراب حينما كنت أقول له في بعض المرات مداعبا : (أن الدنيا تقدمت ومع التقدم تطور المطبخ ولم يعد الطعام وسيلة للشبع ولكنه أصبح فنا من فنون الحياة) وكان ذلك في رأيه تجديفا يكاد أن يقترب من الكفر بنعمة الله ! وكان نهاره عملا متواصلا ، انتهى (٥٧).

ولم يكن من سلوكيات جمال عبدالناصر أن ينكر على أحد حقه في التشريف أو التكريم وبالتالي فقد كان يأمر بتذكير الناس بأولئك الرجال الذين سبقوه وقادة الثورات أو الانتفاضات الشعبية التي سبقت ثورته وهو ما حدث فعلا حيث كان في مقدمة أعمال ثورة عبدالناصر تقدير الزعماء الوطنيين ، وفي هذا يقول الأستاذ عبدالله إمام :

(لقد كان في مقدمة أعمال الثورة إعادة تصحيح تاريخ الثورة العراقية الذي شوّه لحساب الأسرة المالكة، فأفرجت عن الكتب التي صودرت لأنها لا تهاجم الثورة العراقية ، ولا تصفها بأنها هوجة ، وكان هذا أول رد اعتبار لتاريخ أحمد عرابي المفترى عليه والذي ظلم طويلا .

ثم قررت في ١١ فبراير ١٩٥٣م ذكرى مصطفى كامل ونقل رفاته من مقبرة الإمام الشافعي إلى المقبرة التي أقيمت له ، وتم ذلك في احتفال حكومي وشعبي كبير .. وبعدها بشهور في ١٥ نوفمبر من نفس العام تقرر أن يقام احتفال رسمي وشعبي أيضا لنقل رفاة محمد فريد من مقبرته بجوار السيدة نفيسة إلى حيث يرقد جثمانه إلى جوار زميل جهاده مصطفى كامل ..

(٥٧) كتاب لمصر ... لا لعبد الناصر - محمد حسنين هيكل ..

بعدها أيضا تم نقل جثمان سعد زغلول إلى مقبرته التي أقيمت وظلت عشر سنوات خاوية لأن وزارات ما قبل الثورة رفضت ولم يستطع الوفد وهو فى الحكم أن ينقله إلى مقبرته ..

وكانت هذه لفترة رسمية لتكريم زعماء مصر الوطنيين وعندما بدأت محكمة الثورة التى رأسها عبداللطيف البغدادى وقدم إليها عددا من السياسيين ، وفتح المجال واسعا لنشر ما يدور فيها من أقوال المتهمين والشهود والدفاع فى جلسات علنية كان أحد أهداف تقديم بعض السياسيين إليها نشر كثير من وقائع تاريخ السنوات السابقة القريبة على الثورة من وجهة نظر مختلفة ، لذلك فإنه رغم صدور الأحكام بالسجن على السياسيين لمدد طويلة إلا إنه تم الإفراج عنهم لأن الهدف لم يكن سوى إتاحة الفرصة للناس لكى يعرفوا ما كان يدور فى كواليس السياسة فى مصر .. انتهى (٥٨) .

وعندما تنكر كل رجال حزب الوفد لمصطفى النحاس فى سنواته الأخيرة ، وكان قد قدم طلبا لبنك مصر للحصول على سلفة ، اتصل رئيس البنك أحمد فؤاد بجمال عبدالناصر الذى أمر بأن يصرف له كل ما يريده فورا ، وعلى نفقة الدولة ، وأن توفر له حياة كريمة ، وقد انتقل النحاس باشا إلى رحمة الله وجمال عبدالناصر فى اليمن ، وتقرر أن تكون جنازته رسمية وشعبية وأن تشارك فى جنازة مصطفى النحاس الحكومة .. ولكن البعض رأوا لأسباب خاصة أن يحولوا الجنازة التى شارك فيها الجيش ، وفيها مندوب الرئيس أرادوا تحويلها إلى مظاهرة سياسية ضد النظام ، الأمر الذى أدى إلى القبض على عدد منهم .. انتهى) .

ولأن تفكير جمال عبدالناصر وبالتالى سلوكه منسجما مع تصرفاته ومواقفه وأعماله ، وهو من طبقة وسطى تحدث ذات مرة عن نفسه قائلا :

إننى الابن الأكبر لأسرة مصرية من الطبقة المتوسطة الصغيرة ، وكان أبى موظفا صغيرا فى مصلحة البريد ، يبلغ مرتبه الشهرى حوالى العشرين جنيها ، وهو مرتب يكفى بصعوبة لسد ضرورات الحياة ، لقد ولدت بالإسكندرية ولكن ذكرياتى الأولى تدور حول قرية الخطاطبه وهى قرية تقع بين القاهرة والإسكندرية

(٥٨) عبد الناصر المقترى عليه - إمام - ص ٦٥ .

حيث كان أبى يعمل وكيلا للبوسطه ، وكنا دائما أسرة سعيدة يحكمها أبى ، ولكن القوة المحافظة فيها كانت أمى التى كنت أنا وإخوتى نتفانى فى حبها ، كان أبى قلقا يسبب آرائى السياسية حتى فى أيام التلمذة فقد سجن أخوه فى الحرب العالمية الأولى بتهمة الإثارة السياسية ، ولذا كانت مخاوفه أن يحل بى ما حل بعمى ، مخاوف طبيعية فقد كان أمله أن نحيا جميعا حياة آمنة بعيدة عن المزعجات .

وبعد الثورة تحدث جمال عبدالناصر وهو يرد على بعض أولئك الذين أشاعوا عنه بأنه يحقد على طبقة معينة فقال : قالوا جمال عبدالناصر عنده حقد طبقى ، ليه ؟ وازاى ؟ أنا بقيت رئيس جمهورية وموجود كويس وقاعد كويس وعندى عربى كاديلاك ، يبقى حقد طبقى إيه بقى ؟ أنا لا أحقد على طبقة معينة ، ولا على أسماء معينة ، أنا ما عرفهوش ، وما شوفتهوش ، وما قعدتش معاهم ، ولكن أنا شفت الناس التانيين ، أنا شفت الشعب الللى احنا كلنا طالعين منه ، شفت العمال الزراعيين ، وشفت عمال التراحيل ، وشفت الملايين ، شفت العمال السهرانيين ، شفت مخلة العيش الناشف والبصل ، وشفت قدرة المش ، وقدرة الملوحة ، وشفت الرجلين الحافيه المشقوقة والعينين الزايغه من الجوع ، شفت عمال التراحيل عريانيين ملط لغاية ما يغسل الشوال الللى هو لابسه فى التربة ، ولغاية ما ينشف الشوال فى الشمس ، طبعا كل واحد من الشعب عرف هذا الكلام ، إن ما نطلبه اليوم هو حق هؤلاء الناس ، حق العمل ، حق الفلاحين ، حق الكادحين والمطحونين (٥٩) .

وفى حديث سامى شرف مع الصحفى الأستاذ عبدالله إمام قال ذات مرة سألنى جمال عبدالناصر تليفونيا قائلا :

إحنا بتتعب علشان مين .. أنا موش فاهم حاجه أبدا من الللى بيحصل ده ؟ قلت خيرا فندم ؟ قال ازاي ابن عامل ترفض قبول أوراقه فى كلية الشرطة وما هى الأسباب ؟ عايز أعرف حالا الأسباب والمبررات التى رفضت بناء عليها أوراق هذا الطالب ، تكلم شعراوى دى الوقت وترد على فوراً ..

قلت : حاضر ..

(٥٩) حديث مع مراسل الساندى تايمز سنة ١٩٦٢م شهر يونيو .

طلبت الأخ شعراوى جمعه وقلت ما هى الأسباب ، فطلب إمهاله فرصة لبحث ويرد على ، وبعد ذلك رد على شعراوى ، قال الحقيقة يا سامى الولد مستوفى الشروط ولائق طبيا لكن اعترض على قبول أوراقه لأن أبيه سائق سيارة مع أنه مساعد فى الشرطة .

طلبت الرئيس وأبلغته ما ذكره المرحوم شعراوى جمعه ، فقال الرئيس (إحنا بنقول تكافؤ الفرص ومجانية التعليم ، يعنى كلام فى الهواء ولا يطبق ، وكيف يقبل شعراوى مثل هذا الاعتراض وهو وزير الداخلية لابن من أبناء وزارته ، بلغ شعراوى أن تقبل أوراقه فورا ، وإذا كانت هناك حالات أخرى مشابهة ومستوفاة شروط القبول فتقبل كذلك ، وكلمنى عندما يتم هذا ، وعازى أعرف كام واحد كان مرفوض طلباتهم وما هى الأسباب ..

وطبعا بلغت الأخ شعراوى بتعليمات الرئيس ، وكانت ثلاث حالات أخرى مشابهة فقبلت أوراقهم ، وكان لهم شرف الانتماء لأسرة الشرطة المصرية العريقة وأصبحوا من كبار رجالها الناجحين والحمد لله، لا بد أن جمال عبدالناصر بهذا يستذكر ما كمن فى قلبه من مساوئ عهد سابق قام على الوساطة والمحسوبية مما يستثير فى ذاكرته حدث واجهه فى بداية حياته عندما تقدم راغبا الالتحاق بالكلية الحربية ، وعندما مثل أما لجنة القبول فى وقت أن قرأ الإعلان عن قبول طلبة الثانوية العامة من المصريين .

ولقد سأله رئيس اللجنة :

اسمك إيه ؟

قال ، جمال عبدالناصر حسين .

أبوك بيشتغل إيه ؟

موظف بمصلحة البريد .

موظف كبير ؟

لا موظف صغير

بلدكم إيه ؟

بنى مر ، مديرية أسبوط .

يعنى فلاحين ؟

أيوه .

فيه حد من عيلتكم ضابط جيش ؟

لا .

أمال أنت ليه عاوز تبقى ضابط ؟

عشان أبذل دمي فداء الوطن .

فيه حد إتكلم عشانك ؟

واسطه يعنى ، أنا واسطتى ربنا .

أنت أشرتكت فى مظاهرات سنة ١٩٣٥ ؟

أيوه .

كده ، طيب اتفضل .

وبعد كلمة تفضل هذه رفض قبوله ، لأنه بلا واسطة ولأنه ابن فلاح أو من عائلة فلاحين !!

وكثيرا كانت الخطابات الشخصية أو قدوم بعض ذوى الحاجات من الفقراء بمنشية البكرى يطلبون ويشرحون ظروفهم المعيشية والأسرية وكان هناك مكتب للرئيس جمال عبدالناصر مختصا بالشئون الداخلية ، إلى جوار مكاتب الشكاوى وكانت حصيلة أنشطة هذين المكتبين تدون فى تقرير إسبوعى يعرض على الرئيس ضمن الأفضليات من المواضيع لأنها كانت بشكل ما تمثل نبض الجماهير انتهى .. (٦٠) وانحياز جمال عبدالناصر واضح فى كل مواقفه وقراراته وهو يهتم بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بحياة الناس الذين ثار من أجلهم ، وأذكر فى منافسة مع الصديق أمين هويدى وهو أحد رجالات عبدالناصر وقد شغل منصب وزير الحربية ومدير المخابرات العامة بعد نكسة سنة ١٩٦٧م قال لى نحن كنا فى مجلس الوزراء نقيس الوقت الذى ستستمر فيه الجلسة على ضوء ما كانت تحملة حقيقة الرئيس

جمال من مشاريع أو خطط أو أوراق ... إلخ وحدث ذات يوم أن دخل الرئيس وكان خلفه السيد محمد أحمد يحمل الحقيبة في يده اليمنى وقد لاحظنا أنها حقيبة منفوخة بشكل يشير الانتباه فنظرنا إلى بعضنا وتهامسنا قائلين : لابد أن الجلسة لن تنتهى قبل منتصف الليل وكنا فى وقت مبكر من الصباح ، جلس الرئيس ووضع الحقيبة بجانبه فإذا هو يفتحها ويخرج منها أرغفة خبز ناشف، وكانت الأرغفة من مختلف المحافظات بالبلاد وصار يرينا كل رغيف ويسأل من منكم يأكل مثل هذه الأرغفة ، سأل أولا وزير التموين (كمال رمزى ستينو) قائلا : هل تأكل مثل هذا الرغيف ، فتلعثم الوزير وبعد فترة قال والله يا ريس (لا) وكانت فعلا الجلسة طويلة إذ إن الرئيس سأل كل واحد من الوزراء وكان يعلق على كلام كل منا بألم وحسرة وقد أشعرنا جميعا بما يمكن أن يسمى عدم العناية بأكل الناس ، كان هذا الحديث فى نهاية سنة ١٩٨٤ م ..

ولقد ذكر تفاصيل هذه الأحداث الأستاذ سامى شرف فى كتابه (سنوات وأيام مع عبدالناصر) الذى صدر أخيرا هذه السنة (٢٠٠٧م) قائلا : وفى كثير من الأحيان كان عبدالناصر يميل الى استقاء معلوماته من مصادرها الأصلية ، ففى إحدى الأمسيات وعلى الخط الساخن اتصل بى وكلفنى بجمع عينات من أرغفة العيش التى يتم إنتاجها من المخابز التابعة للدولة ، وأن يتم هذا التجميع من مناطق مختلفة فى مدينة القاهرة ، وقد قمت فعلا وبواسطة عناصر من التنظيم الطليعى بتجميع العينات المطلوبة من مصر الجديدة والوايلى والزيتون والمطرية وشبرا وروض الفرج والدرب الأحمر وحلوان ، وفى اليوم التالى كان موعد الاجتماع الدورى لمجلس الوزراء وقد افتتح عبدالناصر الجلسة بقوله : أنا عندي صورة واضحة تماما عن حياة الموظف العادى لا لبس فيها ولا نقاش ، الناس تعبانه فى بند اللبس وبند الأكل وبند الإنتاج الصناعى الذى يستخدمه المواطن العادى ، ثم طلب الشنطة التى كانت تحوي عينات العيش ووضعت على مائدة الاجتماعات أمام الوزراء ثم التفت عبدالناصر إلى وزير التموين كمال رمزى ستينو وسأله مستكرا ، تقدر تأكل الرغيف ده يا دكتور كمال ؟! فرد الوزير : لا يا ريس ، فقال الرئيس : ما هوا ده اللى بتطلععه مخابزك ، وإذا كنت لا تقبل أن تأكله وأنا لا أقبل بالتالى فكيف بالله عليك تقبل أن تأكله الناس ؟ البني آدم العادى بيشتري كم رغيف فى اليوم ؟ على الأقل عشرة أرغفة فى المتوسط إن لم يزد ، هل هذا رغيف عيش يؤكل ؟ عارضا الرغيف على الحضور ، يا دكتور كمال عندك ٤٨ ساعة لتصحيح هذه الأوضاع وإلا سأضطر

لاتخاذ إجراءات بنفسى لتصحيح الأمر، ويضيف المؤلف « وحدث أن قل المعروض من الحلاوة الطحينية فأثار عبدالناصر الموضوع فى إحدى جلسات مجلس الوزراء قائلاً للوزراء المختصين : يا إخوانا الرجل الفقير حياً كل إيه ؟ رغيف العيش وحتة الحلاوة وحتة الجبنه .. موش كده ولا إيه ؟ طيب إذا عجز الحكم عن توفير تقديم الجبنه والحلاوة الطحينية للناس فعلينا أن نرحل ونتخلى ويجي غيرنا يحكم .. انتهى (٦١) .

وكثير الكثير الذى يناقشه ويسأل عنه جمال عبدالناصر يتصل مباشرة بحياة المواطن العادى الفقير، يسأل عن كراريس الأطفال فى المدارس وعن الشنط وعن الملابس وقد لاحظ ذات يوم ارتفاع أسعار الملابس المدرسية والأقلام وغيرها ، فقال للدكتور (عزيز صدقى) وزير الصناعة : يا دكتور عزيز السنة الدراسية ابتدأت وأسعار الملابس يا دكتور عزيز المنتجه محليا خياليه فى أسعارها ، ونارزى الناس ما بتقول ، ويكتبوا لى فى جواباتهم مين يقدر يشتري الفانلة بجنيه ؟ ثم استفسر تفصيلا عن أسعار باقى كل ما يلزم الطلبة والطالبات من ملابس مثل البلوفرات والقمصان والمرابيل والبنطلونات والجوارب والجزم والأدوات المدرسية من أقلام وكراريس وكتب وغيرها ، وقال : إزاي يبقى سعر البلوفر جنيه أو جنيهين ، والشراب ربع جنيه والقميص خمسين قرش ؟ يعنى لو واحد عنده خمسة أولاد حيثاج لعشرين جنيه أو ثلاثين جنيه لشراء بلوفرات وشرابات فقط !! كيف يحدث هذا ؟ وكم حيدفع الموظف علشان يشتري هدم ولبس وجزم ومساطر وأساتيك وكراريس ... إلخ لأولاده وبناته لدخول المدارس؟ إن لم تعمل على تخفيض أسعار المنتجات دى أنا حضطر إنى أعمل اتفاقية مع الصين لاستيراد الملابس منها حتكون تكون أرخص من ملابسك وكمان حأدخل كرئاسة دولة منافس لك فى إنتاجك وحأرفع الدعم اللى بديهولك ، عليك أن تحسن الإنتاج وتخفيض الأسعار ، وبالمناسبة الناس اللى قادره تبقى تفتح لهم فرع خاص فى ميدان سليمان باشا وتستورد لهم المنتجات الأجنبية اللى هم عايزينها ..

(٦١) عبد الناصر كيف يحكم - عبد الله إمام - ٣٠٠ .

ثم التفت إلى وزير التربية والتعليم قائلاً ، عايزك تحدد من تغيير ملابس
الولاد والبنات كل سنة لأنها عملية مكلفة وبشكل أعباء كبيرة على الآباء وعلى
الطبقات الفقيرة .. انتهى (٦٢).

٣ - أسلوب عبدالناصر فى الحكم واختيار الوزراء والمساعدين ،

كان جمال عبدالناصر عندما تحدث لزملائه فى أول اجتماع رسمى لهم قد
طرح سؤالاً يقول : علينا مسؤولية كبيرة فى إدارة شئون البلاد ومصالح العباد
ولهذا فإننا يجب أن نحدد أولويات العمل للحكومة بحيث تكون بينة واضحة
كفلسفة أى طريق سير ، وإذ طردنا الملك فإن المسؤولية الآن على أكتافنا بشكل
جديد واتجاه جديد ، وهناك كثير من القوى المتربصة بنا المعادية وقوى أخرى تنتظر
منا ما يمكن أن نقدمه لها وفى هذا الأمر شيان ، إما أن ننجح فى تحييد القوى
المعارضة أو المضادة ثم بعد قليل نقدم للقوى المنتظرة ما يطمئنها على مستقبلها
بحيث ترى فى التغيير خيراً ، كما أننا رفعنا شعارات ولهذا فإن عملنا يجب أن
يتكافأ مع مضمونها .

بدأت المناقشات وكان هناك من يرى أن لا حل مع الأعداء إلا السجون أو
المشائى ... إلخ وإذ اختلفت وتعارضت وتعددت الآراء قال عبدالناصر : فيه ناس
بتقول نعمل زى غيرنا ما عمل ، نمسك الإقطاعيين ونذبهم ، ونمسك الرأسماليين
والرجعيين ونذبهم ، وبهذا نخلص منهم ومن شرهم ..

وأنا أسأل ، هل هذا صحيح ؟ أقول أبداً ، ده موش طريقنا ، وده موش
سبيلنا إحنا ثورتنا بيضاء ولا يمكن أن نلوثها ، وهذا الباب إذا فتح فلن يقفل
أبداً (٦٣) وليحدد الاتجاه منذ البداية قال : الشائر ينحاز للفقراء والكادحين ،
والحاكم ينحاز دائماً للأغنياء ، وكان ما حدث فى ٢٣ يوليو هو ثورة ، والثورة إذا
لم تغير وجه المجتمع (لصالح الشعب) وإذا لم تقتلع الفساد وتعيد الحق إلى أهله
صارت انقلاباً واستبدالاً لحاكم بحاكم ، والثورة إذا انحازت إلى جانب الأغنياء
والجشعين صارت انقلاباً وحكماً وتجارة بمقدرات الناس ، والثورة لا تطلب من

(٦٢) نفس المصدر .

(٦٣) ثورة عبد الناصر - شوقى عبد الناصر - ص ٤٣٥ .

أجل أن تعيد الحق لأهله ، ولكن لكى تعيد الحق كان عليها أن تأخذ وتعطى ، كان واجبها الثورى أن تعيد لمصر حقوقها المنهوبة ، وأن تعيد للعامل والفلاح حقه المسلوب ، وأن تعيد للشعب كل الشعب شرفه وكرامته ..

وهل من الممكن أن تقول الثورة للإنجليز والنبي عlishan خاطرنا اخرجوا من مصر ؟ ، وهل من الممكن أن تقول الثورة للاحتكاريين والمغامرين والصوص والنبي ادونا البنوك والشركات والمصانع المنهوبة لتعود للشعب ، كل الشعب ؟ ،

وهل من الممكن للثورة أن تقول لأصحاب قناة السويس المزعومين والنبي الشركه دى بتاعتنا وابتاعت أجدادنا ونحن ورثتهم فأعطوها لنا ؟

وهل من الممكن للصوص أن يعيدوا ما سرقوه طوعا ؟

وهل من الممكن والعقل والمنطق أن يطيع هؤلاء ويقدموا ما يطلب منهم على طبق من فضة ؟

ولقد حدد عبدالناصر منذ البداية ما يتسق مع القيم التى يؤمن بها وعرضها على المجتمعين ليناقدوها وربما يلتزموا بها اقتناعا ، وكان من عادته ألا يطرح شيئا لم يكن قد فكر فيه مليا وبالتالي لا يتزحزح عنه مهما تعددت الاجتهادات أو حتى الخلافات (ويذكر القارئ الكريم كيف كان موقفه قبل إخراج الملك فاروق ومباشرة بعد نجاح الثورة حيث كان هناك من بين أعضاء القيادة من طالب بمحاكمة الملك وإعدامه وعلى الرغم من أن الاقتراح وجد التأييد من بقية الأعضاء فإن جمال عبدالناصر كان قد جمع أوراقه وخرج قائلا : لا يمكن أن أوافق على الدم وإذا بدأتهم به لن يتوقف ، وبسبب موقفه هذا بقيت الثورة بيضاء) وفى هذا عندما عرض أفكاره كانت محددة كما يلى :

١- الاستقلال ورفض التبعية ، ولكنهما فى الوقت نفسه لا يشكلان هدفا أو غاية فى حد ذاتهما بقدر ما يعتبر وسيلة للتنمية الاجتماعية والرفاهية للشعب .

٢- الانحياز الكامل إلى جانب الفقراء وللأغلبية الساحقة من أبناء المجتمع دون أن يعنى ذلك عداا شخصيا لأى من الأفراد أو الطبقات داخل المجتمع .

٣- الواقعية والتفكير العملى فى تناول كل المسائل والمشكلات الصعبة دون سعى للاصطدام بأى من القوى الداخلية أو الخارجية فى هذا الوقت وإنما التصميم على تحقيق أقصى استفادة ممكنة من كل القوى لصالح أهداف الثورة وللنهوض بالمجتمع المصرى دون أن نتنازل عن مبادئنا فى الاستقلال والكرامة الوطنية والقومية .

٤- لا تكون السلطة أبدا وفى أى وقت وسيلة لكسب الامتيازات أو التحكم فى رقاب البشر ، بل لابد أن تكون للخدمة الوطنية والتضحية وبذل كل ما يمكن من جهد وعرق فى سبيل رفاهية المجتمع لأنه لابد أن يكون هناك يوما للحساب ، ولا يستحق الحق إلا صاحب الحق ، وصاحب الحق هنا هو الشعب الذى وقع عليه الكثير من الضيم والظلم ...

ويحدد الأستاذ سامى شرف فى كتابه أيام وسنوات مع عبدالناصر طريقة تفكير جمال عبدالناصر وأسلوبه فى اختيار الأشخاص الذين يمكن أن يلعبوا أدوارا فى تحقيق المهمات الكبيرة والخطيرة طبقا لمنهجيه فى العمل ، يقول : حددت فلسفة عبدالناصر وتكوينه الاجتماعى والفكرى نوعية القرارات التى يمكن أن تتخذ فى إطار مبادئ الثورة ، وتحدد طبيعة المهمة ، ولقد كان أبرز ما يميز عبدالناصر فى صنع القرارات هو تحديد الهدف بوضوح لكل مرحلة وبالتالى اختيار العناصر الملائمة للمرحلة والقادرة على تنفيذ الهدف ، ولقد تدرجت هذه العملية على مدى تاريخ الثورة كله ، ويخبرنا الأستاذ سامى شرف عن كيفية اختيار عبدالناصر لرجاله منذ البداية، فيقول : كانت المناسبة الأولى فى حوار أجراه مندوب جريدة (سكوتسمان) البريطانية فى بداية الثورة مع عبدالناصر، وقد وجه المراسل إليه سؤالاً نصه : كيف وأنت بهذه التركيبة المتناقضة الغريبة حققت هذا النجاح يوم ٢٣ يوليو، وأنت تعلم وأنت رجل مثالى وقائد للثورة أنه لا أحد يستطيع أن يقول فيك شئ ، إنك لم تقم بالثورة مستعينا بعناصر ... ولم يشأ المراسل أن يكمل السؤال ، وفهم عبدالناصر ما يريد أن يقوله ، فأجابه بقوله : أولا: لكى تحدث تغييرا يجب أن تستخدم أشخاصا يتسمون بالرغبة والجرأة فى المغامرة وليس كل إنسان ذو قيم قادر على المغامرة ، أحيانا الإنسان ذو القيم والأخلاق عندما يجد رقبتة تحت حد السيف غالبا ما يفكر أو يراجع نفسه ، وليس معنى ذلك أن أستبمده أو أصفه بالجبن أو الخيانة ، فأنت أولا وأخيرا تتعامل مع بشر من لحم

ودم وليسوا من حديد أو جماد ، هؤلاء البشر يملكون العقل ومنهم من يحسن رصد خطواته أو يتردد ، ومنهم من يلعب الكوتشينه وآخرون لا يقاربون منها ، تلك هي طبيعة البشر ، فيها السلبي وفيها الإيجابي ، ولكن لكى تحدث تغييرا بهذا الحجم ، وإذا كان هذا التغيير مسلحا فأنت تحتاج بالدرجة الأولى إلى تشكيل جبهة سياسية تتجمع فى داخلها كل هذه العناصر وهذه النوعيات .. وثانيا : أنت فى حاجة لكى تجمع كل هذه العناصر التى تؤمن أو توافق على التغيير ، عليك أن تبذل جهدا لاستقطابها إلى صفك رغم ما قد يكون بينها من تناقضات حتى تضمن النجاح للجبهة كلها ، ولعلمك فقد كانت توجد داخل هذه الجبهة عناصر مدنية مثل أحمد فؤاد الذى كان يعمل قاضيا وحامد مطيع الذى كان يعمل مهندسا فى السكك الحديدية وكلاهما كانت له صلات مباشرة بالضباط الأحرار ، وثالثا : لابد أن تأخذ فى الاعتبار أن التغيير المنشود قد يحتمل النجاح وقد يحتمل الفشل ، فإذا فشلت العملية فلماذا تعرض عددا أكبر للخطر ، يكون على فى هذه الحالة أن أترك بعض العناصر الصالحة للمستقبل عسى أن يتمكنوا من استكمال المسيرة فى المستقبل إذا ما تعثرت ، ولعلمك فإن عددا ليس قليلا من رجال الصف الثانى كانوا فى خاطرى ولم أشركهم فى التنفيذ يوم الثورة حفاظا على المسيرة ، ولكننى لم أتردد فى إبرازهم والاستفادة من قدراتهم بعد نجاح الثورة .. انتهى (٦٤).

وتذكر كل الأحاديث التى سمعتها من رفاق جمال عبدالناصر إنه لا يعتمد على التقارير ولا على تزكية شخص لآخر أو توصية على فرد ما ، وإنما كان يتصل بنفسه ببعض الذين يكتبون رسائل أو يبعثون برقيات فيها نقد لأوجه العمل فى هذا المرفق أو ذاك ، وفى هذا الشأن يتحدث الأستاذ ضياء الدين بيسرس فى كتابه (الأسرار الشخصية لجمال عبدالناصر) عن قصص رواها له (محمود الجيار) الذى كان هو الآخر قريبا من عبدالناصر فيقول : وصلت برقية إلى رئاسة الجمهورية يقول فيها مرسلها : ولدكم أحمد يا سيادة الرئيس ينتظر تحديد موعد لمقابلتكم ، وكانت البرقية بتوقيع (دكتور فلان) وكان اسما معروفا فى الحقل الذى تخصص فيه ، ولكن لا يمكن إعلانه الآن طبعاً دون موافقة .. وقابله الرئيس

عبدالناصر فعلا وناقشه فى اعتراضاته على سياسة الدكتور القيسونى المالية ، وطلب منه أن يواجهه بتلك الاعتراضات ، ثم طلب منه أن يكتب له عدة تقارير مفصلة حول وجهة نظره .. وبعد قليل اختاره وزيرا ، وكانت أعجب طريقة تم بها اختيار وزير ، ولكن هذه القصة غير العادية لم تكن بيضة الديك فى أسلوب عبدالناصر فى اكتشاف الرجال والتعرف عليهم ، وأذكر أنه فى السنة التالية للثورة أعجب وهو يزور مجلس الإنتاج القومى بمهندس شاب كان فى درجة وظيفية صغيرة، وكان سبب الإعجاب أن المهندس الشاب شرح بطريقة موضوعية متزنة حافلة بالثقة بالنفس أمام رئيس الجمهورية الجديد بعض جوانب عمل مجلس الإنتاج ثم جرؤ على أن يخالفه علنا فى آرائه أمام جمهور المرافقين ، وكانوا من رجال الثورة .

وفى الأسبوع الثانى لهذا اللقاء عين الرئيس هذا المهندس الصغير وزيرا للصناعة ، وكان عبدالناصر أحيانا يعين هذا الوزير أو ذاك إذا استرعى انتباهه وإنما لكى يريه أن القول غير العمل ، وأن الانتقاد غير الممارسة وأن الذى يده فى الماء ليس كالذى يده فى النار ، وبعد أن يتضح للوزير الجديد أن شقشقة اللسان شئ غير مكابدة المسؤولية كان يسرحه بالمعروف فى أول تعديل وزارى .. وما أكثر ما كان يطيش لب الوزير المعفى بعد أن كان يظن أنه مخلد فى الحكم ، فسرعان ما كان يطر عبدالناصر بخطابات من نوع ، والله يعلم يا سيادة الرئيس أننى أريد أن أدخل الوزارة لا للوزارة ذاتها ولكن لأكون إلى جانبك !! إلى هذا الحد كان عبدالناصر يهتم ببريده وخاصة الجزء الحافل بالانتقاد أو التهجم أو الاستفزاز ، وكان يشدد على مساعديه بأن لا يخفوا شيئا عنه فى أى رسالة أو برقية أو ما شابه وإلى حد أنه كان عن طريق البريد والنقد يختار أحد وزرائه ، وقد كان من مظاهر اهتمام الرئيس ببريده إنه كان يقارن بين ما يحتويه وبين ما تنقله إليه أجهزة الأمن ، انتهى (٦٥).

٣ - طريقة عمله ،،،

وكان يوم عمل جمال عبدالناصر هكذا ، كان يستيقظ الساعة السادسة صباحا للاستماع للإذاعات حتى الساعة والنصف أو الثامنة يستمع لنشرات

(٦٥) الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر - بيبرس .

الأخبار والتعليقات والبرامج السياسية الصباحية ، ثم يتناول إفطارا بسيطا ، قطعة من الجبن الأبيض وشرائح خيار أو طماطم وخبز بلدى وفنجان من الشاي، ثم يبدأ فى قراءة الصحف المحلية والعالمية وغالبا ما يعطى توجيهات إما تليفونيا أو مكتوبة بخط يده عن أهم الأنباء التى تبرز فى الإذاعة أو تعليقات يخطها أو يحدد خطوطها العريضة ، ويتصل بالمسؤولين المعنيين تليفونيا للاستفسار أو المشورة أو لإعطاء توجيهات ، ثم يقرأ التقارير اليومية ويضع ملاحظاته وتأثيراته عليها أو لا يكتب عليها شيئا أو يطلب مزيدا من البحث حول الموضوع أو جزئية منه ..

ولقد كانت دائما أكلته المفضلة اللجنة البيضاء التى كان لا يوجد عنده طعام ألد منها فى الدنيا وبخاصة إذا كانت مغمسة بالخبز الناشف ، وعند عودته ذات مرة من العلاج فى يوليو ١٩٦٩م من (تسخالطوبو) بالاتحاد السوفيتى ألزمه الأطباء بالتقليل من كميات اللجنة البيضاء وقد آله ذلك لأنها من أهم أكلاته (٦٦).

٥- تعامله مع عائلته وأسرته،،

المصلحون والأطهار يذكروهم التاريخ بأعمالهم المجيدة وبحروف من ذهب مهما تنكر لهم الحاقدون ، وتأمّر عليهم المتآمرون ، وهم عادة ما يواجهون الصعاب أو الرفض أو المعارضة الشديدة فى مجتمعاتهم، وأحيانا القتل بخنجر أو بسم ، فعمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وهو الذى كان مثل جده عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عادلا منصفًا تقيا ورعا وضع له ذووه سما فقتلوه حين قطع ما كان يجرى عليهم من أرزاق الخاصة ، كلّموه فى ذلك فقال : لا يتسع مالى لكم ، وأما هذا المال إنما حقكم فيه كحق رجل بأقصى البلاد ، وذكر الأوزاعى ، أن عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، كان جالسا فى بيته وعنده أشراف بنى أمية فقال : أتحبون أن أولى كل رجل منكم جندا ؟ فقال رجل منهم : لم تعرض علينا ما لا تفعله ؟ قال : ترون بساطى هذا؟ إنى لأعلم أنه بصير إلى بلى وفنى وإنى أكره أن تدنسوه بأرجلكم ،

(٦٦) نفس المصدر .

فكيف أوليكم أعراض المسلمين وأبشارهم ؟ هيهات لكم هيهات ! فقالوا له : لم ؟
أما لنا قرابة ؟ أما لنا حق ؟ قال : ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندي في هذا
الأمر إلا سواء ، إلا رجلا من المسلمين حبسه عنى طول شقته .. (٦٧).

وقال حسن القصاب : رأيت الذئاب ترعى مع الغنم بالبادية في خلافة عمر
بن عبدالعزيز ، فقلت ، سبحان الله ذئب في غنم لا يضرها ؟ فقال الراعى ، إذا
صلح الرأس فليس على الجسد بأس (٦٨).

نعم والله .. إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس ، هذا يصدق تماما
على جمال عبدالناصر مع عدم المقارنة بين الخلفاء وغيرهم ولكن العدل هو العدل
وطهارة السيرة ونظافة اليد والقناعة صفات لا تتوفر لكل الناس ، لكل حاكم أو
أمير ، وهذه أمثلة عن إنصاف عبدالناصر والمساواة بين الناس :

١ - كان جمال عبدالناصر يكن احتراماً شديداً لوالده ولا يرد له طلباً (وهذا شئ
طبيعى طبقاً لديننا الإسلامى - وبالألدين إحساناً ..) بشرط ألا يكون
متجاوزاً الحق والعدل وألا يطلب استثناء ، وهو ما حرص الوالد عليه بعد أن
عرف الأمر ، المرة الوحيدة التى عارض فيها جمال والده كانت عندما أحيل
الحاج عبدالناصر حسين إلى المعاش ، عرض عليه المرحوم عبداللطيف
أبورجيله المليونير المصرى المعروف ، أن يعينه عضواً فى أحد مجالس إدارة
شركاته بمرتب كبير ، وعندما تحدث الحاج عبدالناصر حسين مع الرئيس
جمال عبدالناصر حول هذا الموضوع ، رفضه الرئيس بلا مناقشة ، وقال
لوالده : (يا والدى دول عايزينك فى مجلس إدارة ، طيب أفهم إزاي ده يتم
وأنت موش خبير فى النقل والمواصلات .. دول عاوزين يشترونى من خالك
.. وكان الحاج عبدالناصر حسين يستخدم المواصلات العادية فى جميع تنقلاته
وقد حاول أكثر من مرة أن يشتري سيارة بواسطة جمال عبدالناصر ، وكان رد
الرئيس دائماً ، لما ينصلح حالنا وحال البلد نبقى نتكلم فى هذا الموضوع ،

(٦٧) ولد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بأرض الكنانة مصر بمنطقة حلوان وتوفى بجمص
فى سوريا وكان عمره تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر .

(٦٨) كتاب تاريخ الخلفاء - الإمام الحافظ جلال الدين - ص ٢٣٣ .

وفى سنة ١٩٥٨م اشترى له الرئيس جمال عبدالناصر سيارة (نصر ١٣٠٠) (٦٩) وبالتقسيط دفع جمال عبدالناصر (الأقساط) وكان يقول للوالد الحاج عبدالناصر حسين ولإخوته حول الزواج والمصاهرة العبارات التالية :

٢- أنا ما عنديش مانع تناسبوا أى شخص بس بشرط مايكونش إقطاعى ولا عليه الحراسة ولا اسم من الأسماء الرنانة ، دى محظورات ثلاثة تفهموها كويس .

٣- وحدث أن مصطفى حسين أخو الرئيس جمال عبدالناصر حصل على الثانوية العامة وأراد أن يلتحق بالكلية الحربية ، وتصادف أن شرط السن كان لا ينطبق عليه لزيادة عمرة بأيام عن المطلوب ، رفض جمال عبدالناصر استثناءه من اللوائح والشروط مما اضطر معه أن يلتحق بكلية الشرطة وتشاء الأقدار أن يرسب فى امتحان كلية الشرطة فى نهاية العام الدراسى وهو أخ لجمال عبدالناصر .

٤- ومع شقيقه الليثى عبدالناصر ، وهذا كان قد حاول أن يدخل فى أعمال المقاولات ، فقال له جمال عبدالناصر ، أنا ما عنديش مانع إن مستواكم المادى ينمو ويتحسن بس مع نمو المستوى الإقتصادى للبلد كلها وبشرط أن تعتمدوا على أنفسكم ، يعنى الناس كلها مستواها ينمو علشان أنتم موش مميزين عن بقية الناس ، وبصراحة شديدة لوحد فيكم فكر أنه يستغل اسمى أنا موش حارحمه ..

٥- ويذكر السيد إبراهيم علوان فى كتابه (مراحل مجهولة من حياة الرئيس) قائلا: .. تحدث الرئيس مع مصطفى أمين صاحب جريدة الأخبار اليومية ، وسأله : ألا ترى الصفحة الأخيرة يا أستاذ ؟ وأجابه مصطفى أمين : نعم ، هل تقصد صورة والدك ؟ ما هو الخطأ فى ذلك ؟ فأجابه جمال عبدالناصر ببطء وتصميم : إننى لا أحب أن تنتشر أخبار أبى بين الناس ، إننى أخاف أن يركب ذلك رأسه ، إننى أريد أن يعيش أبى وأخوتى مثل الناس العاديين ولا أريد أن يفسدهم منصبى .

(٦٩) هذا النوع من السيارات كانت تصنعه مصر وهو إيطالى نوع فيات الصغيرة .

٦- وحدث أن امرأة فرنسية غنية فى الإسكندرية كانت فى ورطة لأنها نقضت قواعد أحد مكاتب الحكومة وطلبت من خال جمال عبدالناصر أن يتوسط لها، وعندما فعل ذلك اتصل رئيس هذا المكتب الحكومى بعبدالناصر يطلب تعليماته ، وأصبح عبدالناصر أمام قرار صعب، لقد كانت مشاعره بالنسبة لأمه لازالت قوية وهذا هو أخوها ، ولكنه أصدر أوامره بإلقاء القبض على خاله وإيداعه السجن .

٧- ولقد كان جمال عبدالناصر يهتم كثيرا بالفقراء والمغلوبين وينحاز إليهم كثيرا دون ظلم إلا لمن يظلم ، يقول الأستاذ هيكل : وأتذكر مرة كنت فيها معه فى سيارة يقودها على طريق ، (برج العرب) فى الصحراء الغربية ، وتوقف عند جماعة من عمال التراحيل يعملون فى إصلاح جانب من الطريق ، ونزل إليهم ووقف وسطهم ، وراح يتحدث معهم ، وحين عدنا إلى السيارة وأدار مفتاحها وانطلق بها على الطريق وجدته يهز رأسه ويقول : مثل هؤلاء هم الأغلبية فى مصر ، وهم التحدى الحقيقى فى مصر ، لا تتصور أن مشكلة مصر هناك فى واجهة القاهرة الحديثة ، كل ما هنالك فى هذه الواجهة قشرة ، ثم استطرد الكارثة إن هؤلاء الذين نريد أن نعمل من أجلهم لا يصل إليهم صوتنا ، كيف الوصول إلى هؤلاء وتحريكهم ؟ لا أعرف .. وطال صمته بعدها .. انتهى .

لقد كان جمال عبدالناصر يحمل فى قلبه هموم هؤلاء الفقراء والمغلوبين، كان يحس بالآلامهم ومعاناتهم من الفقر والضييم والظلم ، لقد أدرك مبكرا أسباب تلك المعاناة ، وعرف كم يشقى هؤلاء المساكين ، ولقد اختزن فى ذاكرته كل ذلك الذى رآه وأحس به ، فقد خالط العمال والفلاحين منذ صغره بل هو واجه أنواعا من هذا الحال ، كل شئ بالواسطة ربما حتى الهواء (أستغفر الله) فكيف له أن يسكت عن الضييم والظلم وقد صار وليا لأمر هؤلاء الناس ، وكان يحس بعدم رضاهم ولكن ماذا عساهم أن يفعلوا والكرباج يحرق ظهورهم إذا ما تأخروا أو توانوا أو أظهروا حتى مجرد الأنين !!

لابد أن عبدالناصر قد عاهد نفسه منذ فجر يوم ٢٣ يوليو أن ينصف هؤلاء المساكين ، أن يحررهم من الخوف ، وأن يتيح لهم فرص العيش الكريم، وبذلك الموقف إزاء الشاب الذى لم يقبل فى كلية الشرطة أكد عبدالناصر أن بهارج السلطة

فى مصر لم تبعده عن إحساس الغلابة ، وكان يصيغ السمع لأنات الفقراء ويحاول بث الأمل فى نفوسهم ذلك أن أضواء الحكم لم تخفى عنه ما يعانىة شعبه ، ولا أفسدته السلطة (كما يحدث عادة فى دنيا العرب) ولا بد أنه بتلك المواقف والاهتمامات استطاع أن يصل إلى أغلب فقراء مصر وأن يضمم جراحهم ويواسيهم فى آلامهم ، وغالبا ما كان يتولى بنفسه حل مشاكلهم ، لقد كان نصيرا للفقراء والمظلومين ، وكان دائما يقول إن هؤلاء هم شعب مصر ، وأن الثورة ما لم تصل إلى هؤلاء فهى لم تفعل شيئا ، ولا بد أن كل هذه الأحاسيس جعلته يولى مشاكل الناس اهتمامه كأن يسأل عن ثمن الملابس المصنوعة محليا ، وعن رغبة العيش ، وكراسات المدارس ... إلخ .



الرئيس جمال عبدالناصر مع أبنائه الثلاثة ، خالد وعبد الحميد وعبد الحكيم



جمال مع والده عبدالناصر حسين في الإسكندرية



الفصل السادس

- ١- شهامته ووفاءه ، أخلاقيا وأديبا .
- ٢- رأيه فى التغيير ، وكيف يتم ؟
- ٣- رأيه فى الأحزاب ، وكيفية التعامل ؟
- ٤- رأيه فى حرية الشعب ، كيف ؟
- ٥- رأيه فى الدين والواجب .

الفصل السادس

- ١ - شهامته ووفاءه ، أخلاقيا وأديبا .
- ٢ - رأيه فى التغيير ، وكيف يتم ؟
- ٣ - رأيه فى الأحزاب ، وكيفية التعامل ؟
- ٤ - رأيه فى حرية الشعب ، كيف ؟
- ٥ - رأيه فى الدين والواجب .

١ - يقولون (وهذا فى الغالب صحيح) الطبع يغلب التطبع ، والواجب قبل المصلحة ، والعدل أساس الحكم ، وفى أمثالنا الشعبية نقول (من شبَّ على شئ شاب عليه) ولقد تميّز عبدالناصر بالصدق والوفاء بحيث لا يتخلى عن رجاله مهما كانت المخاطر والصعاب ، وإذا كان فى السياسة ونظم الحكم ما يمكن أن يسمى مصداقية فى الممارسة فإن عبدالناصر يكون فى طليعة رجال الحكم والسياسة والفكر ، وكدليل على ما نقول يظهر أمامنا مثالان وهما : الموقف من صلاح سالم أثناء حرب السويس أو العدوان الثلاثى ، وثانيهما ، الموقف من عبدالحميد السراج بعد جريمة فصل سوريا عن مصر ، والموقفان يفاصيلهما ، وفى الحالتين كان موقف عبدالناصر أخلاقيا وأديبا وإنسانيا ، كما يلى :

أولهما : المعروف عن الأخوين (صلاح سالم وجمال سالم) أن طباعهما حادة جداً ومواقفهما متطرفة كثيرا ، ظهر موقف جمال سالم المتشدد أو قل المتطرف فى محاكمات الثورة ، وظهر موقف صلاح سالم قبيل حدوث العدوان الثلاثى على مصر وعندما وجهت بريطانيا وفرنسا إنذارا لمصر ، فقد تحدث صلاح سالم عند ذاك قائلا ، يا جمال نحن لم نقم بالثورة لكى نعرض البلاد للخراب ، أن وطنيتنا كمجلس ثورة تحتم علينا أن نترك الحكم ، ونسلم أنفسنا للسفير البريطانى ، وبذلك نثقل مصر من الخراب ، لكن عبدالناصر اعتبر ذلك خيانة وجبن فلا يجوز لمن قام بالثورة أن يستسلم أمام أول خطر ، لكن صلاح سالم تفوه

بعبارات شديدة في وجه عبدالناصر وقال له أنه سيكون السبب في دمار مصر ، ومعلوم أن جمال عبدالناصر قرر تحدى بريطانيا وفرنسا وذهب إلى الأزهر الشريف ليعلن (حانحارب) وقد حارب الشعب المصرى ووقف وراء عبدالناصر ورغم ما قالته الألسن افتراء فإن عبدالناصر قد انتصر بشعبه ضد العدوان الثلاثى (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) وكان على صلاح سالم أن ينزوى نتيجة لموقفه وخلافه الحاد مع عبدالناصر مما أتاح للمرتجفين كثير من فرص التهجم ، وحدث أن صلاح سالم أصيب بمرض شديد أقعده في المستشفى فكان عبدالناصر يزوره مواسيا ومشجعا ، ثم عندما توفاه الله كان عبدالناصر في مقدمة المعزين والسائرين مع جثمان الشهيد يوم ١٩ فبراير ١٩٦٢ م .

وثانيهما : كما قلنا الموقف من عبدالحميد السراج ، فقد حدث أن قام مجموعة من ضباط الجيش السوري مدعومين من جهات أجنبية وعددا من المرتزقة المحليين مثل (الكوزبرى وغيره) قاموا بانقلاب على الوحدة بين مصر وسوريا ، وكان عبدالحميد السراج قد اعتقل ووضع في سجن (المزّة) سئ السمعة ، وصاروا يهاجمون عهد عبدالناصر ومصر ، ولأن عبدالناصر لا يؤمن بالدم ولا بوحدة تقوم على جماجم الناس فقد أعلن قائلا (أعان الله سوريا على أمرها) لكنه في نفس الوقت قرر ألا يتخلى عن رجاله الذين كانوا عمادا للوحدة وعونا له في البلاد التي عرفت أثناء الوحدة باسم (الإقليم الشمالى - سوريا) وأول أولئك الرجال الذين يجب الدفاع عنهم بكل الوسائل كان عبدالحميد السراج ، وهذه قصة إخراجهم من ذلك السجن الرهيب ، (سجن المزّة) كما رواها أحد أبطالها الذين كلفهم عبدالناصر بإنقاذ السراج مهما كانت المخاطر ، يقول الأستاذ سامى شرف ما يلى :

(كانت قد وصلت معلومات مؤكدة للرئيس جمال عبدالناصر تفيد أن عبدالحميد السراج يتعرض في سجن المزّة بدمشق لأبشع أنواع التعذيب وأن السيدة حرمه تكاد تفقد بصرها أو هى فقدته ، ووفاء من جمال عبدالناصر لمن عمل معه ، ومهما كانت الظروف ، فقد طلب الرئيس إعداد مشروع خطة لتحرير عبدالحميد السراج من سجنه إلى القاهرة ، وخلال أربعة أيام كانت الخطة جاهزة ، وكان قد تم الاتصال ببعض الأصدقاء في بيروت ودمشق وعمان ، للإعداد

ولبحث إمكانية التنفيذ بنجاح، كانت أمام الرئيس خطتان تبادليتان، أطلق على الأولى (العملية جمال) وعلى الثانية (عملية س ش) وقد روعى في العملية (جمال) البساطة وعدم التعقيد وتقليل عدد الأشخاص بقدر الإمكان وكانت تقوم على أربعة محاور :

١ - معرفة الوضع تفصيلاً داخل السجن وترشيح عنصر أو عناصر يمكن الاتصال بهم من داخل السجن ، وذلك عن طريق الاتصال بالسيد عبد الحميد السراج .

٢ - تأمين وجود السراج في لبنان .

٣ - دراسة خطوط السير من خارج السجن حتى الحدود اللبنانية .

٤ - التوجه إلى القاهرة بالطائرة أو بحرا إلى الإسكندرية أو بور سعيد .

أما العملية الثانية (س ش) فتقوم على :

١ - إقحام سجن المزة بعناصر فدائية سورية لاختطاف عبد الحميد السراج .

٢ - الهروب به إما إلى الأردن حتى ميناء العقبة فالساحل المصري ، أو إلى لبنان ومنها جوا إلى القاهرة أو بحرا إلى الإسكندرية أو بورسعيد .

وتمت دراسة تفصيلية للعملياتين بما فيها استطلاع خط السير على الأرض في سوريا ولبنان والأردن، وتم الاتفاق مع أحد المساعدين الذين كانوا يتولون حراسة عبد الحميد السراج في السجن، وكذلك تم الاتصال وترتيب طاقم للحماية وترتيب وسائل الانتقال في دمشق ولبنان والأردن .

ولقد استقر الرأي على أن تنفذ الخطوة الأولى (جمال) بدأ جس نبض السلطات العليا في لبنان ممثلة في اللواء فؤاد شهاب ، وكان الرجل إيجابيا ، ولكنه طلب فقط البعد عن توريط السلطات اللبنانية في نتائج قد تضر بأمن وسلامة لبنان، وقد قمت بزيارة خاصة إلى لبنان لمقابلة الرئيس شهاب ، وللإشراف على تنفيذ الخطوة ، وحملت رسالة من الرئيس جمال عبدالناصر للرئيس شهاب تقول : إن كل حبة رمل في أرض لبنان الشقيق رمال مصرية نحافظ عليها بأرواحنا ، وكانت هذه الرسالة كافية لإعطائنا الضوء الأخضر للعمل من خلال الأراضي اللبنانية الذي رؤى أنه الأفضل ، لأن العمل من خلال الأراضي الأردنية كان سيتم

بدون علم السلطات نظرا لطبيعة العلاقات غير المستقرة بين مصر والأردن في ذلك الوقت ، ولتفادي مجازر لا داعي لها، ومن ناحية أخرى حماية لعناصر قومية شريفة كانت ستتولى تأمين المسيرة وتوفير وسائل الانتقال على مسؤوليتهم الخاصة وقد يكون في ذلك مخاطرة بالنسبة لهم .

وفي الخطة أدخل جمال عبدالناصر عددا من التعديلات وبالتالي كانت كما يلي :

١- الاتصال بالمساعد منصور رواشده (حارس السراج في السجن) شخصا لتأمين بدء العملية وضمان قيامه بالمساعدة الإيجابية الفعالة في تهريب السراج من باب السجن حتى مشارف دمشق .

٢- إعادة دراسة طبيعة الأرض وخطوط الاقتراب من دمشق حتى الحدود اللبنانية السورية بما في ذلك كل الطرق والوسائل التبادلية في النقل من الخيل والجمال والموتوسيكلات والسيارات وأدلة السير ، مع تفادي نقاط التفتيش بما فيها اللبنانية منعا للخرج .

٣- استخدام الرسائل في نقل التعليمات أو أية تعديلات بدلا من استخدام اللاسلكي أو الشفرة والتي قد تتعرض للكسر .

٤- ترتيب تواجد غواصة مصرية أمام سواحل بيروت في اتجاه مبنى السفارة المصرية .

٥- يتولى قيادة الطائرة المصرية التي ستصل بيروت لنقل السراج إلى القاهرة الكابتن عبدالرحمن عليش رحمه الله .

٦- مجموعة العمل تتكون من سامي شرف ، منير حافظ ، محمد نسيم ، محمد المصري ، على أن يبقى منير حافظ في القاهرة ويتواجد الثلاثة الآخرون في بيروت ، ويترك لسامي شرف حرية الاتصال بالسلطات اللبنانية حسب تقديره للموقف .

كانت الاتصالات مع منصور رواشده مستمرة ومؤمنة بمعرفة الزعيم اللبناني الكبير كمال جنبلاط واللواء شوكت شقير ، وعندما اكتملت الصورة وتأكدنا من نجاح التنفيذ كان أحد المندوبين قد وصل إلى دمشق ، واتفق مع منصور على التنفيذ في اليوم والساعة ، وكان هو الذي سيتولى في نفس الوقت تأمين خروج

السراج من دمشق حتى الحدود اللبنانية ، وكان لديه تلقين كامل عن الطرق والطرق التبادلية التي سيسلكها ، وقد نصح بأن يتبع أصعب الطرق وأبعدها عن التصديق أن يسلكها إنسان أو دابة ، وفعلنا فقد استخدمت البغال والخيول والجمال في رحلة الهرب رغم أن ذلك سيطيل مدة التعرض وبالتالي ستطول مدة انتظارنا وأيضا تلف أعصابنا ، وكان مقدرا أن العملية ستستغرق بين ٢٦ و ٣٢ ساعة أو أكثر قليلا لو كانت هناك عوائق ، وانتقل محمد نسيم ومحمد المصري ومن معهما من رجال الزعيم كمال جنبلاط إلى نقاط معينة على الحدود السورية اللبنانية ، وكنت أنا في بيروت بالاتفاق والتنسيق مع الرجل الشريف (سامي الخطيب) وزير داخلية لبنان الحالي بتعليمات من الرئيس فؤاد شهاب في انتظار وصول السراج إلى مشارف بيروت في نقطة متفق عليها من قبل .

كان الاتفاق مع سفيرنا في لبنان عبد الحميد غالب وأعضاء السفارة أن يكونوا جميعا طبيعيين في تصرفاتهم وتحركاتهم ، ولا يبدو وكأن هناك شيئا غير عادي يتصل بهم ، حتى لا تلفت الأنظار أكثر مما هي عليه بالنسبة لسفارتنا التي كانت محط أنظار كافة القوى في ذلك الوقت ، المهم وصل عبد الحميد السراج ومعه حارسه في السجن (منصور رواشده) وكان في استقبالهما الزعيم كمال جنبلاط الذي اصطحبهما في سيارته الكاديلاك السوداء الخاصة إلى منزل محمد نسيم في بيروت ، كان من ضمن الترتيبات استخدام شقق آمنة كمواقع تبادلية لإقامة السراج فيها ، ولكن بناء على اقتراح الأخ محمد نسيم اتفق على أن يقيم السراج في منزله إمعانا في التصرف الطبيعي الذي لا يلفت الأنظار ، وبمجرد وصول السراج لمنزل محمد نسيم تمت عملية تغيير ملامحه بشعر مستعار وشوارب .

وقد قمت بعد ذلك بزيارة الرئيس فؤاد شهاب وبصحبة السفير عبد الحميد غالب حيث أبلغته بوصول السراج إلى بيروت وأن المخطط هو سفره إلى القاهرة في أسرع وقت حتى لا نسبب حرجا للسلطات اللبنانية ، وأطلعناه على مخطط المرحلة التالية ، وقد استجاب الرئيس شهاب وأمر بأن يكون كل من أحمد الحاج مدير مكتبه، وسامي الخطيب تحت تصرفنا وتنفيذ جميع مطالبنا واحتياجاتنا ، التي لم تكن سوى سيارة جيب وملابس عسكرية لبنانية .

قام سامي الخطيب بقيادة السيارة بنفسه في طريقه إلى مطار بيروت من منافذ خلفية غير مطروقة وكان يجلس بجواره محمد نسيم وفي الخلف جلس السراج

وسامى شرف ومحمد المصرى ومنصور رواشده وكلنا مرتدين ملابس عسكرية لبنانية ما زلت احتفظ بها للآن ، وكنا نبدو كإحدى دوريات الأمن ، واخترقت سيارتنا سور المطار من ثغرة أعدت على عجل دون أن تبدو ملحوظة ، أى أنها كانت مموهة ، ووصلت السيارة مدرج المكان مباشرة حيث وصلتها فى نفس اللحظة الطائرة المصرية التى تحمل الصحافة المصرية إلى بيروت يوميا وبعد أن أفرغت حمولتها اتجهت الى نهاية المدرج حيث أبلغ قائدها برج المراقبة أن هناك عطلا مفاجئا فى الطائرة وفتح بابها وأسقط سلمها من داخلها ..

تم تنفيذ المتفق عليه تماما بدون معوقات أو مفاجآت ودخلنا الطائرة ، ومن الظريف أننا عندما دخلنا الطائرة وجلسنا فى مقاعدنا تقدم لنا مضيف الطائرة وهو يحمل أكواباً من العصير ، ، وتساءل سامى شرف ، هل تعرف من كان هذا المضيف ؟ ورد : كان الأخ والزميل عبدالمجيد فريد ، وكان الرئيس قد أمره أن يتوجه الى بيروت مع الطائرة عند إقلاعها من مطار القاهرة . ثم مضيف ، أقلعت بنا الطائرة المصرية وعليها عبدالحميد السراج ومنصور رواشده ومحمد المصرى وأنا ، ونظرنا إلى بيروت ، ساطعة وهى هادئة تنام ، نظرة كلها حب وتقدير ، وغرق كل منا فى أفكاره وذكريات أيام صعبة عشناها قبل أن تشق بنا الطائرة السماء ، وأضواء النهار تتأهب لتملأ الدنيا ، وصلت الطائرة إلى مطار القاهرة ، كانت الساعة تقترب من الساعة صباحا ، وكان فى استقبالنا زغلول كامل وكيل المخابرات العامة وبعض أفراد مكتبى ، وتوجهنا إلى أحد قصور الضيافة التابعة لرئاسة الجمهورية فى مصر الجديدة وقمت على الفور بالاتصال بالرئيس جمال عبدالناصر وأبلغته بنجاح المهمة ووصولنا ، طلب الرئيس عبدالناصر أن نتوجه أنا والسيد عبدالحميد السراج إلى منشية البكرى فورا لتناول الإفطار معه ، وفى إعلان الخبر نوقش الموضوع ولكن الرئيس طلب أن يترك له الأمر ، ليعلنه كما يرى ، وفى اليوم التالى نشر خبر صغير من ثلاث سطور فى الصفحة الأولى بجريدة الأهرام عنوانه ، عبدالناصر يستقبل عبدالحميد السراج وتفصيله بالنص :

(استقبل الرئيس جمال عبدالناصر أمس بمنزله بمنشية البكرى السيد عبدالحميد السراج .. فقط لا غير ..) (٧٠) .

(٧٠) كتاب أيام وسنوات مع جمال عبد الناصر - سامى شرف - ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

لقد نقلت تفاصيل إخراج عبدالحميد السراج من سجنه الرهيب في دمشق بسوريا وكيف أن جمال عبدالناصر سخر كل إمكانيات وقدرات مصر الفنية والبشرية وعلاقاتها مع الغير من أجل إنقاذ أحد رفاقه الذين عملوا معه بإخلاص من أجل أهدافه القومية ، وهنا يجب التأكيد أنه لولا الثقة في مواقف وشجاعة وصدق جمال عبدالناصر ما كان لأحد من الرجال الذين قدموا كل تلك المساعدات أن يقدم على أى عمل خطير كهذا وهم كما مر بنا كثر وكبار ، وأذكر بالمناسبة الأستاذ كمال جنبلاط الذى ورد اسمه فى سياق الحديث عن رحلة السراج أنه كان صديق صادق للرئيس جمال عبدالناصر وسندا له فى نضاله القومى العربى ولقد سمعت منه شخصا قصة علاقته بعبدالناصر ومقدار حبه له عندما كنت ذات يوم أزوره فى بيته (بعالية) يوم ١٦ مارس ١٩٧٧م ومع الأسف فقد كانت زيارتى تلك الأخيرة له وقبل اغتياله بيومين فقط ، كنت سفيرا لبلادى فى لبنان وبالتالي كانت واحدة من أهم علاقاتى تلك التى حظيت بها مع هذا الرجل الصادق العظيم ، وأذكر أنه فى تلك الزيارة قال لى : إننا سنلتقى فى بيروت بعد غد إذا لم يحدث شيئا ، وسأله : هل تتوقع حدوث شئ كبير ؟ قال حياتى : وسألته مرة أخرى ، كيف ومن ؟ قال من بلد مجاور له مصالح فى تدمير لبنان وقتل زعمائه ، عرفت منه ماذا ومن يقصد ، ولقد أغتيل قبل أن يصل بيروت وفى منتصف الطريق عبر جبل لبنان بين نقطتى تفتيش عسكريتين سوريتين واحده بأعلى الجبل والأخرى بأسفله ، فهل أحتاج إلى مزيد من التوضيح ، ولقد ذكرت ذلك فيما بعد لابنه وليد كمال جنبلاط عندما كنت أرافقه فى زيارة لبلادى (ليبيا)

٢ - رأى عبدالناصر فى التغيير ،،

واحدة من حسنات جمال عبدالناصر (وهى كثيرة) صبره فى التعامل مع الناس ، عاديين أو مسؤولين أفرادا أو جماعات ويشهد بذلك الذين كانوا قريبين منه فى العمل اليومى ، وهدوء أعصابه عند بحث القضايا ذات الأهمية البالغة بما فى ذلك الأمور العسكرية ، ويقول الأستاذ أمين هويدى الذى شغل مناصب وزارية آخرها كان منصب وزير الحربية ومدير المخابرات العامة فى كتابه (مع عبدالناصر) تحت عنوان (كيف يتعامل عبدالناصر مع وزرائه ؟) .

(كان من أهم خصال عبدالناصر قدرته على الاستماع وهى ميزة ثمينة لرجل الحكم ، ورجل الدولة ، كان فى إمكانه أن يستمع لفترات طويلة دون أن يقاطع أو يتدخل فإذا انتهى المتحدث من الإدلاء برأيه تبدأ المناقشة فى أغلب الأحيان بهدوء) .

وفى اتخاذ القرارات سواء بالتعيين أو الفصل أو الإقالة أو شئ من هذا، (يقول سامى شرف : لم يحدث أبدا أن درس جمال عبدالناصر أى موضوع منفصلا عن الوضع العالمى بمعنى أنه كان يقول (السيناريو) ماذا سنفعل ؟ وما الذى يجب اتخاذه وماذا سيكون رد الفعل ؟ وهكذا كان يضع الاحتمالات والافتراضات للأحداث التى يمكن أن تترتب على اتخاذ أى قرار سواء كان القرار مفروضا علينا أو أنه قرار اتخذناه نحن من هنا ، فمثلا عندما درس موضوع تأميم قناة السويس وتمويل السد العالى تفرعت من هذه الدراسة مسائل كثيرة ، أين مواطن القوة المحلية والعربية والدولية بالنسبة لمثل هذا الحدث ؟ موقف الغرب مثلا سيكون كذا ، ويحدث تجزئة الموقف الواحد إلى عدد من الأقسام والمواقف الفرعية ... إلخ ويقول : كان جمال عبدالناصر فى مرحلة ما مصرا إصرارا كاملا وبعنف (وبنشفيه دماغ) سميها زى ما تسميها، لتنفيذ بيان ٣٠ مارس وأحداث التغيير الكامل الشامل لنظام العمل فى مصر وتغيير الأشخاص ، كان يريد التغيير بوجوه شابة ، وكان يعنى فعلا أن جيلا آخر المفروض أن يحمل العلم ويقود المسيرة وهو ترجمة لما ورد فى بيان ٣٠ مارس ..) .

من المعلوم أن هذا حدث بعد جريمة الانفصال السورى عن مصر تلك الجريمة النكراء التى ثببت العزائم وخلقت شرخا فى العلاقات العربية حتى صار من يفكر فى الوحدة يبرز أمامه مباشرة درس الانفصال ، على أن جمال عبدالناصر لم يفقد الأمل فى أمتة العربية ذلك أن الذين تأمروا هم فئة قليلة مأجورة لن تقوى على البقاء والاستمرار رغم نجاحها فى الانقلاب على الوحدة ومما يؤكد عمالة الضباط السوريين الذين تأمروا على الوحدة وفصلوا سوريا عن مصر توافق عملهم التأمري مع بداية إسرائيل فى تنفيذ مشروعاتها الخاص بتحويل مياه نهر الأردن إلى صحراء النقب، وكان العرب بمبادرة من عبدالناصر قد بدأوا ينسّقون لمنع إسرائيل من تنفيذ المشروع ولكن عمل هؤلاء النفر من الضباط العملاء قد

خلط الأوراق وأجج الخلافات العربية كما بدد كل جهد عربى وخدم إسرائيل ، ورغم أن الأعمار بيد الله فلا بد أن ذلك العمل الإجرامى الذى قام به حفنة من ضباط الجيش السورى قد حدد موعد وفاة جمال عبدالناصر حيث انتقل إلى رحاب خالقه بعد تسع سنوات بالضبط من تاريخ الانفصال أى أن الانفصال حدث فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م وعبدالناصر توفى فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م ، ومن أجل التغيير قدم عبدالناصر مشروع ميثاق العمل الوطنى لمؤتمر القوى الشعبية يوم ١٢ مارس سنة ١٩٦٢م حدد فيه عشرة أبواب بدأه بمقدمة كنظرة عامة وما يتعلق بالثورة وجذور النضال المصرى ودرس النكسة وضرورة الحل الاشتراكى والديموقراطية السليمة والوحدة العربية والإنتاج الوطنى ... إلخ ولأن جمال عبدالناصر كان دائما إلى جانب الفقراء (فلاحين وعمالا) قرر أن يحدث تغييرا فى جهاز القضاء المصرى عندما علم بأن هناك انحيازا من جانب بعض القضاة الذين يمكن أن يكونوا منتيمين إلى أسر إقطاعية إلى جانب ملاك الأراضى ، ومن المعلوم أن عملية المساس برجال القضاء غاية فى التعقيد لكن الأمر كان يستلزم موقف شجاع رغم ما سيستتبعه من أقاويل ، وفى هذا يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل ما يلى :

سمعت ذات مرة من جمال عبدالناصر خلال تلك الفترة فى الإسكندرية أن بعض المشاكل فى مجال القضاء تطرح نفسها عليه ، وأن تقارير أمامه تشير إلى أن بعض المحاكم تطرد فلاحين من أراضيهم المستأجرة لصالح كبار الملاك ، ثم أن بعض هذه التقارير تشير إلى أن بعض القضاة الذين أصدروا مثل هذه الأحكام سبق أن طبقت عليهم أو على أسرهم أحكام قانون الإصلاح الزراعى ، وكان رأيه أن ذلك وضع لا بد من بحشه وأنه شكل لذلك لجنة خاصة تقدم إليه توصياتها ، وكان بين أعضائها السادة شعراوى جمعه وسامى شرف والمستشار عمر الشريف المستشار القانونى لرئاسة الجمهورية وآخرون .. يستمر هيكل ، ولاحظ هو تحفظى على ما سمعته منه ، أضاف : إننى وضعت أنور السادات على رأسهم لكى يتابع ما يفعلون ، وهو بينهم الذى يتصل بى ، وبعد حديث طويل يقول هيكل : فتحت الموضوع مرة أخرى مع الرئيس ، وقلت إن مسألة القضاء حساسة ، فهو مرفق فى مصر مقدس ، وأى اقتراب منه يجب أن يكون بمنتهى الدقة والتحرر ، ثم يضيف ،

أحسست بعد هذه المقابلة أنني أديت واجبي كمواطن وكصديق لجمال عبدالناصر، وكان منطقي أنه إذا كانت اللجنة التي تبحث موضوع القضاء تعمل تحت رقابة أنور السادات ويشترك في أعمالها جمال العطيبي، إذن فالأمور في مسارها الصحيح، ويقول: وصدرت بعد ذلك يوم ٣١ أغسطس ١٩٦٩م إجراءات في مجال القضاء وأثارت هذه الإجراءات ردود فعل ثم ينتهي إلى القول لقد كان أمامه مشكلة اجتماعية سياسية رآها من وجهة نظره، خطأ أو صواباً، تتطلب حلاً.. انتهى (٧١).

٣ - وضع الأحزاب المصرية ورأى عبدالناصر فيها :

يقال لا يعرف الحق بالرجال، وإنما يعرف الرجال بالحق.. ولقد كانت هناك أساليب المغالطة والدس والأباطيل التي تعودت عليها زعامات الأحزاب المصرية السابقة وهذا في رأي ليس جهالة لأنهم يعلمون جيداً مرامي وأغراض أعمالهم لكنهم اعتقدوا (وهو اعتقاد خاطئ) أن ذلك يمكن أن ينطلي على عسكر يقولون (إنهم لا يفهمون في السياسة) وبالتالي فإنه يمكن التحايل على أحداث التاريخ الذي ربما لا يعرفه هؤلاء الجدد على الحكم والسياسة! أقول ربما، ولكن قبل البحث في قضية الأحزاب وأمل تناوب السلطة سلمياً بين القوى السياسية في الوطن العربي لا بد من بحث ومناقشة برامج تلك الأحزاب أو التنظيمات الدينية، ولماذا الخوف من المسلمين، وربما يمكن القول، الخوف من الإسلام تحديداً، على الرغم من أن الدول العربية أغلب سكان بلادها مسلمون، وهذه الدول تنص في دساتيرها (التي لا تحترمها) على أن دين الدولة الإسلام؟!

وبالمقابل لا بد أن نسأل لماذا ترتكب الجماعات أو التنظيمات الإسلامية أخطاء وتستخدم السلاح والاعتداءات لهدف الوصول إلى الحكم؟ والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾ (الأنعام: ١٥١). ويذكر القارئ الكريم أنني قلت في مقدمة هذا الكتاب: أن واحدة من أخطاء عبدالناصر أنه منع الحزبية على الرغم من أنه في آخر سنوات حكمه ذكر أنه لا بد من وجود أحزاب معارضة (٧٢) وقال: إنه اتخذ

(٧١) لمصر... لا لعبد الناصر - هيكل - ص ٦٢ - ٦٣ - ٦٤.

(٧٢) قال هذا الكلام أثناء زيارته لمدينة بني غازي في ليبيا في يونيو ١٩٧٠م.

إجراء حل الأحزاب المصرية السابقة للثورة لكثير من الأسباب سنذكرها تالياً ، إما قضية الخلاف حول الأحزاب والحزبية في الوطن العربي فهي قضية شائكة ومزمنة بينها وبين حكومات هذه البلدان ، ولنأخذ مثالان على هذا الخلاف بين الحكومات والأحزاب والتنظيمات الإسلامية بشكل خاص :

الأول في الجزائر :

فلقد كانت جبهة الإنقاذ قد فازت بأغلبية مطلقة في أول انتخابات ديمقراطية نزيهة جرت في هذا البلد ، وسبب فوزها أنها قدمت برنامج عمل يركز على مواضيع يحس بها الشعب في الجزائر بل هو يطالب بها كلما أتيحت له فرصة التعبير عن نفسه (وهي قليلة) وهي (العدل في الحكم ، والشفافية في الممارسة ، والحفاظ على المال العام ، وتكافؤ الفرص في العمل وأمور الحياة بين المواطنين) ذلك أن المواطن الجزائري كان يعاني من عضه الفقر وشظف الحياة وهو يعلم أن بلاده غنية لكن نظام الحكم فيها فاسدا وقادته ينهبون أمواله ، ولهذا رحب ببرنامج جبهة الإنقاذ الإسلامية وأعطاهما صوته ، لكن الذين يستغلون ثروات البلاد ويسيطرون على مقاليد الأمور لم يستريحوا لمجرد سماع كلمات الشفافية والمحاسبة ، فألغوا نتائج الانتخابات واعتقلوا قادة الجبهة وسجنوهم ولهذا أدخلوا البلاد في مأزق لم تخرج منه منذ عقد ونصف ، وقد لا تخرج منه أبدا حيث سالت الدماء في شكل شبه حرب أهلية ، ولو أمكن أن تتاح الفرصة لتلك الجبهة بعد أن فازت في الانتخابات كي تنفذ برنامجها فإن هي وفقت شكرناها وإن لا فإن صناديق الانتخابات التي جاءت بها تبعدها ، وقيل أن جنرالات الجيش هم الذين ارتكبوا خطيئة ضرب الديمقراطية في الجزائر وذلك خطأ تاريخي أو هو جريمة لا بد أن يحاسبوا عليها ولو كانوا أمواتا .

والثاني في فلسطين :

كانت حركة حماس قد فازت أيضا في انتخابات ديمقراطية جرت بإشراف دولي ، وبناء على برنامجها المثالي الذي تضمن كثيرا من الوعود المعبرة عن آمال الإنسان الفلسطيني كالاستقرار والتقدم والشفافية في الحكم ورعاية المال العام ومحاسبة الفاسدين والمفسدين وتكافؤ الفرص بين الناس انتخب أعضاؤها

وبالتالى سيطرت على البرلمان بسبب أغلبية أعضائها المنتخبين وشكلت الحكومة التى كان ينتظر منها الكثير فى تنفيذ برنامجها الانتخابى ، لكن حماس هذه عندما تولى قادتها الحكم أغمضوا عيونهم وصمّوا آذانهم وقفلوا أبوابهم أمام أى فرصة تعامل (لا اعتراف بمنظمة التحرير ، ولا اعتراف بأى اتفاق دولى أو معاهدة دولية) واعتقدوا أن العالم سيطرق أبواب مكاتبهم وبيوتهم راجيا مد أيديهم إليه !! دون أن يدركوا أن العالم قد تغير كثيرا كثيرا منذ انتهاء القرن الماضى ، ودون أن يقدّروا أن منظمة التحرير التى أعطيت شرعية تمثيل الشعب الفلسطينى وهى تناضل من أجل حقوق الشعب الفلسطينى منذ قرابة نصف قرن أو أكثر ، بصرف النظر عن الأشخاص وما يقال عن التجاوزات أو الفساد الذى كان يمكن أن يصلح من الداخل وبين الشركاء فى المصير الواحد ، ثم حدث الخطأ الكبير الذى قامت به حماس بانقلابها على مؤسسات الشعب الفلسطينى فى غزة ، وتلك كانت القشة التى قسمت ظهر البعير كما يقال ، وما تبع ذلك من انتهاكات وقتل وتنكيل بإخوتهم الفلسطينيين لمجرد أنهم (ربما) يتمنون لفتح وبذلك خلقوا الشحنة وقضوا على إمكانية التعايش السلمى بين أبناء الوطن الواحد وأتاحوا أعظم فرصة لعدو يتربص بهم بحيث يضرب هذا الرأس بأخر مع الأسف !! وأنا أعتقد وقد عرفت أغلب المنظمات الفلسطينية وتعاملت مع هذه المنظمات عندما كنت سفيراً لبلادى فى لبنان وتحديدًا خلال سنوات الحرب الأهلية ، عرفت أن بين هذه المنظمات تظهر الولاءات بشكل شديد وغالبا ما يغلب الولاء لهذا النظام أو ذاك على المصلحة الوطنية الفلسطينية التى جاءت أو نشأت من أجلها هذه المنظمة أو تلك ، وعلى الرغم من أن حماس لم تكن قد ظهرت وقتذاك ، أو على الأقل أنها لم تعرف على الساحة العربية ولا المحلية ، فقد عرف عنها قرب نهاية القرن العشرين بروزها فى نطاق الأرض المحتلة وبشكل كبير عندما تم الإفراج عن زعيمها الشيخ أحمد ياسين ، عرفنا قياداتها نقية طاهرة مناضلة وكنا نأمل أن تتوج نضالها بفهم أكبر للوضع الدولى بحيث يمكنها أن تساهم فى بناء الدولة الفلسطينية القادرة على الحياة ، ولكن مع الأسف منعها ضيق نظرها عن ذلك .

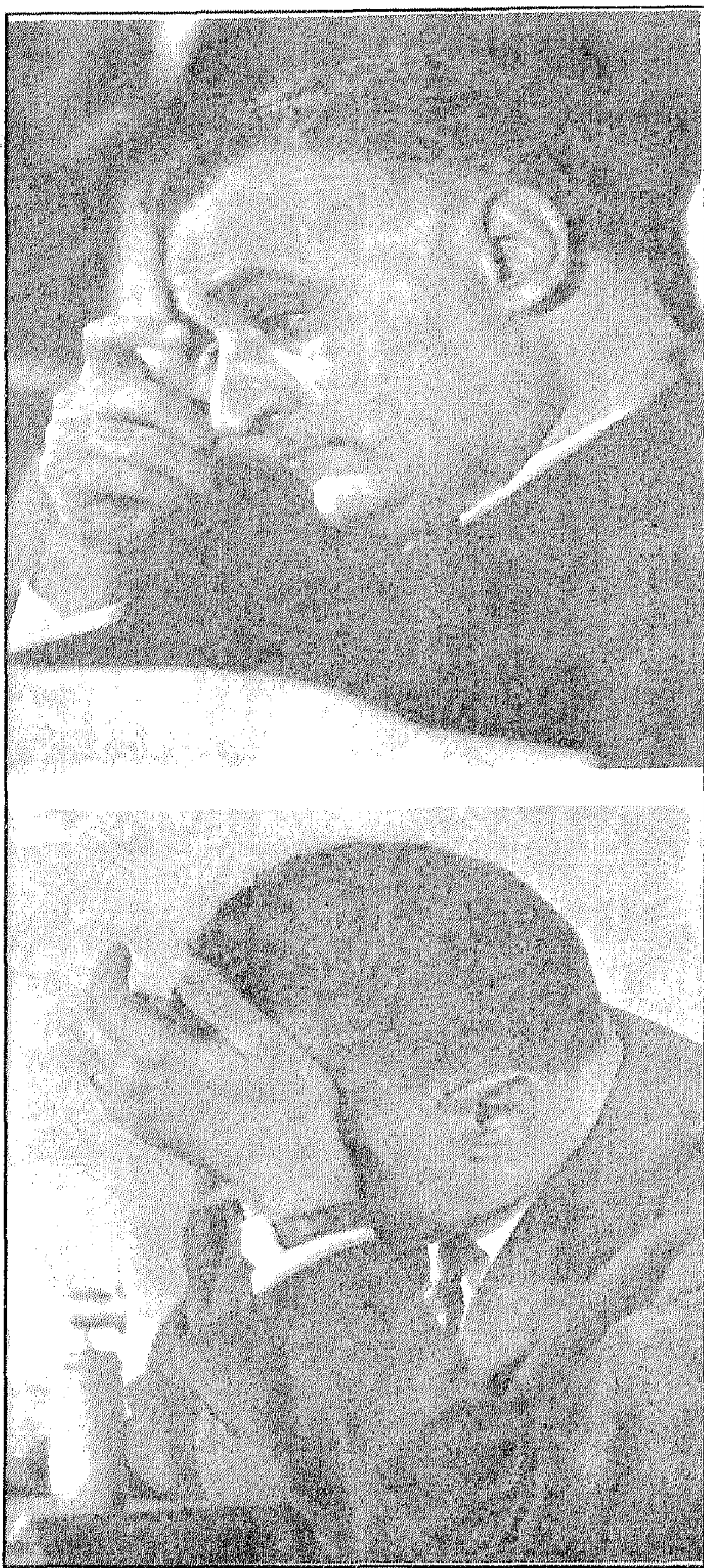
ومن هنا يمكن القول أن الأخطاء مشتركة سواء أكانت من النظم العربية الحاكمة أو التنظيمات الإسلامية فالأولى تترك بالكراسى والثانية تبحث عن مكان تحت

الشمس ، ولا يفهم المرء لماذا ترفض الحكومات العربية قيام أحزاب إسلامية وما هو الضرر إذا كانت العلاقة بين الأطراف يحددها الدستور والقانون بحيث يكون التعامل حضارى قائم على رأى والرأى الآخر ، ونعتقد أن الإسلاميين لو تمكنوا من قبولهم كأحزاب أو تنظيمات بين مجتمعهم لما لجأوا إلى لغة السلاح ، ونقول : فلتكن هناك أحزاب إسلامية ومسيحية ويمينية ويسارية وقومية ... إلخ على أساس أن الوطن للجميع ، ولكم تمنيت على إخواننا فى حركة حماس أن يتبعوا دبلوماسية وهدوء المرحوم أحمد الشقيرى مؤسس منظمة التحرير القائل (لا أكون لنا فأعصر ، ولا صلبا فأكسر) .

ولقد كان الرجل صادقا فى جهوده وفيما قاله عن سلوك الحكام العرب وتعاملاتهم ، ولهذا فهو أراد ألا يكون لنا ولا صلبا فى التعامل مع الحكام العرب إلا أنه كان مرغما على التعامل معهم ، لأنه أولا صاحب قضية تأمرت عليها دول وحكومات ، ولأنه مسؤولا عن شعب لاجئٍ مشقت فى أنحاء المعمورة ، وكذلك لأنه عمل فى دهاليز منظمة الأمم المتحدة وبالتالى عرف كيف يكون العمل الدبلوماسى والسياسى وحتى أعمال الخفاء كحالة المخابرات ، ومن رأى أنه كان يجب أن يكرم بين أهله على ما أدى من أعمال .



يرى جمال عبدالناصر فى سيناء على قمم جبل موسى يوم ١٥ أبريل ١٩٤٨ فى استطلاع ميدانى مع بعض ضباط كلية أركان الحرب ، وبعد رحلة الاستطلاع هذه بشهر واحد عاد إلى الميدان مقاتلاً من أجل فلسطين ، وهناك (كما قال) أدرك أن الميدان الحقيقى لتحرير الإنسان فى القاهرة وليس فى غيرها ، وعلى أرض فلسطين بدأ تنظيم تنظيمه الذى قام بالثورة سنة ١٩٥٢ م .



لقد كانت فلسطين شغل عبدالناصر الشاغل في كل وقت



ومن أجل فلسطين أيضا جمع الملوك والرؤساء العرب في مؤتمر طارئ في
العشرة الأواخر من شهر سبتمبر لحقن الدماء العربية وإيقاف آلة تال بين المنظمات
الفلسطينية والجيش الأردني ، وكان له هذا اللقاء من ياسر عرفات أثناء انعقاد
المؤتمر ، وكان آخر لقاء ، وقد توفاه الله بعد ثلاثة أيام من هذا اللقاء ، وبعد أن تمكن
من حقن الدماء في عمان ؛ رحمه الله رحمة واسعة .

نعود لوضع الأحزاب فى مصر ورأى عبدالناصر فيها أو فى قياداتها إذ ربما كانت هناك استثناءات بسبب الظروف القاسية الطويلة التى مرت بها البلاد والقيم والأبنية الاجتماعية الموروثة .

يقول جمال عبدالناصر :

حينما قامت الثورة اتصلنا بالأحزاب وقلنا لهم ، أن هدفنا هو إقامة حياة نيابية سليمة، وسألناهم رأيهم فى التخلص من الإقطاع الزراعى والتقريب بين الطبقات .

تناقشوا فيما بينهم ثم عادوا وقالوا لنا ، إننا لا نقبل توزيع الأرض ولا تحديد الملكية ، ولكن نقبل زيادة الضرائب ، هذا يزيد دخل الحكومة وبهذا يمكنكم تحقيق أغراضكم ، قلنا لهم إنه ليس من أغراضنا أن نفرض الضرائب ولنا طلاب ثروة ، بل كل ما نبغى هو تحرير الفرد ، ولا يمكن أن يتحرر الوطن الكبير قبل أن يتحرر الفرد ، إن تحرير الأرض يحزر الفرد من كل أنواع الذل والاستعباد والإقطاع ، كيف يشعر الفلاح الذى يعمل عند الإقطاعى ؟ أنه حر وهو تحت رحمته يطرده هو وأولاده من الأرض متى شاء ، من أجل هذا صممنا على تنفيذ الإصلاح الزراعى ، لنحقق للفرد الحرية والعزة والكرامة ، لقد كنا نئن من الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى ، ولهذا فإن الأحزاب القديمة لن تعود ، وإذا كانت الثورة قد تسامحت معهم فلأنها ثورة بيضاء ، تأخذ روحها من روح هذا الشعب السمح الكريم ، الثورة قائمة مستمرة ، فهى ثورة الشعب ضد الذين استغلوه (٧٣) .

ويقول شوقى عبدالناصر فى كتابه (ثورة عبدالناصر) نقلا عن عبدالناصر ، ما يلى :

وكان ما حدث يوم ٢٣ يوليو هو ثورة ، والثورة إذا لم تغير وجه المجتمع لصالح الشعب ، وإذا لم تقتلع الفساد وتعيد الحق إلى أهله صارت انقلابا واستبدال لحاكم بحاكم ، والثورة إذا انحازت إلى جانب الأغنياء والجشعين صارت انقلابا وحكما وتجارة بمقدرات الناس ، ولم تكن الثورة لكى تعيد الحق إلى أهله أن تطلب ، ولكن لكى تعيد الحق كان عليها أن تأخذ وتعطى ، وكان واجبها الثورى أن تعيد لمصر حقوقها المنهوبة ، وأن تعيد للعامل والفلاح حقه المسلوب ، وأن تعيد للشعب ، كل الشعب شرفه وكرامته .

(٧٣) خطاب الرئيس جمال يوم ٣ يوليو ١٩٥٥م فى مجمع حمادى بمناسبة توزيع بعض الأراضى .

وهل كان من الممكن أن تقول الثورة للإنجليز (والنبي علشان خاطرنا اخرجوا من مصر ؟)

وهل كان من الممكن للثورة أن تقول للإقطاعيين (والنبي علشان خاطر الفلاحين الغلابة اعطونا الأرض لنوزعها عليهم ؟)

وهل كان من الممكن للثورة أن تقول للاحتكاريين والمغامرين والصوص (والنبي ادونا البنوك والشركات والمصانع المنهوبة لتعود ملكا للشعب ، كل الشعب ؟)

وهل كان للثورة أن تقول لأصحاب قناة السويس المزعومين (والنبي الشركة دي بتاعتنا وبتاعت أجدادنا ونحن ورثتهم فاعطوها لنا ؟)

وهل كان للصوص أن يعيدوا ما سرقوه طوع ؟

وهل كان من العقل والمنطق أن يطيع هؤلاء ويقدمون ما يطلب منهم على (طبق من فضة ؟) .

ويتحدث مرة أخرى عبدالناصر في رد على سؤال قائلا :

قلت للذي سألني ، لو أنني سمحت للأحزاب أن تعود الآن ، فماذا تكون النتيجة ، (وكان هناك في السابق عشرون حزبا) أغلب الظن أنني سأجدها ثلاثة أحزاب :

أحدها : يدعو للتحالف مع الغرب ، وسيكون عماده بعض الإقطاعيين والرجعيين .

وثانيها : يدعو إلى التحالف مع الاتحاد السوفيتي ، وسيكون عماده من الشيوعيين ..

أما الحزب الثالث فسيكون الحزب الذي ينادى بسياسة عدم الانحياز والحياد الإيجابي .

وستكون بين الثلاثة معركة عنيفة تمزق وحدة بلادنا ، فهل هذا ما نريده ؟

إن جوابي بالطبع لا ، وفي تحليله للوضع ورؤيته لمستقبل البلاد في ظل النظام الثوري الجديد يقول جمال عبدالناصر :

(إنه لا بد من إحداث تغيير جذري في الخريطة الاجتماعية لمصر والتي كانت قد وصلت إلى أقصى درجات انحدارها في عام ١٩٥٢م لقد كان الحكم غارقا في

الفساد بأقصى درجة ، والحكم هنا يشمل كلا من القصر أو الملك وحاشيته والحكومة وقيادة الأحزاب التي انشغلت بمعاركها الخاصة وتجاهلت المصلحة الوطنية العامة ، وكانت المعركة محتدمة بين المجموعات الفدائية وبين الإنجليز في منطقة قناة السويس ، لكن الحكومة وعناصر الإنجليز داخل البوليس السياسى المصرى كانوا يساهمون في اعتقال الفدائيين والقبض على العناصر الوطنية من السياسيين من كل الاتجاهات وتزايد حالة السخط الشعبى بسبب الضغط الاجتماعى والمعيشية والتي أدت فى بعض الأحيان إلى انقضاخ الفلاحين على قصور بعض كبار ملاك الأراضى فى الريف وتزايد ظاهرة الإضرابات التى شملت كل الفئات من طلبة وعمال بل وشملت أيضا إضرابا لضباط البوليس تم فى حديقة الأزبكية بالقاهرة مرتين فى بداية الخمسينات ، ولجأت السلطة إلى استخدام العنف فتكونت مجموعات شعبية تبادل العنف بالعنف دفاعا عن أنفسهم مما هدد بدخول البلد فى مواجهة دموية لا تعرف نهايتها أو مصيرها ، وإحداث التغيير الجذرى فى الخريطة الاجتماعية لمصر لابد منه ، ولكن القضية الأساسية هى إحداث التغيير المطلوب من خلال بلورة عدد من القضايا العامة التى تنبثق عن دوافع وطنية بالدرجة الأولى لضمان توفير الإجماع حول القرار وضمان النجاح فى مرحلة التنفيذ ، ولو كنت طرحت منذ البداية قضية التحول الاجتماعى أو قضية القومية العربية لدخلت فى دائرة عقيدة من الجدل والاختلاف ، ولما أمكن تنفيذ الثورة أو الوصول إلى النجاح الذى تحقق فعلا فى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م لكن ما طرح فى البداية كان قضايا مثل ، الملك ، الفساد الإنجليز ، الإقطاع ، الأحزاب السياسية ، وهى كلها قضايا لا يختلف اثنان على ضرورة حسمها مهما كانت الأخطار ، ومهما اختلفت الميول ، والاتجاهات التى يتبناها أى مصرى وطنى .. انتهى (٧٤)

ولا يغيب عن الذهن أن الأمر كان واضحا ومحسوما فى فكر عبدالناصر ، فإذا كانت الثورة لابد أن تقتلع نظام الحكم السابق وعلى رأسه الملك فاروق فلا بد أن يشمل التنظيم أحزاب متخصصة ومتناحرة من أجل القضايا الخاصة والمصالح

(٧٤) سنوات وأيام مع عبد الناصر - سامى شرف - ٥٠

الآنية مع قليل من الاستثناء في البداية ، وحديث الرئيس جمال عبدالناصر يلتقى مع آراء كثير من أولئك الذين كتبوا في قضية الحكم السابق ووضع الأحزاب المصرية ، وهى القضية التى كانت مرتكزا للهجوم على حكم جمال عبدالناصر من قوى الداخل والخارج وبعض الذين يتغنون بالديموقراطية ولا يلتزمون بمبادئها ، نجد الأستاذ حمروش فى كتابه (قصة ثورة ٢٣ يوليو) الجزء الأول يقول :

(تمت الخطوة الأولى لاستيلاء الجيش على السلطة نتيجة ظروف متعددة وهى :

١- تمت حركة ٢٣ يوليو فى توقيت مناسب سليم كان الشعب قد وصل فيه إلى ذروة النقمة على الملك ورجال الحاشية وحكومات الأقلية التى عطلت الدستور عمليا ، واستندت إلى إرهاب الأحكام العرفية ، ولذا جاء استقبال الجماهير للحركة معبرا عن التأييد الكامل مشجعا الضباط الأحرار على مواصلة السير فى الطريق .

٢- أحزاب الأقلية كانت لافتات تضم فريقا من الإقطاعيين وكبار الرأسماليين بعيدا عن ساحة الشعب ، ولذا فإنها مع ظهور الحركة لم تعد أحزابا منظمة ، وإنما تحولت إلى شخصيات يسلك كل منها سبيلا خاصا يدافع به عن نفسه وعن مصالحه ولو على حساب الآخرين وهذه الانهيارات كشفت للضباط مدى التفسخ والتمزق الذى كانت تعاني منه هذه الأحزاب ، وسقطت بعض الأسماء الكبيرة بتصرفات صغيرة .

٣- احتفظ الوفد بوحدته ولم يحدث له مثلما حدث فى أحزاب الأقلية ، ومع ذلك ظل موقفه صريحا وغير واضح ، يؤيد الحركة فيشجعها على الاستمرار ، ويرقب الاعتداء على الدستور ولا يشن حملة شعبية حول ذلك ، ولعله كان حذرا لعدم قدرته السير فى اتجاه مضاد للتيار الشعبى المتدفق المؤيد للحركة والذى كان يضم بالتأكيد جماهير الوفد الممثل فى القوى العاملة التى طال بها الحرمان ، ولذا لم تشعر الحركة بجدية المعارضة ، أو صلابة الموقف المسئول .

٤- كان نجاح حركة ٢٣ يوليو هو فرصة الإخوان المسلمين الفريدة للسيطرة على الحكم والسلطة ، فقاداتها ليسو غرباء عن تنظيمهم ، بل إنهم نشأوا فيه واستمر بعضهم به ، وواصل البعض الآخر علاقته الطيبة بهم ، والإخوان

يعتبرون أنهم شاركوا في نجاح الحركة عندما كلفوا بعض أعضائهم المسلحين بحراسة دور العبادة وبعض المرافق العامة وأرسلوا فريقاً منهم إلى طريق مصر السويس واستنفروا قواتهم في منطقة القنال مساء ٢٣ يوليو بعد مقابلة جمال عبدالناصر وكمال الدين حسين لحسن عشناوى وصالح أبورقيق قبل يومين من الحركة ، وشجع موقف الإخوان المؤيد وهم ثانی التنظيمات السياسية انضباطاً وجماهيرياً ، شجع ضباط الجيش على الاستمرار في مسيرتهم وذلك قبل أن تظهر التناقضات بينهم وبين الجيش في محاولة التنازع على مركز السلطة .

٥- وقفت حركة الديمقراطية للتحرر الوطني أكثر القوى الديمقراطية تأثيراً موقف التأييد لحركة ٢٣ يوليو منذ اللحظة الأولى ، وكان ذلك أمراً طبيعياً فالمنشورات كانت تطبع عندهم ومعظمها يكتب بأيدي الضباط المنضمين إليها ، والمعتقلون الشيوعيون أفرج عن بعضهم ، وشجع هذا الموقف أيضاً ضباط الحركة على الاقتناع بأنهم لا يجابهون معارضة من أي اتجاه ، انتهى (٧٥).

٦- لقد تناول الكتاب المصريون قضية الأحزاب كل من وجهة نظره كما رأينا من كتابات حمروش وعلى الرغم من أن الأحزاب فعلاً كانت خاوية ومتنافسة على المصالح وإرضاء النظام القائم قبل الثورة ، لكن المؤكد أن جمال عبدالناصر كان على بينة وإدراك لوضعها كما هو الحال ربما مع رفاقه في الحركة ، ونجد كاتباً آخر تناول هذا الموضوع على الشكل التالي :

اقتضى ظهور الأحزاب ظهور المؤسسات الإعلامية اللازمة للدفاع عن وجهة النظر الحزبية ، وكان ذلك أساس نشأة الصحف الحزبية البورجوازية وظهور الأقلام البورجوازية ، وظهور الفكر البورجوازي ، فقد اقتضى تأليف الحزب الوطني القديم ظهور جريدة تعبر عن رأيه ومصالحه ، فكلف الحزب أديب إسحق صاحب جريدتي (مصر) و (التجارة) اللتين أبطلهما رياض باشا بإنشاء جريدة في باريس اسمها (القاهرة) حملت على رياض حملات شعواء ورمته بالظلم والاستبداد والرغبة في بيع البلاد للأجانب ، وأطلقت عليه اسم (رياضستون)

(٧٥) قمة ثورة ٢٣ يوليو - أحمد حمروش - ص ٢٤٦ - جدير بالملاحظة أن الكاتب كان عضواً في الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدثو) وهو كذلك أحد الضباط الأحرار.

وعندما أخذ مصطفى كامل يباشر نضاله ضد الإنجليز أسس (اللواء) فى يناير ١٩٠٠م كما أسس أقطاب حزب الأمة أشهر الجرائد التى حملت فكر البورجوازية المصرية ، وهى (الجريدة) التى كان يحررها فيلسوف البورجوازية المصرية الأكبر أحمد لطفى السيد ، وقد بلغ من فاعلية هاتين الصحيفتين وغيرهما من صحف ما قبل الحرب العالمية الأولى فى مناوأة الإنجليز وتعبئة الجماهير المصرية ضدهم ، أن أطلق على هذا الطور من أطوار الحركة الوطنية المصرية اسم (الطور الصحافى) وبعد الحرب العظمى ، ومع انتعاش الحركة الوطنية على يد الوفد المصرى ظهرت الصحف التى تعبر عن وجهات نظر فرق البورجوازية المصرية المختلفة ، وكانت (السياسة) ومحررها الدكتور محمد حسين هيكل تعبر عن وجهات نظر حزب الأحرار الدستوريين ، بينما كانت (الأخبار) لأمين الرافعى تدافع عن وجهة نظر الحزب الوطنى ، أما الوفد فكانت تتبنى وجهة نظره صحف عديدة ومن أهمها (البلاغ) و (كوكب الشرق) و (المصرى) و (روز اليوسف) وبرزت الأقلام الوفدية الكبيرة ، مكرم عبيد وعبدالقادر حمزه وأحمد حافظ عوض وفاطمة اليوسف وعباس محمود العقاد ومحمد صبرى أبو علم ومحمود سليمان غنام ومحمد التابعى وأحمد نجيب الهاللى وغيرهم ، ويستمر الكاتب فى تعداد صحف الأحزاب وهى كما قال تعبر عن نفسها ، أنتهى (٧٦) .

هكذا كان الحال ، رأى جمال عبدالناصر فى الأحزاب والتنظيمات ووسائل إعلامها ، وكذلك هكذا كان وضع الأحزاب وقياداتها ، وكان لابد من إجراء إما وفاقى أو تأديبى ، ولما لم يتم الوفاق حدث الثانى ، ولو حدث الوفاق والاتفاق لكان ربما أنفع وأفيد للثورة وللأحزاب والبلاد ..

٤ - رأى عبدالناصر فى حرية الشعب :

حرية الشعب ، تعبير قاله جمال عبدالناصر كثيرا وتحدث به فى كثير من المناسبات كأنما هو جزء من ذاته وحلم يراوده فى منامه وصحوه ، ولكن هل تحقق هذا الحلم فى ربوع دولته على الرغم من أن عهده كان قصيرا ؟ وما الذى يعنيه

(٧٦) كتاب الصراع الاجتماعى والسياسى فى مصر - د. عبد العظيم رمضان - ٢٤ .

بحرية الشعب ؟ هو من عائلة متوسطة الحال وقد عاش بين الناس العاديين فى مصر شمالها وجنوبها وشرقها وغربها ، ولا بد أنه أحس بمعاناة الأغلبية الساحقة من أهله وشهد على أحوالهم وشاهد تعاظمهم فى وقت كانت فيه القلة القليلة تأخذ من كل طيبة أكثر مما يحتاج ويصل إليها خبزها مغموسا بالسمن والعسل (كما تقول الأمثال) وقد طبق عبدالناصر على نفسه وأهله وذويه ما كان يراه عيشا بسيطا كما هو الحال بالنسبة لمتوسطى الحال فى مصر ، والواقع أن الحرية التى أرادها لم تكن فقط حرية العيش ، ولا هى حرية الإنسان المصرى فقط حتى كانت الحرية بمعناها الكامل ، وإنما أراد الحرية لكل أمته العربية من المحيط إلى الخليج (وربما) تلك واحدة من أسباب متاعبه خلال كل فترة حكمه ، ولقد رأينا عبدالله إمام وهو الذى كان صوت حق ضد الباطل فى الدفاع عن مواقف وآراء جمال عبدالناصر يقول :

(فى خطاب جمال عبدالناصر وفى سنة ١٩٥٦م وفى حملة عبدالناصر من خلال التعبئة للاستفتاء على أول دستور بعد الثورة ، وعلى رئاسة الجمهورية لأول مرة بعد الفترة الانتقالية شرح عبدالناصر مفهوم الحرية السياسية كما يراه ، وكان ذلك قبل الميثاق ، فقال ، إننا ظللنا سنين لم تكن فى مصر حرية سياسية ولا ديمقراطية ، وكانت تتمتع بها طبقة معينة ، إن كل ما وصلنا إليه اليوم وكل هدفنا من نظام الحكم الجديد هو أن نمنع استغلال الرجعية واستغلال الانتهازية لهذه الحرية السياسية حتى لا تستخدم ضدنا وضد مصالحنا ، الحرية السياسية لا يمكن أن نبيعها ونمكّن منها أعوان الاستعمار ، إذن الحرية السياسية ، هى أن كل بلد يطبقها بما يلائم مصالحه وبما يلائم ظروفه وبما يلائم الطبيعة - الحرية السياسية إذا قيدت فيجب أن تقيد لصالح المجتمع على الرغم أنه فى واقع الأمر لا توجد حرية سياسية كاملة ... إلخ (٧٧) .

وفى حديثه عن الشعب ، أو حرية الشعب ، ومن هو الشعب ؟ قال : أنا شفت الشعب اللى إحنا كلنا طالعين منه ، شفت العمال الزراعيين وشفت عمال التراحيل وشفت الفلاحين ، شفت العمال السهرانيين شفت مخلة العيش الناشف

(٧٧) عبد الناصر المفترى عليه - عبد الله إمام - ٢٤ .

والبصل ، وشفت قدرة المش ، وشفت الرجلين الخافية المشقوقة والعينين الزايغه من الجوع ، شفت عمال التراحيل عريانين ملط لغاية ما يغسل الشوال اللى هو لابسـه فى الترعه ، طبعا كل واحد من الشعب عرف هذا الكلام ، إن ما نطلبه اليوم هو حق هؤلاء الناس ، حق العمل حق الكادحين والمطحونين .. ويقول : هى العين تعالى على الحاجب ؟؟

نعم هذا مفهوم الحرية للشعب لدى جمال عبدالناصر ، إنها حرية رغيف العيش ، حرية أن تكون للإنسان كرامة ، ولقد صدق سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه حين قال (والله لو كان الفقر رجلا لقتلته بسيفى) ويقول عبدالله إمام فى كتابه (عبدالناصر كيف حكم مصر) نقلا عن لسان سامى شرف ما يلى ردا على سؤال ، ما هى الحرية لدى عبدالناصر ؟

قال : منذ ١٩٥٦ تستطيع أن تقول أنه كانت هناك خطوات لمشاركة الجماهير بتطبيق الأبعاد الاجتماعية لحرية المواطن بمعنى توسيع التعليم ثم مجانيته الكاملة، ومجانية العلاج وحق الانتخاب للمرأة وتخفيض سن الإدلاء بالصوت إلى ١٨ سنة ، هذه عناصر جوهرية حكمت تجربة عبدالناصر، بدأت منذ ٥٦ فى جانبها الاجتماعى ، الذى يتمشى مع فلسفته ، فى حرية التعبير وربطها بالبعد الاجتماعى وهو ما تبلور نهائيا فى سنة ١٩٦١ حيث انتقل إلى مرحلة متقدمة أكثر وهى العمل على منع الاستغلال وغير ذلك ، وقال أن الطريق أمامى طويل لن ينتهى إلا عند القضاء على استغلال الإنسان للإنسان ، ومن هنا بدأ جمال عبدالناصر يفكر فى إبراز الرأى الآخر فى إطار تحالف قوى الشعب العاملة ، ونص الميثاق على إنشاء التنظيم الطليعى وكانت فكرته أن تكون النواة الأولى للحزب الإشتراكى تهييدا للفكر الذى تطور بعد ١٩٦٧ إلى ما أعلنه عبدالناصر من ضرورة قيام حزبين أو ثلاثة سياسية ، وهذا ما كتبه جمال عبدالناصر بخط يده فى ملفه الشخصى ، وما ناقشه مع العديد من المسؤولين ، وكان يرى مع عام ٧٥ أن تقوم فى مصر تعددية حزبية ، ولقد كان بيان ٣٠ مارس هو المقدمة الطبيعية لهذا التطور فى المستقبل . انتهى .

٥- رأى عبدالناصر فى الدين والسياسة :

الحديث عن الدين أو عن أى معتقد أمر حساس جداً خصوصا إذا استخدم الدين فى القضايا السياسية ويحدث حينئذ الخلط فى مخاطبة غرائز الناس دون

عقولهم ، وفي حياتنا اليومية نحن في العالم الثالث يسهل علينا تصنيف الناس ودمغهم بمختلف النعوت إذا صار بيننا أى خلاف دينى أو سياسى أو فكرى أو حتى اجتماعى ، ونلاحظ أنه عندما حدث الخلاف بين جماعة الإخوان المسلمين ومجلس قيادة الثورة المصرية نعتوها فى شخص جمال عبدالناصر بأبشع الأوصاف بل هم كفروا رجالها بعد أن كانوا يطلقون عليها اسم (الحركة المباركة) ويمكن لنا أن نجد بعض العذر لهم أو لغيرهم فى حالة الخلاف السياسى وليس الدينى ، فعبدالناصر فى رأيهم أوجد المبررات لهدم الإسلام والتنكيل بالمسلمين ، وأنه تلقى الأوامر من المخابرات الروسية والمخابرات الأمريكية الكافرة فى وقت واحد بأن يفعل ذلك !! ومن يراجع أدبيات الثورة بما فيها خطب عبدالناصر وممارساته وكما جاء فى الميثاق وفلسفة الثورة يجد أن هؤلاء الذين يتهمونه بالكفر أو الخروج على الإسلام إنما غرضهم سياسى مصلحى ، ولنا فى الميثاق الدليل البين ، يقول:

(وكان الفتح الإسلامى ضوءاً أبرز هذه الحقيقة وأثار معالمها وصنع لها ثوبا جديدا من الفكر والوجدان الروحى ، وفى إطار التاريخ الإسلامى ، وعلى مدى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، قام الشعب المصرى بأعظم الأدوار دفاعا عن الحضارة الإسلامية) (٧٨).

(وفى فلسفة الثورة قال : ثم تبقى الدائرة الثالثة ، الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتى قلت : إنها دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة ، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات ، ولقد ازداد إيمانى بمدى الفاعلية الإيجابية التى يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامى بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة السعودية لتقديم العزاء فى وفاة عاقلها الراحل الكبير^(٧٩) ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام ، ثم وجدتني أقول لنفسي ، يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج لا يجب أن يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة إلى دخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذجة لشراء

(٧٨) الميثاق - ص ٣٩ .

(٧٩) المقصود الملك عبد العزيز آل سعود الذى توفى فى نوفمبر ١٩٥٣ م .

الغفران بعد حياة حافلة ، يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صور طريفة لقراء الصحف ، وإنما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ورجال الرأي فيها ، وعلمائها في كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها وملوك الصناعة فيها ، وتجارها وشبابها ليضعوا في هذا البرلمان الإسلامي العالمي خطوطا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معا ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام ، يجتمعون خاشعين ولكن أقوياء ، متجردين من المطامع لكن عاملين ، ومستضعفين لله ، ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم ، حاملين بحياة أخرى ، ولكن مؤمنين أن لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله في هذه الحياة ، إن هذه هي فعلا الحكمة الحقيقية في الحج ... إلخ (٨٠).

ودون الإفراط في الاستدلال سأقدم هنا مجموعة من القرارات التي اتخذها جمال عبدالناصر دعما وخدمة للإسلام والمسلمين وسترى أنها لا تخالف أي نص إسلامي ، وهي :

١ - مجانية التعليم .

٢ - قوانين الإسكان .

٣ - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٤ - إذاعة القرآن الكريم .

٥ - مدينة البحوث الإسلامية .

وفي مجال الخدمات :

١ - قوانين العمل .

٢ - تحديد الملكية الزراعية .

ثم نستدل بأراء بعض المفكرين الإسلاميين ، وتحديدًا :

١ - الرئيس أحمد بن بلا .

٢ - الدكتور محمد عماره .

(٨٠) فلسفة الثورة ، جمال عبدالناصر - ص ١٠٠ - ١١١ .

مجانية التعليم :

رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ، قال : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وإذا كان العلم فريضة في حديث نبوى فهو بالتالى كالصلاة ، فهل يدفع المسلم رسوما كي يصلى ؟ وهل يدفع مصاريف حتى يعبد الله ؟ لذلك فإنه محتمل على ولى الأمر المسلم أن يمكن الناس من فريضة العلم والتعليم ، وأستطيع القول بأن ساحة العلم التى فتحتها جمال عبدالناصر ، واستقبلت مئات الآلاف من أبناء مصر المحرومين من التعليم لم تلبث أن كانت سبباً رئيسياً فى تعاظم التيار الإسلامى وما كان لهؤلاء أن يعرفوا هذا التيار لولا فرصة العلم المجانى ، أو تحديدا ما كانوا يعرفوه على حقيقته وسماحته .

إنشاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية :

هذا الإنجاز الإسلامى فاق كل الإنجازات على امتداد العالم الإسلامى حتى الآن وهو الإنجاز الذى يقصد به أن يقرب المذاهب ومفاهيمها إلى بعضها ، وذلك الخلاف أو الاختلاف كان يمثل الفتنة الكبرى ، وفى رحاب هذا المجلس انعقد المؤتمر الأول لعلماء المسلمين والذى ضم ممثلين للمذاهب الإسلامية الثمانية (الحنفى ، المالكى ، الشافعى ، الحنبلى ، الجعفرى ، الزيدى ، الأباضى ، الظاهرى) ولأول مرة فى تاريخ العالم الإسلامى يتفق علماء هذه المذاهب فى رحاب القاهرة عام ١٩٦٢م على إصدار موسوعة الفقه الإسلامى وهى التى عرفت بقرار العلماء باسم (موسوعة ناصر للفقه الإسلامى) وأعدت خطة عمل لبحث جميع أبواب المعاملات على المذاهب الثمانية لفتح الباب أمام الأجيال لتعرف ما هو المتفق عليه وما هو المختلف بشأنه وهى أكبر حركة عقلية فى تاريخ الإسلام بعد حركة المعتزلة ، وقد نشرت أول مطبوعة على نفقة وزارة الأوقاف المصرية وهى كتاب (المختصر النافع فى فقه الإمامية) ... إلخ .

إنشاء إذاعة القرآن الكريم :

وهو القرار الذى يتكفل بتعطير الأثير بآيات الله البينات ، والذى مكّن كل راغب فى الاستماع إلى كتاب الله وتعلمه وحفظه أن يتلقاه من كبار الشيوخ ، وهو الذى تسابقت على تقليده الدول الإسلامية بعد ذلك ، وصار فى كل دولة

إسلامية إذاعة للقرآن الكريم ، وتطبيقا لحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام :
(من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، فإن عبدالناصر
وهو مصدر القرار سوف يثاب على قراره بقدر ما كان للقرار العظيم أثر عظيم .

إنشاء مدينة البعوث الإسلامية :

وهو القرار الهام الذى أكمل فلسفة تطوير الأزهر الشريف بإنشاء مدينة للبعوث
الإسلامية ، وهنا نتذكر أن الأزهر ظل طيلة ألف عام ونيّف قبة أبناء المسلمين من مختلف
أرجاء العالم الإسلامى يأتون إليه رجالا وعلى كل ضامر ، فيستقبلهم فى أروقه
المتواضعة وغير المريحة ، فصارت مدينة البعوث الإسلامية التى أقيمت على مساحة هائلة
فى قلب القاهرة تتضمن عشرات المباني المناسبة التى تتسع لآلاف الطلاب والتى يجدون
فيها طيب المقام بما يجعل إقبالهم على دراستهم تاما وخالصا للعلم والدين ، وكما كان
ومازال الأزهر الشريف ومدينة البعوث الإسلامية يستقبلان صفوة أبناء العالم الإسلامى
الراغبين فى العلم والدين (٨١) .

ومن الدراسات القيمة عن منهج عبدالناصر فى دعم الإسلام والمسلمين هذه
دراسة نشرت للرئيس أحمد بن بلا ، يليها دراسة للمفكر الكاتب الإسلامى
الأستاذ محمد عمارة ، نشرتا فى كتاب (الناصرية والإسلام _ الصادر عن مركز
إعلام الوطن العربى) ...

يقول الفلاسفة : إننا نعيش فى زمن (الشك المذهبى) وكثيرون يعتقدون بأن
(الله قد مات) قتيل العلم والتكنولوجيا والعقلانية والتطور ، الشك باعتباره منهجا
معياريًا لكل تأمل فلسفى ليس شيئا جديدا هو الشك المنهجى ، المتشائم عمدا ، والمتولد
عن غرق الأيديولوجيات والمنظومات فى الغرب ، لكن هل تبرر مثل هذه المعاينة حكما
أكثر تعميما يؤكد (موت الله) فى غير الغرب وفى كل مكان ؟

صحيح بمعنى من المعانى أن الثورة الصناعية التى أدت إلى تركيز اقتصادى
وسياسى متعاضمين دوما مضافين لأن حافتهما ، ميلاد عقلانية مبتذلة تشكل خلفية
النظام كله ، تعطى الأفضلية للكمى وللعلوم الدقيقة زعما ، كل ذلك جعل من المصنع

(٨١) الناصرية والإسلام - العقالى - ص ٣٦٥ .

كاتدرائية لدين جديد ومن الربح الأصل لكنيسة جديدة ، لكن من يستطيع أن يزعم بأن هذا قد نجح تماما في الغرب نفسه ؟ ظاهرة جان الثانى ، وجماهير الشباب الفقيرة المتدافعة لتحيته ، وإشعاع بعض الكنائس فى أمريكا الوسطى والجنوبية التى انحازت للعدل ، وأكثر من ذلك أيضا ، ما يجرى وراء الستار الحديدى فى الجمهوريات الإسلامية أو فى بولندا مثلا ، سيما فى أوكرانيا وغيرها ، ألا تدحض مثل ذلك الحكم ؟

من جهته عاش عالم الإسلام ومازال يعيش على هامش مثل هذا القلق ، على هامش مثل أزمات الضمير هذه ، كان الله فى عالم الإسلام حاضرا دائما ، إنه حاضر فى الأفعال الكبرى كما فى حركات وسكنات الحياة اليومية الأقل شأنًا ، بينما الله اليوم غائب عن الاهتمامات الجوهرية للكثيرين فى الغرب ، فإن العالم الإسلامى يحيا ، وخاصة عند الشباب ، فترة من الحماس الدينى لا مثيل لها منذ عقود من السنين .

الانحطاط السياسى الذى أصاب العالم الإسلامى أدى أحيانا إلى الحديث عن انحطاط الإسلام ، وهذا الالتباس فقط يدل على جهل كبير بالإسلام ، لم يتأثر الإسلام جديا بانحطاطه السياسى ، أنه لم يتخل عن حدوده الجغرافية الموجودة إبان تدمير عصابات المغول لبغداد عاصمته السياسية والروحية .

تقييم الانحطاط السياسى نفسه ينبغى أن يعاد فيه النظر ويصحح جديا ، فالخلافة العثمانية ظلت زمنا طويلا بدون نظير فى قلب أوربا نفسها حتى سنة ١٦٨٣م كما ينبغى أن يصحح على الصعيد الثقافى ، فالحضارة المنغولية الباهرة لم تخرب إلا فى القرن الثامن عشر بسبب التغلغل الاستعماري الإنجليزى ، ألا يعيد اسم أكبر إلى الذاكرة أبهة حضارة مازال بريقها المعماري يثير العجب والإعجاب حتى اليوم ؟

مثل هذه الأخطاء مصدرها الخطأ الشائع الذى يخلط فيما يتعلق بالإسلام بين الزمنى والروحى ، وحتى فيما يخص الانحطاط الزمنى فمن الخطأ تأريخه بسقوط بغداد فى ١٢٥٨م تشبته انطلاقا من الانحطاط السياسى للإسلام العربى من مساوى مثل هذا الخطأ محو خمسة قرون من التاريخ .

ما كاد حكم خلفاء أكبر يتهاوى وما كاد تقدم العثمانيين يصد حتى ظهرت أفكار جديدة فى العالم العربى ، فقد ساعد حكم محمد على فى مصر على بزوغ حركة الإصلاح الدينى والثقافى والنهضة مع ظهور جمال الدين الأفغانى وستبلغ الموجة عبر أمواج متعاقبة تخوم الإسلام لتحبيه حتى أيامنا هذه ولتركز فى إيران مع الثورة الإسلامية ، بينما الشباب فى كل مكان من أرض الإسلام يتدفق على المساجد مطالباً باستعادة هذه المساجد لوظيفتها القديمة كخليفة حية توجه حياة مجتمع يستظل بنور الإيمان بالله .

حركة إصلاحية أخرى تستمد تعاليمها من نفس مصدر حركة النهضة (ابن تيميه) كانت قد ظهرت قبل ذلك فى قلب الجزيرة العربية نفسها ، ، هذه الحركة قادها رجل بارز هو محمد بن عبد الوهاب ، عرفت فيما بعد باسم (الوهابية) لكن هذه الحركة بعد أن أحيت كثيراً من الآمال بقت هامشية بينما أخصب فكر جمال الدين الأفغانى إخصاباً دائماً العالم الإسلامى ، هذه المساجد التى لا تفرغ وهذه المنارات المتكاثرة الشاخصة نحو السماء ندين بها أولاً لتعاليم جمال الدين الأفغانى .

جمال الدين الأفغانى هو فكر تجسد فعلاً ، لقد كان شحنة أنعشت جسد الإسلام ، لكن رسالة الإسلام وكذلك الهوية الروحية والثقافية والسياسية لإسلام الانحطاط السياسى بقت عالقة فى قلوب من آمن به ، لكى لا تفارقها أبداً ، حتى عندما يكون هذا الإيمان غير معاش بشكل كامل وغير مضطلع به على نحو صحيح .

سجلت سنة ١٤٩٢م إلى جانب سقوط غرناطة حدثاً هائلاً مع بداية مغامرة لا نظير لها بالنسبة للغرب لكن أيضاً بداية انحراف سيقوى على مر السنين والقرون ، تطور يجسده ويرمز إليه تصريح العالم الفرنسى (لابلاس) بخصوص الله مؤكداً أنه لم تعد له به حاجة كافتراض فى منظومته الفكرية .

كانت أوروبا عند اكتشاف أمريكا تتحكم فى ٩% من الكرة الأرضية ، ولحظة انهيار الإمبراطورية المغولية فى الهند كانت تتحكم فى ثلثها ، وباتت تتحكم فى ثلثى الكرة الأرضية بعد مؤتمر برلين والاقسام الاستعمارية للكرة الأرضية حوالى سنة ١٨٨١م وعشية الحرب العالمية الأولى كانت القارة الأوربية تسيطر على ٨٥% من أراضي القارات الخمس .

إله الغرب :

مع ميلاد هذا العام الجديد ظهر إله جديد ، هو الرأسمالية التجارية التى أعقبتها الرأسمالية الصناعية التى ستولد منها الإمبريالية ، مثل هذا النظام لا يسمح بالوجود الدائم لإلهين اثنين فى نفس الوقت ، وقد تم هذا على حساب الإله الأول ، الأداة التى تغلبت عليه اسمها البراديجم أو النموذج ، هذه الشريحة المقسمة فى الحقيقة والتى تحفر وتثقب بدون هوادة كمشقب العظام ، أدى كل هذا إلى نجاحات مدوخة ، نزل الإنسان على سطح القمر ، تراجع المرض تراجعاً مشهوداً ، اختفت الأوبئة أو كادت ، انتشرت المعرفة بكثافة على الأقل فى نصف الكرة الغربى ، وبغض النظر عن مضمونها ، أما الحسنات المادية فمن ذا الذى يتجاسر على إنكارها .

لكن يا لفداحة الثمن الذى دفعه الإنسان والطبيعة معا ! ، وبثمن أى تبذير سفيه ؟ لأن هذا الإله الجديد ينفث سم الأناية التى بلغت مدى لم تبلعه قط من قبل ، لقد اعتاد تاريخ الإنسانية على التضحيات الفردية والجماعية التى قامت على مذبح الطموح و (المجد) لكن هذا الإله سيفتال عرقاً بكامله ، العرق الأحمر ، شمال وجنوب أمريكا ، وسيجعل البيض الوافدين من أوربا يستأثرون بأرض الهنود الحمر ، والذين استطاعوا منهم البقاء لم تكتب لهم الحياة إلا بانطوائهم فى تخوم غابات الأمازون ، أو بحشرهم فى حظائرهم الخاصة التى ليس بإمكانهم مغادرتها لأقرب مدينة لهم إلا إذا كانوا حاملين لجوازات سفر داخل نفس الأرض التى كانت قديماً (موطنهم) من بقى حيا من هنود أمريكا لا حق له فى الحياة إلا فى سراديب موت جديدة وحتى هنا فهم مازالوا مطاردين ، ولكى يقطعوا نسلهم ها هم يحقنونهم وينشرون بينهم الإدمان على الكحول .

ملاحظة : الرئيس ابن بلا يولى اهتماماً كبيراً بالجانب الإنسانى (ربما) فى موازاة مع الجانب الدينى وقد رأيناه هكذا بعد سنوات السجن الطويلة ، مع الأسف ، فى بلاده الجزائر التى ناضل من أجلها طويلاً ، ولهذا لم نكمل المقال عن الهنود وغيرهم من المحرومين بحيث نورد الجانب الدينى كما يلى :

فى مواجهة العلم والتكنولوجيا والعقلانية وتطور (الشك المنهجى) عند الفلاسفة الجدد ، أليس الإسلام فى هذا السياق ملجأ ؟ محاولة للتعلىق بالماضى

أمام الحضارات الاجتماعية والثقافية التي لم يسبق لها نظير على وجه هذه الأرض، أسألوا أنفسكم ، إذا كان علينا أن نتحدث عن ملجأ ، فإنه ينطبق أكثر ما ينطبق على هذا الجزء من الشباب الغربى الحائر الباحث عن دين جديد ودخيل ، وعن آلهة جديدة ، الإسلام لا يرفض استخدام العقل ، وهذا تحصيل حاصل وإنما هم يرفضون استعمال العقلانية للعقل ، وبالمناسبة فمن المفيد التذكير بأن (الكوجيتو) (أنا أفكر أنا موجود) قد صاغها حرفيا تقريبا الغزالي أى قبل ديكارت بأكثر من خمسة قرون ، وليس من المستبعد نظرا لشهرة الغزالي فى أوروبا يومئذ أن يكون ديكارت قد أخذها عنه ، لكن الغزالي قد استخدم (الكوجيتو) استخداما مختلفا قاده إلى التصوف ، ثم ينتهى ابن بلا إلى القول ، فى حين أن الله قد طرد من الحياة فى الغرب وحل آلهة آخرون محله ، فإن الغالبية العظمى من المسلمين لا تعترف إلا بإله واحد، إله الإسلام، وهو نفس إله أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين ..

قدرة الإسلام على تعبئة الناس فى اتجاه التقدم لا تحتاج إلى برهان ، فالتاريخ يشهد علينا بوضوح من وجهة شعبنا نحو التحرر غير الإسلام ، أليس افتراء على الكلمات أن ننسب للقومية معنى غير معناها الحقيقى عندنا، عندنا فى الجزائر ، فى المغرب ، فى تونس فى ليبيا ، فى مصر ، فى السودان ، وفى كل مكان من دار الإسلام فى مواجهة كل التحديات الخارجية وخاصة التحدى الاستعماري والإمبريالي ، وعندما كانت جميع قناعاتنا تهتز وجميع أحلامنا تتلاشى ، ألم يكن آخر ملجأ لنا الذى هو غالبا رمز النصر هو (الله أكبر) الذى يحيى الهمم الخاملة ويزيل الخوف من القتال ، فى حرب رمضان كما فى غرة نوفمبر ١٩٥٤ م ، كما فى زمان الأمير عبدالقادر من حرب الريف إلى حرب الحاج عمر فى أفريقيا السوداء ، من حرب المهدي فى السودان إلى حرب عمر المختار فى ليبيا .. انتهى (٨٢) .

وإذ كان. أحمد بن بلا قد تناول الإسلام التقدّمى فى هذا المقال فهو يعنى تمام كيف التزم جمال عبدالناصر بهذا المنهج ، وأنا شخصيا وكل من تعامل أو عرف الرئيس أحمد بن بلا يعرف موقفه من حكم جمال عبدالناصر وتقديره لكل أعماله، بل لقد رأيناه فى كل مناسبة علنية يقول أنه ناصرى حتى العظم .

(٨٢) الناصرية والإسلام - أحمد بن بلا - ص ٣٥٦ .

ولقد كان جمال عبدالناصر واضحا كوضوح شمس النهار فى قضية الإسلام مبدأ وعقيدة ، وها هو يؤكد ذلك فى الميثاق حيث يقول (وكان الفتح الإسلامى ضوءاً أبرز هذه الحقيقة وأثار معالمها وصنع لها ثوبا جديدا من الفكر والوجدان الروحى ، وفى إطار التاريخ الإسلامى ، وعلى هدى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، قام الشعب المصرى بأعظم الأدوار دفاعا عن الحضارة الإسلامية ، ثم كان قد تحمل المسؤولية الأدبية فى حفظ التراث الحضارى العربى وذخائره الحافلة ، وجعل من أزهره الشريف حصنا للمقاومة ضد عوامل الضعف والتفتت التى فرضتها الخلافة العثمانية استعمارا ورجعية باسم الدين ، والدين منها براء .. انتهى (٨٣) .

ثم نلتقى بالمفكر الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ محمد عماره يقول بعنوان، هل كان عبدالناصر علمانيا ؟ :

فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٤م وإبان الصراع بين الثورة والإخوان المسلمين يخطب عبدالناصر فيقول : هم يقولون القرآن دستورنا ، ونحن نخلع الملك ، ونقضى على الفساد ، والظلم الاجتماعى ، ونحقق الجلاء ، فهل هذا الذى نعمله خروج على القرآن ؟ فالخلاف بين الفريقين ليس على القرآن ، بل إن ما بينهما هو مزايدة على القرآن !

وفى ٢٢ مارس ١٩٦٦م أثناء المرحلة الثانية من الصدام العنيف بين الثورة والإخوان ممثلين فى تنظيم المرحوم سيد قطب ، يخطب عبدالناصر فيقول ، لم تكن الرجعية أبدا شريعة الله ، ولكن شريعة الله كانت دائما هى شريعة العدل ، فأين هى العلمانية عند عبدالناصر الذى يقول أنه والثورة الملتزمون بشريعة الله ، وليس الإخوان المسلمين ؟ !

وفى ٢٢ فبراير سنة ١٩٦٢م يخطب عبدالناصر فى ذكرى وحدة مصر وسوريا فيقول : إن الإسلام ثورة ، والتضامن الإسلامى تحتاجه الشعوب ، وعن ذات القضية يتحدث فى خطاب ٢٨ مايو ١٩٦٢م قائلا ، بالنسبة للروابط الإسلامية ، إحنا طبعا أشرنا فى (الميثاق) إلى الإسلام والروابط الإسلامية ، ولقد أشير إلى هذا من أول يوم من أيام الثورة فى كتاب فلسفة الثورة ، فأين هو ذلك

(٨٣) الميثاق الوطنى - جمال عبد الناصر - ص ٤١ - ٤٢ .

التحول عن الروابط الإسلامية ؟ واستغراقها في الوحدة العربية (الأكثر علمانية)
كما يقول الدكتور لويس ؟

ولقد التزم عبدالناصر، والتزمت الثورة بالتصور الذي تحدث عنه كتاب (فلسفة الثورة) حول الدوائر التي تتحرك فيها مصر وهي (الدائرة الوطنية، فالدائرة العربية، فالدائرة الإسلامية، وهي دوائر يسلم كل منها للآخر دوتها تناقض أو تضاد، ولم تكن الوحدة العربية في فكر الثورة ولا في ممارساتها نهاية المطاف، ولا الدائرة التي تلغى روابط الجامعة الإسلامية والتضامن مع عالم الإسلام، وفي هذا المعنى يقول جمال عبدالناصر في خطاب ٢٧ مايو ١٩٦٧م إن الأمة العربية لا ترى أي تعارض بين قوميتها العربية المحددة وبين تضامنها القلبي والأخوي مع الأمم الإسلامية، أي أن الأمة العربية بقواها التقدمية الثورية لا ترى في الإسلام عائقا عن التطور، بل تراه، بحس وإيمان، دافعا لهذا التطور ..

من الذي يستطيع أن يغفل دلالة زيادة تركيز عبدالناصر على دور الدين في عملية إنهاء الأمة لمواجهة الهزيمة التي حلت بها في يونيو ١٩٦٧م ؟ لقد عاش عبدالناصر السنوات التي أعقبت الهزيمة ولا هم له أكبر من بناء القوة الضاربة القادرة على تحقيق النصر وإزالة عار الهزيمة، والذين يطالعون خطبه وأجاديده وخاصة إلى الجنود والضباط يلمسون التركيز على دور الإيمان والتدين في هذا العمل الكبير الذي ختم الرجل به حياته، ففي حديثه إلى الجنود والضباط يوم ١٠ مارس ١٩٦٨م يقول، غاوز كل عسكري يكون مؤمنا بالدين وبالمبادئ والقيم، ولازم التوجيه المعنوي يعمق هذه المبادئ، ويسجل عامل الإيمان بالله أساسيا في توعية الجندي، وهذا الإيمان الذي يملأ قلب كل واحد يدفعه ألا يتردد في وقت الشدة، وقد لمستم ذلك في المعركة وعشتم أيامها، وأدركتم قوة المبادئ والإيمان .

وفي خطابه في اليوم التالي ١١ مارس ١٩٦٨م يتحدث عن عوامل النصر فيقول، بالإرادة والإيمان بالله والثقة بالنفس والتدريب والجهد وبالعلم نستطيع أن نحيل الهزيمة إلى نصر، بل إننا لواجدون في فكر الثورة ما يقطع بوعيتها بقيام العلاقة بين الدين الإسلامي وبين الدولة، الأمر الذي يجعل الحديث عن علمانية هذه الثورة وقائدها ضربا من التزييف لحقائق الفكر ووقائع التاريخ، ففي المذكرة

الإيضاحية لقانون تطوير الأزهر رقم ٦٠٣ بتاريخ ٢٢ يوليو ١٩٦١م نقرأ هذه العبارة ذات الدلالات الهامة ، إن الإسلام في حقيقته لا يفرق بين علم الدين وعلم الدنيا إنه دين اجتماعي ينظم سلوك الناس في الحياة ليحيوا حياتهم في حب الله عاملين مؤثرين في المجتمع في ظل طاعة الله ، والإسلام يفرض على كل مسلم أن يأخذ بنصيبه من الدين والدنيا ، فكل مسلم يجب أن يكون رجل دين ورجل دنيا .

فهذه العبارات التي تضمنتها هذه الوثيقة الرسمية من وثائق حكومة الثورة حاسمة لا في نفي العلمانية بمعنى فصل الدين عن الدولة فقط وإنما هي حاسمة في نقض العلمانية وفي العداء لها ، وفي كلمات عبدالناصر نجد ذات المعنى ونفس الموقف ، ففي خطابه يوم ٢٨ يوليو ١٩٦٣م يقول : فيه ناس بيقولوا إن الإسلام دين رجعي ، وأنا أقول أبدا ، الإسلام دين تقدمي ، هو دين التطور والحياة ، الإسلام يمثل الدين ويمثل الدنيا ، لا يمثل الدين فقط ، الإسلام هو دين العدالة الاجتماعية ..

وعندما تخرج إذاعات بعض الدول العربية المناوئة لعبدالناصر تتهم على اعتماد الثورة وقائدها على الفكر الإسلامي ، يتناول عبدالناصر هذه القضية في ذات الخطاب يوم ٢٨ يوليو ١٩٦٣م فيعلن أن علاقة الدين بالدولة في وطن الأمة العربية هي حقيقة تاريخية ، وأن هذه الأمة على امتداد تاريخها لم تمكن لحاكم خارج على الدين من السلطة والسلطان في بلادها ، ثم يقول : على طول عمر المنطقة كانت قد تمسكت بالدين ، وطول عمر هذه المنطقة العربية دافعت عن الدين ، وطول عمر هذه المنطقة تدافع عن الدين ، ولم تمكن أي خارج عن الدين من أن يكون صاحب سلطان فيها ، فأين هي العلمانية يا ترى ؟ تلك التي يتحدث عنها الدكتور لويس ، وأين وجدها ؟ وما هو ذا فكر الثورة من خلال فكر قائدها ، ومن خلال وثائقها القانونية شاهد صدق وعدل على نفيها للعلمانية ، بل وعدائها لمضمونها الأساسي ، وهو فصل الدين عن الدولة ؟!

وأكثر من فكر الثورة في نفي العلمانية تقوم (ممارساتها) والواقع الذي ورثته وطورته وأضافت إليه ، مع الحفاظ على طبيعته ، وكلها شواهد على أن الحديث عن علمانية مصر الناصرية هو ضرب من تزييف حقائق الفكر ووقائع التاريخ ، فمنها :

- ١ - المساجد الجديدة التى ارتفعت مآذنها فى سماء مصر الثورة تنفى عنها العلمانية .
 - ٢ - والنمو الملحوظ فى ميزانيات الأوقاف شاهد ثان من شهود الواقع على إسلامية مصر الثورة .
 - ٣ - وقيام منظمة المؤتمر الإسلامى شاهد ثالث .
 - ٤ - والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وسلاسل الكتب التى أصدرها وأنشطته بين الشباب المسلم شاهد خامس .
 - ٥ - والمراكز الإسلامية التى أقامتها مصر الثورة وأنفقت عليها خارج حدودها شاهد سادس .
 - ٦ - والعداء للفكر المادى ومنع تدريسه للبعثات التى ذهبت للتدريس فى المجتمعات الماركسية شاهد سابع .
 - ٧ - واهتمام الإذاعة المسموعة والمرئية بالفكر الإسلامى شاهد ثامن .
 - ٨ - والتوسع فى التعليم الإسلامى من خلال الأزهر وجامعته ومعاهده شاهد تاسع .
- وهذه شواهد تضاف مع مثيلاتها الكثير ، إلى فكر الثورة وقيادتها لتجسد لنا حقائق الفكر ووقائع التاريخ فى مصر ثورة ٢٣ يوليو ، وهى الحقائق والوقائع التى نقول : لقد كان المشروع الناصرى مشروعاً قومياً يلى فى التاريخ ويتمثل فى الأهمية مع مشروع محمد على باشا وسابقه مشروع الناصر صلاح الدين الأيوبي (١١٣٧ - ١١٩٣) وهذا المشروع الناصرى وإن لم يكن إسلامياً خالصاً فإنه بالقطع ليس علمانياً ، وإنما هو خطوة على درب الإحياء لذاتية الأمة الحضارية ، ولخصوصيتها المتميزة ، وهى ذاتية وخصوصية يمثل الإسلام الحضارى جوهرها ، إحياء هذه الذاتية وإبراز هذه الخصوصية فى مواجهة الغرب وفكرته العلمانية وتحدياته التى فرضها على وطن العروبة وعالم الإسلام ، من هنا فإن هذا المشروع الناصرى هو خطوة هامة من الناحية الموضوعية نحو (أسلمة) الحياة والنهضة فى عالم الإسلام ، ومن هنا جاءت مواجهة الغرب لهذا المشروع على نفس المستوى الذى واجه به المشاريع النهضوية التى سبقته على درب النهضة والتحرر والإحياء .

تلك هي حقيقة المشروع الناصري الذي قال عنه الدكتور لويس عوض أنه الحقبة العلمانية الرابعة في تاريخ مصر الحديثة انتهى (٨٤).

ولعله من تحصيل الحاصل أن نقول إن خلاف الإخوان المسلمين مع عبدالناصر وثورته ما كان إلا من أجل الحكم والمصالح الآنية ولا شيء غير ذلك ، وأن اتهامهم لعبدالناصر بمخالفة الإسلام إنما هو زور وبهتان ولا علاقة له بما تتخذه الثورة من قرارات وإجراءات ، فهذا منظر الجماعة (سيد قطب) يقول في كتابه معركة الإسلام والرأسمالية نادى فيه بما يلي :

(تحديد الملكية بشكل واضح وصريح بل وتطرف إلى القول ، بأن الملكية الزراعية في مصر تقوم على أسس غير شرعية لأنها ثمرة امتيازات الطبقة الحاكمة وأذئاب الاستعمار والقروض الربوية ، وأنه إذا تم مصادرتها على الإطلاق وليس التحديد فقط ، فلا تواجه تلك المصادر مأزقا شرعيا ، ويستمر في القول محذرا من تعويض كبار الملاك عما يؤخذ منهم من أراض تجاوز ما سوف يحدد حيث قال ، إننا إذا دفعنا لهم تعويضا حولنا الإقطاع الزراعي إلى إقطاع رأسمالي وليس في هذا مصلحة الشعب .. انتهى .

يجدر بنا هنا أن نتساءل ، أ يوجد ما يبرر الخلاف على أساس هذا التفكير بين الثورة والإخوان أي بين عبدالناصر والإخوان المسلمين ، فإذا كان منظرهم (سيد قطب) ينادى بالتأميم بل والمصادرة وعدم التعويض فأى خلاف يمكن أن يظهر معهم حول قانون الإصلاح الزراعي مثلا ؟ فإذا كان الرد بأنه لا يجب أن يكون هناك أى خلاف بناء على رأيهم هم أنفسهم ، فإنه لا شيء آخر يمكن أن يفسر تهمهم ومعاداتهم لعبدالناصر وثورته غير السلطة والحكم ، بل هم كانوا قد رفضوا حتى المشاركة في الحكم ببعض الوزراء وإنما اشترطوا استشارتهم في كل شيء بما في ذلك إصدار القوانين ، يعنى فرض الوصاية على الثورة .. ويذكر أن حق ملكية الأراضى الزراعية من وجهة نظر جمهور الفقهاء الإسلاميين هي وظيفة اجتماعية يحسن أن تعالج في إطار مصلحة المجتمع وفي إطار عدم تراكم الثروة ،

(٨٤) عن الناصرية والإسلام - محمد عمارة - ص ١٥٩ .

تحقيقاً للهدف القرآنى فى قوله تعالى ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الحشر - ٧] .. لقد تعلمنا عبر كل مراحل التاريخ أنه ليست الوصاية أو المشاركة ممكنة أو مقبولة من جانب أولئك الذين يقومون بأعمال تاريخية كبيرة كالثورة والتغيير الاجتماعى والسياسى فلا يعقل أن يقدموا بالمجان هالات المجد على غيرهم ، وهو أمر طبيعى فى حياة البشر .



جمال عبدالناصر مع القرآن فى رحاب الأراضى المقدسة ، اداء فريضة الحج

وهى فريضة على كل مسلم ومسلمة



الفصل السابع

- ١- معركة السد العالي وتأمين قناة السويس .
- ٢- النصر السياسى فى المعركة .
- ٣- الوحدة مع سوريا ، فوائد وخسائر .
- ٤- دوافع وأسباب الانفصال .
- ٥- لماذا الميثاق الوطنى ؟

الفصل السابع ،،

١- معركة السد العالي وتأمين قناة السويس .

٢- النصر السياسى فى المعركة .

٣- الوحدة مع سوريا ، فوائد وخسائر .

٤- دوافع وأسباب الانفصال .

٥- لماذا الميثاق الوطنى ؟

يقول الميثاق ، عن أصداء النصر الذى حققه الشعب العربى فى مصر لم تقتصر على آفاق المنطقة العربية ، وإنما كانت التجربة الجديدة الرائدة آثارها البعيدة على حركة التحرر فى أفريقيا وفى آسيا وفى أمريكا اللاتينية .

إن معركة السويس التى كانت إحدى الأدوار البارزة فى التجربة الثورية المصرية لم تكن لحظة اكتشاف فيها الشعب المصرى نفسه ، أو اكتشفت فيها الأمة العربية إمكانياتها فقط ، وإنما كانت هذه اللحظة عالمية الأثر رأت فيها كل الشعوب المغلوبة على أمرها أن فى نفسها طاقات كامنة لا حدود لها ، وأنها تقدر على الثورة ، بل إن الثورة هى طريقها الوحيد .

فى هذا الفصل بدأنا استدلالا بما جاء فى الميثاق فقط لأنه منهج العمل الذى سارت عليه ثورة عبدالناصر فى طريقها الوعر والذى بثت فيه آلاف الألغام فى مصر والعالم العربى وما يحيط به والتى فجرت تباعا لتدخل مصر وعبدالناصر فى حروب ومآسى لم تتوقف ، وفى هذا يجب علينا أن نشير إلى أن جمال عبدالناصر منذ البداية ألزم نفسه بتأييد الشعوب المناضلة من أجل الحرية والاستقلال والوقوف مع الثورات العربية أولا والعالمية ثانيا ، وفى هذا الالتزام كان عليه أن يستخدم إمكانيات مادية وعسكرية وإعلامية لم تكن لتتوفر له وقتئذ ، إضافة إلى أن بعض الحركات أو الثورات والانتفاضات قامت فى مناطق شعوبها لم تكن قد تهيأت لتغييرات مدوية كحالة (لومومبا) فى الكونغو ، و (السلال) فى اليمن ... إلخ

وعلى الرغم من أن تلك الإمكانيات لم تتوفر له فقد فاتته فرص التراجع (وهو من النوع الذى لا يتراجع) وكان الثمن باهظا ، ورغم أن الأعمار بيد الله فإنه يمكننا القول إن تحقيق الوحدة مع سوريا قد بعث فيه أمل كبير (وسنفصل فى هذا الموضوع) فى حين أن الانفصال قد أهدر آخر قطرة من دمه ! ..

وإذا كان أول بند فى هذا الفصل عن السد العالى ويلىه تأميم قناة السويس وهما موضوعان مرتبطان وقد قيل وكتب عنهما الكثير فلا نود أن نفصل فيهما غير اعتبارهما نقطة بداية ، يقول الأستاذ عبدالله إمام عن مشروع السد العالى :

(على أن من أهم ما أسفر عنه وجود مجلس الإنتاج القومى هو ما قرره لجنة من الخبراء العالميين فى اجتماعها يوم ١٥ نوفمبر ١٩٥٤م من إنشاء أكبر وأهم مشروع فى مصر بالقرن العشرين وكانت اللجنة مكونة من (المستر كارل ترزاكى والمستر مستول من الولايات المتحدة الأمريكية ، والمسيو أندرى كوين من فرنسا والهر ماكس بروس من ألمانيا الغربية والمستر لورنج شرادب من أمريكا ، ثم انضم إليهم يوم ١٨ نوفمبر المسيو أنسى الفرنسى ، وفى ٢٦ نوفمبر انضم إليهم الهر مور الألمانى .

كانت هذه لجنة الخبراء العالميين الذين درسوا مشروع السد العالى وحددوا مكانه واختاروا موقعه وصمموا قطاعاته ، وكان يشاركونهم فى العمل فى جميع مراحل خبراء مصريون ، ويلاحظ أن لجنة الخبراء التى درست مشروع السد العالى وأقرته ليس فيها سوفيتى واحد ، فهى لجنة ضمت أكبر الخبراء فى أمريكا وألمانيا الغربية وفرنسا .

وقد درست اللجنة تكاليف المشروع وتأثيراته على الإنتاج الزراعى والإنتاج الصناعى ، كل إيجابياته وكل آثاره الجانبية ، وفى ٤ ديسمبر ١٩٥٤م قدم الخبراء تقريرا موحدا أجمعوا فيه على صلاحية مشروع السد العالى .. انتهى وبقيّة القصة معروفة فقد تراجعت أمريكا عن وعدّها وكذا بريطانيا والبنك الدولى ، بل لم يكتف وزير خارجية الولايات المتحدة بقرار سحب الوعد الأمريكى وإنما تطوع بالتشكيك فى قدرة الاقتصاد المصرى على مواجهة ما يترتب على هذا المشروع ، ويذكر أنه قال (إن أمريكا قد عرفت تكاليف الأسلحة التشيكية وتكاليف السد

العالي وهذا سيكون حملاً كبيراً على الاقتصاد المصري وهو يرتاب الآن أن مصر ستكون قادرة على أن تدفع ثمن الأسلحة وتكاليف بناء أكبر سد في العالم (وشتت وسائل الإعلام الأمريكية والغربية في وقت واحد حملة تشكيك في الاقتصاد المصري وفي قدرة مصر على مواجهة تلك التكاليف ، وكان على جمال عبدالناصر كما أشرنا سابقاً أن يرد بما يتناسب مع الموقف المستجد وما يحفظ لمصر كرامتها ، وهكذا أقدم على إجراء خطوة هزت أركان الغرب الذي لم يعتد على مثل ذلك الرد، ومن هنا بدأت المواجهات الحقيقية بين رجل يريد أن يبنى بلده ويخدم أمته وبين دول لا تستسيغ من يرفض أو يرد ما أشارت به ، أمم الرئيس جمال عبدالناصر قناة السويس وتحدث عن المرغوب والمرفوض ، في حين أراد الغرب ألا يوقف المشروع فقط بل أن يكسر رأس ما أطلق عليه ألقاب (الديكتاتور الصغير) و (هتلر الشرق) ... إلخ . ولقد قال عبدالناصر في خطاب التأميم يوم الثلاثاء ٢٦ يوليو ١٩٥٦ م وهو يقف في ميدان الحرية بالإسكندرية :

(لقد جاء الخبير المالي الأمريكي السيد (يوجين بلاك) إلى مكنتي وعندما جلس في مواجهتي تخيلت مسيو (دي ليسبس) الرجل الفرنسي الذي كان لديه تفويض بحفر القناة ، عندما زار الخديوي دي ليسبس ، (كرر عبدالناصر اسم ذلك الفرنسي لأنه كان قد أمر رجاله بالاستيلاء على شركة قناة السويس وتأمين جميع مرافقها والسيطرة على وثائقها ومستنداتها بمجرد أن يذكر اسم دي ليسبس عدة مرات) كانت الخطة مدروسة ومعالمها محددة لدى رجال عبدالناصر المنتظرين في السويس والإسماعلية ، هؤلاء الرجال الذين يتزعمهم المهندس (محمود يونس) قاموا على الفور بما كان مطلوباً عندما سمعوا الرئيس يذكر اسم (دي ليسبس) استمر عبدالناصر ، قرر مجلس الوزراء حل الشركة العالمية لقناة السويس الملاحية وكل الأجهزة الأجنبية الأخرى المرتبطة بالقناة ، وسيعوض حملة الأسهم طبقاً لأعلى سعر في سوق الأوراق المالية في القاهرة ، ستتولى وزارة التجارة المصرية إدارة القناة ، أن القناة ملك لنا (هنا ارتفع صوت عبدالناصر عالياً مجلجلاً بما يدل على التحدي) وسيكون دخلها ملكنا في المستقبل ، ولقد حفرنا القناة بأيدي مصرية ومات ما يزيد على مائة وعشرون ألف مصري وهم يحفرونها، وستؤلف شركة جديدة لقناة السويس وستعتمد من الآن وصاعداً على

قوتنا وعلى عضلاتنا ، وستكون القناة تحت إدارة المصريين ، (كرر كلمة المصريين عدة مرات) ثم قال ، هل تسمعوننى ؟ المصريين .. ثم أضاف عبدالناصر فى خطابه ، لقد عرضت علينا الولايات المتحدة وبريطانيا سبعين مليوناً من الدولارات كمساعدة فى بناء السد ، وأن الدخل السنوى لقناة السويس يبلغ مائة مليون دولار ، وفى مدى خمس سنوات سيكون لدينا نصف مليار دولار من قناتنا نستخدمها فى بناء السد .

وهكذا خلّص عبدالناصر بلاده من سرطان يسيطر عليها ويهددها بالموت البطئ ، وأعاد عبدالناصر لبلاده (مصر) قناتها التى حفرها أبناؤها على مدى عشر سنوات ، لقد كانت صيحة الحق مدوية فى أرجاء العالم ، وكانت غصّة فى حلق إيدن ودالاس وجى موليه وغيرهم فى الغرب ، احتجت بريطانيا ، وقالت فرنسا إن الرد لابد أن يكون بالسلاح ، أما دالاس فقال (إنها صفقة محزنة) أما عبدالناصر فقد كان يتلقى التهاني من كل مكان فيه نسيمات الحرية ، وكان موقف الاتحاد السوفيتى مشرفاً .

وإذ كان السد رمزا للثورة وصورة من صور التحدى والعزة الوطنية فقد تحدث عبدالناصر فى مناسبة بدء العمل فيه يوم ٩ يناير ١٩٦٠م قائلاً :

(أيها الأخوة هذا هو السد العالى الذى دارت من حوله المعارك وحارب من أجله الأبطال ، هذا هو السد العالى الذى شهد كل هذا الكفاح واستحق كل هذا الكفاح لا بسبب قيمته الذاتية فحسب بل لأنه أصبح كرمز لتصميم الأمة العربية كلها على أن تسير فى بناء وطنها الكبير المتحرر ، قيمته الكبرى أيها الأخوة تصميم بلدنا إننا نستطيع الصمود للعواصف ، وقد صمدنا للعواصف وعشنا فيها ثم عشنا بعدها ، صمدنا للعدوان وعشنا فيه ثم عشنا بعده ، هذه أيها الأخوة هى القيمة الكبرى للسد العالى بالنسبة للأمة العربية كلها ، إن الشعوب تقيم نصبها التذكارية تخليداً لانتصاراتها الكبرى وإننا لنعبر أن السد العالى هو النصب التذكارى لمعركة العرب وانطلاق القومية العربية لتحقيق دورها التاريخى ، دورها الإنسانى ، إنه تذكار أيها الأخوة يتناسب فى ضخامته ويتناسب فى فوائده ويتناسب فى آثاره مع عظمة الأمة التى أنشأته .

إنه تذكّار حيّ خلّاق وليس مجرد حجر أصم تلقى الزهور من حوله ، إنه حياة جديدة متجددة ، إنه قوة دافعة للتطور ، إنه عون وذخر وسند في معارك طويلة على طريق طويل من أجل تحقيق الأهداف العربية الكبرى . انتهى (٨٥).

ولقد تأكد حقيقة أن السد العالي كان ذخرا وسندا لمصر رغم كل حملات التشكيك التي جاءت بها أقلام مأجورة لا ترى الحقيقة ولا تعترف بالنتائج مهما كانت واضحة ، تأكد أنه ذخرا لمصر عندما أعلن علماء مصر أنه لولا السد العالي لكانت مصر قد عانت من الجفاف الذي ضرب القارة الأفريقية منذ قرابة عقدين من الزمان ، إضافة إلى ما وفر من كهرباء لأكثر من ثلاثة آلاف قرية مصرية ، ومع الأسف فقد شكك هؤلاء حتى في وجود الكهرباء لأن منهم من قال أن الفلاح قبل الكهرباء كان ينام مبكرا وينهض مبكرا ليعمل !!

ويقول الأستاذ محمد حسنين هيكل : الخطوة الأولى في مجال التنمية ، وقد كانت في مجال رد الفعل أكثر منها في مجال الفعل ، بدأ عبدالناصر يفكر في الطريقة التي يمكن بها وضع خطة كاملة للتنمية الاقتصادية في مصر ، وأقر توصية لمجلس الإنتاج في ذلك الوقت بأن يعهد إلى بيت خبرة أمريكي عالمي ، هو بيت (آرثر دوليتل) الشهير ، بإجراء مسح شامل لإمكانيات مصر الاقتصادية ، وكيف يمكن التخطيط لها تخطيطا شاملا ، وفي نفس الوقت كان جمال عبدالناصر يدرك أهمية قيام جهاز تخطيط وطني ، ومع أنه كان يعتقد أن التخطيط أرقام ، فقد كان يشعر في نفس الوقت أن التخطيط التزام أيضا ، كان ذلك في سنوات (١٩٥٣م - ١٩٥٤م - ١٩٥٥م) (وجاءت حرب السويس سنة ١٩٥٦م ، وكانت حرب السويس في حقيقتها حرب على التنمية في مصر ، فقد كان محورها هو السد العالي ، وكان تأميم القناة هو رد جمال عبدالناصر على سحب المساهمة الأمريكية البريطانية في السد العالي ، وعلى إحجام البنك الدولي إثر ذلك عن أن يقوم بتمويل المشروع .

وكان السد العالي هو التجسيد العملي لآمال عبدالناصر الطموحة في التنمية ، وكان بين حجج جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية وهو سحب المساهمة الأمريكية في تمويل السد ، هو أن مصر وشعبها وميزانيتها لا

(٨٥) مجموعة خطب عبد الناصر - المجلد الثالث .

تستطيع تحمل أعباء مثل هذا الحلم العملاق! وأثناء حرب السويس وبعدها أضاف جمال عبدالناصر إلى إمكانيات ووسائل التنمية عنصرين جديدين :

١ - قناة السويس وقيمتها الاقتصادية ودخلها .

٢ - مجموعة البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية التي كانت مملوكة للإنجليز والفرنسيين والبلجيكي ، وقد وضعت هذه المصالح تحت الحراسة في ظروف الحرص أولا ، ثم صدر قرار بتمصيرها ثانيا ، ثم تغير التمصير إلى التأمين ثالثا ، وكانت تلك أول نواة للقطاع العام يقوم بدور طليعى فى عملية التنمية .. انتهى (٨٦).

ولا أعتقد أننى فى حاجة إلى تفاصيل ما حدث فى عملية التأمين إذ إنها قلت وكتبت ، وربما يكون من المفيد أن نذكر بعض المعلومات عن القناة نفسها وقد أصبحت مصرية بالواقع والقانون والإرادة الوطنية الصادقة ، فالقناة تربط البحر الأبيض من جانب بورسعيد بالبحر الأحمر عند مرفأ السويس ، وهى تربط القارات الأربع (أوربا ، أفريقيا ، آسيا ، أستراليا) وطولها يبلغ ١٦٠ كيلومترا وأشرف على حفرها المهندس الفرنسى (فردينان دى ليسبس) بامتياز عقده خديوى مصر إسماعيل باشا مع الشركة ومدته ٩٩ سنة بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤م وكانت مصر تابعة للدولة العثمانية ، وقد بدأ العمل فى الحفر فى ١٧ إبريل ١٨٥٩م وانتهى فى ١٧ أكتوبر ١٨٦٩م وعمل فى حفرها آلاف المصريين سخرة حيث مات منهم أعداد كبيرة من العمل الشاق والكرباج والجوع .

النصر السياسى بعد السد والتأمين :

كانت قضية السد العالى أمل مصر فى التقدم والبناء وهدف ثورة جمال عبدالناصر فى العزة والاستقلال الحقيقى الناجز ، وكان تأمين قناة السويس الرد العملى البارز على القدرة والتصميم ورفض الخضوع للقوى العالمية التى أرادت إخضاع مصر وعبدالناصر ، وكان خطاب جمال عبدالناصر (حانحارب) فقد وقف شامخا على منبر الأزهر الشريف يوم الجمعة الأول من نوفمبر ١٩٥٦م

(٨٦) لمصر .. لا لعبد الناصر - ميكل - ص ١٠٥ .

وكانت إسرائيل قد بدأت هجوماها على الأراضي المصرية يوم ٢٩ أكتوبر ٥٦ ووجهت كل من بريطانيا وفرنسا إنذارهما المشؤوم يوم ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ م ، أعلن جمال عبدالناصر هناك ردا حاسما (حانحارب) وبذلك يكون قد حقق أول انتصار على التردد أو الخوف رغم ما كان يعرفه جيدا من خسائر في الممتلكات والأرواح ، ولقد انتصر ثانيا عندما وزعت أجهزته نصف مليون قطعة سلاح وبدأت مواكب الفداء تأخذ طريقها لردع الغزاة من شعب جدير بشرف النضال دائما من أجل الحرية والكرامة مكوّنا ملحمة جهادية في مواجهة بوارج وطائرات وكل أسلحة الأعداء ، وانتصر ثالثا عندما بث روح المقاومة في نفوس مواطنيه الذين يعلم علم اليقين أنهم لا يقبلون الضيم ، ولقد أراد الله القادر أن يجعل من عبدالناصر بطلا عالميا على إثر اندحار هذا الغزو البربري ، ولا بد أن عبدالناصر عند وقفته على منبر الأزهر الشريف كان يعرف صمود شعبه ضد الغزاة عبر كل مراحل التاريخ ، ونحن نستذكره وهو يقول في كتاب فلسفة الثورة (لقد أراد الله أن ينقذ الحضارة ويرد السلام إلى الأرض بأيدي المصريين ، فانتصرنا على المغول في موقعة (عين جالوت) من أرض فلسطين فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، ويضيف: ولم تكد مصر تفرغ من هم الحروب الصليبية حتى كان المغول الزاحفون من وراء سد الصين قد بلغوا في زحفهم حدود بلادنا ، بعد أن دمّروا في طريقهم إلينا بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ووطئت خيلهم بلاد الشام ، ولم يبق إلا أن يأكلونا كما أكلوا كل الأمم التي اعترضت سبيلهم منذ خرجوا من مجاهلهم يجتاحون البلاد بالويل والدمار ، ولقد توالى الانتصارات بعدئذ ، الانتصار السياسي في حرب السويس ، وكان انتصارا مضمخا بالدماء الزكية واندحر الغزاة حيث ارتفع عبدالناصر محليا وعربيا وعالميا وكان جديرا بذلك .

وعلى الرغم من مواقف بعض الرفاق في الدعوة إلى الاستسلام واتهام جمال عبدالناصر بأنه بعناده سيدمر مصر (كما فعل صلاح سالم رحمه الله) فلقد مثل عبدالناصر بذلك الموقف إرادة أمته العربية وشعبه المصري في ظرف كان صعبا ومرحلة كانت عصيبة ، ولقد أراد أن يقدم حياته فداء لأمته عندما سار في موكب عبر شوارع القاهرة متجها إلى الأزهر الشريف يركب سيارة مكشوفة تحت سماء تتر فيها محركات طائرات الأعداء ، فعل ذلك وهو يعلم مقدار الخطر لكنه

كان محاطا بألوف من شعبه المناضل يؤازرونه وهم يرددون قائلين : إن مصر مقبرة الأعداء مما زاده قوة وهو قوى، وعندما وقف على المنبر ليخاطب أناس متجهون بقلوبهم وأرواحهم إلى الكعبة لم يتردد ولا اهتزت نبرات صوته رغم الظرف الحالك السواد ذلك لأنه مؤمن بوطنه وأمته ، قال :

أيها المواطنون ، فى هذه الأوقات الحاسمة من تاريخ وطننا ، أتحدث إلى كل فرد منكم ، فى هذه الأوقات يتجه تفكيرنا جميعا إلى الوطن وسلامته وشرفه وكرامته إما أن نحيا حياة شريفة كريمة، وإما أن نحيا حياة زكية أو نموت بشرف ، كنا ننادى دائما بالسلام ، ونعمل من أجل رفاهية مصر ، كنا نقول نسالم من يسالنا ونعادى من يعاديننا ، لقد بدأت إسرائيل بالعدوان بلا سبب ، واتضحت أبعاد المؤامرة ، مؤامرة إنجلترا وفرنسا وإسرائيل بهجوم إسرائيلى مفاجئ يوم الإثنين ٢٩ أكتوبر علينا .

لم يكن هناك سبب للتأمر إلا الحقد من فرنسا وإنجلترا ، فى يوم ٣١ أكتوبر قدم إلينا إنذار بوقف القتال ، والانسحاب عشرة أميال من القناة ، كانت الملاحه مستمرة ومنظمة ، وكانت إسرائيل بعيدة عن القناة ، إذ كان الإنذار لمصر وحدها ، طبعا رفضنا الإنذار ، بدأت فرنسا وإنجلترا فى ضرب المطارات المصرية ، ثم بدأت الغارات البريطانية الفرنسية على القاهرة والإسكندرية ومنطقة قناة السويس ، ظهر أن خطتهم تدمير قواتنا المصرية الجوية ، وسحب جيشنا إلى داخل سيناء وتدميره هناك ، ثم احتلال مصر دون أى مقاومة .

كان لابد من اتخاذ قرار خطير نحبط به المخطط ، وأصدرنا قرارا للقوات المسلحة بأن تنضم إلى الشعب غرب السويس ، وبهذا أنقذنا قواتنا المسلحة من عزلها وتدميرها فى صحراء سيناء .

لقد أعلنت مصر دائما أنها ستقاتل دفاعا عن سيادتها ودفاعا عن الحرية والعزة والكرامة ، إننا نقاتل قتالا مريرا ، ولن نستسلم ، دفاعا عن شرف مصر ، دفاعا عن كرامة مصر ، دفاعا عن حرية مصر .

لقد صدرت الأوامر بتوزيع السلاح على الشعب ، ليكن شعارنا ، سنقاتل ولن نستسلم ، سنقاتل ، سنقاتل .. كان هذا فى يوم ١ نوفمبر ١٩٥٦م ، وبدأ الهجوم على بورسعيد .

دولتان كبيرتان استعماريتان ، إنجلترا وفرنسا تهاجمان بورسعيد بالأساطيل والطيران والقوات البرية ، نزلت القوات البرية في بورسعيد جوا وبحرا ، وقفت بورسعيد كلها وقفة الأبطال ، ولقد قاتل رجالها بشرف وفدوا الأمة العربية كلها .

لقد أكدت المعركة والصمود أن شرف الأمة العربية واحد ولا يتجزأ ، وأن العدوان على بلد في الوطن العربي إنما هو عدوان على كل البلاد العربية والأمة العربية ، ويقول جمال عبدالناصر ، يوم العدوان اتصل بي الملك سعود تليفونيا وقال لي : إن جيش المملكة العربية السعودية تحت تصرفنا ، وأن أموال المملكة العربية السعودية تحت تصرفنا ، وفي نفس اليوم اتصل الملك حسين تليفونيا وقال : إن الجيش الأردني مستعد لأي أمر تراه القيادة المشتركة ، وفي ذات اليوم اتصل بي الرئيس شكري القوتلي وعرض فتح جبهة ثانية للتخفيف عن مصر ، إن القومية العربية لم تعد كلاما يقال .. إن القومية العربية أصبحت عملا فعلا .



عبد الناصر من على منبر الأزهر الشريف يقف شامخاً متحدياً ويقول (حان حرب) ولن نستسلم وسننتصر بإذن الله لأننا نطلب حقاً، كان ذلك في يوم الجمعة ١ نوفمبر ١٩٥٦م ولقد انتصر بتأييد من الله وشعبه المصري وأمتة العربية (وإن كان النصر سياسياً) وإذا نظر إليه في الواقع كل منصف لعرف أنه نصر بكل المقاييس ، دولة صغيرة نامية ضد دولتين صناعيتين كبيرتين (بريطانيا وفرنسا) ومعهما إسرائيل .



بعد الحرب مباشرة سنة ١٩٥٦م وقد انتهت بهزيمة المعتدين اعتقد البعض أن
عبد الناصر سيمد يده طلبا للمساعدات ، فقال لا نقبل حسنة أو إحسانا .



آخر صلاة عيد أداها جمال عبدالناصر قبل وفاته بالجامع الأزهر الشريف

٤ - الوحدة المصرية السورية :

الوحدة (بنصب الواو وليس بخفضه لأن الخفض يعنى الانفراد) الوحدة قيل فيها وعنهما الكثير ويجب أن يقال الكثير ، فكل الوحدات العربية التى كان فيها جمال عبدالناصر يمثل (قلب الرحى) ندور حوله ونرمى عليه بأثقالنا ، فنحن نطلبها ونسعى إليها بإلحاح كأنما هى للدعاية فقط أو بسبب خوف ما ، ثم ننقلب عليها عند التطبيق إذا ما مست مصالحنا ، كما فعل مع الأسف الرئيس شكرى القوتلى فى الوحدة الأولى مع مصر فقد جاء إلى القاهرة الرئيس شكرى القوتلى لمناقشة جمال عبدالناصر فى الأوضاع العربية ووضع سوريا بشكل خاص وقال إنها تتعرض لضغوط كبيرة وكثيرة وأنه بناء على رغبة الشعب السورى يريد أن يعمل شيئاً مع القاهرة كأن تتحقق وحدة أو اتحاد بين البلدين من أجل حماية سوريا ، وبعد أن رجع إلى سوريا أعلن هناك أنه اتفق مع الرئيس عبدالناصر على نوع من الوحدة التى ستكون بداية لوحدة عربية كاملة ، وكان عبدالناصر قد أرسل قوة من الجيش المصرى إلى سوريا لترابط فى حدودها الشمالية من أجل حمايتها من التهديد التركى أو الغزو المتوقع ، وبعد ذلك اتفق البلدان على قيادة عسكرية مشتركة ، ثم تطورت الأمور إلى إقامة الوحدة العربية بين البلدين فى شهر فبراير ١٩٥٨ م وتسمت باسم (الجمهورية العربية المتحدة) وكما هو معروف كانت أول وحدة عربية بين بلدين عربيين مهمين فى التاريخ المعاصر ، ولقد تغنى كل العرب بها ترحيباً وتمجيذاً حتى أن الرئيس شكرى القوتلى تسمى باسم (المواطن العربى الأول) ولكن مع الأسف ما لبث أن انقلب على الوحدة وفقد هذا (اللقب الشريفى) بتأييده للضباط السوريين الذين فصلوا سوريا عن مصر بانقلاب تأمرى مدفوع الثمن وبالتالي صار شريكاً لهؤلاء الذين تأمروا على الوحدة وعلى الأمة العربية بدلاً من أن يبقى (المواطن العربى الأول) والمؤسف أنه مات بعد ذلك بشهور قليلة ، ولا بد أن كل العرب الذين قرأوا التاريخ المعاصر قد تذكروا أو توقّعوا تلك الأمجاد التى حققها القائد البطل (صلاح الدين الأيوبي) عندما وحد القطرين وقضى على الوجود الصليبي محرراً بيت المقدس بعد (مائة عام) من الاحتلال الصليبي الغربى ، تذكروا ذلك ورأوا فى عبدالناصر وشكرى القوتلى رمزين -حديدين لبعث أمجاد الأمة العربية بهذه الوحدة التاريخية ، ولقد ألقى الرئيس جمال عبدالناصر خطاباً ، قال فيه :

أيها المواطنون ، اليوم نهض الشعب العربى فى سوريا والشعب العربى فى مصر ليعلنا إرادتهما فى إقامة دولة جديدة قوية ، أيها الإخوة استطعنا أن ننشئ دولة قوية لأول مرة فى الوطن الذى كان قد احتله الأجنبى ، واليوم نشعر أن القومية العربية أصبحت حقيقة واقعة ، إننا ننظر إلى المستقبل ونحن مصممين على أن الماضى لن يعود ، وأن الأجنبى لن يعيدنا أو يستغلنا .

لقد شعرنا أن أعداءنا كانوا يعملون دائما على تقسيم الأمة العربية إلى دول صغيرة يستطيعون السيطرة عليها ، وشعرنا أن مصير كل دولة عربية يؤثر على مصير الدولة الأخرى وأننا فى حاجة ماسة إلى أن نقف صفا واحدا وأن نتحد ونقوى روابطنا الأخوية حتى نتمكن من القضاء على أطماع الدول المستعمرة وحتى نؤمن سلامتنا ... إلخ (٨٧) .

وتمت الخطوات التنفيذية لإقامة كل أجهزة ومؤسسات الدولة الجديدة ، انتخب جمال عبدالناصر رئيسا للدولة الجديدة انتخابا شعبيا ديمقراطيا وصار لكل إقليم مجلس تنفيذى يتولى شئونه ، وتحدث بعد ذاك عبدالناصر ليوضح مبادئ هذه الدولة باختصار شديد ووضوح أشد حيث قال :

لقد قامت دولة كبرى فى الشرق الأوسط ، ليست دخيلة فيه ولا غاصبة .
ليست عادية عليه ولا مستعدية .

دولة تحمى ولا تهدد .

تصون ولا تبدد .

تقوى ولا تضعف .

توحد ولا تفرق .

تسالم ولا تفرط .

تشد من أزر الصديق .

ترد كيد العدو .

لا تتحزب ولا تنحاز .

(٨٧) سجل خطب جمال عبد الناصر - المجلد الثانى - الأهرام .

تؤكد العدل وتدعم السلام .

توفر الرخاء لها ولمن حولها وللبشر جميعا ،، انتهى .

ويقول الأستاذ عبدالله إمام نقلا عن لسان الأستاذ سامي شرف حديثا مهما عن الوحدة والظروف التي مرت بها فيقول : إن تجربة الوحدة تستحق لن نقف عندها طويلا ، لأنها تمثل منعطفها هاما في تاريخ الأمة العربية لذلك فلا بأس من أن نتناولها في أكثر من لقاء ، ونتوسع في أسبابها وأيضا في مصيرها الفاجع ، فكما أنه كان للوحدة أثرا فقد ترك الانفصال جروحا في جسم الأمة العربية ، وسبب مضاعفات ربما مازلنا نعاني من بعضها حتى الآن .

لا بد أن تكون بدايتها منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية عندما كانت سوريا أول بلد مستقل وكانت بتراتها وتاريخها مؤهلة لتستكمل الدور الذي كان محور كفاحها القومي وهو الوحدة واسترداد كيائها الذي تم تفتيته بواسطة بريطانيا وفرنسا منذ معاهدة (سايكس بيكو) حتى الاستقلال ، ولكن ما إن تحررت سوريا حتى وقعت في صراع مستميت ، الإنجليز الذين كانوا يريدون وراثة فرنسا وضمها إلى الملك عبدالله لتقوم مملكة سوريا الكبرى التي تنضم للعراق ليحقق الهلال الخصيب (يا ليت ذلك حدث على الرغم من أنه كما قال المؤلف تخطيط إنجليزي إلا أنه مع ذلك يكون قد حقق وحدة ثلاث بلدان عربية وقتئذ) ثم بين الولايات المتحدة الأمريكية وكانت تريد وراثة فرنسا وبريطانيا وأن تبدأ بسوريا لتفك الحصار عن إسرائيل ، وبدأت سلسلة الانقلابات الأمريكية والانقلابات البريطانية المضادة وكانت سوريا أول تجربة لنقل انقلابات أمريكا اللاتينية، وهكذا تحول الاستقلال السوري إلى مأساة دامية - انتهى .

فيما يتعلق بانقلابات سوريا أذكر أنني قرأت عن أول انقلاب حدث هناك وقد دبرته المخابرات الأمريكية لصالح شركة (أرامكو) وتقول القصة (أن شركة أرامكو أرادت أن تمر خطوط نفط المملكة العربية السعودية عبر الأراضي السورية، وكان الملك عبدالعزيز آل سعود يكتب للرئيس شكري القوتلي طالبا الإذن بذلك وفي رسائله كان يخاطب الرئيس السوري بتعبير ، ابننا العزيز شكري القوتلي ، وكان الرئيس شكري يرد بتعبير ، والدنا العزيز جلالة الملك سعود ،

ورغم هذا الود في التعامل فإن الرئيس شكري القوتلي لم يستطع أن يحصل على موافقة البرلمان السوري من أجل الموافقة للشركة الأمريكية (أرامكو) بحيث تمرر خطوط نفطها عبر الأراضي السورية ، ومن هنا تقرر إحداث انقلاب يسمح ويعطي الموافقة لتلك الشركة - فدبرت المخابرات المركزية الأمريكية انقلاب حسنى الزعيم الذى وافق قبل مرور أسبوع على انقلابه للشركة الأمريكية تلك بتمير خطوط النفط عبر الأراضي السورية ، ومنذ هذا الوقت تعددت الانقلابات فى سوريا) نعود إلى عبدالله إمام وسامى شرف ، يقول : كانت العملية الكبرى التى تحالفت فيها الأطراف التركية والعربية والإسرائيلية والذى قادها (لوى هاندرسون) أحد أقطاب المخابرات المركزية فى عقد مؤتمر أنقره لإعطاء إشارة البدء للقوى التى كانت قد تمت تعبئتها فى الداخل وتم تمويلها وتسليحها ، وأصبح الوجود والاستقلال السوري مهددا ، اتخذ جمال عبدالناصر قراره الثورى بإنزال القوات المصرية على الأرض السورية فى حركة سياسية عسكرية بارعة وحاسمة ، وانهار بعد هذا الإجراء الأمل فى إحداث أى انقلاب ، ولقد وضعت القوات المصرية التى وصلت إلى سوريا فى الوقت المناسب تماما أسس الوحدة ومبرراتها ، وأدى ذلك إلى حالة هستيرية من التآمر كان لابد أن يوصل إلى الوحدة فلم يترك التآمر الداخلى والخارجى للوحدة أن تتحقق فى ظروف أفضل ، وبمقومات أصبح وعلى مدى أطول ، كما كان يريد جمال عبدالناصر ، فالتاريخ لا يسير أبدا كما نتمنى .

لقد نجحت الوحدة مع سوريا فى تحقيق الاستقرار الذى لم تنعم به من قبل ومنذ بدأ تاريخها الحديث بعد الحرب العالمية الأولى ووفرت لها كل المقومات لتقوم بدورها العربى وكانت مساندتها للقوى الوطنية والديموقراطية حاسمة فى ألا تتحول لبنان إلى قاعدة لنظرية أيزنهاور بملء الفراع ، تحت حكم طائفى (الواقع أن الذى حافظت عليه سوريا وقتئذ قد أفسدته مع نهاية القرن العشرين فى لبنان فهى لم تحافظ على الدور القومى الذى أدّاه الجيش السوري أثناء الحرب الأهلية فى لبنان عندما تدخل ليوقف القتال بين الأخوة فحولت ذلك الدور القومى إلى دور استعمارى اضطهادى ومارست كل وسائل البطش والقهر والاستغلال ، ولو لم يجبرها المجتمع الدولى على الخروج من لبنان لبقيت تمارس ذلك الدور المخرب

وعلى الرغم من أنها أخرجت من لبنان فقد ظلت تمارس الاغتيالات والتخريب بواسطة بعض العملاء وهو الشئ الذى خلق بين البلدين حساسيات وتأثرات لن تنتهى إلى وقت طويل) ويقول المؤلف ، وساندت سوريا القوى الوطنية فى العراق حتى قامت ثورة ٥٨ م وأسقطت حلف بغداد الذى أسقط بالتالى الاستراتيجية الاستعمارية الجديدة فى المنطقة (الواقع أن الذى قاوم وأسقط حلف بغداد هو عبدالناصر وإعلامه) يضيف المؤلف ، استطاعت سوريا فى ظل الوحدة أن تحقق تغييرات اجتماعية عميقة كانت تتطلع اليها منذ الاستقلال ، ووقف الإقطاع السورى ضدها فقد كانت قوانين يوليو سنة ٦١ م تحقيقا لمطالب متراكمة منذ زمن طويل لم يستطع أى حزب سياسى أن يحققها .

ومن المؤكد كما نرى نحن أن تطبيق تلك القوانين على سوريا أثناء الوحدة بالطريقة التى طبقت بها فى مصر كان خطأ وقد حدث دون أى دراسة أو دراية بما يحتاجه الإقليم الشمالى وهو ما ألبّ قوى كثيرة ضد الوحدة يستمر المؤلف فى القول ، وأهم من ذلك كله فإنه رغم كل الصعوبات والتناقضات أثبتت هذه التجربة أن الوحدة العربية حقيقة وأن أسسها صحيحة ، وأن ما تفجره من طاقات العرب بلا حدود ، ولقد جسدت حلم الأمة العربية والثورة العربية ، ولقد خلفت سنوات الوحدة وراءها حلما ذهبيا ، وكان ومازال يسيطر على خيال سوريا وعلى خيالنا كلنا أيضا،.. انتهى (٨٨) .

والحقيقة أن هذا الحلم الذهبى الذى تحدث عنه السيد سامى شرف ما لبث أن تلاشى مع زحمة الأحداث التى خلقها الانقلاب الذى قاده مجموعة من الضباط السوريين فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م وبذلك غرسوا خنجرا فى قلب الأمة العربية وخلقوا حاجزا بين شعوب الأمة العربية ، وإذ أننا لسنا فى مجال التفسير لما حدث فإنه من المناسب أن نشير إلى ما أذيع ونشر وقتذاك عن الانفصال والشركة الخماسية والأموال التى دفعت للكزبرى ودور الضابط النحلاوى فى قيادة الانفصال ... إلخ والحقيقة أن ما كنا سمعناه عند حدوث الانفصال أن قوات مصرية جوية وبحرية قد أرسلت من أجل إعادة الوضع إلى طبيعته وأن جزءا من

(٨٨) عبد الناصر وكيف حكم مصر - عبد الله إمام - ص ٢٦٧ .

الجيش السوري (قيادة حلب) كانت تقاتل الانفصاليين ، ولكن عبدالناصر استدرك بسرعة وأمر القوات ألا تقاتل السوريين وأن تعود أدراجها، فلا يمكن أن تبني الوحدة على جماجم المواطنين ، وكانت هناك كثير من التساؤلات تجرى على الألسن ربما إلى هذا الوقت ، تقول : كان على جمال عبدالناصر أن يعيد الوحدة بالقوة وهو قادر على ذلك لأنه يحظى بتأييد الشعب في سوريا وفي مصر ، ولقد أورد الأستاذ ضياء الدين بيرس في كتابه (الأسرار الشخصية لجمال عبدالناصر) نقلا عن لسان السيد محمود الجيار وهو أحد الضباط القرييين من عبدالناصر صورة مغايرة لما كنا سمعناه أو عرفناه وهي كما يلي :

قبل شهرين كانت تتكاثر التقارير التي تنبئ بوجود تدبير ما ضد الوحدة ، وكان مفهوما أن هذا التدبير يجرى داخل الجيش ، وفي تلك الأيام كان يملك السلطة السياسية في سوريا من يملك فرض أمر واقع عسكري في جيشها ، ولهذا حرص عبدالناصر على أن يضم إلى وزارة الوحدة أكبر الضباط السوريين نشاطا سياسيا أو حزبيا في الجيش ليكونوا مسؤولين أمام الرأي العام ، ويضمن استقرار الوحدة ذاتها ، ومع ذلك ها هو الانقلاب يتم على الوحدة ، كيف ؟ ومن أين جاءت الضربة ؟ يضيف الجيار قائلا ، حاصرتني هذه الأفكار والأسئلة طوال الطريق إلى القاهرة وهو طريق يستغرق ساعة وربعاً ، ولكنني قطعته يومها في ٤٠ دقيقة ، واتجهت إلى منزلي حيث أبدلت ثيابي في لحظات ثم سألت عن عبدالناصر فوجدته في القيادة وأسرعت إلى هناك ، كانت دمشق وقتها تذيع البيان رقم ٩ الذي يقول : إنه بعد قليل سيذيع المشير عبدالحكيم عامر بيانا يعلن فيه عودة الهدوء واستقرار الأوضاع ، وما كدت أدخل على عبدالناصر وهو يستمع إلى البيان ، حتى أمرني أن اطلب له المشير فورا على التلفون اللاسلكي ، ولسبب ما كان قادة الانقلاب لم ينتبهوا إلى هذا التلفون ، ولم يقطعوا إرساله ..

تم الاتصال فورا بين عبدالناصر والمشير عبدالحكيم عامر أي بين القاهرة ودمشق ، والمشير عامر في مبنى القيادة في دمشق ، وبادره عبدالناصر قائلا ، ما هذا الذي سمعت يا عبدالحكيم ؟ هل صحيح أنك ستذيع بيانا بعودة الهدوء ؟

وأنصت عبدالناصر إلى رد المشير ثم قال : أوعى تعمل كده ! ولم أسمع بالطبع ماذا قال المشير ، ولكن عبدالناصر عاد يقول : إذا كانوا جادين حقا اطلب منهم أن يعودوا أولا إلى ثكناتهم ، وإلا ، فلن تعود تملك شيئا معهم ، إن أي بيان

ستصدره الآن سيخدمهم ، لا تدعهم يكرّرون معك ما فعلناه نحن مع الملك فاروق ، (كان ضباط يوليو قد خدعوا الملك فى أول حركتهم بمطالب معتدلة جعلته يسلم بها قبل أن يفصحوا عن هدفهم الحقيقى ويأمروه بالتنازل عن العرش ومغادرة البلاد) وأضاف عبدالناصر قبل أن تنتهى المكالمة ، لا تخف ولا تساوم ، ونحن الآن نحرك قواتنا .

وانصرف بعد ذلك عبدالناصر يتمم ما كان قد شرع فيه ، كان يعد أمر العمليات للقوات التى قرر تحريكها إلى سوريا لحماية الدولة الموحدة من التمرد الانفصالى الذى بدأ فيها وكانت العملية كما خطط لها تتضمن تحريك الجيش والأسطول ، وجاءت الأنباء بعد ذلك بأن (حلب) ماتزال صامدة لمؤامرة الانفصال ، ومادامت حلب صامدة فاللاذقية لابد أن تكون صامدة هى أيضا فالمدينتان تتبعان منطقة عسكرية واحدة ، واللاذقية هى الميناء الذى سيستقبل قواتنا المحمولة بالبحر أو بالجو ، وعندئذ قلت لعبدالناصر ، أن قوات اللاذقية لا تعرف طبعاً أننا سننجدها بقوات من عندنا وقد تستسلم فجأة تحت أية ظروف ، ولهذا يجب أن نبعث إليها فوراً بمن يبلغها بتحركنا حتى تواصل الصمود .

واقترحنا أن أذهب أنا حتى أوصل الرسالة ، وإذا بعبدالناصر يقول لى : لا سأبعث إليهم بعبدالمحسن أبو النور (وذلك لأنه كان يعمل مساعداً لقائد الجيش السورى وأبعد من هناك بعد محاولات بعض ضباط الجيش السورى تشويه موقفه) أما أنت فانتظر حتى تذهب معى ! وذهلت ، لم أكن أعرف أنه ينوى الذهاب إلى عرين الانقلاب ولكن هذا كان قراره ، كانت خطته أن تهبط قواتنا هناك وبعدها مباشرة يهبط هو ، ويخوض المعركة مستنداً الى الشعب السورى (يا ليتة فعل رغم المخاطرة) .

وتم الاتصال فوراً بعبدالمحسن أبو النور وكانت الأوامر تقضى بأن يصحب كتيبة من قوات الصاعقة ويهبط بها فى اللاذقية وينضم إلى القوات الصامدة هناك ، وأسرعت أبلغ الأوامر إلى عبدالمحسن أبو النور وكانت الساعة حوالى الحادية عشرة صباحاً ، وذكرته بأنه يجب أن يصل قبل آخر ضوء لأن مطار اللاذقية لا يصلح للهبوط بعد غروب الشمس ، ومضى عبدالمحسن أبو النور يعد

نفسه والقوات التي سيهبط بها ، بينما قرر عبدالناصر أن يعود إلى البيت ، وتم تحويل اللاسلكى إلى مكتبه هناك ، وفي هذه الساعات كان كمال الدين حسين هو الوحيد الذى جاء وانضم إلى عبدالناصر ومضى يتابع معه تطورات الموقف ، وإذا بمفاجأة تقع ، وتقلب الموقف رأسا على عقب !

كانت المفاجأة هي عودة عبدالمحسن أبوالنور دون أن يهبط فى مطار اللاذقية ! كيف حدث هذا؟ قال ببساطة : إنه وصل بعد آخر ضوء ولم يعد ممكنا أن يهبط ، والطائرات الأخرى التي تحمل قوات الصاعقة ؟ قال إن واحدة منها نزل جنودها بالباراشوت ولا يعرف شيئا عن الباقيات !

وبعد قليل فوجئت بعبدالناصر يستدعيني ويقول لى ، عبدالحكيم قادم قد يصل فى الرابعة أو بعدها بقليل ، اذهب مع كمال حسين وانتظراه فى المطار (نحن هنا لا نملك إلا الاستغراب ، كيف أن عبدالمحسن لم يصل إلا بعد الغروب إلى اللاذقية وعاد ، وكيف أن عبدالحكيم يصل فى حوالى الساعة السابعة !! هنا قال الجيار ، بعد عودة عبدالمحسن أبوالنور بقليل استدعانى عبدالناصر وقال يصل عبدالحكيم الساعة السابعة ، وهذا يعنى أن عبدالمحسن أبوالنور وصل مبكرا إلى اللاذقية ولم يهبط لسبب ما ثم عاد إلى القاهرة قبل مجئ المشير أى قبل الساعة السابعة مساء ، ونستغرب أكثر كيف أنه كان يستعد منذ العاشرة صباحا ولم يصل اللاذقية قبل الغروب وهو لو كان مسافرا إلى طوكيو من الصباح لكان وصلها قبل الغروب !!)

يضيف الجيار ، وفى المطار كان المشهد مشيرا ، نزل عبدالحكيم فى حالة واضحة من العصبية والذهول ، أخرج من جيبه مسدسا وأعطاه لى ، وأراد كمال الدين أن يأخذ منى المسدس ، فقال له المشير ، تأخذه تعمل بيه إيه ، ده مزوجن ! كانت إحدى الرصاصات محشوة فى الماسورة لم تنطلق ولم أعرف حتى الآن متى حاول المشير إطلاقها ؟ ولا على من كان يريد إطلاقها ، وعدنا جميعا إلى بيت عبدالناصر لنجد فى انتظارنا مفاجأة أخرى ، كانت المفاجأة هذه المرة فى الراديو ، فقد بدأت إذاعة حلب تغير اتجاهها الوحيد وتهاجم جمال عبدالناصر كإذاعة دمشق تماما ، ولا أذكر أنى سمعت فى حياتى أقذع من الشتائم التي سمعتها من

تلك الإذاعة وقتها ، ولمن ؟ لعبدالناصر الذي خرج الشعب السوري يستقبله بجنون أسطوري قبل الوحدة واختاره رئيسا بالإجماع ، انتهى .

والواقع أن الروايات والكتابات عن الأحداث في سوريا وعملية الانفصال قد اختلفت بين واحد والثاني فما كنت قد سمعته من بعض المسؤولين المصريين خلال تلك المرحلة جاء مختلفا ، وما قرأته في كتابات البعض أيضا كان مختلفا ، فقد اختلف ما ذكره السيد سامي شرف وهو قريب من الرئيس عبدالناصر عن ما كتبه أو قاله السيد محمود الجيار وهو أيضا من الدائرة المحيطة بالرئيس عبدالناصر ، كذلك الحال بالنسبة لموسوعة الأستاذ أحمد حمروش القيّمة والتي صدرت بعنوان (قصة ثورة ٢٣ يوليو) وتعميما للفائدة أنقل بعضا مما كتب الأستاذ حمروش عن الوحدة والانفصال مع سوريا ، قال :

(تقرر أن يلقي جمال عبدالناصر وشكري القوتلي بيانين أمام مجلس الأمة المصري ومجلس النواب السوري لشرح أسس الوحدة على أن يتم الاستفتاء عليها خلال ثلاثين يوما ، وقد كتب البيانين صلاح البيطار وفتحى رضوان وعفيف البزرى ، ولذا أسرع الملك سعود بمحاولة وقف الوحدة قبل إتمامها وهدمها قبل إعلانها والإستفتاء عليها ، واتصل الملك سعود بعبدالحميد السراج يغريه بأى مبلغ يطلبه ليمنع الاستفتاء على الوحدة ، ولم يكن هذا هو الاتصال الأول فى محاولة إقامة نظام موالى للغرب .

اتصل يوسف يس مستشار الملك سعود بالرئيس شكري القوتلى يعرض عليه إقامة حلف إسلامى والابتعاد عن الاتحاد السوفيتى ، وكان القوتلى على علاقة طيبة مع السعوديين وخاصة فى فترة ابتعاده عن رئاسة الجمهورية .

لم يستجب القوتلى لذلك فقد كان الأمر أقوى من الرغبة الشخصية وتيار التحول الوطنى الجارف كان يلتقى مع الدول الاشتراكية فى مسار واحد ، وسوريا كانت قد عقدت بعد مصر صفقة من الأسلحة السوفيتية فى ربيع ١٩٥٦م ووقف الاتحاد السوفيتى إلى جانبها وقفة حازمة أثناء الحشود التركية على حدودها ، وبعد عرض يوسف يس اتصل الملحق العسكرى الأمريكى بعبدالحميد السراج وأبلغه أن حكومة الولايات المتحدة قد زهقت من الأحزاب ، وربط السراج هذه

الخيوط ببعضها البعض وعندما أبلغ صلاح البيطار بذلك نصحه بمقابلة عبدالناصر فسافر إلى مصر في خريف ١٩٥٥م ، ومع ذلك لم يصدق عبدالناصر في البداية محاولة الملك سعود الأخيرة والتي علم بها عن طريق تقرير حملة رسول خاص من السراج وصل إلى القاهرة يوم توقيع شكري القوتلى وعبدالناصر على بيان الوحدة .

كان الملك سعود قد كتب شيكا لعبدالحميد السراج رقم (٨٥٩٠٢) مسحوبا على البنك العربى بالرياض بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٥٨م بمبلغ مليون جنيه إسترليني وطلب عبدالناصر من السراج صرف المبلغ فعلا فصرفه ووضعته فى البنك العربى بدمشق ، وصرف شيكين آخرين رقم (٨٥٩٠٣) بمبلغ ٧٠٠ ألف جنيه إسترليني ورقم (٨٥٩٠٤) بمبلغ ٢٠٠ ألف جنيه إسترليني ، وكانت فضيحة للنظام السعودى المتأمر بالمال ، وهى محاولة لم تمنع الاستفتاء ، ولم تمنع الوحدة .

ويتحدث الكاتب عن الوضع الاقتصادى فى سوريا وكذلك فى مصر والفوارق التى كانت قائمة حتى فى مرتبات الموظفين وكيف أنها كانت فوارق كبيرة ، وفرص استثمار الأموال ... إلخ (والواقع أن هذه الأمور تظهر فى كل محاولة بين بلدين يعملان من أجل الوحدة أو الاتحاد ، وأذكر أن نفس هذا الوضع قد واجهناه وقد كنت عضوا فى واحدة من لجان الوحدة الليبية المصرية فى عهد الرئيس السادات ، وأثناء المحادثات كانت تظهر كثير من الصعاب ومنها عملية مرتبات الموظفين وضباط الجيش والبوليس وعلى الرغم من أن الفرص بين البلدين (مصر وليبيا) كانت أفضل من عدة نواحي فإن الوحدة لم تنجح ، ولا بد لى أن أذكر أن الجانب الليبى كان صادقا فى هذا التوجه بينما كان الرئيس السادات رحمه الله يناور فقط ربما لكسب الوقت ... إلخ) ويتحدث حمروش عن الخلافات بين الضباط السوريين والمصريين من جانب وبين الوزراء أيضا السوريين والمصريين من الجانب الآخر وكان جمال عبدالناصر يحاول حل المشاكل والتوفيق بين كل الأطراف ، ولكن أهم ما ذكره الأستاذ حمروش هو ما يتعلق بالمعلومات عن الإعداد للانفصال داخل الجيش السورى وكيف أن المعلومات لم تجد الاهتمام الكافى بحيث يحبط ذلك الإعداد أو التخطيط فيقول :

الموقف فى سوريا ينبئ بحدث ما .. التناقضات تزيد فى كل اتجاه بين النظام الحاكم والتنظيمات المعارضه من بعثيين وشيوعيين فتحت لهم المعتقلات ، بين

السلطة القائمة والبورجوازية التي زحفت عليها التأميمات ، بين المشير عامر وعبد الحميد السراج والاثنتان نواب لرئيس الجمهورية ، بين العسكريين المصريين والعسكريين السوريين ، كانت هناك علامات تشير إلى أن خطرا حقيقيا يهدد تجربة الوحدة ، ولكن الإجراءات التي اتخذت لم تكن كافية لإزالة التناقضات ، ولم تتوافر القدرة على وضع حلول جذرية للمشاكل .

كانت الصورة معروفة عند جمال عبدالناصر ، قال لى أمين شاعر : إنه كان فى زيارة لسوريا بصفته رئيسا لجمعية الأمن القومى ، وهناك سمع من الدكتور نورالدين حاطوم عن تصرفات بعض الضباط فأبلغ ذلك للمشير عامر الموجود فى دمشق ، فهاج عليه وهدده بالضرب ، وأخرجه من مكتبه ، فاستدعاه جمال عبدالناصر وسمع منه ما قاله للمشير ، ولكن كان الصمت هو التعليق الوحيد ، حسين عرفة مدير المباحث الجنائية العسكرية قال لى إنه التقى بأحد الضباط البعثيين فى القاهرة الذى نبّه لاحتمال حدوث انقلاب فى سوريا ، وأسرع حسين عرفة فاتصل لاسلكيا بعلى شفيق فى دمشق الذى أخذ الموضوع باستخفاف منكرا قدرة أحد على الحركة ، ومنهيا حديثه بسؤال حسين عرفة عما إذا كان يطلب شيئا من دمشق ، وكان معروفا أن عربات رسمية تنقل كل شئ كان مطلوبا أو غير مطلوب من بيروت ، وأن الطائرات الحربية غالبا ما كانت تحمل شحنات خاصة من الثلاجات والغسالات وغيرها .

وكانت المخابرات العامة توضح الصورة أيضا ، وفى هذه الفترة قدم أمين هويدى أحد نواب مدير المخابرات الثلاثة (طلعت خيرى وشعراوى جمعه وأمين هويدى) استقالته وبقي فى منزله ٦ شهور بلا عمل أو ارتباط بالإدارة ، ومكتب الاتصال المصرى فى دمشق أستشعر الخطر قبل وقوعه واتصل بهم ضابط سورى مجهول عن طريق مفتش وحدوى فى وزارة الداخلية السورية وأبلغهم أن هناك خطة مدبرة للانقلاب بتحريك القوات من معسكر قطنه واعتقال المشير كرهينة لفرض إرادتهم وتنفيذ اغراضهم ، حمل العقيد محمود الحمزاوى ومعه الرائد أحمد رشدى من المباحث العامة التقرير إلى استراحة المشير حوالى منتصف الليل ، وقابلهما أحمد علوى وعلى شفيق وهما ضابطان من قيادة المشير وأظهرا استخفافا بما ورد فى التقرير من معلومات ، وكانت كل رغبتهما كامنة فى معرفة اسم

المصدر الذى رفض الحمزاوى أن يفصح عنه ، ودخل التقرير إلى المشير وعاد وعليه تأشيرة تقول (من هو المصدر ؟ !) .

المعلومات تتجمع بأن شيئا ما فى الأفق .. ولكن القدرة على مقاومة العاصفة كانت محدودة ، والتناقضات الثانوية بين الأشخاص طغت على التناقض الرئيسى بين الوحدة وأعدائها ، وكان جمال عبدالناصر قد استشعر الخطر ، وجمع الوزراء السوريين العسكريين فى استراحته بالأسكندرية حيث صارحهم قائلا : إنه لا يستطيع أن يترك الأحوال فى الإقليم السورى تمضى على ما هى عليه ، وقال لهم فى هذه الجلسة صراحة إن تناقضات دعاة الوحدة وخلافاتهم تسبب له المتاعب أكثر مما يسبب له أعداء الوحدة ، وأعلن أيضا إنه سيعيد تشكيل أجهزة الحكم ليكون له الإشراف الكامل على ما يحدث فى سوريا .

ودخل شكل الحكم تجربة جديدة يوم ٦ أغسطس ١٩٦١ م ، أصبح هناك سبع نواب لرئيس الجمهورية ، عبداللطيف البغدادى للتخطيط ، وعبدالحكيم عامر للحربية ، ونورالدين كحاله للإنتاج ، وزكريا محى الدين للمؤسسات العامة ، وحسين الشافعى للمؤسسات العامة أيضا ، وكمال الدين حسين للإدارة المحلية ، وعبدالحميد السراج للداخلية ، وشكلت وزارة واحدة مقرها القاهرة حيث يستقر الوزراء جميعا ، نواب الرئيس جميعا من العسكريين عدا نورالدين كحاله ، عبدالحكيم عامر استمر نائبا لرئيس الجمهورية مسؤولا عن سوريا ، وعبدالحميد السراج غادر مكتبه فى دمشق لأول مرة منذ الوحدة .

ولم يحقق هذا التغيير أثره المطلوب ، بل بدأت تلاحقه تناقضات جديدة فقد كان الوزراء السوريون عموما والعسكريون خصوصا ضد هذا النوع من الحكم المركزى ، وكانت تجارب تنفذ لمجابهة مواقف شخصية دون دراسة موضوعية ، وكان ذلك نابعا من الاعتماد على عناصر من العسكريين دون الاهتمام بتكوين جهاز دولة وجهاز سياسى سليم ، السحب تكاثف والجو يبدو شديد العتامة ، وأخطاء التجربة تكاد تعصف بها ، وأعداء الوحدة يجسمون التناقضات ويبدرون الخلافات ، أثاروا الشكوك حول الضباط المصريين فى سوريا الذين بلغ عددهم حوالى ٨٥٠ ضابطا وصوروا ذلك كأنه نوع من الاحتلال ، كما أثاروا الشكوك فى نفس الوقت من وجود عدد من الضباط السوريين فى مصر وقد تجاوز عددهم ٢٠٠ ضابط وصوروا الأمر كأنه إبعاد لهم ، والحقيقة أن الجيش

السوري كان يحتاج لعدد من الضباط المصريين بعد التسريعات التي تمت فيه ، وأن بعض الضباط السوريين في مصر كانوا يؤدون دورا هاما في قيادة القوات المسلحة، ولكن تصرفات بعض الضباط في المراكز القيادية هي التي أساءت إلى وضع الضباط عامة، ومنهم من أمضى وقته كله في الجبهة أمام إسرائيل ومنهم من أدى دورا بارزا في التدريب ..

ولم يعد خافيا على أحد أن هناك حساسيات تنمو وتزيد بين الضباط السوريين والقيادات التي يسيطر عليها مصريون ، وقد أسرعت التناقضات في الظهور والتجسم بعد صدور القرارات الاشتراكية ، وأثارت الرجعية حولها إتهامات بالتسرع ، ووصل الأمر ذروته بعد نقل الوزارة إلى القاهرة وتصادم عبدالحميد السراج مع المشير عبدالحكيم عامر ، وكانت أجهزة الأمن التابعة للداخلية قد خلقت خلال سنوات الوحدة جوا من الإرهاب الشديد ، وجه أساسا إلى العناصر الشيوعية ثم البعثية وأخيرا بدأ تحرك عناصر من التجار ضد القرارات الاشتراكية كما روى لى أكرم دبرى وزير الاقتصاد والخزانة في آخر وزارات الوحدة ، وينطبق هذا على موقف السراج من قوانين التأميم قبل صدورهما ، وكان إنتقال عبدالحميد السراج من دمشق إلى القاهرة ضربة شديدة موجهة إلى نفوذه وسلطته وتحركت بعض العناصر البوليسية السورية تقاوم هذا النقل عن طريق إثارة التجار وبعض العناصر السياسية ..

وطلب عبدالناصر من عبدالحميد السراج أن ينقل معه هذه العناصر إلى القاهرة ولكنهم تلكأوا في تنفيذ القرار ، وأدرك عبدالناصر أن قبلة الخطر التي تهدد الوحدة هي الثورة ضد الإرهاب ، فطلب من المشير عامر أن يحسم هذه المشكلة وخاصة أنه قد بدأت في مصر بعض الإفراجات عن عدد من الشيوعيين والإخوان المسلمين ، وأصدر المشير عامر قرارا في ١٨ سبتمبر ١٩٦١م نص على : توقيف اعتقال أي شخص إلا بذاكرة من النيابة العامة ، أي إنه لا يجوز لأي سلطة من سلطات الأمن توقيف أي مواطن إلا إذا كان هذا التوقيف عن طريق السلطة القضائية ، أي النيابة العامة . وكان التناطح بين المشير والسراج قد وصل إلى نقطة اللاعودة ، أصبح الموقف مهياً تماما لحركة مضادة للوحدة متخفية تحت شعار ضرب النفوذ المصري في سوريا ، في وقت كانت الأخطاء فيه قد فرضت على

المسؤولين أن يتخذوا خطوات العلاج ، وبدأ الانقلاب بفكرة ملحة على بعض الضباط السوريين ، وتحول إلى حدث متوقع عند الجماهير ، وتجمع بعض الضباط، عبدالكريم النحلاوي مدير مكتب المشير عامر وموضع ثقته ، حيدر الكزبري الشاويش السابق في الجيش الفرنسي والذي ترقى ضابطاً من غير طريق الكلية الحربية ، وعبدالغنى الدهمان ، وموفق عصاصه من القوات الجوية ، كان المشير يحاول كسب رأى العام ولكن الوقت كان متأخراً والمذبرون للانقلاب انتهزوا فرصة الخلاف وقرروا توجيه ضربتهم ، قوات البادية التى يقودها حيدر الكزبري توجهت ليلة ٢٧-٢٨ سبتمبر ١٩٦١م إلى القيادة تسأل عن المشير عامر ، وقال لهم الحارس إنه فى بيته فاتجهوا إلى هناك وانطلقت القذائف تدمر المنزل وتوقظ دمشق وتقتل الحراس، ولكن المشير وقتها كان فى القيادة العامة فى قاعة الأركان مع بعض الضباط السوريين وحول القيادة القوات المتمردة ، ولم تعد نقطة لقاء وتم الانفصال فعلاً .. أنتهى (.

وهكذا كان على عبدالناصر أن يحدد فى الميثاق أهداف وغايات ومبادئ الوحدة العربية التى يريد لها للأمة العربية مستشرفا المستقبل بعد كل الذى حدث ، فقال : إن مسؤولية الجمهورية العربية المتحدة فى صنع التقدم وفى دعمه وحمايته تمتد لتشمل الأمة العربية كلها ، إن الأمة العربية لم تعد فى حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها ، لقد جاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربى ذاته ، يكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل ، ويكفى أن الأمة تملك وحدة التاريخ التى تصنع وحدة الضمير والوجدان ، ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التى تصنع وحدة المستقبل والمصير ، إن الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من أساسها مستدلين بقيام خلافات بين الحكومات العربية ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية ، إن مجرد وجود هذه الخلافات هو فى حد ذاته دليل على قيام الوحدة .

إن هذه الخلافات تنبع من الصراع الاجتماعى فى الواقع العربى ، واللقاء بين القوى التقدمية الشعبية فى كل مكان من الوطن العربى والتجمع الذى تقوم به العناصر الرجعية والانتهازية فى الوطن العربى ، وهو الدليل على وحدة التيارات

الاجتماعية التي تهب على الأمة العربية وتحرك خطواتها وتنسيقها عبر الحدود المصطنعة ، إن التقاء القوى التقدمية الشعبية على الأمل الواحد في كل مكان من الأرض العربية ، وتجمع القوى الرجعية على المصالح المتحدة في كل مكان من الأرض العربية ، هو في حد ذاته دليل على الوحدة أكثر مما هو دليل على التفرقة ، إن مفهوم الوحدة العربية قد جاوز النطاق الذي كان يفرض التقاء حكام الأمة العربية ليكون من لقائهم صورة للتضامن بين الحكومات ، إن مرحلة الثورة الاجتماعية تقدمت بهذا المفهوم السطحي للوحدة العربية ودفعت به خطوة إلى مرحلة أصبحت فيها وحدة الهدف هي صورة الوحدة ، إن وحدة الهدف حقيقة قائمة عند القواعد الشعبية في الأمة العربية كلها ، واختلاف الأهداف عند الفئة الحاكمة هو صورة من صور التطور الحتمي الثوري وإخلاف مراحلها بين الشعوب العربية ، لكن وحدة الهدف عند القواعد الشعبية هي التي ستتكفل بسد الفجوات الناشئة من إخلاف مراحل التطور ، إن وحدة الأمة العربية قد وصلت في صلابتها إلى حد أنها أصبحت تتحمل مرحلة الثورة الاجتماعية ، ولا يمكن أن تدل أساليب الانقلاب العسكري ، ولا أساليب الانتهازية الفردية ، ولا أساليب الرجعية المتحكمة ، على شيء إلا على دلالتها بأن النظام القديم في الوطن العربي يعاني جنون اليأس وأنه يفقد أعصابه تدريجيا وهو يسمع من بعيد في قصوره المعزولة وقع أقدام الجماهير الزاحفة إلى أهدافها .. انتهى) (٨٩) .

هذا ما جاء في الميثاق الوطني ، وفي رأيي أنه مجرد أمل ، وأذكر أن عبدالناصر نفسه قال : إن الميثاق يحتاج المراجعة بعد عشر سنوات ، ومن ذلك نفهم أنه كان يرى أن هذه الأهداف المثلى قد يقصر دونها الجهد وقد تفشل قبلها المحاولات حتى وإن كانت صادقة ، ومن المعروف أن الأفكار المثالية تحتاج إلى كثير من الوقت وكثير من الجهد وكثير من الرجال المخلصين ، وهذه جميعها لم تتوفر لأن الرجل توفاه الله في وقت مبكر ، ولأن الذين تولوا من بعده لم يلتزموا بما أراد ، ولعله من المفيد أن نرجع قليلا إلى الوراء نقرأ ما كان يدور في محادثات الوحدة مع جمال عبدالناصر، أي وحدة ، ومثالنا على ذلك محادثات الوحدة الثلاثية التي جاءت بعد إنهاء حكم الانفصال في سوريا ، ويذكر القارئ الكريم

(٨٩) الميثاق - جمال عبد الناصر - ص ١٩٦ - ١٩٧ .

أننى قلت (نحن نرمى بأثقالنا على أكتاف جمال عبدالناصر ، وهذا ما تبينه محادثات الوحدة التى أشير إليها الآن ، وقد شرفت بتقديمها للقارئ العربى وقامت دار المسيرة مشكورة بنشرها فى جزئين ، وما جاء فيهما يمثل نموذجا لما يدور بين من يطلبون الوحدة مع مصر عبدالناصر) .

حدث أنه فى أول يناير ١٩٦٣م وفجأة وصل كبار ضباط الجيش السورى برئاسة رئيس أركان هذا الجيش يطلبون فى عجلة العمل على تحقيق الوحدة أو الاتحاد ، ولقد وصلوا القاهرة دون أن تكون حكومتهم فى البداية على علم ولأنهم يريدون الوحدة بأى شكل مع مصر فقد كانت الحكومة السورية مجبرة على مشاركتهم هذه الرغبة حتى لو كان فى جعبتها نوايا أخرى ، ولكن الرئيس جمال عبدالناصر رأى فى ذلك نوعا من التسرع الذى لا يحبه ولذلك طلب أن يتم مثل ذلك الإجراء خلال فترة قد تصل إلى (ثلاث أو خمس سنوات) لكن هؤلاء القادة ومعهم ممثل الحكومة فى دمشق أصروا على عبدالناصر قائلين : إن هذا العمل هو الذى يمكن أن ينقذ سوريا من مصير مظلم ، وقالوا : إن الجيش منقسم على نفسه بسبب العداوات المستحكمة وأن الأحزاب متصارعة على مصالح لا تخدم البلاد وأن عبدالناصر هو القادر على إنقاذهم من أنفسهم ومن مؤامرات السياسيين وأنهم واقعون تحت ضغط شعبى من أجل الوحدة أو الاتحاد مع مصر ..

ثم جاءت الحكومة السورية بكاملها وعلى رأسها رئيس الجمهورية إلى القاهرة من أجل المرحلة النهائية فى المفاوضات .. (٩٠) هكذا كانت دائما الضغوط على عبدالناصر ، وهكذا كان دائما يستجيب حرصا منه على البلد أو الدولة التى تطلب الوحدة رغم إدراكه لمخاطر الاستعجال وأسبابه ، وكما قلنا فيما تقدم فهى عادة إما من أجل الدعاية أو الخوف ، وفيما يلى المرحلة التالية ..

بدأت المباحثات بين الوفود الثلاثة (مصر وسوريا والعراق) فى أبريل ١٩٦٣م وقبلها كانت هناك مباحثات تمهيدية بين أيام ١٤ - ١٧ مارس ، ولقد استمرت على ثلاث مراحل ، وفى المرحلة الأولى امتد النقاش فى خمس

(٩٠) محاضر محادثات الوحدة - ص ٦٤ .

اجتماعات بين الوفود الثلاثة (مصر وسوريا والعراق) وفي المرحلة الثانية امتد النقاش في ست جلسات ، وفي المرحلة الثالثة امتد النقاش في عشر جلسات .. وننقل الآن ما جرى في الاجتماع الأول ...

كان الجانب المصري برئاسة جمال عبدالناصر - وكان الجانب السوري برئاسة نهاد القاسم - وكان الجانب العراقي برئاسة علي صالح السعدى ، تبودلت كلمات قبل الجلسة ، قال عبدالناصر : إن البعث الذى تعاملت معه كان برئاسة أكرم الحورانى ، وقال عبدالحكيم عامر : لا يمكن أن تقوم وحدة على مناورات سياسية ، وقال علي صالح السعدى : كان توقيع البطار على عريضة الانفصال جريمة ، بدأت الجلسة الأولى مساء يوم ١٤ مارس بدأ الحديث رئيس الوفد السوري نهاد القاسم ، قال : الحمد لله الذى حضرنا هنا ، سبق أن قلت لك سيدى الرئيس أن الزعيم البطل هو الذى نزع من النكسة الانتصار ، وقد حضرنا لتنهتكم على النصر الذى أحرزه الشعب السوري ، ولنطمئن سيادتكم بأن ثورة سوريا الأخيرة هي ثورة وطنية وحدوية تقدمية اشتراكية ، وقد حضر معنا ممثلون من ثورة العراق ، الثورة التى عجلت بثورة سوريا ، إن هذا الاجتماع التاريخي يجمع رجال ثلاث ثورات ، إننا متأكدون أن القاهرة ستستجيب لطلبنا ، لقد حضرنا لنبحث معكم إقامة اتحاد أو وحدة اتحادية بين الجمهوريات الثلاث على أسس مدروسة سليمة .

على صالح السعدى رئيس الوفد العراقي ، لقد تبين لنا أنه يجب أن نخطو خطوات فعلية لتأخذ الوحدة مكانها في الواقع ولتكون قاعدة لباقي الدول المتحررة فتتسع وتنضم إليها دول أكثر وأكثر ، إن القضية الآن هي مسألة تقرير مصير ، إنها مسألة خطيرة وتتطلب دراسات في شتى النواحي ، إن ما نطلبه الآن هو أن نعلن هذا الشئ للعالم ، وهو أننا نسعى في سبيل الوحدة وأن تكون الأيام القادمة لتقرير الخطوات نحو الوصول إلى الوحدة المطلوبة ، إننا نعتبر الانفصال نكبة وكارثة ولكنه في نفس الوقت كان خيرا لنا إذ إنه عزز ومكن من فكرة القومية العربية وجعلها على أسس راسخة وأثبت أنه ليس مجرد فكرة طارئة ، وقد جئنا إلى القاهرة لنعلن للعرب أننا سوف نسوي الوحدة ..

الرئيس جمال عبدالناصر ، لا شك أن هذا اليوم من أعز الأيام إذ نلتقى من أجل الوحدة وخاصة بين مصر والعراق وسوريا ، وإنى كنت أعتبر ذلك أملا يصعب تحقيقه بهذه السرعة ، ومنذ شهر كان هنا على صالح السعدى موجودا فى نفس هذا المكان ولم نكن نعتقد أن الكلام عن الوحدة سيجئ بهذه السرعة ، نحن طلاب وحدة ووحديون عن اقتناع بدليل أننا قبلناها فى عام ١٩٥٨م والجميع يعلم أنها كانت صعبة .

إنى أرحب بالوحدة مع سوريا والعراق ولكننا نريدها وحدة لا انفصال مغلفا فى شكل وحدوى لأن الأمة العربية لا تحتل جريمة انفصال أخرى ، لقد اكتوينا بنار الانفصال بدرجة لا توصف ، لقد تسبب عنها ردة فى مصر ، وكنت أخشى أن تصبح مصر انفصالية ، إن الوحدة أو الاتحاد المطلوب هو ما يتمناه الشعب ولكن لا بد من أن نتناول الأمر بمنتهى الصراحة والوضوح ، إننا فى بداية علاقاتنا مع العراق وليست بيننا مشاكل ولكن مع السوريين لنا خمس سنوات وهناك عدة مواضع لا بد أن نعرضها بصراحة ، إن المسألة ليست مسألة أشخاص ولكنها مسألة الأمة العربية بأسرها ..

هناك إقليمية فى مصر وأخرى فى سوريا ومن الخطأ أن نتجاهل هذا الاعتبار ، هذه مسألة ، ومسألة أخرى هى أننا لا بد أن نتعامل على نور ، هل المطلوب منا الآن أن نقيم وحدة مع حزب البعث ؟ أم وحدة مع سوريا ؟ إذا كان حزب البعث هو الذى يحكم سوريا وستكون الوحدة معه فأنا على غير استعداد للبحث على الإطلاق ..

وحدة مع سوريا كلها أنا على استعداد لها وحدة مع حزب البعث سأقول لكم متأسف ، إن حزب البعث فى رأيي انقلب على تجربة الوحدة وحاربها وكان من القوى التى مهدت للانفصال ! ولم يكتف بذلك بل أراد أن يؤثر فى الأوضاع فى مصر نفسها فى المرحلة الحرجة بعد الانفصال وأنا أعتبر ذلك جريمة ، كذلك لا بد أن نتكلم عن الشعارات التى رفعت والتى رفعها حزب البعث فى تعميماته التى قرأتها ينادى فيها بوحدة بدون عبدالناصر ، وكل مسألة فى رأى يمكن أن تحل ، حتى لو كانت مصلحة الأمة العربية فى وحدة بدون عبدالناصر فإننا نستطيع أن نجد حلا لذلك ، وأنا الآن لا أتكلم كعبدالناصر ولكننى أتكلم كرئيس وفد

للجمهورية العربية المتحدة ، وإننى لا أعقد الأمور فأنا شخصيا أشد الناس تحمسا
فى مصر لهذه الوحدة ولكن الموضوع يتعلق بمسألة أمة ، يسأل جمال عبدالناصر ..
ما هو المطلوب ؟

هل المطلوب وحدة أم وحدة اتحادية ؟

هل الاتحاد المطلوب ضرورى أم حقيقى ؟

هل المطلوب وحدة تنفذ أم وحدة مؤجلة ؟

كل هذه الأسئلة مهمة ، كذلك لابد أن نسأل :

ما هو الوضع الآن فى سوريا ؟

هل فى سوريا ثورة أم فى سوريا انقلاب ؟

هل الجيش فى سوريا يحكم أم الوزارة فى سوريا هى التى تحكم ؟

هل الحكم فى سوريا بعثى أم الحكم فى سوريا قومى ؟

ذلك ضرورى أن يتضح لكى نتصرف جميعا على هدى ، لابد من عملية
فحص وتدقيق ودراسة واسعة وجدية ، لنستعرض كل هذه الأمور ، وكل خطأ من
الممكن تقويمه ، ولنرى ماذا يمكن عمله، وبهذا يمكن تنفيذ العملية ،

هل هناك شكوك ؟ هناك شكوك بغير جدال .. وهناك أخطاء حدثت أثناء
الوحدة السابقة ولكنى أقول طالما أننا نعمل فستحدث دائما أخطاء ، ستقابل الوحدة
بقوى معادية كبيرة وستحاربها دول الاستعمار كلها ، ودول حلف بغداد والرجعيات
العربية والأحزاب الشيوعية والشعبوية والانتهازية، ولا أنسى منذ الشهر الثالث
للوحد السابقة إننى سمعت اصطلاح (الاستعمار المصرى) والتسلط المصرى من
داخل الحكم ومن الذين شاركوا فى الوحدة ، من حزب البعث .

كيف إذن نطمئن هذه المرة ؟

قبل أن ندخل فى وحدة يجب مناقشة جميع هذه النقاط ، وفى ما يتعلق
بالتجربة السابقة فإننى لم أكن شخصيا أحكم سوريا وإنما كان يحكمها السوريون ،
على سبيل المثال كان الحورانى رئيسا للمجلس التنفيذى واتخذ قرارا برفع رسوم

الجمارك على كل شئ في سوريا حتى على الأكل ، واتخذ قرارا بغير علمي ومع كده تنصل هو من مسؤوليته وتنصل كل واحد غيره ، قيل كما قرأت في تعميمات حزب البعث ، أن المطلوب وحدة ديموقراطية قبل وحدة اتحادية ، وقيل وحدة بدون عبدالناصر ، وقيل وحدة بدون الحكم الحالي في مصر ، كل ذلك قيل ، ونحن على استعداد لبحث جميع هذه النقاط ، كذلك أريد أن أعرف ما هي الوحدة وما هي الحرية وما هي الاشتراكية؟

لابد أن نلتقي على تعريفات لها ، وليس المطلوب أن نلتقي على شعارات فقط ، ولابد في هذا الاجتماع أن نتكاشف بكل وضوح وصراحة ونبحث كيف نقيم الوحدة الجديدة ، مادامت هي غايتنا ، سليمة قادرة على البقاء ..

عايزين وحدة بدون انفصال ، عايزين وحدة أبدية تجمع باقى الدول العربية ، وعلينا أن نقرر هل نريد وحدة حقيقية أو صورية ، وعلينا أن نقرر هل نريد وحدة تقوم على مبدأ المشاركة أم وحدة وكل واحد يعمل اللي عايزه ؟

في هذا الاجتماع أنا أريد أن أسمع أكثر مما أتكلم ، موقفنا نحن تكلمنا فيه كثيرا ، نقدنا أنفسنا في التجربة السابقة وأنا مارست النقد الذاتى فيها علنا ، ونحن طلاب وحدة فى كل وقت ولا أظن أحدا يشك فى ذلك ، لهذا نريد أن نسمع من سوريا ومن العراق ، ونريد أن نسمع بالتفصيل عن الماضى وعن المستقبل ..

السيد على صالح السعدى ،

إننا فعلا لم نحضر إلا لتقييم وحدة لا تنفصل وطلبنا الآن هو أن تعلن الدول العربية الثلاث أنها فى سبيل تحقيق وحدة اتحادية ، ثم تكون هذه الخطوة مفتاحا للدخول لهذا الشئ ، قد تطول الدراسة سنة أو سنتين أو ثلاثة ولكن المهم أن نعلن ذلك فورا وأن نباشر الدراسة فى نفس الوقت ..

السيد نهاد القاسم ،

إن ما قاله الأخ على صالح قد يكون مناسباً للوضع فى العراق ولكن ليس بالنسبة لسوريا ، لذلك فإننى أتحفظ بالنسبة لما قاله ، إن الوضع فى سوريا مختلف عنه فى العراق نهائيا ، ففى سوريا هناك من ينادى بوحدة فورية ، ومن يطلب

وحدة بين سوريا والجمهورية العربية المتحدة ، وأن ما صرح به الأخ على صالح يعتبر عملية تحذير لمطلب الوحدة وللرأى العام فى سوريا ، والمهم هو أن ندرس الأخطاء ونتصارع إلى أبعد الحدود ، وأسجل إنى سبق أن قلت : إن الأخطاء لم يكن المسؤول عنها جمال عبدالناصر فكلنا مسؤولون ، يجب أن نخرج من هنا بنتيجة إيجابية وبمشروع مباشر فورا ..

السيد عبدالحليم سويدان ،

لا شك أن الوصول إلى الوحدة يقتضى منا حربا مريرة وفى هذه الحرب قد نخسر بعض المعارك ، ولكن فى النهاية سنربح المعركة ، ولقد كان الشعب السورى أول من نادى بالقومية العربية والوحدة العربية ، ، لقد عاش هذا الشعب إبان الانفصال أشد تمحسا وتمسكا بالوحدة إيمانا منه بها وحرسا عليها ، وفى صبيحة الثامن من آذار مسحت الثورة آثار الخيانة والعار من جبين الجيش العربى والشعب العربى فى سوريا وفرضت إرادة الشعب ، إنها الثأر الأول لكارثة ٢٨ أيلول وثورة رمضان الثأر الثالث لها ..

السيد عبدالكريم زهور ،

الحقيقة أن الوحدة العربية ليست حلما فقط ولكنها طريق الخلاص الوحيد للأمة العربية ، الطريق الوحيد الذى يجعلها تقوى فى هذا العالم ، ولقد ظهرت فى سوريا القومية العربية بوضوح لأسباب واقعية خاصة بها ، وقبل أن تظهر على هذا المستوى فى الأقطار العربية الأخرى ولم تكفر سوريا بها بتاتا ، بالطبع هناك خونه إلا أنهم لا يعبرون عن هذا الشعب أبدا ، وسوريا سنة ١٩٥٨م أقبلت من تلقاء نفسها على الوحدة ، وما ذكره السيد الرئيس صحيح وأذكر ذلك عندما كنت عضوا فى الوفد البرلمانى الذى حضر للقاهرة قبل الوحدة للتدارس مع إخوانه فى مصر عنها .

لقد تمت الوحدة السابقة عام ١٩٥٨م ونحن اليوم فى عام ١٩٦٢م وقد تغيرت الظروف كثيرا وخاصة خلال السنة الماضية ، اليمن ثار وتدفعت قوات الجمهورية العربية المتحدة مع قوات اليمن عن ثورته ، والعراق ثار ، وهاهى سوريا ثارت ، صورة جديدة للوحدة ، يا سيادة الرئيس هناك خطر دائم فى المشرق

العربي أن يظل العراق بعيدا أو أن تظل مصر بعيدة لذلك كان من اللازم العمل مخلصين لوحدة الأقطار الثلاثة حتى نسد الطريق أمام إمكان عودة الصراع لهذا المشرق العربي ، وأعتقد أننا لو نجحنا في التخطيط فسنجعل موضوع تحقيق وحدة المشرق العربي مسألة زمن لا أكثر ولا أقل ، لا شك أن السيد علي صالح قد بالغ عندما قال بدراسة الوحدة لمدة سنة أو سنتين أو ثلاثة فإن القضية لا تحمل مثل هذا الزمن الطويل ، كذلك من غير المعقول أن نعلن الوحدة ثم إذا هي وحدة مرجأة ، يجب ألا تعلن إلا عند ممارستها وإلا نكون قد ضحكنا على أنفسنا ، ينبغي أن نعلن عن هذا الاجتماع التمهيدي أننا سائرون فيه نحو الوحدة ، لم نأتى هنا لنلهي الناس ولكن لتشكيل لجنة من الأقطار الثلاثة لتبدأ الدراسة الفعلية للوحدة ، وتنشق عنها لجان فرعية لدراسة المسائل العسكرية والاقتصادية إلى آخره ..

اللواء راشد قطيني ،

سأبدأ الحديث منذ ٢٨ أيلول ، لقد قامت بكارثة الانفصال فئة ساندتها الشعبية والطبقية الرجعية اليمينية ، استولت على الحكم بطريق عاجل ومنذ اليوم الأول بدأت الاتصالات في الجيش للوقوف في وجه هذا التيار الانفصالي ومنذ فترة اجتمعت عدة فئات عسكرية قومية واتفقت فيما بينها على الثورة ولم يكن هناك فيما بينها وبين أية جهة مدنية أى اتصال ، وقد شكل مجلس قيادة الثورة من جميع الفئات والهيئات التي اتصلت ثم نفذت الثورة ، ولقد أقسم المجلس منذ اليوم الأول أنه لا يوجد هدف للجيش في الحكم ولقد درس موضوع قيام وحدة أو اتحاد وهناك رغبة جامحة لإقامة وحدة اتحادية بين الدول الثلاث وذلك للوقوف أساسا أمام الخطر الكبير الذي يبعد عن دمشق بما لا يزيد عن ستين ميلا ، لقد شكلت الوزارة على النحو المعروف لكم ورأسها واحد من الموثوقين ، وتمت إجراءات عنيفة لتطهير الجيش وأقصى منه كل من ليس بعربي وأصدرت الوزارة بيانها الوزاري الذي صدر أمس كما طلب المجلس تلبية لرغبة الرأي العام تخصيص فقرة للوحدة الاتحادية بين الدول الثلاث ، ويؤمن الجيش بالفكرة ويطالب تحقيقها والرغبة الملحة أنه لا داعي أن ندخل من الآن في تطويلات لتجنب إرجاء الوحدة ، ولقد سبق أن أخطرنا السيد طالب شبيب عند عودته من القاهرة منذ أيام بواسطة علي صالح بضرورة سفر وفد سورى إلى القاهرة ، أما عن سؤال السيد الرئيس من

يحكم سوريا ؟ أن الذي يحكم الآن مؤقتا هو لجنة مركزية من مجلس الثورة وتختص بالتوجيه السياسى والتخطيط العام ، ولقد اجتمعت هذه اللجنة أمس وقررت أن تبدأ معكم فى محادثات عن الوحدة الاتحادية وليس مفاوضات ، إن رأى العام السورى لا ينتظر ولا يرحم ، إنه يريد أعمالا وليس أقوالا ، إنى أتكلم باسم القيادة والجيش مؤمنا بضرورة البدء فورا بتشكيل لجنة لوضع الأسس التى ستجمع هذه البلدان فى وحدة تدوم آلاف السنين ..

اللواء زياد الحريرى ،

الموضوع ببساطة أننا فى الجيش قمنا بثورة لإقامة الوحدة ، لقد قام النحلاوى بعملية غدر وكان المسيطر فى ٢٨ أيلول الطبقة الرجعية ، ثم جاء ٢٨ آذار وطالب الجيش بضرورة تصحيح الأوضاع ، والطريق الصحيح لنا هو إقامة الوحدة المطلوبة وإنها بالنسبة لنا حياة أو موت ، لقد حدثت ثورة العراق يوم ١٤ رمضان ثم حدثت ثورة سوريا لتضعها فى مكانها الصحيح وبوجهها الصحيح ورغم الصعوبات فقد نجحت الثورة ومنذ اليوم الأول بدأنا دراسة إعادة الوحدة وقرر المجلس إنه بدلا من وحدة ثنائية أن تضم لها دولة ثالثة لتكون المنطلق الجديد للوحدة ، ولا ننسى أن العراق كان دائما إقليما منفصلا بعيدا عنا ، والمطلوب الآن يا سيادة الرئيس هو العمل بأقصى سرعة بما يحقق لنا الوصول إلى هدفنا ..

المقدم فهد الشاعر ،

من الطبيعى أن يكون للوحدة أخطاء وأننا جميعا فى سوريا وفى مصر مسؤولون عنها ، ولكن لا ينبغى أن نبحث عمن أساء ولكن يجب القضاء على كل إساءة ، لقد عم القوات المسلحة والجيش فى فترة الانفصال استياء عام وتذمر ، ولولا هذا لما نجحت الثورة ، ونحن كمسكرين قد نخطئ أثناء المعركة ولكن المهم هو العمل على تفادى هذه الأخطاء لإنجاح المعركة .

ولم يكن إيمان السوريين بوحدة بين قطر أو قطرين فقط وإنما هم يؤمنون بالوحدة الشاملة بين جميع الدول العربية ، وعلى هذا الأساس قام التنظيم العسكرى يدعمه الشعب مؤمنا بفكرة الوحدة العربية ، ولقد دخلت حركة التطهير فى القوات المسلحة بهدف الإبقاء على العنصر العربى الذى يؤمن بهدف الثورة ،

وهو الوحدة والتي لا يحميها إلا واقع عملي ، نحن الآن نمثل ثلاثة أقطار عربية متحررة وهناك دول عربية أخرى مثل الجزائر واليمن وغيرهما ، ولذلك فإنه يتحتم على دولنا الثلاث العمل بشكل جدي وبدون تأجيل من أجل الوحدة ، لأن التأجيل ليس في صالحنا وأرى أن يتفق المجتمعون على مباشرة العمل السريع في هذا السبيل ، أما بالنسبة لطريقة البدء ، هل نبدأ بالوحدة السياسية أم نبدأ بالوحدة الاقتصادية أم بالوحدة العسكرية ؟ فلست أعتقد أن جلّ هذه الأمور بالأمر الصعب ، فالشعب العربي في كل قطر عربي شئ واحد ، فالفلاح الموجود في الصعيد هو نفس الفلاح الموجود في شمال سوريا وهو نفس الفلاح الموجود في جنوب العراق ، الاختلاف موجود فقط بين الطبقة المثقفة ، إن الشعوب العربية لا تحمل التأخير أو أي عبث ولندع الكلام المطاط ولننطلق فوراً ..

السيد طالب شبيب ،

إن ثورة ١٤ رمضان لم تكن في الحقيقة ثورة عراقية إقليمية ولكن العراق عملت فيه الشمولية والشيوعية لتحطيم الحس القومي ، ويوجد بالعراق مليون كردى لا يرحبون بالوحدة وهناك اختلاف طائفي إلى غير ذلك ، كذلك كانت القاهرة وبغداد في أغلب الأحيان في تنافر تنفيذاً لسياسة استعمارية قديمة ، ويجب وضع هذا موضع الاعتبار والتريث قبل اتخاذ قرارات سريعة ، ولا شك من ناحية أخرى أن الوحدة التي تمت بين مصر وسوريا تعد عاملاً أساسياً لدعم القوى القومية وتفجير الثورة في ١٤ تموز في العراق ، ولا شك أيضاً في أن الأخطاء التي تعرضت لها الوحدة ستفيد حتماً كتجربة في وضع الأسس الجديدة لكننا يجب أن نضع في الاعتبار أن الوحدة لا يجب أن تتأثر بعواطف الجماهير ، كذلك أريد أن ألفت النظر إلى أن العراق له مشاكله الداخلية الخاصة وهي مشاكل معقدة ..

السيد نهاد القاسم ،

إنني أناقش الموضوع كقاضى بحيث لا أتأثر بالعواطف ، فعواطف الجماهير ليست هي الأساس ، وإن كان من الواجب أخذها في الاعتبار ، والحقيقة أن الجماهير التي تنادى في سوريا بعودة الوحدة ليست مدفوعة بعواطفها وحدها وإنما

بالأسباب التي دفعت إلى الوحدة السابقة في ١٩٥٨ م وبعده تكلم كل من :

السيد نهاد القاسم ، السيد عبدالكريم زهور ، السيد عبدالرحمن البزاز ، السيد طالب شبيب ، السيد علي صالح السعدي ، وأخيرا قال السيد عبدالكريم زهور وهو يخاطب الرئيس جمال عبدالناصر : يا سيدى نريد أن نتدارس وعموما فنحن الآن عايزين رأى الرئيس ..

الرئيس جمال عبدالناصر ..

من ناحية المبادئ العامة فالحقيقة أننا سبق أن قلنا رأينا فى الميثاق ، كل شئ عن الحرية والاشتراكية وفى الوحدة ، من وحدة الهدف إلى الوحدة الدستورية ، وقد سبق أن قلت أن القومية العربية شبح بالنسبة لأعدائنا ، يصعب ضربه طالما هو فى حيز الفكرة ، وبمجرد أن تتحقق وتتجسم فى شئ مادي تبدأ الدول الاستعمارية والأعداء فى مهاجمتها ، وعندما قامت ثورة سوريا فى ٨ مارس أيدناها على أساس أنها حكم وطنى ، وقد ظهر من البيان الأول أن اتجاهها وطنى فأيدناها ، كذلك الحال فى العراق من ناحية التنفيذ ، فالحقيقة أننا نعانى عقدة من الوحدة ، ليه؟ لأن الكلام الكثير الذى قيل ربي لنا عقدة ، ولكن رغم ذلك فلم نكفر بالوحدة وحين جاءنى السيد طالب شبيب بمقترحات العراق قلت له صراحة ، قبل أن أناقش مقترحاته بالتفصيل : إنه ليس من المعقول أن أتكلم مع سوريا عن طريق العراق ، وقلت له ، قبل ما تقول وحدة عسكرية أو اقتصادية أو سياسية علينا أن نتكاشف بصراحة تامة ..

وأردت أن أوضح لإخواننا العراقيين أنى لا أقصد أبدا عدم الثقة بهم إذا ما قلت للأخ طالب ابتداء إنى لا أستطيع أن أتكلم مع سوريا عن طريقهم ، ولم أعترض على بعض ما تضمنته مقترحاتهم لأنى لا أريد تصعيب الأمور ، وإنما أعترضت مثلا على عملية تدخل الجيوش فى أراضى دولة أخرى لأن ذلك قد يكون معناه عدم الثقة فى أفراد الجيش للدولة المعنية ، ونحن هنا فى مصر لا نوافق على هذا الاقتراح ، أما بالنسبة لبقية المقترحات مثل إقامة مجلس أعلى أو مجالس مشتركة للتخطيط فنرحب بها لأننا فى حاجة دائما لاجتماعات مشتركة ، وفى رأيي أنه قبل أن نقرر أى شئ لابد أن نعرف ما هى الأخطاء ، فنحن حقيقة طلاب

وحدة ، ولكن لابد أن يكون جميع أطرافها قلوبهم مفتوحة ولازم نأخذ درسا من جريمة الانفصال وأخطاء الوحدة معروفة ، وأنا بصفتي رئيس الجمهورية العربية المتحدة أعتبر نفسي متحملها ، وسبق أن قال لي كمال حسين حين مارست النقد الذاتى للتجربة فى خطاب عام لماذا تحمل نفسك وحدك المسؤولية ؟ لكنى لصالح النضال العربى على استعداد لأن أتحمل أى توضيحات أو مسؤوليات ..

إن الخطأ الكبير فى الوحدة هو فى استغلال الإقليمية ، وقد ظهر استغلال الإقليمية أول ما ظهر من بعث سوريا ، ولقد كان كل من أعرفهم من البعث وقتئذ هم أكرم الحورانى وصالح الدين البيطار ..

ولابد أن أقول إنى مليان بالشك وعدم الثقة من البعث السورى ، فالبعث تأمر علينا واتصل بضباط من الجيش المصرى ، وطبعا كلنا عارفين الاتصال بدادود عويس ، وأنا لا يمكننى أن أتكلم على نفاق ، لازم نقعد ونوضح ونكون صرحاء ، لازم نبحت جميع الظروف والملابسات التى أحاطت بالتجربة السابقة ، ليس بقصد الحساب ولكن بقصد الفائدة والفهم ، قيل لى على سبيل المثال أن السبب أن الجيش السورى تضايق من (عنطزة المصريين) ليكن ، لابد أن نبحت هذا لازم نتكلم بصراحة ..

كذلك أنا أعتبر أن استقالة البعثيين جريمة ، وكانت جريمة مدبرة ، لم تكن إنسحابا من وزارة الوحدة ولكن كانت انسحابا من الوحدة ذاتها وانقلابا عليها ، وهذا كله يجب أن نتفاهم فيه قبل أى تجربة جديدة ، لا يمكن أن نقيم وحدة على خداع ، ويجب أن نتكلم فيها بكل صراحة وبكل وضوح ، أقسم لكم أننى لم اصدق أن صلاح البيطار وقع وثيقة الانفصال إلا بعدما شاهدت زكوغراف توقيعه ..

لقد ورثنا الأخطاء فى سوريا ، وفى الجيش ، والجيش كانت فيه كتل ، ولقد أثر وجود هذه الكتل حتى على تجربة الوحدة ذاتها ، واليوم لا أعرف ما هو الوضع فى الجيش السورى ؟ هل مازالت الكتل تتحكم فيه ؟

اللواء راشد قطينى ،

لا توجد الآن كتل بالجيش

الرئيس عبدالناصر ، لا تتضايق إذا قلت لك أننى لا أعتقد أن هذا الكلام صحيح ، وعلى أى حال فيما يختص بالخلاف بين البعث والجمهورية العربية المتحدة فلقد بذلت كل جهد لتلافيه وتحقيق كل سبب للشكوى ، ولقد حدث يوما

أن صلاح البيطار قال لى إن حزب البعث مطارد فى سوريا من عبد الحميد السراج فأحضرت السراج من سوريا وطلبت من صلاح البيطار أن يتكلم أمامه بما يشاء ولكن البيطار لم يقدم أية تفاصيل .

لقد كانت استقالة وزراء البعث غلطة كبرى ، ولدى الشجاعة أن أقول لكم أننى أعتبر التسرع فى قبولها من جانبى غلطة أخرى ، ولكن كان هناك استفزاز وأنتم تعلمون ماذا ردد البعثيون بعد الاستقالة ..

على أى حال لم نكن نعرف قبل أن تجيئوا إلى هنا طلباتكم ولهذا فإننى سوف أجمع مجلس الرئاسة لعرض الأمر عليه قبل أن نعطي ردا كاملا ..

نحن طلاب وحدة ولا شك ، ومستعدين للوحدة باكر ، ولكن لازم نتكاشف ونفتح قلوبنا ، وأن نعرف مع من نتعامل ، وما هى المبادئ التى نسعى إليها ، من هم أعضاء المجلس الوطنى فى سوريا مثلا ، أنا لا أعرفهم ؟ وما هى الحرية ؟ فى مفهوم حزب البعث مثلا ، لا أعرفه ، أكرر لكم أننا فى الجمهورية العربية المتحدة موقفنا واضح ، ولكن الذى يحتاج إلى توضيح هو موقف النظام الجديد فى سوريا ، هناك رؤوس موضوعات كثيرة يجب أن توضع تحتها التفاصيل ..

ما هى سياسة سوريا نحو أعداء الوحدة ؟

وما هى سياسة سوريا نحو الاشتراكية ؟

وما هو مفهوم الوحدة ، والحرية والاشتراكية ؟

ما هى الوحدة التى نطرحها للحديث اليوم ؟ إذا كانت وحدة صورية فنحن لا نوافق ..

ما هى الوحدة الاتحادية ؟ رأيي أن معناها اتحاد ، فلماذا لا نسميها اتحادا ولماذا نستعمل ذلك التركيب الغريب للوحدة الاتحادية ؟ نتكلم عن الوحدة ونحن نقصد الاتحاد ، فلماذا لا نسمى الأشياء بأسمائها ونقنع الناس بما نؤمن به وأنا واثق أن الناس على استعداد للاقتناع ..

سؤال آخر هام ،

هل الحكم الجديد فى سوريا بعثى ؟

اللواء زياد الحريرى : لا يا سيدى .

السيد نهاد القاسم : لا ، جبهة وطنية .

السيد عبدالكريم زهور : ليس بعثا يا سيدى ولكن البعث شريك فيه مع عناصر وطنية من العسكريين والمدنيين .

الرئيس جمال عبدالناصر ، مرة ثانية بأقول بوضوح ، إذا كان الحكم فى سوريا بعثيا فلست على استعداد للجلوس مع البعثيين السوريين للحدث عن وحدة جديدة ، وأنا أعتبرهم من العناصر التى حاربت الوحدة سنة ١٩٥٨ م أما إذا كان الحكم كما سمعت منكم جميعا الآن قوميا فأنا على استعداد للبحث مع جميع الفئات وليس مع البعث وحده على أساس أن نصفى أولا آثار التجربة السابقة ، لا تؤاخذنى على الصراحة ، لأنها مطلوبة فى هذا الظرف ، وإلا كنا غير مقدرين للظرف ، مازالت عندى أسئلة أخرى ..

هل الفكرة من وراء الوحدة الثلاثية هى موازنة الجمهورية العربية المتحدة بالعراق بحيث لا يحدث (كما كان البعث يقول) تسلط مصرى وحتى يحدث توازن فى الوحدة ؟

هل هذه مناورات سياسية ؟

هل هو مناورة حزبية بحيث يكون هناك صورتان للبعث ضد صوت واحد غير بعثى هو مصر ؟ سبق أن قلت أنه لو قامت وحدة بين سوريا والعراق فساكون أول من يؤيدها ، ولكن رد الأخ مهدى عماش على فى ذلك الوقت بأنهم لا يوافقون على ذلك ، لابد من تصحيح النكسة بإقامة الوحدة بين مصر وسوريا ، وبرغم كل النكسات فأنا مؤمن بالوحدة ويوم الانفصال كان أسوأ أيام حياتى ..

المشير عبدالحكيم عامر : لا يمكن أن تقام وحدة على مناورات سياسية .

الرئيس جمال عبدالناصر : والأخطاء مهما كانت فلا تعالج بالانفصال.

السيد عبدالحليم سويدان : لا يمكن أن يكون الهدف من الوحدة الثلاثية صوتين ضد صوت واحد .

الرئيس جمال عبدالناصر : أنا تكلمت بصراحة .

السيد عبدالحليم سويدان : إن فكرة المنطلق الثلاثى هى فكرة وطنية .

السيد عبدالكريم زهور : إنى معجب بالرئيس وقد طرح هذا الموضوع بكل

صراحة حتى تتطابق أفكارنا ولكي لا يكون هناك أى احتمال فى المستقبل لتناقضات رئيسية ، والحقيقة أن البعث كان فى أوائل أيام الوحدة سنة ١٩٥٨ م من أشد المتحمسين للوحدة ، وقد قبل قرار حل حزب البعث نظريا وعمليا ، لقد عبت مرة على الحوراني تشكيل وزارة بها رجعيون مرة وهو نائب رئيس الجمهورية وقال لى : إنه بلا اختصاص ونصحته بالاستقالة ، كما أن البعثيين قد أهينوا بوجه عام عندما دخلوا الحكم ، ولقد تركت هذه الأمور وغيرها أحقادا فى نفوس كثيرة ، مع ذلك فقد انقسم البعث على نفسه ..

ولا شك أنه من الضرورى لمن أخطأ أن نكرهه علانية على الاعتراف بخطئه بدون تردد حتى نمضى فى طريق النضال الوحيد ، سيدى الرئيس لم يعبأ الشعب بحل الأحزاب بعدما تقرر تشكيل اتحاد قومى ، ولكن كان الاتحاد القومى فراغا منذ نشأته ، وقد قضى هذا الفراغ على الوحدة وشجع أمثال النحلاوى بأن يعمل شيئا ، والحقيقة أن قبول الرئيس للوحدة عام ١٩٥٨ م كان تضحية منه ، ولا أنكر أن الأوضاع فى سوريا معقدة ولكن لو اتبع قرار حل الأحزاب بقيام تنظيم شعبى يتيح للجماهير الشعبية العمل السياسى السليم لأمكن مواجهة النكسة ، أما ما هو رأى فى الحرية والاشتراكية والوحدة فالحزب يفخر بأن هذه الشعارات أصبحت منذ ١٥ سنة هى شعارات الأمة العربية ولست أقصد بالحرية البرلمان إذ كلنا يعرف كيف تشتري الأصوات وهى ديموقراطية بورجوازية وهى عملية تثبيت للتخلف ، والديموقراطية الشعبية فى رأينا قد تأخذ صورة قيادة الحزب يؤلف من الفئات الأخرى جبهة قومية ، وقد يكون ائتلاف مجموعة أحزاب تتفق على أهداف فى مرحلة معينة تخرج منها قيادة سياسية ، وقد يكون بدون أحزاب مثل الاتحاد الاشتراكى ، وقد قرأنا الميثاق ونوافق على معظم ما جاء فيه ، وليس المهم هو الميثاق ، بل المهم هو تنظيم الاتحاد الاشتراكى العربى ونحن نتظر نتائج هذه التجربة ، فالأصل فى ذلك هو الديموقراطية الشعبية لا الديموقراطية البورجوازية ، أما عن الاشتراكية فقد تكون توسيع القطاع العام وقد تعنى التأمين وقد تتطور للتخلص من القطاع الخاص ، وفى الواقع فإن الجمهورية العربية المتحدة ضربت مثلا طيبا فى تنفيذ الاشتراكية وأعطت لهذا الموضوع قدره ، أقول شيئا آخر إن الوحدة الاندماجية التى حدثت بين مصر وسوريا لم تنجح ،

وفى رأيي غير قابلة للتطبيق فى هذه المرحلة من تاريخ الأمة العربية ..

نحن نعترف بالتاريخ البابلى والآشورى والفرعونى ولذلك فالفرعونية لا تسمى إلى مصر كلية ، وسبق أن قلنا وصرحنا أن جمال عبدالناصر له الفضل بعد ثورة ٥٢ فى وضع الملايين من العرب داخل الخط العربى ، كما أننا لا نريد وحدة شكلية تعود بنا إلى الصورة السابقة للوحدة عام ١٩٥٨ م اتفاقيات اقتصادية وثقافية وقيادة مشتركة .. إلخ ..

إذن بالمطلوب هو الوحدة الاتحادية مع بحث كيفية تجنب إمكانيات التصادم بين الفئات المشتركة فى هذه الوحدة الاتحادية ، إنى لم أحضر هنا كمندوب لحزب البعث وكان كعضو فى الوفد يمثل الحكومة السورية ، وإنى أرى أن نعطي مهلة للتداول وبعدها نتفق على كيفية إخراج العمل ..

الرئيس جمال عبدالناصر ،

إنى متفق مع الأخ زهور على أنه كان هناك فراغ وكان من الواجب أن نجمع الأحزاب والفئات القومية ، كما أتفق معه على أن الوحدة الاندماجية سابقة لآوانها ، وهذا ما عبرت عنه فى كلامى بضرورة مراعاة العوامل الإقليمية ، والآن أمر بسرعة على بعض النقاط التى أثارها السيد زهور وأسجل أنى استشرت أكرم الحورانى بوصفه مسؤولاً عن حزب البعث فى اختيار الوزراء وفى تشكيل الوزارة كلها علما بأن حزب البعث لم يكن يمثل سوريا ، وإنما كان طول عمره مجرد شريك فى الائتلافات الوزارية وبينها الائتلاف الذى وقع اتفاقية الوحدة ..

وكان المجلس التنفيذى فى سوريا له كل الصلاحيات والسلطات ، علما بأنه لم تكن هناك حكومة مركزية فى ذلك الوقت ، أما الكلام عن حل الأحزاب فقد كان أمراً مقررًا من جانب الضباط السوريين الذين حملوا على فكرة الوحدة ، أما الاتحاد القومى فقد اشترك معنا الحورانى فى الدراسة وأجتمع معنا عدة ساعات فى القناطر الخيرية ولم يعترض على ما تقرر ، ولم يبد أية ملاحظات ، وكان عبدالمجيد فريد سكرتيراً لهذه الجلسة ولديه المحاضر الكاملة لها ..

وفى الحقيقة أن الحورانى بدأ يظهر استياءه يوم أن ذهب المشير عبدالحكيم

عامر إلى دمشق ، وعموما فلم يحضر الحوراني إلى من قبل ليشكو من أي شيء ، وأود أن أكرر أنه لم يصدر قانون من جانبنا في مصر دون أن يبحثه المجلس التنفيذي السوري ..

السيد نهاد القاسم ،

للتاريخ قابلني مرة الحوراني وشكا من عدم وجود اختصاصات أو سلطات له ، وأنه يشعر أن الرئيس لا يعطيه احترامه الكافي ..

الرئيس جمال عبدالناصر ، سبق أن قابلت الحوراني وأوضحت له اختصاصاته وسلطاته الكاملة ، أما عن موضوع احترامه فلقد كنت أحرص دائما على أن يكون بجانبى حتى وسط الزحمة في الاستقبالات الرسمية ، وحين كنت أشعر أنه تأخر كنت أقف أناديه وأنتظره ليبقى بجانبى ، وكان بغدادى معنا فى روسيا لم أكن أفعل ذلك بعد ، ولكنى كنت أعرف حساسيات البعثيين وعقدتهم ولا يغرب عن بالكم أنه من المعتاد فى أى زيارة أن يركز الاهتمام على الرئيس الموجود وليس هذا معناه إهمال أو عدم احترام المرافقين الباقين ، وبالنسبة لنظام الحكم وقتئذ فقد كانت هناك ثلاثة لجان تشريعية وتنفيذية واقتصادية واختصاص كل منها محدد تماما وهى التى كانت تبحث جميع الموضوعات ثم تعرضها على بوصفى رئيسا للجمهورية من أجل التوقيع ، وكانت هذه اللجان موجودة فى سوريا كما كانت فى مصر ، وكنا نجتمع فى الوزارة المركزية بعد ذلك ونناقش كل ما يتعلق بالسياسة الخارجية بالتفصيل ..

السيد على صالح السعدى ، إذا كان الحزب هو موضوع المناقشة فسأحدث عن ذلك قليلا ، لا شك أن أوضاع البعث فى سوريا كانت مهلهلة إلى الدرجة التى تبقى أمثال الحوراني أعضاء فيه كما أسجل أن التحدى للحزب كان واضحا جدا فى سوريا ، وليس لحزب البعث السوري فقط ، وإنما للحزب عامة ، كذلك فإن الحكومة ركزت وسائل إعلامها من إذاعة وصحافة لخدمة المطرودين من الحزب أمثال الركابى والريماوى ، أما عن توقيع البيطار لوثيقة الانفصال فإنها

كانت جريمة وأن الذى دفعه إلى ذلك هو الحورانى وقد فاجأه بها ، كما أن صلاح البيطار بكى كثيرا بعد ذلك على ارتكابه هذا الجرم ..

إن صلاح البيطار وعفلق مخلصان فى دعوتهما للوحدة وفى حسن نواياهما للعمل من أجلها ، وإن ما قيل عن المناورات السياسية أو عن عدد الأصوات فغير وارد نهائيا فى أذهانهما أو لأى عضو بعثى آخر ، ثم قال إننا غير مستعدين إطلاقا أن نخفى عليك شيئا ، وثق أننا سنعرض عليكم أية نشرة قبل أن نخط أى كلمة عنكم فيها ، إنى متأكد أن الاتجاه العام للحزب هو نفس الاتجاه الذى أسجله لسيادتكم الآن ، إننا سنساهم منذ الآن مساهمة فعالة فى سوريا وسنحمى الحزب من أن تدخل فيه عناصر مخربة مثل الحورانى ولقد اتفقنا جميعا على تقييم حكم عبدالناصر ونفخر به ، وهو أنه أدخل ثلاثين مليون فى المعركة القومية ..

الرئيس جمال عبدالناصر :

أنا أسف لصراحتى فى كلامى عن البعث وإنما أتكلم عن تجربة سابقة ، وإن لم أقل ذلك فهذا معناه نفاق ، والبعثيون الذين سبق أن تعاملت معهم كان على رأسهم الحورانى ..

اللواء راشد قطيبي :

يا سيادة الرئيس الساعة الآن حوالى الواحدة والنصف ولما سافرنا اليوم من دمشق إلى القاهرة فإن الجميع ينتظرون الرد مساء اليوم ، ولذا أرجو أن نعلن شيئا عن اجتماعاتنا قبل أن تنتهى الإذاعة فى القاهرة ودمشق ..

المقدم فهد الشاعر :

لن يعود الوفد السورى من هنا إلا بحل جذرى ولن نترك هذه القاعة قبل الوصول إلى حل ، إننا نقرر مصير أمة أو فلنعلن للشعب أننا غير قادرين ..

اللواء الحريري :

لا شك أن ما قيل كلام صريح وواضح ، ولكن ليس المقصود هو الرد فقط ، إذ يجب أن نضع الحلول والطرق الصحيحة للوصول إلى مشروع ناجح ..

السيد عبدالحليم سويدان :

كما أرجو ألا يعلن حديث السيد الرئيس عن البعث للرأى العام فى سوريا ..

الرئيس جمال عبدالناصر :

إننا لا نخشى ذلك ولا يجب أن نخشاه ، فوجود الخلاف بيننا لا يعنى وجود تناقض ، والخلاف لا يؤثر على علاقاتنا ، كذلك فنحن لا نريد أى شئ يكون من نتيجته إضعاف الجبهة الوطنية فى سوريا الآن ، إن الجمهورية العربية المتحدة بصرف النظر عن الوحدة تريد قوتكم وتريدكم أقوياء ، أن الجمهورية العربية المتحدة مستعدة لبذل الدماء لأى حكم وطنى فى سوريا ولأى حكم وطنى فى العراق بدون وحدة أو اتحاد ، إن قوتكم فى سوريا مطلوبة كما أن سياسة الإحراج لا نقبلها ، وأنا حريص على سوريا كل الحرص ، وقد سبق أن قلت ليس المهم أن تبقى سوريا فى الجمهورية العربية المتحدة ، وإنما المهم أن تبقى سوريا ، والموضوع موضوع أمة وليست كرامة فردية ، وقد قلت فى اعترافنا الجمهورية الجديدة بسوريا إنه يشرفنى أن أعترف بها ..

والآن باقى على آخر نشرة أخبار الساعة الثانية صباحا بصوت العرب حوالى عشرة دقائق ، ولا مانع أن نعلن خبر يطمئن الشعب العربى وخاصة فى سوريا .

انتهت الجلسة وتم الاتفاق على إذاعة بيان يذكر (أسماء المجتمعين ومكان وساعة الاجتماع وأن البحث جار فى موضوع الوحدة بين الأقطار الثلاثة وأن وجهات النظر كانت متقاربة ، وأن الاجتماع سيستأنف ظهر اليوم التالى) انتهى (٩١) .

وكانت المرحلة الثانية قد بدأت فى يوم ١٩ مارس وقال عبدالناصر فى الجلسة الأولى للبيطار (لم أصدق توقيبك على وثيقة الانفصال بصرف النظر عن أى خلاف سياسى) وقال كل من الأتاسى والشاعر بحضور ميشيل عفلق (انقلاب ٨ آذار غير مرتبط بحزب) وفى هذه المرحلة عقدت ست جلسات ، وفى المرحلة الثالثة عقدت ثلاث جلسات ، فى أغلب المناقشات كان جمال عبدالناصر يلح على ضرورة التريث ويقول الوحدة سنة ١٩٥٨ م كانت صعبة وأعترف بأنه

أخطأ بقبولها بينما أجمع وفدا سوريا والعراق على القول أن الانفصال كان جريمة، وقال اللواء راشد قطيني نريد هذه الوحدة أن تبقى ألف عام ، والواقع أن اللقاءات والمناقشات لم تنته إلى أى نتيجة .

ولقد قال جمال عبدالناصر فى واحدة من الجلسات : أنتم تريدون دولة مهلهلة بلا إرادة وأنا لا أوافق على هذا أبدا ، وقال : ستقولون أنا وأخى على ابن عمى ، وتكون مصر هى ابن العم الذى تتحدون عليه ، وفى المرحلة الأولى بينما كان يتحدث عن بعث سوريا قال (إنى مليان بالشك وعدم الثقة من البعث السورى) فالبعث تأمر علينا واتصل بضباط من الجيش المصرى ، وطبعا كلنا عارفين ، والواقع أن رأى الرئيس جمال عبدالناصر فى بعث سوريا كان دائما هكذا حتى إنه أثناء مؤتمر القمة العربية الذى عقد سنة ١٩٦٤م ومثل فيه سوريا رئيسها فى ذلك الوقت أمين الحافظ ، قال له عبدالناصر : والله يا أخ أمين إنى أخاف على سوريا من إسرائيل إذا بقى البعث يحكم سوريا بروح المزايدة ، وما كان من الرئيس السورى إلا أن قال : نحن نخاف على العواصم العربية كلها إذا استمر الوضع العربى على حاله الحاضر ، أما بالنسبة لدمشق فإذا اقتربت إسرائيل فسيكون حائط المبكى الإسرائيلى لا بضعة أمتار كما هو الآن بل سيمتد من دمشق إلى بيت المقدس !! (٩٢) .

(٩١) محاضر محادثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق - المرحلة الأولى ١٤ مارس ١٩٦٣م خمس جلسات .

(٩٢) نقل هذه الرواية السيد محمد الشقيرى فى كتابه (من القمة إلى الهزيمة مع الرؤساء والملوك العرب - ص ٤٩) .

فى الصورة التالية الرئيس جمال عبدالناصر فى دمشق احتفالا بتحقيق أمله الكبير فى الوحدة العربية النواة بين مصر وسوريا كتلك التى كان قد حققها صلاح الدين الأيوبى وانتصر بها على الغزاة الإفرنجية واستعاد بيت المقدس بعد مائة سنة من الاحتلال الإفرنجى ، مع عبدالناصر يرى الرئيس شكرى القوتلى (عندما كان عربيا أولا) اللقب الشرفى له بعد توقيع اتفاق الوحدة ..



الفصل الثامن

- ١- فلسطين في مرحلة النضال .
- ٢- اليمن والثورة في غير وقتها .
- ٣- الهزيمة في ٦٧ وأثارها .
- ٤- حرب الإستنزاف وما ترتب عليها .

الفصل الثامن

- ١ - فلسطين فى مرحلة النضال .
- ٢ - اليمن والثورة فى غير وقتها .
- ٣ - الهزيمة فى ٦٧ وآثارها .
- ٤ - حرب الاستنزاف وما ترتب عليها .

فلسطين قضية العرب ، كل العرب ، الحكام يضغطون اسمها ليل نهار ويحررونها بالكلام فى كل مناسبة ، وأهلها يعملون بأمر هذا الحاكم أو ذاك إما صدقا من أجل كرامتهم وحقهم أو ارتزاقا وابتزازا ، وفى كل الأحوال فقد مرت سنوات وسنوات دون تحرير وربما بلا حتى قليل من الأمل، بعد الحرب العالمية الثانية حدثت تطورات وعود من الدول الكبرى قدمت للعرب وتحديدًا من جانب بريطانيا ، وبعد الحرب تبخرت الوعود وعض حكام العرب فى هذا الوقت أصابعهم دون أن يفتحوا أفواههم وكما يقول المثل الإنجليزى (المشكلة أن المكان الذى يخرج منه الصوت يدخل منه الطعام) ونقول لو أمكن الحكم على الأحداث فى غير سياقها التاريخى لعددنا الكثير من أخطاء العرب مثل موقفهم من قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين الصادر بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م هذا القرار الدولى الذى رفضوه دون أن يستعدوا لما يمكن أن يحدث بعده وإلى أن أعلنت بريطانيا وهى الدولة المنتدبة على فلسطين بأنها ستنتهى انتدابها على هذا البلد فى ١٥ مايو ١٩٤٨م فى حين كان الصهاينة قد أعدوا لكل شئ عدته !!

فى وقت إنهاء الانتداب البريطانى بادر (ديفيد بن غوريون) بإعلان قيام دولة إسرائيل وعاصمتها تل أبيب وقد بادرت أغلب دول العالم بالاعتراف الرسمى بهذه الدولة فور إعلانها وفى مقدمة دول العالم كانت الدولتان العظميان (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى) ومن المؤكد أن اعتراف هذه الدول لم يأت فجأة وإنما هو نتيجة لعمل كبير ومنظم وذكى قام به يهود العالم الذين

كانوا يعدون لإنشاء دولتهم التي أرادوها أن تكون دولة كل اليهود في العالم ، وقبل هذا الوقت أيضا لم يفعل العرب شيئا ، وقد ينطبق عليهم القول الشائع (من سبقته الأيام لعنه التاريخ) ولأن الأيام قد سبقت هؤلاء الحكام العرب فقد أرادوا أن يلحقوا بها عبطا ودون تهيئة أو استعداد أيضا فقرروا إعلان الحرب اعتمادا على جيوش تفتقد لكل شئ من العزيمة إلى التدريب إلى التسليح وحتى الإيمان ، دخلوا الحرب متفرقين بل حتى متخاصمين وكانت النتيجة كارثة ، هزائم وإحباطات وخسائر ولو لم يتدخل المجتمع الدولي ويقرر الهدنة لكان يمكن أن تحتل إسرائيل ما احتلته بعد ذلك الوقت بأكثر من ربع قرن من الزمان ، وعودا على بدء يجب القول أنه قبل إعلان الدولة العبرية نكلت عصابات الهاجاناه وأرجون اليهوديتين بالفلسطينيين في حيفا وقبيه والقسطل ودير ياسين ، وخلقت رعبا جعل الناس يفرون من مناطقهم ، وكان في هذا الوقت بعض الأثرياء الفلسطينيين يبيعون أراضيهم لليهود ، ولعل قصائد الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان كانت خير دليل على تلك الخيانة ، وقد عدد في تلك القصائد عيوب أغنياء عرب فلسطين وكيف أنهم كانوا يبيعون أرضهم لليهود دونما اهتمام بما سيحدث بعد ذلك ، إلى أن قال في واحدة من قصائده أنكم أيها الناس لم تتركوا حتى مكان لقبر أحد منكم يدفن فيه ؟!

ولقد أورد مؤلفا كتاب (من حصار الفالوجه حتى الاستقالة المستحيلة) وهما (جاك دومال وماري لوروا) تقارير مندوب هيئة الصليب الأحمر (المسيو جان دي رينيه) عن تلك المجازر ونقل منها ما يلي : (لقد التقينا في طريقنا إلى يافا بحشد كبير من العرب من مختلف الطبقات الاجتماعية ، يسوقون حميرهم ويحملون على رؤوسهم خليطا من أدواتهم الشخصية ، لقد هاجروا من مدينة (يافا) ومناظر الهجرة هذه التي تكاثرت تحت ضغط الإرهاب اليهودي تحمل جميعها الطابع الأليم اليأس الذي يميز قطيعا من الماشية يساق إلى المسلخ . وكانت القوات اليهودية التي ترابط على جانبي الطريق تكتفى بأن تضايق هذه الأمواج مستولية على ما يكون هؤلاء المساكين قد اضطروا إلى تركه في الطريق من جراء التعب والإرهاق ..

ياله من منظر مروّع فى وسط مزارع البرتقال الشاسعة التى تعطر الجو وتحت شمس الربيع الساطعة! إن الطبيعة نفسها تبدو وكأنها هى الأخرى كفت عن الاهتمام بمصير هؤلاء البشر الذين يرفضون هباتها الملكية ليستسلموا لهموم الحرب والأحقاد، ويضيف المؤلفان: وفى القدس تجنبنا للقتال فى الأماكن المقدسة تعاون كل من الجيش الأردنى والجيش اليهودى مع هيئة الصليب الأحمر، ولكن بمجرد جلاء القوات البريطانية بادرت القوات اليهودية (عصابات سترن وايرغون) إلى بدء العمليات الحربية، الأمر الذى كان يحتم التدخل الغربى فى الحال وذلك لإسعاف المسيحيين والمسلمين المهددين بالإبادة، إنها الحرب وقد أستلزم الأمر ستة أيام من المناقشات فى الأمم المتحدة للوصول إلى قرار بتعيين (الكونت فولك برنادوت) وسيطا دوليا فى فلسطين .. (٩٣) وفى الوقت نفسه أعلن الرئيس الأمريكى (ترومان) اعتراف الولايات المتحدة بدولة إسرائيل التى كان قد أعلن قيامها القادة الصهاينة، ودخلت مصر الحرب، ولكن الملك فاروق لم يرسل إلى فلسطين أكثر من أربع فرق، أى حوالى ٣٠٠٠ آلاف جندى وعلى رأسهم جميع الضباط الذين لم يكونوا موضع ثقة البوليس السياسى، وفى ١٦ مايو انتقل عبدالناصر إلى الجبهة حيث شاهد بعينه ولمس عن قرب مدى تهاون القادة المصريين ولا مبالاتهم، فقد كانوا يرسلون الجنود إلى (المسلخ) على حد تعبيره .. انتهى .. (٩٤).

ويقول مندوب الصليب الأحمر الدولى عن حادث اغتيال المندوب الدولى الكونت برنادوت بواسطة العصابات الصهيونية ما يلى:

كنا قد احتطنا منذ البداية فى إعطاء عصابة (شتيرن) أسماء وهويات مندوبينا الذين يضطرون إلى المرور من مكان معين، وفى المناسبة كان لا يفوتنا أبدا التحدث إلى الحراس وزيارة رئيس العصابة نفسه، وهكذا كنا معروفين من الجميع، وعندما وصلت قافلة الكونت برنادوت إلى نقطة الحرس الثانية قطعت

(٩٣) العصابات الصهيونية قتلت هذا الوسيط الدولى فى فلسطين.

(٩٤) كتاب من الفالوجة إلى الاستقالة المستحيلة - جاك دومال، ترجمة ريمون نشاطى -

الطريق عليها سيارة مجهولة ، وترجل منها رجلان بالزى العسكرى ، مسلحان بالرشاشات ، راحا يفتشان ركاب السيارة ، وبعد تحرى الأولى انتقلا إلى السيارة الثانية وبسرعة انتهيا من استجواب الدكتور (فازل) لينصرفا إلى السيارة الثالثة ، وسألا فيما إذا كان برنادوت فيها ؟ وانتظرا وما كادا يسمعان الجواب حتى أفرغا رصاص رشاشيهما فى جسمه فقارق الحياة على الفور ، وحاول الكولونيل الفرنسى (سيرو) وكان هو الآخر جالسا فى السيارة أن يحمى برنادوت بجسده فسقط قتيلًا معه ، وما كاد الدكتور (بازل) يسمع صوت الرصاص حتى أسرع فى سيارته نحو الجرحى ، فيما كان القاتلان يعودان الى سيارتهما ، ولكن الأوان كان قد فات ، وقضى الأمر ، ولم يعد فى استطاعة أحد أن يفعل شيئًا .. انتهى (٩٥) .

هكذا هو العدل !! قتلوا الوسيط الدولى وهو سويدي مكلف من الأمم المتحدة فى مهمة إنسانية ، كما قتلوا مرافقه الفرنسى أيضا وهو يقوم بدور إنسانى وعلنا فى وضوح النهار ولم يحدث شئ ولا حتى نوع من الاحتجاج الدولى أو الإدانة لأن هؤلاء الصهاينة ترعاهم الولايات المتحدة الأمريكية التى تملأ الدنيا الآن صراخا من أجل ما تسميه حقوق الإنسان ..

وعن مذبحة دير ياسين يقول تقرير مندوب الصليب الأحمر (المسيو جان دى رينيه) ما يلى : وبينما كان السكان العرب فى قرية دير ياسين القريبة من القدس مايزالون يغطّون فى نومهم ، دخلت العصابات الإرهابية الصهيونية وأصدرت الأوامر بمكبرات الصوت لجميع سكان القرية بمغادرتها على الفور وفى مهلة لا تتجاوز خمس عشرة دقيقة ، وكان الذين أطاعوا قلة ، أما الباقون فقد انهال عليهم المعتدون بمدافعهم الرشاشة وقتلوهم جميعا ، بما فى ذلك الأطفال والنساء والشيوخ ، لقد كانت مجزرة لا مثيل لها فى التاريخ ، فقد تعدت الوحشية الصهيونية فى قرية دير ياسين درجة الشناعة التى بلغتها مذبحة قرية (أورادور) فى النمسا أواخر الحرب العالمية الثانية ، ولقد بقرت بطون النساء ، قتل الأطفال ، وقطعت الجثث ، وعندما توجه المندوب السويسرى للجنة الدولية للصليب الأحمر فى اليوم التالى للمذبحة ، إلى قرية دير ياسين لم يجد هناك من الأحياء سوى

(٩٥) جمال عبد الناصر فى طريق الثورة - جورج فوشيه - ص ٢٤٩ .

ثلاث نساء مذهولات بينهن فتاة صغيرة ، نجون بأعجوبة من المدافع الرشاشة والسكاكين التابعة لمنظمة أرغون الإرهابية وقد كتب المندوب في تقريره : (كان لمذبحة دير ياسين أصداء بعيدة المدى ، ففي الجانب العربي نشأ مناخ من الرعب والجزع العام ، تدبر اليهود أمرهم دائما في إذكائه وإلهابه ، ولقد غادر العرب بيوتهم مدفوعين بالذعر ، وبذلك تم إجلاء المزارع المنعزلة ثم القرى فالمدن الكبرى ، وكانت الهجرة الجماعية تبدأ بمجرد التهديد بالهجوم من جانب اليهود ، وفي نهاية الأمر تحول أكثر من ٧٠٠٠٠٠٠ عربى إلى لاجئين بعد أن تركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم خوفا من أن يصيبهم ما أصاب سكان دير ياسين ، والآثار التي تركتها هذه المجزرة بعيدة عن أن تمحى ، إذ أن الألوف المؤلفة من اللاجئين العرب مازالوا يعيشون اليوم فى مخيمات بدائية ، دون عمل ودون أمل ، بينما الصليب الأحمر يوزع عليهم مساعدات الأمم المتحدة . انتهى) (٩٦) .

ولقد جعلت تلك الاعتداءات الصهيونية على عرب فلسطين شباب الأمة العربية يتنادون من أجل الدفاع عن شعبهم الفلسطينى وأرضهم المقدسة مدنيين وعسكريين من المحيط إلى الخليج ، ولعل أدق تعبير عن ذلك ما ذكره جمال عبدالناصر فى كتاب فلسفة الثورة .. قال :

(ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعا فى أعماقى بأن القتال فى فلسطين ليس قتالا فى أرض غريبة ، وهو ليس انسياقا وراء عاطفة ، وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس ، وأذكر يوما عقب صدور قرار تقسيم فلسطين فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ م عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعا واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة فى فلسطين ، وذهبت فى اليوم التالى أطرق باب بيت الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين وكان لا يزال يعيش فى (الزيتون) وأقول له : إنكم فى حاجة إلى ضباط يقودون المعارك ، ويدربون المتطوعين وفى الجيش المصرى عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع وهم تحت أمرك فى أى وقت تشاء ، وقال لى الحاج أمين الحسينى ، سوف أعطيك ردى بعد استئذان الحكومة ، وعدت إليه بعد أيام وكان رده ، الرد الذى حصل عليه من الحكومة ، هو الرفض ، ويستمر عبدالناصر فى سرد

(٩٦) نفس المصدر السابق ..

التطورات فيقول ، وأذكر سرا آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار، كان حسن إبراهيم قد سافر إلى دمشق واتصل ببعض ضباط فوزى القاوقجي (٩٧) وكان القاوقجي يقود قوات التحرير العربية ويستعد لمعركة حاسمة في المنطقة الشمالية من فلسطين ، ووضع حسن إبراهيم وعبد اللطيف بغدادى خطة جريئة للقيام بعمل حاسم في المعركة التي تستعد لها قوات التحرير ، وكانت الخطوط البارزة في تلك الخطة هي أن قوات التحرير العربية لا تمتلك طيرانا يساعدها في المعركة ، ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركز فوق ميدان العملية لكان ذلك عاملا فاصلا ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟ ولم يتردد حسن إبراهيم وعبد اللطيف بغدادى وإنما قررا أن يقوم سلاح الطيران المصرى بهذه المهمة ، ولكن كيف ؟ ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة، بما فيها سلاح الطيران حذرا متيقظا ، ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها إلى تفاصيل الخطة ..

بدأت في مطار سلاح الطيران حركة عجيبة وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح بعض الطائرات وإعدادها ، وجهود واضحة في التدريب سرت كالحمى في نفوس عدد من الطيارين ، ولم يكن هناك إلا قلائل يعرفون السر ، يعرفون أن الطائرات وقوادها قد أعدوا ليوم تجي فيه من سوريا إشارة سرية فينطلقون بعدها إلى الجو ليشاركوا بكل قوتهم في معركة حاسمة على الأرض المقدسة، ثم يتجهون بعد ذلك إلى مطار قرب دمشق ، ينزلون فيه ويتربعون الأحوال في مصر ، ويتعرفون على صدى هذه الحركة التي أقدموا عليها ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها ، وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك في هذه العملية ، وأذكر أن كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة إلى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد ، وكان شعورنا في اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار ، والمؤكد أن نفس الشعور كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين في السر الكبير، أن هذه المخاطرة الجريئة لم تكن حبا في المغامرة ولا كانت رد فعل للعاطفة في نفوسنا ، وإنما كانت وعيا ظاهرا لإيماننا بأن (رفح) ليست آخر حدود

(٩٧) فوزى القاوقجي كان قائدا لجيش الإنقاذ في حرب فلسطين ، وهو لبناني الأصل .

بلادنا وأن نطاق سلامنا يقضى علينا أن ندافع عن حدود إخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم فى منطقة واحدة ، ولم تتم الخطة يومها لأننا لم نتلق الإشارة السرية من سوريا ، ثم يقول عبدالناصر : هذه الحرب دخلتها شعوب العرب جميعا بدرجة واحدة من الحماس ، وإذن فهذه الشعوب جميعا تشارك فى شعورها وفى تقديرها لحدود سلامتها ، لقد خلوت لنفسى مرات كثيرة فى خنادق عراق المنشية (٩٨) وفى جحورها وكنت يومها أركان حرب الكتبية السادسة التى كانت تقف فى ذلك القطاع ، وتدافع عنه أحيانا وتهاجم فى أكثر الأحيان ، وكنت أخرج إلى الأطلال المحطمة بفعل نيران العدو ثم أصبح بعيدا مع الخيال ،

وأحيانا كانت الرحلة مع الخيال تمضى بعيدا إلى آفاق النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة كلها ، وكانت الصورة تبدو فى ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتى ، هذا هو المكان الذى نقبع محاصرين فيه ، هذه مواقع كتيبتنا ، وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط ، وهذه قوات العدو تحيط بنا ، وهذه قوات أخرى لنا ، هى أيضا محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وإن بقى لها مجال للمناورة المحدودة ، إن الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التى نتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار ، وتلحق بها عجزا أكثر من الذى تصنعه بنا ، نحن القابعين فى منطقة الفالوجة ..

ثم هذه قوات إخواننا فى السلاح وفى الوطن الكبير وفى المصلحة المشتركة ، وفى الدافع الذى جعلنا نهروا إلى أرض فلسطين ، هذه هى جيوش إخواننا جيشا جيشا كلها أيضا محاصرة بفعل الظروف التى تحيط بها ، والتى كانت تحيط بحكوماتها ، لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها إلا بقدر ما تحركها أيدي اللاعبين ، وكانت شعوبنا جميعا تبدو فى مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة ، أخفت عنها عمدا حقيقة ما يجرى ، وضللته حتى عن وجودها نفسه ، وأحيانا كنت أهبط من ارتفاع النجوم إلى سطح الأرض ، فأحس أننى أدافع عن بيتى وعن أولادى ، ولا تعيننى أحلامى الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ !

(٩٨) عراق المنشية فى الفالوجة وهى التى حوصرت فيها القوات التى كان رئيس أركان حربها جمال عبد الناصر وقد ضرب الحصار عليها لمدة شهور وكانت تعوزها المواد الغذائية الكافية ولكنها دافعت باستماتة شرفت الجيش المصرى وقتذاك .

وكان ذلك عندما ألتقى فى تجوالى فوق الأطلال ، فوق الأطلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا فى براثن الحصار ، بعد أن خربت بيوتهم ، وضاع كل ما يملكون ، وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت فى مثل عمر ابنتى ، وكنت أراها وقد خرجت إلى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش ، وكنت دائما أقول لنفسى ، قد يحدث هذا لابنتى !

كنت مؤمنا بأن الذى يحدث فى فلسطين كان يمكن أن يحدث ، ومازال احتمال حدوثه قائما لآى بلد فى هذه المنطقة ، ما دام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن ، ولما انتهى الحصار ، وانتهت المعارك فى فلسطين ، وعدت إلى الوطن ، كانت المنطقة كلها فى تصورى قد أصبحت كلاً واحداً ، وأيدت الحوادث التى جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد فى نفسى ... انتهى (٩٩).

ولأن الهزيمة كانت للحكام العرب أو قل تلك الدول العربية التى أعلنت الحرب على إسرائيل فلقد امتلك بعض الرجال القادة والجنود فى الجيوش العربية الشجاعة رغم تخاذل الحكام واستمروا فى مقاومة العدو بكل الوسائل إلى الآن وخير دليل على ذلك انتفاضات الشعب الفلسطينى المتوالية والمستمرة رغم المؤامرات المحلية والدولية ورغم الخلافات المؤسفة بين القيادات الفلسطينية التى ترتبط بهذا النظام أو ذاك والتى تصل غالبا إلى حد التقاتل بين الإخوة كما يحدث الآن بين حماس وفتح على أرض فلسطين وهو لا يخدم إلا العدو الإسرائيلى ، الواقع أن الخلافات بين القيادات الفلسطينية ليست جديدة وقد برزت على السطح منذ بداية إنشاء منظمة التحرير التى أسسها المرحوم أحمد الشقيرى وسعى إلى أن (حفيت رجله) كما يقول على توفير سبل الحياة لها والحقيقة أننى من خلال قراءتى لأغلب ما كتب وما بذل من أجل قضية شعبه أحمل له فى قلبى تقديرا عاليا ولا أفهم لماذا تجاهله ويتجاهله التاريخ الفلسطينى والإعلام الفلسطينى فهو الذى أسس منظمة التحرير عندما أقنع الحكام العرب فى أول مؤتمر لهم سنة ١٩٦٤م بالقاهرة وجعل لها مكاتب وممثليات من موسكو إلى نيويورك إلى القاهرة إلى كراتشى ... إلخ وجعل لها مركز أبحاث فلسطينى كما أسس جيش التحرير

وإذاعات تنطق باسمها ، وأجد في كتابه المعنون (من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء العرب) الصادر سنة ١٩٧١م ما يشبه أحداث اليوم (٢٠٠٧م) في فلسطين يقول :

كنت قد طلبت موافقة الحكومة الباكستانية على إنشاء مكتب في كراتشي لمنظمة التحرير الفلسطينية ليكون نافذة على العالم الإسلامي وقد أيقنت أن صداقتي مع المشير أيوب خان وزمالتى الطويلة لوزير خارجيته السيد على ذو الفقار بوتو ستفتح لنا أبواب الباكستان على مصاريعها وترددت على سفارة الباكستان فى القاهرة مرات أطلب تأشيرة دخول والسماح بفتح مكتب المنظمة فى كراتشي ، ومضت أشهر طويلة والتأشيرة لم تصدر ، وأصبح الأمر عندى لغزا كبيرا وخاب ظنى فى صداقتى العريقة مع الباكستان ، ولولا الإسلام لم يكن مبرر لوجود الباكستان ، وتصيدت صديقى القديم وزير الخارجية الباكستانى ذو الفقار على بوتو (١٠٠) فى فندق هيلتون فى إحدى زيارته للقاهرة وسألته فى غضب ودود عن السبب ؟ فقال بوتو بإيجاز .. ماذا أصنع أنتم يضرب بعضكم بعضا ، السيد أمين الحسينى بعث برسالة طويلة إلى المشير أيوب خان يقول فيها (إن منظمة التحرير الفلسطينية تعمل على تصفية القضية الفلسطينية ، وهى تسير فى فلك القاهرة كما تسير المنظمات الفلسطينية الآن فى أكثر من فلك (!!!) وأن الشقىرى يعمل على تنفيذ هذه الأغراض الاستعمارية الصهيونية ، بشعور أو غير شعور) وقد عجبت أن يصدر عن الحاج أمين الحسينى مثل هذه الاتهامات وخاصة عليك ، وأنت الذى كنت تسرد لى محاسنه ووطنيته !!

وقلت ، نعم لقد كنت أسرد محاسنه ، ولكنى لم أكن أسرد لك مساوئه ، وهو الآن فى مرحلة (أرذل العمر حمانى الله وإياك منها) وخرجت من فندق الهيلتون وأنا أقول ليت الحاج أمين وأمثاله من المشتغلين بالقضايا العامة يتعلمون

(١٠٠) صار فيما بعد ذو الفقار على بوتو رئيسا لدولة الباكستان وكان صاحب مشروع القنبلة الذرية الإسلامية التى مكنت الباكستان بعده من أن تكون واحدة من الدوله الذرية المحترمة ، ولقد كان لى شرف معرفته ثم ترجمة مذكراته إلى اللغة العربية وكانت بعنوان (إذا ما اغتالنى) ومع الأسف فقد اغتاله جنرال يدعى ضياء الحق استخدمته المخابرات المركزية الأمريكية .

آداب الخصام السياسى من الإنجليز ، من الأمريكان، بل من الإسرائيليين ، الأعداء الألداء ..) ونحن نقول : ليت هؤلاء المشتغلين الآن فى فلسطين يتعلمون كيف يكون التعامل بينهم وأن يحقنوا الدم الفلسطينى ويتخلوا عن شطحاتهم ومصالحهم ، أما الشقى رحمة الله فقد كان يقول : إننى مربوط مع رقبتي باثنى عشر حبلا يمسك بها اثنا عشر ملكا ورئيسا عربيا ، وفى حديثه عن الثوريين والرجعيين وشئ من ذلك يروى قصة طريفة جرت له مع بعض المسؤولين البعثيين فى سوريا عندما رفضوا الاعتراف بمنظمة التحرير باعتبارها رجعية كما قال ، وبعد محاورات مع أحد المسؤولين وشرح أهداف المنظمة يقول : (وطال الجدل حول هذا الموضوع قريبا من ثلاث ساعات حتى لم أترك لمحاوري حجة) إلا أنهكتها وأنهكته (فسكت وحسبت أنه اقتنع ، قلت يبدو أننا اتفقنا ؟ ولنقرأ الفاتحة تيمنا فى هذا الاتفاق ؟ وكانت لحظة اهتزت لها دمشق عرين العروبة ومعدل الإسلام ، فقد وقف الرجل محمقا وقد تورمت أوداجه وهو يقول : وهل أنا رجعى حتى أقرأ الفاتحة !! وما كان يواجهه الشقى من الحكام العرب بحيث يستطيع أن ينفذ من هذا الثقب أو ذاك كان عبدالناصر يواجه أكثر منه بكثير من جانب الحكام العرب ومن جانب بعض المنظمات الفلسطينية نفسها التى ترتبط بتلك النظم العربية أو الأحزاب العربية ويكفى أن نشير إلى ما قامت به الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عندما قبل جمال عبدالناصر مشروع (روجرز) فقد سیرت هذه المنظمة ومعها (ربما) أطراف أخرى مظاهرات فى المدن الأردنية وفى العاصمة عمان تحديدا ووضعت أمام واحدة من المظاهرات الكبيرة حمارا يسير وعلى ظهره بردعة كتب على الحمار (جمال عبدالناصر) وعلى البردعة (روجرز) ومع ذلك وغيره فإن عبدالناصر لم يتخل عن الشعب الفلسطينى ومنه تلك المنظمة عندما حدث القتال بين هذه المنظمات والجيش الأردنى وكان يمكن أن يقضى الجيش الأردنى على كل فلسطينى لولا جهود عبدالناصر التى بذلها من أجل حقن الدم الفلسطينى ومات على إثر ذلك ..

وفى شأن مواقف عبدالناصر تجاه القضية الفلسطينية والشعب الفلسطينى يقول الأستاذ عبدالله إمام فى كتابه : (عبدالناصر كيف حكم مصر) ما يلى :

لا يحتاج موقف جمال عبدالناصر من القضية الفلسطينية إلى إيضاح ، وهذا الجزء من الحوار لا يهدف إلى إلقاء الضوء على علاقة عبدالناصر بالقضية

الفلسطينية، ولكن المعنى منه بالدرجة الأولى الحديث عن اللقاءات السرية بين عبدالناصر والمنظمات الفلسطينية، وأيضا الأزمة التي تفجرت بينه وبين بعض الفصائل الفلسطينية بعد قبوله مبادرة (روجرز) وأيضا بعض التفاصيل التي لم تنشر من قبل حول وقائع أيلول الأسود، والاقتتال الذي دار في عمان بين الفلسطينيين والأردنيين، وهو الاقتتال الذي دعا إلى عقد مؤتمر القمة العربي الأخير الذي عقد بالقاهرة وحضره ياسر عرفات والملك حسين، وما هي ظروف كل ذلك؟

وفى البداية لابد من مقدمة صغيرة ضرورية نقول من خلالها: إن عبدالناصر أحب شعب فلسطين كما لم يحب أى شعب آخر وقد بادلته الشعب الفلسطينى حبا بحب أكبر ..

لقد قاتل عبدالناصر مع الشعب الفلسطينى عام ٤٨ وأصيب بالجراح، وتولدت بينه وبين الفلسطينيين علاقة وجدانية غريبة وعميقة تبلورت فى ثقة لا حدود لها بينه وبين الفلسطينى العادى، وتحولت هذه العلاقة إلى بركان فجرتة ثورة ٢٣ يوليو لتجسدّ مولد الثورة العربية الكبرى فى العصر الحديث، وظلت فلسطين طابعا مميزا لمسيرته حتى انتهت حياته لفلسطين أيضا ..

ولقد ميزت العلاقة بين الرجل وبين الثورة الفلسطينية علاقات تتجسدّ فى روح شابة مشبعة بالأمل واليقين ظلت تمر بها قوى الثورة الفلسطينية سواء أكانت هذه القوى جماهير عادية أو قوى منظمة وحماية معنوية ومساعدات مادية بلا حدود لتعيد تأسيس وطنها الفلسطينى وحتى تتأكد من ممارسة هذا الوطن لدوره العربى والإبقاء على التلاحم بين الشعب العربى فى مصر والشعب العربى الفلسطينى ومقاومة أى محاولة تهدف إلى عزلهما عن بعضهما ..

نعم لقد عاشت القضية الفلسطينية فى فكره ووجدانه طالبا وضابطا ثائرا، وأدرك منذ صباه وشبابه أن المخطط الاستعمارى والصهيونى يبدأ بفلسطين ثم يثنى بالعدوان على باقى البلاد العربية لتحقيق أمل الصهيونية فى إنشاء دولة إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل، ويذكر أنه عندما كتب عن صباه فى فلسفة الثورة تحدث عن وعد بلفور وبداية التفكير الصهيونى فى فلسطين، لقد كان يعتبر دائما أن القضية الفلسطينية هى قضية مصرية وهو يقول: إن ما يحدث على الأرض

العربية فى فلسطين يمكن أن يحدث لأى بلد فى المنطقة مادام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى تتحكم الآن ، كان عبدالناصر مدركا تماما أن المعركة تبدأ بالجولة الأولى ، بالثورة الكبرى لاقتلاع الأنظمة الفاسدة فكانت ثورة ٢٣ يوليو التى وضعت القضية الفلسطينية فى مكانها الصحيح ضمن نضال الأمة العربية وفى صدر حقيقة الصراع العربى الاستعمارى الصهيونى ، ثم تحمّل جمال عبدالناصر مسؤولياته التاريخية فى دعم حركات التحرر انطلاقا من مفهوم أن وحدة النضال لا تتجزأ ولم يكتف بالدعم المادى للقضية الفلسطينية بل حرص على أن يقدم كل الدعم السياسى لانتزاع اعتراف العالم بها ثم بشرعيتها وبالتالى بأنه لا شرعية للوجود الإسرائيلى ، وكان محور سياسة عبدالناصر فى القضية الفلسطينية تمثل بالتالى محورا استراتيجيا أكبر يحقق للعالم الثالث، ممثلا فى حركات التحرر ، الشخصية المستقلة القادرة على إقامة التوازن الدولى من أجل رفاهية البشرية .. (١٠١) .

ذكرت فيما تقدم أن الرئيس جمال عبدالناصر أثناء زيارته لليبيا ، وكان الشغل الشاغل فى ذلك الوقت هو الموقف من المشروع الأمريكى الذى عرف باسم وزير خارجية هذا البلد (مشروع روجرز) لأن البعثيين كانوا يشككون فى موقف عبدالناصر ، وقد تحدث بوضوح قائلا : إنه سوف يحدد موقف الجمهورية العربية المتحدة مباشرة بعد زيارة موسكو خلال اليومين القادمين ، وفى زيارته لموسكو التى تمت فى أول شهر يونيو ١٩٧٠م كان من المتوقع أن البحث والنقاش سيدور حول القضايا العسكرية إذ أنه كان يعد لتحرير الأرض تنفيذاً لمقولته (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) وحقيقة أن جرح الهزيمة كان لم يندمل بعد وكرامة الجيش المصرى لا تسترد إلا بنصر مؤزر ، مع هذا فقد رأيناه يضع فى أولوياته خلال لقاء القادة السوفيت قضية فلسطين ومستقبل الشعب العربى الفلسطينى وهو ما أشار إليه وزير خارجيته السيد محمود رياض فى مذكراته التى صدرت بعنوان (البحث عن السلام والصراع فى الشرق الأوسط) قال :

(١٠١) عبد الناصر - كيف حكم مصر - عبد الله إمام - ص ٢٨٢ .

ذكر بريجنيف بأن الإتحاد السوفيتي قد قرر من جانبه الاستجابة لمعظم الطلبات التي تقدم بها الفريق محمد فوزي ، ويصل ثمنها الى حوالي ٤٠٠ مليون دولار وأنه قرر أيضا تقديم تخفيض في القيمة يصل إلى خمسين في المائة ، وأكد بريجنيف أن الأسلحة سوف تصل إلى مصر طبقا للجدول الزمني الذي تم الإتفاق عليه بين الجانبين وطبقا لذلك فسوف يصل إلى مصر ثلاثة أرباع الكميات المطلوبة قبل نهاية سنة ١٩٧٠ م ..

وهنا علق عبدالناصر قائلا ، إنني أود أن اشكر الإتحاد السوفيتي على معاونته لنا على الصمود في وجه الأطماع التوسعية الصهيونية ، فإسرائيل تريد منا أن نترك لها القدس والضفة الغربية والجولان ، ولو أنني وافقتهم على ذلك لكان من الممكن أن نستخلص سيناء كاملة ، وربما قطاع غزة ، منذ سنة ١٩٦٨ م بناء على إقتراحات وزير الخارجية الأمريكي السابق دين راسك ، وأضاف عبدالناصر ، إننا على استعداد لقبول الحل السلمي والإقرار بوجود إسرائيل بالرغم من المعارضة العربية ، والسماح لهم بالمرور في قناة السويس ، ولكن على إسرائيل قبل ذلك أن تنسحب من جميع الأراضي العربية المحتلة وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بحقوق الشعب الفلسطيني - انتهى ..) (١٠٢) . ولكن مع الأسف فإنه كما قال المتنبي :

(ومن البلية عزل من لا يرعوى عن جهله وخطاب من لا يفهم)

وليس هناك من شك في أن جمال عبدالناصر كان يعمل على بناء القوة القادرة على النصر واستعادة الحق الفلسطيني رغم كل الذي حدث ويحدث ، وقولته (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) خير دليل على ذلك ، بل إنه كان يقول في كل مناسبة : إنه لو قبل بالحلول الناقصة والاهتمام بمصر فقط ما كان واجه تلك الصعاب والمؤامرات والحروب ، ولم يسقط من تفكيره في أي يوم من الأيام أن حقوق الشعب الفلسطيني لا بد أن تكون في مقدمة أي طلب أو قرار أو تسوية ، وهو يقول : إن القوة الذاتية هي السبيل ، ولقد تجسدت مواقفه في إصراره والتزامه بتقديم العون المادي والمعنوي والسياسي للعمل الفدائي الفلسطيني ، ويرى أن النضال الفلسطيني وخصوصا بعد نكسة أو هزيمة سنة ١٩٦٧ م علامة تحول بارزة

(١٠٢) البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط - محمود رياض - ص ٢٦٦ .

فى الوضع العربى كله ، وهو الذى حافظ على حركة الفدائين الفلسطينيين نشطة وحررة من القيود الرسمية وكان يبذل جهوده فى تسوية الخلافات العربية الفلسطينية، والخلافات الفلسطينية الفلسطينية ، كما حدث مع الأردن ولبنان ، ونظن أن كل الأحداث والخلافات والتقاتل الذى جاء بعده ما كان يمكن أن يحدث لو كان موجودا ، كما حدث للكويت فى عهد الرئيس عبدالكريم قاسم حيث أوقف جمال عبدالناصر طموحات هذا الرئيس فى الكويت ثم ما حدث فى عهد صدام حسين (رحمه الله) مع الكويت عندما لم يكن هناك من يمنع العدوان، هذا العمل الذى أقدم عليه الرئيس صدام وأدخل به الأمة العربية وفى مقدمتها بلده فى مأزق لا يعلم إلا الله كيف يمكن أن ينتهى ، ومن خلال مراحل النضال الفلسطينى الطويل فإن عبدالناصر لم يحاول ولا سمح بفرض وصاية على الفلسطينيين ونضالاتهم ولم يحدث أن عمل على خلق منظمة تابعة لمصر كما عمل بعده أغلب الحكام فى المنطقة على الرغم من دوره البارز ورأيه القاطع الذى ما كان يعترض عليه أحد فيما لو أراد أن يفعل شيئا من ذلك ، وأذكر أنى سمعت من ياسر عرفات (رحمه الله) القول : أن عبدالناصر قال له : (لقد حرقت دمي علشان أحافظ عليكم وكان سهلا بالنسبة لى أن أصدر بيانا إنشائيا كما يفعل غيرى أعلن فيه تأييدكم وأجعل لكم محطة إذاعة تتحدثون من خلالها وأستريح فى مكاني هذا هنا أتفرج ، لأن قرارى منذ البداية هو أن أكون إلى جانبكم مؤيدا ومناصرا وحتى مقاتلا ، أكون إلى جانبكم لحمايتكم من أنفسكم ومن الغير ، وقال ياسر عرفات (أبوعمار) : لقد قلت للرئيس : (إن الله قد كتب عليك أن تحمل هموم العرب كلهم وبكل خطاياهم) كذلك سمعت من أبوعمار وكنت أتعامل معه (غالبا) كل يوم بسبب عملى الدبلوماسى فى بيروت قولا لا أنساه وهو ممثل بارع وسياسى كبير ، قال وهو يعزى فى وفاة جمال عبدالناصر) لقد مات الرجل الذى كنا نبكى على صدره ! (ويذكر السيد سامى شرف فى كتاب عبدالله إمام أن) جمال عبدالناصر كان قد اصطحب أبوعمار معه سنة ١٩٦٨م على طائرته الخاصة إلى موسكو وقدمه للزعماء السوفيت ونتيجة لذلك بدأ إمداد المنظمة بالسلاح كما مهد للاتصالات السياسية والتأمين السياسى العالمى بعد ذاك ، وأضاف ، كان عبدالناصر يرى أن استعادة الضفة الغربية والقدس عملية صعبة

ويجب أن يبدأ العمل فيها من الداخل حتى لا تتعرض للتهويد على الرغم من أن الأردن صار يقاوم التسلل والعمليات الفدائية عبر نهر الأردن وكان يعتقل الفدائيين .. انتهى .

كان لعبدالناصر علاقات متينة وربما يمكن أن يقال صداقة مع صحفيين بارزان في العالم وهما (الهندي كارانجا والبريطاني أنتوني ناتنج) وقد عرف القراء العرب كليهما من خلال تلك المقابلات التي كانا يجريانها بين وقت وآخر مع ناصر (هكذا يسمى في الغرب) عرف (كارانجا بمقابلة الألف سؤال مع عبدالناصر حتى أنه يقال : إن كارانجا كان آخر سؤال له في تلك المقابلة الطويلة والتي ضمت ألف سؤال جاوب عليها ناصر ، أنه فجأة سأل عبدالناصر قائلاً ، لماذا شعر رأسك أكثر شيباً من شعر وجهك ؟ فرد عبدالناصر قائلاً ، لا بد أنك تعرف أن شعر رأسي نبت قبل شعر وجهي ولهذا لا بد أن يشيب قبل شعر وجهي ..) أما أنتوني ناتنج فقد أصدر كتاباً قيماً بعنوان (ناصر) تحدث فيه عن لقاءاته مع ناصر وكيف عرفه قائداً وسياسياً وإنساناً ، يهمننا منه ما قاله ناتنج عن موقف عبدالناصر من القضية الفلسطينية ، قال (كان الفلسطينيون يتذكرون بجلاء تام الفترة السابقة على عام ١٩٥٢م عندما كانت معرفة المصريين قليلة واهتمامهم أقل بما ارتكبه وما كان يرتكبه المغتصبون الإسرائيليون في فلسطين ، ولم يكن في استطاعتهم نسيان الروايات الملفقة التي كانت تتناقلها مقاهي القاهرة والإسكندرية وبورسعيد باختطاف الضباط المصريين وبيعهم إلى الإسرائيليين في حرب عام ١٩٤٨م ، كما كانوا يذكرون الآمال العريضة التي أثارها عبدالناصر في نفس كل فلسطيني عندما أعلن أن مصر أصبحت دولة عربية ، وتعهد بمساندة المصالح العربية أينما تعرضت للتهديد ، لقد كان أول زعيم مصري يتحدث بهذه اللغة المطلقة كما أنه أبدى فضلاً عن ذلك استعداداً لأن يقرن القول بالعمل في المراحل الأولى من حكمه ، فبالرغم من أن غارات الفدائيين في عام ١٩٥٥م كانت أقل فعالية مما كان مأمولاً فإنها أوحى على الأقل بأن نزعة نضالية جديدة قد سيطرت على قيادة مصر ، لذلك عندما سأل عبدالناصر في عام ١٩٥٥م أحد الطلبة الفلسطينيين الشبان عن سبب تأييده له ؟ جاءه الرد بلا تردد ، لأننا معشر الفلسطينيين نرى فيك التعبير عن مطامحنا ، لذا أرجو ألا نخذلنا ..

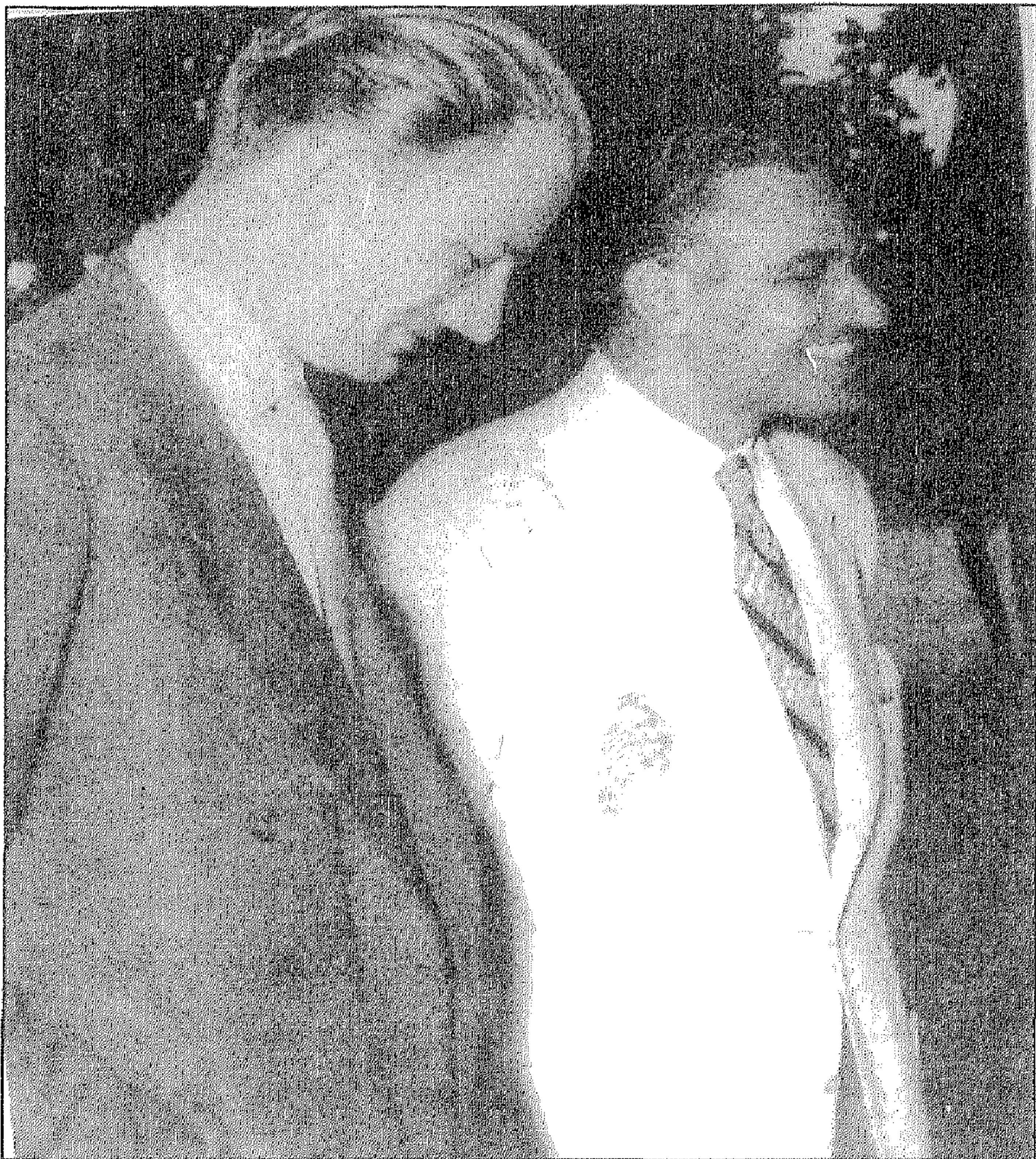
ومع ذلك ، فمهما يكن من حديث عبدالناصر وتصرفه فى مستهل حكمه فإنه لم يتبين آنذاك ولا فى أى مرحلة لاحقة الطريقة التى يعالج بها مشكلة استرداد أراضي الفلسطينيين المفقودة ، وإذا كان عبدالناصر قد تصور لنفسه أنه صورة تاريخية فهى صورة حديثة لمحمد على ولم يكن صلاح الدين قد بعث من جديد ، وكما رفض آراء من أشاروا عليه بتعيين مستشارين له من أبناء الدول العربية الأخرى لإسداء النصيح له فيما يتعلق ببلادهم إذا أراد أن يقود العالم العربى بصورة فعالة ، فقد رفض أيضا أن يشترك الفلسطينيون فى تفكيره بالنسبة لمشكلاتهم إلى أن تمكن ومعه الشقىرى من خلق (الكيان الفلسطينى) فى مؤتمر القمة الذى عقد بالقاهرة ، وحتى فى ذلك الحين كان يقابل أقل عدد ممكن من الفلسطينيين ، مدركا أن أفكاره الخاصة بالعمل لصالحهم مفيدة إلى حد بعيد بأوضاع سياسية وأنه لا يستطيع تحقيق رغبتهم فى القتال فى سبيل نيل حقوقهم فمثلا : لم يقابله ياسر عرفات إلا بعد ذلك بثلاث سنوات عندما قدمه إليه محمد حسنين هيكل بعد حرب سنة ١٩٦٧م باعتباره قائد المقاومة الفلسطينية الجديد (هنا لنا تعليق على ما ذكره السيد ناتنج بشأن المستشارين العرب أو الفلسطينيين ، نقول إن عبدالناصر لابد أنه كان يدرك أن أى استشارة عربية مباشرة لن تؤدى إلا إلى المزيد من التشرذم والخلاف ، وكما رأينا فإن العرب (غالبا) كل منهم له رأى خاص يتبع جهة ما ، أما أخوتنا الفلسطينيين فإنهم لم يتفقوا على هدف واحد أو قرار واحد أو موقف واحد منذ بدأت المنظمات الفلسطينية تظهر حتى هذه الساعة ودليلنا على ذلك ما يحدث ويجرى الآن على أرض فلسطين ..)

ويستمر السيد أنتونى ناتنج قائلا : (وليس معنى هذا أن عبدالناصر لم يكن يعطف على شعب فلسطين ، فقد كان على النقيض من ذلك ينفق أموالا طائلة على قطاع غزة الذى كان يضم جميع اللاجئين الفلسطينيين فى مصر البالغ عددهم ثلاثمائة ألف لاجئ ، وذلك لتنمية المنطقة وتحسين أحوال السكان المطحونين ، ولما تحولت غزة إلى منطقة معفاة من الرسوم الجمركية أصبحت منطقة جذب سياحى مزدهرة نسبيا إذ جذبت إليها أعدادا كبيرة من المصريين وغيرهم من الزائرين ، وزودت بالطرق المعبدة وبمستشفى وبشبكة من الصرف الصحى التى لم يكن لها وجود من قبل ، بل حين كان كل إنتاج مصر من الأسمنت مخصصا للسد العالى

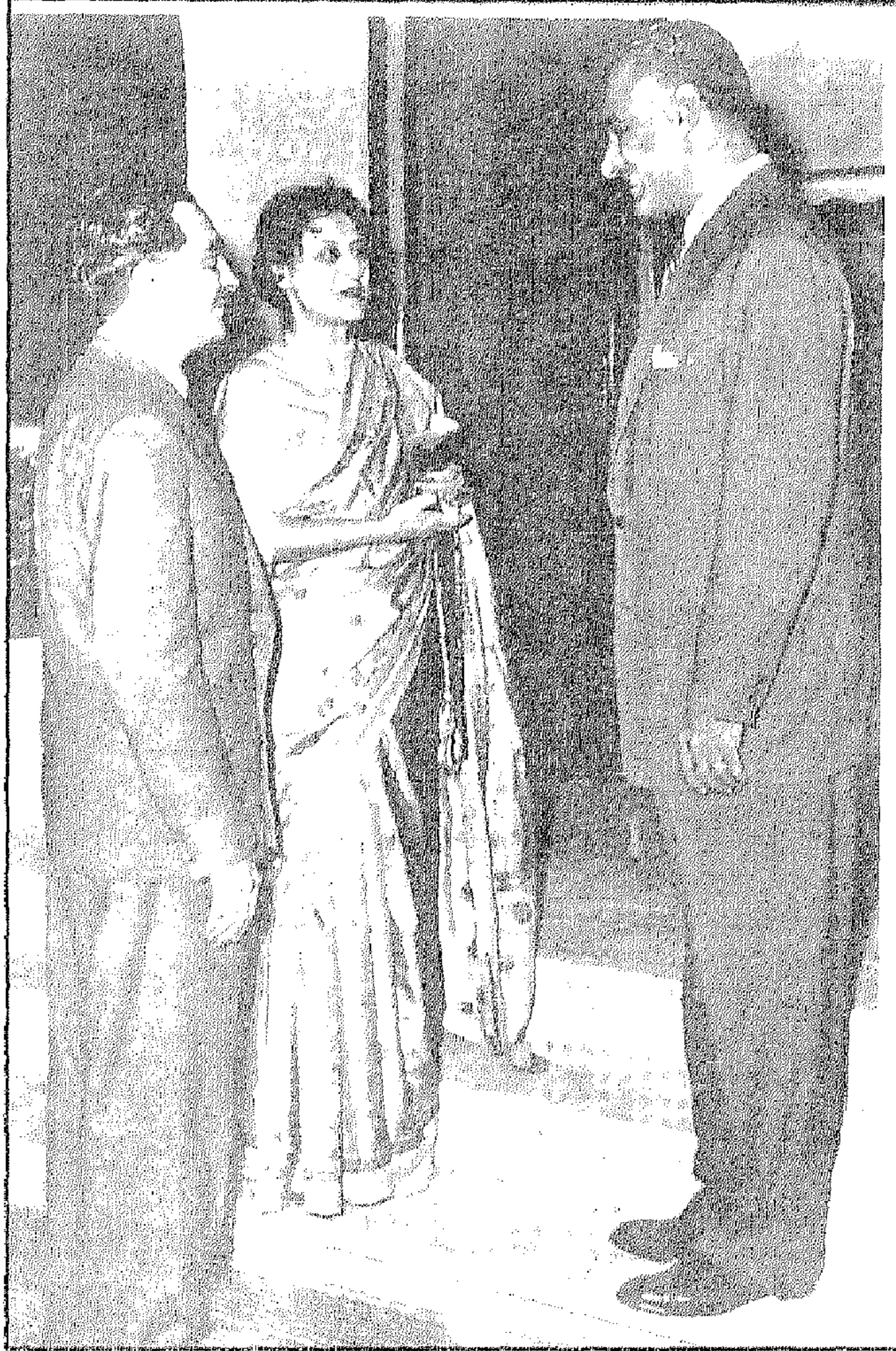
أصر جمال عبدالناصر على ألا يؤثر هذا على احتياجات غزة كما كانت الحكومة المصرية توفر الوظائف لأولئك الفلسطينيين الذين يتخرجون من مدرسة التدريب المهني التابعة للأمم المتحدة ، فكان البعض منهم يعين في وظائف التدريس في مدارس القرى التي لم يكن المدرسون المصريون يرغبون في العمل فيها ، كما كان آخرون يجدون تبعاً لمهاراتهم أعمالاً في مجال الصناعة أو الزراعة لكن بالنسبة للفلسطينيين الأكثر تشدداً فإن هذا الأسلوب العلاجي لم يكن كافياً فقد كانوا يريدون عملاً لا صدقات وأنهم أصيبوا بخيبة أمل بالغة لأن عبدالناصر رغم كل حديثه المتشدد وجهوده التي كانت تبث على الأمل في منتصف الخمسينات فقد حماسه منذ حملة سيناء عام ١٩٥٦م وهي فترة جمود أتاح للمغتصب ، وفقاً لما يدعون ، أن يزيد من إحكام قبضته على أرض فلسطين ، ولقد استطاع جمال عبدالناصر ولا شك ، أن يسيطر على مؤتمر القمة وأن يكشف ما كان يتسم به أمين الحافظ رئيس سوريا من غياب طابعه الغرور ، إلا أنه كان يعلم أيضاً أنه سيتعين عليه في المستقبل أن يكرّس قدراً أكبر من الوقت والحكمة للمشكلة الفلسطينية إذا لم تفشل سياسة وقف العمليات العسكرية التي كان قد انتهجها فلم يكن هناك خطر قيام الفلسطينيين الأكثر تطرفاً بالتحالف مع متطرفي سوريا فحسب وإنما كان الشقيرى نفسه ، الذي انتخب مؤخراً كمتحدث باسم فلسطين من ذلك الطراز من الرجال الذي لا يبقى قائماً إلى ما لا نهاية بدور منسق سياسى لحكومة فى الظل فى انتظار أن تقوم الأمم المتحدة أو الدول الكبرى بتسوية المشكلة ، فكان الشقيرى لا يمل من أن يردد لكل شخص فى كل مناسبة أنه مع استمرار إسرائيل فى تجاهل كل قرار يصدره مجلس الأمن حول فلسطين سوف يتعين على الفلسطينيين أن ينتظروا إلى الأبد إذا ما تركوا للأمم المتحدة مهمة أن تعيد إليهم حقوقهم ، والواقع أن الشقيرى لم يضيع وقتاً فى متابعة قرارات مؤتمر القمة الذى عقد فى القاهرة وما يقرره الحكام العرب .. انتهى .. (١٠٣) .

(٣١٠) ناصر - تأليف أنتونى ناتنج - ص ٢٥٠ الطبعة الإنجليزية .

ملاحظة - مؤلف الكتاب السيد أنتوني ناتنج كان وزير دولة فى وزارة أنتونى إيدن وقد استقال احتجاجا على قرار حكومة رئيس الوزراء البريطانى أنتونى إيدن المشاركة فى الحرب مع فرنسا وإسرائيل سنة ١٩٥٦ م وكان قد انتخب عضوا فى البرلمان سنة ١٩٤٥ م ثم بعد الانتخابات البريطانية سنة ١٩٥١ م عيّن وكيلا للخارجية البريطانية للشئون الخارجية وكان أبرز المشاركين فى مباحثات الجلاء عن مصر سنة ١٩٥٤ م وقد استقال سنة ١٩٥٦ م وهو كاتب وله عديد من المؤلفات عن الشرق الأوسط .



وزير الدولة البريطانية مؤلف كتاب (ناصر) وهو الذى استقال من الوزارة احتجاجا على رئيسه أنتونى إيدن الذى وافق على الاشتراك فى الحرب على مصر سنة ١٩٥٦م متآمرا مع فرنسا وإسرائيل ، وكان صديقا للرئيس جمال عبدالناصر (الصورة تجمعه مع ناصر) وقت إعداد كتابه القيم ، وهو القائل : إن جمال عبدالناصر قد دعا أقرانه من الحكام العرب فى مؤتمر الإسكندرية عام ١٩٦٤م ليصدقوا على قرار إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية التى وصفها بأنها الخطوة الأولى لتحرير فلسطين العربية ولم يكن الملك حسين سعيدا بهذه الخطوة خوفا من أن تؤدى هذه الفكرة إلى أن يصبح الفلسطينيون فى الأردن دولة داخل الدولة (يلاحظ أن ما توقعه الملك قد حدث بعد حوالى ست سنوات) .



ومع الكاتب الصحفي الهندي كارانجا وزوجته ، فقد كان هذا الكاتب أحد أصدقاء الرئيس جمال عبدالناصر لأنه كاتب ملتزم ، كذلك فهو ينتمي إلى بلد صديق كان دوما إلى جانب القضايا العربية العادلة وكان رئيسه جواهر لال نهرو أحد أبرز الزعماء الذين أسسوا حركة عدم الانحياز ، لقد كتب كثيرا كارانجا عن عبدالناصر وعن ثورة ٢٣ يوليو ومختلف القضايا العربية ..

وجدير بالملاحظة أن أنتونى ناتنج يلتقى فى وجهة نظره حول مواقف وسياسات عبدالناصر مع الكاتب الفرنسى (جاك دومال) الذى أصدر كتاب (جمال عبدالناصر من حصار الفالوجة إلى الاستقالة المستحيلة) نكتطف من كتابه جزءا يوضح وجهة نظره فى تلك الأحداث وهى كما يلى :

كيف ضمن عبدالناصر تأييد الدول الأفريقية لحق الشعب الفلسطينى ؟ نظرة عامة ، لم تكن ملكة إنجلترا ولا خيرها فى الشئون الشرقية (أنتونى إيدن) ولا حلفاؤهما الفرنسيون ، يتصورون عندما بدأوا يعدّون العدة لشن عملية السويس ، إنهم كانوا يستعجلون بأنفسهم زحف الاشتراكية فى مصر ، فتحت ضغط الظروف اضطرت الدولة المصرية إلى أن تقسيم الحراسات وأن تقوم بالتأميمات ، وأن تدير بنفسها عددا من المؤسسات الأجنبية ، وعلى عكس التقديرات والتنبؤات أثبتت أنها فعلا جديرة بذلك ، وفى ضوء الخبرة الواسعة النطاق التى نالتها مصر فى هذا الصدد ، قام جمال عبدالناصر وزملاؤه فى عام ١٩٦١م بالثورة الاجتماعية تحقيقا للبند ٢-٣-٥ من قائمة أهداف الثورة .

إن كلمة (الاشتراكية) تحمل باللغة الفرنسية سلما واسعا ومعقدا من المعارف والمشاعر ، وتستخدم للتعبير عن كلمة عربية يتحول معناها بوضوح إلى (عمل اجتماعى) أو (تعاونى) وإن الاشتراكية العربية تقدّس حقوق الإنسان كما أنها ترفض من حيث المبادئ كل شكل من أشكال الإلحاد ، وهى كذلك تقسم الأملاك الشاسعة من أجل تنمية الملكيات الصغيرة بطريقة تنظيمية ، إلى حد أنها استطاعت أن تفرض على خبراء الاقتصاد السوفيت الاعتراف بأن الإشاعية الزراعية لا يمكن تحقيقها فى بعض البلدان ، وأن (الاشتراكية العربية) كما سنحاول أن نثبت فيما بعد ، ليست مقطوعة من أصدق التقاليد الإسلامية ، برغم أن هناك بعض الاشتراكيين العرب الذين يسيئون فهم هذه الاشتراكية ويتخيلونها أحيانا فى صور تكاد تكون ضيقة الإطار وخادعة ، وفى هذا المجال تكون المنجزات هى التى يمكن اعتبارها مقياسا للعمل الاشتراكى العربى ، أكثر من النظريات التى يطلقها المذهبيون ..

ويبدو أن المبدأ القائل بأن الوحدة العربية والثورة الاجتماعية يكملان بعضهما ويسيران جنبا إلى جنب ، قد فرض نفسه على جمال وزملائه حتى

استطاع ذلك المبدأ أن يدفعهم فى شهر سبتمبر ١٩٦٢م إلى اتخاذ خطوة فاصلة على هذا الطريق ، بمساندتهم للثورة اليمنية التى دفعت بمصر على طريق حرب دامية بين العربى وأخيه العربى ، والحق أن جمال عبدالناصر لم يكن بطبيعته من أنصار التدخل ، وهناك عدة مواقف اتخذها الرئيس المصرى تثبت ذلك بوضوح ، ففى عام ١٩٦١م وعندما قامت فى سوريا حركة الانفصال ، أوقف جمال بنفسه تدخل جيشه حفاظا على الوحدة العربية من حرب أهلية ، وإذن ، فلماذا تدخل جمال فى اليمن ؟ هل كان يتصور مدى تطورات هذه المشكلة ؟ كان يدرك على أى حال أن اليمن ، شأنها فى ذلك شأن الكونغو ، بلد قبائل حريصة كل الحرص على استقلالها وتقاليدها ، وأن أى تدخل هناك كان محكوما عليه بأن يواجه العقبات والمشاكل نفسها التى لقيها الاستعمار الفرنسى ، حينما أراد أن يفرض سيطرته على المغرب ، إلا أن اليمن من الناحية الجغرافية البحتة ليست هى الكونغو، وليست هى المغرب، إنها جزء عضوى من الجنوب العربى التى تسيطر بريطانيا على القسم الأكبر منه ، جزء من منطقة تتبلور فيها آمال ومخاوف أكبر وأضخم المصالح المالية فى العالم ، إن أصحاب المصالح البترولية ، ترعشهم فكرة احتمال حصول هذه المنطقة على استقلالها ، فهم يجهدون للحصول على تأييد إيران لمخططاتهم السوداء ، ولا ييخلون فى وعودهم بالتنازل لإيران عن بعض أجزاء الجنوب العربى ، إن اليمن تقوم الآن بدور إحدى القواعد المتقدمة فى معركة البترول الكبرى ، ويبدو أن قيامها بهذا الدور لن ينتهى قريبا ..

ويستمر الكاتب معددا جهود جمال عبدالناصر فى دعم الفلسطينيين وقضيتهم على المستوى الإقليمى والدولى فيقول مباشرة بعد لقاء عبدالناصر والمارشال تيتو ورئيس الوزراء جواهر لال نهرو فى نيويورك : عمل عبدالناصر على عقد مؤتمر فى المغرب خلال شهر يناير ١٩٦١م بإشراف عاهل المغرب ضم رؤساء كل من الجمهورية العربية المتحدة وسيلان ومالى وغينيا رغانا والجزائر وقد حصل جمال عبدالناصر خلال هذا المؤتمر من هذه الدول على تأييد إجماعى لحقوق اللاجئين الفلسطينيين مما اعتبر نصرا كبيرا ، فى الوقت الذى كانت فيه الدعاية الصهيونية تساندها رؤوس الأموال الأمريكية الضخمة ، تحاول أن تشق للنفوذ الاستعماري الغربى مناطق نفوذ فى آسيا وأفريقيا ، وفى أبريل أعلن

عبد الناصر تأييد بلاده لجميع الدول الأفريقية التي تناضل من أجل الحصول على استقلالها .. انتهى) (١٠٤).

ولقد أورد (دومال معلومة مهمة جداً نقلا عن رواية ذكرها له الكاتب) يولقيم جوستون ونصها كما يلي :

(إن أحد عملاء إدارة المخابرات المركزية الأمريكية قال له ذات يوم ، إن مشكلتنا مع جمال عبد الناصر أنه لا عيب فيه ، الأمر الذى يجعل من المستحيل شراءه أو تعرضه للضغط أو التهديد بالتشهير ، ومن ثم يستحيل الإطاحة به) .

هذه شهادة من عدو تشرف عبد الناصر ، على الرغم من أنه لم يأت بجديد ذلك إن جمال عبد الناصر مشهور بطهارة اليد ونقاء السريرة والزهد فى المال وبذلك كان نصيرا للفقراء والمحتاجين والمظلومين فى بلاده وغيرها من بلاد العالم وهو الشئ الذى جعل عبدة الدولار من العرب يتآمرون عليه خدمة لآسيادهم لوردات النفط ، كذلك فإن جمال عبد الناصر كان يكره العنف وكانت ثورته نقية بيضاء وهو الذى قال لزملائه عندما صوتوا فى مجلس الثورة على محاكمة الملك فاروق إنه إذا ما أصرروا على هذا الموقف فإنه سيستقيل ، ويروى لنا الكاتب الفرنسى جورج فوشيه فى كتابه (جمال عبد الناصر على طريق الثورة) نص حديث دار بين جمال عبد الناصر والكاتب البريطانى (دسموند ستىوارت) أن جمال عبد الناصر أكد له على الرغم من أنه رجل عسكري وثورى فإنه يكره العنف ، فهو لا يحب قساوة (أتاتورك) الذى لم يعف عن توقيع الحكم بالإعدام على صديق حميم له ، وهو يعجب بجورج واشنطن الذى عرف بطيبة قلبه ، وقد لاحظ دسموند أن اختيار السلك العسكرى يتعارض مع هذا الإيمان بالسلم ، وهذا الشجب للعنف على طريقة (غاندى) فأجاب جمال عبد الناصر على ذلك ، إن هذا التناقض ظاهرى ، وفى بلد كمصر يمكن اعتبار الجيش وسيلة للتثقيف ، ودور الجيش يمكن أن يختلف بين بلد وآخر ، ثم هل تعلم بأننى كنت فى فجر الثورة من معارضى تنظيم جيش كبير ، لقد كنت مسالما حتى حيال الخصوم ، وزملائى الضباط هم الذين كانوا يبرزون الأخطار المحيطة بنا ، ولكن كل شئ قد تغير عندما

(١٠٤) جمال عبد الناصر من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة - جاك دومال - ص ٩٠ .

حصل العدوان الإسرائيلي على غزة ، وكل ذلك قد تبدل في ليلة وضحاها يوم ٢٨ شباط ١٩٥٥م عندئذ فهمت أنه يجب أن يكون لدينا أسلحة للدفاع عن أنفسنا ، لقد رأيت اللاجئين الفلسطينيين مشردين فهلعت وخفت من مجرد التفكير في إمكانية حدوث ذلك للمصريين ، لذلك طلبنا الأسلحة من الغرب الذي رفض أن يبيعنا إياها ، وقد أخذناها من تشيكوسلوفاكيا بدون قيود سياسية ..

ويقول المؤلف : إن هذا التصريح يزيل جميع الملاحظات ويشرح الظروف التي أُلقيت فيها الخطبة على طلاب الأكاديمية العسكرية عام ١٩٥٥م فقد كان هناك عدوان إسرائيلي على غزة ترك أربعين قتيلًا من المصريين ، وعلى الأثر شعرت مصر بأنها ضعيفة من حيث القوة العسكرية والأسلحة .. انتهى (١٠٥).

والواقع أن جمال عبدالناصر كان الرجل الوحيد في دنيا العرب الذي يستطيع أن يوقف أي انحذار أو اختلاف أو تقاتل ، وما حدث ويحدث على الساحة العربية الآن ينبىء بأنه لم يعد هناك من يوقف أو حتى يؤثر أو يوقف المؤامرات والتقاتل بين العرب كما كان يفعل جمال عبدالناصر ، ولنعطى صورة عن ذلك ، هذه مذكرات (محمود رياض) وزير خارجية عبدالناصر وهو يتحدث عن واحد من أخطر الأحداث العربية التي كادت تؤدي إلى كارثة ربما لا مثيل لها خلال القرن العشرين ، يقول :

كانت احتمالات الصدام بين حركة المقاومة الفلسطينية والملك حسين في الأردن دائما ، وخلال سنتي ١٩٦٩ - ١٩٧٠م لم يخل اجتماع بين عبدالناصر والملك حسين أو زعماء المقاومة من نصيحة ردها عبدالناصر عن ضرورة ضبط النفس والتنبه إلى المحاولات الإسرائيلية لتفجير التناقضات الفلسطينية الأردنية ..

ولقد كانت إسرائيل من جانبها حريصة من البداية على طمس الوجه الفلسطيني في الصراع العربي الإسرائيلي ، حتى لا يبدو الصراع في الشرق الأوسط بين إسرائيل وبين المقاومة الفلسطينية التي تسعى إلى تحرير ترابها الوطني وإقامة دولتها المستقلة ، وكان علينا أن نبين للرأي العام العالمي أن أساس الخلاف العربي الإسرائيلي هو قضية الشعب الفلسطيني ..

(١٠٥) جمال عبد الناصر في طريق الثورة - جورج فوشيه - ص ٢١٠ .

ومن ناحية أخرى كان علينا أن نحتوى أولاً بأول التناقضات التي لا مفر منها ، والناشئة من حقيقة أن المقاومة الفلسطينية تمثل شعباً يعيش جزء منه تحت نير الاحتلال الإسرائيلي ، وجزء آخر مشرد يعيش في معسكرات اللاجئين في لبنان والأردن وسوريا ..

وبالنسبة للضفة الغربية وغزة فلقد كان الاحتلال الإسرائيلي يستخدم ضد السكان أبشع وسائل القهر والتنكيل ، أما بالنسبة لمئات الألوف الآخرين من الفلسطينيين المقيمين في كل من لبنان والأردن فقد كانت هناك خلافات بين المقاومة الفلسطينية التي ترغب في العمل ضد الاحتلال الإسرائيلي وبين السلطة في كل من لبنان والأردن ، التي كانت ترى أن هذه الأعمال تعرض أمن مواطنيها للخطر ، وكان الخط الرئيسي للسياسة المصرية في هذا المجال يعتمد على ضرورة المحافظة على حركة المقاومة الفلسطينية وتفادي الصدام بينها وبين السلطة الشرعية في كل من لبنان والأردن ..

وعندما هدد الصدام بين المقاومة والسلطة اللبنانية باحتمالات خطيرة في سنة ١٩٦٩م لجأ الطرفان إلى مصر للوساطة فدعوت كلا من ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والعماد البستاني قائد الجيش اللبناني إلى القاهرة للاتفاق على ترتيبات تحول دون تفجر الموقف وكسان الرئيس اللبناني شارل حلو يشكو من عدم وجود تنسيق بين المقاومة الفلسطينية وبين الجيش اللبناني ، مما أدى إلى قيام إسرائيل بشن الغارات ضد القرى اللبنانية ، ومن ناحية أخرى فقد كانت المقاومة تشكو من أن السلطات اللبنانية تضع القيود على حرية تحركاتها في جنوب لبنان ..

وعقدت عدة اجتماعات في القاهرة في شهر نوفمبر سنة ١٩٦٩م مع الطرفين بهدف وضع اتفاق ينظم العلاقات بين المقاومة الفلسطينية والحكومة اللبنانية ، وقد رأيت للسرية أن تتم اللقاءات في وزارة الحربية وكان يشارك فيها الفريق فوزي ، وبعد عدة جلسات أمكننا التوصل إلى اتفاق وقعه الطرفان وعرف فيما بعد باسم (اتفاقية القاهرة) وهو الاتفاق الذي جرى العمل به طوال السنوات الأربع التالية ، وكان هذا الاتفاق يقضى بتمركز القوات الفلسطينية في مكان محدد بمنطقة العرقوب داخل الأراضي اللبنانية وبالقرب من الحدود اللبنانية

السورية ، على أن تكون للمقاومة حرية الحركة فى بقية مناطق الجنوب اللبنانى دون أن تكون لها مواقع دائمة ..

وعندما استقر الموقف فى لبنان بدأت ألاحظ تصعيدا فى الأردن ، وكان هذا التصعيد ينطلق من الاحتكاكات اليومية بين المقاومة الفلسطينية وبين السلطات الشرعية فى الأردن ، وتوالى تقارير سفارتنا فى عمان فى صيف عام ١٩٧٠م تشير إلى قرب الاصطدام بين المقاومة الفلسطينية والجيش الأردنى مما قد يؤدى إلى تصفية المقاومة فى الأردن ، كما وصلت رسالة من الرئيس السودانى جعفر نميرى وحملها نائب رئيس مجلس الثورة السودانى إلى الرئيس جمال عبدالناصر عن تخوف السودان من تصفية المقاومة الفلسطينية فى حالة صدامها مع الجيش الأردنى ، وكان عبدالناصر يشعر بالقلق الشديد خوفا على مصير المقاومة وكانت تصلنا معلومات تشير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية تغذى هذه الخلافات ..

ولقد كنت أرى بأن أى صدام أردنى فلسطينى سوف يؤثر بشكل خطير على الجبهة الشرقية وكانت خطتنا لتحرير الأراضى العربية تركز على قيام جبهة شرقية فعالة تضم سوريا والأردن والعراق والمقاومة الفلسطينية ، وأى صدام بين هذه القوى يضعف إلى حد كبير فعالية الجبهة ..

وعندما أعلنت مصر قبولها لمبادرة روجرز سنة ١٩٧٠م وبدأ سريان وقف إطلاق النار على الجبهة المصرية فى مطلع شهر أغسطس بادرت بعض العناصر الفلسطينية فى مهاجمة عبدالناصر واتهامه بالتواطؤ مع الأمريكان وكانت هذه التهمة تنطلق من محطة إذاعة صوت فلسطين من القاهرة وهى التى كانت الحكومة المصرية تتيحها للفلسطينيين ، فاضطر عبدالناصر إلى الأمر بإغلاق محطة الإذاعة ، ومع ذلك فلم يسمح عبدالناصر بتحويل الأمر إلى عداء مصرى فلسطينى ، وكان يرى بأن من حق الفلسطينيين أن يهاجموا مشروع روجرز والتحرك الأمريكى الجديد ، ولكن دون توجيه هجوم للسياسة المصرية التى لم يكن حرصها على القضية الفلسطينية يوما ما موضع شك ..

وعندما حضر الملك حسين إلى القاهرة فى الأسبوع الثالث من أغسطس ١٩٧٠م لاحظت ضيقه الشديد من تصرفات المقاومة الفلسطينية فى الأردن والتى

قد تؤدي إلى احتكاكها بسلطات الأمن الأردنية ، ثم ذكر أنه لا يوافق إطلاقاً على رأى بعض العناصر الفلسطينية والتي تتصور أن احتلال إسرائيل لمزيد من الأراضي العربية كرد فعل للأعمال الفلسطينية سوف يدفع الدول العربية إلى تعبئة مواردها وإمكانياتها للتصدي للعدوان الإسرائيلي وتحرير فلسطين في النهاية ، واستطرد الملك حسين قائلاً : إن قبول هذا المنطق سيؤدي إلى احتلال إسرائيل لمزيد من الأراضي العربية ، بينما يجب أن نعمل بكل الوسائل للمحافظة على ما في أيدينا من أرض ننطلق منها من أجل استرجاع ما فقدناه في حرب ١٩٦٧ م ..

ولقد شعرت بالمشكلة التي يواجهها الملك حسين وتفهمت دقة موقفه ، وفي نفس الوقت كنت ألس متاعب الفلسطينيين والمرارة التي تولدت في نفوسهم بسبب الظلم الذي حاق بهم منذ تشريدهم من وطنهم وأراضيهم ، الأمر الذي كان يدفعهم في بعض الأحيان إلى القيام بأعمال يائسة ، وكان من الصعب مطالبة الفلسطينيين الذين تشردوا من أراضيهم ويعيشون في خيام اللاجئين منذ عام ١٩٤٨ م أن يفكروا بنفس الأسلوب الذي يفكر به هؤلاء الذين يعيشون في بيوتهم وأوطانهم وينظرون إلى المستقبل بأمل لهم ولأولادهم ..

وعندما اجتمع عبدالناصر بالملك حسين في اليوم التالي بالإسكندرية ، أثار الملك حسين موضوع تفاقم الخلافات بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية ، وأشار إلى قيامهم بعمليات داخل إسرائيل عبر الحدود الأردنية دون تنسيق مع سلطات الجيش مما يؤدي إلى قيام إسرائيل بغارات مفاجئة على القرى الأردنية ..

وقد شرح جمال عبدالناصر للملك حسين كيف عالج موضوع خلاف منظمة التحرير مع مصر حول مبادرة روجرز وطلب من الملك حسين ألا يهاجم أو أن يعمل ضدهم لأن المستفيد في هذه الحالة هو العدو ، وأضاف عبدالناصر ، أرجو أن تأخذهم بالصبر حتى ولو أخطأوا وذلك من أجل شعبك ومن أجل الشعب الفلسطيني ، ولا تنسى أن سيدنا أيوب كان من سكان نهر الأردن ، ولهذا أعتقد أنك ستكون قادراً على حسم الأمور باتزان وحكمة رغم وجود بعض المتطرفين الفلسطينيين ، وإنما في نفس الوقت توجد بينهم أيضاً عناصر كثيرة متزنة ، وعموماً أرجو أن نتشاور في هذا الموضوع لأنني اعتبره أهم موضوع عربي في الوقت الحاضر ، وتوصية

أخيرة أكررها وهي أن تتعاملوا في هذا الموضوع بالعمل السياسي وليس بالعمل البوليسي ، ولكن معناه أن هذا يتطلب منكم القيام بتحريك سياسي ضخم ، إنني أأسف لكوني تحدثت معكم في شئونكم الداخلية ، ولكن السبب بسيط وهو أن أي ضربة عندكم سوف تكون لها ردود فعل عديدة على جبهتنا ..

وقد رد الملك حسين قائلاً ، سيادة الرئيس أما عن صبر أيوب فهذا هو شعار سياستنا منذ أمد طويل ، ولكن هناك ولا شك حدود للصبر ، إن وجود جميع منظمات المقاومة على أرضنا نقل إلينا كل التناقضات الموجودة في العالم العربي كذلك فإن المتاجرة بشعار (من النهر إلى البحر) هو عملية مغرضة القصد منها نسف ما هو باق لدينا من إمكانيات عربية لتحرير أراضينا ، والملاحظة أن العمل ضدنا من أفراد المقاومة يتزايد يوماً بعد يوم محاولين إثارة الشك والبلبل في صفوفنا حتى داخل القوات المسلحة الأردنية ولكن الحمد لله فالوحدات العسكرية مازالت سليمة حتى الآن ، إن الاستفزازات من أفراد المقاومة للسلطة الأردنية لا حدود لها ، وعلى سبيل المثال وليس الحصر ، تسير سيارات المقاومة في المدن والطرق دون أن تحمل أي أرقام أو علامات مميزة ، وبذلك يستحيل على السلطة المحلية أن تقوم بواجبها عند حدوث اصطدام أو وفاة أو إصابة لأي من المدنيين الأبرياء ..

ورد عبدالناصر قائلاً : لقد سبق أن تحدثت كثيراً مع قيادات المقاومة بشأن ضرورة الامتناع عن عمليات الاستفزاز للسلطات الأردنية المحلية ، وفي الحقيقة إنهم كانوا معي مدركين آثار هذا الاستفزاز وما ينجم عنه ، ولكن للأسف بينهم من يرتكب بعض الأخطاء ، ومع ذلك وبصفة عامة ، من الممكن أن يعاد بحث مثل هذه الأمور على أن نراعي مصالح كافة الأطراف ، وقبل أن تنتهي الجلسة ، أرجو أن أكرر ما طلبته خلال حديثي معك اليوم وهو أن نتوخي الصبر والحكمة ، وإنني على ثقة من أن الله سوف ينصرنا في معركتنا مع إسرائيل بعد أن صبرنا وعملنا بجهد وبعرق لمدة ثلاث سنوات متتالية ..

ولكن لم يمر أسبوعان على ذلك الاجتماع إلا وتفجر الموقف بين المقاومة والسلطات الأردنية وقد عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعاً طارئاً لبحث الموقف المتفجر في الأردن وشكل لجنة خاصة لهذا الغرض سافرت الى عمان يوم ٧ سبتمبر .. والباقي معروف .. انتهى (١٠٦) .

(١٠٦) البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط - محمود رياض - ص ٣٠٠ .

والواقع أن تلك الأعمال الطائشة والتجاوزات والاستفزاز لم يكن يخدم إلا مصالح العدو الإسرائيلي، ولا يعرف المرء لذلك أى سبب غير أن بعض تلك الجهات إما أنها مأجورة بحيث تفسد كل شئ أو أنها فاقدة الأمل وتعمل بمقولة (على وعلى أصدقائي - ليس أعدائي) وها نحن نشهد الآن وخلال منتصف القرن الواحد والعشرين أبشع عمل تقوم به جماعة من الفلسطينيين أطلقت على نفسها اسم (فتح الإسلام) وهى بالتأكيد ليست من الإسلام فى شئ، قامت هذه الجماعة بتفجير الوضع فى البلد العربى الصغير (لبنان) وأدخلته وجيشه فى قتال دام أكثر من ثلاثة شهور فى مخيم يسمى (نهر البارد) شردت منه حوالى عشرين ألفا من اللاجئين أيضا الفلسطينيين، واضطر الجيش اللبنانى أن يستخدم كل الوسائل الحربية وهى قليلة لمواجهة هذه العصابة المجرمة بدلا من أن يوفر ما لديه للدفاع عن بلاده وشعبه، فتح الإسلام هذه لا بد أنها مأجورة من جهة ما لها مصلحة فى تفجير الوضع فى لبنان وربما كانت تلك الجهة تتوقع حدوث حرب أهلية جديدة فى هذا البلد بحيث تختلط الأوراق، ولكن هذا لم يحدث وقد تم القضاء على هؤلاء المجرمين ومن المتوقع أن تظهر النتائج التى ستكون وبالا على من كان وراءهم.

الملك حسين ينظر باهتمام إلى جمال عبدالناصر وهو يوقع اتفاق إطلاق النار بين الجيش الأردني والمنظمات الفلسطينية في عمان ، وكان عبدالناصر قد طالب الملك بكثير من الصبر .. وهذه واحدة من ساعات الصبر .





آخر كلمة خطها عبدالناصر بيده كانت توقيعه على اتفاق القتال في عمان بين المنظمات الفلسطينية والجيش الأردني ، وهو يجلس بين المتقاتلين (الملك حسين وياسر عرفات ، ولو تكلم لقال إنها أسعد لحظة في حياته لكن المنية كانت أسبق ..

الثورة التي جاءت في غير وقتها :

لم يكن اليمن سعيدا كما كان يطلق عليه إلا إذا كان التخلف يسعد الإنسان، ولا نظن أن ذلك يمكن أن يكون صحيحا ، وما كان يعرف عن هذا البلد قبل ثورة السلال أنه يعيش في زمن القرون الوسطى ومن المؤكد أنه لم يكن سعيدا بدليل حدوث الثورة فيه ، والواقع أن ما يعنينا هنا هو ما حدث بعد الثورة وموقف عبدالناصر والقوى الأخرى ، وكيف جرت الأمور وجاءت النتائج ، كذلك من المؤكد أن حكم التاريخ سيكون لصالح عبدالناصر ورفاقه إذا ما قورن بين ما كان عليه وضع اليمن قبل التغيير وما صار بعده ، فما كان عليه تنطبق عليه الرواية القائلة (لو عاد آدم عليه السلام إلى الأرض ورأى اليمن قبل ثورتها لقال إنها نفس اليمن التي رأيتها يوم خرجت من الجنة ، ولقال هذه هي اليمن التي رأيتها من قبل ولا يمكن أن أخطئ ، إنها هي كما خلقها الله لم يتغير فيها شيء سوى أن بها أحفادا لي يعيشون على أمل أن تدركهم عناية الله ورعايته ..) .

وعندما قامت الثورة في ٢٩ سبتمبر ١٩٦٢م بقيادة عبدالله السلال كان هناك بعض اليمنيين المقيمين في مصر إما لاجئين أو دارسين وكانت هذه التطورات في اليمن قد جاءت بلا موعد أو انتظار أو ترتيب ، وكانت مصر عبدالناصر لم تضمّد جراحها بعد من عنف الصدمة التي أحدثها الانفصال السوري الذي حدث في ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م أي أن الثورة اليمنية حدثت بعد الانفصال السوري بمدة سنة ويوم واحد ، وكان من الطبيعي وقد حوصرت مصر على إثر ذلك الانفصال من كل جانب أن ترى في هذه الثورة نافذة تتيح لها فرصة مناسبة لكسر الحصار الاستعماري الرجعي والرد بقوة على المشككين والمتربصين فقرر جمال عبدالناصر مساندة الثورة اليمنية مهما كانت المشاكل والصعاب والمخاطر ، والثورة في حد ذاتها مخاطرة ، ولم تكن هناك بيانات أو معلومات عن وضع اليمن ديموغرافيا وجغرافيا وعسكريا وحتى سياسيا ذلك أن هذا البلد كان منمورا خلف كل أحداث التاريخ إلى سنة ١٩٣٦م ، ولذلك بادر جمال عبدالناصر بتشكيل لجنة من السياسيين والخبراء والعسكريين المصريين وقيل إن معهم اثنين من اليمنيين المقيمين في مصر لدراسة الوضع على الطبيعة وتقدير احتياجات الثورة اليمنية ، ولقد ذكر الفريق محمد فوزي أن اللجنة تكونت من :

أنور السادات ويكون مسؤولا سياسيا عن اليمن من أجل التخطيط السياسى والعسكرى العاجل ومعه اليمنيان وهما الدكتور البيضانى والقاضى الزبيرى وكذلك أعضاء عسكريون يمثلون القيادة العسكرية العليا فى مصر وهم العميد على عبد الخبير والعميد طيار مهندس أحمد نوح ومقدم من قوات الصاعقة ، وكان أن سافرت اللجنة بسرعة إلى اليمن وعادت باقتراحات عسكرية أساسها دعم سريع بكتائب صاعقة وسرب طائرات معاونة لقذف القنابل والصواريخ ، واستطلاع جوى، ويقول الفريق فوزى وهو عسكري معروف ومشهود له بالخبرة والمعرفة العسكرية، أن إمكانيات الدعم الجوى إلى اليمن عبر مسافة أكثر من ٢٠٠٠ كيلومتر محدودة للغاية فى الجمهورية العربية المتحدة فى ذلك الوقت ، فاقترح العميد طيار أحمد نوح إمكانية استخدام طائرة التدريب (ياك ١١) بعد تطويرها كي تحمل صواريخ (أوريكلون) جو / أرض وكانت هذه الطائرة تصنع فى الجمهورية العربية المتحدة على ان تنقل الطائرة مفككة إلى صنعاء حيث يعاد تركيبها واستخدامها، وكانت وسيلة النقل الجوى قد اعتمدت على طائرة (الأنتينوف ١٢) التى وصلت حديثا من الاتحاد السوفيتى، كما أمكن استخدام طائرة النقل الجوى (إليوشن ١٤) بعد تركيب حمالات نقل قنابل زنة ٥٠٠ كيلوجرام أيضا ، ونجحت القوات المسلحة المصرية فى سرعة نقل أفراد الصاعقة والطائرات والإمدادات الى اليمن، بعد أيام من قيام الثورة ، وقيل وقتها أن هذه القوة التى لم يزد عدد أفرادها عن (١٠٠٠) فرد سوف تنهى مهمتها خلال ثلاثة أشهر على الأكثر .. انتهى .

والواقع أنه لولا القرار الجرىء والشجاع الذى اتخذه جمال عبدالناصر وتأييد أعضاء مجلس ثورة ٢٣ يوليو له ما كان يمكن أن تنجح الثورة فى اليمن ، رغم ما ترتب على ذلك القرار من خسائر مادية وبشرية تحملها الشعب المصرى على مضض وبكثير من الصبر ، نقول ما كان يمكن أن تنجح الثورة لعدة أسباب وهى :

١ - لم يكن هناك اتفاق وتنسيق كاملان بين الضباط الذين قاموا بالانقلاب حتى أن السلال الذى صار فيما بعد زعيما للثورة لم يكن موجودا خلال الليل وذكر أنه لم يحضر إلا فى الثامنة صباحا وإن كان قد أدى دورا بارزا بعد حضوره فى إنجاح الثورة .

٢- كانت هناك قوات بريطانية وجيش تابع لها في جنوب اليمن (عدن) وقد تحركت تلك القوات مستعدة للتدخل وإفشال الثورة .

٣- وجود الأمير سيف الإسلام الحسن الذي أعلن نفسه إماما بدعم من العربية السعودية التي كان موجودا بها خلال تلك الفترة .

٤- عدم القبض على الأمير البدر وهو ولي العهد ، وقيل إن عددا من الضباط اليمنيين ساعدوه على الهرب .

ومن المعلوم أن الذي قام بالدور الأساسي في الإعداد للثورة والاتصال بالضباط هو العقيد عبدالله جزيلان وذلك حسب وثائق الثورة اليمنية بينما كان عبدالله السلال قائدا لحرس الأمير البدر وقد أبلغه جزيلان بأمر الثورة وربما كان اختياره فيما بعد قائدا للثورة لأنه كان قد اشترك في محاولة الانقلاب على الإمام سنة ١٩٤٨ م وسجن لسنوات عديدة بعد فشل ذلك الانقلاب وخرج من سجنه سنة ١٩٥٥ م ..

المهم أن عبدالناصر قد اتخذ قرار مساندة الثورة اليمنية بكل الوسائل العسكرية والسياسية والمادية، وهو تأييد لثورة أو قل انقلاب كانت فرص نجاحه كما قال القائمون به أنفسهم ٥٪ (خمسة في المائة) وقد أرسل عبدالناصر لجنة تقصى الحقائق ومعرفة ظروف البلد ، تلك اللجنة التي عادت من اليمن وأوصت بإرسال قوات رمزية وبعض الأسلحة ، ولعل أدق وصف لليمن في ذلك الوقت جاء في كتاب محمود رياض حيث قال :

توجهنا بطائرة عسكرية لزيارة اليمن ، وعندما وصلنا إلى تعز ، لم يستطع قائد الطائرة أن يتبين موقع المطار ، إذ كانت تحيط بنا الجبال الشاهقة من كل جانب، ولم يستطع قائد الطائرة التعرف على المطار إلا عندما شاهد الغبار يتصاعد خلف طائرة قرر قائدها السويدي ، وكان يعمل في خدمة الإمام أن يصعد بها إلى الجو ليرشدنا إلى طريق المطار ، وعندما هبطنا لم نجد من معالم المطار سوى الكم الهوائي الذي يشير إلى اتجاه الرياح ..

والواقع أن ما شاهدناه في مدن اليمن سواء في تعز أو في صنعاء أو في البيضاء لم يكن يخطر على بال أحد ، بل لم أكن أتصور أن هناك بقعة على الأرض

ما زالت تعيش فى مثل هذا التخلف الذى شاهدناه ، فلم تكن هناك عملة نقدية ، وإنما كان التعامل يتم عن طريق الريال الفضى وعليه صورة امبراطورة النمسا (ماريا تريزا) باعتباره قطعة من الفضة ، لم تكن توجد فى هذه المدن بنوك أو مستشفيات أو مدارس ، وكان التليفون الوحيد فى صنعاء موجودا لدى الإمام ، وقد أدى هذا التخلف إلى هجرة أعداد كبيرة من اليمنيين إلى شرق أفريقيا وأماكن عديدة فى أنحاء العالم العربى ..

وعندما ذهبنا إلى البيضاء استضافونا فى منزل يتكون كل طابق فيه من غرفة واحدة ، إذ كانت المنازل بطريقة تسمح بأن يدافع سكانها عنها ضد أى هجوم خارجى ..

وكانت المفاجأة فى الصباح ، عندما وفد رجال القبائل لتحيتنا يهتفون باسم جمال عبدالناصر وللقومىة العربية ، واستمعت إلى بعضهم يذكر اسم أحمد سعيد ولم أكن سمعت بهذا الاسم من قبل فسألت زميلى فتحى الديب المسئول عن الشئون العربية فى المخابرات العامة ، فابتسم قائلا إنه الموظف المسئول عن صوت العرب وأدركت قوة الإذاعة ومدى تأثيرها ، كانت المخابرات العامة توافى الإذاعة بالمعلومات عن أحوال اليمن وأسماء القبائل والمشايخ فكان أحمد سعيد يتلو أسماءهم ويدعوهم لمقاومة الاستعمار فى جنوب اليمن وكان اليمنيون يتعجبون لسماع أسماء مشايخهم ، واشتهرت قصة رفض رجال القبائل شراء أجهزة الراديو قبل أن يتأكدوا من أنها تبث إرسال صوت العرب ، ويصرون على سماع الإذاعة قبل شراء الراديو ..

وعلمنا أثناء وجودنا فى تعز أنه حتى يضمن الإمام أحمد ولاء زعماء القبائل كان يحتفظ فى قلعة بتعز بعدد من أبنائهم كرهائن ، ومرت اليمن بفترات كانت الأمور تسير فيها بطريقة لا مثيل لها فى العالم ، فشعوب العالم فى كل الدول تدفع الضرائب للدولة ، أما فى اليمن فإن الحاكم كان يضطر أحيانا لكى يضمن ولاء القبائل أن يقدم لهم المال ، ..

وقد زرت اليمن بعد ذلك عدة مرات بعد ثورتها عام ١٩٦٢م وفى كل مرة كنت ألس التقدّم السريع الذى تحقّقه يوما بعد يوم وفى آخر مرة زرتها كنت أعجب كيف استطاع شعب اليمن الانتقال ببلاده فى فترة قصيرة من ذلك التخلف الشديد إلى كافة مظاهر الحياة الحديثة ..

المهم أن الإمام خلال حديثه معنا كان يؤكد استعداداه التام للتعاون مع مصر ويرفض فكرة الأحلاف وكان يرى إن مصر تمثل سنداً له لمقاومة أى تهديد بريطاني يأتيه عبر عدن ، وقبل مغادرتنا اليمن توجهنا لتوديع الإمام فقدم لصلاح سالم صندوقاً مستطيلاً وطلب منه ألا يفتحه إلا عند وصوله لمنزله في القاهرة ، وفي الطائفة انتاب صلاح القلق وسألني ، لماذا يطلب مني الإمام عدم فتح هذا الصندوق إلا في منزلي ؟ فقلت له ، وما الفرق بين فتح الصندوق الآن أو في المنزل ؟ فطلب من أحد معاونيه إحضار الصندوق ، وعندما فتحه وجدنا به سيفاً ، إلا أن المفاجأة كانت وجود (صرة) بالصندوق ، وعندما فتحها وجد بها ما يقرب من ألف جنيه ذهب ، وغضب صلاح سالم غضباً شديداً وتبرع بالمبلغ لأحد المشاريع الخيرية .. انتهى (١٠٧) .

وعلى ضوء ذلك الوضع في اليمن الذي قامت فيه ثورة كان لزاماً على عبدالناصر أن يقف إلى جانب رجالها بكل ما له ، ولقد ترتب على ذلك إرسال آلاف من الجنود والضباط المصريين لمساندة الثورة اليمنية ، ولأن هذا البلد كان في غاية التخلف كما ذكر السيد محمود رياض وهو شاهد عيان كان على الجيش المصري أن يقوم بجميع الأعمال الحربية والمدنية ، حربية لحماية الثورة ، ومدنية للنهوض بالبلد ، فقد اضطر إلى بناء المدارس وتعبيد الطرق وإنشاء المزارع وتمديد خطوط الكهرباء وعمليات الصرف الصحي وخطوط المياه إلخ ولقد حدث نفس هذا الشيء قبل اليمن بأكثر من عشرة عقود حين وجد نفس هذا الجيش نفسه يقوم بجميع الأعمال الحربية والمدنية في بلد أفريقي هو (السودان) وحقيقة أن أحداث التاريخ تتكرر في مختلف الأزمان وهذه قصة ذلك :

كان استرداد السودان وتوقيع اتفاقية سنة ١٨٩٩ م للحكم الثنائي المصري البريطاني ، وهي الاتفاقية التي وقعها بطرس غالي عن مصر ولورد كرومر عن بريطانيا والتي جاء في مقدمتها أن الأسباب التي دعت إلى الحكم الثنائي هي أن مصر

(١٠٧) كتاب مذكرات محمود رياض - الجزء الثاني - ص ٥٤ - تبرع صلاح سالم يؤكد ما ذكرناه فيما تقدم عن طهارة أيدي هؤلاء الحكام بسبب طهارة رئيسهم ، وقلنا عفت فعفوا يا عمر - صدق على بن أبي طالب عليه السلام وكرم وجهه .

حكمت السودان حكما سيئا مما أدى إلى ضياعه (وموافقة) الحكومة المصرية على السماح لإنجلترا بإدارة السودان لقاء المعونة التي قدمتها إلى مصر في السودان ..

أصبح الحاكم العام البريطاني هو السلطة العليا في السودان تتجمع في يديه جميع السلطات المدنية والعسكرية والتنفيذية والتشريعية ، وبدأت الحكومة البريطانية ترسم سياسة جديدة نحو الجيش المصرى ..

وهناك أنشأ الجيش المصرى طرق السكك الحديدية فى ظروف بالغة القسوة والصعوبة ، قال اللورد كرومر إن هذا الجيش قد مد (٣٢٥) ميلا من خطوط السكك الحديدية خلال ١٤ شهرا وقال أحد الضباط المصريين أنه توجد تحت كل شبر منها جثة جندي مصرى ، وكثير من منشآت السودان فى المدن المختلفة بنيت بواسطة الوحدات المصرية حتى أصبح ذلك طابعا للجيش .. انتهى (١٠٨) .

ويتحدث الفريق أول محمد فوزى فى كتابه (حرب الثلاث سنوات) عن تطور الأحداث فى اليمن بعد الثورة قائلا :

(نشطت القبائل اليمنية المضادة للثورة ، والمدعمة من الخارج ، بالإضافة الى نشاط المخابرات الأمريكية المركزية الموجه ضد الحكم الثورى فى اليمن ، وقد تمكنت هذه القوى المعادية لثورة اليمن من تطوير الوضع الداخلى مما أخرج موقف القوة الصغيرة التى أرسلتها الجمهورية العربية المتحدة وأصبحت المسألة صراعا على السمعة واضطرت مصر الى إرسال دعم عسكرى أكثر ، الأمر الذى أدى بمرور الزمن إلى إرسال قوات برية كبيرة وصلت إلى (١٣ لواء) كما أرسلت معظم كتائب الصاعقة (٧ كتائب) ولواء دبابات ، وكتائب مدفعية ميدان فى حدود ١٠ كتائب بالإضافة إلى الوحدات الإدارية ..

كانت الأولوية الأولى التى دفعت إلى اليمن من الأسلحة الغربية القديمة لكن بمرور الوقت ، وزيادة دفع القوات إلى اليمن اضطرت القيادة الى دفع وحدات مسلحة تسليحا حديثا كما أرسلت أسرابا من القوات الجوية للنقل والمواصلات وأسرابا مقاتلة ، وأسرابا مقاتلة قاذفة من أنواع (ميج ١٥ - ١٧) كما

(١٠٨) قصة ثورة ٢٣ يوليو - أحمد حمروش - الجزء الأول - ٧١ .

ظلت الطائرات (تى يو ١٦) تعمل فى المسرح من قاعدة أسوان الجوية ، وأرسلت بعض قطع بحرية مختلفة المهام والنوعية ، وهى مدمرة ، ٢ فرقاطه ، ٢ ناقلة ، كاسحة ألغام ، كما أنشئت قيادة كبيرة لمسرح العمليات فى اليمن يقودها ضابط برتبة فريق ..

ولقد وصل عدد القوات فى عام ١٩٦٤م الى ٧٠,٠٠٠ مقاتل مصرى ، وكانت الأعمال التى قامت بها هذه القوات حتى عام ١٩٦٤م كافية جداً من وجهة النظر العسكرية ، إذ كانت القوات العسكرية المصرية قد حققت السيطرة الكاملة على المثلث الداخلى فى اليمن وهو صنعاء - تعز - الحديدة - وكان تعزيز هذه المنطقة وسكانها المهمة العسكرية لمصر فى اليمن ، وينتهى الفريق أول محمد فوزى إلى القول :

ونجحت عملية اليمن استراتيجياً وقومياً إذ أنها حققت الآتى :

- ١ - فتحت عيون أهله على العالم الخارجى .
- ٢ - بدأ التحرر للجنوب العربى باليمن الجنوبية ، وبذلك تقلص نفوذ الاستعمار البريطانى فى المنطقة بتواجد ثورات محلية .
- ٣ - بدأ الإحساس بأهمية وجود وعى استراتيجى عربى قومى فى المنطقة العربية .
- ٤ - تغيرت السياسة الاستغلالية لشركات البترول الأجنبية خاصة الأمريكية والبريطانية فى المنطقة .
- ٥ - فتحت الطريق لكل من اليمن الشمالية والجنوبية للاستقلال والتحرر الوطنى والسعى لأخذ معونات ومساعدات تسليح من الاتحاد السوفيتى .
- ٦ - أصبح نجاح ثورة اليمن واستقرار الحكم الجمهورى فيها ، دليلاً على نجاح استراتيجية الجمهورية العربية المتحدة .. انتهى) .
- ٧ - وكما ورد فى كثير من التقارير وكتابات بعض المراقبين أو المشاركين فى تلك الحرب التى تطورت إلى مواجهات بين الثوريين والملكيين ، مصر مع ثورة اليمن ، والسعودية والغرب على رأسه الولايات المتحدة الأمريكية مع ولى العهد الأمير البدر وعمه الحسن ، وكان ذلك بالتأكيد متوقفاً إذ لا أمريكا ولها مصالح كثيرة هناك منها

البتروولية ، وبريطانيا وهى بقواتها وقواعدها فى الجنوب (عدن) إضافة الى مصالحها الاستراتيجية فى المنطقة كلها وقتذاك ، والمملكة العربية السعودية التى ترى قيام نظام ثورى فى خاضعتها قد يهدد نظامها بالكامل ، المواجهة بين هذه الأطراف عسكريا وسياسيا ومخابراتيا قد تصاعدت ، وكان جمال عبدالناصر كما تقدم ذكره قد كلف أنور السادات بملف اليمن سياسيا فإن سؤالا لا بد أن يطرح ، يقول : ما هو دور السادات فى ترجيح كفة تلك الحرب إلى هذا الجانب أو ذاك إذا ما علمنا فيما بعد أن السادات (كما جاء فى تقارير كثيرة أنه كان يتعامل مع المملكة العربية السعودية عن طريق مدير مخابراتها المدعو (كمال أدهم) وقيل إنه كان يتلقى أموالا منها ؟؟

ولقد ذكر الأستاذ عبدالله إمام فى كتابه (انقلاب ١٥ مايو) نقلا عن الأستاذ هيكل أن كمال أدهم صهر الملك فيصل أول من كان وسيطا بين السادات وأمريكا ، ونص ما ذكره فى هذا الخصوص كما يلى :

(يقول هيكل إنه جاء إلى القاهرة فى شهر نوفمبر كمال أدهم صهر الملك فيصل ومستشاره الخاص وتحدث خلال هذه الزيارة عن الوجود السوفيتى فى مصر وما يسببه للأمريكيين من إزعاج فى وقت يحاول فيه السعوديون زيادة اهتمام الأمريكيين بمشاكل الشرق الأوسط ، ورد الرئيس السادات أن مصر تعتمد على الاتحاد السوفيتى فى أشياء كثيرة بينما الأمريكيون يقدمون لإسرائيل كل ما تطلبه إلى حد أنها استطاعت خلال حرب الاستنزاف أن تضرب مصر بالقنابل لمدة ١٧ ساعة متواصلة ، وقال الرئيس السادات لكمال أدهم إنى لن أتى بالروس وحدهم لكنى سأأتى بالشيطان نفسه إذا كان فى مقدوره الدفاع عني ، لكنه أضاف أنه إذا تمت المرحلة الأولى من مراحل الانسحاب الإسرائيلى فإن فى استطاعته أن يعد بإخراج الروس من البلاد ، وسأل كمال أدهم الرئيس عما إذا كان يستطيع أن يبلغ ذلك للأمريكيين فأجابه الرئيس السادات بالإيجاب ، أى أن التخلص من السوفيت كان واردا من قبل لإرضاء الأمريكيين حتى لا ينزعجوا ! ..) (١١٠)

ومن هنا كان السؤال واردا ، كيف لا تواجه القوات المصرية الخسائر الفادحة فى الأرواح إذا كان هذا حال أبرز المسؤولين على ساحة المعركة فى اليمن ..

(١١٠) انقلاب ١٥ مايو - عبد الله إمام - ص ١٥٨ .

ونعلم أن الملك سعود كان فى زيارة إلى الولايات المتحدة الأمريكية مباشرة قبل تلك الأحداث وهناك كان محط أنظار واهتمام كبيرين وهو الذى كان قد هندس بأموال بلاده العملية التآمرية على الوحدة وحقق الانفصال السورى ، ولعله كان ينتظر المكافأة من لدن البيت الأبيض ، ولابد أن الثورة فى اليمن قد جاءت مفاجأة وصدمة له ولغيره من أصحاب المصالح هناك وقبل أن يعود إلى بلاده تم الاتفاق على العمل المشترك للقضاء على هذه الثورة وإفشال المخطط المصرى فى الجزيرة العربية كما قيل ، على الرغم من أن مصر كما تبين فيما بعد لم تكن وراء الثورة أو الانقلاب وإنما هى أيدته عند حدوثه لأن الثوار اليمنيين طلبوا مساعدة الجمهورية العربية المتحدة وكان لابد من الاستجابة لطلبهم انسجاما مع مبادئ الثورة المصرية وإدراكا للأخطار التى ستواجه الثورة التى حدثت فى تلاقى المصالح الغربية والنظم العربية واليمينية ، ومن المؤكد أن عبدالناصر لم يتخذ قرارا بالحرب فى اليمن ولكنه عرض الموضوع على مجلس الرئاسة بحيث تؤخذ الآراء فيما إذا كان من الواجب مساعدة تلك الثورة ، واتخذ القرار بدعم الثورة اليمنية ، ويقول سامى شرف ما يلى :

(إن الأمور فى اليمن قبل الثورة لم تكن مستقرة فقد شهدت اليمن انتفاضات شعبية عديدة كانت تقمع بوحشية ، وكان إصرار قوى التحرر على تحقيق أهدافها مهما كانت التضحيات ، وكان الإمام أحمد يكره السعودية ويخشاهما ، وكان فى نفس الوقت محاصرا بالاستعمار البريطانى فى الجنوب ، لذلك لم يكن أمامه إلا أن يلعب لعبة التوازن بإقامة علاقات ودية مع مصر ، وحدثت لقاءات سياسية وجاءت بعثات لتتعلم فى مصر ، كما أوفدت مصر مدرسين ، وكان الضباط الأحرار اليمنيون يتحركون وحدهم ، وأحب أن أذكر أنه لم يكن لهم أية اتصالات تنظيمية بمصر ، وأن حركتهم كانت يمنية خالصة ، ولكنهم كانوا يدركون أن عبدالناصر لابد أن يساعدهم فى ثورتهم إذا قاموا بها ، وبعد الثورة كانت رسالتهم الأولى تطلب مساندة مصر عن طريق الاعتراف الفورى ، وبالتالى المساعدة فى كسب اعتراف الدول الصديقة ، وتوفير الدعم الإعلامى للثورة ، وسرعة إرسال قوة عسكرية محدودة ترابط فى العاصمة صنعاء ، لأن وجودها سيحد من تدخل أى قوة خارجية ، فضلا عن عمق تأثير التواجد المصرى نفسيا على رجال القبائل ..

وصل الطلب اليمنى ، وفى نفس الليلة أيقظنا جميع أعضاء مجلس الرئاسة ودعوناهم لاجتماع عاجل فى منزل الرئيس بمنشية البكرى ، وحضروا جميعا وهم لا يعرفون ما هى القضية الملحة والعاجلة التى أدت إلى الدعوة لمثل هذا الاجتماع الذى حضره أيضا وزير الخارجية ، وربما ما كان قد فكروا فيه عن سبب الاجتماع أمور عديدة لكنه لم يصل أبدا إلى الموضوع الذى فاجأهم به عبدالناصر ، قال لقد قامت الثورة فى اليمن ، وسيطرت على قصر البدر وعلى الإذاعة وتحفظت على القيادة الموالية للإمام ، واستولت على قصر السلاح وهو مخازن الذخيرة وأن هذه الثورة الوليدة تطلب من مصر المساعدة وفقا لرسالة محمد عبدالواحد ..

ودارت مناقشات طويلة انتهت إلى الاستجابة لهذه المطالب ، انطلاقا من مبادئ الثورة بدعم ومساندة حركات التحرر فى العالم ، فما بالك باليمن ، واتخذت قرارات بالإجماع من أجل الاعتراف بالنظام الثورى الجديد فى اليمن ودعمه ، لقد كان القرار بالإجماع ولم يعترض أحد أبدا من أعضاء مجلس الرئاسة على ضرورة الاستجابة للمطالب ، وكانت المناقشة حول الأسلوب وحجم قوة المساندة ، وغير ذلك من الأمور الفنية ..

كان أنور السادات مسؤولا سياسيا عن اليمن ، وكان من قبل ذلك له علاقة بعبدالرحمن البيضانى الذى كان موجودا بالقاهرة ، كما كان موجود أيضا القاضى محمد محمود الزبيرى والسيد أحمد نعمان ، وهما من القيادات الوطنية وكانا ينسقان العمل مع الأخ فتحى الديب المسئول عن الشؤون العربية والذى عين سفيراً لمصر فى سويسرا ، وكان من رأى السيد أنور السادات أن الثورة لا يلزمها إلا التأمين السياسى ومعاونة عسكرية رمزية ، علما بأن ثورة اليمن لم تكن أبدا من صنع مصر بل إن هذه المقولة إنكار لحق الشعب اليمنى فى تقرير مصيره وفى فرض إرادته وفى أن يحقق التغيير ..

أرسلت مصر بعض القوات الخاصة التى ساندت فى تأمين وتثبيت الأوضاع الجديدة وكان يمكن أن تنتهى الأمور عند هذا الحد ، فالثورة نجحت وأعلنت الجمهورية وهرب البدر إلى السعودية ، ومن ناحية أخرى فإن جمهورية اليمن

الوليدة لم تكن تشكل خطرا على أى وضع مجاور لا شمالا ولا جنوبا ، ولكن البعض رأى فى ذلك عملا عدائيا وبدأ يعد لوأد هذه الثورة .. انتهى (١١١) .

كان ذلك على حد قول أحد المقربين من عبدالناصر وما دار بين أعضاء مجلس الرئاسة الذين اجتمعوا ليتدارسوا الوضع الجديد فى اليمن ، ونعتقد أن السيد سامى شرف قد جانبه الصواب عندما قال (ربما) نقلا عن أحد الحاضرين ، إن الثورة فى اليمن لا تمثل خطرا على أحد ، فى حين انها تمثل أشد خطر على عدة جهات محلية ودولية وما كان يمكن أن يتقبلها هؤلاء دون تحريك إصبع فى اليد الواحدة بل كان الوضع من جانبهم يقضى لا بتحريك أصابع وإنما أساطيل بحرية وجوية وبرية .. إلخ ومن هنا جاء السؤال البديهي الذى طرحه الأستاذ هيكل والقائل (هل يمكن أن يكون هناك تقييم للتدخل العسكرى المصرى فى اليمن لا يأخذ فى حسابه الظروف السياسية التى كانت تسود العالم العربى وقتها ؟؟) .

كان ذلك بعد مؤامرة الانفصال ، ونحن نذكر ملابساتها وما جرى فى سوريا وقتها ، وكان ذلك فى أعقاب مؤتمر (شتوره) الذى اتخذ النظام الانفصالى فى سوريا منبرا للهجوم على الحركة الوطنية العربية ، وكان يبدو أن القوى المعادية للتقدم العربى تريد أن تخنق كل صوت ينادى بالتححر العربى .

وفى ذلك الوقت جاءت ثورة اليمن وانقضت عليها العواصف ، ولا أريد أن أعود إلى التفاصيل حتى لا أنكأ جراحا قديمة شفاها الزمن فيما أتمنى ، وفى يوم عصيب من أيام شهر أكتوبر ١٩٦٢م كانت ثورة اليمن الوليدة وحدها فى مهب العاصفة ، وفى القاهرة كانت هناك مشاورات مستمرة بعد أن طلبت الثورة الوليدة نجدة من مصر بدورها وحجمها فى العالم العربى فى ذلك الوقت ، وكان أنور السادات أكثر الناس اهتماما بهذا الموضوع فى القاهرة لأن اختصاصه السياسى فى القيادة المصرية كان يشمل ضمن ما يشمل شئون اليمن والجنوب العربى والخليج ، وكانت توصية أنور السادات ، فى نطاق اختصاصه ، تلخص فى أن مصر لا يسعها أن تتفرج على ما يجرى فى اليمن مكتوفة اليدين وأن الواجب القومى يحتم عليها أن تتدخل عسكريا - خصوصا بالطيران - لرد العاصفة عن الثورة اليمنية ..

(١١١) عبد الناصر كيف حكم مصر - عبد الله إمام - ص ٣٣٣ .

ودارت مناقشات واسعة حول هذه التوصية .. وأتذكر أنه كان لى فى الموضوع رأى يختلف ، وقد قلته لجمال عبدالناصر ، وأتجراً فأقول ذلك لأن جمال عبدالناصر أشار إلى رأى فى آخر جلسة حضرها لمجلس الوزراء قبل رحيله، وما قاله فى هذا الصدد مسجل بصوته فى وثائق مجلس الوزراء .. شاهدا ومرجعا ..

كان رأيى فى ذلك الوقت يتلخص فيما يلى:

- إننى لا أعرف إذا كانت الظروف الموضوعية فى اليمن مهيأة لنجاح الثورة ..
 - ثم إننى لا أعرف إذا كانت الثورة التى قامت فى اليمن تستطيع أن تتحمل عملياً ثقل التدخل العسكرى المصرى فى اليمن ، وبواسطة القوات المسلحة المصرية ..
- وسألنى جمال عبدالناصر سؤالاً مباشراً :

- هل معنى ذلك أن نترك الثورة اليمنية وحيدة يسهل ضربها ، وماذا يحدث للحركة العربية العامة إذن ؟

وقلت :

- إننى أدرك أهمية نجدة ثورة اليمن ، ولهذا فإننى أقترح تشكيل قوات متطوعين عرب من كل البلاد العربية يذهبون إلى اليمن للقتال فى صفوف الثورة ، وأضفت ، لماذا لا نجعل اليمن معركة شعبية للحرية بمثل ما كانت الحرب الأهلية فى إسبانيا معركة شعبية للحرية ؟ وحتى لو أننا خسرنا المعركة فإن الخسارة ستتحول إلى أسطورة فى النضال العربى تلهم وتلهب خيال أجيال بعد أجيال ، ذلك أسلم فى رأيى من الزج بالقوات المسلحة المصرية فى ظروف شاقة معظمها مجهول ، ثم قلت للرئيس وقتها :

لدى دراسة قام بها باحث مصرى عن الأحوال فى اليمن وعن تاريخه المعاصر وأريدك أن تقرأها ، وسوف أرسلها لك ..

وأشار عبدالناصر الى هذه الدراسة فى التسجيل الموجود بصوته فى سجلات مجلس الوزراء فى آخر جلسة حضرها قبل الرحيل .

كان الرأى المقابل للرأى وقتها يتلخص فيما يلى :

- إن أمن ومستقبل الحركة الوطنية العربية معلق فى الميزان .

- إن الوقت لا يحتمل التردد وإلا ضاعت الثورة اليمنية .

- إن تدخل بعض قوات الصاعقة وسرب واحد من الطيران يكفى .

وبهذا المنطق تدخلت مصر لنجدة الثورة فى اليمن وكان أنور السادات ولمدة خمس سنوات متصلة هو المسؤول الذى تولى إدارة الجهد السياسى المصرى فى اليمن فى حين أن عبدالحكيم عامر كان المسؤول عن الهدف الحربى ، وأعترف الآن _ وهذه شهادة صدق _ أن أنور السادات كان على حق فى مناداته بالتدخل العسكرى لحماية الثورة فى اليمن وإننى كنت على خطأ لأننى نظرت إلى الموضوع من وجهة نظر مصرية إقليمية بحتة ، وذلك لا يجوز إزاء مسؤولية مصر ودورها القومى .. انتهى .. (١١٢) .

والواقع أن بعض الوثائق تشير إلى أن ولى العهد الأمير البدر كان يعد نفسه لخلافة والده الإمام أحمد وكان هناك تنافس شديد بينه وبين عمه سيف الإسلام الحسن ، وكان هذا الأخير ينسق مع جهات إقليمية وأجنبية ومحلية ليزحف من تعز ويتولى الحكم عند وفاة الإمام أحمد ، والسبب أنه ومن يساعده كانوا يتهمون الأمير البدر بأنه على اتفاق من بعض العرب وأنه متأثر بالاتجاه القومى وبالتالي إذا تولى الحكم بعد والده سيفتح الباب للنفوذ المتطرف العربى ، والمقصود بذلك النفوذ المصرى ، بل هناك من يتهم البدر بأنه شيوعى لمجرد أنه كان قد زار الاتحاد السوفيتى ، وكان هناك طرف ثالث يعد للعمل المستقبلى فى هذا البلد وهو بعض ضباط الجيش الذين كانوا قد درسوا وتدرّبوا خارج اليمن إما فى مصر أو العراق ومنهم الجزيلان والسلال ، والذى حدث أن هذا التنافس الذى كان جاريا بغطاء شفاف بين الأطراف الثلاثة جعل كلاً منها يستعجل التحرك ولقد قام الأمير البدر بالخطوة الأولى حيث أعلن نفسه إماماً خلفاً لوالده الذى توفى وصار يرتب الأوضاع حتى أنه ألقى خطاباً قبل الثورة مباشرة قال فيه أنه سيسير على خطى والده ربما كنوع من التطمين لبعض الأطراف فى وقت كان قد تلقى فيه برقية تعزية من القاهرة لا بد أنها كانت قد التقطت وسربت إلى الأطراف الإقليمية التى لا ترضى على الأمير البدر وأرادت أن تحرك عمه وتدعمه لكن ضباط الجيش كانوا

(١١٢) لمصر .. لا لعبد الناصر - هيكى - ص ٥٥ .

أسرع ، وسرعتهم تلك كانت مخاطرة ربما غير محسوبة وكان يمكن أن تفشل لولا مبادرة القاهرة بالتأييد والمساندة لثورتهم التي كانت واقفة على رجل واحدة والرياح تهب عليها من كل جانب .. وفي هذا يقول السيد سامى شرف :

(أوفدت القاهرة العميد على عبدالحير وبصحبته القاضى محمد محمود الزبيرى والدكتور عبدالرحمن البيضانى صديق أنور السادات والطيار عبدالرحيم عبدالله أحد الأحرار اليمنيين والذي قام بدور هام وحيوى لا يعرفه الكثيرون ، وترتب على هذه الزيارة ضرورة عقد معاهدة دفاع مشترك بين اليمن ومصر ، وتم إيفاد أنور السادات فى الأسبوع الثانى من أكتوبر ووقعت هذه المعاهدة بهدف إتاحة الفرصة لمصر لمساندة اليمن ضد أى أخطار وأرسلت ثلاث طائرات حربية وعدد محدود من القوات الخاصة كتعبير عن تصميم مصر على مساندة ثورة اليمن، وفى هذه الحدود فقط كان تصور عبدالناصر لدور مصر فى دعم الثورة هناك .. انتهى) (١١٣) .

لابد أن السيد سامى شرف قد قال هذا رأى بناء على مناقشات دارت فى اجتماعات أعضاء الرئاسة ولا يمكن أن تكون هى رأى الأخير فلا يعقل أن القيادة فى مصر لم تكن على بينة من المناوئين للنظام المصرى والذين على استعداد لأن يقوموا بأى عمل عسكري أو سياسى ضد أى تدخل فى تلك المنطقة خصوصا أن الملك السعودى كما سبقت الإشارة أنه كان فى زيارة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية وعاد مسرعا بعد أحداث اليمن ، وقبل ذلك كان هناك تعاون وتنسيق بين مملكته والقوى الكبرى حيث حققوا ضربة قاصمة للنفوذ المصرى عندما شجعوا وساعدوا ومولوا عملية الانقلاب على الوحدة وتم فصل سوريا عن مصر، بمعنى إنه لم يكن معقولا بعد ذلك أن يسمحوا لمصر بأن تضع قدمها فى صنعاء دون مقاومة مهما كانت الأمور ، على أنه ربما يمكن القول : أن القبائل كلها فى اليمن يمكن أن تقبل بالوضع الجديد عندما يتبين لها أن مصر قد تدخلت عسكريا ، ولكن أين يكون موقف المسئول السياسى عن اليمن وهو كما ذكر على علاقة مشبوهة مع العربية السعودية عن طريق مدير مخابراتها وقتذاك كمال أدهم ؟؟

(١١٣) عبد الناصر كيف كان يحكم مصر - عبد الله إمام - ص ٣٣٦ .

ولقد تطورت الأحداث بشكل عاصف ربما كما قال (أنتوني ناتنج ، إنها فيتنام عبدالناصر) ..

(لأن تسنى لعبدالناصر أن يحقق في اليمن ما حمله مستشاروه على أن يتوقعه من نصر سريع حاسم لأصبح قادرا على استعادة زعامته للعالم العربي لأكثر من لحظة عابرة ، ربما بات مركزه مع عدم وجود منافس قوى بين أقرانه من الحكام ولوجود حاكم صديق له في العراق بدلا من ذلك الذي كان يناصبه العداء ، لا يقل قوة عما كان عليه قبل أن تدهمه سلسلة النكسات الأخيرة .. لكن مغامرة اليمن لم تسر كما كان عبدالناصر يأمل ، فرغم ادعاءات السلال المتكررة من أنه قد سحق مقاومة الملكيين وقضى على تدخل السعودية والأردن فإن قتالا عنيفا قد استمر بين الجيش الجمهوري وحلفائه المصريين وبين رجال القبائل التابعين للإمام تساندتهم السعودية والأردن بالرجال والعتاد بما في ذلك الطائرات ، لقد تكبد الجانب الجمهوري من الخسائر أكثر بكثير مما تكبده خصمه من الملكيين الذين بدوا منذ بداية الحرب وقد احتفظوا بزمam المبادرة في أيديهم والواقع فإن الفرحة الوحيدة التي صادفها الجمهوريون في الستة شهور الأولى كانت عندما أُلغى من عمان تشكيل من المقاتلات الأردنية بهدف تعزيز قوات الإمام ، وطار إلى القاهرة حيث انضم الطيارون في الحال إلى المصريين ..

هكذا لم تمض ثلاثة شهور على قيام الثورة اليمنية حتى أدرك عبدالناصر أن تعهده للسلال سوف يورطه في حملة أطول أمدا مما كان يتوقع ، فقد كانت مساندة السعودية للملكيين ، طبقا لتقديره للموقف ، أكثر فعالية من أى مساعدة يستطيع الجيش المصري أن يقدمها للسلال ، وإن كان مرد ذلك إلى عامل القرب وحده ، وبدأ عبدالناصر يفكر في أن مبادرة مصر بالانسحاب من اليمن ، بشرط موافقة السعودية والأردن على سحب قواتهما أيضا ، سوف لا تلحق أى ضرر بالثورة بل قد تؤدي ، بمراعاة كل الاعتبارات ، إلى مساعدتها وكانت هذه ، ولا شك ، وجهة نظر كل رفاق عبدالناصر في الحكومة تقريبا ..

هذا فضلا عن أن السلال قد بدأ يكشف عن مواطن ضعف خطيرة في شخصيته كزعيم وطني ، فلم تكن لديه لسذاجته التامة أى دراية أو تجربة سياسية

ولأنه لم يظهر أى دلائل على قدرته على توطيد أقدامه كحاكم مستقل نزع إلى الاعتماد كليا على مساندة مصر ، والحقيقة إنه لم يكن ، فيما يبدو يرغب ، فحسب ، بل كان أيضا متلهفا فى أن يضطلع المصريون بإدارة شئون اليمن ، بينما يقوم هو بدور نائب عبدالناصر ، وعندما تم التوقيع على ميثاق الوحدة الثلاثية الفاشلة ، بعد سبعة شهور من ثورة اليمن ، اغتنم الفرصة لكى يتخلص من مسؤولياته ويادر بطلب الانضمام الى الوحدة الجديدة ، ولافتقار السلال إلى خلفية قبلية لم يكن لديه أى معرفة بالسكان خارج المدن ، وما كان رجال القبائل اليمنية ليقبلوا إطلاقا أن يكون السلال حاكما لهم ، ولو لم يتعهدوا بتأييد الإمام كذلك لم يظهر أى قدرة على العمل مع رفاقه من الثوار فقد اختلف فى غضون بضعة شهور من استيلائه على السلطة مع نائبه عبدالرحمن البيضانى الذى فر إلى عدن تطارده تهمة الخيانة ..

ولما واجه احتمال أن يطول أمد الحملة ، وهو احتمال بغىض ، فى مساندة مثل هذا الحليف المرهق ، اقترح عبدالناصر فى ديسمبر عام ١٩٦٢م انسحاب القوات المصرية من اليمن بشرط أن تتوقف مساعدات السعودية والأردن للملكيين ، لكن الأمير فيصل على الرغم من كل الآمال التى علقها عبدالناصر عليه من قبل لم يكن آنذاك يقل عن أخيه سعود كراهية لفكرة إرضاء المصريين ، فضلا عن إنه كان المسئول عن الحكومة السعودية عندما رفضت قبول الكسوة المصرية للكعبة فى مكة وساعد على إشاعة جو من عدم الترحيب بالعمال المصريين أدى الى أن غادر معظمهم البلاد بل إنه وضع العراقيل فى طريق الحجاج المصريين المتجهين إلى مكة بإصراره على ضرورة أن يؤدوا الرسوم بالعملات الصعبة ، وتضافر مع حسين ملك الأردن فى محاولة لنقل مقر جامعة الدول العربية من القاهرة للقضاء على ما كان يعتبره نفوذا مصريا كبيرا ، ومن ثم لم يكن محتملا أن يبدى فيصل استعدادا للسماح لعبدالناصر بالخروج من الشرك الذى أوقعه فيه تدخله فى اليمن ..

وفيما خلا ذلك صدم كل من فيصل وحسين باعتراف الأمريكين بنظام حكم السلال بشرط واحد هو أن يعيد تأكيد التزام اليمن بالمعاهدات التى عقدتها ، وشعرا بأنه كان ينبغى على واشنطن أن تمتنع عن الاعتراف بنظام حكمه مثلما فعل البريطانيون حتى وإن كان ذلك الامتناع نابعا من الرغبة فى عدم تشجيع انتشار

فكرة الثورة إلى أقاليم عدن المجاورة ومحيطها في الداخل ، وعلى ذلك صمم الملكان على أن يوضحا للأمريكيين مدى حماقة تصرفهم قبل الأوان وحكمهم بالقضاء على الملكية في اليمن ، ومع ذلك فكلما ازدادت الجهود لسحق الجمهوريين في اليمن كلما تزايدت محاولات واشنطن لتحقيق تسوية سلمية ، ذلك أن الرئيس كيندى لم يكن تواقا إلى القضاء على أى أسباب قد تؤدي إلى احتكاك بين أمريكا ومصر فحسب وإنما كانت السفارة الأمريكية في الرياض تخشى أيضا أن يخلق تورط السعودية في اليمن لفترة طويلة متاعب داخلية قد تعرض الملكية للخطر وبالتالي تهدد المصالح البترولية الأمريكية ..

ومن ثم عرض كيندى بعد انقلاب السلال بشهرين وساطة أمريكا لوقف القتال في اليمن ، وأوفد ممثلا خاصا من واشنطن لكى يحاول إقناع فيصل بقبول العرض الذى لم يهتم به فيصل أو الإمام ، ولم يتحمس لهذه الفكرة من بين الأطراف المعنية سوى السلال وعبد الناصر ، وعندما رفض طلبه تخلى كيندى عن محاولة إحلال السلام وترك هذا الدور للأمم المتحدة ، ورغم أن السعوديين أعلنوا فى ذلك الوقت التعبئة العامة بين قواتهم فإن الدكتور رالف بانتش السكرتير العام للأمم المتحدة لم يصل إلى اليمن إلا فى مارس ١٩٦٣م أى بعد أربعة شهور من فشل مبادرة الرئيس كيندى فى بعثته لتقصى الحقائق ولم يصل أول فريق من مراقبى الأمم المتحدة إلى مسرح الأحداث إلا بعد انقضاء أربعة أشهر أخرى ، وفى هذه الفترة وبينما كان القتال العنيف مستمرا بقصف سلاح الطيران المصرى لمناطق من اراضى السعودية بحجة أن قوات الإمام تلجأ إليها واصل السعوديون زيادة إمداداتهم ومساعداتهم للملكيين اليمنيين ، ولما وصل مراقبو الأمم المتحدة إلى ميدان العمليات كان ارتباط فيصل والإمام ونضالهما المشترك ضد الجمهوريين أبعد من أن يتيح فرصة لبعثة الأمم المتحدة ..

وينتهى الكاتب إلى القول بعد أن يعدد الكثير من الأسباب والمواقف والهزائم والانتصارات لهذا الطرف أو ذاك فى تلك الحرب ، أن طرفا آخر واجه مصاعب سياسية وعسكرية وطلب نجدة مصر ، قال :

لم تكن اليمن فى ذلك الوقت بالمشكلة الوحيدة التى واجهت عبد الناصر ففي شهر أكتوبر من عام ١٩٦٣م تلقى استغاثة عاجلة طالبة مساعدة عسكرية ، من

صديقه بن بيللا الذى تورط فى صدام خطير مع المغرب حول منطقة من الصحراء تقع على الحدود كان الفرنسيون قد منحوها للجزائر وظلت المغرب تطالب بها منذ فترة طويلة ، ولعدم وجود تشكيلات مدرعة فى جيش كان لايزال مجهزا إلى درجة كبيرة على غرار قوات حرب العصابات التى حاربت الاحتلال الفرنسى ، لم يستطع الجزائريون مقاومة القوات المغربية الأفضل تسليحا عندما تحركت للاستيلاء على المنطقة المتنازع عليها ، لذلك ناشد بن بيللا القاهرة أن تساعد ، وعلى الرغم من مخاوف عبدالناصر من أن يتورط فى معارك أخرى طويلة المدى فإنه استجاب على الفور ، وعلى الرغم من عدم قدرته على الاستغناء عن أى قوات فقد جهز عدة شحنات من الدبابات أرسلت إلى الجزائر بسرعة وكفاءة رائعتين بالنسبة للجيش المصرى ، ومن حسن حظ الجزائريين أن هذه الشحنات وصلت فى الوقت المناسب ، مما مكنهم من الصمود فى مواقعهم حتى بدء المفاوضات ، وعلى هذا الأساس سرعان ما توصل الطرفان إلى حل وسط .. انتهى (١١٤) .

يلاحظ أن التطورات خلال هذه الفترة قد تصاعدت ، وهى ربما كانت جميعها تستهدف تطويق مصر وإفشال مشاريع جمال عبدالناصر ، فهذه حرب اليمن وقد اشتركت قوى متعددة عسكريا وسياسيا وماليا وتسليحيا فيها ، وهذه الحرب على الحدود بين الجزائر والمغرب والتى كان عبدالناصر إضافة إلى اليمن يساند فيها عسكريا الجزائر كما ذكر أعلاه ، وعلى حدوده الشمالية كان هناك توفر شديد يؤججه عدد من الضباط الذين فصلوا الوحدة مع مصر وفى شرقه هناك إسرائيل وقد بدأت فى تنفيذ مشروعاتها القاضى بتحويل مياه نهر الأردن إلى النقب وقد تصادمت قواتها مع قوات الحدود السورية عندما حاولت القوات السورية أن تمنع التحويل ، ورغم الجرح الذى أحدثه الانفصال فى قلب جمال عبدالناصر فقد أمر بإعلان حالة الطوارئ بين قواته من أجل مساعدة سوريا إذا ما تطورت الحرب بينها وبين إسرائيل ، وتحرك العراقيون عارضين مساعدات عسكرية على سوريا كنوع من المزايدة على عبدالناصر ذلك أن البعث فى العراق وفى سوريا لم يتفقوا

فى أى يوم من الأيام على موقف واحد بل إن كليهما كان يحاول الإطاحة بالآخر، وهكذا نرى أن جبهات ومعارك كثيرة انفجرت فى وقت واحد بحيث لا يمكن لمراقب أن يتصور أنها بمحض الصدفة قد جاءت فى ذلك الوقت ، فالانفصال وقد جاء مباشرة فى وقت باشرت فيه إسرائيل تنفيذ مشروعها القاضى بتحويل نسبة ٧٥٪ من مياه نهر الأردن ، والجزائر وقد خرجت مشخنة بجراحها إثر حرب التحرير وقد تواجعت مع الجيش المغربى على الحدود بين البلدين ، والسعوديون والأردنيون وقد كثفوا مساعداتهم وتدخلهم ضد الثورة اليمنية ، والبعثيون العراقيون وقد وجدوا الفرصة ليشتمتوا فى عبدالناصر وخلافهم معه قديم ، الخلاصة لقد كانت كل القوى المعارضة لنظام جمال عبدالناصر ، والشامته عليه بسبب تدخله لنصرة ثورتى اليمن والجزائر ، وهى أى القوى المتحفزة للقفز على أكتاف جمال عبدالناصر بحيث تعلن شماتها وربما انتصارها قد تجمعت وهى محلية داخل مصر نفسها وعربية وأجنبية ، كانت تريد له أن يفرق فيما أسموه مستنقع لن يخرج منه ، وحدث أنه باتفاق بين الأطراف العربية (السعودية والأردن علنا) وبعض العرب الآخرين سرا اتفقوا مع الولايات المتحدة الأمريكية على تجنيد المرتزقة من كل مكان للقيام بحملة تكسر ظهر جمال عبدالناصر (حسب تعبيرهم) حتى تستريح المنطقة منه، ولكن ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران : ١٣] وهكذا كلفت وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) أحد رجالها المغامرين (وهم جميعا مغامرون) كى يتولى عملية حرب العصابات فى اليمن بالتنسيق مع قوات الملكيين (سعوديين وأردنيين ويمنيين) وكما نرى اليوم فى العراق الجريح حيث جاءت وزارة الدفاع الأمريكية فى عهد بوش الابن بشركة أمريكية متخصصة فى تجنيد المرتزقة تسمى (بلاك ووتر) حتى تعبت بكل شئ فى العراق بما فى ذلك الناس ولقد جندت كما أعلن هذا اليوم فى كل وكالات الأنباء (أكثر من خمسة وعشرين ألفا من المرتزقة يعيشون فسادا فى هذا البلد العربى المسلم الذى نكب بالتدخل العسكرى الأمريكى المتعاون مع بعض العملاء المحليين فى العراق ، وهذا العبث باستخدام المرتزقة كما حدث سابقا فى اليمن يتكرر الآن بعد قرابة نصف قرن من الزمان ، وتذكر بعض المصادر أن الثورة فى اليمن لم تكن من صنع مصر ذلك أن أحداثا كثيرة كانت قد وقعت

فى هذا البلد حتى قبل الثورة المصرية التى تتهم بأنها وراء كل الثورات فى العالم الثالث (على أن بعض المؤرخين لأحداث اليمن اختلفوا فى نظرتهم بشكل خاص لثورة السلال وما إذا كانت بترتيب مصرى) وهذا ما سنأتى إليه فيما بعد ..

وعلى أى حال فإن مصر على الرغم من ظروفها الاقتصادية وقد كلفتها هذه الحروب كثيرا فهى لم تتخل ولا تأخرت عن عون الذين لجأوا إليها طلبا لنجدة الحق ، ولقد انتهزت الأقلام المأجورة بعض الصعاب فى الجانب الاقتصادى لتشن حملات شعواء على عهد عبدالناصر حيا أو ميتا معتبرة تدخله فى اليمن والجزائر وغيرهما مغامرات لا طائل منها وقد أفقرت مصر ، فإذا تعطل خط هاتفى قالوا بسبب حرب اليمن ، وإذا توقفت حافلة بسبب عطل فنى قالوا ذلك بسبب حرب اليمن ، وإذا رأوا حشدا من الناس أمام أى جمعية استهلاكية قالوا إن ذلك بسبب حرب اليمن ، وكانت فرصتهم الذهبية عندما تولى الحكم بعد عبدالناصر رجل فتح الأبواب على مصاريعها لكل من هب ودب فى الداخل أو الخارج للهجوم على كل عهد جمال عبدالناصر ، والغريب أن أغلب الذين كانوا يطبلون ويزمرون ليلا ونهارا لعبدالناصر وثورته هم الذين بدّلوا جلودهم وصاروا يحملون معاول الهدم ، وهم الذين يصدق عليهم قول الله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة : ٦٨] ولعله من المفيد أن نعرض قليلا على اليمن مرة أخرى لنرى كيف كانت الأمور وهل هناك ما يبرر تهجمات المتربّصين ثم كيف كانت نتائج التدخل العسكرى المصرى خصوصا إذا علمنا أن الثورة السابقة والتى حدثت سنة ١٩٤٨م لم تعش إلا أقل من شهرين إذ لم تجد نجدة ولا مساعدة وقتذاك ؟ فلقد كانت هناك محاولات لتغيير الوضع القائم والمعقد ، فنظام الإمامة مختلف إلى درجة أن كلمة تختلف لا تكفى لوصفه، ومعقد جدا لوجود جيوش مختلفة بنظم مختلفة وقبائل مسلحة وعادات غريبة ، يصفها الأستاذ حمروش فى موسوعته (قصة ثورة ٢٣ يوليو) كما لى :

(انقلاب سنة ١٩٤٨ الذى قتل فيه الإمام يحيى وتولى بدلا منه عبدالله الوزير شارك فيه كما ذكرنا الضباط العراقي جمال جميل والضابطان اليمنيان عبدالله السلال وحسن العمرى ..

واسترداد الإمام أحمد للعرش بعد ٢٥ يوما من الانقلاب تم بعمل عسكري حوصرت فيه صنعاء حصارا تاما بعد أن تم التجمع في حجة ، واعتمد أحمد في ذلك على الجيشين (المظفر والبراني) وفي مطلع الخمسينات بدأت تنشأ تنظيمات حزبية معارضة للاحتلال في جنوب اليمن مثل حزب رابطة أبناء الجنوب والجمعية اليمنية الكبرى وحزب الأمة والحزب الوطني ، وهي أحزاب كانت تتطلع إلى استقلال ولو شكلي للمحميات ، ويقتصر نشاطها على عدن وحدها ..

كما ظهرت فروع لحزب البعث العربي الاشتراكي ، وحركة القوميين العرب ، ثم أطلق فرع البعث على نفسه اسم حزب الطليعة الشعبية ..

وكانت ثورة ٢٣ يوليو قد فرضت نفسها على الأمة العربية ، ووجد الإمام أحمد فيها سندا له ضد الوجود البريطاني في الجنوب ، فطلب بعثة عسكرية مصرية تواصل نشاط البعثة العسكرية العراقية التي صادرها بإغلاق المدرسة الحربية وقتل جمال جميل بعد فشل انقلاب سنة ١٩٤٨م ، ورأس هذه البعثة اليوزباشي أحمد كمال أبو الفتح الذي كان من قوة المخابرات ثم أصبح محافظا للقويبة فيما بعد ، وكانت معه بعثة أيضا من ضباط الشرطة المصريين ..

لم تحاول هذه البعثة القيام بأي نشاط سياسي ، فلم يكن من أهداف الثورة المصرية في سنواتها الأولى الاهتمام بواقع الدول العربية اهتماما كبيرا ، وكان التركيز على تحقيق الجلاء عن مصر ، ومقاومة الضغوط الاستعمارية لإنشاء أحلاف عسكرية في المنطقة ..

ومضت أحوال البعثة هادئة ، ويقول أحمد كمال أبو الفتح إنهم قد أقاموا علاقات طيبة مع اليمنيين واكتسبوا ثقة الإمام نسبيا ، وفي مصر دخلت الكلية الحربية أول بعثة يمنية عام ١٩٥٢م من الطلبة الذين حضروا للتعليم منذ عام ١٩٤٨م قبل الثورة ، وتخرجت أول دفعة في الكلية عام ١٩٥٥م ، وعقب توقيع اتفاقية الجلاء وبدء النشاط المصري في الدول العربية وزيارة صلاح سالم لسوريا وتوقيع اتفاقية الجيش في مارس ١٩٥٥م زار اليمن ورقص مع القبائل رقصتها التقليدية كما فعل في السودان ، وخلال هذه الفترة كانت تتصارع الاتجاهات السياسية وتصطدم المصالح الإمبريالية ، وبرز دور الولايات المتحدة الأمريكية كقوة

عالمية رئيسية ، وانتهزت فرصة الحياة الرجعية التي يفرضها الإمام أحمد على اليمن فشجعت انقلابا ضده من عناصر من داخل الأسرة المالكة فقام الأمير سيف الإسلام عبدالله بمحاولة انقلاب على شقيقه الإمام أحمد بالاشتراك مع المقدم أحمد يحيى الثلايا أول ضابط يمني تخرج في الكلية الحربية العراقية ..

ويقول محمد حسين هيكل في كتابه : (عبدالناصر والعالم) إن الإمام أحمد قد روى لعبدالناصر قصة إحباطه للانقلاب عندما شاهد وهو محاصر في قصره حارسا يفتش إحدى جواريه فصاح (والله لن تفتش النساء مادام الإمام حيا) وقفز على صهوة جواد وفي يده مدفع رشاش أخذ يطلقه من برج القصر ، ولما شاهده الناس أخذوا يهتفون (انتصر الإمام .. انتصر الإمام) وفعلا وبعد أن نشرت جريدة الأخبار في صدر صفحتها الأولى يوم ٣ أبريل ١٩٥٥ مانشيت يقول (تنازل الإمام أحمد عن العرش) انقلب الحال مرة أخرى وانتصر الإمام أحمد وقتل شقيقه عبدالله والعباس ومعهما المقدم أحمد يحيى الثلايا الذي كان منضما لتنظيم اليمنيين الأحرار ..

وسافر حسين الشافعي عضو مجلس قيادة الثورة إلى اليمن لتهنئة الإمام بنجاته حرصا على بقاء العلاقات الودية بين الدولتين لما أشيع في ذلك الوقت من أن الضباط الثائرين كانوا على صلة بمصر ..

ولكن أحمد كمال ابو الفتح ينفي ذلك ويقول لأنه كان حريصا أشد الحرص على خلق علاقات ودية مع الجميع دون تشجيع أحد على الثورة أو الانقلاب في بلد عاش فيها سنوات ثم خرج منها وهو مازال تائها في علاقات أهلها المتشابكة على حد قوله ..

وفي عام ١٩٥٧ ذهبت بعثة عسكرية مصرية برئاسة العقيد حسن فكرى الحسينى مشكلة من خمسة ضباط وبعض ضباط الصف وكان عملها مقصورا على التدريب العسكرى ، فقد كان رئيس البعثة ضابطا ليست له خلفية سياسية بينما كانت مصر موضع انبهار الدول العربية جميعا عقب تأميم قناة السويس ، ومقاومة العدوان الثلاثى وإجبار القوات المعتدية على الانسحاب بضغط حسابات سياسية ناجحة ، وكان جمال عبدالناصر قد أصبح شخصية لامعة تجذب الاهتمام واحترام

الملايين من أبناء الأمة العربية ، حتى فى اليمن ، حيث كان الناس مازالوا يعيشون حياة بعيدة عن حضارة العصر ..

ولذا فإنه ما إن تحققت الوحدة مع سوريا حتى بادر الإمام بطلب الانضمام لها وأعلن الاتحاد بين مصر وسوريا واليمن سنة ١٩٥٨ . ويقول حمروش عن تطورات الموقف فى اليمن ما يلى :

اقترب مصر من اليمن حمل إليها بعض عناصر الحضارة ، وعلى سبيل المثال فإن الضباط اليمنيين الذين دخلوا الكلية الحربية المصرية درسوا وتدربوا على الأسلحة السوفيتية التى كانت قد بدأت ترد الى القوات المسلحة المصرية بعد صفقة الأسلحة المعروفة باسم التشيكية عام ١٩٥٥ ..

وتدارس هؤلاء الضباط فى شئونهم وانتدبوا أحدهم وهو (عبدالله جزيلان) ليعود إلى اليمن والاطلاع على ظروفها بعد فترة دراسة طويلة فى لبنان ومصر غاب فيها عن وطنه ..

وعندما ذهب جزيلان إلى اليمن وجد فى الجيش اليمنى أسلحة لا يعرف عنها شيئاً ، ووجدهم فى اليمن لا يعرفون شيئاً عن الأسلحة التى تدرب عليها فى مصر ، واضطر إلى الخروج هارباً من اليمن عن طريق عدن ليطلع زملاءه من الضباط على هذه الحقيقة ..

ولكن الأمور تطورت ففى سنة ١٩٥٧ أعيد افتتاح المدرسة الحربية وتولى قيادتها العميد حمود الجائفى ، وانتهت الأمور إلى اتفاق الإمام مع السوفيت عام ١٩٥٧ على توريد أسلحة لليمن وإيفاد بعثة عسكرية سوفيتية للتدريب عليه ، ووصلت البعثة فعلاً إلى صنعاء وافتتحت مدرسة للأسلحة بدأ تدريب اليمنيين فيها على أسلحة متطورة مثل الرادار والمدركات وصيانة هذه الأسلحة ..

ولم تكن هناك صلة بين البعثة العسكرية المصرية والبعثة العسكرية السوفيتية ، الأولى كانت لتنظيم الجيش وتدريبه والثانية كانت للتدريب على الأسلحة فقط ..

ويقول عبدالله جزيلان أنه عندما حدث النزاع المصرى السوفيتى عام ١٩٥٩ طلب العميد حسن فكرى الحسينى إبعاد السوفيت ولكن جزيلان طالب بإبقائهم فرجع حسن فكرى تقريراً إلى البدر يتهم فيه الضباط اليمنيين بالشيوعية ،

ولكن البدر لم يأخذ التقرير مأخذ الجدل لأنه كما يقول جزيلان كان يسخر من المظاهر العسكرية التي كان حسن فكرى يتظاهر بها ويريد أن يفرضها على الضباط اليمنيين ، وكثيرا ما تندر عليه فى مجالسه ..

ونبتت منذ ذلك الوقت بعض الخلافات بين البعثة المصرية والضباط اليمنيين، وصلت إلى حد التصادم المكشوف بين حسن فكرى وجزيلان ، عندما تكاسل صف ضباط مصرى عن تعظيم ضابط يمنى ، فأمر جزيلان ضباط الصف اليمنيين بألا يعظموا حسن فكرى قائد البعثة المصرية ، وحدث عندما ذهب الإمام أحمد إلى روما للعلاج خلال عام ١٩٥٩ أن قامت حركة تمرد داخلى ومحاولة انقلاب قبلية تستهدف إعلان جمهورية رأسها فعليا الشيخ حسين بن ناصر الأحمر ، وكانت الحركة مساندة من الأحرار اليمنيين ..

وتصادف خلال هذه الفترة أن كانت مصر قد أرسلت أعدادا من العسكريين تزيد عن العدد المقرر للبعثة وذلك بناء على طلب البدر الذى كانت تربطه علاقة طيبة مع القاهرة ، وذلك لحماته فى حالة موت الإمام وذلك بذر الشبهات فى صدر الإمام أحمد ويقال أنه احتج لدى جمال عبدالناصر أثناء مقابلاته له خلال عودته من روما بحرا فى قناة السويس ، وعندما وصل إلى الحديده عامل ابنه البدر بقسوة، وأعاد إلى مصر كل الذين وصلوا فوق العدد المقرر للبعثة ..

ويقول الدكتور البيضانى لأن الإمام كان قد وصل فى هذه الفترة الى درجة من التوتر جعلته يأمر بإعدام أربعة من جنود الحرس الإمامى لأنهم جرأوا على المطالبة بمرتباتهم المتأخرة أو السماح لهم بالاستقالة ..

وفى السادس من مارس ١٩٦١ قام الملازم عبدالله اللقيه والملازم محمد بن عبدالله العلفى بمحاولة اغتيال الإمام أحمد فى الحديدية ، وأصيب الإمام ولم تنجح المحاولة ، وكان العميد عبدالله السلال قائدا لميناء الحديدية فى ذلك الوقت ..

وشكل الإمام محكمة لمحاكمة الضباط الذين كانوا مثالا للشجاعة والسرية ، وصدر الحكم بالإعدام على الضباط الذين أعدما علنا ، بقطع الرأس فى ميدان الشهداء ..

وهكذا اقتربت الفترة الزمنية بين محاولات الانقلاب أو الاغتيال المتعددة وتجميعها جميعا ظاهرة واحدة هى أن الذين يقومون بالتدبير والتنفيذ هم العسكريون ..

والنقمة على النظام الإمامي وعلى الإمام أحمد بالذات تزداد وتشتد ويلاحظ أن عددا كبيرا من أئمة اليمن على امتداد حكم استمر ما يقرب من ١١٠٠ عام قد ماتوا قتلى من جور الظلم والاستبداد، قتل ١٨ إماما منذ القرن الرابع الهجرى ..

كانت هذه هي الحال فى اليمن ..

وكانت الأوضاع العربية تتغير أيضا ..

العلاقات بين مصر والسعودية تحولت إلى جفاء وعداء بعد اكتشاف محاولة الملك سعود لضرب الوحدة عن طريق رشوة عبد الحميد السراج الذى أبلغ جمال عبدالناصر بذلك ..

الحكم العسكرى فى السودان أحاطتها بعزلة شديدة عن الدول العربية المتحررة وخاصة الجمهورية العربية المتحدة ..

الخلافات بين مصر والعراق تزداد يوما بعد يوم ، ولم يعد هناك أمل فى لقاء جمال عبدالناصر وعبدالكريم قاسم ..

اتحاد الدول العربية (مصر وسوريا واليمن) الذى وقع ميثاقه بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة فى فبراير ١٩٥٨ تحول إلى اتحاد شكلى ليس له مضمون حقيقى ..

وبعد الشكوك التى نمت فى صدر الإمام أحمد أثناء وجوده فى روما وحدث المحاولة الانقلابية فى اليمن وإبعاد العسكريين المصريين الزائدين إلى مصر ، حدث الخلاف المعروف بين العراق والكويت فى شهر يونيو ١٩٦١ عندما طالب عبدالكريم قاسم بضم الكويت إلى العراق فور إعلان استقلالها باعتبارها كانت ولاية تابعة للعراق فى عهد العثمانيين .

ولم يقف الإمام أحمد مع جمال عبدالناصر فى موقفه المضاد لعبدالكريم قاسم ، بل أظهر تعاطفا مع موقف العراق ..

وعندما أعلنت القوانين الاشتراكية فى الجمهورية العربية المتحدة يوليو ١٩٦١ زادت حساسية الإمام من مصر ، وكتب قصيدة شعرية هزلية هاجم فيها مصر والاشتراكية ..

وقررت مصر سحب بعثتها العسكرية فعادت في سبتمبر ١٩٦١ بعد حوالى ثمانى سنوات قضتها هناك ، وعاد أيضا الضباط وطلبة الكلية الحربية اليمنية إلى بلادهم ، وجاءت محل البعثة العسكرية المصرية بعثة عسكرية أردنية ، وهدأت الخلافات بين اليمن والسعودية ، ومع ذلك فإن البعثة العسكرية السوفينية التى كانت تشرف على مدرسة الأسلحة موجودة تواصل عملها فى هدوء ، ودون محاولة للتدخل فى الشئون الداخلية الغامضة والوعرة معا ..

ويقول اللواء الحديدى مدير المخابرات الحربية فى ذلك الوقت إن العلاقات بين مصر واليمن كانت ضامرة تماما خلال هذه المرحلة فلم تعد هناك بعثة عسكرية ، والسفارة فيها عدد محدود من الموظفين فى تعز ، والسفير غائب مسحوب فى مصر ، وعدد المصريين فى اليمن قليل ..

وقد أدى التوتر بين اليمن ومصر إلى اشتعال رغبة اليمنيين الأحرار فى مقاومة نظام الإمامة الرجعى المتخلف ، وبدأت تتشكل محاولة الانقضاض عليه استمرارا للمحاولات السابقة التى بدأت فى الأربعينيات وظلت تتكرر بلا توقف ، ولكن البيضانى استطاع أن يعقد صلة مع أنور السادات وكان رئيسا لمجلس الأمة فى ذلك الوقت ، وكتب أنور السادات مذكرة إلى جمال عبدالناصر بالتوقعات المحتملة فى اليمن ، فأصدر الرئيس عبدالناصر قرارا بتكليف أنور السادات بأن يكون مسؤولا سياسيا عن هذه العملية ..

واستدعى أنور السادات إليه أمين هويدى وكان وقتها قد عين سفيرا فى المغرب ، وقابله فى منزله بالهرم بحضور عبدالرحمن البيضانى ، وطلب منه أن يعد نفسه لتولى المسؤولية التنفيذية لعملية اليمن ، واستمر الاجتماع حتى الثالثة بعد منتصف الليل ..

ويقول أمين هويدى أنه طلب مقابلة السادات فى صباح اليوم التالى ليلغى أن إنشاء جهاز خاص لهذه العملية يعتبر نوعا من الازدواجية حيث يتوافر لدى المخابرات العامة تنظيمات خاصة لمثل هذه العمليات ..

والواقع أن علامات استفهام كثيرة كانت تلاحق عبدالرحمن البيضانى ، فهو رجل شديد النشاط ، كانت له صلات وثيقة بالطلبة اليمنيين فى الخارج خلال الخمسينات ، درس فى مصر وتخرج فى الجامعة ثم حصل على الدكتوراه من

بون، وعمل بها وزيرا مفوضا ، ثم نقل الى الخرطوم بعد أن اعتذر عن عدم العمل مدعيا عاما في محاكمة ثوار ١٩٥٩ وأستدعاه الإمام إلى اليمن ، وعندما شعر أن يد القصاص تقترب منه هرب عام ١٩٦٠ على طائرة مصرية ..

ويقول البيضاني أنه انضم لتنظيم الأحرار اليمنيين وعندما تمت الانتخابات أصبح أحمد النعمان رئيسا للاتحاد ومحمد محمود الزبيري والدكتور عبدالرحمن البيضاني نوابا للرئيس ، ولكن سرعان ما دب الخلاف بينهم حول استراتيجية المعارضة ، فهم كانوا قد اتفقوا على السعي لذلك الارتباط بين مصر واليمن المتمثل في الاتحاد ثم يتم البحث بعد ذلك في مصير الإمامة ..

ولكن ما أن أعلن عبدالناصر حل الاتحاد مع اليمن في خطابه ببورسعيد يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦١ حتى فرض الخلاف حول مصير الإمام نفسه فورا ، وأصدر النعمان قرارا في بداية يناير ١٩٦٢ بإقالة البيضاني باعتباره طائفيا خطيرا (يريد أن يعالج وباء في بلد بإلقاء قبلة ذرية عليه) ولكن الدكتور البيضاني لم يتعد عن ميدان السياسة ، كانت صلته قد توطدت بأنور السادات رئيس مجلس الأمة في ذلك الوقت بعد تعارفهما في بون ..

وكانت له صلات قديمة ببعض الثوار أيضا داخل اليمن وخارجها ، وعندما أشيع خبر الانقسام وانتشر خبر إقالة البيضاني حضر وفد من حركة الأحرار اليمنيين إلى عدن ، والتقى المتخاصمون لنقاش جديد مرة أخرى ..

ويقول الدكتور البيضاني أنهم قد اجتمعوا في كازينو النهر بجزيرة الزمالك واتفقوا على جمع الشمل وإعادة الوحدة للاتحاد اليمني وإلغاء قرار إقالة البيضاني ، ووقعوا جميعا وثيقة تتضمن يأسهم من النظام الإمامي وضرورة إقامة نظام جمهوري ..

أذيعت هذه الوثيقة من صوت العرب ، ولكن مضمونها لم ينفذ طويلا ، كانت القاهرة من خلال أنور السادات قد صرحت للدكتور البيضاني بأن يذيع من صوت العرب مساء كل إثنين وخميس مقالات أوصى السادات بأن تظهر في روزاليوسف ، وكانت بداية هذا النشاط محاضرة ألقاها البيضاني في دار نقابة المحامين يوم ٢٠ يناير ١٩٦٢ وحدثت فيها مشادة بينه وبين محمد أحمد النعمان ابن رئيس الاتحاد اليمني ..

كانت مقالات البيضاني وإذاعاته فى صوت العرب عوامل إثارة حقيقية ضد النظام الإمامى ، وساعد على انتشارها الراديو الترانسيستور الذى كان يصل إلى اليمنيين فى أبعد بقاع الصحراء (يذكر أن القوات المصرية عندما دخلت اليمن بعد الانقلاب قد وزعت مائتى ألف جهاز راديو ترانسيستور مجانا) .

ولقد بدأت خيوط المقاومة تتجمع ضد الإمام بين المدنيين والعسكريين فى الداخل والخارج ، وانتهاء الحساسية من وجود علاقات طيبة بين مصر واليمن أدى إلى مضاعفة السير فى طريق الثورة ، وكان هناك نوع من الارتباط بين المدنيين والعسكريين ، فقد أسهم على سبيل المثال بعض التجار فى التبرع بالأموال سرا والمساعدة فى الإمداد بالأسلحة ، وليست هناك فروق حادة واضحة بين المدنيين والعسكريين فى اليمن ..

تظاهر الطلبة فى يوليو ١٩٦٢ م :

وخلال هذه الفترة كان كثير من العسكريين اليمنيين يصلون إلى مصر ويتصلون بالقادة اليمنيين فيها ومنهم طيار الأسرة المالكة عبدالرحيم عبدالله الذى أصبح بعد الثورة سفيرا لليمن فى مصر ، ومحمد قائد سيف ، ولم يكن هناك طيارون عسكريون فى اليمن فى ذلك الوقت ، وكانت هناك صلة وثيقة قد بدأت بين العسكريين فى مصر والقادة اليمنيين ، كانت المخابرات الحربية فى مصر قد أعدت معسكرا لتدريب اليمنيين على الأسلحة الصغيرة ، وكان من بينهم الدكتور عبدالرحمن البيضاني كما يقول الفريق صلاح الحديدى الذى كان يتسلم الأسلحة أيضا ويقوم بترحيلها إلى اليمن ..

ولم يكن البيضاني هو حلقة الاتصال الوحيدة ، كانت هناك اتصالات أيضا بين العسكريين اليمنيين والعسكريين المصريين الذين ربطتهم علاقات زمالة أثناء دراستهم فى مصر ..

وتدفقت الأسلحة المصرية الصغيرة سرا إلى اليمن ، ذلك أن الإمام كان يحتفظ عنده بمفاتيح مخازن الذخيرة ويترك الأسلحة جامدة فى العراء حتى يأكلها الصدا ونعبت بها الفئران ، ويقول عبدالرحيم عبدالله طيار الأسرة المالكة الذى لعب دورا كبيرا فى نقل الأسلحة إن السلاح الجوى على سبيل المثال كان مكونا

من ١٠ طائرات ياك و ٣٥ طائرة ليوشن صغيرة ، ولكنها جميعا غير مصرح لها بالطيران ، .. (١١٥) .

وظلت هذه الاتصالات سرية وفي أضيق الحدود ، لا يعرفها إلا جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وأنور السادات وصالح نصر وصالح الحديدي قائد المخابرات الحربية في ذلك الوقت ..

وكان المشير عبدالحكيم عامر مسؤولا عن المساعدات العسكرية ومناقشة تنفيذ الخطة ، وكان أنور السادات مسؤولا سياسيا ..

وبقيت هناك علامة استفهام كبيرة تحيط بموعد الثورة ضد الإمام أحمد ؟ ولكن القدر لحقه فتوفى يوم ١٩ سبتمبر ١٩٦٢ وخلفه ابنه الإمام البدر ولي العهد ، ونتج عن هذه الوفاة المفاجئة انقسام في الرأي ..

وكان البدر قد أرسل برقية إلى جمال عبدالناصر ينعى فيها والده يوم ٢٠ سبتمبر ، وكانت هذه مبادرة منه تشير إلى احتمال تحسن العلاقات بين الدولتين .. واشتد ضغط اليمنيين ، النعمان والزبيرى فى اتجاه إقناع المسؤولين بالسير فى طريق التعاون مع البدر الذى تغاضى عن قسوة الإذاعات والهجمات التى وجهت لوالده ..

وأصدر جمال عبدالناصر قرارا بوقف الإذاعة والنشر ضد الإمام البدر أو معه ، وبلغ ذلك الدكتور عبدالرحمن البيضانى يوم ٢١ سبتمبر ..

وكان عبدالله جزيلان قائد الكلية الحربية فى صنعاء قد أرسل يطلب وقف إذاعات البيضانى لأنها تهاجم الهاشميين بينما ٨٠ فى المائة من ضباط الكلية وطلبتها المؤهلين للانقلاب كانوا من أتباع هذا المذهب ، وكان أحمد النعمان ومحمد الزبيرى قد اجتمعا فى منزل أمين هويدى بمصر الجديدة وكتب النعمان برقية إلى البدر ..

وقع البرقية أحمد محمد النعمان ورفض التوقيع محمد محمود الزبيرى ..

(١١٥) قصة ثورة ٢٣ يوليو - أحمد حمروش - ص ٢١٠ .

وكان ذلك ترجيحاً للرأى القائل باحتمال إصلاح النظام الإمامى ، وأسقط فى يد الدكتور عبدالرحمن البيضانى الذى استمر ثمانية شهور يكتب ويذيع مبشراً بالثورة ، ويقول إنه هرع الى أنور السادات يطلب توجيه إذاعة واحدة تكون هى الأخيرة للثوار المتربصين فى اليمن ، حتى لا يتصوروا أن الأمور قد انتهت بعد برقية عبدالناصر فى تعزية البدر ، وبعد برقية أحمد النعمان ..

وتصادف أن كان موعد هذه الإذاعة هو يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٦٢ م ..

وفى ذلك الوقت كانت الأمور فى اليمن تتجمع فى سرعة إلى مصير جديد، وكانت غيبة الإمام أحمد قد فرضت على الثوار وخاصة العسكريين مسؤولية خاصة ..

كانت حالة الطوارئ معلنه فى اليمن قبل وفاة الإمام أحمد ، وكانت الأسلحة المصرية التى وصلت اليمن تعتبر كافية للحركة الانقلابية .. وبقي تحديد ساعة الصفر

يقول عبدالرحيم عبدالله أن ساعة الصفر كانت قد تحددت لتكون يوم ٢٣ يوليو حتى يعلن عبدالناصر خبر الثورة فى خطبته للجماهير ، ولكن الدكتور البيضانى يؤكد أنه لم يتم الاتفاق على ذلك ، ثم يقول عبدالله جزيلان إن برقية وصلت من القاهرة تطلب أن تكون ساعة الصفر هى موت الإمام أحمد ، وأنه قد رد على ذلك حسب قوله ، بأن ساعة الصفر لا تحدد إلا مرتبطة بالظروف القائمة فى اليمن ..

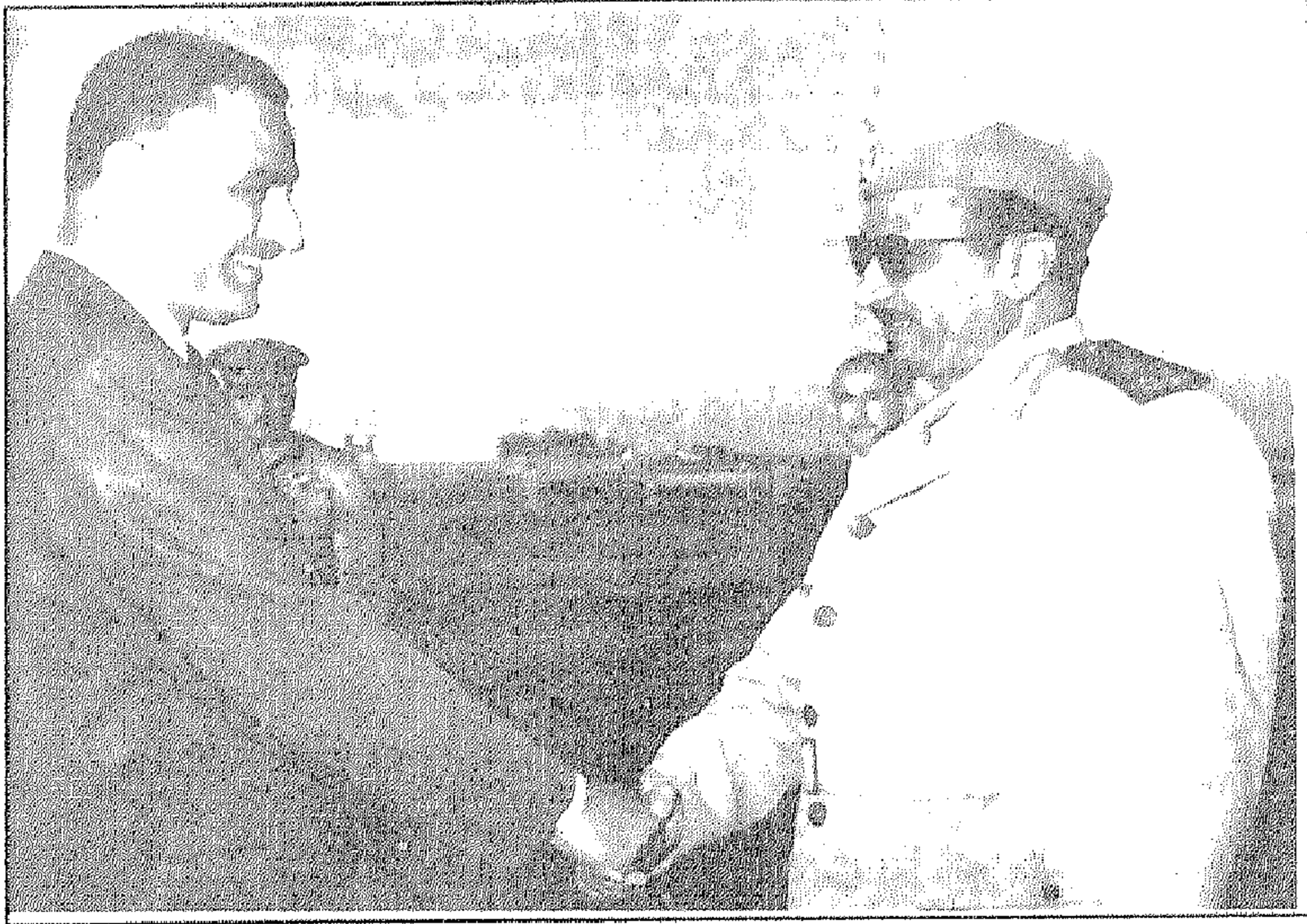
وكان تحريك القوات العسكرية للانقلاب يعتمد على الضباط اليمنيين أكثر مما يعتمد على غيرهم ، فقد أدت الإثارة دورها كاملاً وبقي التنفيذ ..

كان عدد محدود من الضباط قد بدأ يعقد اجتماعات لبحث الموقف والتأهب لاحتمالات المستقبل دون أن يأخذ ذلك شكل تنظيم ثابت مثل الضباط الأحرار فى مصر ..

وكان هناك اتجاهان بين الضباط ، فريق يؤيد البدر ، وفريق يؤيد الحسن ، بينما الثوريون يتأهبون لإقامة نظام جمهورى جديد ، ، وقد اجتمع الضباط الحاضرون على هذا الاتجاه الثورى ، ونشط المقدم عبدالله جزيلان الذى كان مديراً لكل من الكلية الحربية ومدرسة الاسلحة ، وبدأ يقوم باتصالات مع الأسماء الكبيرة من الضباط لتحريضهم أو ضمهم .. انتهى .

وهكذا كانت الأحداث فى اليمن قبل الثورة مباشرة وإلى أن نجحت الثورة أو الانقلاب ، ويلاحظ أن هناك كما ذكرنا اختلاف كبيراً فى روايات الكتاب شهودا كانوا أم مراقبين عن بعد ، ونعتقد أن شهادة الأستاذ أحمد حمروش أقرب إلى الحقيقة من الروايات الأخرى كحالة الأستاذ سامى شرف الذى يؤكد أنه لا علاقة لثورة مصر بثورة اليمن قبل حدوثها ، لأن جميع الأدلة تبين أن القاهرة كانت على علم تام وهى تزود الضباط بالأسلحة والمعلومات سواء من خلال الإذاعات أو أجهزة المخابرات ، ولقد ورد القول أن آخر برنامج إذاعى طلبه الدكتور البيضانى من أنور السادات كان يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٦٢ وحدث الانقلاب يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م وأنه أى البيضانى عندما طلب إذاعة آخر برنامج قال للسادات أنه لا يريد أن يعتقد الثوار أن برقية التعزية التى أرسلها عبدالناصر الى ولى العهد تعنى توقف العمل الثورى ..

على أى حال فقد قامت الثورة ولجحت ثم صمدت وتدعمت بتأييد ومساندة الجمهورية العربية المتحدة وبالتالى فقد تغير وجه التاريخ فى جزء من الوطن العربى ..



الرئيس جمال عبدالناصر بعد نجاح الثورة اليمنية واستقرار الأوضاع هناك وكانت هذه أول زيارة للقاهرة يقوم بها الرئيس عبدالله السلال عرفانا بالدور العظيم والمساندة التي قدمتها القاهرة .

وفي الصورة الثانية الرئيس عبدالله مع الرئيس جمال عبدالناصر ويرى السادات واقفا في الجانب الأيسر خلف السلال باعتباره كان مسؤولا عن الجانب السياسى فى اليمن قبل الثورة ...

الهزيمة وما بعدها ١٩٦٧ م ..

يقال إنه ليس للهزيمة آباء ، وإنما للنصر آباء كثر ، وهذه حقيقة ثابتة دائمة فلا أحد يود أن يكون أبا لهزيمة حتى لو كانت في لعب الورق ، وخصوصا إذا كانت الهزيمة قد وقعت بعد قعقة وصولات وجولات في الهواء ، وإذا كان الناس قد اعتادوا على أن ينظروا إلى هرم ضخيم بإعجاب وإكبار وفجأة إذا به كمشة من تراب ، ولهذا كانت الفجيرة لا مثيل لها التي حلت بالجيش المصري في ٥ يونيو ١٩٦٧ م عندما لم يكن واردا على الإطلاق أن ينهزم جيش أساسه قائم على عقيدة سياسية قومية تسيطر على أفكار وعقول مئات الملايين من الناس بين المحيط والخليج يتباهون في خيلاء به في كل ركن من أرض العرب ، وكان دوى الفجيرة مدمرا حيث إنها جاءت كبرق خاطف وبلا مقدمات ولا تهية ، لم تحدث معارك في ميادين الوغى لشهور أو سنوات ، وإنما هي حدث جعل الناس يقفون حيارى أذهانهم مشلولة وأفكارهم مشتتة بين مصدق ومكذب وشامت ، هل حقيقة تحطم وهزم الجيش الذي علقت عليه آمال التحرير والعزة ؟ وإلى أن شاهدوا تلك المناظر في صحراء سيناء التي تدمى القلوب آليات في طواير ممتدة على طول النظر مدمرة ومحرقة ، آلاف من الجنود بين تائه في الصحراء وبين ممدود على الأرض تحت حراسة نساء إسرائيليات مجندات ! وقبل أن تظهر الهزيمة كان الإنسان العربي يحلق في السماء بسبب ما يعلنه الإعلام العربي ، أسقطنا عشرات الطائرات الإسرائيلية ، أسرنا مئات الجنود والطيارين اليهود .. إلخ .

ولأن النتيجة كما عرف كل إنسان فقد كانت الصدمة عنيفة والصورة سوداء قائمة ، وإن جاء من يقول أنها نكسة فقط وجعل يبرر أسباب ما حدث ، ومع الأسف كان أحد فرسان التبرير الأستاذ محمد حسنين هيكل الذي قدم للعرب في مقالات متتالية بالأهرام صورة خادعة كأنما هؤلاء اليهود الذين هزمونا قد خرجوا فجأة من تحت الأرض ونحن نيام ، وكانت طائراتهم تطير على وجه البحر وقد جاءت عبر بحيرة البرلس .. إلخ وإلى أن تكلم جمال عبدالناصر بالحقيقة ولقد

امتلك شجاعة الفرسان ليقول إنها هزيمة بكل معنى الكلمة ، وكان على الجميع أن يصمتوا لأن الوقت صار وقت حساب ولا بد من دفع الثمن .. وأرى أن أحسن من عبر عن هذه الكارثة وتأثيرها البالغ على الرئيس جمال عبدالناصر هو الدكتور ثروت عكاشة فى الجزء الثانى من مذكراته ، عندما قال :

وما من شك فى أن هزيمة يونيه ١٩٦٧م كانت نكبة قاسية أحدثت هزة عميقة فى وجدان عبدالناصر فتت فى عضده وأنهكت قواه وأتت على البقية الباقية من صحته ، فعاش تلك السنين القليلة إلى أن وافاه الأجل المحتوم ، وقد نالت تلك الهزيمة من فكره وقلبه بلبلة ووسوسة ، كما نالت من جسده فهدهته هذا ومكنت لذلك المرض الذى كان يشكو منه إلى إن يتغلغل فى كيانه ويدب فى أطرافه حتى لحقته المنية ، وعلى الرغم مما كان يعانى من آلام مبرحة أقوى من أن يتحملها بشر فلقد كانت نفسه مملوءة حمية للأخذ بالثأر لا يبالي بخطوات الموت الزاحفة إليه رويدا رويدا ، بل كان يغالب الموت علّه ينتهى إلى ما أراه واعتزمه من شن حرب التحرير ، ففرع لشئون الجيش ليعيد تنظيمه وتسليحه بما يمكنه من الانقضاض على العدو ، ومع ذلك أراد أن يصون كيان الدولة الإدارى فأعرب عن وجهة نظره السياسية تفصيلا فى بيان ٣٠ مارس ، ولو امتد به العمر لقدّر له توجيه الضربة الثأرية التى كان يزعم القيام بها قبل نهاية عام ١٩٧١م وكم جرى فكره إلى ونستون تشرشل الذى كان وزيرا للبحرية خلال الحرب العالمية الأولى ، وهو الذى كان وراء حملة غاليبولدى بالدردينيل عام ١٩١٥م التى شاء القدر أن تفشل وتلحق بالقوات البريطانية هزيمة منكرة ضاعت معها أرواح آلاف الجنود ، وقد ظل تشرشل يلحق جراحه إثر هذه الهزيمة على مدى ربع قرن من الزمان حتى شاءت له الظروف أن يرأس الحكومة البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية وأن يحقق لوطنه نصرا ساحقا على خصومه الألمان فىأر عام ١٩٤٥م من هزيمة عام ١٩١٥م ، ولو أنه مات قبل ذلك لظل اسمه مرتبطا بتلك الهزيمة التى أتاح له طول العمر محو ذكرها بالنصر الحديد وهو ما ضمن به القدر على جمال عبدالناصر ، فلم يعيش حتى يشهد النصر الذى هيا له أسبابه الحقّة خلال الأعوام ١٩٦٨ إلى ١٩٧٠م ولو عاش حتى شهده لغسلت فرحته أحزان الهزيمة التى عشت فى السويداء من قلبه ، وما أصدق لابروير حين قال : (إن القدر للأسف لا يمهل الإنسان حتى يفيد من أخطائه) .. انتهى .

والواقع أن هذه الكارثة يصعب أن يجد لها أى كاتب أو باحث أو حتى قارئ أى سبب وسوف يقف حائرا إزائها ، وليس غريبا أن يهزم أى جيش فى معركة او عدة معارك شرط أن يكون قد استعد وقاتل - أما أن تحدث الهزيمة بلا قتال فذلك شئ غريب ! ويذكر أن جمال عبدالناصر قد نبّه كما قيل إلى أن الهجوم الإسرائيلى متوقع فى أى وقت ، بل هو بناء على معلومات قد حدد اليوم المتوقع الهجوم فيه ، وقيل أنه سأل بعض قادة جيشه وعلى رأسهم المشير عبدالحكيم عامر ما إذا كانوا مستعدين لتلقى ومواجهة الضربة الأولى والرد عليها، ولقد أكدوا له قدرتهم على ذلك واستعدادهم للحرب إذا ما وقعت لكن ذلك كان مجرد وهم وخيلاء ، وكانت النتيجة كما عرف العالم كله يوم ٥ يونيو ١٩٦٧م فقد حدثت النكبة وهزم عبدالناصر وجيشه وحلت الكارثة بشعبه وأمتة العربية ، والآن لابد أن يتساءل من يريد أن يعرف ، لماذا حدث هذا وكيف ؟؟

أول الأسئلة ، لماذا تحدث عبدالناصر عن الضربة الأولى ؟

قيل إن القوتين الكبيرتين (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى) قد لعبتا الدور الأساسى فى خداع عبدالناصر (وإذا صح هذا فإنه يمكننا أن نعرف أن أمريكا يمكن أن تفعل ذلك، ولكن لماذا الاتحاد السوفيتى وهو بلد صديق وسياسته الخارجية تقوم على مساندة قوى التحرير فى العالم ، وكانت مصر عبدالناصر مدخل نفوذه إلى العالم العربى والأفريقى تحديدا ؟ ومن المعلوم أن الصراع بين هذين العملاقين فى العالم يقوم على كسب مواقع هنا أو هناك وقد تقاسمتا النفوذ فى العالم مباشرة بعد أن أصبحتا القوتين الوحيدتين منذ مؤتمر (فلاديفوستك) وعلى ضوء ذلك هل يمكن للاتحاد السوفيتى أن يترك أهم مركز نفوذ له فى العالم الثالث أى مصر ، وإذا فعل ذلك فإنه لابد أن يفقد نفوذه فى أغلب البلدان ؟ فهل كان لأولئك القادة الكبار فى الكرملين أن يسلموا أوراق قوتهم فجأة لأمريكا فى ذلك الوقت ؟ ثم هل كان فى سياسة الاتحاد السوفيتى أن يتخلى عن أصدقائه لينهزموا فى مثل تلك المعركة وهم يستخدمون سلاحه ؟

الجواب على هذا السؤال ، بلا ، ومن تجربتى الشخصية فقد كنت سفيرا لبلادى فى الاتحاد السوفيتى وأعرف جيدا علم تبنى السياسة الخارجية السوفيتية خلال النصف الثانى من القرن العشرين وقبل أن يظهر أمثال (يالتسين) و(غورباتشوف)

وهنا سأذكر حادثة للتدليل على ما أقول ، لقد حدث سنة ١٩٨٢م أن تأكد لدى القيادة الليبية ، وربما ، غيرها أن إسرائيل ستهاجم لبنان وتحتل عاصمته بيروت من أجل إخراج منظمة التحرير الفلسطينية وكلّفت مع زميلين آخرين ببحث الموضوع مع أولا أبوعمار في بيروت ثم مع القادة السوفييت في موسكو ، وفي لقائنا مع ياسر عرفات قال أنه يعلم أن إسرائيل ستهاجم لبنان وأنه لا يتوقع من جيرانه العرب أى مساعدة ، ولكنه سيقا تل ولن يخرج من لبنان إلى آخر فدائى فلسطينى ، ثم سافرنا إلى روسيا وحدد لنا موعدا مع أحد أعضاء اللجنة المركزية السوفيتية وخلال اللقاء أبلغناه بفحوى مهمتنا وأن القيادة الليبية ترى فى الهجوم الإسرائيلى واحتلال عاصمة عربية بادرة خطيرة لا يمكن القبول بها ، فقال بالحرف الواحد ، نحن لا يمكننا أن نحارب نيابة عن العرب لأننا مسؤولون عن السلام العالمى وقد زودنا الدول العربية بما تحتاج من سلاح متقدم ومنها الدول المجاورة للبنان ولكنكم أيها العرب لا تحاربون !! فبادر أحد زملائى قائلا : إن الولايات المتحدة الأمريكية تزود إسرائيل بالأسلحة المتقدمة جدا بينما أنتم لا تعطوننا غير أسلحة قديمة ، ولهذا فهم يتفوقون علينا بدليل أنه فى قريب جدا أن معركة جوية حدثت بين الطائرات السورية والإسرائيلية فسقطت ست طائرات سورية ولم تسقط طائرة إسرائيلية واحدة ، فقال الزعيم السوفيتى نحن أرسلنا ثلاثة من أبرز جنرالات الجيش ليدرسوا تلك الحادثة وتأكد لنا شئ غريب ، أعتذر للقارئ لأننى لا أريد ذكره حتى لا يعتبر البلد المعنى أننى أريد الإساءة اليه ، ثم أضاف عضو اللجنة المركزية السوفيتية قائلا ، إن سمعة بلادنا تكمن فى سلاحنا ولا يمكن أن نسمح بهدم هذه السمعة ونقول لكم أن طائرات الميج ١٥ كانت تقا تل الفانتوم الأمريكية بمنتهى الكفاءة فى فيتنام لأنهم هناك يقاتلون ضد المعتدى بمقدرة ..) .

أعود لسؤال لماذا حدثت الهزيمة سنة ١٩٦٧م ، وأقول والله إننى لمن المعجبين والمحبين والمؤيدين لجمال عبدالناصر بسبب كثير من سجاياه الطيبة وشجاعته النادرة ونظافة يديه وطهارة سريرته وسمو أخلاقه والتزامه بما يعتقد ، وكذلك زهده فى الكسب المادى حلالا ناهيك عن الحرام، لكننى أشعر بأن هذا الرجل العظيم صاحب القيم النبيلة وقع مع الأسف فيما كان قد وقع فيه كثيرون من أخطاء مقتنعا ربما (بمقولة أهل الثقة لا أهل الكفاءة) وهذه كانت المقتل الذى

أدى الى ما حدث ويحدث ، ولقد غلبت العاطفة على المصلحة الوطنية العامة ، فأهل الثقة لم يكونوا أهلا للقيادة ، ومثال على ذلك المشير عبدالحكيم عامر الذى حول الجيش المصرى حسب رأى أغلب الخبراء العسكريين المصريين بالذات (إلى مزرعة خاصة يعبت فيها المرتبطون به) أيضا عاطفيا ويقول هؤلاء أن الثقة والعاطفة هى التى جعلت عبدالناصر يتغاضى عن الأخطاء الكثيرة والكبيرة حتى إنه لم يكن يعرف شيئا عن القوات المسلحة قبل الهزيمة ، ولم يرى الحقيقة إلا بعد حدوث الكارثة وهو ما جعله رغم فوات الأوان يعيد كل حساباته وكان يمكن أن ينتصر لو طال به العمر ولا بد أن يتوقف الإنسان أمام العديد من الأسئلة ، لكننى قبل ذلك أريد أن اعود إلى ما رواه الدكتور ثروت عكاشة فى هذا الشأن إذ ربما يكفى عن كل سؤال قال :

(أذكر أن جمال عبدالناصر كان قد استدعانى سنة ١٩٥٥ من باريس ، ليعرض علىّ أن أتولى قيادة سلاح الفرسان مع ترقيتى ترقية استثنائية ، ولقد اعتذرت وقتها عن قبول هذا المنصب وأبدت بصراحة سبب ذلك ، وهو أنه كان قد أبعد عن سلاح الفرسان بعد أزمة مارس ١٩٥٤ خيرة ضباطه وأنقاهم وهم الذين قامت على أكتافهم ثورة ٢٣ يوليو ، فقبل عذرى ثم دعانى لتناول طعام العشاء معه وكان ذلك بمبنى مجلس قيادة الثورة المطل على النيل ، وإذا ضابط برتبة صغيرة يدخل ليعرض عليه بعض التقارير فلما خرج سألته عمن يكون ؟ فأخبرنى أنه يدعى (لن أذكر اسمه هنا) وعلل لى اختياره له سكرتيرا بأنه ليس من الضباط الأحرار ، لذا كان ائتمانه بما يؤمر لا أخذ فيه ولا رد ، واسترسل يقول أن نفرا من الضباط الأحرار ممن عملوا إلى جواره كثيرا ما أرهقوه جدلا حول الكثير من القضايا إيمانا منهم بما لهم من حق المشاركة فى مجريات الأمور، هذا إلى طلبات بعضهم الملحة فى نفع يجرونه ، لأنفسهم أو لمن حولهم ، وهذا وذاك كان مما يجعله يضيق ذرعا بهم ، ويلجأ إلى اختيار سكرتير ليست له هذه الدالة .. ويستمر الدكتور ثروت ، ولم يكن فى حديث الرئيس هذا ما يعترض عليه ، فمن حقه أن يختار لمكتبه من يشاء غير أن الأمر الذى أذهلنى هو أنه استطرد من حديثه عن الضباط الأحرار إلى حديثه أن الإيمان بولاء هذا السكرتير الجديد ، وإذا سألته كيف تبين له هذا الولاء ؟

إذا هو يقول فى بساطة دهشت لها ، لقد شهد ضد شقيق له شارك فى أعمال مضادة للثورة ، كما أقسم لى أنه على استعداد لأن يذبح أبناءه إذا أمرته بذلك ..

وكاد حلقى يغص بالطعام ، وعاجلنى إحساس غريب بالخشية والتشاؤم والذهول ولم أتمالك نفسى إن قلت له ، إن هذا القسم من هذا الضابط يكاد يكون شططا كله ، وبعيداً أن يصدر عن لسان إنسان سوى ، وإنى لأعجب كيف يغيب عنك هذا ؟ وقرّ فى أعماقى لحظتها أن بقاء هذا الضابط إلى جوار الرئيس سيكون مصدر شر بغير حدود لا عليه وحده بل على الوطن عامة ، وللأسف لم يخب ظنى فقد أخذت السلطة تتركز فى يديه شيئاً فشيئاً ولم تمض عدة سنوات حتى نصب من نفسه قيصرًا يدين له الوزراء والسفراء وأصحاب المراكز العليا الحساسة بالولاء ، ثم يقول بعد استطراد طويل ، وتمكن هذا الشر الجاثم من حصار الخير الكامن فى قلب عبدالناصر ، وكم شهدنا من أكفاء شرفاء أبرياء نحوا عن مناصبهم لأنهم لم يدينوا بالولاء له ، ومن هنا فقدت البلاد عون كفايات كانت فى أمس الحاجة إليها ، وإذا مناصبهم التى نحوا عنها يشغلها من يدينون له بالولاء ممن لا كفاية لهم ولا خبرة ولا دراية ولا طهارة ، فخير الوطن أية خسارة .

وبعد أن تحدث جمال عبدالناصر عن تلك النكبة وقال إنها هزيمة كان قد قطع الطريق على كل التكهنات والتحليلات ومحاولات التبرير ولم يعد هناك مجال لقول قائل ، قرر تحمل المسؤولية كاملة وأعلن استقالته فى مشهد تزلزلت له الجبال وإعاد الى ذاكرة المواطن المصرى مشهداً آخر كان عبدالناصر قد تحدث فيه وكأنه ينعى فناء أمة غمرها طوفان ، ذلك كان يوم انفصال سوريا حيث قال (أعان الله سوريا على أمرها على الرغم من أنه تمسك بأمل ضعيف ذلك هو اسم دولة الوحدة (الجمهورية العربية المتحدة) كأنه يمسك بخيط رفيع أملًا فى المستقبل الذى كاد يتوقف يوم إعلان الاستقالة) ونجد الأستاذ هيكمل ما يزال يتحدث عن نكسة فقد قال :

(إن جمال عبدالناصر مسؤول عما حدث سنة ١٩٦٧ وقد قبل هو بتحمل كل المسؤولية فيما جرى وصارح بذلك شعبه وأمتة ، وكانت رغبتهما بعد ذلك معاهى الطلب بأن يظل فى موقعه ويقود الحرب، لقد خسرنا معركة ، ولكن الحرب مستمرة.

ولعلنى أقول بعد ذلك أن مسؤولية عبدالناصر فى الدرجة الأولى تنبع من سببين :
السبب الأول : الخطأ فى حسابات عملية إغلاق خليج العقبة ..

والسبب الثانى ، الخطأ فى ترك المشير عبدالحكيم عامر يقود المعركة فعلا بينما هو عمليا لا يصلح لقيادتها ، لأنه تحول فى الحقيقة عند رتبته الرائد ، من ضابط إلى سياسى . ومع ذلك فلكى توضع مسؤولية جمال عبدالناصر فى إطارها العملى والتاريخى فإنه يتحتم علينا إلقاء نظرة واسعة على الصورة العامة للموقف السياسى والعسكرى كما بدت أمامه وقتها :

أولا ، أبداً برؤيته العامة لمجرى الصراع العربى الإسرائيلى ، كان جمال عبدالناصر حريصا كل الحرص فيما يتعلق بالصدام المسلح مع إسرائيل لعدة أسباب : كان يرى أن الصدام المسلح مع إسرائيل لابد فيه من حساب احتمالات التدخل الأمريكى وهو احتمال قائم يستهدف فرض الهزيمة على العرب إذا استطاع ، أو سلبهم ثمار النصر إذا استطاعوا ، وإذن فإن نجاح الصدام المسلح فى رأيه كان مرهونا بظرف دولى وعربى ملائم تكون فيه القوة الأمريكية مصابة بالشلل أو يمكن إصابتها به ..

كان رأيه أن القوات المسلحة المصرية تحتاج على الأقل إلى خمسة عشر عاما تستوعب فيها سلاحها الذى حصلت عليه من الإتحاد السوفيتى ، ولم يكن يقيس هذه المدة بتاريخ عقد أول صفقة سلاح سنة ١٩٥٥ ، وإنما كان يقيس ابتداء من سنة ١٩٥٧ ومن هنا ، فقد كانت الفترة المحتملة للصدام المسلح فى تقديره هى الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٧٢ وسنة ١٩٧٥ ..

حتى يجرى هذا الوقت وتسرح فرصته فقد كان جمال عبدالناصر يعتقد اعتقادا راسخا فى سياسة يسميها هو (سياسة السنطة وشعرة ذيل الحصان) وهى تسمية مستمدة من حياة صعيد مصر وممارساته اليومية ، وكان جمال عبدالناصر يشرح سياسته فيقول ، إن السنطة نوع من البثور ، يظهر على الجسم ويتكلس ، وأهل الصعيد فى مصر يعالجونه بأن يجرى الواحد منهم بشعرة من ذيل حصان ويلفها حول النمو الدخيل على جسده ، ثم يحكم شدّها بحيث يحبس مرور الدم إليها ، وتبدأ الإصابة بعد أيام تتجمد ، ثم تبدأ فى الذبول ، ثم تقع من تلقاء نفسها

(وكان رأى جمال عبدالناصر أن إسرائيل نمو دخیل فی وسط الجسد العربی وأن مقاطعتها وإحكام الحصار من حولها وتشدید الضغط علیها كل يوم سوف يؤدي إلى حبس الدم عن خلاياها ، ومن ثم إلى ضمورها وسقوطها ، والمهم أن نرفض التعامل معها باستمرار ، المهم أن لا يخف حصارنا عنها طول الوقت) المهم أن تحس بضغطنا من حولها لیل نهار ، وحتى إذا اضطررنا بعد ذلك إلى استعمال القوة المسلحة ، فإن استعمال القوة یجىء فی أكثر الظروف ملائمة ، وكانت له نظریته فی استعمال القوة المسلحة مع إسرائيل ، كان یرى أن الظروف العالمیة لا تعطى العرب فرصة تحقيق نصر حاسم نهائی فی معركة واحدة ، وهكذا ظل يتصور سلسلة من المعارك تحقق كل منها نصرا جزئيا ، عسكريا سياسيا ، ثم يكون من أثر تراكم هذه الانتصارات كلها أن يشعر المشروع الصهيونی فی فلسطين بأن لا أمل له فی البقاء .. انتهى .

لعله من الصواب أن أعید الإشارة كما قدمت إلى أن الأستاذ هیکل رغم علاقته المتينة والتي كانت دائمة مع جمال عبدالناصر أنه أقدر صحفى فی إخراج المبررات من جعبته ، ولأنه بسبب تلك العلاقة المتينة مع عبدالناصر يكون لمبرراته وقع وتأثير یوحى به للقارئ كما لو كان ينقل تعبيراته من فم جمال عبدالناصر ، والمشكلة فی الواقع أن الأستاذ هیکل إضافة إلى أنه صحفى بارز جعل من نفسه جنرالا يحلل المعارك العسكرية إذ رأیناه بعد الهزيمة مباشرة یبلغنا كيف كانت الأحداث العسكرية عندما تحدث عن الطائرات الإسرائيلية والقوارب الصغيرة التي كانت ترشدها وكيف أنها جاءت فی طیران منخفض لا يحس بها الرادار وعن طریق بحيرة البرلس وأنواع القنابل التي استخدمت فی ضرب المطارات المصرية الخ ، وإذا كان ما ذكره الأستاذ هیکل عن الموقف الأمريکی صحیحا فإننا وقد كنا نعيب على الرئيس أنور السادات قوله (إن مائة فی المائة من الأوراق فی يد أمريكا يكون صحیحا ، وبالتالي فإنه لا السنطة ونحن نسميها الثؤل) ولا شعرة ذیل الحصان یمكن أن تكون ذات نفع) ولقد استعاد السادات سیناء كاملة بلا سنطة ولا شعرة ذیل حصان رغم ما نتج عن ذلك من خصام عربی وتفرق وتشاتم سیكون للتاریخ حکمه فيه ، خصوصا إذا رأینا أن العرب بعد مرور قرابة ربع قرن من اجتماع (کوين کاستل) لم یحصلوا على واحد من الألف مما كان

يمكن أن يحصلوا عليه لو قبلوا بالدخول فى تلك التسوية التى نادى بها الرئيس السادات ، وأنا لا أقول إن السادات كان على حق وإنما أعتقد أنه أدرك مبكرا الدور الأمريكى فى المنطقة والعالم وساعده على صحة هذا الموقف انهيار الاتحاد السوفيتى بحيث صارت كلمة أمريكا هى الفيصل فى شئون العالم ، ومن أجل الإحاطة بظروف تلك الفترة التى جاءت بعد الهزيمة أو النكسة أو النكبة لابد لنا أن نناقش كتابات بعض المختصين والذين شاركوا فى تلك الأحداث أو كانوا قريبين منها ، فهذا الأستاذ محمود رياض وكان وزيرا للخارجية المصرية يصف الموقف على نحو آخر ، يقول :

عندما وضعت كتابى البحث عن السلام فى الشرق الأوسط تركت الأحداث تتحدث عن نفسها ، ولم أعلق على كل حدث ، تاركاً للقارئ أن يستخلص الحقائق من الوقائع التى سردتها والوثائق التى قدمتها ..

ولذلك فإننى لن أخوض فى تفاصيل عدوان عام ١٩٦٧ وما تلاه من أحداث جسام انتهت بتوقيع معاهدة السلام بين الرئيس السادات وبيجن رئيس وزراء إسرائيل ، إلا أتنى وجدت ضرورة التعرض للأحداث الرئيسية التى أوصلتنا للوضع الخطير الذى نعانى منه ونحن فى منتصف الثمانينات ، والتى أصبح فيها الأمن العربى مهددا أكثر من أى وقت مضى ..

وكان للمذكرات العديدة التى نشرها رؤساء الولايات المتحدة وغيرهم من المسؤولين الأمريكين بعد العدوان فضل كبير فى إيضاح العديد من جوانب الوضع الذى وصلنا إليه ، فقد كشفت عن الخطوات التى أدت الى قيام تحالف استراتيجى أمريكى إسرائيلى موجه ضد الأمن العربى ..

وعند الحديث عن الأحداث فى المنطقة سنجد دائما دورا رئيسيا للولايات المتحدة الأمريكية فى هذه الأحداث مما يستدعى الإشارة إلى هذا الدور حتى يكون لدينا وضوح رؤية ولا نعيش فى ظل أوهام أو سراب يحلو لبعضنا التشبث به ، وهو إمكان استمالة الولايات المتحدة إلى جانبنا ..

والانطباع السائد لدى العديد من المراقبين السياسيين أن التحول فى السياسة الأمريكية المعادية لمصر ولعبدالنصر بدأ فى عهد الرئيس جونسون ، فى حين كانت العلاقات طبيعية قبل ذلك بسبب موقف الولايات المتحدة المتفهم لمطالب مصر

أثناء مفاوضات الجلاء مع الإنجليز عامي ١٩٥٣ - ١٩٥٤ ثم وقوف أيزنهاور بقوة ضد العدوان الثلاثي على مصر ، إلا أنه يحسن الإشارة إلى أن العلاقات المصرية الأمريكية بدأت تشهد توترا مع بداية ١٩٥٧ عندما تقدم أيزنهاور بخطته التي عرفت باسم (مبدأ أيزنهاور) وهي خطة تتيح له بسط النفوذ الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط بحجة ضرورة ملء الفراغ الذي نتج عن استبعاد النفوذ البريطاني الفرنسي وكان تحقيق هذه الخطة يقتضى عقد تحالفات عسكرية مع دول المنطقة ..

ولم يدرك أيزنهاور أن كفاح مصر ضد الوجود البريطاني وتصديها للعدوان الثلاثي لن يجعلها تقبل استبدال السيطرة البريطانية لها بسيطرة أمريكية ، ولذلك فوجئ أيزنهاور برفض مصر وسوريا مبدأه مع إصرار عبدالناصر على اتباع سياسة عدم الانحياز ، ويضيف السيد محمود رياض قائلاً :

(وتطور عداء الإدارة الأمريكية برئاسة جونسون فلم يكتف بالضغط السياسية والاقتصادية بل أصبح من أهدافها إسقاط عبدالناصر ..) .

والحقيقة أننا نعرف من خلال مذكرات الساسة الغربيين بريطانيين وفرنسيين وكذلك بعض الكتاب أن تورط بريطانيا وفرنسا ومعهما إسرائيل في الهجمة البربرية على مصر سنة ١٩٥٦ م كانت في البداية بمباركة أمريكية وتحديدًا عندما بدأت الاجتماعات التمهيديّة بين الدول الثلاث في سيفر بفرنسا ومباشرة بعد الاتفاق على تفاصيل العدوان ذهب رئيس وزراء بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية للقاء فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكي ولكنه لم يتمكن إذ أبلغ رسميًا أن الوزير الأمريكي مريض ويعالج بالمستشفى ، وعندما حدث العدوان تبين أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد قررت التخلي عن الدول المعتدية بحيث تحل محل ما عرف بعد ذاك بالاستعمار القديم ، بمعنى أن بريطانيا وفرنسا بتحالفهما مع إسرائيل في العدوان على مصر مقابل موقف معارض بشدة من الاتحاد السوفييتي كانت تعلمه الولايات المتحدة سوف يجعل العدوان فاشلا وبالتالي ينتهي من المنطقة النفوذ البريطاني الفرنسي وعلى الولايات المتحدة أن تتقدم لملء الفراغ ، وهو ما حاول أيزنهاور أن يفرضه عندما فشل العدوان ، ولكن موقف عبدالناصر كان قويا في معارضة ذلك المشروع الأمريكي وهكذا نهجت

السياسة الأمريكية فى عهد خلف أيزنهاور نهجا عدوانيا وشجعت إسرائيل على ما كانت تريده ..

ولما كان الأمر غريبا إذ كيف يجرؤ حاكم فى بلد صغير بالعالم الثالث أن يعارض أو يعترض على رئيس دولة كبرى وهو شئ غير مألوف ولا مقبول فإنه لا يمكن السكوت عليه ولا بد أن يعاقب هذا الحاكم ، كما أنه لا بد لمصر على ضوء هذا التصرف أن تبقى كما قال عبدالله إمام بلدا زراعيا متخلفا ، ولأن هذا الموقف كان من عبدالناصر وقد فشلت محاولات التآمر عليه وإسقاط حكمه من الداخل فلا بد من ضربه مباشرة من الخارج ، ويقول عبدالله إمام :

هذه المرة خطط للمؤامرة الخارجية بدقة وأسهمت فيها كل الأطراف التى تريد أن تتخلص من عبدالناصر ، وهى الأطراف التى تنهال عليه الآن بالإساءة والتشكيك لأنه مازال يزعجها حتى بعد رحيله :

ولقد كانت مؤامرة سنة ١٩٦٧ كبيرة الأثر على عبدالناصر وعلى شعبه وأمتة العربية ورغم ذلك فإن عبدالناصر أعلن أنه يتحمل مسؤولية كل الذى حدث كاملة ويذكر أنه عندما أعد له خطاب التنحى عن الحكم رفض تعبيراً يقول (أنا أتحمل نصيبى من المسؤولية) ووضع بدلا من ذلك القول ، أنا أتحمل المسؤولية كاملة ، ويذكر عبدالله إمام أن صلاح نصر أراد أن يخفف صدمة الهزيمة المرة ، قال له عبدالناصر إنها قصة محمد على تتكرر ، وكانت الدول الكبرى قد تكالبت على محمد على عندما أراد أن يخرج بمصر عن حدودها الإقليمية ويمتد بها حيث يكون لها دور مؤثر فى المنطقة ..

وبعد أن عاد جمال عبدالناصر عن قرار الاستقالة نتيجة للضغط الشعبى الهائل حيث خرجت جماهير مصر (فلاحين وعمال ومثقفين ورأسمالية وطنية وطلبة ورجال دين) تطالب بأن يستمر عبدالناصر فى تحمل مسؤولية القيادة ليخرج بالبلاد من أزمتها ، كان لا بد من تصحيح الأخطاء ومعاقبة المسؤولين على كارثة الهزيمة العسكرية ، ويروى القصة أنتونى ناتنج فى كتابه ناصر بشكل تفصيلى حيث كان قد التقى عبدالناصر بعد الهزيمة مباشرة ، يقول :

(لقد كان عبدالناصر كما فعل مرارا من قبل عندما يتعرض لنكسة خطيرة ، ينزع إلى التقوقع ويلقى على نفسه المزيد من التبعات بعد أن يستغنى عن أعوانه ماعدا الذين لا يوجهون نقدا ، وفى أعقاب حرب الأيام الستة أصبح رئيسا للوزراء اسما وفعلا ، واستبدل عبدالحكيم عامر بالفريق أول محمد فوزى كما عين عبدالمنعم رياض رئيسا لأركان الحرب الذى لقى مصرعه نتيجة للقصف الإسرائيلى على قناة السويس فى مارس ١٩٦٩ ولكن خوفا من أن يحاول فوزى أن يصبح عامر آخر تولى عبدالناصر بنفسه الإشراف على القوات المسلحة وعين نفسه القائد الأعلى .. يستمر ناتنج قائلا .. عندما قام عمال الحديد والصلب فى حلوان وطلبة جامعات القاهرة والإسكندرية باحتجاج لأن صدقى محمود ورفاقه من اللوات صدرت ضدهم أحكام مخففة أمر بإعادة المحاكمة التى زادت الحكم على صدقى محمود من ١٥ عاما للسجن المؤبد ..

ويقول ناتنج ، وقد اعترف لى جمال عبدالناصر فى وقت لاحق بأن الأسابيع التى أعقبت حرب عام ١٩٦٧ كانت بمثابة كابوس دائم ، لقد كانت الخسائر فى المعدات والرجال فى المعارك الأخيرة كبيرة إلى حد أن القوات التى لم تكن متورطة فى اليمن أو لقيت حتفها فى سيناء لم يكن لديها من السلاح ما يمكنها من الدفاع عن مصر ، فقد دمر سلاح الطيران وكانت القاهرة معرضة للهجوم ، ولو أن الإسرائيليين قرروا التقدم غربا من القناة لما استطاع الجيش أن يوقف تقدمهم ، ومن ثم استدعى كمال الدين حسين فى محاولة يائسة لتشكيل نوع من المقاومة ، وطلب منه تكوين قوات شعبية على غرار القوات التى أزعج بها المحتلين البريطانيين فى بورسعيد فى عام ١٩٥٦ انتهى .

هذا كان الوضع العسكرى وتقدير الأمور بعد ضرب قواعد الطيران فى مصر ، ولقد كانت كل التقديرات تقول أن الهزيمة ستجعل عبدالناصر يتنحى ويستسلم إن لم يغتال أو يحاكم بعد أن يسقط ، وهو الشئ الذى لم يحدث ، فإذا كان جمال عبدالناصر قد واجه العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦م والذى خططت له وقامت به دولتان أوربيتان كبيرتان وكان المطلوب فيه رأس جمال عبدالناصر الذى وقف على منبر الأزهر الشريف معلنا (حانحارب) ولقد حارب فعلا بشعبه وجيشه مسنودا بأمتة العربية ومدعوما بأصدقائه فى دول العالم فهل كان يمكن أن

يتنحى على إثر هزيمة عسكرية كانت نتيجة تخاذل أو إهمال بعض القادة فى جيشه وهو الذى كان قد نبههم من الخطر القادم ، بل ولا بد من القول فى هذا الحال من غير جمال عبدالناصر يمكن أن ينهض بعد تلك الهزيمة ببناء القوات المسلحة ؟

وقولة عبدالناصر (حانحارب) تمثل إرادة القتال التى أدت بعد تلك الهزيمة مباشرة الى أن يقوم الجيش الذى عدّ مهزوما والقائد الذى توقع منه موشى دايان أن يتصل مستسلما بأكبر معركة بعد أيام من هزيمة سيناء عرفت بمعركة (رأس العرش) وبعدها تلك المواجهة البحرية الشجاعة التى دمرت فيها قوارب الطوربيد المصرية البارجة (إيلات) وأغرقت معها ٢٥٠ ضابطاً وجندياً بحاراً ، ولم يحدث أن ينكسر أو يتنحى أو يتراجع جمال عبدالناصر نتيجة لتلك الهزيمة ، وعلى الرغم من تحميله المسؤولية الكاملة ومحاولته أن يترك مكانه لقائد آخر ليس هروباً ولا جبناً وإنما تحملاً لمسؤولية تاريخية وذلك فى حد ذاته شجاعة ، وإذا كان شعبه قد تمسك به فقد بادر بتصحيح المسار وأنهى البيروقراطية العسكرية كما قضى على التواكل وبورجوازية بعض ضباط الجيش فى القيادات العسكرية ، ومن أجل مراجعة الموقف واتخاذ الإجراء المناسب بعد تلك الفاجعة التى حدثت يوم ٥ يونيو ١٩٦٧م جمع جمال عبدالناصر اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكى خلال أول شهر أغسطس ١٩٦٧م ليعرض رأيه ويطلب منهم تقييم الموقف على ضوء ما حدث ..

قال إحنا حنبعث النهار ده موضوع من أهم الموضوعات ، علشان كده أنا طلبت من عبدالمجيد فريد إنه مايعملش جدول أعمال لهذه الجلسة ، وما سنناقشه أهم بكثير من جميع الموضوعات التى سبق بحثها من قبل ..

الى عايز أقوله إننا لازم نقيم نظام الحكم الذى نتبعه ، لأننى أعتقد أنه من متابعة الأحداث التى جرت أخيراً وبعد تحليلها بدقة تبين لنا أنه لم يكن لدينا نظام سليم ..

لم يكن عندنا نظام سليم ، وعلشان أوضح كلامى أكثر لازم أتعرض للأحداث التى مرت بنا فى بلدنا مؤخراً بشئ من التفصيل ومزيد من الشرح ، ونضع النقاط على الحروف ..

تذكرون جميعاً أننا حضرنا اجتماعاً فى القيادة العامة للقوات المسلحة فى مدينة نصر قبل بدء العمليات بقليل ، وقلت للقيادات العسكرية التى حضروا

الاجتماع أن المعلومات السياسية المتوافرة لدينا تؤكد أن العدو سيبدأ هجومه الكبير بالاستيلاء على شرم الشيخ وفصل قطاع غزة ، لكن القيادة العامة للقوات المسلحة في ذلك الوقت قدرت موقفها على أساس أنهم يستبعدون قيام العدو بهجوم شامل على الجبهة وقدروا أيضا أنه لو حدث مثل هذا الهجوم فهم يستبعدون تماما الطريق الساحلى كمحور رئيسى للهجوم ، وبناء على ذلك فقد ركزوا قواتهم فى الجنوب وتركوا القطاع الشمالى عند رفح وغزة ضعيفا ..

السيد زكريا محيى الدين ..

فعلا نذكر هذه المناقشة التى تمت مع هيئة عمليات القيادة العامة فى مدينة نصر فى ذلك اليوم ، بعد ما تبين من خطة القيادة ضعف منطقة العريش وما حولها، وأنهم وافقوا بعد مناقشات منا وإلحاح منك يا ريس على تعزيز منطقة العريش بلواء مدرع وتقوية منطقة الاختراق المحتمل عند الشيخ زويد بقوة سعد الشاذلى المدرعة ..

جمال عبدالناصر ..

للأسف ، اللى حصل أنى عرفت من عبدالحكيم عامر يوم الجمعة أنه أمر بإعادة اللواء المدرع إلى نخل وأنه أعاد قوة سعد الشاذلى إلى الجنوب مرة أخرى ، على أساس أن تقديرهم مبنى على أن المعركة الرئيسية ستكون فى الجنوب !

وقلت أيضا للقيادة العامة للقوات المسلحة فى نفس الاجتماع وقدام قادة الجيش والطيران أنه فى تقديرى أن الحرب حثبداً يوم الإثنين اللى جاى ٥ يونيو وغالبا ما ستوجه الضربة الأولى لقواتنا الجوية ، فانزعج الفريق أول صدقى محمود لذلك وقال إن هذا الاحتمال سيسبب لنا إرباكا كبيرا !!

وكما تعلمون بدأت الحرب فعلا يوم الإثنين وبدأت العمليات بالضربة الجوية على جميع قواعدنا الجوية ومطاراتنا ، وكان برضه الهجوم الرئيسى للعدو على القطاع الشمالى وسقطت العريش ، وبعد كده تحرك العدو على ثلاثة محاور أحدها الطريق الساحلى الذى لم يجدوا فيه قدامهم أى وحدات مقاتلة تعترضهم على أساس أن القيادة العامة استبعدت أى تحرك للعدو على هذا المحور !

أعود إلى الأيام الأولى للحرب وكنت أتابعها من مكتبى حيث لم أدخل القيادة العامة أو أتدخل فى توجيه المعركة العسكرية من يوم الإثنين ٥ يونيو حتى الخميس ٨ يونيو اتصل بى شمس بدران وطلب منى ضرورة الحضور فورا إلى مبنى القيادة العامة لأن عبدالحكيم عامر فى حالة انهيار تام وأنه طلب من سكرتيه حبوب (سيانور) للانتحار ..

رحت القيادة ولقيت عبدالحكيم فعلا فى حالة انهيار تام ، وحاولت أن أهديه وقلت له إنى المسئول شخصيا عما حدث وأنا لهذا سوف أتنحى عن الرئاسة ، ثم سألته عن الشخص الذى يراه صالحا لتولى رئاسة الجمهورية من بعدى فقال إنه يرى أن أصلح واحد لتولى الرئاسة هو شمس بدران !!

وعرفت بعد أيام من لقائى بعبدالحكيم أنه بعد ما غادرت مبنى القيادة العامة عقد عبدالحكيم وشمس بدران اجتماعا طويلا لإعادة تنظيم الدولة وقياداتها المدنية، وأنهم اتصلوا ببعض الشخصيات السياسية وبعض الوزراء وطلبوا منهم أن لا يعلنوا استقالاتهم بعد تنحيتى ليتعاونوا مع رئيس الجمهورية الجديد ..

بعد ظهر اليوم التالى ٩ يونيو اتصلت بعبد الحكيم تليفونيا قبل إذاعة بيان التنحى وقلت له أنا فكرت كثيرا فى الكلام الذى تكلمنا فيه إمبراح ، والحقيقة أنا شايف أن زكريا هو أصلح من يتولى رئاسة الجمهورية من بعدى ، وهنا بدأت مشكلة شمس بدران لأنه اعتبر رئيسا للجمهورية من الساعة إحداشر من مساء يوم الخميس لغاية ما أذعت بيان التنحى مساء يوم الجمعة ٩ يونيو ، وكمان اعتبر أنى بترشيح زكريا محيى الدين رئيسا للجمهورية قد اعتديت على منصبه الشرعى وعزلته ، وحدث أثناء إلقاءى بيان التنحى من مكتبى بالقبة أن طلب شمس بدران سكرتيه محمد أحمد علشان يبلغنى بأنه على أن لا أستمّر فى تكملة باقى البيان، وطبعاً ده كان كلام خيالى !

وبعد يومين طلبنى شمس بدران تليفونيا ليبلغنى بأن هناك تجمعاً من بعض الضباط يقدر عددهم بحوالى خمسمائة ضابط يحيطون بمنزل المشير فى حلمية الزيتون ، وغيرهم بمبنى القيادة العامة ، وهم يصرون على عودة المشير عامر قائدا عاما ويطلبون منى أن أبت فى هذا المطلب فورا فقلت له أنى سأبت فى المطالب دى بكره

الصباح ، فطلبني في اليوم التالي وكرر كلامه ، فقلت له أنت يا شمس تعرف رأيي في القيادة العامة ، وإذا كنا عايزين بصدق نصلح الحال فعلينا أن نختار قائدا عاما محترفا للعسكرية وأن يبقى عبدالحكيم نائبا أول لرئيس الجمهورية فقط ..

وحاولت شخصا إحضار عبدالحكيم إلى مكتبي في منشية البكري في محاولة ليستوعب ويفهم الأوضاع ، واستعنت بصلاح نصر لإحضاره لأنه ماكانشى مقيم في بيته ، وإنما كان قاعد في شقة أحد الضباط الموالين له ، ولكنه مارضيش يحضر ، وفي نشرة أخبار الإذاعة الساعة الثانية ونص في نفس اليوم أذعت خبر تعيين فوزى قائدا عاما ثم أمرته بأن يعتقل الضباط المعتصمين في القيادة وكذلك الضباط المعارضين ..

بعد كده قابلت عبدالحكيم وحاولت إقناعه بأنه ليس من المنطق ولا المعقول أن يبقى بعد هذه الهزيمة قائدا عاما للجيش ولكن بدون أى فائدة ، ولم يقتنع بأن يكون نائبا أول لرئيس الجمهورية ورفض كلامي رفضا باتا وسافر غضبان لبلدته بالمنا ، راح أسطال ، ومن هناك اتصل بهيكل وأبلغه استنكاره التام لجميع تصرفاتي ..

بعدها حضر إليّ في منشية البكري شمس بدران وبلغني أن الموقف العام بيزيد سوءا يوما بعد يوم كما قال لي أن البلد كلها ضدى ، وأن الجيش ضدى ، وأن الحل الوحيد هو أن عبدالحكيم يرجع قائد عام للقوات المسلحة من جديد ، وقال أن هو هذا الحل الذى سترتب عليه الاستقرار فى البلد وفى الجيش ..

وبعد يومين تانيين قابلت شمس بدران مرة ثانية وكنت قد أصدرت أمرا باعتقال ضباط التنظيم السرى الى أقامه شمس بدران داخل القوات المسلحة ، وكان أغلبهم من دفعته العسكرية خريجى سنة ١٩٤٨ ، وقلت له ، يا شمس أنا منحتك ثقتى بالكامل ولكنك للأسف اشتغلت لمصلحتك ومصلحة المشير من وراء ظهري ، وأنت يا شمس لو كنت مخلص بصحيح ونيتك صادقة فى تكوين تنظيم داخل الجيش لكنت أبلغتني بهذا الأمر فى حينه ، كان مفروض عليك لو أنت مخلص بجد أنك كنت تحطنى فى الصورة بالنسبة لشكل التنظيم وأسماء أعضاء هذا التنظيم ، لكنك لم تكن أمينا ، عموما أنا أمرت باعتقال جميع أفراد تنظيمك السرى ، فارتجف وارتبك ..

يوم الإثنين الماضى حضر المشير إلى المنزل واتعشنا سويا وكان حديثنا العام ودى ولكنه قال أنه يقترح أن يسافر أمريكا للتفاهم معاهم ، وأن الروس خونة ، ولم أعلق على هذا الكلام غير المتزن ولكنى قلت له .. نبقى نفكر ..

السيد زكريا محيى الدين :

ده تفكير ساذج ولا يستند إلى أى أساس وغير قابل للمناقشة ..

الرئيس عبدالناصر :

سبب عرضى لهذه القضية بالتفصيل هو أنى أريد أن أبرز موضوعاً فى غاية الأهمية وهو إذا كان جميع هذه التصرفات قد صدرت عن ومن أقرب الناس إلى وأقرب القيادات إلى النظام .. فماذا يحدث من غيره ؟

اللى حصل يحتاج فعلاً إلى بحث وتفكير عميقين ، ليه ؟ دا أنا وعبدالحكيم كنا أكثر الناس ارتباطاً ببعض ، ورغم كده عبدالحكيم تصرف تلك التصرفات .. مجموعة شمس بدران من دفعة ٤٨ وغيرهم كانوا يجهزوا أنفسهم لاستلام البلد .. نطلع من القصة كلها أن النظام المقفول سيؤدى بنا فى النهاية إلى نظام توريث ، وبناء عليه فأنا أرى أن علينا واجبين :

الأول : هو أن نبحث عن نظام جديد لنا ..

الثانى : هو أن نحدد الأخطاء الرئيسية الموجودة فى البلد دلوقتى ، ونشوف إزاي نصلحها ، اللى بيتقال فى البلد دلوقتى إن احنا بناكل بعضنا ، النظام بياكل نفسه ، والمستقبل بهذا الشكل سيكون خطير جداً ، لذلك أنا من رأيي أننا نعمل على تغيير النظام اللى إحنا ماشيين عليه لأنه لازم فيه غلط ، والمعروف أن نظام الحزب الواحد تحدث فيه دائماً صراعات فى قمته على السلطة، وعندنا الكثير من الأمثلة فى العالم آخرها ما حدث فى الصين مثلاً ، وهو مثال واضح ..

أنا شايف أنه لم يبق فى عمر معظمنا أكثر من عشر سنين ، وخصوصاً لى مع المرض اللى عندى ومع الضغط والجهد اللى باتعرض له ، لذلك أنا شايف ضرورة تغيير نظامنا بحيث لا يسمح النظام الجديد لشخص واحد أو لشلة غير واعية أو جاهلة سياسياً أن تحكم البلد .. البلد اللى أعطتنا ثقتها المطلقة بلا حدود ..

طبعاً التغيير اللى أقصده لا يمس اتجاهنا الاشتراكى لأننا فى الحقيقة إحنا نكاد نكون قد انتهينا من التطبيق الاشتراكى فى أغلب القطاعات باستثناء المقاولات وقطاع التجارة ، بعد كده يبقى عملنا مركز أساساً على خطط التنمية اللى بنحطها وعلى متابعة تنفيذها بعد كده .. انتهى ..

تطول المناقشة فى مختلف الأمور ولكنها فى الغالب تتركز على ضرورة التغيير ولقد جاء هذا نتيجة لما حدث فى حرب ٦٧ حيث أدرك جمال عبدالناصر أن هناك أخطاء وهناك شللاً وهناك تواكل وهناك إهمالاً فى كل شئ ، وخصوصاً فكرة الحزب الواحد ، ولهذا أراد أن يسمع رأى رفاقه ، وانتهى إلى القول :

أنا فى رأى أن النظام الحالى استنفد كل مداه ، ولا بد من نظام جديد ، وأنا شخصياً عندى اقتراحات محددة فى الموضوع ده :

أولاً : أننا كأعلى سلطة سياسية فى البلد علينا أن نتحرر من الخوف وبعد كده نبقى نحرر البلد كلها من الخوف ..

ثانياً : إذا كنا عايزين حقاً توفير الأمن والسلام زى ما قلتم فلنسمح بوجود معارضة فى البلد ، وطبعاً لا أتصور عند تكوين المعارضة دى أننا نقول أن زكريا يمثل إتجاه معين وعلى صبرى يمثل إتجاه آخر ، وبكده يبقى فيه معارضة وفيه حكم ، ده إحنا لو عملنا كده يبقى بنعمل مسرحية المعارضة ، أنا أعرف أن المعارضة الحقيقية هى أننا نجيب الذين يعارضوننا فعلاً فى الوقت الحاضر ، مثل بغدادى وكمال حسين وكلاهما أصلاً مننا وسبق أن وافقوا على الميثاق ونسمح لهما بتكوين حزب معارض ونسمح لهما بجريدة تعبر عن رأى الحزب ، ومن ناحيتنا إحنا نعيد تنظيم صفوفنا ونعمل حزب الاتحاد الاشتراكى ثم ننهى الدورة البرلمانية الحالية وتجري انتخابات جديدة فى شهر ديسمبر السنة دى على أساس قائمتين للحزبين ، واللى يكسب الانتخابات يستلم الحكم والثانى يشكل المعارضة ، على أساس أن يبقى الجيش كجهاز مختلف وكذلك البوليس ..

أنا شايف أننا لو نفذنا الاقتراح ده سنشفى من كل الأمراض الموجودة بيننا دلوقت ، وسيتحرر كل واحد فىنا من الخوف اللى تفشى بيننا من أكبر هيئة إلى أصغر هيئة ، أنا ضد نظام الحزب الواحد لأن الحزب الواحد بيؤدى غالباً إلى قيام ديكتاتورية مجموعة معينة من الأفراد ..

آخر كلامى فى الموضوع ده ، أننا إذا ما غيرناش نظامنا الحالى حنمشى فى طريق مجهول ولن نعلم من اللى حايستلم البلد من بعدنا ، واللى وصلنا إلى أننا أصبحنا نستحى أننا نتكلم ونقول الحقيقة أو نقبل النقد ، سيؤدى بنا إلى مستقبل مظلم ، والنظام الحالى لن يمكننا إصلاحه عن طريق إدخال التعديلات أو القيام بعمليات ترقيع وإعطاء مسكنات أسبرين ، كما أن الناس موش حاتصدقنا لما نقوم بعملية رتوش ..

وأيضاً بعد مناقشات طويلة واختلاف الآراء وإبراز تخوفات كثيرة انتهى الرئيس عبدالناصر إلى القول أقسم فى هذا اليوم ٩ يونيو ١٩٦٧م على أن أقول رأيي بصراحة وإلا أخدع الشعب مهما كانت الأسباب وألا أساوم أو أتبع سياسة التوازنات وأن أقاتل فى سبيل مبدئى ..

وفى هذا الوقت كانت مظاهرات طلبة الجامعات قد شدت انتباه المسؤولين احتجاجاً على تلك الأحكام التى صدرت ضد الضباط المقصرين فطلب عبدالناصر مناقشة هذا الحدث ، قال :

(إننى أرجو أن يتفضل السيد شعراوى جمعة وزير الداخلية أن يلقي بيانا عن وقائعها وإن أمكن أن يقدم تحليلاً عن حوافزها ، اتجاهاتها ، مؤثراتها ، كما أرجو من السيد الأمين العام للاتحاد الاشتراكى بوصفه المسؤول عن التنظيم السياسى أن يلقي كل الأضواء الممكنة على هذه المظاهرات ، وهناك نقاط يجب أن يتوقف عندها المجلس ، وأن ينظر إليها لا بعين السلطة كما قلت ، ولكن بعين الساسة ، ويجب أن يسهم المجلس جميعه فى مناقشتها ..

هذه أول مظاهرة يمكن أن تسمى انتفاضة سواء من ناحية النوع أو الأهداف أو الشعارات ..

إن أمامى تقرير النيابة العامة عن هذه المظاهرات ، لقد اندلعت صباح يوم ٢١ فبراير ١٩٦٨م فى بعض أقسام القاهرة والجيزة ، واسمحوا لى أن أخص أمامكم أهم ما جاء فيه ..

أولاً : إن المظاهرات بدأت فى حلوان تحت إشراف الاتحاد الاشتراكى ، فالذى لا يؤخذ من أقوال عبداللطيف مليجى بلطيه مع السيد عبدالمجيد فريد مساء

يوم ٢٠ / ٢ / ١٩٦٨ بمناسبة ما كان قد وصل العلم به من احتمال خروج عمال مصانع الطائرات فى مظاهرة فى اليوم التالى احتجاجا منهم على الأحكام الصادرة فى قضايا الطيران ، فقد كلفت قيادة الاتحاد الاشتراكى بالحضور إلى مقر المكتب التنفيذى فى الصباح لمنع خروج المظاهرات حسب أقوال عبداللطيف بلطيه أو مواجهة التعبير الجماهيرى بأسلوب سياسى أى تنظيم حركة الجماهير (حسب أقوال السيد محمد وهدان) ولكن رجال الاتحاد الإشتراكى فشلوا فى السيطرة على الجماهير ، وتصدى رجال الشرطة لهم وأطلقوا النار عليهم فأصيب تسعة أشخاص من أعيرة نارية ، من بينهم أربعة كانوا مارين بالصدفة، المظاهرات إذن بدأت تحت سيطرة الاتحاد الاشتراكى طبقا لخطة وضعها فى اليوم السابق ثم خرجت عن السيطرة ..

ثالثا: إن المظاهرات ما لبثت أن انتشرت فى دائرة عدد من أقسام القاهرة والجيزة والإسكندرية، وفى كلية الهندسة بجامعة القاهرة بالذات ..

ثالثا: إن الشرطة قد أطلقت الأعيرة النارية لفض المظاهرات وقد سقط إثنان من القتلى، كما أصيب ، من غير الأعيرة النارية ، من رجال الشرطة اثنان وعشرون ضابطا وخمسة وستون جنديا، وأربعون من الطلبة والأهالى ، كما حدثت تلفيات فى سيارات الشرطة وغيرها من الممتلكات الحكومية والأهلية ..

رابعا: إن هتافات المتظاهرين وطلباتهم تجاوزت حدود قضية الطيران ، وتناولت النظام ذاته ، ففى كلية الهندسة بجامعة القاهرة تظاهر طلبة الكلية يوم ٢٥ فبراير ١٩٦٨ ومعهم طلبة من الكليات الأخرى ، ووزعوا منشورات تضمنت الطلبات الآتية :

- الإفراج عن جميع زملائهم المعتقلين .

- حرية الرأى والصحافة .

- مجلس حر يمارس الحياة النيابية الحققة السليمة .

- إبعاد المخابرات والمباحث عن الجامعات .

- إصدار قانون الحريات والعمل به .

- التحقيق الجدى فى حادث العمال فى حلوان .
 - توضيح حقيقة المسؤولين فى قضية الطيران .
 - التحقيق فى انتهاك حرمة الجامعات واعتداء الشرطة على الطلبة .
- وقد ظل الاعتصام داخل كلية الهندسة حتى مساء يوم ٢٧ / ٢ / ٢٩٦٨ إلى أن حضر بعض أعضاء مجلس الأمة واصطحبوا الطلبة المعتصمين إلى خارج الكلية ..
- كما ثبت من تحقيقات النيابة العامة أن الهتافات التى ترددت فى المظاهرات كانت :
- نتيجة لمواقف عبدالناصر لم تصب الأمة العربية باليأس فظهرت إرادة الفلسطينيين فى ثورة كاسحة ، وقبل ذلك كانت ثورة اليمن ردا على جريمة الانفصال فجاءت ثورتا ليبيا والسودان ردا على الهزيمة ..
- وكان هتاف المتظاهرين ، تسقط دولة المخابرات ، تسقط دولة العسكريين ، تسقط صحافة هيكل الكاذبة ، لا حياة مع الإرهاب ولا علم بدون حرية ، يا جمال الشعب هو هو هو اضرب الخونة بقوة ، يا سادات فىن قانون الحريات ، يا شعراوى يا جبان راحو فىن عمال حلوان ..
- وتثير هذه المظاهرات أكثر من سؤال سياسى ، أكانت تلقائية أم غير تلقائية ؟ من حركها ؟ ولحساب من ؟ أين مكان التنظيم السياسى فيما حدث ؟ إن الأخ على صبرى أمين الاتحاد الاشتراكى يمكنه أن يرد على هذه الأسئلة ؟
- هل تلقى المظاهرات أضواء على تيارات الجبهة الداخلية ؟ وحدة أم تمزق ؟ سخط شعبى ؟ وإلى أين يتجه ؟ أهى بداية لحركة شعبية ؟ ما لونها ؟
- لقد مضت على هزيمة يونيو ثمانية شهور فهل ينبغى أن نعاود مناقشتنا ، كمجلس وزراء ، فى أسباب الهزيمة والتزامات النظام فى تصحيح ما حدث ؟ أن نتحدث مرة أخرى عن أسلوب الحكم وعن نظام الحكم ؟
- لقد قلنا من قبل أن نظامنا اشتراكى ديمقراطى يقوم على سيادة الشعب وقيادة جماعية منتخبة وسيادة القانون ، وقلنا أن الانحرافات التى شابهته عندما ناقشنا أسباب النكسة ، هى انعدام القيادة الجماعية ، والافتئات على سيادة القانون، والهوة السحيقة بين الشعارات والسلوك ، وضعف النقاء فى بعض القادة ..

إن الشعب بعد ثمانية أشهر من الهزيمة لا يزال يطرح هذه الأسئلة ، هذه المرة بصوت أعلى ..

هل هناك حكومة ؟ مجلس أمة ؟ تنظيم سياسى ؟
واسمحوا لى أن أضيف إلى هذه الأسئلة سؤالاً من عندى ، هل هناك وحدة فكر بيننا ؟

إذا لم يكن شئ من ذلك فلا بد ، فى نظرى ، من حلول جذرية ولا تكفى الحلول المؤقتة أو التوفيقية ، لابد من تغيير جذرى ، لابد من حكومة جديدة تتمثل فيها القيادة الجماعية المسؤولة ، لابد من صيغة جادة للعمل الوطنى وانتخابات جديدة لإعادة بناء التنظيم الشعبى ..

ولقد غطى على كل هذه التساؤلات شئ أساسى واحد يقول لا صوت يعلو على صوت المعركة (وما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة)

ثم هناك سؤال تطرحه الجماهير ، هل نحن حقاً ، فى حالة حرب ؟ هل ننوى الحرب أم أننا نخدع الناس ؟ هلئ الوقت فى صالحنا ؟ ونحن نستخدمه على النحو الجارى .. انتهى .

وكان يمكن أن تنفذ جميع هذه التساؤلات إذ أن عبدالناصر كان مصمماً على التصحيح ، وما قاله يعتبر نقد ذاتاً ، ولكن مع الأسف لم يمهله القدر ..

ولقد بدأت حرب الاستنزاف سنة ١٩٦٨ م ، ويروى تلك المعاناة فى المواجهة غير المتكافئة مع العدو الذى اعتقد أنه كسر عزيمة الجندى المصرى الأستاذ محمود رياض على الوجه التالى :

(كان تحديد موعد المعركة لتحرير الأرض مطروحاً للمناقشة منذ بداية عام ١٩٦٧ بمجرد الانتهاء من إنشاء الخط الدفاعى غرب القناة ، وإذا كنت قد شاركت البعض فى الأمل بإمكان إنهاء العدوان الإسرائيلى عن طريق العمل السياسى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ إلا أننى بعد أن شاهدت بنفسى الدور الذى قامت به الولايات المتحدة الأمريكية فى مجلس الأمن عندما صدر القرار ٢٤٢ فى نوفمبر ١٩٦٧ تأكدت من استحالة الحل السلمى ولذا فإننى لم أتردد لحظة فى إبداء رأى القاطع خلال اجتماعات القيادات السياسية والعسكرية فى القاهرة بأنه

لا سبيل لتحرير الأرض سوى القوة المسلحة وكانت لدى عبدالناصر القناة بذلك منذ أن لمس خداع جونسون وتأمره مع إسرائيل فى الإعداد للعدوان علينا ..

وقد حدد عبدالناصر موعد المعركة فى ذلك الوقت عندما قال بأننا لن نبدأ المعركة قبل أن نستعد لها ولن نتأخر لحظة واحدة بعد أن نستكمل استعداداتنا ..

غير أنه عندما بدأت عملية بناء الجيش اتضح حرص الولايات المتحدة على إبقاء الفجوة العسكرية بين العرب وإسرائيل قائمة وخاصة فى سلاح الطيران ، فكلما تلقينا أسلحة من الاتحاد السوفيتى كانت تسارع بتسليح إسرائيل بأسلحة أكثر تطوراً ، ولذلك كان لزاماً على القيادة العسكرية أن تعيد تقييم الموقف باستمرار فى ضوء هذه الحقيقة ..

وكان توجيه عبدالناصر السياسى هو ضرورة البدء فى معركة التحرير دون انتظار لتحقيق التوازن المطلوب فى سلاح الطيران لأن ذلك قد يستغرق سنوات طويلة وقد لا نستطيع تحقيقه ..

وبدأ الفريق فوزى ومعاونوه يعدون الجيش لخوض المعركة على أساس هذا التوجيه السياسى ، فعمدت القيادة العسكرية على تدريب القوات المسلحة بطريقة مكثفة للغاية وصفها البعض بأنها كانت شديدة القسوة ولكنها الوسيلة الوحيدة لبناء جيش فى أقصر وقت بعد أن عانى من الهزيمة ..

ولمواجهة التفوق الجوى اتجهت القيادة العسكرية إلى تقوية الدفاع الجوى إلى أقصى حد ممكن ، فأقامت أقوى شبكة عرفها العالم فى ذلك الوقت للدفاع الجوى فى منطقة القناة ، مما يوفر لقواتنا المسلحة عند قيامها بعبور القناة حماية قوية ..

ولقد استطاعت القيادة العسكرية أن تحقق نجاحاً كبيراً فى تنفيذ مخططاتها لبناء الجيش فى نهاية عام ١٩٧٠ مما كان يتيح لقواتنا المسلحة البدء فى عملياتها لتحرير الأرض فى ربيع عام ١٩٧١

وعندما قرر عبدالناصر البدء فى حرب الاستنزاف لم يكن مدفه قاصراً على رفع معنويات الشعب والقوات المسلحة وإنما كان يرى أن حرب الاستنزاف هى أفضل وسيلة لإعداد الجيش لخوض معركة التحرير ..

وعندما قبل عبدالناصر قرار إيقاف إطلاق النار بناء على مبادرة روجرز في أغسطس ١٩٧١ ولمدة ثلاثة أشهر كان يهدف إعطاء آخر فرصة للولايات المتحدة الأمريكية للعمل من أجل تحقيق السلام قبل بداية المعركة في ربيع العام التالي ، وقد توفي عبدالناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وقبل انتهاء فترة وقف إطلاق النار ، وعندما سألتني الكثيرون فيما بعد عن قرار عبدالناصر المتوقع بعد نهاية الثلاثة شهور كنت أجيب عن يقين بأن عبدالناصر كان سيستأنف حرب الاستنزاف تمهيدا لمعركة التحرير ، وقد سبق وصرح بذلك في آخر لقاء له مع بريجنيف .

وكان عبدالناصر واثقا من أن الاتحاد السوفيتي سيواصل دعمه لنا بالأسلحة كما فعل طوال حرب الاستنزاف ..

وعندما جاء الرئيس السادات إلى الحكم بعد وفاة عبدالناصر كان في حاجة إلى التعرف على أبعاد الموقف السياسي والعسكري وقد تولدت لديه قناعة بضرورة إتاحة المزيد من الفرص أمام الولايات المتحدة لتحقيق الحل السلمي ..

فاستمرت محادثاته مع الولايات المتحدة طوال عام ١٩٧١ مع روجرز ، وطوال عام ١٩٧٢ مع كيسينجر الذي أسرف في عودته للرئيس السادات في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة تواصل إرسال الأسلحة لإسرائيل ، وقد وصل الدعم خلال عام ١٩٧٢ و ١٩٧٣ إلى ما يزيد عن ثلاثين في المائة من قواتها عام ١٩٧١ وكان معظم الدعم لسلاح الطيران الإسرائيلي وبذلك كان كيسينجر يعد إسرائيل للمعركة بدعمها عسكريا وتعطيل مصر عن اتخاذ القرار بالحرب .. انتهى .

ولقد أشار الأستاذ محمود رياض في أكثر من مكان إلى موقف الرئيس الأمريكي جونسون وكيف أنه كان منحازا إلى جانب إسرائيل ، والواقع أن ذلك غير مستغرب فهو موقف أمريكي يسير عليه في الغالب كل رئيس أمريكي قبل جونسون وبعده ، ونحن نرى أن العيب ليس في أي رئيس أمريكي أو غيره وإنما العيب فينا نحن العرب لعدة أسباب ، أولها : أن أغلب الحكام العرب موالون للولايات المتحدة الأمريكية اقتناعا منهم بأنها قادرة على إبقائهم على رؤوس شعوبهم في الحكم ، وثانيا : لأنها ربما هي التي جاءت بهم للحكم ، وثالثا : هم لا يهمهم التحرير أو الاستقلال أكثر من أن يبقوا في مناصبهم ، ولذلك فقد كان طبيعيا أن تتآمر الولايات المتحدة من خلال كل أجهزتها على رجل مثل عبدالناصر

ليس فقط بتسليح إسرائيل وإنما بالقتل ، وهذا كتاب الموساد الذى ألفه (ريتشارد ديكون) يقول :

وقد يكون هناك انتقادات فى الولايات المتحدة بين الحين والحين من جانب هؤلاء الذين يشعرون بأن النفوذ الإسرائيلى قد توغل بشكل كبير جدا ، لكن مثل هذا الاعتقاد تلاشى كثيرا فى السنوات التى سبقت حرب الأيام الستة مباشرة لأن الموساد قد قدمت قدرا هائلا من المعلومات للأمتريكيين ، وكانت معلومات تهم الولايات المتحدة ، بشكل مباشر ، وبصفة خاصة يوجين روستو وشقيقه والت الذى أصبح مستشار الرئيس جونسون لشئون الأمن القومى ..

والواقع أن والت هو الذى حث الرئيس جونسون على الاقتناع برأى كانت تشاركه فيه المخابرات المركزية وإسرائيل على السواء ، وهكذا فإنه فى نهاية ١٩٦٥م حدث تحول كامل فى السياسة الأمريكية تجاه منطقة الشرق الأوسط إلى حد أن كانت هناك ضغوط داخل المخابرات المركزية الأمريكية لكى يدبر انقلاب يطيح بناصر ، وحيث أنه كان واضحا أن موقف ناصر فى مصر كان من القوة بحيث لا يشجع على تدبير مثل ذلك الانقلاب فقد طرحت فكرة أخرى نفسها بشدة ، وهى أن هزيمة عسكرية لمصر يمكن أن تؤدى إلى سقوطه ..

ولقد حدث هذا كله فى الوقت الذى كان أحمد الشقيرى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وكانت قد أنشئت حديثا يقيم تحالفا مع ناصر ، على أساس أحلام أطلقوا لها العنان بأن تل أبيب سوف تدمر تماما وأن اليهود سوف يطردون من فلسطين ، وعقدت اجتماعات سرية للغاية بين ممثلى وكالة المخابرات المركزية فى منطقة الشرق الأوسط وأعضاء من الخدمة السرية الإسرائيلية بغرض تنسيق السياسة وعملية جمع المعلومات ، ومن بين الذين أداروا هذه الاجتماعات جيمس أنجلتون وأفريم أفرون ومائير أميت الرئيس الجديد للموساد والبريجادير باريف مدير المخابرات الحربية .. انتهى

ولقد أردت أن أنقل هذه الفقرة من كتاب الموساد لأعزز ما ذكره السيد محمود رياض عن خداع الرئيس الأمريكى جونسون الذى تحدث عنه جمال عبدالناصر ، وكما أوردت فإن مواقف الرؤساء الأمريكيين كانت دائما فى هذا الاتجاه إما علنا أو سرا ضد العرب ومع إسرائيل ..

ولأن جمال عبدالناصر لم يكن من الرجال الذين يضعون مصائر بلدانهم في إطار سياسة واحدة ولا حزب أو حلف وبالرغم من علاقاته المتينة مع الاتحاد السوفيتي والقادة السوفييت نراه يسعى لخلق علاقات مع القطب الدولي الآخر أملا في خلق توازن في علاقاته الدولية ، وهكذا فقد حاول أن يمد يده للرئيس الأمريكي الذي انتخب حديثا وهو من الحزب الجمهوري السيد (ريتشارد نيكسون) ويقول أنتوني ناتنج في واحدة من لقاءاته مع عبدالناصر :

(فإن انتخاب ريتشارد نيكسون رئيسا للجمهورية في أمريكا أدى إلى إحياء آمال عبدالناصر بصورة واضحة ، وعندما التقيت به في ذلك الوقت كان يشعر بارتياح لمعرفته بأنه لن يضطر بعد ذلك للتعامل مع جونسون إلى درجة أنه كان يعتبر أي أمريكي آخر أفضل ، كما كان يشعر أن نيكسون الذي عمل مع أيزنهاور نائبا للرئيس ، وبحكم أنه جمهوري لن يكون لدينا لأصوات الناخبين اليهود ، ومن ثم سيتخذ موقفا أقل تحيزا بين إسرائيل والعرب ، وهكذا عندما عاد ويليام سكاتون المبعوث الشخصي للرئيس المنتخب بعد ذلك بفترة قصيرة من رحلة لتقصي الحقائق في الشرق الأوسط معلنا أن السياسة الأمريكية في المنطقة يجب أن تكون أكثر إنصافا ، ارتفعت آمال عبدالناصر أكثر من أي وقت مضى ، ولما أكد ديان عقب حديث خاص مع نيكسون أن السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط لن تتغير في عهد الحكومة الجديدة كان عبدالناصر يميل إلى اعتبار هذا التأكيد ضربا من التبجح ..

لكن ثبت في أقل من سنة أن ديان كان على صواب تماما فقد كان أحد القرارات الأخيرة التي يتعين على جونسون اتخاذها هو السماح بتزويد إسرائيل بأحدث القاذفات المقاتلة الأمريكية من نوع فانتوم وقبل أن يتخذ هذا القرار بعث برسالة إلى عبدالناصر يذكر فيها أن أشكول قد طلب هذه الطائرات خلال زيارته إلى واشنطن في شهر يناير إلا أنه متردد في إرسال مثل هذه الأسلحة القوية والحديثة إلى منطقة متفجرة كالشرق الأوسط ، وأنه لو أظهرت مصر والروس الذين يمدونها بالأسلحة استعدادا لانتهاج سياسة معتدلة فإنه سيضع هذا في اعتباره عندما يتخذ قرارا فيما إذا كان يرخص أو لا يرخص بتزويد إسرائيل بشحنات الفانتوم ، وقد أثارت هذه الرسالة غضب عبدالناصر لأنها وجهت إليه رغم قبوله

للقرار ٢٤٢ ورغم ما يبذله من جهود للتعاون مع يارنج فى الوقت الذى تبدى فيه إسرائيل عنادا مستمرا ، وكان يشعر أنه كان ينبغى على جونسون أن يوجه كلامه إلى إسرائيل لا إلى مصر ، ورغم أنه رد عن طريق طرف أمريكى على صلة بهيكل بأن واشنطن تكشف عن حقد بمطالبته بإظهار ضبط النفس فى هذه الظروف ، فإنه لم يرتض لنفسه أن يبعث برد رسمى ..

لذلك وافق جونسون على شحن طائرات الفانتوم إلى إسرائيل فى أكتوبر عام ١٩٦٨ وذلك قبل انتخابات الرئاسة بأسابيع قليلة ، لكن عندما تقلد نيكسون مهام منصبه فى شهر يناير التالى لم تكن طائرات الفانتوم قد أرسلت إلى إسرائيل وأوقف التسليم انتظارا لصدور قرار من الحكومة الجديدة ، وظلت المسألة معلقة طوال الثمانية شهور التالية مع استخدام الإسرائيليين كل ما أمكنهم من ضغط لإرغام حكومة نيكسون لتسليم الطائرات ، وفى شهر سبتمبر ١٩٦٩ أفرج عن أول دفعة من طائرات الفانتوم ..

كان التوقيت من أسوأ ما يكون بالنسبة للعلاقات المصرية الأمريكية ، فبصرف النظر عن خيبة الأمل التى لا مفر منها والتى أحست بها القاهرة لعدم إلغاء نيكسون القرار الذى اتخذته سلفه ، فإن الإفراج عن طائرات الفانتوم حدث فى نفس الوقت الذى رفض فيه الروس رفضا قاطعا مرة أخرى تزويد مصر بأية طائرات مماثلة ، فضلا عن أن حكومة نيكسون كانت قد بدأت تبرهن فى غضون ذلك أنها لا تكاد تكون أقل إحجاما عن الحكومة السابقة فى الضغط على إسرائيل لتنفيذ قرار مجلس الأمن .. ويستمر ناتج قائلا :

وبحلول عام ١٩٦٩ كان المصريون قد بدأوا يفقدون الأمل فى سياسة الإنصاف التى كان سكرانتون قد حملهم على توقعها من وراء تغيير الحكم فى واشنطن إذ أن حكومة نيكسون لم ترتض ، كما اعترفت جولدا مائير صراحة ، أن تطلب حتى فى مقابل تلك الأسلحة الفتاكة مثل قاذفات القنابل من كراز فانتوم أن تدعن إسرائيل لقرار مجلس الأمن ، ولما ضاق عبدالناصر ذرعا شن هجوما على الموقف الأمريكى فى خطاب عام فى ٦ نوفمبر حيث قال إن كل جهود مصر لتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ قد باءت بالفشل بسبب عناد إسرائيل الذى يشجع

عليه تأييد واشنطن غير المشروط لها بالسلاح والمال ، وأعلن أن الأمريكيين يقاتلون خلف القوات الإسرائيلية ويزودونها بالطائرات التي يستخدمونها ضدنا ففي ظل هذه الظروف لم ير أى أمل فى التوصل إلى تسوية بالوسائل السلمية ، وأنه يبدو أنه لم يعد ثمة وسيلة للخروج من هذا الموقف سوى (استخدام القوة ، لشق طريقنا إلى ما نريد فوق بحر من الدماء وتحت سماء من النيران) وهكذا قطع عبدالناصر الأمل من قادة الولايات المتحدة ولم يكن أمامه من سبيل غير الضغط على السوفييت للحصول على المزيد من الأسلحة والمعدات بحيث ينفذ ما قاله (شق الطريق إلى ما يريد فوق بحر من الدماء وتحت سماء من النيران) ..

و كنت أمضى الأمسية التالية لأولى الغارتين الإسرائيليتين مع عبدالناصر ، وقد يتعذر على المرء أن يصادف من هو أكثر منه شعورا بالإحباط ، فلم يكن أمامه لعدم قدرته على التوصل إلى سلام مع إسرائيل أو خوض حرب ضدها ، سوى أن يأمل فى أن يستطيع المصريون يوما ما إرغام العدو على التخلي عن تشدده والعودة إلى ما وراء حدوده السابقة عن طريق الاستمرار فى قصف جيوش الاحتلال بالمدفعية عبر القناة ، وكان عبدالناصر فى هذه الأثناء ، قد أصدر أوامره بمد شبكة الدفاع الجوى المصرى لتغطى البلاد كلها ، ولكن البلاد ظلت مع ذلك ، كما أظهرت الغارة الثانية التى وقعت بعد ذلك بستة شهور على الصعيد مكشوفة مثلما كانت قبل ذلك ، أمام الغارات الإسرائيلية ، ولم يكن أقل من ذلك ضررا الهجوم الذى شنته قوة للعدو على إحدى الجزر المصرية الواقعة فى خليج السويس وأدى الى مقتل خمسة وعشرين من أفراد الحامية وتدمير المدافع المضادة للطائرات والأخطر من ذلك أنه فى شهر يناير عام ١٩٧٠ قامت قوة إسرائيلية أخرى بالاستيلاء على جزيرة شدوان الواقعة قرب الساحل المصرى على البحر الأحمر ، والتى تستخدم كمحطة لمتابعة طائرات العدو وبعد أن قتلت ما يزيد على ثمانين جنديا مصريا قامت إما بتحطيم أو بفك كل قطعة من أحدث محطة للرادار ..

وبعد كل هذه التطورات وكما قال الكاتب الإحباطات والمواقف الأمريكية ضد سياسات عبدالناصر وانحيازها بالكامل لإسرائيل بل وتركها لضرب كل حجر على الأرض المصرية كان عبدالناصر يواجه صعوبات بالغة فى محاولات إقناع السوفييت بخصوص تزويده بالسلاح للدفاع عن بلاده ، وهنا يقول ناتج :

(وقد تطلب الأمر من عبدالناصر ثمانية أيام من الجدل لإقناع بريجنيف وكوسيجين بتلبية مطالبه، وما أن رنتهى من ذلك حتى أرسل الإسرائيليون طائراتهم الجديدة من طراز فانتوم ، كما كان يخشى تماما ، لشن غارة على إحدى ضواحي القاهرة الصناعية راح ضحيتها سبعون قتيلا عندما دمرت إحدى القنابل مصنعا للحديد الخردة ، وبعد ذلك وقعت غارة إسرائيلية أخرى فى أبريل ١٩٧٠ ، بعد ذلك بشهرين كانت نتيجتها تدمير مدرسة فى الدلتا وقتل ثلاثين طفلا (هذه المدرسة كانت تعرف باسم مدرسة بحر البقر) وقد أبدت واشنطن أسفها لوقوع هذه الهجمات وطالبت ، رغم تأخر هذه الخطوة بعض الشيء ، بإجراء محادثات بين الدول الأربع الكبرى بشأن الحد من شحنات السلاح إلى كلا الجانبين بعد أن زودت إسرائيل بكل الأسلحة المتقدمة لكن التعليق الإسرائيلى الوحيد كان تصريحاً أدلى به دايان جاء فيه ، أنه إذا كان التلاميذ المصريون قد لقوا مصرعهم ، فإن ذلك يرجع إلى خطأ السلطات المصرية لتعريضها أرواحهم لخطر قصفهم بالقنابل، وبعد مرور ثلاثة أسابيع ، اتخذت الحكومة الإسرائيلية موقف الطرف المعتدى عليه بالشكوى علانية مما زعمت أنه دليل قاطع على أن الطيارين السوفييت ينطلقون بطائراتهم فى مهام حربية من قواعد جوية فى مصر يسيطر عليها السوفييت ، وبعد تلك الجهود وقد استطاع عبدالناصر إقناع القادة السوفييت بالموافقة على دعم بلاده عسكرياً أراد أن يؤكد ذلك فى الميثاق ، فقال :

(استطعنا أن نقوم بجهد سياسى واسع على جبهات عريضة ، جبهات عربية، وجبهات دولية، وتنوعت جهودنا وتعددت على هذه الجبهات ، بالاتصال المباشر مع الأصدقاء ، فى الدول الاشتراكية وفى مقدمتها الاتحاد السوفييتى ، الذى أكدت لنا ظروف النكسة ، صداقته المخلصة ، وتعاون الصديق ووقوفه الصلب ، فى جبهة الثورة العالمية المعادية للاستعمار ، وكذلك مع الدول غير المنحازة ، ومع الدول الآسيوية الأفريقية ، ومع الدول الإسلامية ، ومع كل الشعوب الراغبة فى سلام قائم على العدل ، ومع كل الساسة العالميين الذين يستطيع بعد نظرهم أن يتجاوز نكسة عارضة فى تاريخ أمة ، كان لها دورها العظيم فى مصير الإنسانية ، إن هذه التحولات كلها قادها ودعمها إحساس عميق بالواجب ، لدى كثيرين من رجالنا ، فى كل مجالات المسؤولية ، فى القوات المسلحة ، ومن خبراء الاقتصاد ، والعاملين فى وحدات الإنتاج ، ومن الملتزمين بأهداف النضال الشعبى ، والقادرين

على خدمتها ، ومن المشتغلين بالسياسة ، وبالفكر ، والدبلوماسية ، كل هؤلاء ساهموا في قيادة ودعم هذه التحولات ، التي تقارب المعجزة ، والتي نستطيع بعدها أن نقول اليوم ، الآن يصبح في إمكاننا أن نتطلع إلى المستقبل .. انتهى

ومع كل الجهد والمعاناة اللذين كان يبذلهما جمال عبدالناصر من أجل حماية الداخل المصرى الذى أصبح يتعرض للقصف الإسرائيلى وقتل المدنيين ثم الرد بعد أن يحصل على الأسلحة والمعدات التي كان يلح عليها من السوفييت ، استمرت حملات التشكيك والتهجم والشماتة فيه وعليه وعلى نظامه ككل خلال تلك الفترة العصيبة وبعدها عندما انتقل إلى جوار ربه ..

ولعل أبلغ رد على المشككين في عهد عبدالناصر بعد تلك الهزيمة النكراء والذين نسبوا كل شئ بعد وفاته لمن جاء بعده حتى أنهم وصموا عهده بالكفر لمجرد أن أغانى أم كلثوم كانت تسمع في بعض المعسكرات ، نعود إلى مذكرات الرجل الذى تولى قيادة القوات المسلحة بعد الهزيمة والذى كلفه عبدالناصر بالإعداد لمعركة التحرير ، وهو الفريق أول محمد فوزى وهى بعنوان (حرب الثلاث سنوات) يقول عن بداية إعداد خطة تحرير سيناء :

كان من المقرر فى خطة التدريب على واجبات العمليات الحربية لعام ١٩٧٠ إجراء مشروع استراتيجى على مستوى الدولة تشترك فيه كل القوات المسلحة المصرية بقياداتها وجنودها ، وأجهزة الدولة المدنية التى لها ارتباط وثيق بالجهد الحربى فى المعركة ..

وكان قد تم مشروع تنسيق التعاون بين أفرع القوات المسلحة والجيش الميدانية فى شهر سبتمبر ١٩٧٠ تمهيدا للقيام بهذا المشروع الاستراتيجى ..

وبوفاة القائد والرئيس جمال عبدالناصر تأجل هذا المشروع الى أن تم فى أوائل عام ١٩٧١ وتم وضعه وتجهيزه بمعرفة هيئة عمليات القوات المسلحة المشتركة مع مجموعة تخطيط وعمليات من المستشارين السوفييت ، وحددت توقيت المشروع الذى استغرق ١٢ يوما متواصلاً من ١٤ / ٣ / ١٩٧١ الى ٢٥ / ٣ / ١٩٧١ ..

اشترك جميع قادة وضباط وجنود القوات المسلحة فى هذا المشروع كما اشتركت فيه منظمات الدفاع الشعبى وأجهزة الدفاع المدنى ..

كان هدف المشروع هو اختبار قدرة وكفاءة القوات المسلحة على تحقيق أهداف الخطة (جرائيت) بالتفصيل وإتمام الخطة ٢٠٠ بصفة عامة ، وعلى ذلك وضع الهدف المباشر للقوات الهجومية المكونة أساسا من ٥ فرق مشاة - ٣ فرق ميكانيكية - ٢ فرقة مدرعة - ٣ لواء مدرع مستقل - ٣ كتائب استطلاع برى ولواء إنزال بحرى وقوات الإبرار الجوى تعاونها القوات الجوية والبحرية وقوات الدفاع الجوى ليكون احتلال المضائق الرئيسية وتأمينها حتى يوم ي + ٤ وهذا يحقق الخطة المرسومة .. ويستمر الفريق أول محمد فوزى فى سرد كل التجهيزات والقوات للمعركة المرتقبة الى أن يصل إلى ما أسماه ، نتائج ودروس معارك سنة ١٩٦٧ حتى ١٩٧٠ (فيقول ..

عرضت فى صدر هذه المذكرات أسباب ودوافع وظروف يونيو ١٩٦٧ وأسلوب إدارة المعركة والقتال الذى لم يأخذ مكانه أو زمنه بسبب فقد القوات الجوية لمعظم طائراتها فى بداية المعركة ، ثم قرار المشير عبدالحكيم عامر بالانسحاب إلى غرب القناة فى ليلة واحدة بعد ٣٦ ساعة من بدء القتال الذى أسرع بالنهاية الأليمة لمعركة يونيو ١٩٦٧ ..

وظهر من سرد وقائع وظروف هذه المعركة أن الجندى المصرى لم يأخذ فرصته فى قتال العدو ، إذ لم تهين له الظروف إثبات شجاعته وتحمله مشاق القتال كما أثبتتها فى جميع المعارك السابقة واللاحقة لهذه المعركة ، وكان السبب الواضح لنتيجة هذه المعركة الخاسرة هو عدم إعداد وتأهيل القوات المسلحة لها ..

وبالرغم من نجاح العدو الإسرائيلى فى الاستيلاء على سيناء إلا أنه لم يستطع التغلب على الإرادة المصرية أو حتى تطويعها للوصول إلى أهدافه السياسية، فلم تنبه معركة يونيو ١٩٦٧ باستسلام مصر أو توقيع وثيقة سياسية أو عسكرية تظهر انتصار إسرائيل أو هزيمة مصر ، وبعد صدور قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ / ٦٧ أكدت أهداف إسرائيل التوسعية عندما فسرت بنود هذا القرار وأصرت على مفاوضات مباشرة ومنفردة مع مصر أولا للوصول إلى تسوية سلمية

لتنفيذ قرار مجلس الأمن ، وهى فى الحقيقة تهدف من أسلوب المفاوضة إملاء شروط المنتصر وتوقيع اتفاق سلام مع مصر وبذلك تخرجها من الجبهة العربية كلها ..

رفضت مصر اتباع هذا الأسلوب مثلما رفض الشعب الهزيمة ، ولم يكن هناك من حلول إلا الصمود بالقوات المسلحة والشعب أمام أطماع إسرائيل التوسعية ، وكانت مصر قد حددت الخط الاستراتيجى السياسى والعسكرى عقب معركة ١٩٦٧ مباشرة مؤيدة بالتضامن العربى الذى هدف تأييد الرئيس جمال عبدالناصر كما انضم إلى هذا الاتجاه الاتحاد السوفيتى الذى سارع بالدعم العسكرى لمصر من أجل تحقيق الصمود أمام أطماع إسرائيل التوسعية والسعى لتغيير ميزان القوى العسكرية لصالح العرب ..

وكانت حرب السنوات الثلاث مخططة منذ بدايتها لتكون بناء وإعادة تنظيم وإعداد القوات المسلحة والشعب لخوض معركة تحرير الأرض العربية ، وكان فى التقدير تدخل العدو لعرقله هذا البناء ، فعندما قام العدو بأعمال استفزازية معادية مع تهديد مستمر قامت قواتنا المسلحة بمواجهته وقتاله فى نفس الوقت الذى تمسكت فيه بهدفها الأساسى وهو الاستعداد لمعركة تحرير الأرض ، الأمر الذى جعل من هذه الفترة تجربة مضيئة وقاسية أثبتت أنها نموذج رائع لانتصار الإرادة العربية المصرية ..

وكان التصادم العسكرى مع العدو واستمرار الاحتكاك به فى العمليات والمعارك التى أشرت إليها فى مذكراتى فرصة عملية نادرة لرفع الكفاءة القتالية للجندى المقاتل والوحدة الصفرى فى جميع تشكيلات القوات المسلحة ، والتى تمكنت فى نفس الوقت من معرفة أسلوب القتال للعدو وتكتيكاته ، وبذا حرمته من أى ابتكار أو مفاجأة أو خداع قد يقوم به فى المعركة الكبرى المنتظرة، كما كان دوام الاتصال مع العدو طوال الثلاث سنوات أسلوباً مميزاً حقق لقواتنا معرفة قدرات العدو الحقيقية ، كما هدم جدار الخوف من الجندى الإسرائيلى ، وكانت عمليات المواجهة بالقتال عملاً أساسياً فى إحداث خسائر كبيرة فى أفراد لم تحدث فى كل الحروب السابقة مما أثر على خفض معنوياته بل وجعلت القوات الإسرائيلية المتمركزة شرق القناة تتشكك فى قدراتها وتخطيطها للدفاع عن أرض لا تملكها ..

لهذا سعت إسرائيل إلى قبول المشروع الأمريكى لوقف إطلاق النيران المؤقت فى أغسطس ١٩٧٠ أملا فى تخليصها وقواتها المسلحة وشعبها من استنزاف قواها وإنقاذ اقتصادها من الانهيار ..

وتنازلت إسرائيل عن أهدافها السياسية التى أصرت عليها عقب معركة ١٩٦٧ فى قبولها المفاوضة المباشرة مع دول المواجهة تحت إشراف دولى ، بالإضافة إلى قبولها مبدأ الانسحاب المسبق على التسوية السلمية الشاملة ..

أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد فشلت فى إعادة العلاقات السياسية مع مصر ومع الدول العربية التى ارتبطت مع مصر فى هذا المجال بسبب تأييدها لسياسة إسرائيل فى المنطقة العربية، كما شعرت فى نفس الوقت بعزلتها وتهديد مصالحها فى المنطقة وأن هذا الأسلوب كان سببا فى زيادة التواجد السوفيتى فى المنطقة مما ساعد على الإخلال بتوازن القوى فيها ..

ولقد أوضحت فيما سبق من فصول أن توافر مقدمات المعركة يعتبر أمرا ملزما قبل صدور قرار الحرب وأهم هذه المقومات هى :

إعداد الدولة ، إعداد الشعب ، إعداد اقتصاد الدولة للحرب ، إعداد القوات المسلحة ، إعداد مسرح العمليات ، توفر تشريعات شئون الدفاع عن الدولة وتنظيم القيادة والسيطرة على القوات المسلحة، إعداد الفرد المقاتل معنويا ونفسيا للمعركة ..

وكان توافر هذه المقومات وحرص القيادة السياسية والعسكرية على اتباعها بإرادة وتصميم وتنظيم وتخطيط جيد هو الذى جعل لنجاح عمليات ومعارك حرب الثلاث سنوات ممكنا ..

نادرا ما تجد دولة لها كيائها الحضارى فى عصرنا الحديث تصدر قرار الحرب مفاجأة ، بل إن أسلوب صنع القرارات المصيرية ومنها قرار الحرب يجب أن يمر خلال قنوات شرعية حتى يصل إلى القمة السياسية والعسكرية التى تصدره ويعتبر مجلس الدفاع الوطنى أحد هذه القنوات الشرعية، وقرار الحرب يحقق هدفا سياسيا قبل أن يحقق آمالا عسكرية ، كما يوضع فى الاعتبار عند إصدار قرار الحرب احتمال استمرار القتال لمدة طويلة فى مثل هذه الظروف تجعل التخطيط الاستراتيجى السياسى والعسكرى والإعداد البشرى والاقتصادى أساسا هاما داخل عناصر القرار ..

ويجب أن يكون التخطيط الاستراتيجي الوطني متمشيا مع الهدف القومي ، فإذا عدت الى مذكراتي تجد أن مصر قد وضعت الخطة قاهر الدفاعية عام ١٩٦٦ مطابقة للهدف القومي الذي اتفق عليه على مستوى القمة العربية عام ١٩٦٥ إلا أن القيادة العسكرية لم تلتزم بتطبيق الخطة (قاهر) الدفاعية وأبتعدت عن الهدف القومي والوطني معا ، وهنا يبرز لى الدرس الواضح فى ضرورة تفاهم وتجاوب القيادة العسكرية مع القيادة السياسية صانعة قرار الحرب ..

وينتهى الفريق أول محمد فوزى بعد استعراض طويل للسياسة والاستراتيجية والحرب إلى القول: لم يبق لى من دروس أسجلها فى ختام هذا الفصل سوى أهمية الاحتفاظ بالهدف الاستراتيجي للشعب مهما طالت الحرب مع الوضع فى الاعتبار أن معركة واحدة لا تنهى القتال بين الدولتين المتصارعتين طالما بقيت إرادة الشعب وقدرة قواته المسلحة حية ، فعندما أعلن الرئيس جمال عبدالناصر الهدف الاستراتيجي لمصر منذ أول تلقين عسكري لى فى ١١/٦/١٩٦٧ وحدد زمن تحقيق هذا الهدف بثلاث سنوات تقريبا ، استمر يجاهد جهادا شاقا سياسيا وعسكريا واقتصاديا ومعنويا بتأييد مطلق من الشعب مستعينا بقيادات عسكرية قادرة أعطاها كل الصلاحيات لبناء وإعادة تنظيم القوات المسلحة وقاتل العدو الإسرائيلي فى نفس الوقت ، وهى تجربة مثيرة نادرا ما تحدث، وكان توفر الأسلحة والمعدات الحديثة المتطورة وحماس الجندي المصري ووعيه وحرصه على استيعابها والحفاظ عليها تطبيقا لسياسة وحكمة الرئيس عبدالناصر فى ظل تمسكه بالهدف الاستراتيجي ، وبالرغم من الضغوط السياسية والعسكرية لإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية ، وعندما تصاعدت العمليات العسكرية من جانب قواتنا فى أواخر عام ١٩٦٩ تحولت حرب الثلاث سنوات إلى حرب شاملة مع العدو الصهيوني ، كما تحول ميزان القوى بعد ذلك فى المنطقة لصالح مصر إلى أن جاءت فرصة قطف ثمار هذا الجهد ، والتصميم على تحقيق الهدف الاستراتيجي للشعب ، وأصدر الرئيس جمال عبدالناصر توجيهاته فى الأسبوع الأخير من شهر أغسطس ١٩٧٠ كى تستعد القوات المسلحة لبدء معركة تحرير الأرض بالقوة بعد مضي ال ٩٠ يوما المحددة فى قرار وقف إطلاق النار المؤقت أى فى ٧/١١/١٩٧٠ وفى هذا التاريخ يكون قد مضي على قرار تحديد المهمة لشخصي ثلاث سنوات ونصف ..

لقد أصبحت هذه الحقائق درسا هاما بين حتمية التمسك بالهدف الاستراتيجى للدولة وعدم الحياد عنه مهما كانت الصعاب ، أما ماهية حرب الثلاث سنوات والتى أطلق عليها حرب الاستنزاف فسوف أذكر للقارئ وصفها على لسان العدو الإسرائيلى نفسه :

(إذ قال أبا إيبان فى شهر سبتمبر ١٩٧٠ أن قصف المدفعية المصرية مع الغارات الجوية عبر قناة السويس كان يسبب خسائر قاسية فى القتلى بمثل ما كان يسبب لنا من خسائر فى أى حرب ، ثم يضيف ، إن وقف إطلاق النار تم استقباله فى إسرائيل بشعور الرضا حيث يتساوى مع لو كنا قد توصلنا إلى تسوية سلمية ، ثم قال : إن نشرات الأخبار الحزينة تخبرنا بأسماء الشبان القتلى فى المعركة ، وأن خسائرنا فى القوات والمعدات الثمينة يقصد طائرات الفانتوم والسكاى هوك (قد جعلت حرب الاستنزاف غالية التكاليف لنا) انتهى ..

ولقد تناول تلك الفترة من الحرب التى كما قالوا عنها (حرب استنزاف) أغلب القادة العسكريين فى الجيش الإسرائيلى مثل عزرا وايزمان فى كتابه المعنون - صراع من أجل السلام - صفحات ١٤٨ إلى ١٨٠ و موسى دايان فى كتابه المعنون قصة حياتى - صفحات ٤٤٧ إلى ٤٥٧ - إسحاق رابين فى كتابه المعنون هذه مذكراتى - الصفحات ٧٧ إلى ١٢٠ - ثم السيدة رئيسة وزراء إسرائيل فى ذلك الوقت جولدا مائير فى كتابها قصة حياتى - الصفحات ٣٥٣ إلى ٣٧٧ - ولا نرى فائدة من نقل تفاصيل ما كتب هؤلاء عن تلك الحرب ونتائجها ، وما يمكن التأكيد عليه كما قال الفريق أول محمد فوزى هو إرادة الأمة والقيادة فى صون الكرامة والقدرة على استرداد الحق وهو ما فعله وتمتع به عبد الناصر وجيشه ..

يستمر الفريق فوزى فى القول نسبة إلى ما قاله أحد القادة الإسرائيليين، إن فشل الجيش الإسرائيلى من الناحية العسكرية فى حرب الاستنزاف يمثل أول معركة يهزم فيها فى ساحة القتال منذ قيام إسرائيل لدرجة أننا فى إسرائيل قبضنا على أول قشة ألقيت إلينا ، أى وقف إطلاق النار المؤقت ..

يقول الفريق أول محمد فوزى وهو يزيح من على صدره عبئا كبيرا وقد حقق ما (طلب منه بجدارة) وهنا أنهى مذكراتى عن هذه الفترة القاسية من تاريخنا العسكرى بحمد الله ...

وقال الرئيس جمال عبدالناصر والذي كان يتوقع نصرا لا يشغله عنه أى شئ آخر وقد استعد له لولا انفجار الوضع وسالت الدماء بين الفلسطينيين والجيش الأردنى فى عمان الذى جعله يجمع الحكام العرب لحقن الدم العربى بحيث يحتفل بعدذاك بانتصار جيشه الذى أثنى عليه بهذه الكلمات ..

إن الجيش المصرى جنوده وضباطه وقياداته قام بجهد خارق لإعادة بناء نفسه بعد ظرف من أسوأ الظروف التى واجهها نضالنا ، وتمكن هذا الجيش الذى ظنّه العدو أن أمره قد انتهى إلى عشرات السنين من أن يعود إلى القتال مرة أخرى فى سرعة سوف يعدها التاريخ المنصف لهذه الفترة ضربا من المعجزات . إن الجهد المتفانى الذى بذله مئات الألوف من رجال وشباب مصر ممن كان لهم فى هذه الفترة العصبية شرف الخدمة العسكرية حقق مستوى قتالياً لم يكن يخطر على بال صديق أو بال العدو قبل ثلاث سنوات ..

ولكن كانت إرادة الله التى لا راد لها .. وبذلك كان قدر هذا الرجل العظيم ما أراد الله له غير ما كان يريد هو ..



(١١)



عبد الناصر مع قادة جيشه استعدادا لحرب التحرير ورد الكرامة لأمتة العربية وشعبه المصري..
لكن المنية وافته ولم يقدر له أن يشهد اليوم الذي كان يعد له وينتظره، وهكذا سجل
التاريخ له أنه على رغم الهزيمة قد نهض وقاوم واستعد وإن جاء النصر بعده ..

الفصل التاسع

- لماذا الميثاق وبيان ٣٠ مارس ؟
- موقف عبدالناصر من السودان .
- رأى عبدالناصر فى الدين والدولة .
- البحث عن قوة الردع .

الفصل التاسع

لماذا الميثاق وبيان ٣٠ مارس؟

موقف عبدالناصر من السودان .

رأى عبدالناصر فى الدين والدولة .

البحث عن قوة الردع .

بعد الجريمة التى ارتكبت فى حق الأمة العربية بواسطة حفنة من ضباط الجيش السورى الذين تأمروا على الوحدة العربية الأولى فى تاريخنا الحديث وفصلوا الإقليم الشمالى (سوريا) كان لابد من البحث فى أسباب الخلل الذى أدى إلى هذا العمل الإجرامى رغبة فى الحيلولة دون تكراره إذا ما قدر للعرب أن يعيدوا لحمة الوحدة بين قطرين أو أكثر ، ولهذا انبثقت لجنة تحضيرية من خلال مؤتمر وطنى فى مصر أنيط بها إعداد وثيقة تشخص الأسباب فيما حدث بحيث تحدد ملامح العمل المستقبلى وقد جمعت كل قطاعات الشعب (فلاحون وعمال وأعضاء نقابات ومنظمات مهنية ورأسمالية وطنية وموظفون وأساتذة جامعات ومعاهد عليا ومراكز أبحاث وطلبة الجامعات والثانويات وجمعيات نسائية .. إلخ)

عقد مؤتمر قومى فى ٢١ مايو ١٩٦٢م قدم إليه الرئيس جمال عبدالناصر مشروع الميثاق الوطنى الذى كان قد أعد بحيث يناقش أعضاؤه بنوده فى جلسات معلنة على الشعب وكان الميثاق يتكون من عشرة أبواب أربعة منها تتحدث عن مراحل تاريخ نضال الشعب المصرى فى مختلف المراحل السابقة وتفاعله مع الأحداث ، ذلك التفاعل الذى أثبت فيه وحدته الوطنية بحيث أثر وتأثر ويؤثر فيما حوله حتى وصل إلى تحقيق ثورته الوطنية ، وجاءت الأبواب الخامس والسادس والسابع والثامن تتحدث عن المنهج الاشتراكى وأسلوب الإنتاج وتحقيق الديمقراطية السلمية ومشاكل المجتمع وكيفية معالجتها بنوايا صادقة تستهدف المصلحة العامة والتضحية من أجل ذلك ، وناقش البند التاسع ضرورة الوحدة

العربية وأهميتها لبناء مستقبل زاهر لكل أبناء الأمة العربية وكيف يمكن المحافظة عليها من خلال تذويب الفوارق بين المواطنين وتحقيق التوازن الاجتماعي والاقتصادي ، وجاء الباب العاشر يحدد ملامح السياسة الخارجية للجمهورية العربية المتحدة (الاسم الذى أصّر الرئيس جمال عبدالناصر على أن يبقى رغم حدوث الانفصال) وتقوم السياسة الخارجية على أسس وقواعد واضحة أرادتها الثورة المصرية منذ بدايتها وهى محاربة السيطرة والاستعمار فى كل مكان وبكل أشكاله وفى أى مكان ، العمل من أجل السلام من خلال حركة عدم الانحياز والحياد الإيجابى ، والتعاون الدولى من أجل رفاهية الجنس البشرى ذلك أن الرفاهية تعد ضمانا للسلام العالمى) ..

وأثناء البحث والمناقشة بين أعضاء المؤتمر القومى ظهرت أصوات تنادى بانتخاب جمال عبدالناصر رئيسا للجمهورية مدى الحياة ، وكادت تلك الأفكار أن تطرح للمناقشة وربما الموافقة بالإجماع لولا أن عبدالناصر رفض الفكرة جملة وتفصيلا قائلا إنه لا يمكن لشخص متحضر وشعب واع أن يتجه هذه الوجهة ، وسقطت الفكرة التى لم يكن (ربما) القصد من ورائها خالصا لوجه الله ، وأضاف عبدالناصر قائلا إنه يريد مناقشة مشاكل المجتمع بحيث لا يعوقها موقف ولا أفكار عقائدية محددة أو واردة سلفا ، كذلك قال إن الميثاق لا بد أن يطور أو يغير بعد مدة لا يجب أن تزيد على عشر سنوات ، وقال كذلك ، إننا لم نصل إلى نظرية كاملة تحدد إطار العمل الثورى فقد جاءت المبادئ الستة عند قيام الثورة لتمثل منهج عمل فقط ، وبالتالي فإن الميثاق لم يحدد الديمقراطية دون الارتباط بالوضع الاجتماعى فى حياة المصريين ، وهو مجتمع ما تزال فيه الأمية بصورة كبيرة وتسود فيه قطاعات لها سيطرة اقتصادية واجتماعية وسياسية وبالتالي فهى تتحكم فى أصوات الناخبين ، ولا بد من كشف تلك الهيمنة وتحديد طرق وكيفية تحقيق الديمقراطية الحقيقية بتحرير لقمة العيش على ضوء الطرق التالية :

لا بد أن نعرف أن المواطن لا تتوفر له حرية التصويت والانتخاب إلا إذا توفرت له ثلاثة عناصر فى حياته (أن يتحرر من الاستغلال بجميع أنواعه وأن تكون له فرصة متكافئة فى نصيب عادل من الثروة الوطنية - أن يتحرر من أى سلطة دنيوية بحيث يكون ضامنا لمستقبله المعيشى)

وهذا الطريق لا يتم إلا على ضوء إعادة تشكيل حياة المجتمع المصرى وتطلعات الناس إلى مستقبل أفضل قائم على العدل الاجتماعى ، وبحيث لا يكون أى حل قائما على أشكال مستوردة من الخارج ..

ويجب أن نعرف ما يحدث ويجرى فى المجتمعات الأخرى ولكن لابد أن يكون كل شئ نابتاً من أرضنا وداخل بلادنا ومجتمعنا حتى وإن كان متخلفاً ..

وإذا كان الميثاق قد ووفق عليه بالإجماع وتحدد أن يعدل أو يغير بعد عشر سنوات بحيث يتناول التعديل أو التغيير ما يستجد من أحداث وتطورات (كأنما عبدالناصر كان يتوقع ما جاء فيما بعد فقد حدث نفس الشئ بالنسبة للدستور المؤقت الذى جاء بعد الميثاق) صدر قرار رئيس الجمهورية بشأن الدستور المؤقت فى ٢٣ مارس ١٩٦٤ م ونص على العمل به الى أن يصدر الدستور الدائم ، ولقد جاء هذا الدستور المؤقت بنص يقول :

(يحدد شكل الدولة وجوهر نظامها تحديدا يلتزم فى دقة حدود الميثاق الوطنى وفلسفته ، تأكيداً لنصوص الميثاق الذى أقره مؤتمر القوى الشعبية والذى تم استخلاصه من قلب معارك النضال ومن صميم ممارسة التغيير الواسع والعميق لأوضاع المجتمع المصرى ليكون دليلاً فكرياً يقود خطى المستقبل) .

وحرص الدستور على إبراز معانى الاتجاهات الوطنية والقومية كما يلى :

تأكيد الديمقراطية السليمة وحماية النظام الاشتراكى وحقوق قوى الشعب العاملة ، وقد نصت المادة الأولى منه على أن (الجمهورية العربية المتحدة دولة ديمقراطية اشتراكية تقوم على تحالف قوى الشعب العاملة ..) .

(إبراز الكيان العربى لمصر حيث نص فى الفقرة الثانية من المادة الأولى على أن الشعب المصرى جزء من الأمة العربية) .

(منح السلطة الكاملة للشعب حيث قرر فى مادته الثانية على أن السيادة للشعب وتكون ممارستها على الوجه المبين فى الدستور ..) .

وكانت الأسباب التى دعت إلى إصدار الميثاق كثيرة مما جعل قيادة الثورة تعمل على إيجاد دليل عمل يسترشد به ويكون بمثابة نظرية تحدد معالم الطريق سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، وقد تمثلت تلك الظروف والتطورات فيما يلى :

مبادئ الثورة لسنة ١٩٥٢ - عندما بدأت الثورة في تحقيق أحد أهدافها وهو السادس الذى ينص على (إقامة الحياة الديمقراطية السليمة) كان عليها أن تطور العمل الثورى بنظرية تكون دافعا للعمل الوطنى المتجدد وحافزا لمواصلة العمل الثورى ..

حدوث العدوان سنة ١٩٥٦ - لقد كان من نتائج العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ أن بادر أفراد الشعب العامل من تلقاء أنفسهم للدفاع عن الوطن وبذلك تحدد بوضوح من هم أصحاب المصلحة الحقيقية فى الثورة ..

الثورة الاشتراكية عام ١٩٦١ - بصدر القوانين والقرارات الاشتراكية فى يوليو عام ١٩٦١ تحدد بوضوح عمق الاتجاه الاشتراكى للمجتمع المصرى ، فضلا عن البدء فى تنفيذ خطة مضاعفة الدخل فى نفس العام ، الأمر الذى اقتضى أن يكون هناك إطار يحدد خطوات العمل الشعبى ..

نكسة الانفصال عام ١٩٦١ - كشفت نكسة الانفصال بين مصر وسوريا أن قوى الرجعية استطاعت أن تتسلل إلى الصفوف الأولى من التنظيمات السياسية والشعبية ، مما أدى إلى ضرورة إعادة تنظيم هذه المؤسسات على أسس تكفل منع تسلل العناصر الانتهازية والرجعية إليها مرة أخرى ..

تلك كانت الظروف والتطورات المحلية والعربية ، ولقد جاءت أيضا كثير من التطورات والأحداث العالمية ، ومن هنا كانت ضرورة النص على تعديل الميثاق للأسباب التالية :

لما كان الميثاق دليلا للعمل الوطنى ، فإن العمل الوطنى يتطلب مرونة تنشأ أساسا من احتمالات الخطأ والصواب فى تجربة العمل الداخلى والخارجى ، لذلك فقد كان من المقرر أن يعاد النظر فى الميثاق بحلول عام ١٩٧٠ أمام المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ، غير أن ظروف النكسة قد أجلت ذلك ، ولكن من خلال التجربة ، ومن خلال المناقشات الشعبية الواسعة التى دارت فى مجلس الأمة الخاصة بالدستور الدائم ، اتضح لنا أن هناك اتجاهات عامة عند تعديل الميثاق يمكن لنا أن نوجزها فيما يلى :

الظروف المحلية - تضمن الميثاق الكثير من التفسيرات التى اقتضتها مرحلة التحول الاشتراكى التى لازمت ظهور الميثاق فما ساقه الميثاق عام ١٩٦٢ من

تبريرات لقيام القطاع العام وسيطرة الشعب على وسائل الإنتاج ، وتحقيق المجتمع الاشتراكى مثلا لم يعد ما يبرر ذكره بعد عام ١٩٧٠ ..

الظروف الدولية - إن السياسة الدولية فى تغير مستمر والثورات الشعبية تجتاحها حركات من المد والجزر ، فكل يوم تظهر تيارات جديدة ، مما يقتضى معه إعادة النظر دائما فى موقفنا إزاء كثير من المشكلات الدولية ..

الاهتمام بالمستقبل - إن الظروف التاريخية التى أحاطت بالمجتمع المصرى عند صدور الميثاق عام ١٩٦٢ كانت تحتم أن تمتد نظرة الميثاق عبر الماضى تستخلص منه التبرير والتدليل على وقائع الحاضر وتحولاته ، أما بعد عام ١٩٧٠ فيتحتم على الميثاق أن يتخذ من الحاضر قاعدة انطلاق إلى آفاق المستقبل لمجتمع الحرية والرفاهية ..

وتحدث الميثاق عن كيفية تحديد القوى الشعبية الخمسة (العمال _ الفلاحين - الجنود - المثقفين - الرأسمالية الوطنية) واتجه الرأى فى كل المناقشات والحوارات التى جرت إلا أن هناك حقيقة مؤداها أنه انعكاسا للأوضاع وللظروف المادية الجديدة يتحتم أن يكون تحالف الشعب يضم خمس قوى اجتماعية دون غيرها وهى التى ذكرت فيما تقدم إذ أن هؤلاء هم أصحاب المصلحة الحقيقية فى المضى بعملية تطور المجتمع وتغييره اشتراكيا وديموقراطيا ، وهؤلاء هم الذين لا يمارسون عملا يقوم على استغلال جهد الآخرين والذين يتفهمون سير الحركة التقدمية فى المجتمع ، ويندفعون ضمن تيارها لإقامة مجتمع الحرية والاشتراكية ، غير أن ما كان مقررًا لتغيير الميثاق لم يتحقق لظروف النكسة العسكرية ، حيث تقرر أن يؤجل كل شئ إلى أن تزال الأسباب التى أدت إلى حدوث الهزيمة العسكرية ، وتحليل أسبابها وإزالة عناصرها ..

الظروف التى أدت الى إصدار بيان ٣٠ مارس :

هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ - عندما وقع عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ فوجئت الأمة العربية كلها وفى مقدمتها الشعب العربى فى مصر بفاجعة الهزيمة السريعة ، هذه الهزيمة التى أظهرت بكل جلاء الخلل فى البناء السياسى والعسكرى والاجتماعى المصرى ، الشئ الذى أظهر عدم القدرة على مواجهة العدو والدفاع عن الأرض ، فكانت تلك الهزيمة النكراء والفاجعة التى أثرت فى كل شئ وهزت صورة العرب أمام العالم ..

لقد كان أبرز ما كشفت عنه الهزيمة هو ذلك الخلل الخطير بين مبادئ المجتمع وأدوات تطبيق تلك المبادئ وهى :

أن أجهزة السلطة التى تولت مسؤوليات العمل الوطنى ، كان بناؤها فى الغالب من عناصر _ بحكم واقعها الاجتماعى ، إما غير مؤمنة أصلاً بالخط الديموقراطى الاشتراكى أو غير قادرة على استيعابه ، وهو ما عبر عنه الرئيس عبدالناصر بقوله (كنا نطبق اشتراكية بغير اشتراكيين) فى الوقت الذى كانت تبالغ فى رفع شعاراته فى محاولة خبيثة أو ساذجة للتلاؤم مع الاتجاه العام لجماهير الشعب ، وكان من نتيجة ذلك أن شاع جو عام من النفاق السياسى كان من بعض نتائجه الطبيعية إخفاء الكثير من الحقائق وطمس الكثير من الأخطاء .

عدم وجود تنظيم سياسى مناضل حقيقى ، ذلك لأن التنظيم السياسى كان يحمل فى جوفه عوامل ضعفه واضمحلاله ، حيث كان زمام الأمر فى يد أجهزة السلطة التقليدية ، وأصبح كل شئ يتم بعيداً عن متناول السلطة الشعبية فى التوجيه والنقد والرقابة والمحاسبة ، ومن ثم انفتح المجال أمام مراكز القوى لتتكون وتسيطر ، مفضلة مصالحها الذاتية على المصالح العامة ..

وفى ظل مراكز القوى غاب عنصر المحاسبة فى بعض المسؤوليات العليا واختفى تماماً فى بعضها الآخر .. ولم يعد لمبدأ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب قيمة تذكر ..

لهذه الأسباب وغيرها ، بل وأهمها وضع القوات المسلحة التى تحكم فيها البيروقراطية والتواكل وانعدام فيها الانضباط وقل التدريب ومتابعة الأحداث ، إضافة إلى الخلل الذى صار سمة واضحة فى عدم الولاء للقيادة السياسية كما لو أن العسكرية شئ منفصل عن الدولة بكل أجهزتها ، ومن خلال ما كتب أو قيل حتى قبل هزيمة ٥ يونيو يتضح لكل مراقب أن الأسباب الأساسية كان مرجعها المجاملة أو الصداقة أو الخوف من أصحاب المقدرة والرأى وبالتالي إبعادهم عن مواقع القيادة والمسؤولية (تحديداً كحالة عبدالحكيم عامر مع عبدالناصر) والحقيقة أن من يقوم بانقلاب خلال الليل لا يمكنه إلا أن يتصور دائماً أن هناك من يمكن أن يقوم عليه بنفس الطريقة ويسقط حكمه ، ولهذا تلجأ نظم الانقلاب غالباً إلى فكرة

الولاء الشخصى وليس المقدرة والكفاءة فى إدارة الشؤون العسكرية بشكل خاص، ومع الوقت تتكون شخصيات عسكرية فى المظهر فقط ونظرا لوجودها داخل مؤسسة يتوفر لها المال والجاء تحيط بها مجموعات انتفاعية فى دوائر متقاربة تمتد كأذرع الأخطبوط فتفسد من تصل إليه ، وهنا تختفى المسؤولية أو المحاسبة وتتقاسم فيه هذه المجموعات على مختلف مواقعها المصالح الخاصة ولا تسمح لأحد أن يوجه إليها نقدا أو لوما ، وذلك ما حصل وأدى إلى فقدان كل شئ ...

ولأن الأمور سارت على هذا المنهج أو الطريق فقد تكونت عناصر فى كل موقع تعبر عن مصالح مراكز القوى وتحديدًا فى مجالات التعبير الإعلامى (إذاعة وصحافة) مهمتها التجميل وتزيين الأعمال الخاطئة وتأليه أصحاب المصالح والمراكز وبالتالي غاب تماما الرأى الشجاع الذى يمكن أن يشير إلى الفساد والخلل ، وحتى لو كان هناك رأى ناقد فإنه خافت جدا وإذا ما تحسس منه أحد من تلك العناصر كان صاحبه يختفى (وراء الشمس) بالتعبير الشعبى المصرى ، ولهذا كانت الهزيمة التى ظهرت فى وقت واحد وفجأة كل العيوب المدمرة ، وعلى إثر هذه الهزيمة كان لابد من رجل أو رجال يتحملون المسؤولية ويتحولون أو يزاحون من مواقع السلطة بل ويحاسبون كما يحدث عادة عند وقوع الكوارث أو الهزائم وفى (التاريخ أمثلة كثيرة) وقرر جمال عبدالناصر أن يعلن أنه المسئول وأنه من يتحمل المسؤولية الكاملة حتى إنه رفض أن يقال فى إعلان استقالته أنه يتحمل نصيبه من المسؤولية ، وتلك شجاعة وموقف سجله له تاريخ بلاده ، وكان أن جاء الرد السريع الذى أظهره الإنسان المصرى ، المواطن الذى أحس بالجرح عميقا فى قلبه ، تحركت الجماهير لتقول لا ، ليس عبدالناصر هو المسئول الوحيد ، إنما المسئولون فى كل موقع ، فى كل إدارة أو جهاز ، وهكذا كانت (أحداث أيام ٩ و ١٠ يونيو) لقد كانت ثورة شعبية عارمة ترفض الاستسلام ، ترفض الهزيمة ، ترفض أن يتنحى جمال عبدالناصر ، لقد كانت آثار الهزيمة مدمرة لكن الشعب المصرى الصبور القادر على تحمل الأزمات والنكبات وينهض دائما فى مواجهة الخطر ، قال ، لا ، لا للهزيمة ، ونعم للمحاسبة ، وكان لابد للقائد الذى وقف شجاعا ليتحمل المسؤولية أن يستجيب وأن يقف مرة أخرى للمواجهة فى الداخل والخارج ، للبناء من جديد ومن الصفر وعدم القبول بالهزيمة مهما كان عمقها وأثرها وبدأت عملية التغيير الكامل

والمحاسبة ، وعلى الرغم من أن الدرس كان قاسيا ، فقد قطفت رؤوس وانحدرت معالى وصدقت نوايا فى بداية المسيرة الجديدة ..

موقف عبدالناصر ومستقبل السودان ..

منذ سنة ١٨٢٠ م عندما تأسست وحدة وادى النيل بين مصر والسودان ، مروراً بكل الأحداث والتطورات السياسية والاجتماعية وقد أدخلت أقاليم (النوبة وسنار وكردفان تحت السيادة المصرية (١٨٢٠ - ١٨٢٣) إلى وقت صدور فرمان العثماني فى ١٣ فبراير ١٨٤١ م ذلك فرمان الذى أعطى محمد على الكبير مدى الحياة حكومة النوبة وكردفان وسنار ودارفور وجميع ملحقاتها، إلى الحكم الثنائى البريطانى المصرى فى ١٩ يناير ١٨٩٩ م ، إلى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م لم يجرؤ مسؤول أو حاكم أو قائد أو وزير أن يفكر مجرد التفكير فى أن السودان ليس جزءاً من مصر ، اى من ساليـزبورى وكرومر ومحمد على إلى فاروق ، وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو وكانت الصحوة بعد الحرب العالمية الثانية قد شملت أغلب شعوب ما كان يعرف بالمستعمرات فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، كانت حركة الأحزاب فى السودان نشطة حيث كان هناك أحزاب موالية لمصر وتسمى اتحادية ، وأخرى معارضة للاتحاد وتسعى إلى الاستقلال وإقامة الدولة الوطنية ، مثل حزب الجبهة الوطنية ، وحزب الأشقاء الذى صار حزبين سنة ١٩٥١ م حيث تولى عثمان الأزهري زعامة جناح ومحمد النور الجناح الآخر ، وحزب الاتحاديين ، وحزب الأحرار الاتحاديين ، وحزب وادى النيل ، وهذه الأحزاب كانت موالية لمصر وتدعو إلى الوحدة أو الاتحاد وتعتمد على تأييدها ومساندتها سياسياً ومادياً ، أما الأحزاب التى كانت تدعو إلى قيام الدولة الوطنية السودانية وتسمى أحزاب الاستقلال فهى حزب الأمة أى (الأنصار) ، والحزب الجمهورى الاشتراكى ، والحزب الوطنى ، وهى وإن كانت تنادى بالاستقلال عن مصر وبريطانيا فقد كانت فى حقيقة الأمر تعتمد على مساعدة وتأييد بريطانيا ، وكانت هذه الأحزاب تنشط فى مجتمع أساسه وضع قبل شديداً التعقيد وبالتالي فقد كان تأثيرها قوياً على إحداث تماسك سكان البلاد ، ومن المعروف أن بعض الانسجام بين القبائل والأجناس الكثيرة المختلفة والتى كانت متقاتلة قد أحدثه العمل الكبير الذى مارسته محمد على أثناء حكمه ..

وكعادة الإنجليز يعدون ولا يصدقون ولا يعملون إلا بالخداع ، والحالة الوحيدة التي صدق فيها سياسى بريطانى واحد كانت عندما أعلن السير (وينستون تشرشل) قائلاً لكى تمرر حقيقة واحدة تحتاج لكتيبة من الأكاذيب وهذا يدين السياسة الإنجليز فى كل مكان ، وهكذا كان فى حالة السودان فقد كانوا قد أجبروا الجيش المصرى شريكهم فى الحكم الثنائى على الخروج من السودان ، وعندما أعادوا فتح هذا البلد استعملوا قوات أغلبها مصرية ولم يقدموا شيئاً مقابل خدمة القوات المصرية غير رفع العلم المصرى بجانب العلم البريطانى ، وعقدوا ما أطلق عليه (اتفاقية الحكم الثنائى) وبعد نصف قرن ونيف أقدم رئيس وزراء مصر السيد مصطفى النحاس على خطوة جريئة عندما ألغى تلك الاتفاقية ، فى ٨ أكتوبر ١٩٥١م وأعاد الاسم السابق للقطرين وإن كان ذلك فى الواقع وضع نظرى أو ربما معنوى (الملك فاروق ملك مصر والسودان) ..

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو وكان عبدالناصر يدرك جيداً ألاعب الإنجليز الذين كانوا قد استمالوا الحزبين السودانين الكبيرين (الحزب الوطنى الاتحادى وحزب الأمة) بحيث يقفان ضد أى مكاسب مصرية ، وكان هذا الموقف البريطانى قد جاء فى مواجهة تلك الجهود التى كان يبذلها الصاغ صلاح سالم عضو مجلس الثورة المصرية الذى كان مكلفاً بالسودان وهو يعتمد على مواقف الحزب الوطنى برئاسة إسماعيل الأزهري ويقدم له كثيراً من الأموال والمساندة والتأييد باعتباره ينادى بوحدة وادى النيل (أى وحدة مصر والسودان) ولكن الحاوى الإنجليزى كان يلعب لعبة خفية من أجل خلق الحواجز بين البلدين وكان أن دعى الأزهري لزيارة لندن رسمياً وهناك قوبل باهتمام وترحاب كبيرين ، كما قام بزيارة ممثلة السيد عبدالرحمن المهدي وهو زعيم الحزب الآخر، وهناك جرت تطورات وسمعت وشوشات كما يحدث عادة لزعماء العالم الثالث إذا ما قوبلوا بكثير من بهارج التكريم فى العالم الأوربي ، وعلى ضوء ذلك بادرت مصر من أجل قطع الطريق على الحاوى الإنجليزى بإعلان موافقتها على الحكم الذاتى السودانى لمدة ثلاث سنوات يجرى بعدها استفتاء بحيث يقرر السودانيون خلاله ما يريدون لبلادهم، وما لبث الأمر حتى تطور إلى اتفاقية بين مصر وبريطانيا على توقيع اتفاقية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٣م بشأن الحكم الذاتى السودانى ، وكان واضحاً أن جهود الصاغ صلاح سالم قد راحت أدراج الرياح بعد زيارة الزعيمين الحزبيين السودانين للندن ..

وعلى الرغم من أن السيد إسماعيل الأزهرى كان ميالا إلى مصر لأسباب كثيرة ربما فى مقدمتها الدعم المادى والمعنوى والسياسى الذى تمتع به لمدة طويلة لكنه فى واقع الأمر تيقن أنه قد يفقد الأرضية التى يقف عليها مع حزبه إن هو وقف ضد التيار فقد كان هناك موقف بريطانى ، وهناك موقف حزب الأمة وأنصاره ، وهناك رأى عام سودانى ، وهناك قبيلة موقوتة فى الجنوب السودانى تتحكم فى تفجيرها الأجهزة البريطانية النخ ..

وبقدر ما كان جمال عبدالناصر مدركا لوضع السودان وحقوق الشعوب فى تقرير مصائرها وخبث السياسة الإنجليز الذين كانوا يتصيدون أى موقف معارض من مصر ليشعلوا النار بين الشعبين خصوصا أنهم أصحاب مقولة (فرق تسد) كما كانوا يروجون لفكرة (الاستعمار المصرى كائنا وجودهم هم ليس استعمارا) بقدر ما كان ذلك موقف عبدالناصر ، كان موقف السيد إسماعيل الأزهرى ، فقد كان عارفا بوضع الشعب فى بلاده وتطلعات السودانيين لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، ولهذا وافق على طلب مصرى بجمع كل الأحزاب فى لقاءات بالقاهرة كخطوة أولى فى اتجاه التفاهم ، وتقرر أن تجتمع كل مجموعة على انفراد (المطالبون بالاتحاد والمعارضون له) وحدث الاجتماع الأول مع الأحزاب التى تعتمد فكرة الاتحاد ، ثم الاجتماع الثانى مع الأحزاب التى تنادى بالاستقلال ، وكان بطبيعة الحال الغرض استطلاع كل الآراء والتفاهم على نوع مستقبل السودان ، وكان ظاهرا أن عبدالناصر مقتنع بأن السودانيين يتطلعون إلى الاستقلال بعزيمة لا ترد ، وهكذا أقنع رفاقه أعضاء مجلس الثورة بذلك قائلا إن هذا الموقف سيسحب الغطاء من على نوايا البريطانيين ويكسب مصر تقدير الزعماء السودانيين وتبقى العلاقات التاريخية القائمة بين شعبى وادى النيل ..

وعلى أساس هذا الموقف أعلن حق السودانيين فى تقرير مصير بلادهم دون عرقلة أو تدخل من جانب الدولتين صاحبتا الحكم الثنائى (بريطانيا ومصر) وهكذا وقعت اتفاقية بين مصر وبريطانيا فى ١٢ فبراير ١٩٥٣ م عرفت باسم (الاتفاقية البريطانية المصرية) بشأن تقرير خطوات مصير السودان بعد اتفاق كل الأحزاب السودانية ..

بعد ذلك جرت انتخابات برلمانية خلال شهر نوفمبر ١٩٥٣ م حصل فيها الحزب الوطنى الاتحادى على أغلبية برلمانية وبالتالي صار من حق إسماعيل

الأزهري تشكيل الحكومة ، وكلفه البرلمان بذلك فى ٦ يناير ١٩٥٤ م وبدرت حكومة الأزهري بالطلب من مصر أولا ثم بريطانيا سحب قواتهما من السودان بحيث تتمكن الحكومة من إحلال السودانين محل المصريين والبريطانيين فى إدارات الحكومة الجديدة وسميت تلك الخطوة (بالسودنة) وهكذا تم ..

وكانت رغبة الشعب السودانى فى الاستقلال خلال مناسبة أول جلسة للبرلمان فى شهر مارس ١٩٥٤ م التى حضرها اللواء محمد نجيب وبعض رفاقه من مصر الثورة ، وكان الدور الأساسى فى هذا الاتجاه قد قام به حزب الأمة الذى حشد قواه الشعبية (الأنصار) المطالبين بالاستقلال الكامل ولا بد أن ذلك قد تم (ربما) سرا مع الوطنى الاتحادى بزعامة إسماعيل الأزهري (وربما) أيضا كان ذلك بموافقة ضمنية من جمال عبدالناصر رغم ما تعرض له من تهجم ونقد فى بلاده إذ كانت بعض الأصوات تنادى بالحفاظ على وحدة وادى النيل (الوهمية) حتى أنهم اتهموا عبدالناصر بالتفريط فى السودان ..

أعلن استقلال السودان فى أول يناير ١٩٥٦ م ..

ولعله من المفيد لكى نفهم الدور الإيجابى المصرى فى مسألة استقلال السودان أن نعرج على مواقف السياسة البريطانيين وكيف كانوا يحاولون وضع العصا فى الدولاب ، كما يقال ، يقول مؤلف كتاب مصر والسودان ، الانفصال :

قال السير جون هاردنج ، هناك خطر اندلاع أعمال إرهاب أخرى فى منطقة القناة (يسمون الأعمال الفدائية التى كان يقوم بها الفدائيون المصريون فى منطقة قناة السويس قبل مباحثات الجلاء ، أعمالاً إرهابية) إذا لم تستمر المفاوضات مع مصر بشأن السودان ، وسيكون الموقف خطيرا بشكل خاص إذا اقترنت هذه الأعمال بكم من الإضرابات فى العراق وفى السودان ، ومن الواضح تماما أن مواردنا فى الوقت الراهن ليست كافية أبدا ، لمواجهة حرب شاملة فى الشرق الأوسط ، والطريقة الوحيدة للتغلب على هذا النقص هو تعبئة بعض تشكيلات القوات البرية ، وآمل ألا يسيئ وزير الخارجية التقدير بشأن نقص مواردنا، لمواجهة اضطرابات خطيرة فى الشرق الأوسط ، ومن الأهمية بمكان ، أن تتم كل الخطط العسكرية الخاصة بالشرق الأوسط بأسرع ما يمكن ، وإن وافقت اللجنة على أنه :

أ - نظرا لإمكانية اندلاع مزيد من أعمال الإرهاب في منطقة القناة والسودان ، إذا فشلت المفاوضات الحالية مع مصر ، ويمكن أن يقترن ذلك باضطرابات في العراق ولا توجد قوات نظامية متاحة كافية لمواجهة ظروف متزامنة من هذا القبيل ، فالمطلوب تعبئة بعض تشكيلات القوات البرية .

ب - جميع الخطط العسكرية الخاصة بالشرق الأوسط ، ينبغي إتمامها ، والحصول على أية موافقة وزارية مطلوبة في أسرع وقت ممكن ، بحيث يمكن اتخاذ إجراء فوري عند الضرورة ..

في اجتماع مجلس الوزراء البريطاني قال (إيدن) زاد اتفاق أحزاب السودان الصعوبات التي نواجهها للتوصل الى تفاهم مرض مع الحكومة المصرية ، وأصبح من الواضح إنه لم يعد هناك وقت نضيّعه ، وقد أرسلت إلى السفير البريطاني في القاهرة وإلى الحاكم العام في الخرطوم أسألهم رأيهما في عدم اتخاذ أي قرار الآن بشأن المسؤوليات الخاصة للحاكم العام تجاه الأقاليم الجنوبية ، وأن يترك ذلك حتى يتخذ البرلمان السوداني قرارا بشأنه فيما بعد ..

قال بتلر وزير الخزانة ، الحكومة قد تتعرض لانتقادات قوية من البرلمان إذا ظهر أنها تتخلى عن مسؤولياتها الخاصة عن الأقاليم الجنوبية ، وقد يكون من الحكمة أن يتم شرح احتمالات تحقيق ضمانات مناسبة بالقرار الذي يتخذه البرلمان السوداني ..

قال وزير الخارجية ، إننى سأبحث ما إذا كان ممكنا وضع صيغة مرضية ، ولكن ليس من الممكن اتخاذ قرار قبل أن أتلقي تقريراً عن المناقشة التي سيجريها سفيرنا في القاهرة مع اللواء محمد نجيب ، والقرارات السريعة قد تكون مطلوبة حيثئذ ، ومن المفيد أن أضمن مساعدة لجنة صغيرة من مجلس الوزراء ، تستطيع الاجتماع بسرعة في حالة الطوارئ ..

عين المجلس لجنة برئاسة أنتوني إيدن ، وعضوية كل من اللورد كروكتشانك حامل أختام الملكة واللورد سوينتون وزير الكومونولث ، والسير إيفر ليتلتون وزير المستعمرات ، لمناقشة شئون السودان العاجلة وكان واضحاً من النقاش أن الحكومة البريطانية تخلت ، أو تنازلت مضطرة ، عن ضمانات الجنوب ،

والسلطات الخاصة التى تمنح الحاكم العام بالنسبة للمديرىات الثلاث ، مادام مجلس الوزراء البريطانى رأى أن يترك الأمر يقرره البرلمان السودانى ..

فى لندن أجرى هينرى بايرود وكيل الخارجية الأمريكية أكثر من أسبوع فى مباحثات مع أنتونى إيدن وزير الخارجية وجيمس بوكير الوكيل المساعد للوزارة ، قال بايرود ، المباحثات الأمريكية البريطانية التى تجرى بيننا غير مثمرة ، إذا لم يكن هناك تقدم فى مباحثات القاهرة بشأن السودان ، وإذا فشلت مفاوضات السودان أو تأخرت طويلا فإن الحكومة الأمريكية تحتفظ لنفسها بحرية الحركة عن بريطانيا بشأن مصر ..

وكانت لهجة بايرود وطريقته تعبر عن مضمون واحد وهو أنها إنذار !!

أخذ السير ماكينس السفير البريطانى فى واشنطن يحذر لندن من قطع المفاوضات إذا كنا سنقطع المفاوضات مع مصر ونتخذ إجراء فى السودان ، وإذا كنا سنرسل قواتنا إلى هناك فينبغى أولا أن نقوم بكل ما يمكن لإعداد الرأى العام هنا فى الحكومة وبين أفراد الشعب ، ويبدو أن المصريين قد حققوا النجاح فى دعايتهم التى ينطلق أغلبها من القاهرة والخرطوم ، والتى تقول إنهم يدافعون عن استقلال السودان ، بينما نتلكأ نحن لأسباب أنانية ، وقد حان الوقت لإصدار بيان رسمى من الحكومة البريطانية يعرض الموضوع مباشرة بعبارات بسيطة ، ليبيّن أن حق تقرير المصير للسودانيين كان سياسة بريطانية ، وأن المصريين لم يفعلوا أكثر من تأييدها ، وأخشى أن تجد الحكومة وشعب الولايات المتحدة من الصعب فهم لماذا يتحتم علينا الدخول فى نزاع عام مع المصريين حول جنوب السودان والسودنة ، فليس لديهم تفهم للمسؤولية الامبريالية ، وسوف يشعرون بأنه ما إن يتم الاتفاق على مبدأ تقرير المصير بيننا وبين المصريين ، حتى يكون من الأفضل الإسراع بذلك ، وفى الوقت الذى لا تحظى فيه مصر سوى بالقليل من التعاطف فسوف يشعرون بأن تحفظاتنا بشأن الفترة الانتقالية ليس لها سوى أهمية ضئيلة ، وبالنسبة لترتيبات الدفاع مع مصر ، وأنا إذا عادينا محمد نجيب الذى ينظر اليه على أنه أحسن قائد يمكن أن يكون لمصر لزم من طويل ، فإننا نكون قد ألحقنا ضررا بالغاً بالمصالح الغربية ..

فى الخرطوم اجتمع السير روبرت هاو بزعماء حزبى الأمة ، والجمهورى الاشتراكى ، لإقناعهم بوجهة النظر البريطانية دون الوصول إلى نتيجة فإن الحزبين وقعا مع صلاح سالم اتفاقية الأحزاب ، أما الحزب الوطنى الاتحادى فلم يحضر اجتماع الحاكم العام ..

اعترف السير جيمس روبرتسون السكرتير الإدارى لحكومة السودان فى مذكراته التى كتبها (بعنوان أفريقيا فى مرحلة انتقال) قال : ناضلنا بقوة حتى نمنع تضمين الاتفاقية المصرية البريطانية النصوص الخاصة بالسودنة الشاملة العاجلة للجيش والشرطة والوظائف التى يمكن أن يكون لها نفوذ سياسى ، وحاولنا بقوة ، الإبقاء على الضمانات للجنود التى أقرتها الجمعية التشريعية من قبل ..

وهكذا ازدادت الضغوط على وزير الخارجية البريطانى ..

اجتمع مجلس الوزراء البريطانى يوم ٣ فبراير ، أبلغه إيدن أن من المرغوب فيه إجراء الانتخابات السودانية قبل موسم الأمطار ، وافق الوزراء على ذلك ، وقالوا إن المفاوضات مع مصر يجب أن تصل إلى نتيجة حاسمة فى القريب العاجل ، مع ضمانات الاستجابة المصرية لبريطانيا فى النقطتين الأساسيتين البارزتين وهما :

- ضمانات المديرىات الجنوبية .

- الترتيبات الخاصة باستبدال الموظفين البريطانيين العاملين فى السودان ..

وكان أيدن قد أعد مسودة برقية إلى السفير البريطانى وزعها على الوزراء وتتضمن بالنسبة للمديرىات الجنوبية تقبل مصر أن يترك الأمر ليقره البرلمان السودانى .

أوبقاء مادة فى الدستور تنص على أن تكون للحاكم العام سلطاته يمارسها فى كل مديرىات الجنوب بالتفاهم مع نصيحة لجنته ..

وبالنسبة للموظفين البريطانيين قبول وجهة النظر المصرية فى تغيير هؤلاء الموظفين بشرط أن يوافق المصريون على أن الإجراءات التفصيلية لتقرير المصير بعد ثلاث سنوات ، تكون تحت إشراف لجنة دولية تنصح فى الوقت المناسب بتغيير الموظفين البريطانيين ..

وكان واضحا من هذا القرار أن بريطانيا تتراجع تماما عن موافقتها القديمة ، وأن كل ما يهمها إجراء الانتخابات التي تأمل أن تجيء باغلبية لحزب الأمة والحزب الجمهورى الاشتراكى المؤيدين لبريطانيا !

قال إيدن للقائم بالأعمال الأمريكى جوليوس هولمز ، لقد أقنعت مجلس الوزراء بالمضى شوطا طويلا فى الاستجابة للمقترحات المصرية بقبول مقترحاتنا الأخيرة ، وإنه بمجرد الوصول إلى تسوية لمسألة السودان فإن الحكومة الأمريكية تبحث فورا مد مصر بالسلاح ..

أبلغت الحكومة الأمريكية يوم ٥ فبراير كافرى أن بريطانيا تراجعت تماما وأنها وافقت على ترك مسألة السودان للبرلمان السودانى المنتخب ، أما سلطات الحاكم العام بالنسبة لكل السودان فتخضع للجنة الحاكم العام ..

الاجتماع الثامن للمفاوضات يوم ٦ فبراير ، كان حاسما واستمر ٥ ساعات كاملة ، قال السفير البريطانى أنه لا بد من إجراء الانتخابات قبل مايو ، بحلول شهر رمضان وسقوط الأمطار ، ولا بد من التعجيل بالاتفاق ولم تبق سوى مسألتين ، الجنوب ، والسودنة ، وقال إن المشروع المصرى المقدم فى ٢٨ يناير ، أغفل مسألة سلطة الحاكم العام فى الجهاز الوظيفى ، وحق البرلمان السودانى فى بحث هذا الاتفاق ، واقترح السفير خضوع تدابير تقرير المصير لإشراف دولى محايد، عن طريق لجنة دولية تبحث أيضا مقترحات لجنة السودنة ، وما يديه البرلمان السودانى من آراء، كما تنظر الاقتراح المصرى بتعيين موظفين محايدين لإدارة السودان وشرطته وجيشه ..

ووضح أن الإقتراح البريطانى يترك للبرلمان السودانى إعادة النظر فى كل نصوص الاتفاق المصرى البريطانى ، ولكن مصر أصرت على ضرورة جلاء القوات البريطانية قبل تقرير المصير ..

واتفقت مصر وبريطانيا على أن يكون البرلمان السودانى حرا فى بحث المواد الرئيسية لاتفاق الحكم الذاتى ، على أن تضع الدولتان محل الاعتبار آراء البرلمان السودانى بشأنها ، واتفقا أيضا على اعتبار الحاكم العام قائما بعمله ، ويمارس مهامه إذا غاب لوقت قصير ..

وتوافق مصر فى هذا الاجتماع الثامن يوم ٦ من فبراير ، على نص جديد يقول تخضع للإشراف الدولى الترتيبات التفصيلية لعملية تقرير المصير ، بما فى ذلك الضمانات التى توفر حياد الانتخابات ، وأية ترتيبات أخرى لضمان مناخ حر ومحايد ، وسوف تقبل الحكومتان المتعاقدتان توصيات أية هيئة دولية قد تقدم لهذا الغرض ، وقال سير رالف ستيفنسون للندن مبررا ضرورة قبولها لهذا النص ، أنه إذا فشلت لجنة السودان عمليا فى إتمام مهمتها ينتقل الأمر إلى هيئة الإشراف الدولى .

الاجتماع التاسع للمفاوضات يوم ١١ من فبراير هو الاجتماع الأخير ، حاول السفير البريطانى الحصول على موافقة مصر على إقامة محطة لخدمة الطائرات البريطانية رفضت مصر حتى لا يقال أن القوات البريطانية لا تزال فى السودان ، كما رفضت مصر الموافقة على أن يناقش البرلمان السودانى ، عند قيامه ، الاتفاق ! وينصح السفير حكومته بالاستجابة .. انتهى

لقد حفظ الشعب السودانى لمصر بكل امتنان هذه المواقف وعبر عنها فى كل المناسبات ومنها سنة ١٩٦٧ عند انعقاد مؤتمر قمة الخرطوم وزيارة جمال عبدالناصر بحماس جماهير الشعب السودانى فى استقبال جمال عبدالناصر عندما جاء لحضور مؤتمر القمة العربى بعد الهزيمة الشئ الذى جدد ثقة جمال عبدالناصر فى أمته العربية ، فكانت لاءات الخرطوم .



السيد على المرغنى زعيم الختمية مع الرئيس جمال عبدالناصر ومعهما المشير
عبدالحكيم عامر، يذكر أن طائفة الختمية كانت دائما مع مصر وإلى جانب مصر
فى السودان .

٣- رأى عبدالناصر فى الدين والدولة .

المعتاد فى الحياة اليومية لكل مسلم أنه يلتزم بأركان الإسلام ، أى أنه يقيم الصلاة ويصوم رمضان ويحج إلى بيت الله متى استطاع ويؤدى الزكاة ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ومن المؤكد أنه لا يختلف أحد من المسلمين فى هذا الأساس الإسلامى أينما كان على وجه الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، فالدين واحد والكتاب واحد ..

ولم يكن جمال عبدالناصر خلافا لما يمارسه أى مسلم عادى ، كبير أو صغير، وإن اختلف عن كثيرين فى زهده ورضاه بالقليل القليل من متاع الدنيا رغم توفر كل أنواع المتاع ورهن إشارة من بنانه ، ثم بعد قواعد الإسلام الخمسة هذه تأتى أوامر ونواهى سلوكية أخرى يتوقع أن تكون من صفات المسلم الحقيقى مثل الصدق والأمانة وعفة اللسان وطهارة السريرة والإحسان والمودة .. إلخ

ومن يراجع كلام عبدالناصر وخطبه إضافة إلى التزامه اليومى وسلوكه الدائم الظاهر بالطبع لأن المخفى فى كل إنسان يعلم به الله وحده يعرف يقينا أن عبدالناصر يفهم الإسلام فهما حضاريا فهو يقول :

(لقد كان أماننا أحد طريقين ، إما أن نسير مع القوة ونناق ونخادع لنحقق لأشخاصنا كل المغنم ، وإما أن نسير مع الله وفى سبيل الله والوطن ، لقد اخترنا طريق الشعب واتجهنا إلى الله، واستعنا به واتحدنا وتعاوننا وكانت المحبة رائدنا ، فكان هذا سبيل النصر) ، ثم يقول ..

(أيها المسلمون والله إن السماء لتبكى على ما صارت عليه أمور المسلمين من ضعف وهوان ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وتخلوا عن رسالته فحل عليهم غضبه واستبدت بهم قوى الشر ، وتحكمت فيهم يد الاستعمار وأصبح بأسهم بينهم شديدا ..) ويضيف :

(أيها المسلمون عودوا إلى الله مخلصين له الدين واتقوا الله وكونوا مع الصادقين ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، أيها المسلمون هل أدلكم على سنة الله ورسوله ؟

لتكن المعرفة رأس مالكم ، والعقل أصل دينكم ، والحب أساسكم ،
والشوق مركبكم ، وذكر الله أنيسكم ، والثقة كنزكم ، والحزن رفيقكم ، والعلم
سلاحكم ، والصبر رداءكم والرضا غنيمتكم ، والفقر فخركم ، واليقين قوتكم ،
والطاعة حسبكم ، والجهد خلقكم

أيها المسلمون ، السلام عليكم يوم رفعتم راية الحق والجهد في سبيل الله ،
السلام عليكم يوم كنتم خير أمة أخرجت للناس ، والسلام عليكم يوم تحطمون
قيود الاستعمار وتكون حصون الظلم والطغيان ، فلا تهتفوا للحرية قبل أن
تعملوا من أجلها .

وفي موضع آخر يقول جمال عبدالناصر :

(يجب أن نعرف أن العالم العربي والعالم الإسلامي يقفان أمام عدو واحد ،
ويتهاونان أمام مرض واحد .

أما العدو الواحد فهو الاستعمار ..

وأما المرض فهو الفرقة والتخلي عن الجهاد في سبيل الله ..

يجب أن يؤمن العرب والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، أن عهد
اللغو والكلام قد انقضى ، وأن عهدا جديدا يجب أن يبدأ ..

عهدا قوامه الإيمان بالله ، وعماده العمل في سبيل الله ، أيها الأحرار في كل
دولة عربية ، في كل شعب عربي ، في كل مكان هبوا وجاهدوا في سبيل الله حق
جهاده ، واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة ، إن عجلة الثورة ستستمر في
تقدمها محطمة كل خائر وكل خائن وكل ضال أو مضلل ، إننا لا نعمل لأنفسنا
ولكن نعمل لخير الوطن ولأبنائنا من بعدنا وللأجيال القادمة ، أوصيكم بالصبر ،
فإذا ما صبرنا واتحدنا وصممنا فلن تقف أمامنا عقبة وسنقضي على آثار الماضي من
الظلم السياسي والظلم الاجتماعي والاستعمار ..

لقد قامت الثورة تهدف إلى تصفية القلوب ، والتوفيق بين الغنى والفقير ،
والتعاون بين القوى والضعيف ، الثورة لم تقم لأغراض شخصية أو منافع ذاتية ، فكلنا
ذاهبون ولا يخلد في هذه الأرض ولا يبقى في هذا الوطن إلا الأعمال الصالحة)..

هكذا قال جمال عبدالناصر وغيره فى كثير من المناسبات الوطنية والقومية والدينية.. وهكذا قلنا إن فهمه للدين فهم حضارى ، نقول إنه كان خادما للدين والدنيا لم يقل غير الصديق ولم يعمل إلا بالصدق والإيمان ، ويورد الأستاذ سامى شرف، فى شهادته ما كان يقول عبدالناصر عن العرب، مسلمين ومسيحيين كما يلى :

(نحن المصريين ونحن العرب ، نحن المسلمين والمسيحيين فى هذه المنطقة من العالم نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ونؤمن بأن لكل عامل جزاء عمله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ونؤمن بأن لكل فرد فى كل جماعة كيانا فى ذاته وكيانا فى أهله وكيانا فى قوميته وفى بلده ، ونؤمن بحرية العمل وحرية الكسب وحرية النفقة فيما لا يعود على المجتمع بمضرة ، ونؤمن فوق كل ذلك بأخوة الإنسانية والتكافل الاجتماعى والإيثار القائم على الاختيار لتوثيق الروابط الإنسانية،

ونؤمن بأن لكل فرد فى الدولة حقا وعليه واجبا يكافئ هذا الحق ، وأن على الدولة لكل فرد فيها واجبا ولها عليه حقا يكافئ هذا الواجب ، فهى تبعات متبادلة بين الحكام والمحكومين ليس فيها قهر ولا إذلال ولا تسلط ولا طبقة قليلة العدد من السادة وطبقة ضخمة من العبيد ، هذا ديننا وذلك دين الشيوعية ، فلتؤمن الشيوعية بما تشاء ، فليس يعنيننا ما تؤمن به وما تكفر به ، وإنما يعنيننا أن نؤكد إيماننا بديننا الذى ندين الله عليه ونترسم دستوره فيما نعمل لقومنا ولأنفسنا، كل ما بيننا وبين الشيوعية فى مذهب الحكم أو فى مذهب الحياة أن الشيوعية لها دين ونحن لنا دين ولسنا بتاركى ديننا من أجل دين الشيوعية .. انتهى

هل هناك من يطلب مزيدا من التأكيد على التزام جمال عبدالناصر بعدالة الإسلام ، والعمل على أساس العقيدة الإسلامية، حقا - ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ صدق الله العظيم ؛ وفى الحديث الشريف « الإيمان ما وقر فى القلب وصدقته العمل » ويؤكد القرآن الكريم فى سورة البقرة ﴿ وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ صدق الله العظيم .

ويأتى مفهوم العدل على ضوء القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ضمن مفهوم محدد وشامل للعمل والأخلاق ممارسة والتزاما ، كما أشرنا ، ذلك أن

ممارسة جمال عبدالناصر للإسلام لم تقل بالمفهوم الضيق الذى ينحصر فى بعض المبادئ السلوكية وإنما كان يرى أن العدالة فى الإسلام تتعدى ذلك المفهوم فمن يكون جائعا غالبا ما يكذب أو يسرق أو يعتدى ، كما انه يرى وتلك حقيقة ان تصدق الأغنياء على الجوعى والفقراء لا تغنيهم دوما وهى فى الغالب كصدقة تفقد الجائع والفقير إحساسه بالكرامة وهذا ما ليس فى الإسلام الذى يبحث على التعاون وحفظ كرامة الإنسان ، ويرى عبدالناصر خصوصا عندما كان يتحدث عن التطبيق الاشتراكي إن الأخلاق هى انعكاس للنظام الاجتماعى السائد على الفرد ، ومن المعروف أن أعدل العادلين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أمر بالتسامح مع السارق (عام الرمادة) ولم يأمر بتطبيق الحد على السارق الجائع ، ذلك أن الفقر اساس القيم المتخلفة ، ولقد صدق سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه حين قال (لو كان الفقر رجلا لقتلته بسيفى هذا) ولهذا كانت ممارسات عبدالناصر واشتراكيته مستهدفة القضاء على الفقر ومتوخية مفهوم العدل فى الإسلام كما فى الحديثين الشريفين « المؤمن الحق هو من يقر بمساواته مع غيره فى فرص العيش » و « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا ولد له » وعدل الإسلام قائم على نص القرآن الكريم وسنة رسول الله وسير الصالحين من أئمة المسلمين ، وفى سورة النمل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ ويحض على عدم تضخيم الثروة واكتنازها أو احتكارها ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ التوبة ..

أشرنا فيما تقدم إلى مواقف وخطب عبدالناصر والتي يركن فيها غالبا إلى القرآن الكريم ودعوات الجهاد والتخلص من الظلم والغبن والضيم ، وكان فى حالات التعبئة السياسية مع الضباط والجنود خصوصا ، بعد الهزيمة ، ثم بداية حرب الاستنزاف يركز على الجانب الدينى لرفع المعنويات وتقوية الهمم ، وفى خطابه يوم ١٠ / ٣ / ١٩٦٨ م قال :

يجب أن نؤمن بإرادتنا وهى وحدها القادرة على تغيير الموقف وتحويل الهزيمة الى انتصار ، لذلك يجب أن نضحى وأن نبذل الجهد ونفتدى حياتنا وحياة

بلادنا ، وبدى أقول حاجه مهمة ، أن مافيش حد مننا حيموت ناقص عمر وكل مخلوق له أجل محدد وكلنا مؤمنين بالله وبهذه الحقيقة ، ومن ناحية أخرى فلا بد أن يتعمق هذا الإيمان فى قلب الجنود ، عاوز كل عسكرى يكون مؤمن بالدين وبالمبادئ والقيم ، ولازم التوجيه المعنوى يعمق هذه المعانى ويجعل عامل الإيمان بالله أساسى فى توعية الجندى ، وهذا الإيمان الذى يملأ قلب كل واحد بيدفعه أن لا يتردد فى وقت الشدة ، ولقد لمستم ذلك فى المعركة وعشتم أيامها وأدركتم قوة المبادئ والإيمان .

وفى خطاب آخر يوم ١١ / ٣ / ١٩٦٧ م وأيضاً مع الجنود والضباط ، قال :

إن المسؤولية التى يلقوها الشعب عليكم أنتم رجال القوات المسلحة كبيرة جداً ، والواجب الملقى عليكم واجب صعب ولكنه موش مستحيل ، وبالإرادة والإيمان بالله والثقة بالنفس والتدريب وبالجهد وبالعلم نستطيع أن نحول الهزيمة إلى نصر لأن هذا قدر الأمة العربية ، ..

كذلك فى خطاب آخر خلال يوم ٢٩ / ٤ / ١٩٦٨ م تحدث عن الجهد والإيمان والنتيجة المتوقعة من ذلك ، علماً بأن هذه الخطابات وهى كثيرة كانت متتالية والغرض منها التعبئة والإعداد للمعارك الفاصلة التى أرادها جمال عبدالناصر وأعد لها عدتها ، لكن مع الأسف لم يمهلها القدر ليرى بعينه قواته المسلحة وهى تعبر قناة السويس .. قال :

إن الدبابة موش حتحارب لوحدها ، المدفع موش حيضرب لوحده ، والإنسان هو القادر على تحريك كل هذه الأسلحة ، والإنسان العربى دائماً كان يكافح ، الإنسان العربى دائماً أثر فى التاريخ ، وسوف يكافح ويؤثر فى التاريخ ، ولكن علينا إحنا واجبات كبيرة جداً من أكبر القيادات إلى أصغر القيادات ، علينا أن نوجه هذا الإنسان التوجيه السليم ، هذا الإنسان الذى هو الجندى ، علينا أن نوجهه إلى أن يشعر أن عليه رسالة كبيرة ، رسالة ثورية ، ورسالة نحو ربه ، ورسالة نحو وطنه ، وعلينا أن نبعث فيه روح الإيمان ، لأنه بدون الإيمان وبدون العقيدة الواحد حيحارب ليه ؟ الواحد ويموت لأنه مؤمن بشئ ، بيطلع يبذل نفسه من أجله وإحنا هنا طبعاً نؤمن بالله ، نؤمن بوطننا ، نؤمن بحريتنا ونؤمن بحق أمتنا

العربية فى الحرية ، ولذلك من أجل المثل الذى اداها لنا ربنا ومن أجل بلادنا ومن أجل أرضنا ومن أجل أمتنا العربية ، الواحد يطلع ويضحى بنفسه ..

ورغم هذا وقبله ثم بعده تعرض جمال عبدالناصر لكثير من التشكيك والاتهامات، وما أسهل على المنحرف والمتربص أن يوزع التهم بينا ويسارا دون روية ولا سند ولا موضوعية ، فلقد قالوا أن عبدالناصر شيوعى فقط لأنه كان يبحث عن مصدر للسلاح يحمى به جيشه وبلده وأمته (كما قال دلاس وإيدن وجى موليه وغيرهم) وقالوا إنه كافر وهو الرجل الذى لم يقترب من محرّم طوال حياته حتى إن أعداءه قالوا إنه يكاد أن يكون فوق مستوى البشر ، لكن أصحاب الضمائر الحية والرجال الذين يحرصون على كرامتهم وكرامة أمتهم مازالوا يدافعون عن حق عن جمال عبدالناصر ومواقفه وأعماله ، الرجال الذين لم يأكلوا حراما ولا باعوا أنفسهم للدولار ولا تلوتوا من أجل منفعة أو خدمة ، هؤلاء مازالوا يدافعون بقوة عن عبدالناصر وعن الحق والعدل ، نقدم هنا بعض ما قيل فى عبدالناصر وإسلامه واشتراكيته من رجال الحق ، يقول الدكتور محمد أحمد خلف الله ، وأنا أعرفه شخصيا رحمه الله ، أعرفه رجلا صادقا متقشفا لا يحيد عن الحق ، قال :

(حينما ننظر فى شأن موقف الناصرية من الإسلام يجب علينا أن نميز بين الإسلام كعقيدة دينية، والإسلام كمؤسسة تعليمية أو تربوية ، والإسلام كقوة سياسية ..

فمن حيث الإسلام كعقيدة دينية نجد أن الناصرية ملتزمة به التزاما دينيا ، وليس أدل على ذلك من أن مجلس قيادة الثورة باعتباره الهيئة الرئاسية للدولة ، قد التزم بأن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، وبذلك لم يكن فيه من غير المسلمين وذلك بخلاف الحكم ، أى الهيئات التنفيذية كالوزارات مثلا ، فقد كان فيها بعض إخواننا المسيحيين وهذا الموقف هو التزام دينى باعتبار أن الرئاسة للمسلمين ، وهنا أمر نستطيع أن نلاحظه وهو أن رئاسة الثورة حينما قامت بحل جميع الأحزاب السياسية أبقت على جمعية الإخوان المسلمين ، باعتبارها هيئة دينية ، وحين حدث الخلاف بين الناصرية والإخوان المسلمين تبين للناصرية أن الإسلام فى يد الإخوان المسلمين هو عمل سياسى وليس عملا دينيا ، ولذلك قامت بحل هذه الجمعية مؤخرا ، وهذا إنما يعنى أن الناصرية تؤمن بالإسلام كعقيدة دينية وتلتزم به كعقيدة دينية ، ولكنها لن تستثمره كعمل سياسى ..

هذا فيما يخص الإسلام كعقيدة دينية ، أما ما يخص الإسلام كمؤسسة تربوية وتعليمية بالنسبة للأزهر الشريف فقد قامت الناصرية بتطهير الأزهر الشريف كمؤسسة تربوية وتعليمية وإحالتها إلى جامعة ، وأصبحت هذه الجامعة تمنح الشهادات العلمية كالدكتوراة ، ولم تقف هذه الجامعة عند حدود التعليم الديني وإنما تجاوزته إلى غيره من أنواع التعليم الأخرى حيث أنشأت كليات للطب والهندسة والتجارة وما إلى ذلك ..

وأما الإسلام باعتباره قوى سياسية فالناصرية لم تؤمن به على أنه عمل سياسى ، إنما هو عمل دينى أخلاقى ، ومن هنا وقفت فى مواجهة الجمعيات الدينية التى قامت بمحاولات عديدة ضد الثورة الناصرية ، والأمر الذى نشير إليه هو أن الجمعيات الدينية التى تعبر عن الإخوان المسلمين وغير العرب من المسلمين ، وقاموا بتكفير المجتمع وتكفير الدولة ، وهذا أمر إن صح فى باكستان ، والهند ، فلا يصح فى مصر ، لسبب بسيط جدا وهو أن رئاسة الدولة فى الهند كانت للمستعمرين ولغير المسلمين ، وبذلك يصدق عليها حكم أنها جاهلية أو كافرة ، أما فى مصر فلا يصدق هذا ، لا على المجتمع ولا على الدولة ، لأن المجتمع فى مصر متدين سواء أكان مجتمعا مسلما أو مسيحيا ، ومن هنا ظلت الناصرية ملتزمة بالإسلام كعقيدة دينية ولم تلتزم به كعمل سياسى ...

وفى حديث بعنوان عبدالناصر كان متدينا وعلمانيا كتب الدكتور يونان لبيب رزق يقول :

من خلال تأملى لتاريخ عبدالناصر أعتقد أن علاقته بالإسلام كدين أو الحضارة أو العالم ، كان يحكمها عدة اعتبارات أساسية من بينها :

أولا : على المستوى الداخلى للبلاد فى مصر ، نجد حرصه الشديد على ما نسميه الوحدة الوطنية فهو دائما كان من خلال استقرارنا لمسيرته وتاريخه ، يعطى لوحدة الجبهة الداخلية أهمية كبيرة ، خصوصا أن أغلب نجاحاته تمت بالارتكاز على هذه الوحدة ، وإذا عدنا إلى عامى ١٩٥٤ - ١٩٥٣ خلال التفاوض مع بريطانيا ، كانت بريطانيا تتفاوض مع سلطة واحدة ، ولم تستطع اللعب على المبدأ الاستعماري فرق تسد ، واعتبر عبدالناصر ثورة يوليو هى سلطة الشعب المصرى الوحيدة ، وهى من الاعتبارات التى حكمت نظره الإسلامية ..

ثانيا : أما صدامه مع الإخوان المسلمين فى أكتوبر ١٩٥٤م ذلك الصدام الذى أكد على أنه ليس مستعدا لأن يأخذ بمنهج الصدام الذى بدأه الإخوان ، ويتجلى هنا فى مبدأين أساسيين :

الأول : هو رفضه أن تملى عليه قوى داخلية سياستها مهما كانت .

والثاني : هو رغم تحالفه مع هذه القوة فى البداية إلا أنه رفض أن يأخذ بمنهجها ..

وأقرر هنا أن هذين الاعتبارين وغيرهما هما اللذان حكما موقف عبدالناصر من الدين فى السياسة ، وأتصور أن عبدالناصر فى سياساته الداخلية كان ، علمانيا ، أكثر منه صاحب اتجاه دينى ، كما أن الاشتراكية والقومية العربية بمفهومهما الناصرى كانا فى الأساس توجهات علمانية ، وخصوم عبدالناصر من أصحاب التيار الدينى يتهمونه بهذه التهمة ، ولا أدرى لماذا يعتبرونها تهمة ؟! لأنها حقيقة التعامل مع العصر ، فى الوقت الذى سمح فيه بأن توجد النبرة الدينية دون أن تعلو ، فيما يمكن أن نسميه حدود ، التون ، مختلفة وأنغام مختلفة ، فإن النشيد الناصرى الذى قاد عبدالناصر عزفه احتوى بين نغماته هذه الاعتبارات السابقة ..

هذا فيما يخص رؤية عبدالناصر السياسية للإسلام ، وبالنسبة للجانب الشخصى أعتقد أن عبدالناصر كان رجلا متدينا تتجلى علامات هذا فى قيمه العامة وسلوكياته فهو ممثل أمين لأبناء الطبقة الوسطى الصغيرة ، ومن طبيعتها أنها متدينة ، وهذا بخلاف الطبقة العليا أو الراقية التى لم تحظ بنصيب كاف من الثقافة الدينية ، ويمكننا القول أن عبدالناصر خير ممثل لطبقته المتدينة ، وفى تعبيره عنها ، ولم يتطلع أن يخرج عن فهمها للدين ، والذى يمثل ركنا أساسيا من نشأتها ، ولم أتوقع من عبدالناصر إلا أن يكون متدينا ..

واتهام خصومه له بأنه ملحد فهو اتهام غير صحيح ، أكدت عدم صحته محادثات الوحدة عام ١٩٦٣م ، وكانت سببا لنفوره من ميشيل عفلق وصلاح البيطار ، ومن شاركوا من ممثلى حزب البعث العراقى والسورى ، الذين سعوا لعقد الوحدة بين مصر وسوريا والعراق ، ولا يوجد شك فى أنه على هذا المستوى كان شخصا متدينا وعلى المستوى العام كان يضع الدين فى حجمه الطبيعى ، وأن استخدام الدين فى السياسة سوف يؤدى إلى شق الأمة ، وهو حريص على وحدة الجبهة الداخلية ..

ولو قارنا بين عبدالناصر والسادات نجد أن (التون) الدينى ارتفع عند الأخير فى بداية خطبه وأحاديثه ، والتي حرص على أن يسدأها بحديث شريف أو آية قرآنية ، وحرصه على أوصاف مثل الرئيس المؤمن ، ودولة العلم والإيمان ، وكان السبب امتلاكه الرصيد الكافى للشعبية ، واكتشف أن الطريق إليها يأتى من طرح الرصيد الدينى فى حين لم يحتج عبدالناصر إلى مثل هذه الأشياء الشكلية ، ولم يكن ممعنا فى استجلاب الجماهير بزيادة الرصيد الدينى الشكلى ..

وإذا انتقلنا إلى المستوى العربى نجد أن مفهوم القومية العربية للدين هو اعتباره أحد عناصر هذه القومية ، وليس العنصر الوحيد ، والمسألة هنا أكثر وضوحا سواء فى طبيعة خطب عبدالناصر أو الكتابات التى كتبت عن القومية العربية فى هذه الفترة ، وعبدالناصر كان يتشكك كثيرا فى استخدام الدين فى تجميع القوى الخارجية ، وكان انتماءه للحياة الإيجابية أو عدم الانحياز أكثر من الانتماء إلى المؤتمر الإسلامى ، فى حين حرص السادات على حضور المؤتمر الإسلامى والمشاركة فيه بنفسه ، والمقارنة بين عبدالناصر فى ميدانى القومية العربية وعدم الانحياز ووجوده فى المؤتمر الإسلامى ، سنجد أن وجوده فى الميدانين الأولين أكثر وضوحا وجلاء ، وإنما فى الميدان الأخير كان تأثيره منخفضا وهذا له دلالة ، فهو لم يبتعد بمصر عن المحيط الإسلامى لكنه كان كثير الشكوك فى هذا الحضور ، لأنه كان يتمتع بجماهيرية أكبر من الارتكان إلى هذا المحيط لاستغلاله فى بناء شعبية خاصة به ، نظرا لأن المؤتمر الإسلامى كان يتمتع برئاسة خاصة موالية للغرب وأمريكا على التحديد...

وعن إنجاز عبدالناصر الإسلامى يذكر الأستاذ عمرو ناصف كثيرا من التفاصيل والمعلومات نرى أن الاستدلال بها ربما يكون مفيدا حيث أن الركن الركين فى تعاملات جمال عبدالناصر كان الإسلام رغم كل ما كتب وقال معارضوه الذين لم يكن يهمهم الإسلام أكثر من مصالحهم ومناصبهم واستغلالهم وسيطرتهم ، يقول :

(الحديث عن ثورة يوليو والدين على أهميته وخطورته لم يأخذ حقه فى البحث والتحليل ، اللهم إلا من زاوية واحدة انطلق منها أصحاب التيارات المضادة

لثورة وعبد الناصر ، الفكر والطريق والإنجازات بهدف الطعن والتشويه ، ونحن هنا لسنا مضطرين للانزلاق في مطالبتهم والرد عليهم إحقاقاً للحق بوضع النقاط فوق الحروف يتطلب استعراض فكر عبد الناصر وبيان دور ومكانة الدين في هذا الفكر من خلال كتبه وخطبه وتصريحاته ومن ثم مقارنة ذلك بما تم فعلاً في عهد الثورة..

بداية نقول إن البحث في موضوع فكر عبد الناصر والدين لا يعنى محاولة كشف مدى إيمان جمال عبد الناصر الذى وصل البعض فى غيهم إلى حد تكفيره ، بل واتهامه بأنه كرس حياته لضرب الإسلام ومحاربته ، وإنما الهدف هو قياس درجة ارتباط الثورة بالدين من خلال فكر زعيمها وعلاقة ذلك كله بتحرير وبناء وتطور المجتمع العربى ..

ولنبداً بفلسفة الثورة كوثيقة مبكرة طرحها عبد الناصر لتوضح خط الثورة ، ولا شك فى أن أول ما يستوقفنا فى هذه الوثيقة هو تعيين عبد الناصر للدوائر الثلاث العربية والأفريقية والإسلامية ، ولنرى رأى عبد الناصر الخاص بالدوائر الثلاثة ..

ليس عبثاً أن حماية الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامى الذى أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة ترجع إلى مصر وأوى إليها فحمتها مصر عندما ردت غزو المغول على أعقابها فى عين جالوت ..

لقد أدرك عبد الناصر أن دور مصر الإسلامى له جذوره التاريخية وأسبابه الموضوعية وأن فصول هذا الدور وهو عين جالوت لم يكن أن مصر قد تطوعت بمغامرة غير محمودة العواقب لصد جيوش المغول وإنما لأن مصر جزء لا يتجزأ من الوجود الإسلامى بمعناه الدينى ومعناه الحضارى ، ولعل الفقرة التالية من ذات الوثيقة تبين مدى إدراك عبد الناصر لدور مصر فى هذا الصدد ، وأبادر هنا فأقول إن الدور ليس زعامة وإنما هو دور تعامل وتجاوب مع كل العوامل يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور إيجابى فى بناء مستقبل البشر ..

وفى إطار البحث عن أساليب التفاعل الممكنة بين المسلمين اقترح عبد الناصر أن يكون الحج قوة سياسية ضخمة ، حيث قال : يجب أن تهرع صحافة العالم إلى

متابعة أنبائه لا بوصفه مراسم وتقاليد ترسم صوراً طريفة لقراء الصحف وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة العالم الإسلامى ورجال الرأى فيها وعلمائها فى كافة أنحاء المعمورة ، وكتابها وملوك الصناعة فيها وتجارها وشبابها ليضعوا فى هذا البرلمان الإسلامى العالمى خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معها حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام ..

ثم يظهر جلياً بعد ذلك عظمة الدور الإسلامى فى ذهن عبدالناصر حين نراه يستعرض نماذج القوى البشرية الإسلامية الهائلة فى العالم والتي يجب أن تلتقى وتصبح قوة يحسب لها ألف حساب ، ولكن دون أن يحدث ذلك خلطاً للأوراق بين ما هو دينى وما هو قومى ، فيقول فى خاتمة كتاب فلسفة الثورة :

وحين أسرح بخيالى إلى ثمانين مليوناً من المسلمين فى إندونيسيا ، وخمسين مليوناً فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، وأكثر من مائة مليون فى الشرق الأوسط ، وأربعين مليوناً داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض ، المتباعدة ، حين أسرح بخيالى إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج بإحساس كبير بالإمكانات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعاً ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع لكنه يكفل لهم وإخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة ، أما الميثاق فيستوقفنا بابه الأول حينما يطرح عبدالناصر الإيمان كأحد ضمانات نجاح النضال فيقول :

إيمان لا يتزعزع بالله ورسله ورسالاته القدسية التى بعثها بالحق والهدى إلى الإنسانية فى كل زمان ومكان ، ثم يعود لذات النقطة ولكن بتخصيص للدين الإسلامى فيقول ، وفى إطار التاريخ الإسلامى وعلى هدى من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام قام الشعب الإسلامى بأعظم الأدوار دفاعاً عن الحضارة الإنسانية ..

وفى الباب السابع من الميثاق يتحدث عبدالناصر عن حرية العقيدة الدينية وما للقيمة الروحية النابعة من الأديان وعن دورها فى صنع الحضارات للارتقاء بالإنسان بغية الوصول إلى الكمال ، ثم يؤكد عبدالناصر على عدم وجود أى تعارض بين جوهر وروح الدين وبين تقدم الحضارات وتطور أشكال الحياة ، فالدين ثابت ومضمون أما المتغير والمتلون فهو يعنى التفاسير المستغلة للدين والذى

تلجأ إليه القوى الرجعية لحماية مصالحها وشر جرائمها ، إن جوهر الرسائل الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة وإنما ينبع التصادم فى بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الإلهية السامية .. ويقول أيضا فى الميثاق ، وإن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة . انتهى ..

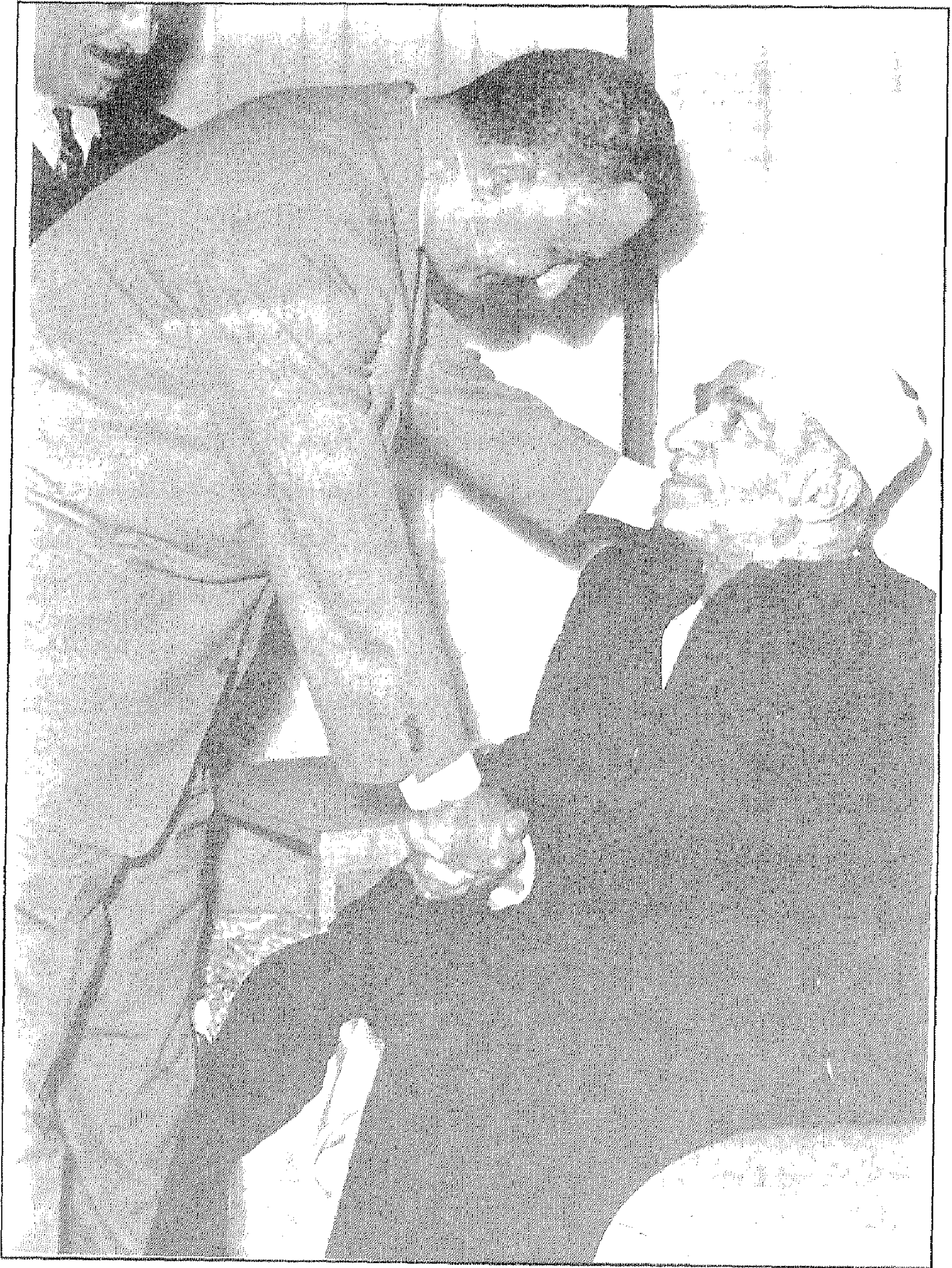
وهناك الكثير من البراهين والأدلة على التزام عبدالناصر الدينى والخلقى الذى يمكن أن يقنع أى إنسان يريد أن يرى الحقيقة ، أما هؤلاء الذين لا يريدون فهم أو رؤية البراهين فإنهم يتحملون وزر تصرفاتهم وأعمالهم ، خصوصا إذا كانوا من رواد الليل واستخدام القنابل والمسدسات ، ولا يعنى تعبير رواد الليل أنهم لا يقومون بإجرامهم إلا فى الليل فقد حاول محمود عبداللطيف اغتيال عبدالناصر فى وضوح النهار عندما أطلق عليه تسع رصاصات وهو يخطب فى جماهير الإسكندرية ، هذه الحادثة التى مازال الإخوان المسلمون ينكرونها ويقررون أنها من ترتيب عبدالناصر !! ولعل القصة الطريفة التى ذكرها السيد محمود الجيار تكون مناسبة لإنهاء هذا الفصل ، يقول :

(فى واحدة من زيارات جمال عبدالناصر الرسمية للاتحاد السوفيتى وكان فى اجتماع رسمى مع رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى السيد نيكيتا خروتشوف فى أحد أيام الجمعة وقد حل موعد أداء صلاة الجمعة وكان على أن أنبهه لذلك فأردت أن أدخل قاعة الاجتماع لكن سكرتير خروتشوف قال لى إن رئيسه أمر ألا يدخل عليه أحد مهما كان أثناء الاجتماع ، لكننى قلت له إن واجبى أن أبلغ الرئيس عبدالناصر عن موعد الصلاة ، ودخلت لأبلغ الرئيس بموعد الصلاة وهكذا طلب تأجيل الاجتماع حتى يؤدى صلاة الجمعة فى مسجد موسكو لكن الرفيق خروتشوف قال له سوف تأمر بتأجيل الصلاة حتى تنتهى من اجتماعك معى ، فضحك عبدالناصر وقال يمكن للرفيق خروتشوف أن يؤجل الصلاة ولكن الله لا يقبل تأجيل فرض على أى مسلم ، وهكذا رفعت الجلسة حتى أدى عبدالناصر الصلاة جماعة مع المسلمين ..

وبمناسبة الحديث عن الاتحاد السوفييتى أذكر أننى بينما كنت أزور الجمهوريات الإسلامية السوفيتية ذات مرة ضيفا على هيئة دار الإفتاء الأوزبكية رأيت أن هؤلاء الناس كانوا يمارسون تقاليدهم الاجتماعية وواجباتهم الدينية بكل حرية حتى أن أذان الصلوات يذاع عبر محطات التليفزيون هناك ، ويتلى القرآن الكريم عبر مكبرات الصوت فى المساجد حيث تقام الصلوات فى أوقاتها ، وفى زيارتى لسمرقند التقيت بشيخ جامع البخارى الذى قال إن فى عائلته أحد عشر ولدا من صلبه جميعهم يحفظون القرآن الكريم ، وفى هذه الأثناء جاء أصغرهم فطلب منه أن يقرأ بعض آيات من القرآن الكريم فقرأ سورة البقرة كاملة بصوت جميل وترتيل أزهرى ، وكنت قد ذكرت أغلب هذه الأمور فى كتابى الذى صدر سنة ١٩٨٣م بعنوان الاتحاد (السوفيتى نظرة من الداخل) ..

ولقد كنت أقصد بذلك الرد على كثير من كتاب المشككين والذين يهاجمون الاتحاد السوفييتى فى ذلك الوقت دون معرفة ولا دراية بالوضع الداخلى هناك وإنما فقط لخدمة أغراض سياسية موحى بها من جهات أجنبية ، ولقد أكدت عديد المرات وأؤكد مرة أخرى أننى لست شيوعيا ولا يمكن أن أكون ، لكننى اذافع عن حقيقة رأيها بأمر عيى ، كما رددت هذا الكلام مرة أخرى فى كتابى الجديد بعنوان (انهيار الاتحاد السوفييتى ونهوض روسيا الاتحادية) التى أعتقد أنها ستلعب الدور الذى كان ينهض به الاتحاد السوفييتى السابق وخصوصا فى وقت رئاسة السيد بوتين ، كما أننى أعتقد أننا نحن العرب لابد لنا أن نعترف فى كل مناسبة بفضل هؤلاء الناس الذين وقفوا معنا فى أحلك الأوقات وأيدونا سياسيا وعسكريا ومعنويا ، هذا إذا كنا صادقين مع أنفسنا ..

ولا يخفى على أحد أن الرئيس جمال عبدالناصر كان دائما يذكر بالتقدير تعاون القادة السوفيت مع مصر ومع العالم العربى وكذا مع دول العالم الثالث ، ولولا الاتحاد السوفييتى ما كان يمكن لنا نحن العرب أن نتصرف فى حرب أو نسترجع كرامتنا التى أهينت ، وبعد عبدالناصر ها نحن مهانون ليس لأننا نتقبل الإهانة وإنما لعدم قدرتنا عسكريا أو سياسيا أن نفعل ما يؤكد الكرامة والشقة بالنفس ، وإذ أشرت إلى الإسلام فى الاتحاد السوفييتى لأننى لمست وشاهدت وعاشت ما كان يجرى فى هذا البلد الكبير وفيه ما يزيد على خمسين مليوناً من المسلمين أى تقريبا ربع سكانه .



الشيخ محمود شلتوت مع جمال عبدالناصر ، وكان هذا الشيخ الجليل قد أشرف على
تطوير الأزهر الشريف وكان عبدالناصر يحيطه بكثير من الاحترام والتقدير

٤- البحث عن القوة لردع العدوان :

قال تعالى فى كتابه الكريم ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

لم يكن جمال عبدالناصر فى أى يوم من الأيام يرغب فى الحرب وإنما كان مناضلا من أجل الحق والحرية ، ولقد حاول كثيرا أن يحصل على أسلحة دفاعية لأنه لا احترام لحاكم لا يعمل على حماية شعبه من العدوان ، وهو يدرك أن سياسة إسرائيل قائمة على العدوان والتوسع ، والدليل القاطع على سياسة إسرائيل العدوانية تلك الهجمة الغادرة التى قامت بها قواتها على الجنود المصريين فى غزة خلال شهر فبراير عام ١٩٥٥م بلا أى سبب أو مبرر وقد قتلت ٢٧٠ وجرت ٣٠ ثم دمرت محطة السكة الحديد الواقعة شمالى غزة ، وهو الشئ الذى جعل عبدالناصر يبحث عن السلاح من أى مصدر ، ولقد بدأ بطلب السلاح من الغرب وتحديدًا من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وبعد مناقشات ومباحثات وتأجيل لم يحصل على شئ وكان عليه أن يحصل على السلاح من جهات أخرى وقد تمكن من فتح نافذة على دول المعسكر الاشتراكى وفى مقدمتها تشيكيا (التى كانت تعرف باسم (تشيكوسلوفاكيا) وبذلك تعاقد على أسلحة دفاعية فقط وقتذاك ، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية أرادت أن تعاقبه ليس فقط بفرض حظر على المنتجات المصرية ومنها القطن ولكن بتزويد إسرائيل بالأسلحة المتقدمة الفتاكة ، وكان عليه ورفاقه أن يستعدوا عملا بقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) وردا على الموقف الأمريكى والعدوان الإسرائيلى قرر عبدالناصر أن يجعل مصر دولة صناعية بحيث يمكنها أن تدافع عن مصالحها الوطنية واتجاهها القومى ، وعمل جمال عبدالناصر على إنشاء مئات المصانع وأرسل آلاف الطلبة للدراسة فى الخارج وكلف عشرات بل مئات العلماء والمهندسين المصريين بالبحوث العلمية خدمة للمجهود العسكرى ، واستجلب عشرات العلماء من الخارج وخصوصا أولئك العلماء والخبراء الألمان ، ووفق اتفاق صناعة الطائرات الحربية مع الهند وكانت باكورة ذلك الاتفاق والتعاون

إنتاج اول طائرة حربية بأيد مصرية وهندية وكذلك تم صنع الصواريخ وقوارب الطوربيدات والعربات المصفحة ومختلف أنواع المدفعية ، لكن عدوان إسرائيل مع المخابرات المركزية الأمريكية أخذ بعدا آخر فصارت إسرائيل تبعث الطرود المتفجرة لقتل العلماء الألمان الذين يعملون فى مجال الصناعات العسكرية المصرية ثم تجاوزت ذلك البعد فعملت على تهديد أسرهم وخطف أبنائهم وبناتهم وتخويف كل من له علاقة بهم ، وعلى الرغم من أن ذلك النشاط العدوانى الإسرائيلى الأمريكى قد أثر وجعل أولئك العلماء يهربون بجلودهم فإن اليأس لم يتطرق إلى عقول المصريين وقائدهم فعملوا على إنشاء مؤسسة التصنيع الحربى بالتعاون مع بعض البلدان العربية التى وافقت على تمويل صناعات هذه المؤسسة ، ولم يتردد عبدالناصر وظل يسعى لدى دول العالم من أجل التعاون فى هذا المجال رغم كل الضغوط والمؤامرات والعدوان ، ورغبة فى الاستفادة من التكنولوجيا النووية تم إنشاء أول مفاعل نووى فى إنشاص وذلك من أجل تدريب العلماء المصريين فى هذا المجال ، يذكر الدكتور ثروت عكاشة فى مذكراته جزءا من تلك الجهود ، فيقول :

اتصلت فى شهر فبراير ١٩٦٦ بالرئيس جمال عبدالناصر تليفونيا لاستئذانه فى السفر إلى باريس لحضور انعقاد دورة المجلس التنفيذى لليونسكو فطلب إلى الحضور لتجاذب الحديث فى أمر هام ، ولما التقيت به شرع يبدى لى قلقه من تجارب الصاروخ المصرى الذى بذلت فى سبيله جهود ضخمة مضية طوال الأعوام الماضية ، دون أن نصل إلى نتيجة مرضية بالنسبة لدقة توجيهه ، حتى أنه علّق ساخرا بأن صاروخنا إذا صوبناه على تل أبيب أخطأ هدفه وأصاب بيروت ! وعهد إلى الرئيس عبدالناصر البحث لحل هذه المشكلة فى باريس ، وذلك عن طريق أحد سبيلين ، إما الحصول على الخبرة الفنية الفرنسية فى هذا المجال وإما الحصول على موافقة السلطات الفرنسية على شرائنا لعدد من آلات الجيروسكوب اللازمة لتوجيه صاروخنا توجيها دقيقا ، ثم طلب منى المرور على المشير للتعرف على التفاصيل ، فتوجهت إلى المشير الذى كرر لى الأهمية التى يعلقها على الحصول على الجيروسكوب ، وإذ كنت أجهل ما يصاحب هذا الموضوع من تفاصيل ينبغى أن أتزود بها قبل الشروع فى المحاولة طلبت إليه تكليف أحد الخبراء

لتوضيح الموضوع لى ، فزارنى فى بيتى خبيران مكثا معى ليلة بأكملها يشرحان لى الناحية التقنية من الموضوع ، وحين طلبت منهما تزويدى بالمواصفات المحددة أصرا على عدم تسليمى إياها إلا على سلم الطائرة فى مظروف مغلق ، وعجبت لهذا وأنا رجل مسئول كما هما مسؤولان ، ثم أن الأمر كان لى أكثر مما هو لهم ، ولم أر ما يبرر هذه السرية المفتعلة أو يسوغها إلا أن تكون مجافاة للذوق والإدراك ..

وفى الثانى والعشرين من فبراير التقيت بالسيد بيمير مايار أمين عام جهاز الدفاع القومى الفرنسى الذى شرحت له مشكلة الصواريخ المصرية (أرض أرض) وأهمية تزويدنا إما بالخبراء الفنيين الذين يمكن أن يساعدونا فى التغلب على صعوبات دقة التصويب وإما بالجيروسكوب نفسه ، فرد بأن السفارة المصرية سبق أن تقدمت فى العام الماضى بمثل هذا الطلب ولكن الحكومة الفرنسية اعتذرت عن الاستجابة له ، ثم أردف بعبارة أخرج من ذكرها لولا أن أمانة نقل الواقعة والحديث بنصبه تدفعنى إلى إثباتها إذ قال (إن اختيار الرئيس عبدالناصر لك يدفعنا إلى البحث عن حل لهذا الموضوع يكون مرضيا لكم ففرنسا لا تنكر لك جهودك الموصولة فى إعادة العلاقات سليمة كما كانت بين الدولتين وصلاتك الوطيدة بالشخصيات الفرنسية البارزة) .

غير أنه ما لبث أن سألتنى عن سر طلبنا المعاونة منهم لا من غيرهم فأجبت بآن الخبراء الألمان قدموا ما وسعهم من عون وما زالوا ولكنهم لم يوفقوا فى ناحية التوجيه الدقيق ، أما الروس فهم لا يستطيعون أن يطلعوا الإخصائيين الألمان بالذات على ما توصلوا إليه فى أى ميدان من هذه الميادين ، وأما الولايات المتحدة والمملكة المتحدة فعلاقتهم بإسرائيل لا تبيح لهما معاونتنا فى هذا المجال ولهذا لجأنا إلى فرنسا ، وهنا طمأننى إلى أن أمله كبير فى نجاح مسعاه إن لم تنشأ عقبات خارجة عن إرادته ، ثم استدرك قائلا إنه يقصد العقبات الفنية ولا شئ سواها ، ثم إذا به يسألنى عن عدد أجهزة الجيروسكوب المطلوبة فأجبت بآنى لا أدرى على وجه التحديد ولكنى قد أتيت سعيًا وراء الموافقة على المبدأ ، أما العدد فأمره يسير إذ يمكننا إحاطته علما به فى أقرب فرصة بمجرد أن نتلقى رسميا الموافقة على المبدأ ، وليس المجال مناسبًا للدخول فى تفاصيل هذا الموضوع وما صحبه من جهود للحصول على موافقة وزارة الحربية الفرنسية من الناحية الفنية ثم الأمانة العامة

للدفاع القومى من الناحية السياسية ، على أن مفاجأة مذهلة صادفتنى حين مرّ بى
المسيو بيير مايار فى اليوم التالى بالفندق ليبلغنى أن الفنيين أنهوا إليه أن المواصفات
الفنية التى أعطيته إياها تنطوى على ما يخالف ما طلبته منه شفويا ، وكان حرجى
أمامه شديدا ووعدته أنى سأنهى إليه البيانات السليمة على مدى أربع وعشرين
ساعة ، واستدعيت المقدم فوزى شهدى الملحق العسكرى بباريس وأملت عليه
برقية إلى المشير عامر أوضح له الموقف وأشكو المسؤول عن هذا الإهمال الجسيم ،
غير أن الملحق العسكرى ناشدنى ألا أرسل هذه البرقية خشية إلحاق الضرر بهذا
المسؤول متعهدا أن يأتينى فى أقل من أربع وعشرين ساعة بالإجابات الصحيحة ،
وتحت إلحاحه قبلت رجاءه وكان عند وعده فقد وصلتني المعلومات المطلوبة التى
أسرعت بتسليمها ، فإذا هناك مفاجأة أخرى أشد إثارة للفرع بقدر ما فيها من
حمق لا يصدق ، حيث تبين أن التصميمات التى سلمت لى فى البداية كانت
خاصة بأجهزة صواريخ (جو - جو) فى حين أن المطلوب كان تصميمات أجهزة
صواريخ (أرض - أرض) ..

وفى السابع من مايو تلقيت بعد عودتى إلى القاهرة رسالة سرية من السفير
بيير مايار عن طريق السفارة الفرنسية يحيطنى فيها علما بموافقة الحكومة الفرنسية
على تزويدنا بالجيروسكوب المناسب لصاروخنا (أرض - أرض) وطلب معرفة
العدد المطلوب من آلة التوجيه هذه ، فاتصلت على الفور بالمشير عبدالحكيم عامر
الذى أمر الضابط المنوط بهذه الصواريخ والمسؤول عن تزويدى بالمعلومات الخاطئة
عن الجيروسكوب بالاتصال بى ، وعندما سألته عن العدد المطلوب منها أجاب فى
(حذلق هازئة ، حسبنا واحد ونعمل مثله) ..

وهنا أحسست بهم يعتصر كيانى كله ، وأخذت أتذكر فى أسى تلك الجهود
التي بذلت فى إقناع وزارة الدفاع الفرنسية والظفر بموافقتها الفنية ، ثم بالموافقة
السياسية من الأمانة العامة للدفاع القومى ، وتذكرت بخجل مرير كيف صارحنى
السفير بيير مايار باحتواء مواصفائنا الفنية على أخطاء يستحيل معها تصميم
الأجهزة المطلوبة ، وأحسست بالخطر حين رأيت أن هذا هو أسلوب العمل فى
مصانعنا الحربية وفى صلاتنا مع الدول الأخرى من إهمال واستهانة وسوء تقدير ،
فطويت النفس على شجن ، وبعد تردد وجيز خشية إلحاق الضرر بهذا الضابط

الذى كان يشغل مركزا بالغ الخطورة أفضيت الى المشير عامر بالقصة كاملة لأن المسألة لم تكن تحتل الكتمان ، وانتهت علاقتى بهذا الموضوع .. انتهى .

يا سبحان الله ، هل يجوز التعامل فى أمور خطيرة يتوقف عليها مصير البلد بهذا الشكل إلحاق الضرر بالضابط فلان والضابط علان !! ألا يرى معى القارئ الكريم أن الخيانة داخل المؤسسة العسكرية التى كان يقودها المشير عبدالحكيم عامر ؟ كيف يمكن السكوت على مثل هذه التصرفات ؟ كيف يجوز أن يبقى خبير عسكري يعطى معلومات خاطئة ثم يهزأ بما يقدم إليه كما ذكر السيد ثروت عكاشة ؟ وقد قال إنه بعد مدة أخبر المشير وانتهت علاقته بالموضوع !! والمشير لم يعمل شيئا فهو كذلك لا يريد إلحاق الضرر بضابط مسؤول عن أسرار عسكرية هامة !! لا أحد بلغ عبدالناصر ، لا عكاشه ولا المشير ، ثم إن تلك الصواريخ بقيت خرقة مرمية فى المخازن ، وأيضا من أجل ألا يلحق أحد الضرر بضابط ما !!

ونعود إلى ما يقوله الدكتور ثروت عكاشة مرة أخرى عن جهود عبدالناصر من أجل الحصول على القوة الرادعة المتمثلة فى السلاح النووى بعد عملية الصواريخ ، والمؤسف أن جهود عبدالناصر تلك كانت تواجه بالإهمال وعدم الاهتمام من المختصين فى هذا المجال كما حدث بالنسبة للصواريخ وحديث عكاشة عن الضابط أو الضباط المسؤولين عن صنعها أو استعمالها ، يقول الدكتور ثروت عكاشة :

وفى شهر مايو من نفس العام كنت أزور الرئيس جمال عبدالناصر لأعرض عليه بعض الأمور قبل سفرى إلى فرنسا لحضور جلسة طارئة للمجلس التنفيذى باليونيسكو ، وبعد أن فرغت من مهمتى هممت بالوقوف استعدادا للانصراف ، فإذا هو يطلب إلى الجلوس ويفاجئنى بقوله (صبرا فهناك ما هو أهم مما عرضته على ما ينبغى بحثه أثناء وجودك بفرنسا ، وهو معاونة فرنسا لنا فى إنتاج القنبلة الذرية) .

ولم تقو قدماى على حملى فجلست ، وسألته ، أترأى تمزح يا ريس ؟ قال ، بل أنا جاد كل الجّد ، فإسرائيل تمتلك الآن القنبلة الذرية ومسؤوليتى تحتم علىّ تملك مصر وسائل ردع هذا السلاح ، ولذلك فنحن نحاول فى كل مكان ، حتى فى الصين ، فوعده بطبيعة الحال يبذل كل ما فى وسعى ولم أخف عليه أننى أشك

كثيرا فى إمكانية تحقيق هذه الأمنية ، وخرجت من عنده مذهولا أحاول حصر ذهنى فى كيفية تبليغ هذه الرسالة ولمن ؟

وكان أول ما قمت به هو محاولة معرفة شئ عن هذه القنبلة الذرية ، فانكبت على ما أحتفظ به من مجلدات مجلة (realites) الفرنسية التى كنت مشتركا بها لأستعيد قراءة مقال أذكر أننى طالعت بها مطالعة عابرة يحمل عنوان (الدول التى تستطيع أن تمتلك القنبلة الذرية) بقلم محررها العلمى فرانسو شوسيه ، ذهب المقال الى أن جميع دول العالم تستطيع امتلاك القنبلة الذرية غير أن بينها من تستطيع تملكها خلال خمس سنوات ومن تستطيع ذلك خلال عشر سنوات ومن تستطيع خلال خمس عشرة سنة ، وعرج فى تحليله إلى شروط ثلاث ، ينبغى توافرها حتى تستطيع الدولة صناعة القنبلة الذرية ، هى تملك الوقود الذرى هو اليورانيوم ، ثم تملك مصنع لتوظيف المواد المشعة لعزل البلوتونيوم الذى يتكون فى أعمدة اليورانيوم التى تغذى المولد ، وبعد ذلك تأتى الخطوة الثانية وهى عمل القنبلة نفسها ، تجميعها وتجربتها وتجهيزها عسكريا ، وانتقل بعدها إلى شرح كيف أصبحت المعدات الذرية سلعة تجارية فتستطيع أى دولة أن تحصل بالشراء على مفاعل ذرى إذا لم يكن فى قدرتها من الناحية الفنية والعلمية إنشاؤه ، وتستطيع الدولة البائعة ممارسة إشرافها على استخدام الوقود الذى تقدمه لتغذية المركز ، ولكن ليس ثمة ما يمنع الدولة المشترية من مضاعفة الجهد وتحقيق التقدم لإنشاء مفاعلها الخاص ، فما أيسر الحصول على القرافيت والماء الثقيل ومعدات التوقيت وأجهزة الحساب الكهربائى ، أما بالنسبة لمعدن اليورانيوم — والشائع أنه نادر — فقد غدا موفورا إذ أصبحت الدول المنتجة له مثل كندا وجنوب أفريقيا لديها وفرة منه خاصة بعد أن اكتشفت لولايات المتحدة المعدن فى تربتها وكفّت عن الشراء من الخارج ..

وكان الرئيس عبدالناصر فى أثناء لقائى به قد أشار علىّ بأن أطلب من المرحوم الدكتور عبدالمعبود الجبيلى رئيس هيئة الطاقة الذرية الاحتياجات بالتفصيل ، وكنت على معرفة وثيقة به منذ كنت ملحقا عسكريا بفرنسا وكان

أيامها يواصل دراسته العلمية بباريس ، فأوضحت له المهمة التي عهد بها إلى رئيس الجمهورية طالبا تزويدى بالقدر اللازم من المعلومات التي تساعدنى فى تحقيق المهمة ، فأعارنى كتاب (انتشار الأسلحة الذرية) الصادر عن معهد العلوم الاستراتيجية البريطانى والذي يكشف عن أن فرنسا لا تملك أى حق للرقابة على مفاعل ديمونه الإسرائيلى الذى أنشأته لها ، ثم انتقل إلى المعلومات التى حصلت عليها إسرائيل من الدول الغربية ، وهنا طلبت منه تحديد مطلب رئيس الجمهورية من فرنسا علميا فتطرق إلى أربعة احتمالات ، أولها بطبيعة الحال الحد الأقصى وهو معونة فرنسية كاملة على أن تعوضنا فرنسا عن الوقت الزمنى الضائع بين معونتها لإسرائيل ومعونتها لنا ، وثانيها برنامج متوسط ، وثالثها الحد الأدنى ، ورابعها أسوأ الفروض وهو تزويدنا بمفاعل لإنتاج البلوتونيوم ومدنا بالمواد النووية المختلفة إنتاج الوقود ، وأيا كانت المشروعات التى سنتعاون فيها فلا بد من أن تزودنا فرنسا بالتصميمات والرسومات النهائية والمعدات والمواد والأجهزة اللازمة لإقامة هذه المشروعات ، وأن تتعاون معنا على التنفيذ فى كافة مراحل الإنشاء والتركيب والاختيار والتشغيل والصيانة ، وأن تمدنا بالمواد النووية وقطع الغيار ، وتدريب الخبراء والفنيين المصريين فى المنشآت الفرنسية المشابهة واشتراكهم مع الخبراء الفرنسيين فى المراحل المختلفة للمشروع ..

وينتهى الدكتور عكاشة بعد أن التقى المسؤولين الفرنسيين الى القول :

(وأردفت قائلا ، إن الرئيس جمال عبدالناصر يدرك عدم جدوى هذا السباق كما يؤمن بمبدأ عدم انتشار الأسلحة النووية ، ولكنه غير مستعد لأن يقف مكتوف اليدين أمام الخطر الذى يهددنا ، فوفق إحصائياتكم تسبقنا إسرائيل بخمس سنوات على الأقل فى هذا الميدان الخطير وهى فترة كما لا يخفى عليكم ملأى بكل أنواع التهديد والدمار والخطر ، وهو ما يجعل الرئيس يعزّ عليه أن يقف جامدا حتى يتحول شعبنا إلى شرادم من اللاجئين على الرغم من حرصه على أن ينفق الدخل القومى على حل مشاكل بلادنا ، والارتفاع بمستوى سكانه ، إلا أنه لا يرى مفرا من وضع نشاط إسرائيل الذرى فى حساباته ..

وبعد جهود مكثفة ومحاولات الفهم والتفهم بين هذا المسؤول والآخر ،
ومن هذه الدائرة إلى الأخرى ، وضياح وقت طويل خلص الدكتور ثروت إلى
القول (ولقد أثبتت الأيام أن إجاباتهم كانت لونا من ألوان اللياقة الدبلوماسية ،
ولربما كانت ظروف فرنسا فيما يبدو لى تقضى عليها ألا تمد لنا مثل اليد التى مدتها
لإسرائيل فى ظروف سابقة .



الفصل العاشر

- ١- دور وتأثير عبدالناصر فى الوطن العربى .
- ٢- دور عبدالناصر وتأثيره فى أفريقيا .
- ٣- وفاة جمال عبدالناصر وضياع الأمل .
- ٤- ما بعد جمال عبدالناصر وهدم البناء .

الفصل العاشر

- ١ - دور وتأثير عبدالناصر فى الوطن العربى .
- ٢ - دور عبدالناصر وتأثيره فى أفريقيا .
- ٣ - وفاة جمال عبدالناصر وضياع الأمل .
- ٤ - ما بعد جمال عبدالناصر وهدم البناء .

حقا فى الليلة الظلماء يفتقد القمر ..

وفى دنيا العرب الآن يفتقد ذلك القائد الذى كنا نبكى على صدره وقت الأزمات كما قال ياسر عرفات عندما توفى جمال عبدالناصر ، رحمهما الله ، وأريد أن أسأل نفسى قبل القراء ، هل كان يمكن أن يستمر ما يحدث الآن فى الوطن العربى من خلاف وتقاتل وتدخل أجنبى لو كان عبدالناصر حيا فى القاهرة كما كان ؟ ثم أسأل مرة ثانية ، أليس زمننا الحالى يماثل تماما آخر زمننا عندما كنا فى الأندلس ؟ نحن الآن أمام بوش الابن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية متفرقون متناحرون ، وكنا هناك فى الأندلس أمام ألفونسو ملك قشتالة متفرقين متناحرين ، والنتيجة واحدة !! هذه إجابتى على سؤالى وأترك للقارئ الكريم ممارسة حقه فى الإجابة ..

المهم ، عندما كان جمال عبدالناصر فى القاهرة كانت الدنيا تحسب للعرب بعض الحساب ، وكان الرجل الذى يقول ، لا ، ويصدق ، ويقول ، لا ، ويفعل ، ويقول ، لا ، وينصر ، قال لا للتفريط فى حقوق الشعب الفلسطينى رغم كل الوعود الأمريكية والغربية السخية ، وقال ، لا ، لبريطانيا وفرنسا وإسرائيل ووقف صامدا (حانحارب) وحارب فعلا بشعبه ولم ينالوا منه شيئا ، وقال ، لا ، للولايات المتحدة الأمريكية ومشروع ملء الفراغ ، وقال ، لا ، للأحلاف وأفشلها أو على الأقل منع الانضمام إليها ، وحتى بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ قال ، لا ،

للانكسار ، ووافقه العرب في مؤتمر الخرطوم بثلاث لاءات حيث فرض إرادته ، بعده انفجرت الحرب الأهلية في لبنان بداية سنة ٧٦ واستمرت قرابة عقدين من الزمان ولولاه كان لابد أن تبدأ سنة ٥٨ ، وغزو الكويت بواسطة قوات صدام حسين وقع بعده والتدخل الأمريكي والغربي ثم تدمير العراق جاء بعده سنة ٩٠ - ٩١ ولولاه كان يمكن أن يحدث الغزو بقوات عبدالكريم قاسم سنة ٧٠ ، ولولا عبدالناصر ما كان يمكن أن تنتصر ثورة اليمن ، ولا كانت انتصرت ثورة الجزائر ، ولا ثورات أخرى في أفريقيا ..

ورغبة في الاختصار أريد أن أبسط أمام القارئ الكريم أحداث أربع ثورات عايشتها وعشت أحداثها وشاهدت دور جمال عبدالناصر وأجهزته في نصرتها ، سمعا وعينا ..

اثنتان في الوطن العربي ، والأخريان في أفريقيا ..

١ - الثورة الليبية .. ٢ - الثورة الجزائرية ..

٣ - الثورة الكونغولية .. ٤ - الثورة الكينية ..

- الثورة الليبية ، قال جمال عبدالناصر (أراد الله أن يعز مصر ، فأعزها بثورة ليبيا) وقال ، لقد رأيت فيكم روح الأمة العربية ، لقد بعثت القومية العربية من جديد في هذه المنطقة من الأمة العربية ، إنى أرى فيكم أمل الأمة العربية الكبير ، إن ثورتكم معناها أن الأمة العربية لن تستكين أبدا ، وأن الأمة العربية لابد أن تنتصر لأن الله يريد لها أن تنتصر ، ولأن الله يريد لها أن تبقى عزيزة كريمة ، وما ثورتكم التي خلصتكم من القواعد الأجنبية ومن الوصاية الأجنبية إلا دليل على أن الله يريد للأمة العربية أن تنتصر ..

وللتأكيد على الوحدة العربية والمصير العربي الواحد ، قال جمال عبدالناصر وهو يتحدث عن الثورة الليبية :

إننا شعب عربي واحد ، وجيش عربي واحد ، ولن يفرق بيننا الاستعمار أو أعوان الاستعمار ، لقد خلقت هذه الأمة ، أمة عربية واحدة ، وستبقى هذه الأمة ، أمة عربية واحدة ..

وفى زيارته لبنغازى المدينة العربية الوجه والقومية القلب والضمير ، تحدث جمال عبدالناصر قائلاً :

لقد خرجت مدينتكم كلها لاستقبالى ، وكان هذا اللقاء من أروع اللقاءات التى رأيتها فى حياتى ، هتافاتكم لى لم تكن أبداً لمناسبة شخصية ، ولكنها كانت تعبر عن الإرادة العربية وعن الأمانى العربية ، هتافاتكم لى هى تحية وهتاف لكل الأحرار ولكل الثوار .. هتافكم هو تحية للصمود والصامدين ، هتافكم هو رفض للاستسلام وتحية للمقاتلين وللصابرين ، هتافكم لجمال عبدالناصر هو هتاف لكل الأمة العربية ، لأننى فرد من هذه الأمة العظيمة ، لقد كانوا يقولون أن ليبيا دولة مستكينة ، وأنها تنكرت للقومية العربية .. (١١٦) .

وكانت ثورتكم ، وكانت لقاءاتى معكم صفقة قوية على وجوههم ، وجوه الأعداء ووجوه الأذئاب ووجوه الخونة ووجوه المتخاذلين ودعاة الاستسلام .. ولقد أراد جمال عبدالناصر أن يحذر خوفاً على مسيرة الثورة وعلى ضوء تجاربه الماضية فقال :

لقد حاول الاستعمار وأعوانه طوال سنوات الثورة أن يفرقوا الأمة العربية ، وأن يبذروا الشكوك فى النفوس ، إن عليكم أنتم ، يا ليبيا الثورة ، أن تعوا الدرس وأن تأخذوا العظة والعبرة ، سيحاول الاستعمار وأعوانه أن يفرقوا بيننا وبينكم ، أرجو من الله لكم الحماية حتى تجنوا ثمار الثورة ، وثمار النضال ..

ويظهر اهتمام الرئيس جمال عبدالناصر بالثورة الليبية من اللحظة الأولى ، وفى هذا الشأن يقول الأستاذ سامى شرف فى حديثه للأستاذ عبدالله إمام ما يلى :

(أصدر جمال عبدالناصر أوامره بأن يكون شعراوى جمعة وأمين هويدى وسامى شرف بالتعاون مع فتحى الديب فى حالة اجتماع مستمر لدراسة تنفيذ ومتابعة ما يخص الثورة الليبية ، على أن يشارك الفريق فوزى فى النواحي العسكرية ، وبدأ تنظيم سكرتارية مجلس قيادة الثورة الليبية على نمط سكرتارية الرئيس للمعلومات فى القاهرة ، ولقد توجهت إلى ليبيا أكثر من مرة لهذا الشأن

(١١٦) ثورة عبد الناصر - شوقى عبد الناصر - ص ٦٢٠ .

علاوة على المشاركة فى تنظيم الحرس الجمهورى كما عينت مصر سفيرا جديدا فى طرابلس هو جمال شعير ..

ولقد كانت مصر تتحمل المرتبات لكبار الخبراء ، وهو ما أعلنه الرئيس جمال عبدالناصر فى أحد الاجتماعات المغلقة للجنة التنفيذية ، قائلا ، إننا لا نريد من الثورة الليبية إلا أن تستقر وتتقدم لتكون دعما للقوة العربية .. (١١٧) .

ويقول الأستاذ أمين هويدى وهو يتحدث عن القوة الرادعة فى مواجهة إسرائيل فى كتابه المعنون (مع عبدالناصر) وكيف كان تصرف القيادة الليبية فى هذا الخصوص ، يقول :

كان لدى إسرائيل السلاح الرادع متمثلا فى الطائرات بعيدة المدى من الفانتوم والسكاى هوك فلو أمكن لمصر الحصول على الطائرة بعيدة المدى أيضا لبطل مفعول السلاح الرادع الإسرائيلى ، وهذه نتيجة حتمية فى إدارة الصراع الذى يعتمد على الردع ، فامتلاك القوتين العظميين الأسلحة الذرية فى مخازنهما أبطل استخدام القوة الذرية ..

ولم تكن الطائرة بعيدة المدى متيسرة لدى مصر فى ذلك الوقت رغما عن محاولتنا المتعددة مع الاتحاد السوفييتى فلم تكن حساباته قد تطابقت مع حساباتنا فى هذا المجال بعد ، كان يخشى بدوره دفع الأمور بأكثر مما تحتل فينجم عن ذلك المواجهة التى يريد تجنبها ..

ولكن تدخل الحظ فجأة وحدثت ثورة الفاتح من سبتمبر فى ١٩٦٩ ليبيا بقيادة الأخ العقيد معمر القذافى وسعى الرجل فى استماتة حتى تيسر له فى أوائل عام ١٩٧٠ الحصول على صفقة فرنسية وافق عليها الرئيس الفرنسى بومبيدو وتعلق بشراء ليبيا مائة طائرة ميراج يتم توريدها على أربع سنوات ، وتم الحصول على عدد من هذه الطائرات وضعت تحت تصرف القيادة المصرية ، وأصبح لدى مصر سلاح رادع فى مقدوره ضرب إسرائيل فى العمق ، وكان هذا من أخطر التطورات الاستراتيجية فى الصراع الدائر ، وأصبحت مصر قادرة على رد الفعل ،

(١١٧) عبد الناصر كيف حكم مصر - عبد الله إمام - ص ٣٢٩ .

وبذلك كسرت القاهرة بفضل سياستها العربية الجناح الآخر من معادلة الردع ، ويرجع الفضل في ذلك إلى معمر القذافي ، وأقول هذا للتاريخ ..

وقد تحدث هنري كيسينجر في كتابه (سنوات البيت الأبيض) عن ذلك أثناء زيارة بومبيدو للولايات المتحدة في نهاية فبراير ١٩٧٠ كيف استقبل الرجل هو وزوجته استقبالا سيئا من العناصر اليهودية لموافقته على عقد تلك الصفقة ويقول بالنص (ولم يكن لدى ليبيا الطيارون الذين يقودون هذه الطائرات وأصبح من الواضح أنها اشترت لدولة أخرى من المحتمل أن تكون مصر) ولم يغفر بومبيدو للولايات المتحدة استقبالها السيئ له مما أثر على العلاقات بين البلدين ، وبذلك أصبح لدينا القدرة على الاعتراض وتساقطت الطائرات الإسرائيلية على ضفتي القناة ، كما أصبح لدينا القدرة على رد الفعل الذي يمكن أن يتضاعف في الأسابيع التالية ، وحينما تم لعبد الناصر ذلك أقدم على أعظم خطوة في إدارة الصراع وهي قبوله لمبادرة روجز .. انتهى) (١١٨) .

ولقد حدث نفس الشيء حتى بعد وفاة جمال عبد الناصر فقد قدمت ليبيا مختلف أنواع الأسلحة من الطائرات والصواريخ وغيرها خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ في عهد الرئيس السادات إيماناً بقومية المعركة وتحرير الأرض والتزاماً بما كان قاله الرئيس جمال عبد الناصر وردده الشعب المصري (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) ومع الأسف فإن إعلام السادات لم يعترف بذلك ..

ولقد تحدث الأستاذ فتحى الديب الذى كان مكلفاً من الرئيس جمال عبد الناصر بالتنسيق مع الليبيين ومباشرة مع أعضاء الثورة لتزويد الجيش الليبى بكل الاحتياجات العسكرية بداية من إعادة تنظيم الجيش إلى توفير المعدات وإلى تنظيم الإدارة المدنية وتوفير الخبرات العسكرية والمدنية التعليمية إلخ كما أمر عبد الناصر فوراً بإرسال قوات مدرعة تحوطاً لأي تطور طارئ وبشكل خاص من جانب القوات البريطانية التى كانت تتمركز فى القاعدة الجوية قرب طبرق والمسماة (العدم) (ملاحظة ، ربما تعنى هذه الكلمة التى تسمى بها القاعدة البريطانية تلك ، باسم آدم ؟ أى أن كلمة العدم الإنجليزية تعنى آدم العربية ..) .

(١١٨) مع عبد الناصر - أمين هويدى - ص ٩٥ .

ونعود إلى ما ذكره الأستاذ سامى شرف فى لقائه مع الكاتب الصحفى الأستاذ عبدالله إمام عن اهتمام الرئيس جمال عبدالناصر بالثورة الليبية حيث قال :

تنفيذا لأمر الرئيس تشكلت جهات ثلاثة للتنسيق وهى ، مكتب الرئيس ممثلا بمكتبى ومكتب وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء ومكتب فتحى الديب ، وفى المقابل اتفق على إنشاء مكتب للخبرة يتبع مجلس الوزراء الليبى ، تتبادل هذه المكاتب فيما بينها ما يتعلق بشئون الخبرة وتتولى التنسيق الإشراف والتنفيذ والمتابعة فى مجالات الإعارات أو الانتداب ..

وكان المهندسون والأساتذة على رأس الخبرات المصرية التى أوفدت إلى ليبيا، وكنت أنا شخصا على رأسها كما قام الدكتور لبيب شقير والمهندس سيد مرعى بدور كبير فى مجال تقديم الخبرة ، وكان لعدد من الخبراء دور مشرف منهم ٧٠ مهندسا وفنيا فى مجال الإسكان و٣٩ مهندسا و٨١ فنيا فى مجال الكهرباء ٣٧٢ طبيبا و ١٥٢ هيئة تمريض و ١٣ فني معمل أشعة فى مجال الصحة علاوة على ٥٣ طبيبا عسكريا للقوات المسلحة الليبية و ٣ مهندسين متابعة و ١٠ مهندسين مرور فى مجال النقل هذا بالإضافة إلى خبراء فى معاينة المطارات وما يتعلق بشئون الطيران المدنى والمراقبة الجوية وفنيون لإدارة الموانئ والتخزين ، وفى مجال المواصلات السلكية واللاسلكية و ١٧ مساعد مهندس وفنيون علاوة على دعم الجهاز المركزى للمحاسبات والخبرات الفنية والقانونية ، علما بأن كل هذه الخبرات كانت تتحمل مصر أعباءها المالية بالكامل الخ .



العقيد معمر مع الرئيس جمال يدا بيد من أجل الوحدة والتقدم ،
لقد قال عبدالناصر إن الله أراد أن يعزّ مصر فأعزّها بثورة ليبيا

علاقة حميمة متبادلة



سبحان الله القادر على كل شئ ، فلقد كان للقاء ثورة الفاتح من سبتمبر مع الثورة الأم ثورة ٢٣ يوليو بالتأكيد كما قال عبدالناصر إعزاز للعرب والمسلمين ، قال (أراد الله أن يعز مصر فأعزها بثورة الفاتح من سبتمبر) وكانت اللقاءات الودية الصادقة تعبيراً أميناً عن المحبة والصدق تلاهما الالتزام القومي والعمل الجاد من أجل الوحدة العربية ...

الثورة الجزائرية ، هذه الثورة ، ثورة الشعب الجزائري شدت انتباه واهتمام وتأيد كل العرب والمسلمين وقتئذ ، كما شدت الثورة الفلسطينية منذ أنشئت منظمة التحرير في عهد الشقيرى إلى عهد أبوعمار وإلى وقت قريب انتباه الرأى العام العربى والإسلامى والدولى ، وقال عنها العرب إنها القضية المركزية ، ولم يتوقف نضال الشعب الجزائرى من تاريخ (مروحة الباي ، وحادث القنصل الفرنسى بيير ديفال سنة ١٨٢٨م مروراً بالأمير عبدالقادر الجزائرى إلى الرئيس أحمد بن بيلا وتحقيق الاستقلال الوطنى) لقد كانت الثورة الجزائرية التى أطلق عليها اسم (ثورة المليون شهيد) كانت هذه الثورة العملاقة تحظى بدعم الرئيس جمال عبدالناصر عسكرياً وسياسياً ومادياً إضافة إلى بقية بعض العرب ، وكانت بلادى (ليبيا) مؤيدة وداعمة وقد لعبت دوراً مشرفاً فى مساندة هذه الثورة من بدايتها إلى أن تحقق الاستقلال الوطنى ، فهى أولاً كانت معبراً آمناً لكل المساعدات التى تأتى من الشرق وتحديدًا من مصر بما فى ذلك جميع أنواع الأسلحة والذخائر والمواد الغذائية والملابس .. إلخ وكانت تتولى نقلها عبر الأراضى الليبية الشرطة الليبية والمنظمات المدنية كلجان نصرة الثورة الجزائرية ، هذه اللجان التى كانت تتواجد فى كل مدينة وكل قرية أو تجمع تجمع المساعدات بدءاً من جلود الأضاحى الى كل ما يتقدم به المواطنون الليبيون الذين لم ييخلوا على إخوتهم الجزائريين ، كذلك كانت الأراضى الليبية مفتوحة وتحتضن ثوار الجزائر فى التدريب والإقامة بل وكان الثوار غالباً ما يشنون هجماتهم على المستعمر الفرنسى من داخل الأراضى الليبية فى الجنوب مما أدى فى بعض الحالات إلى الصدام العسكرى بين القوات الليبية والقوات الفرنسية التى كانت تطارد الثوار داخل الأرض الليبية ، وأذكر أننى سمعت تعبيراً جميلاً من المناضل الرئيس أحمد بن بيلا عندما كان يتحدث عن موقف الليبيين مع الثورة الجزائرية أسعدنى جداً ، قال (أنا والله لا أنسى فضل الليبيين على ثورتنا ما حييت ..) .

وبشأن مصر وموقف جمال عبدالناصر المؤيد والمساند للثورة الجزائرية (حتى أن رئيس وزراء فرنسا السيد جى مولىه قال إن قطع رأس الثورة الجزائرية لا بد أن يكون بضرب عبدالناصر فى القاهرة) فى هذا الخصوص يقول الأستاذ محمد فائق الذى كان مسؤولاً عن الساحة الأفريقية فى كتابه المعنون (عبدالناصر والثورة الأفريقية) ما يلى :

(لقد كان لوقوف الثورة المصرية بجانب ثورة الجزائر والمساعدة والتأييد الكامل الذى أعطاه عبدالناصر لهذه الثورة أثره الكبير فى جذب حركات تحرير أفريقية جديدة إلى القاهرة بعد أن اتخذت الثورة الجزائرية من القاهرة قاعدة أساسية لكى تنطلق منها ..

ومما لا شك فيه أن نجاح الثورة الجزائرية كان عاملا أساسيا فى تصفية الاستعمار الفرنسى من أفريقيا ، فعندما قامت الثورة الجزائرية عام ١٩٥٤م كانت الجزائر بنص الدستور الفرنسى جزءا من الأراضى الفرنسية فيما وراء البحار وكان للجزائر أهمية خاصة لدى فرنسا أولا لكثرة عدد الأوربيين المستوطنين (حوالى مليون وربع المليون) أصبح خمس أسداسهم من مواليد الجزائر نفسها لا يتصورون وطنا آخر لهم غيرها ، وثانيا لقربها من فرنسا وثروتها الضخمة التى يمتلك معظمها المستوطنون الأوربيون ، هذا بالإضافة إلى عامل خاص جعل فرنسا تستमित فى محاولة الاحتفاظ بالجزائر كأرض فرنسية إلا وهى الطريقة المهيمنة التى خرج بها الجيش الفرنسى من الهند الصينية بعد هزيمة (ديان بيان فو) وحرص فرنسا على ألا تفقد هيبتها فى أفريقيا كما فقدتها فى آسيا ..

كانت الجزائر نموذجا للاستعمار الاستيطانى فى أفريقيا ولا يفوقها فى ارتفاع نسبة الأوربيين إلى السكان الأصليين سوى جنوب أفريقيا ، وكان الأفريقيون ينظرون الى هذا النوع من الاستعمار على أنه أبشع أنواع الاستعمار وأكثرها شراسة فى مقاومة الحركات الوطنية التحررية ، فقد كانت التجربة ماثلة فى المجازر التى واجهتها حركة (الماو ماو) فى كينيا ، وكانت نماذج هذا الاستعمار الإستطانى موجودة فى روديسيا وفى جنوب أفريقيا وجنوب غرب أفريقيا بالإضافة إلى كينيا ، لذلك كان للثورة الجزائرية معنى وأهمية خاصة لدى الوطنيين الأفريقيين فى هذه الأقاليم بالإضافة إلى كل المستعمرات الفرنسية والبرتغالية فى أفريقيا حيث كانت كل من فرنسا والبرتغال تعتبرها امتدادا لأراضيها فيما وراء البحار وكانت الثورة الجزائرية بالنسبة لهؤلاء جميعا هى ثورة على هذه الأوضاع جميعا ، ثورة على الاستعمار الإستطانى وثورة على فكرة امتداد الدولة الاستعمارية إلى ما وراء البحار ، انتهى ..) (١١٩) .

(١١٩) عبد الناصر والثورة الأفريقية - محمد فائق - ص ٣٨ - .

وإذا كانت الحكومة الفرنسية بكل ما لها من قوة وخيلاء قد فشلت في القضاء على الثورة الجزائرية صارت تبحث عن مبررات من أجل إلقاء المسؤولية على جهة ما ، بحيث يمكن للمسؤولين الفرنسيين أن يقولوا إنهم لا يحاربون عصابات (كما يقولون) في الصحراء وإنما هناك جهات ودول تقف وراء ما يعانون منه في البلد الذي يعتبرونه جزءا من فرنسا ، وعلى أساس هذا التفكير تقول السيدة نجلاء أبو عز الدين في كتابها القيم في طبعته الإنجليزية ما يلي :

وإزاء حالة الإحباط التي أحاطت بالسلطات الفرنسية فإنها ألقت بمسؤولية الثورة الجزائرية على عبدالناصر وأدى تسلط هذه الفكرة إلى انضمام فرنسا إلى الحرب الثلاثية ضد مصر بأمل أن يؤدي الانتصار على عبدالناصر إلى نهاية الثورة الجزائرية ..

وقدمت مصر مساندة غير محدودة لقضية حرية الجزائر منذ البداية حتى النهاية ، وقال بن بيلا أنه عندما قامت الثورة كان لدى المتمردين ٥٠٠ مسدس وخلال شهر وصلت أول سفينة مشحونة بالأسلحة من مصر ، واستمر التدفق بعد ذلك ، ولم يتوان الرئيس عبدالناصر لقناعته بأن النضال العربي واحد ، لم يتوان عن أن يمد يد العون للجزائر حتى في وقت أزمة السويس عندما كان شبح الغزو الوشيك يخيم على مصر ومما له مضمون رمزي أن السفينة اليونانية (آتوس) التي استأجرتها الحكومة المصرية لحمل السلاح إلى الجزائر أسرها الفرنسيون في ١٦ أكتوبر ١٩٥٦ وهو اليوم الذي اجتمع فيه إيدن وسلوين لويد مع جى موليه وبينو فى باريس واتخذوا القرار النهائى حول الغزو المشترك لمصر الذى خطط له منذ يوليو ، وتم شنه بعد ذلك بأسبوعين ، وقد سحبت القوات الفرنسية من الجزائر التى أريد لها أن تغزو مصر ، وعندما أخذوا رأى (لاکوست) الوزير المقيم فى الجزائر قال (إن كتيبة فرنسية فى مصر تعادل أربع كتائب فى شمال أفريقيا) وكان الجنرال (ماسو) قائد قوات المظلات فى الجزائر على رأس وحدة المظلات الفرنسية التى هبطت فى بور سعيد ، وتضع الكاتبة فى آخر الصفحة هامشا يقول (استمرت مساعدة الرئيس عبدالناصر للجزائر بعد الاستقلال ، وكانت مصر ماتزال مشتبكة فى حرب اليمن بصورة عميقة فى أكتوبر ١٩٦٣ عندما طلب ابن بيلا على وجه الاستعجال العون فى النزاع مع المغرب حول المنطقة المتنازع عليها فى الصحراء ، ورد عبدالناصر سريعا بإرسال عدة سفن محملة بالدبابات لتعويض نقص المدرعات فى القوات الجزائرية التى كان تجهيزها مايزال هو تجهيز قوات

حرب العصابات ، وقد أتاح وصول الدبابات للجزائر الصمود حتى تم الوصول إلى تسوية عن طريق التفاوض ..

وفى بداية العام كان بينو وزير الخارجية الفرنسى قد توقف فى القاهرة لمباحثات مع عبدالناصر حول الجزائر وقد حدد عبدالناصر موقفه بصراحة ، وهو أنه يحس بأن من واجبه كقومى عربى أن يساند استقلال الجزائر ، وقال إنه يرسل الأسلحة للشوار وأنه سيستمر فى هذا ، ولكن تدريب الثوار الجزائريين لا يتم فى مصر ولن يتم فيها مستقبلا ، وأكد أنه مستعد للوساطة وبذل مساعيه الحميدة فى ضوء الاستقلال الجزائري بعد فترة انتقال ، وقد تأثر بينو بعبدالناصر وأقنع موليه رئيس الوزراء بأن يرسل وفدا فرنسيا إلى مصر للقاء القادة الجزائريين وربما كان من الممكن أن تؤدي هذه الجهود إلى نتائج بناءة لو لم تتسرب أنباء هذا اللقاء فى القاهرة الى الصحافة الفرنسية مما دفع رئيس الوزراء المذكور الى سحب وفده .

ولقد استمرت مساعدات وتأييد جمال عبدالناصر ومصر للثورة الجزائرية فى كل المجالات السياسية والعسكرية والإعلامية والمالية إلى أن تحقق استقلال هذا البلد العربى الكبير بجهود رجاله الذين ضحوا بكل شئ من أجل الحرية والكرامة والاستقلال ، استقلت الجزائر بقوة السلاح فى ٢ يوليو ١٩٦٢ م (١٢٠) .

وصارت رافدا قويا للنضال العربى على الرغم من تفجر الخلافات سريعا (مع الأسف) بين رجال تلك الثورة العظيمة مما أثر سلبا على تطورها وإسهاماتها فى الجهد العربى بعدئذ وكانت نتيجة الخلافات انقلابا على الزعيم الكبير الذى ناضل طويلا من أجل الجزائر وهو أحمد بن بيلا ويذكر لخلفه رغم أنه كان زعيم الانقلاب على بن بيلا أنه قاد بجدارة حملة التعريب حيث قطعت الجزائر شوطا كبيرا فى العودة إلى لغتها العربية ...

ولقد واجهت الجزائر المستقلة الكثير من الصعاب والمشاكل تمثلت فى :

أولا : الخلاف بين قادة الثورة إذ أنه عادة ما يحدث الخلاف بين المناضلين عندما ينتهى النضال العسكرى وتبدأ مسيرة العمل السياسى ويمكن القول (جنى المكاسب) إذا صح أن فى العمل السياسى أية مكاسب ..

(١٢٠) عبد الناصر والعرب - نجلاء أبو عز الدين - ص ٤٣٢ .

وثانيا : فى ترتيب الأوضاع الداخلى ذلك أن البلد قد مر بمراحل استعمار بشع وطويل أحدث الكثير من التغيرات الاجتماعية وأوجد اختلافاً فى القيم ..

ثالثا : تنظيم الإدارة الحكومية وهى قائمة على نظام سابق مفروض على البلاد ولا يتناسب مع تقاليد الجزائر بصفة عامة ..

رابعا : الاندفاع بقوة إلى صبغ الصفة العربية على المجتمع الجزائرى الذى أراد له الاستعمار أن يكون على غير صفته العربية الإسلامية وذلك بالتشدد فى تعريب كل شئ ..

خامسا : العمل على خلق علاقات دولية متوازنة بين الجزائر المستقلة فى المجالين الإقليمى والعالمى ..

ولقد نجحت الجزائر فى كثير من هذه الشئون وبدأت مسيرتها المظفرة لولا أنها فى الفترة الأخيرة قد أصيبت بأمراض العالم الثالث ، مع الأسف .



الرئيسان جمال عبدالناصر وأحمد بن بيللا المناضلان من أجل الحرية والوحدة (وابن بيللا مازال حتى الآن وفي كل مناسبة يقول (إنه ناصري) أطال الله في عمره .. وأذكر أنني قد التقيته عديد المرات وهو يتردد على طرابلس التي له فيها ذكريات نضالية وصداقات عديدة عندما كنت أعد كتابي عن (الليبيون والثورة الجزائرية) وسمعت منه الكثير عن الليبيين وكيف أنهم في وقت كانوا فقراء ومحتاجين ومع ذلك فقد كانوا يقدمون كل شئ للثوار والثورة الجزائرية ، وبين كلمة وأخرى يقول ، أنا والله ما حييت لن أنسى فضل الليبيين ، وقال لى إنه ذات مرة بلغ أن هناك وفدا من الكشافة الليبية في الجزائر وكان الوقت ليلا فقرر أن يلتقيهم في نصف الليلة على الرغم من أن المسؤولين عن الأمن حاولوا إقناعه بتأجيل الزيارة لكنه أصر على ذلك كنوع من التبجيل لهؤلاء الشباب الليبيين ، وقال إنه لم يجد الكلمات التي تفي بما أراد أن يقوله عندما التقاهم وقد شد على أيدي كل واحد منهم ..

دور عبدالناصر فى أفريقيا (فى الكونغو) :

فى حديثه عن الدائرة الأولى فى كتاب فلسفة الثورة ، قال عبدالناصر نحن أقوياء ، أقوياء ليس فى علو صوتنا حين نولول ، ولا حين نصرخ ، ولا حين نستغيث ، إنما أقوياء حين نهذاً ، أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقى لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها غيرها رابطة ..

هذا عن الرابطة الأولى التى لا مفر من أن ندور عليها وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ، وهى الدائرة العربية ، فإذا اتجهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية ، وهى دائرة القارة الأفريقية ، قلت دون استفاضة ودون إسهاب ، إننا لن نستطيع بحال من الأحوال - حتى لو أردنا - أن نقف بمعزل عن الصراع المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الأفريقيين ..

لا نستطيع لسبب هام وبديهي ، هو أننا فى أفريقيا ، ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله ..

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسؤوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق القارة العذراء ، ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .. هكذا قال عبدالناصر وعلى ضوء هذا الفهم والتحليل سارت خطواته وبدأ رجاله فى العمل الذى استمر طويلاً ، ولقد قلت إننى أقدم بلدين أفريقيين فى ثورتهم كنموذجين ، وأبدأ بالكونغو ودور عبدالناصر فى هذا البلد أمام دول أوربية مستعمرة ومصالحها راسخة فيه ، ولقد كان لى شرف ترجمة أهم كتاب صدر ومؤلفه كان وزيراً مع القائد الأفريقى (باتريس لومومبا) والكتاب عنوانه (صراع فى الكونغو - مولد دولة أفريقية) وكاتبه يقول :

(تحدث كازافوبو أمام هيئة الأمم المتحدة إذ كان الأمريكيون يسعون إلى إظهاره عالمياً وكان التعاون قد بدأ وثيقاً فى الكونغو بين كل أولئك الذين كانوا

ضد لومومبا ، ولم تكن تلك الدول الصديقة للومومبا بقادرة على أن تمنع كازافوبو أو وفده من التحدث في الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وكانت الولايات المتحدة بهذا تريد أن تضع الأمر في شكله الدستوري ، أي أنها تريد في ظل الاعتبارات الدستورية أن تضع كل عملائها في المواقع التي تخدم مصالحها ، ولذلك جاءت بكازافوبو إلى الأمم المتحدة ليتحدث باسم الكونغو ، وهكذا أيضاً لم تكن حركة الجيش محايدة فعلاً ، وكان كازافوبو يتحدث كرئيس للدولة الكونغولية ، ذلك أنه يحظى بمساعدة أمريكا وغيرها متعاوناً مع الهيئة الدولية التي تنفذ قرار مجلس الأمن الخاص بالكونغو ، وقد قبل الوفد الكونغولي برئاسة كازافوبو في المنظمة الدولية بأصوات ٥٣ ضد ٢٤ وامتناع ١٩ وكان ذلك بتأييد ومساندة أمريكا ، وعلى هذا فإن كازافوبو أصبح في نظر العالم هو الممثل الرسمي والشرعي للحكم الكونغولي ، ومن هنا ، وفي مقابل ذلك ، أصبح كازافوبو عميلاً لأمريكا ، والغرب ومتعاوناً مع جميع أولئك الذين كانوا ضد لومومبا وحكومته الوطنية ، وكان السفير المصري قد أصبح صديقاً شخصياً للومومبا خلال هذه الفترة - بالطبع فهو أي السفير ينفذ ويلتزم بسياسة بلاده المؤيدة للشرعية متمثلة في لومومبا - وكان لومومبا يسعى إلى ضمان مستقبله السياسي ، وإن كان مصيره الشخصي قد أصبح في مهب الريح ، طالما أنه قد وضع تحت الحراسة هو وأولاده وزوجته (١٢٢).

بدأ لومومبا يفكر جدياً في الطريقة التي يمكن بها إخراج أطفاله وزوجته من الكونغو وكانت مصر هي الجهة الوحيدة المأمونة ، والتي يمكن أن تقبلهم ، وكان جمال عبدالناصر هو الرجل الوحيد الذي يمكن أن يتحمل هذه المسؤولية والمخاطرة ، ومن هنا فقد نوقش الأمر مع الدبلوماسيين المصريين ، وجاءت الموافقة فوراً على أن جمال عبدالناصر أمر بعمل أي شيء من أجل تحقيق رغبة لومومبا ، وقرر الدبلوماسيون المصريون أنهم سوف يأخذون المسؤولية على عواتقهم طالما أن حكومتهم قد وافقت على إخراج أسرة لومومبا سرا من الكونغو إلى مصر ، لقد كان ذلك في الحقيقة عملاً كبيراً ومخاطرة رهيبية ، إن كثيراً من الدبلوماسيين الأفارقة المعتمدين الذين كانوا دائماً حول لومومبا ما كان يمكنهم تحمل هذه

(١٢٢) كان لومومبا قد وضع تحت الاعتقال المنزلي وكذلك كازافوبو ، ولكن هذا الأخير كان يستقبل الزوار ويلتقي من يشاء بينما حرم من ذلك لومومبا .

المخاطرة ، أما عبدالناصر فإنه عندما سمع ، قرر بكل سرور أن تتحمل بلاده هذه المسؤولية ، وكلف دبلوماسيه بالعمل الفوري على إخراج أطفال لومومبا من الكونغو ، واستعداد الجمهورية العربية المتحدة لاستقبالهم ، لقد كان جمال عبدالناصر سيدا إذ استطاع أن يقدم مثل هذه الخدمة للسيد لومومبا ..

لقد صفق جميع الزعماء الأفارقة للومومبا ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يقدم له خدمة عندما وقعت المحنة ، وهكذا فإن طفلى لومومبا بعد عدة أيام كانا قد وضعا بواسطة دبلوماسى مصرى على طائرة شركة (سابينا) البلجيكية التى تغادر الكونغو إلى بروكسل (ملاحظة ، الشركة بلجيكية والكونغو تحت الحكم البلجيكي حيث كانت مستعمرة بلجيكية وفى هذا الوقت مازالت تحت السيطرة البلجيكية) والطفلان كانا ملفوفين فى بطانيات ، وكان من المقرر أن تتوقف الطائرة فى عاصمة أوربية على البحر الأبيض المتوسط ، حيث تتغير الرحلة بالنسبة للطفلين ليتوجها إلى القاهرة ، لقد بدأت عملية نقل الطفلين بهدوء وتخطيط ذكى جدا ، سافر الطفلان بأسماء مصرية ، وكان اسم الدبلوماسى الذى تولى العملية هو عبدالعزيز ، وقد نقلا على أساس أنهما طفلاه وكان مقررا للطائرة أن تغادر البلاد بعد منتصف الليل ، ونظرا لأن الطفلين كانا صغيرين فقد كانا نائمين ملفوفين بتلك البطانيات وكانا قد نقلا بواسطة سيارة تحمل لوحة الأمم المتحدة ووضعهما دبلوماسيان مصريان فى المقاعد الخلفية التى كانت قد حجزت قبل وقت من المغادرة ، حاولت المضيضة البلجيكية أن تتأكد منهما ولكن الدبلوماسى المصرى أفهمها أنهما صغيران متعبان ، وإنه لا يريد إيقاظهما وقد ناما لتوهما ، ولحسن الحظ أن المضيضة لم تصر على التأكد منهما ، لقد كانت هذه العملية بالنسبة لأولئك الذين يعملون فيها _ وهى تؤدى تحت سمع جنود الأمم المتحدة _ عملية مؤرقة جدا ، ومقلقة جدا ، لأنها لأى خطأ بسيط سوف تؤدى إلى مشاكل دبلوماسية وتعقيدات سياسية ، بالإضافة إلى منع الأطفال من الخروج ..

لقد تنفس لومومبا الصعداء عندما علم أن طفليه خرجا بسلام من بلادهما ومسقط رأسهما ، وقد وصلا أخيرا إلى القاهرة حيث قابلهما الرئيس جمال عبدالناصر بنفسه عدة مرات ، وهما صغيران لا يدركان من الأمر شيئا ، وبرغم أن جمال عبدالناصر لم يلتق لومومبا من قبل لكنه بالتأكيد شعر بسعادة بالغة إذ تمكن

رجاله من إخراج هذين الطفلين لكى لا يكونا ضحيتى ما يجرى فى الكونغو ، وفى القاهرة علم هذان الطفلان أن والدهما الذى كان قد ظهر سنة ١٩٦٠ قد أعلن رسميا فى ٣٠ يونيو ١٩٦٦ على أنه البطل الوطنى للكونغو ولقد قتل جنود كازافويو لومومبا ومثلوا بجثته ثم رموه فى النهر لكن أبناءه وزوجته عاشوا فى القاهرة برعاية جمال عبدالناصر إلى أن بلغ أطفاله سن الرشد وقد تعلموا فى أرض الكنانة وابن لومومبا الآن يقود حزبا سياسيا فى بلاده (الكونغو) ولا بد أنه يحمل كل مودة وتقدير لعبدالناصر ونظامه .. انتهى .. (١٢٣) .

هكذا كان جمال عبدالناصر لا يتخلى عن المناضلين من أجل الحرية والاستقلال رغم كل شئ ومهما كانت المخاطر أو الصعاب ، وإنقاذ أبناء الزعيم الوطنى الكونغولى (لومومبا) الذى اغتيل بواسطة المخابرات الأمريكية المتعاونة مع المخابرات البلجيكية فى بلاده لم تكن هى العملية الوحيدة التى تحمل مسؤوليتها بشجاعة عبدالناصر ورجاله فى أفريقيا وغيرها ، وما عملية إخراج عبدالحميد السراج من سجن المزة فى سوريا بعد انقلاب الانفصال السورى إلا واحدة من تلك الأعمال البطولية والدالة على قدرة عبدالناصر على هذا العمل ..

ولقد كانت الأعمال كثيرة وعديدة

فى أغلب البلدان الأفريقية غير أننا أردنا أن نقدم أمودجا عن توضحيات جمال عبدالناصر ومصر ورجالاتها خدمة للحرية والنضال وتأكيد ارتباط الثورة المصرية بكل ثورات ونضالات شعوب العالم ، ولو أردنا أن نعدد تلك التوضيحات لما كفانا كتاب أو اثنان ، ونعتقد أن مركز دراسات الأهرام فى القاهرة وقد قدم الكثير من الأعمال الكبيرة من واجبه أن يتولى هذه المهمة ، ولقد رأينا أن دراسات هذا المركز فى تقريره السنوى تتوقف عادة عن الإشارة إلى تلك الأعمال الكبيرة التى قدمتها الثورة المصرية فى عهد جمال عبدالناصر ، ولعل العذر فى ذلك أن الوقت غير مناسب لأسباب (ربما) سياسية يربتها النظام الحاكم فى مصر الآن ، ولهذا فإننا نأمل أن يسعى المركز المذكور إلى أن يحقق هذا العمل الكبير خدمة أولا لمصر والشعب المصرى وثانيا للعرب وأفريقيا ، والمناضلين فى العالم ..

(١٢٣) كتاب الصراع فى الكونغو - تأليف توماس كانزا ترجمة د. عبد الوهاب الزنتانى -

ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .



الصورة للرئيس عبدالناصر وهو يستقبل فى بيته أسرة المناضل باتريس لومومبا يوم ٢٤ يوليو ١٩٦١م وقد أمر بأن تعيش العائلة فى القاهرة بالقرب منه، وظل يرعاها إلى ان تحقق لها أن تعود إلى بلادها بعد زوال أغلب العقبات التى كانت تحول دون ذلك، علما بأن أبناء لومومبا قد أكملوا تعليمهم فى القاهرة على حساب الحكومة المصرية، إضافة إلى كل ما احتاجته عائلة لومومبا طيلة تلك السنوات، ونعلم أن ابن المناضل باتريس لومومبا بعد انتهاء دراسته فى مصر قد عاد إلى الكونغو وهو الآن يقود حزبا سياسيا على طريق والده ..

ويقول السيد محمد فائق الذى كان مكلفا بإفريقيا خلال عهد الرئيس جمال عبدالناصر ما يلى :

(وإذا كنا نسلم بأن الزعماء الذين قادوا ثورة أفريقيا هم جمال عبدالناصر وكينياتا ونيكروما وسيكاتورى وبن بيلو ولومومبا وفيلكس مومى وكواندا وجوشوا نكومو ونيريرى ومانديلا وأميل كابرال ومحمود حربى ، وغيرهم فإننا نستطيع بكل الاطمئنان أن نقول أن جمال عبدالناصر قد لعب الدور الأخطر والأعظم بشهادة التاريخ وشهادة هؤلاء أنفسهم ..

لقد استطاع عبدالناصر أن يرد كل الثقة والكرامة لشعوب أفريقيا التى قهرها الاستعمار وأطبق على أنفاسها قرونا طويلة ، وزرع عبدالناصر فى كل أفريقى ذلك الإحساس بالغزة والكرامة والكبرياء والفخر ، والانتماء للتاريخ وحضارات ذات ماض وذات مستقبل ، فعندما كشفت مصر عن وجهها الأفريقى الصحيح لأول مرة فى تاريخها الحديث بعيدا عن فكرة الإمبراطورية التى ظلت تملأ عقول زعمائنا الوطنيين حقبة طويلة من الزمن ، وأعلن عبدالناصر انتماء مصر للحركة الأفريقية وتحملها العبء الأكبر لحركة التحرر الأفريقى ، وأصبح هذا الانتماء جزءا لا يتجزأ من الشخصية المصرية ، كان عبدالناصر قد أضاف بذلك حضارة مصر العريقة لتصبح رصيда لأفريقيا كلها بجانب حضارتها الزنجية ، وهو شئ كانت أفريقيا فى مسيس الحاجة إليه وهى مازالت فى مرحلة تتحسس فيها جذورها لتستقى منها ما تدفعه به حركتها أمام العالم وفى مواجهة قوى الاستعمار الشرسة ..

وبعد حرب السويس فتح عبدالناصر أبواب المستقبل أمام شعوب القارة التى كانت ترزح تحت نير الاستعمار ، فبانتصار مصر فى معركة تأميم قناة السويس وقضائها على العدوان الثلاثى لم يعد هناك احد يشك أن عهد الإمبراطوريات قد انتهى كما انتهت سيطرة بريطانيا فى مصر ، وهز ذلك صورة بريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال فى أفريقيا هزا عنيفا وزلزل امبراطورياتها التى تداعت بعد ذلك فى سرعة مذهلة ..

فإذا كانت الثورة الفرنسية قد زرعت مبادئ الحرية والإخاء والمساواة عميقة بين شعوب أوروبا وقضت على الإقطاع وامتيازات النبلاء والألقاب ، فإن الثورة

المصرية هى التى أعطت الشعوب الأفريقية القدرة على استخلاص حقوقها وفقا لهذه المبادئ والمعانى العظيمة ، والتى كان تطبيقها يقف دائما خارج حدود المستعمرات حيث كان يصطدم هذا التطبيق بمصالح المستعمرين الأوربيين ..

فعندما قامت الثورة الفرنسية كان طبيعيا ألا تنكر فرنسا حقوق الإنسان التى أعلنتها هذه الثورة على رعاياها فى مستعمراتها ، وكان (دانتون) على حق عندما قال (لقد كان الجميع عبيدا فى حكم البربون المستبد والآن يجب أن يتحرر الجميع ليصبحوا مواطنين فى الجمهورية الفرنسية) ونجح دانتون فى استصدار قانون ينص على اعتبار جميع الرجال الذين يعيشون فى المستعمرات الفرنسية مواطنين فرنسيين دون تمييز فى اللون ، وأن يتمتع هؤلاء بجميع الحقوق والمزايا المنصوص عليها فى الدستور الفرنسى ..

ولكن سرعان ما ألغى هذا القانون فى عهد نابليون ، وقبل أن يصبح له أى آثار عملية ، بل إن وثيقة اتهام دانتون التى أعدها روبسبير احتوت اتهاما بشأن هذا القانون ، فقد اتهم بأنه قدم قانونا يؤدى إلى القضاء على الامبراطورية الفرنسية ، وأنكرت فرنسا بذلك على الشعوب الإفريقية حق الاستمتاع بهذه المبادئ والحقوق التى حاربت هى نفسها من أجل فرضها فى أوربا لتحرير شعوبها المقهورة ..

وجاءت الثورة المصرية لتكون البداية لهذا التحول العظيم وقوته الدافعة بعد أن استطاع عبدالناصر أن يحرر الإرادة المصرية بعيدا عن أى سيطرة أجنبية ، ويجعل من أرض مصر قاعدة للثورة الأفريقية ، كما أصبحت من قبل قاعدة للثورة العربية ، وهكذا شكل التزام مصر بقضايا التحرر العربى والأفريقى قوة إضافية فى مقاومة الاستعمار فى جميع أجزاء القارة الأفريقية حيث كانت تمثل فى هذا الالتزام وحدة النضال ووحدة الهدف ، وشعر كل جزء من أفريقيا أن له سندا قويا وحليفا عنيدا ، فبرزت الثورات فى القارة كما برزت فى العالم العربى ، وأستحق عبدالناصر عن جدارة أن يلقب بمفجر الثورة الأفريقية ..

ويقول محمد فائق توضيحا لموقف عبدالناصر فى أفريقيا بعنوان عبدالناصر يرسل قوات مصرية إلى الكونغو :

بناء على طلب لومومبا قوات من الأمم المتحدة اجتمع داق همرشولد السكرتير العام للمنظمة الدولية (قتل هو الآخر فى الكونغو عندما أسقطت طائرته) اجتمع بمندوبى الدول الأفريقية فى الأمم المتحدة طالبا مساهمة هذه الدول فى القوة اللازمة لحفظ الأمن والنظام فى الكونغو ، وكان الإتجاه فى بادئ الأمر إلى قصر تشكيل هذه القوة على الدول الأفريقية وحدها ..

وصل عبدالناصر طلب الأمم المتحدة كما كانت قد وصلته رغبة لومومبا فى ان تشترك مصر فى القوة التى سترسلها المنظمة الدولية إلى الكونغو ، ولم يتردد عبدالناصر فى الموافقة على هذا الطلب ، واشتركت مصر بالفعل بقوة قوامها كتيبة من قوات المظليين بقيادة العقيد سعد الدين الشاذلى (الفريق رئيس الأركان بعد ذلك) وضعت تحت تصرف القيادة العسكرية للأمم المتحدة فى الكونغو ، وقد جاءت موافقة عبدالناصر السريعة على هذا القرار لأسباب عديدة أهمها :

١- كانت هذه هى المرة الأولى التى يلجأ فيها زعيم أفريقى إلى الدول الإفريقية الأخرى لحماية استقلال بلاده والحفاظ على وحدة أراضيها ، ورغم أن ذلك كان عن طريق الأمم المتحدة فإن تخلقى الدول الإفريقية وخاصة مصر عن تلبية رغبة لومومبا كان يعتبر فى رأى عبدالناصر تجريدا للوحدة الإفريقية من مضمونها الإيجابى ..

٢- كان عبدالناصر يدرك تمام الإدراك أن معركة ضد الاستعمار والإمبريالية ليست بأى حال من الأحوال معركة محلية وإنما هى معركة ممتدة إلى أعماق القارة الإفريقية كما هى ممتدة على طول الوطن العربى وإلى كل مكان يقاوم الاستعمار والسيطرة الأجنبية ، وقد كان هذا خطأ رئيسيا فى فكر عبدالناصر ، كما كانت المواجهة الجريئة لقوى الإمبريالية والاستعمار الجدية منهجا ثابتا فى سياسته باعتبار أن هذه القوى تشكل الخطر الأكبر الذى يهدد البلاد المستقلة حديثا ..

٣- أهمية الموقع الجغرافى فى الكونغو بالنسبة لمصر ، فتأمين منابع النيل هدف من أهداف الاستراتيجية المصرية تضمنته سياسة حكام مصر منذ عرف التاريخ ومنذ عرفت عبارة (هيرودوت الشهيرة) القائلة (مصر هبة النيل) فقد كان عبدالناصر يعرف جيدا أن تأمين منابع النيل لا يتأتى إلا باستقلال الدول

المشاركة معا فى نهر النيل وتخليصها من السيطرة الاستعمارية حتى نستطيع أن نقيم معها علاقات الصداقة وحسن الجوار .

٤ - متاخمة الكونغو لجنوب السودان تجعل له أهمية خاصة ، فمشكلة الجنوب فى السودان والمحاولات المستمرة للانفصال كان يغذيها الوجود الاستعماري فى المناطق المحيطة به ، وكان حل هذه المشكلة مرهوناً بوقف النشاط المعادي للسودان فى الدول المتاخمة ، ولم يمض وقت طويل على وصول قوات الأمم المتحدة إلى الكونغو حتى ظهر خلاف شديد بين لومومبا وبين قيادة هذه القوات، وأرسل لومومبا إلى همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة فى ١٤ أغسطس ١٩٦٠ يتهمه باستخدام القوات الدولية للتأثير فى الصراع الدائر بين كاتانجا والحكومة المركزية ، وأن قيادة الأمم المتحدة فى الكونغو لم تأخذ رأى الحكومة فى إحلال قوات أوربية محل بعض القوات الأفريقية التابعة للأمم المتحدة ، وأنها بتصرفها هذا تحاول أن تجعل نفسها صاحبة السلطة الشرعية فى البلاد، كما هاجم لومومبا السكرتير العام علنا متهما إياه بأنه ينفذ سياسة الدول الاستعمارية .

وكان هذا الخلاف مثيرا لقلق عبدالناصر فهو خلاف بين قيادة الأمم المتحدة التى تتبعها القوة المصرية فى الكونغو والتى تتلقى الأوامر منها وبين لومومبا الذى ذهبت هذه القوات من أجله وبناء على طلبه ، وزاد قلق عبدالناصر عندما أصبح واضحا أن لومومبا يريد المساعدة العسكرية من الدول الأفريقية ولكن بصفة مباشرة هذه المرة وخارج نطاق الأمم المتحدة .. إلخ ما قام به الرئيس عبدالناصر من محاولات إنقاذ لومومبا ..

الثورة الكينية :

الثورة الكينية انفجرت خلال سنة ١٩٥٢ بقيادة (جومو كينياتا) ولقد واجهت فى البداية نفس الصعاب والمعوقات التى واجهت حركات التحرير الأخرى التى سبقتها فى أفريقيا ، صراع وخلافات داخلية ثم تأمر خارجى كاد يؤدى الى فشلها لولا مبادرة عبدالناصر وأجهزته فى دعمها ومحاولة التوفيق بين بعض عناصرها ولقد حاولت بريطانيا قهر هذه الثورة فى مهدها ، ويقول السيد محمد فائق ما يلى :

(لقد بدأت ثورة (الماو ماو) بعد ثلاثة أشهر فقط من ثورة ٢٣ يوليو فى مصر عندما أعلن الإنجليز حالة الطوارئ فى كينيا فى شهر أكتوبر ١٩٥٢ ، وقامت ثورة الماو ماو بين قبائل الكيكوبو والمساى الذين طردهم المستعمر الإنجليزى من أرضهم ليعيشوا فى أحياء قذرة على هامش المدن يعانون من البطالة والحرمان من أى حق فى الحياة الكريمة .

وقد حاول الأوربيون تصوير هذه الثورة على أنها حركة دينية وأنها حركة إرتداد إلى التوحش تتطلب منهم البقاء فى كينيا لإعادة الأفريقيين وقياداتهم إلى حياة التمدين ، وكان هذا كله أبعد ما يكون عن الحقيقة ، فأصل المشكلة يرجع إلى وقت إنشاء الاستعمار الإنجليزى الخط الحديدى بين ممباسه على ساحل كينيا وكامبالا فى أوغندا مارا بنىروبي عاصمة كينيا وهى ما عرف بالأراضى العالية high lands والتي كانت تسكنها قبائل الكيكوبو والمساى وهى قبائل شديدة البأس عرفت بقدرتها الفائقة على القتال .

وقد قام الحاكم الإنجليزى فى ذلك الوقت (السير شارلوت أليوت) بدعوة عدد من العائلات الإنجليزية الغنية الإرسثوقراطية وأغراهم بالإقامة فى كينيا وتملك هذه الأراضى العالية ، وكان هدفه الأساسى حماية الخط الحديدى من تخريب القبائل المعادية ، ثم أصدر أمرا بطرد القبائل الأفريقية من هذه المناطق وأعلن أن كينيا أصبحت بلاد الرجل الأبيض .

وكان الأفريقيون المطرودون من هذه الأراضى يذهبون للإقامة فى مناطق خصصت لهم خارج هذه الأراضى أشبه بالمستودعات البشرية ، وأصبح هؤلاء الذين لم يجدوا أماكن فى هذه المناطق المزدهمة جدا عبيدا فى الأرض التى يملكها البيض ، وأصبح هناك حوالى ربع مليون من هؤلاء العبيد ، وكان يسمح لهم بزراعة ما يقتاتون به فقط مقابل تسخيرهم هم وعائلاتهم فى أرض الملاك البيض ، وكان عقد العمل لهؤلاء يحرر لمدة من سنة إلى خمس سنوات وإذا بيعت الأرض ينتقل عقد العمل إلى المالك الجديد ومن يهرب منهم يمكن اعتقاله وسجنه ، ولزيادة سلطات أصحاب العمل على مستخدميهم كان مفروضا على كل أفريقى بحكم القانون أن يحمل تصريح عمل ، وكان هذا كله مناقضا لعهود أخذتها بريطانيا على نفسها لضمان حقوق الأفريقيين وجعل مصلحتهم هى المصلحة العليا .

وفى مايو ١٩٥٠ قام زعماء اتحاد كينيا الأفريقى الذى كان يرأسه جومو كينيا تا بحملة لجمع توقيعات مليون شخص أفريقى لعرض قضيتهم على البرلمان الإنجليزى ، ثم أرسلوا مندوبين اثنين عنهم يحملون هذه التوقيعات ولكن لم يغير ذلك شيئا من سياسة بريطانيا فى جعل كينيا منطقة استيطان للرجل الأبيض الأوروبى على غرار جنوب أفريقيا .

وردا على ذلك قامت حركة الماو ماو وقبضت السلطات الإنجليزية على جومو كينيا تا ومعه عشرون آخرون فى أكتوبر سنة ١٩٥٢ حيث قدموا إلى المحاكمة التى استمرت تسعين يوما حكم على جومو كينيا تا خلالها بالسجن سبع سنوات مع الأشغال الشاقة ، وبعد شهرين من الحكم تم حل اتحاد كينيا الإفريقى بحجة أن الماو ماو استخدم هذا الاتحاد كغطاء لتنفيذ عمليات العنف والقتل ضد البيض ..

وتبنت مصر قضية الوطنيين فى كينيا فقامت بحملة إعلامية ودبلوماسية مركزة ضد تلك الأعمال الوحشية ، وخصصت إذاعة موجهة للغة السواحيلية باسم (صوت أفريقيا) إلى شعب كينيا وشعوب المنطقة الناطقة بهذه اللغة هاجمت فيها الاستعمار البريطانى بعنف شديد وحملته مسؤولية كل أعمال العنف والإبادة .

وكشفت عن مخطط بريطانيا لجعل كينيا وطنا للبيض ، وقد بدأت هذه الإذاعة كإذاعة سرية فى أول الأمر ، وكان مقرها فى إحدى الثكنات بمنشية البكرى ، وتتبع رئاسة الجمهورية مباشرة ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الإذاعات الموجهة بالإذاعة المصرية ولكن تحت إشراف الشئون الأفريقية برئاسة الجمهورية .

وجعلت مصر قضية الماو ماو وقضية الإفراج عن جومو كينيا تا قضية أفريقية كلها ، بحيث صار موضوع الإفراج عنه مطلبا على مستوى القارة الأفريقية ، وربما كانت هذه القضية أفريقية تأخذ هذا الطابع على مستوى القارة وكان الفضل فى ذلك لمصر .

وأدت بطبيعة الحال هذه الحملة وهذا التأييد إلى توثيق الصلة مع الحركة الوطنية فى كينيا ، وكانت القاهرة أول عاصمة تفتح أبوابها للزعماء الكينيين الوطنيين ، وتمدهم بكل المساعدات الممكنة لتنشيط حركتهم فى داخل كينيا ، وكذلك توصيل صوتهم إلى العالم الخارجى والمحافل الدولية ، فى الوقت الذى كان الإنجليز يجرمون أى نشاط سياسى فى كينيا .

وبعد أن سمح بقيام الأحزاب السياسية في كينيا ، كانت القاهرة أول مكان خارج كينيا تفتح فيه هذه الأحزاب مكاتب دائمة لها ، وتردد خلال هذه المدة أغلب زعماء كينيا المعروفين من أمثال (أوجنجا أودنجا ونجالا و توم ماجويا وجيمس جيشور وجوجف مومبي وغيرهم كثيرون وكان عبدالناصر يلتقى بهؤلاء الزعماء كلما حضروا إلى القاهرة .. انتهى) (١٢٤) .

ولقد استمر التأيد والمساعدات العسكرية والمادية والسياسية والمعنوية المصرية للثورة الكينية إلى أن استقلت هذه الدولة الأفريقية وأجبرت المستعمر البريطاني على الرحيل حيث تولى أبنائها إدارة شؤون بلادهم ، وكان شعار جومو كينيا شيا اسممه (آهورو) قيل أنه يعنى الحرية وعصاة فى رأسها حزمة سبيب يلوح بها فى يده اليمنى ، وأذكر عندما كنت طالبا بالولايات المتحدة الأمريكية أن السفارة المصرية والقنصليات المصرية كانت تقوم بتوزيع شعار جومو كينيا هذا فى كل مكان وخصوصا بين تجمعات الطلبة العرب والأفارقة ، كما إنها كانت تساعد ماليا على إقامة الندوات والمهرجانات تأييدا للثورة الكينية ، ولكن مع الأسف الشديد فإن السيد جومو كينيا بادر فورا وبعد استقلال بلاده بالتعامل مع عدو العرب (إسرائيل) وقام بأول زيارة خارجية لها وكأنه بذلك يعرض اليد التى امتدت إليه أثناء محنته فى السجون ومساعداتها لبلاده !!

وعن مدى تأثير تلك الإذاعة الموجهة إلى كينيا باللغة السواحيلية يقول محمد فائق :

(لقد صادفت الإذاعة الموجهة من القاهرة باللغة السواحيلية إلى كينيا نجاحا كبيرا وكان تأثيرها عظيما فى داخل كينيا ، وأذكر أنه فى أول لقاء لى مع جومو كينيا كان ذلك بعد خروجه من السجن بأسابيع قليلة ، قال لى إن هذه الإذاعة لعبت دورا خطيرا فى كينيا وأنه كان يستمع وهو فى سجنه إليها وكان يستدعى حراسه ليستمعوا معه إلى صوت أفريقيا من القاهرة وأنها كانت تعطيه فى كل مرة يستمع إليها شحنة معنوية كبيرة كما كان يندش لدقة الأخبار والسرعة التى تنتقل

(١٢٤) عبد الناصر والثورة الإفريقية - محمد فائق - ص ٣٦ .

بها هذه الأخبار ، وكانت هذه أول إذاعة توجهها القاهرة إلى أفريقيا بلغة أهلها ، إذا استثنينا الإذاعات التي كان يوجهها راديو القاهرة من قبل إلى جنوب السودان باللهجات الأربع الرئيسية هناك .

وقد وجهت القاهرة بعد ذلك العديد من الإذاعات باللغات واللهجات الأفريقية على غرار الإذاعة السواحلية ، فكانت تذيع إلى غرب أفريقيا بلغات الهوسا واليوريا والباميرا والولوف ، وإلى وسط أفريقيا بلغات النيانجا والشونا والسانديلي واللينجالا ، وإلى جنوب أفريقيا بلغة الزولو ، وإلى شرق أفريقيا بالصومالية والسواحلية والتجريدية وغيرها من اللغات واللهجات الأفريقية الكثيرة علاوة على ان اللغات المستعملة رسميا في مناطق أفريقيا هي الإنجليزية والفرنسية والبرتغالية والإسبانية والعربية ، وكان وراء إنشاء كل إذاعة من هذه الإذاعات قصة ترتبط بتأييد حركة جديدة أو ثورة جديدة ، ومساعدات مصرية تمتد إلى المجالات الأخرى خلاف هذا المجال الإعلامي ، وفي حالات معينة كانت تخصص الإذاعة الموجهة أو جزء منها لتذيع باسم حركة أو تنظيم ولقد حدث ذلك أثناء ثورة الكونغو كما حدث بالنسبة لروديسيا الجنوبية بعد إعلان الاستقلال من جانب النظام العنصري هناك ، وكانت بالنسبة لموزمبيق فقد أعطيت إذاعة لحزب فريليمو (الحزب الحاكم هناك) وذلك بعد أن وصلت الثورة هناك إلى مرحلة متقدمة بقيادة هذا التنظيم .



الزعيم الكيني أوجنجا أودنجا مؤسس الاتحاد الوطني الكيني في لقاء مع الرئيس جمال عبدالناصر (الذي كان يرعى كل القيادات الوطنية الكينية ، وهذا الزعيم كان على اتصال دائم مع عبدالناصر وهو الذي قاد الاتحاد الوطني الكيني أثناء فترة اعتقال جومو كينيا) .



يُرى شعار جومو كينياتا في يده اليمنى وهذا يسميه (اهورو) ولقد كانت السفارة المصرية والقنصليات المصرية في الولايات المتحدة توزع هذا الشعار بين الطلبة العرب والأجانب تأييدا لكفاح كينيا ، ولقد شاهدت هذا بنفسى حيث كنت طالبا هناك فى ذلك الوقت ، ولكن مع الأسف جومو كينياتا لم يحفظ لمصر وعبدالناصر تلك الجهود إذ انه بعد استقلال بلاده قام بأول زيارة للعدو الإسرائيلى ...

٣- وفاة جمال عبدالناصر وضياع الأمل فى الوحدة :

سبحانه الحى الذى لا يموت ...

وصدق نزار قبانى عندما قال (قتلناك يا جبل الكبرياء وآخر قنديل زيت يضى لنا فى ليالى الشتاء) .

لقد كان جمال عبدالناصر حلمنا العظيم قبل أن تقع الفاجعة ويتحول الحلم إلى كابوس سيؤرق حياتنا إلى وقت طويل ، وكان أملنا الكبير فى ظلام تلمس الطريق الذى تحول فجأة مساء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ إلى خواء ويأس فى دنيا العرب .

لقد كان جمال عبدالناصر فى حياتنا الرجل الوحيد الواقف فى مواجهة الزوابع كالطود لا ينحنى ولا يستسلم رغم كل الرياح العاتية ، بعده صار الوضع العربى هزيبا خاويا حكاه ينطبق عليهم قول الشاعر (لم يعرفوا لون السماء لفرط ما انحنت الرقاب) وفاة جمال عبدالناصر أحدثت جرحا كبيرا فى قلوبنا ، لكنها إرادة الله التى لا راد لها .

بوفاة جمال عبدالناصر انحنت الرقاب وتعرى كل شئ وطالت يد إسرائيل لتحرق كل نبتة خضراء فى بلادنا من المحيط إلى الخليج ولأن الألم يعتصر قلوب الملايين من محبى جمال عبدالناصر بداية من عائلته ، أود فى بداية هذا الجزء من الفصل العاشر أن استأذن صديقى رئيس تحرير مجلة الشراع لأنقل نص مقابلة مع خالد عبدالناصر نشرت على صفحات المجلة بمناسبة الذكرى السابعة والثمانين على مولد جمال عبدالناصر وكان النص بعنوان (اليوم الأخير فى حياة عبدالناصر) ذلك أن حديث خالد يظهر مواجع الأسرة التى هى فى نفس الوقت مواجع أمة العرب جراء فقدان رجل الأمة .. قال خالد عبدالناصر :

(فى الأيام الأولى من حقبة الثمانينات التأمت الأسرة فى قاعة السينما بالدور الأرضى من بيت منشية البكرى ، وقاعة السينما بالأصل صالة طعام رئيسية كان يستضيف فيها الرئيس ضيوفه الكبار على موائد العشاء .

جلست أمى تحية كاظم وحدها على كرسى فى الصف الأول وجلست فى الخلف مع زوجتى وكان معنا شقيقاى عبدالحميد وعبدالحكيم بصحبة زوجتيهما ،

كانت أحاديثنا فى ذلك المساء عادية حول بعض شئوننا الاجتماعية ولم نتوقع أننا بصدد حادث عاصف بالمواقع القديمة .

أخذ عامل السينما عبدالعظيم يستعد لعرض شريط سينمائى حديث ولكنه أخطأ فى الشريط وفوجئنا بالعرض يبدأ وصورة أبى على غير انتظار تطل على الشاشة، ومشاهد الملايين الملتاعة تزحف خلف نعشه بأنشودة وداع صاغتها بعفوية (الوداع يا جمال يا حبيب الملايين) الشريط السينمائى عنوانه (أنشودة الوداع) للمخرج على عبدالخالق .

شئ أقرب إلى الصاعقة ضربنا ، أمى غرقت فى بكاء مرير بصوت مرتفع ، ومع بكاء امى أخذتنا الدموع إلى مدى بعيد لم نتصوره منذ لحظات ، وبعد عشر سنوات تقريبا من وفاة أبى ، إننا سوف نذهب إليه ، كأنه مات الآن ، كأننا فقدناه الآن شعرنا بحسرة الفراق، وكما لم يحدث من قبل لم أستطع متابعة الشريط السينمائى وغادرت القاعة مسرعا ، بقميص أزرق وبنطلون رمادى وصندل خفيف فى قدمي ؛ وقف أبى ذات مساء من الصيف الأخير فى شرفة واسعة على يسار استراحة المعمورة فى الإسكندرية ، الاستراحة تواجه البحر مباشرة ، كنا فى مطلع الصبا نلهو على البحر وأبى يتابعنا من بعيد ويتمشى أحيانا فى الشرفة وأحيانا ينزل للتمشى على البحر ، كان (يشاور) لنا من بعيد ، ونرد التحية بحماسة ، كنا متعلقين به بصورة لا تصدق ، كانت مشيته فى الصيف الأخير تبدو عادية أو لعله أراد ، بعناده المعروف ، أن يتحدى المرض وأن يخفى آلامه عنا وأن يبدو طبيعيا ، بدت حالته الصحية بالنسبة لى تحت السيطرة ، لم يكن ما يقلق ولا خطر فى بالنا أن هذه آخر أيامنا مع جمال عبدالناصر ، غير أن ضغط الأحداث عليه من الاستعداد لتحرير الأراضى المحتلة بقوة السلاح إلى مجازر أيلول الأسود أخذ ينال من صحته ويضع قلبه فى مرمى نيران النهاية .

ذات مرة قال لى لن يتركونى أبدا وإن نهايتى إما مقتولا أو سجيناً أو فى مقابر الغفير ، كان يدرك أن القوى العاتية التى حاربها سوف تحاول الانتقام ، ولأن الانتقام سوف يكون مريعا ، وعندما حدثت هزيمة يونيو كان تصوره أن يطالب الناس بشنقه فى ميدان التحرير ، فإذا بالملايين يخرجون مطالبين القائد المهزوم بالبقاء وكما لم يحدث فى التاريخ من قبل .

كنا على مائدة غذاء ذات يوم عام ١٩٧٠ ولسبب ما قلت (مضت ثلاث سنوات) وكنت أتحدث عن موضوع شخصى ، قال وكأنه يحدث نفسه ، ثلاث سنوات ؟ ! كانت هذه السنوات قد مضت على النكسة ، لم ينس أبدا هذا الجرح ، فى ٩ مارس ١٩٦٩ استشهد الفريق عبدالمنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية على جبهة القنال الأمامية ، صدمة عبدالناصر باستشهاد رياض بدت صاعقة ، كان يراهن على (الجنرال الذهبى) فى تحرير أراضينا المحتلة بقوة السلاح (تحت وابل من النيران وأفق مشتعل بالنار) ثقته بالكفاءة العسكرية لرياض كانت بلا حدود لكنه شعر أيضا بالفخر لاستشهاد رئيس أركان القوات المسلحة على جبهة القتال ، مصر تغيرت ونفضت ثياب الهزيمة بإرادة المقاتلين وبدماء الشهداء وهو المعنى الذى التقطه مئات الألوف التى خرجت تودع رياض فى جنازة مهيبة اخترقت ميدان التحرير من جامع عمر مكرم ، أصّر الرئيس على أن يتقدم صفوف الجنازة وتحدى إجراءات الأمن وأزاح رجال الحراسة وذاب فى وسط الجماهير ، كان لديه إيمان صوفى بالجماهير ، يشعر بالتوحد معها وبأنه فى مأمن تماما بحمايتها ، رجال الأمن أصابهم الفزع ، اقترب أحد ضباط الحراسة من الرئيس بصعوبة شديدة وقال يا فندم كفايه كده ، نهره بيده ومضى فى الجنازة حتى نهايتها متأثرا بهتاف الشعب ، (رياض ما متش والحرب لسه مانتهتش) .

حتى الآن ورغم مضى كل هذه السنوات الطويلة يساورنى شعور طاغ بتقصير الأطباء فى علاج الرئيس إلى حد كبير حاولوا إرضاء الرئيس على حساب صحته ، وقد تفرض أجندة الالتزامات أن يلقي خطابا جماهيريا أو يعقد اجتماعا فى ظل أزمة صحية تستدعى أن يستريح ، يقول للأطباء عاوز أروح أخطب فيلتزموا بما طلب دون مناقشة أو اعتراض ، يعطونه مضادات حيوية من أقوى جرعة ممكنة ، وفى اعتقادى أن هذا النوع من العلاج بتسكين الآلام لمقتضيات السياسة هو أقرب إلى سوء استخدام تكنولوجيا المضادات الحيوية وقد أنهك صحة أبى بصورة خطيرة ليس من واجب الطبيب أبدا أن يستجيب لطلبات المريض حتى ولو كان رئيس الجمهورية ، ليس من واجب الطبيب حين يقول له رئيس الجمهورية (تعال إدينى حقنة ريفالين) أن يكون الرد الفورى ، حاضر ، لا أغفر لأطباء عبدالناصر هذا .. انتهى .

إن قلّة من الرجال يحفرون أسماءهم في الزمن ، من هؤلاء بالتأكيد جمال عبدالناصر الذي يقترن باسمه يوم ١٥ يناير من كل سنة إذ إنه يوم مولده ، وتؤكد عظمة عبدالناصر في أذهان المواطنين العرب ليس فقط بسبب إنجازاته الكبرى التي حققها لمصر وللعرب وإنما أيضا بسبب ما جسّده في تاريخ الأمة العربية من عنفوان وكرامة ، وفي إبراز هوية المواطن المصري والتزامه بالقومية العربية وتصديه للتحديات التي تواجه تحقيق الوحدة العربية ، ويظهر دور عبدالناصر أثناء حياته وبعد وفاته في الفراغ الذي خلفه وبات ثقيلًا على ضوء الأوضاع العربية السائدة بعده في كل مكان من الوطن العربي (في لبنان وفي العراق وفي السودان وفي الصومال وفي المغرب العربي إلخ) ولهذا فقد كان حديث خالد عبدالناصر الذي نشر في مجلة الشراع الغراء حيث يستمر في القول :

(إن السيرة الصحية لوالدي ترتبط بتاريخ السياسة أثناء الحصار الاقتصادي الذي فرضه الغرب على مصر حيث أصابه ذلك بمرض السكر عام ١٩٥٨ و نكسة ١٩٦٧ نالت منه مضاعفات السكر بصورة خطيرة ، إرهاب العمل المتواصل في الليل والنهار لتحرير الأراضي المحتلة بقوة السلاح أصابه بأزمة قلب ، وأزماته الصحية كان يمكن باستمرار تداركها ، مضاعفات السكر تمت السيطرة عليها أما الإرهاب وتحدي أوامر الأطباء بالراحة فلا سبيل لتداركهما ، من عرف عبدالناصر في تلك الأيام يدرك بسهولة أنه غير مستعد للنوم مرتاحا أو الاستمتاع بأي شئ قبل إزالة آثار العدوان ..) .

وعن حادث الوفاة وإعلان الخبر على العالم ، يقول خالد ، (بدأت الإذاعة والتليفزيون في بث آيات من القرآن الكريم ، لم يدر أحد بما حدث ، حاولت زوجتي الاتصال بي للاطمئنان ، أخيرا أمكنها الوصول إلى عامل البدالة ، أخبرها وهو يكي (الرئيس مات) قوة الحراسة الشخصية لعبدالناصر وفي مقدمتهم محمد طنطاوي الذي كنا نطلق عليه لقب (الطيب) حملت جثمان الرئيس على نقالة إسعاف بلا غطاء وجهه مكشوف ابتسامة رضا تعلو وجهه ، رائحة الموت كريهة لكنها بدت مسكا ، أمي تابعت الجثمان المحمول على نقالة إسعاف بصراخ رهيب دوى في المكان الذي كان للحظات قليلة مضت المقر الذي تدار منه مصر والصراعات على المنطقة ، قال لها السادات على طريقة أهل الريف في مثل هذه

الأحوال (يا تحية هانم أنا خدامك) مضى أبى أمام عيوننا محمولا على نقالة إسعاف ولم يعد ، لم نره مرة أخرى ، أمى جلست على السلم تنتحب ، حتى الآن مازالت تدوى فى وجدانى كلمات أمى الملتاعة وهى تتابع الخروج الأخير لعبدالناصر من بيت منشية البكرى إلى قصر القبة قبل إعلان الخبر المفجع على رأى العام ، فى مدخل القصر الرئاسى قابلت أنور السادات طلبت منه بإلحاح (عاوز أشوفه يا سيادة النائب) رفض السادات هذا الطلب ، قد تكون له أسبابه ، ربما خشى أن تنفلت مشاعر شاب صغير لرؤية جثمان والده ، ومع ذلك لن أغفر للسادات أبدا أنه لم يمكننى من إلقاء نظرة أخيرة على أبى .

مساء الاثنين ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ نهر الدموع امتد من الماء للماء على خريطة أمة العرب ، فى كل قرية عربية مآثم ، قال المصريون البسطاء (عمود الخيمة سقط) قرأ المصريون فى طوفان الدموع ما سوف يحدث غدا وبعد غد بهتاف (عبدالناصر يا عود الفل من بعدك حشوف الذل) الأناشيد الحزينة أخذت تدوى فى سماء القاهرة التى كانت يومها (عاصمة العرب) و(عاصمة حركات التحرير الوطنى) صرخات ملتاعة تستعيد اسما واحدا لخص كل شئ ، حقبة كاملة من الصعود والانكسار ، النصر والهزيمة ، اسما بدا شهابا قد مضى ، وتاريخا قد مضى ، وإرادة مقاومة لم يعد يعرف أحد ماذا سوف يحدث بعدها ، مات عبدالناصر فجأة ، ولم يكن أحد يتوقع أن يغيب مبكرا فى سن الثانية والخمسين ، الصدمة المروعة هزت مشاعر المصريين ، أخذ الملايين يصرخون باسم رجل يرقد وحده فى غرفة مبردة بقصر القبة .

عندما بدأت الحشود الهائلة من المصريين البسطاء تزحف باتجاه بيت منشية البكرى فور الإعلان عن وفاة الرئيس وقفت عند مدخل البيت مأخوذا بالمشهد الحزين ، شاهدت عن بعد شخصا يرتدى زى طلاب الكلية الحربية الأبيض لم أتبين فى البداية من هو حتى أدركت بعد قليل أنه أخى عبدالحميد أتوا به على عجل من الإسكندرية ، وقف عبدالحميد عاجزا عن دخول البيت من فرط الحشود التى حاصرتة بقلوبها وأحزانها .

كنت قد قاربت العشرين من عمرى يوم وفاة أبى ، علاقاتنا بالجيران فى منشية البكرى حكمتها قواعد أمن الرئيس ومع ذلك لم نشعر يوما بأننا

فى وضع أفضل بكوننا أبناء جمال عبدالناصر ، ولا هو نفسه كان يسمح بأية ميزات لأبنائه ، وذات مرة قال لى (لو استخدمت اسمى للإساءة إلى أحد أو تجاوز فى التصرف فلن أتردد فى وضعك فى السجن الحربى) فى هذا اليوم الحزين طلب جيراننا من أطقم الحراسة رؤيتى لتقديم واجب العزاء .. يستمر خالد فى سرد الأحداث التالية، ونكتفى بهذا القدر مما ذكره خالد عبدالناصر عن وفاة والده رحمه الله .. (١٢٥) .

قال عبدالناصر لأطبائه عندما نصحوه بالراحة خلال عقده مؤتمر القمة العربية من أجل وقف القتال بين الفلسطينيين والجيش الأردنى فى عمان (كيف نستريح والناس يموتون فى عمان ؟) .

هكذا كان إحساس عبدالناصر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه ليس فقط من أجل الفلسطينيين وإنما فى كل حالة عربية ، فهو لم يكن ليدخر جهدا لحل قضية عربية أو حادث عربى، وإن كان عبدالناصر بهذه الكلمات قد استراح نهائيا ولاقى ربه راضيا مرضيا ، فقد برهنت ثلاثة تواريخ أو قل ثلاثة أحداث على ذلك وهى :

١ - كون وفاته جاءت فى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م الذى يناسب يوم انفصال سوريا عن مصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م أى تلك الجريمة المنكرة التى قام بها بعض ضباط الجيش السورى المأجورين والتى لا بد أنها حفرت جرحا عميقا فى قلب عبدالناصر .

٢ - توافق هذا التاريخ مع التاريخ الهجرى الإسلامى أى ٢٧ رجب ١٣٩٠ وهو يوم الإسراء والمعراج .

٣ - ويوم حقن الدماء العربية بإيقاف القتال بين المنظمات الفلسطينية والجيش الأردنى فى عمان عندما جمع عبدالناصر الزعماء العرب فى القاهرة ووضع بذلك حدا لتلك المجازر ، وقد توفاه الله عشية انتهاء ذلك المؤتمر أى فى تمام الساعة السادسة والربع بيته فى منشية البكرى يوم ٢٨ سبتمبر وكما قيل (وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تيمة لا تنفع) ولعله يمكن القول أنه فى

(١٢٥) حديث خالد عبد الناصر - مجلة الشراع عدد ١١٦٩ تاريخ ٢٣ يناير ٢٠٠٥ ص ٣٢ .

الوقت الذى كانت فيه الدماء العربية تنزف فى عمان كانت كذلك تنزف من قلب عبدالناصر وقد توقف فى عمان وكذا فى قلب الزعيم ، ولم يكن ذلك هو النزيف الوحيد ولكن هذا القلب الكبير كان ينزف كثيرا مع كل حدث عربى ، فقد نزف إثر حدوث الانفصال السورى سنة ١٩٦١ ، ونزف أكثر عند حدوث نكسة أو هزيمة سنة ١٩٦٧ ، ونزف أكثر كثيرا بسبب المؤامرات الداخلية والخارجية فكيف لا يتوقف ، وبعد تأكد الوفاة ووضعت الترتيبات اللازمة والتي تليق بمكانة جمال عبدالناصر ، ونعاه نائبه وقتذاك السادات بالنص التالى :

(فقدت الجمهورية العربية المتحدة ، وفقدت الأمة العربية ، وفقدت الإنسانية كلها رجلا من أغلى الرجال وأشجع الرجال وأخلص الرجال ، هو الرئيس جمال عبدالناصر الذى جاد بأنفاسه الأخيرة فى الساعة السادسة والرابع من مساء اليوم ٢٧ رجب ١٣٩٠ هجرية الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ م ، بينما هو واقف فى ساحة النضال يكافح من أجل وحدة الأمة العربية ومن أجل يوم انتصارها .

لقد تعرض البطل الذى سيبقى ذكره خالدا إلى الأبد فى وجدان الأمة والإنسانية لنوبة قلبية حادة بدت أعراضها عليه فى الساعة الثالثة والرابع بعد الظهر ، وكان قد عاد إلى بيته بعد انتهائه من آخر مراسم اجتماع مؤتمر الملوك والرؤساء العرب الذى انتهى بالأمس فى القاهرة ، والذى كرّس له القائد والبطل كل جهده وأعصابه ليحول دون مأساة مروعة دهمت الأمة العربية ..

إن اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى ومجلس الوزراء ، وقد عقدا جلسة مشتركة طارئة على إثر نفاذ قضاء الله وقدره ، لإيجاد الكلمات التى يمكن بها تصوير الحزن العميق الذى ألم بالجمهورية العربية المتحدة وبالوطن العربى والإنسانى ، إزاء ما أراد امتحانها به فى وقت من أخطر الأوقات .

إن جمال عبدالناصر كان أكبر من الكلمات ، وهو أبقى من كل الكلمات ، ولا يستطيع أن يقول عنه غير سجله فى خدمة شعبه وأمتة والإنسانية ، مجاهدا عن الحرية ، مناضلا من أجل الحق والعدل ، مقاتلا من أجل الشرف إلى آخر لحظة من العمر .

ليس هناك كلمات تكفى عن عزاء فى جمال عبدالناصر ، إن الشئ الوحيد الذى يمكن أن يفى بحقه وقدره هو أن تقف الأمة العربية الآن كلها وقفة صابرة صامدة شجاعة قادرة ، حتى تحقيق النصر الذى عاش واستشهد من أجله ابن مصر العظيم ، وبطل هذه الأمة ورجلها وقائدها ، ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ - [الفجر : ٢٧ - ٣٠] - .

كانت هذه كلمات نائب عبدالناصر السيد انور السادات التى نعى بها رئيسه جمال عبدالناصر وأذيعت على العالم ، وبعد وفاة عبدالناصر ثارت وأثيرت نقاشات وخلافات كثيرة بين الرجال المقربين منه بما فيهم نائبه أنور السادات ، وكان الجدل قائما حول مستقبل العمل السياسى وترتيب الأوضاع الداخلية ، ومن المعروف أن الخلافات كانت مستترة إذ كان الفيصل فى كل الأمور وجود عبدالناصر بين كل الأطراف ، والآن وقد اختفى عبدالناصر صار كل طرف يبحث عن مكان يقف فيه مسيطرا على جزء من نظام الحكم إن لم يكن كله ، وفى نظر مجموعة المحيطين بعبدالناصر قبل وفاته أن السادات رجل ضعيف أو متساهل وبالتالي يمكن السيطرة عليه وتسييره ، ونجد السيد أمين هويدى يسجل تلك التطورات ومجريات الأمور بعد وفاة الرئيس عبدالناصر مباشرة فى كتابه المعنون (مع عبدالناصر) باعتباره كان وزيرا فى حكومته بعد النكسة ، يقول :

(ثلاث استقالات ، ترتيب نقل السلطة ، الكل عازم على أن تنقل السلطة بأسرع ما يمكن وبطريقة دستورية ، أعد السراشق الكبير فى عابدين ، الوداع يا جمال يا حبيب الملايين ، واختلط الحابل بالنابل ، وقبل باب المقبرة ، ماذا قبل وفاة عبدالناصر ، دموع على جمال ودموع على وفاء الرجال .

وفى الوقت الذى كانت تقدم فيه تلك الاستقالات كان العمل الجاد لإكمال الترشيح لمنصب رئاسة الجمهورية يتم على قدم وساق فاستقر رأى على التالى :

- ١ - يعرض الترشيح على اللجنة التنفيذية العليا يوم السبت ٣ أكتوبر ١٩٧٠ .
- ٢ - يعرض الترشيح على اللجنة المركزية يوم الإثنين ٥ أكتوبر ١٩٧٠ .
- ٣ - دعوة مجلس الأمة لاجتماع غير عادى صباح يوم الأربعاء ٧ أكتوبر ١٩٧٠ .

٤ - يتم الاستفتاء يوم الخميس ١٥ أكتوبر ١٩٧٠ .

٥ - إذا جاءت نتيجة الاستفتاء بنعم يجتمع مجلس الأمة يوم السبت ١٧ أكتوبر ١٩٧٠ ليؤدى رئيس الجمهورية أمام المجلس اليمين الدستورية وفقا للمادة ١٠٤ من الدستور .

وانصرف كل فيما يخصه لبذل كافة جهده حتى يتم نقل السلطة بالطريقة الدستورية فى صورة رائعة وقد تمت كل هذه الخطوات فى دقة أذهلت العالم وكانت محل تعليقات من كافة الجهات الرسمية والصحافة وأجهزة الإعلام العالمية وقد التزم الجميع بالدستور القائم التزاما لا شك فيه ولذا فإن أية محاولات وتقوليات تذكر هنا وهناك عن التشكيك فى قيمة الجهد الذى بذل فى ذلك الوقت أو فى النوايا منها تشويه ضار للصورة الجميلة الرائعة الصادقة التى تمت بها الأمور فى ذلك الوقت .

يواصل السيد أمين هويدى رواية اللحظات الأخيرة قبل إتمام دفن الرئيس عبدالناصر، فيقول :

أرسل أعضاء مجلس الثورة القدامى إلى السيد أنور السادات مذكرة مكتوبة يعرضون فيها إعادة تكوين مجلس الثورة على أساس ديموقراطى ويتولى سيادته الرئاسة وقد وقع هذه المذكرة كل من السادة عبداللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين وحسن إبراهيم وكمال حسين ، ورفض السيد أنور السادات مقابلتهم كطلبهم فى المذكرة وذكر أنه سيكتفى بمقابلة بغدادى لأنه يرتاح إليه دون الآخرين وقد تمت المقابلة ولا أدرى شيئا عما تم فيها .

وأصدر الدكتور عزيز صدقى بيانا إلى العمال قال فيه (لقد ناضل جمال عبدالناصر طوال حياته فى سبيل تدعيم الاشتراكية فى بلادنا ليحقق لكل مواطن الكفاية والعدل وعندما كان يطبق هذه المبادئ فإنما كان فى ذلك نفذا لإرادة هذا الشعب ومعبرا عن آماله وأحلامه ، ولقد سار خلف جمال عبدالناصر أعوان له ساهم كل منهم بنصيبه فيما رأى جمال عبدالناصر أنه قادر عليه ، وهناك من تخلف بعد جزء من الطريق وهناك من أكمل الشوط حتى نهايته وكان الشوط الذى لا يرضى الرئيس الراحل عنه بديلا لمن يبقيه معه فى مسيرته إيمانه بالمبادئ

التي نادى بها الشعب ، إيمانه بالاشتراكية ، فى وقت الشدائد يجب أن نتصارع بالحقيقة فهي التي تقينا من الوقوع فى أوهام باطلة ، لن يقود المسيرة ، مسيرة الاشتراكية إلا الذين يؤمنون بمبادئ الاشتراكية ، وإننى أطمئنكم أننا لن نسمح لمن ارتد أو تخلف أو ظن أن الاشتراكية تنتهى بموت عبدالناصر أن يرفع رأسه أو أن يكون له مكان فى مسيرتنا ، إن عبدالناصر فى أثناء حياته أصدر حكمه وعبر عن رأيه فى كل من عملوا معه ، لم يبق معه إلى نهاية الشوط إلا الذين آمن لهم واطمأن إلى أنهم يعتنقون المبادئ الأساسية التى عمل من أجلها وأنهم سيكونون قادرين على الحفاظ عليها ..)

وواضح أن عزيز صدقى فى بيانه هذا يغمز ويلمز أعضاء الثورة القدامى الذين تركوا السلطة أو تركتهم السلطة أيام عبدالناصر ، وقد أثار هذا الأمر عبداللطيف البغدادي فكتب كتابا شديدا وجهه إلى عزيز صدقى وأرسله مع السائق إلى منزله يسبه فيه ويوجه إليه الاتهامات الثقيلة التى وصلت إلى حد السب والقذف إذ تحدث الرجل عن الكذب والانتهازية والرجولة ، بلهجة قاسية وصمم عزيز على الرد إلا أن بعض النصائح المخلصة أقنعتة بالتمسك بالصمت ، وقد اقتنع .

وفى الليلة السابقة على تشييع الجنازة اتفق بعض الأصدقاء على أن نمضى الليلة فى مبنى هيئة قناة السويس بجاردن سيتى على النيل حتى نتفادى أمواج البشر التى كانت قد ملأت الشوارع فقد خرجت الملايين لتشييع زعيمها فى موكب وزحام لم يحدث من قبل ولا أظنه سيتكرر من بعد ..

وانطلق طوفان البشر طول الليل ينشد بصوت واحد مهيب كلمات أغنية حزينة وما لبثنا أن وجدنا أنفسنا ننشد مع المنشدين والدموع تسيل بغزارة مياه النيل الذى يمر أمامنا ، كانت الأغنية :

الوداع يا جمال يا حبيب الملايين .. الوداع

ثورتك ثورة كفاح عشتها طول السنين .. الوداع

أنت عايش فى قلوبنا يا جمال الملايين .. الوداع

أنت ثورة جمرة نذكرك طول السنين .. الوداع

إنت نواره بلدنا واحنا عذبنا الحنين .. الوداع

انت ريحانة زكية لأجل كل الشقيانين .. الوداع

الوداع يا جمال يا حبيب الملايين .. الوداع

وحتى الآن لم يعرف أحد على وجه التحديد كيف انطلق هذا النشيد من كل هذه الألسنة ولا يعرف أحد على وجه التحديد كيف انتشرت بين الملايين ولا كيف حفظوا كلماته وألحانه !!

ومر الليل الثقيل ولم ينم أحد ، كانت الأمة كلها ساهرة تحضر (للموكب الجنائزى) الذى ستشارك فيه فى اليوم التالى ، وامتأأن الشوارع والحدائق والمنازل ، كانت الجمهورية كلها خرجت فى العاصمة وفى الأقاليم لتودع القائد والزعيم ..

وحينما خرجنا فى الصباح الباكر لنعبر (كوبرى قصر النيل) الى أرض الجزيرة حيث يوجد (مقر مجلس الثورة) ظهر لنا أن كل ما خططنا له يصعب علينا تنفيذه ، فلم يكن من الممكن أن نسير عشرات الخطوات التى تفصلنا عن الجسر ولم يكن أمامنا إلا أن نعبّر النيل فى الزوارق إلى الشاطئ الآخر ، وخوفاً من أن يفعل آخرون مثلما فعلناه وما ينجم عن ذلك من خسائر محتملة صدرت التعليمات إلى كل الزوارق بأن تترك الشاطئ الغربى للنيل إلى الشاطئ الشرقى أو إلى وسط النهر الخالد ..

كانت الدقائق تمر وكأنها الساعات والكتل البشرية تمكنت من التسرب رغماً عن نطاقات الأسلاك الشائكة المضروبة فى كل مكان ، كان التسرب قليلاً فى بادئ الأمر ثم ما لبث أن أصبح عاماً وبمرور الوقت أخذت الكتل البشرية الباكية النائحة تطفئ على المكان الذى ستمر فيه الجنازة ، وبعد دقائق من سير الجنازة لم يعد هناك نظام أو سيطرة فقد اختلط الجنود المكلفون بحفظ النظام بباقي طوائف الشعب ولم يعد فى إمكان أحد أن يسيطر على النظام ..

وكان من الصعب على الرؤساء الذين يشيرون الجنازة أن يستمروا فى تأدية الواجب الثقيل حتى نهايته ولم يكن من المناسب أن تتكبد الوفود الأخرى كذلك

المشقة الهائلة التى أخذت تتصاعد عند وصول الجنازة إلى كوبرى قصر النيل ، فأشير على هؤلاء بأن يعودوا مرة أخرى إلى السرادق وقد فعل البعض منهم ذلك وأصر الكثيرون على مواصلة السير .. انتهى) (١٢٦) .

وأذكر أن كامل أعضاء القيادة الليبية وقيادات الاتحاد الاشتراكى وأعداد غفيرة من الشعب الليبى قد وصلوا فى نفس الليلة التى أعلن فيها عن وفاة جمال عبدالناصر ، وقد صدر قرار من القيادة الليبية بإعداد كل الطائرات المدنية لنقل الناس مجاناً فى تلك الليلة، كذلك أذكر بينما كنا نسير مع الجنازة وحدث أنه أمام فندق (الهيلتون) كاد الناس أن يختنقوا من الزحام واضطرت السلطات المصرية إلى إنزال قوات الصاعقة للمحافظة على الجثمان ، وقد أغمى على بعض الناس فى هذه الأثناء ومنهم أحد أعضاء مجلس الثورة الليبية ، واستمر الحشد والزحام وترديد الأغاني الحزينة إلى أن وصل جثمان عبدالناصر منشية البكرى حيث سجد داخل المسجد الذى أقامه بجوار القيادة العامة للقوات المسلحة ، ولا بد أن اختيار هذا المكان له معان خاصة بالرئيس عبدالناصر لأن القيادة العامة للقوات المسلحة كانت أولى الأماكن التى احتلتها قواته ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م ، هذا المكان الذى احتله فى تلك الليلة ليغير وجه التاريخ فى مصر ويقضى على نظام وراثى شاخ وفسد ، شيع إليه شهيدا فى موكب تاريخى لم يكن له مثل فى أى زمن أو مكان ، استقبله شعبه بالورود يوم قام بالثورة وودعه بالورود يوم وفاته ، وهو يرقد هائثاً فى هذا المسجد حتى الآن .

لا تختلف كثيراً تلك الروايات أو الأحاديث التى أدلى بها بعض المسؤولين المصريين وخصوصاً أولئك الذين كانوا قريبين من عبدالناصر خلال سنوات حكمه الأخيرة حول الظروف أو الدوافع التى جعلت الرئيس عبدالناصر يعين أنور السادات نائباً فى حين كان هناك نائب آخر للرئيس هو السيد حسين الشافعى هذا الرجل الذى أثبت فيما بعد أنه أخلص وأصدق الرجال فى وقت تعرض فيه عبدالناصر للتجريح والإساءة والتشكيك من جانب أقرب الناس إليه، ومن المعروف أن السادات كان يتقرب كثيراً إلى الرئيس عبدالناصر على الرغم من أن

(١٢٦) مع عبد الناصر - أمين هويدى - ص ١٢٣ .

عبدالناصر لم يكن يقدره كثيرا بل هو أحيانا يحقره كما قال (انتونى ناتنج) فى كتابه المعنون (ناصر) الطبعة الإنجليزية ، قال عندما سألت عبدالناصر عن وضع السادات معه قال لى تقصد (الحمار الأسود) لكن السادات ظل مع عبدالناصر طيلة فترة حكمه مؤيدا ومناصرا لفكره ورأيه ويروى عنه أنه كان دائما يقول (يا ريس رأيى فى جيبك) وفى كتابه (هذا عمك جمال يا ولدى) الكثير من الإطراء والتزلف ، ولقد أثبت السادات أنه يعرف تماما ماذا يريد بتزلفه ذاك ، ومن المعتاد أن الحكام العرب لا يقربون منهم صاحب رأى أو موقف ، وهذا ما سوف ننظر فيه فى الجزء الرابع من هذا الفصل ..

كذلك فإن دور جمال عبدالناصر فى التاريخ المعاصر فيما نعتقد أنه سيكون ناصع البياض معطرا بروائح الورود على الرغم مما كتب وقيل من طرف أولئك الناس الذين تضررت مصالحهم سواء فى الداخل أو الخارج ، ونرى أنه من المفيد أن نعرض على ما جاء فى صفحات كتاب الأستاذ أحمد حمروش بعنوان (تقييم دور البطل والزعيم) يقول :

(عبدالناصر مات ..

لم يعد صاحب رأى والإرادة .. ومركز حركة الأحداث ..

نام فى صمت أبدى .. وترك الحديث للناس ، مفجر ثورة يوليو وقائد مسيرتها .. مات ، قبل أن ينتهى الطريق وتكتمل القصة فصولا ..

غاب المخرج والمؤلف والبطل .. وبقي المشاهدون .. لم يسدل الستار بعد ..

غاب الزعيم وبقي الشعب ولم تنته قصة ثورة ٢٣ يوليو والدور الذى قام به جمال عبدالناصر .. حفر له مكانا بارزا فى تاريخ مصر .. (ونحن نقول والأمة العربية ..) .

لم يكن جمال عبدالناصر هو البطل الوحيد على خشبة المسرح ، ولكنه كان يلعب دور الفتى الأول الذى جذب الأضواء وسحر الجماهير وتلقى أكاليل الغار ، حتى وقع من الهزيمة القاسية ، ثم نهض كبطل إغريقى يحارب من أجل مجده وحرية وطنه ، فوق أرض روتها الدماء وسط شعب اهتزت ثقته ، ولكنه ظل يبلور

أمله فى هذا الرجل الأسمر القادم من صعيد مصر ، الذى أقام الجمهورية وأصبح أول رئيس منتخب لها بعد حكم الفراعنة والأباطرة والخلفاء والملوك الذى امتد آلاف السنين ..

فرض عبدالناصر نفسه على عصره ، وأصبح الناس فى الخارج يقولون (ناصر) إذا ذكرت (مصر) كان بطلا قوميا ألهب مشاعر العرب ، وساند ثوراتهم التحررية . انتهى) (١٢٧) .

ولنا أن نضيف إلى هذا أن جمال عبدالناصر أقام أول دولة للوحدة عرفت باسم الجمهورية العربية المتحدة شاركه فى قيامها الرئيس السورى شكري القوتلى الذى أصبح يسمى (المواطن العربى الأول) وكان يمكن أن يدخل التاريخ العربى وربما العالمى على أنه شارك فى إقامة دولة الوحدة العربية وانتقل إلى رحمة الله وهو يحمل على صدره وسام شرف العروبة (المواطن العربى الأول) لكنه مع الأسف الشديد نكص على أعقابها وتآمر مع المتآمرين على تلك الوحدة التى شارك فى صنعها ، فقد أيد الانقلاب على الوحدة وفصل سوريا عن مصر .

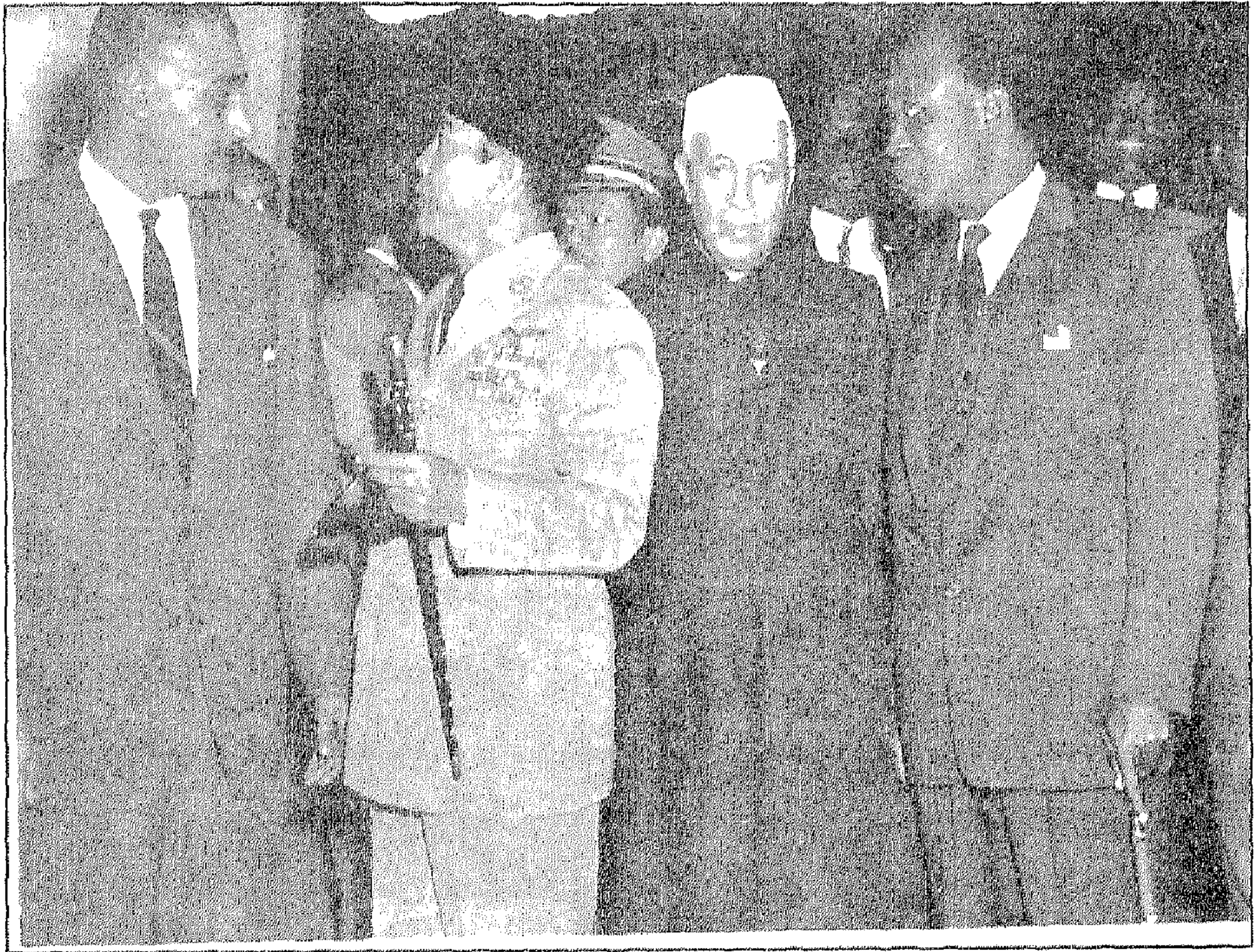
كان جمال عبدالناصر أحد أبطال عدم الانحياز أى أنه أحد الثلاثة الكبار الذين أسسوا تلك الحركة التى كان دورها إيجابيا فى السياسة الدولية وهم (جمال عبدالناصر مصر - جواهر لال نهرو الهند - جوزيف بروز تيتو يوغسلافيا ثم انضم إليهم سوكارنو أندونيسيا) .

ولأن هؤلاء الزعماء الرواد أسسوا حركة عدم الانحياز والحياد الإيجابى فإنما هم بذلك أرادوا خدمة السلام العالمى بخلق هيئة تضع إمكانياتها فى خدمة الشعوب وتقف حائلا بين العملاء العالمين الكبارين (الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية) بحيث لا يحدث ما يعكّر صفو العلاقات الدولية والسلام العالمى ولو بخطأ فى التقديرات العسكرية ، وكانوا يعلمون تمام العلم أن لدى هذين الكبيرين ما يمكن أن يدمر العالم بأكمله عشر مرات ، ومن المعروف أنه بجهود القادة الثلاثة ومعهما بعدئذ الرئيس الأندونيسى قد تمكنوا بجهود صادقة

(١٢٧) قصة ثورة ٢٣ يوليو - أحمد حمروش - ص ٣٨٣ .

من توسيع حركة عدم الانحياز بحيث شملت أغلب دول العالم الثالث المتحررة من الوجود الأجنبي في شكل قوات أو قواعد ، ولابد من الاعتراف لهذه الحركة بأنها لعبت دورا هاما في العلاقات الدولية بل وفض المنازعات هنا وهناك .

ثلاثة قادة من دول العالم الثالث ومعهم نيكروما في اجتماع الأمم المتحدة سنة ١٩٦٠ ، والثلاثة من القادة المؤسسين لحركة عدم الانحياز وهم عبدالناصر وسوكارنو ونهرو ..



- لقد فتح عبدالناصر الباب من أجل مصالح العرب والعالم الثالث للاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية .

- حرر الفلاح المصري من سيطرة الإقطاعيين .

- أسس قاعدة الصناعة الثقيلة المدنية والعسكرية في مصر .

- عمل على تطوير مؤسسة الأزهر الشريف بحيث صارت جامعة الأزهر تضم جميع الكليات بما فيها العلمية .

- قرر مجانية التعليم في جميع مراحل بحيث أصبح ابن العامل والفلاح قادرا على دخول الكليات العسكرية والمدنية .

وباختصار ، لقد عمل عبدالناصر طيلة حكمه الذي (مع الأسف) لم يكن طويلا على خلق المجتمع الجديد هذا داخليا أما خارجيا فقد صار عبدالناصر قائدا عربيا إسلاميا عالميا وكان شامخا لا يطاق طي الرأس ويعترف له كل منصف بأنه قد نذر نفسه للمثل العليا وطهارة حياته الخاصة وتواضعه وصفاته النادرة في زمنه .

ونعود إلى تقييم الأستاذ أحمد حمروش لدور جمال عبدالناصر باعتباره أحد الرجال الذين عاصروه عن قرب .. يقول :

كان جمال عبدالناصر هو القوة الدافعة الرئيسية وراء كل المنجزات والمكاسب ، ولكن الزعيم وحده ، دون محاولة التقليل من دوره ، لا يستطيع أن يقبض على كل الخيوط ، ويعجز مهما كانت قدراته وعظمته إخلاصه ، أن يبني المجتمع وحده .

وجمال عبدالناصر اعتمد في بناء المجتمع الجديد أساسا على الذين يحيطون به من العسكريين ، وتشكلت (أوتوقراطية عسكرية) تربع في قمته بغير منازع ، واختار الطريق السهل الذي يعتمد فيه على القرارات الإدارية ينفذها له مجموعة من العسكريين الذين نشأوا ودربوا في أجهزة الأمن والمخابرات كما أوضحت ذلك في الجزء الثاني (مجتمع جمال عبدالناصر) .

والمعارك السياسية الداخلية التي خاضها اعتمد فيها على القرارات الداخلية وحدها ، ألغى الأحزاب جميعا دون أن يفرق بين التي لعبت دورا وطنيا والتي

قامت لخدمة المحتلين والسراى (الوفد وأحزاب الأقلية) وهاجم فكرة الحزبية فى مجتمع كانت الطبقات فيه مازالت تتصارع ، ولكنه احتكر العمل السياسى فى يد تنظيمات ورقية أشرف عليها العسكريون ، ولذا سقطت الحياة السياسية فى فراغ رهيب حتى عام ١٩٦١ .

حاكم الإخوان المسلمين والشيوعيين وبعض رجال الأحزاب السابقين ، ولم يدرك أن هذه الإجراءات الإدارية لا يمكن أن تعنى تصفية سياسية ، فالأفكار لا تقهرها إلا أفكار أخرى والذين ينظمون أنفسهم فى خدمة طبقة لا ينتهى دورهم إلا إذا صفت تماما هذه الطبقة ، أما إذا كانت طبقة لها مستقبل فإن كل الإجراءات الإدارية تنتهى إلى عدم مع الذين ينظمون أنفسهم فى خدمة حقوقها .

وجمال عبدالناصر مثل كل زعيم لابد وأن يتمى إلى طبقة يعبر فى النهاية عن مصالحها .. (١٢٨) .

الواقع أن عبدالناصر لم يتم فى أى وقت من الأوقات إلا إلى الطبقة الفقيرة بل المعدمة، وهى فى مصر طبقة العمال والفلاحين ، ولقد اعترف هو نفسه بذلك وعلنا عندما قال (أنا جمال عبدالناصر أفخر بأن عائلتى لاتزال فى بنى مر تعمل وتزرع وتقلع من أجل عزة هذا الوطن وحرية ، إننى أفخر دائما بأننى واحد من أهالى بنى مر ، وأنا أقول هذا لأسجل أن جمال عبدالناصر نشأ من عائلة فقيرة أعاهدكم أن جمال عبدالناصر سيستمر حتى يموت فقيرا فى هذا الوطن ..) ونقول نعم (لقد مات عبدالناصر وهو فقير من المال وغنى بالكرامة والعزة والطهارة وحب الملايين من الناس .

قال ونردد كذلك من أجل تأكيد هذا الانتماء قوله :

(إن دمتى من دمكم ، وهو لكم ، وسأعيش حتى الموت مكافحا فى سبيلكم، من أجل حريتكم ومن أجل كرامتكم وعزّتكم ..) .

وقال .. (إن الخبز للجميع مقدمة لابد منها حتى تكون هناك حرية للجميع ..) .

(١٢٨) قصة ثورة ٢٣ يوليو - أحمد حمروش - ص ٣٨٤ .

هذا هو جمال عبدالناصر ، ولقد نقلت بعض ما أورد الأستاذ أحمد حمروش لأننى أتفق مع بعض ما انتقد فى شأن موضوع الأحزاب والموقف من بعض قيادات الإخوان المسلمين (على الرغم من أنهم اعتدوا على عبدالناصر وحاولوا قتله) لأننى أعتقد أنه أكبر منهم جميعا وكان يجب أن يترفع عن خطاياهم ويدعوهم إلى قول الله العلى القدير ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ - [الأعراف : ٨٩] - وكذلك أنا أتفق مع الأستاذ حمروش فيما ذهب إليه من أن نظام عبدالناصر اعتمد فى الغالب على العسكر وتلك حالة كل الذين قاموا بانقلابات (علما بأن الأستاذ حمروش نفسه عسكري وشارك فى إنقلاب عبدالناصر ، لكنه على أى حال أشار إلى حقيقة ، وأنا أقرر هنا وعن معرفة ان أغلب العسكريين الذين اعتمد عليهم عبدالناصر كانوا من الكفاءات العسكرية والعلمية وحتى الأدبية (كتاب ومؤرخون وصحفيون الخ) .. ولقد كان عبدالناصر مؤمنا بالقضاء والقدر ولعله كان يحس بين وقت وآخر بدنو أجله حتى أنه قال بعد انتهاء مؤتمر قمة الزعماء العرب فى القاهرة الذى عقد لإنهاء القتال بين الجيش الأردنى والمنظمات الفلسطينية فى سبتمبر سنة ١٩٧٠ وهو يودع آخر حاكم عربى فى المطار (أمير الكويت) .. وقد نصحه بأن يستريح لبعض الوقت فى الإسكندرية .

(أريد أن أنام نوما طويلا ، لن أستريح فى الإسكندرية ، أريد يوما أو يومين من النوم هنا ، وبعدها نفكر فى الإسكندرية .. لقد نام نوما طويلا لا نهائيا رحمه الله .. كما أنه كان يقول فى أكثر من مناسبة أنه لن يعيش طويلا ، ونحن نقول : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ - [الفجر : ٢٧ - ٣٠] - صدق الله العظيم .

ولقد كان جمال عبدالناصر يتابع تطورات الموقف فى عمان أولا بأول وقد كلف سفارته هناك بتزويده بما يطرأ على الساحة ، وبالتالى كانت تنهال عليه البرقيات سواء من عمان أو من وكالات الأنباء العالمية وبقية الأجهزة المصرية ، إضافة إلى أن الخلاف داخل قاعة المؤتمرات بفندق الهيلتون كان على أشده حتى أنه فى رده على ملاحظة أحد الملوك العرب قال (ربما نحن جميعا نحتاج إلى طبيب يكشف علينا ما إذا كنا جميعا مجانين ، أم لا ..)

لقد كان يعاني من الخلافات العربية في المؤتمر ويعاني من المعلومات التي ترد إليه عن الوضع القتالي في عمان ، كما كان حزنه شديدا بشأن الدم العربي الذي ينزف في شوارع عاصمة الأردن ، وكان يردد القول (إن هناك رجالاً وأطفالاً ونساء يموتون ولهذا فنحن في سباق مع الموت) وخلال تسعة أيام كاملة كان يحاول التوفيق بين المجتمعين ، وكان يضغط على أعصابه وهو يتألم ، لكنه كان مصرا على إيقاف نزيف الدم العربي ، ولم يترك الفندق إلا في الساعة العاشرة من مساء يوم الأحد ٢٧ سبتمبر ١٩٧٠ بعد أن تمكن من أن يجعل الجميع يوقعون على اتفاق إيقاف إطلاق النار وفي أولهم الملك حسين وياسر عرفات ، وكان عليه أن يودع الملوك والرؤساء صباح اليوم التالي ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

الصور المقابلة على الصفحات التالية كانت آخر صور تلتقط للرئيس جمال عبدالناصر قبيل انتهاء مؤتمر القمة ، ويرى وهو يقرأ عددا من البرقيات الواردة من عمان ، بعدها ودع آخر حاكم عربي في مطار القاهرة ، وكان ذلك أمير الكويت ، وبصعوبة بالغة ركب سيارته وعاد إلى البيت في منشية البكري ، وكانت تلك آخر أيامه في هذه الدنيا .



وهنا يقرأ البرقيات التي تصله تباعا من السفارة المصرية في عمان ومن وكالات الأنباء العالمية ، ويطلب اتخاذ الإجراءات اللازمة ، وقت الاستراحة القليل ثم يعود إلى جمع الملوك والرؤساء العرب لإبلاغهم عن الوضع وتلك الدماء التي تهدر بلا مبرر ولا عقل ، ولقد استمر هكذا طيلة تلك الأيام المشحونة بالتوتر إلى أن تمكن من جعل الجميع يوقعون ويلتزمون بإيقاف القتال وإيجاد تسوية مرضية .

عبدالناصر في وداع آخر حاكم عربي عند انتهاء مؤتمر القمة العربية وحقن
دماء الفلسطينيين في عمان ، ووداع الدنيا نهائيا .



انتقل جمال إلى جوار خالقه ولقد ودعه الشعب العربي وداع الأبطال ، وظل يمجّده بعد وفاته حتى الآن وربما إلى أمد بعيد لأنه موجود في حياة الناس بما قدم من عمل ، بمنجزاته الكثيرة والعديدة ، هذا على مستوى المواطن العادي الذي كان جمال عبدالناصر منحازا إليه وكانت أغلب أعماله ومنجزاته لصالحه ، أما المثقفون ورجال السياسة والأعمال فإن أغلبهم دائما مع الواقف ولأن جمال عبدالناصر صار نائما تحت الأرض فقد اختلفوا ولم يكن في اختلافهم إلا قلة من المنصفين ، وكثيرون أولئك الذين كتبوا عن جمال عبدالناصر شعرا ونثرا وكلاما عندما كان في الحكم يمجّدونه ويبرزون سجايه الطيبة ، ثم انقلبوا عليه بعد وفاته وقالوا فيه أكثر مما قال مالك في الخمر (كما يقال) وهم من السهل عليهم تبديل جلودهم وقد صاروا يدبّجون القصائد لمن جاء بعده ، الواقع أن تلك هي مصيبة العرب .

وأظن أنه لم يكن بين كل هؤلاء غير شاعر واحد كان صادقا مع نفسه ومع قرائه أو مستمعيه ، ذلك هو الشاعر المبدع نزار قباني ، فقد انتقد عبدالناصر ونظام حكمه نقدا شديدا عندما أحس بألم الهزيمة سنة ١٩٦٧ ورأى أن من واجبه أن يقول كلمته مهما كان الثمن ، ولقد قابل جمال عبدالناصر ذلك النقد الشديد برحابة صدر (والقصة معروفة) ثم كتب نزار قباني أجمل وأعظم قصائده عن جمال عبدالناصر بعد وفاته ، وعن موقف عبدالناصر بعد أن نشرت تلك القصيدة شديدة النقد وعنوانها (هوامش على دفتر النكسة) قال نزار (ولكي يكتمل الفصل عن حزيران ، وعمّا نالني بسببه من صلب ، ورجم ، وتشهير ، وتخوين ، أجد أن الأمانة التاريخية تقتضي أن أسجل للرئيس الراحل جمال عبدالناصر ، موقفا لا يقفه عادة إلا عظماء النفوس ، واللمّاحون ، والموهوبون الذين انكشفت بصيرتهم ، وشفّت رؤيتهم ، فارتفعوا بقياداتهم وتصرفاتهم إلى أعلى مراتب الإنسانية والسمو الروحي ، يوم كانت الدنيا ترعد وتمطر على قصيدتي (هوامش على دفتر النكسة) وكسر الحصار الرسمي الذي كان يحاول أن يعزلني عن مصر ، بتحريض وإيحاء من بعض (الزملاء) الذين كانوا غير سعداء لاتساع قاعدتي الشعبية في مصر ، فرأوا أن أفضل طريقة لإيقاف مدّي الشعري ، وقطع جسوري مع شعب مصر ، هو استعداء السلطة عليّ ، حتى إن أحدهم طالب وزارة الإعلام بمقال نشره في إحدى المجلات القاهرية بحرق كتيبي .. ويستمر نزار في القول ، أن الرئيس عبدالناصر عندما قرأ الرسالة التي بعثها إليه أصدر أمرا نصه :

تلغى كل التدابير التى قد تكون اتخذت خطأ بحق الشاعر ومؤلفاته ،
ويطلب إلى وزارة الإعلام السماح بتداول القصيدة .

يدخل الشاعر نزار قبانى إلى الجمهورية العربية المتحدة متى أراد ، ويكرم
فيها كما كان فى السابق .

ثم يقول نزار ، بعد كلمات جمال عبدالناصر ، تغير الطقس ، وتغير اتجاه
الرياح ، وتفرق المشاغبون ، وانكسرت طبولهم ، ودخلت (هوامش إلى مصر) ..
رحم الله جمال ونزار ، وفيما يلى القصائد :

قتلناك يا آخر الأنبياء

قتلناك ...

ليس جديدا علينا

اغتيال الصحابة والأولياء

فكم من رسول قتلنا

وكم من إمام ...

ذبحناه وهو يصلى صلاة العشاء

فتاريخنا كله محنة

وأيامنا كلها كربلاء ...



نزلت علينا كتابا جميلا

ولكننا لا نجيد القراءة ...

وسافرت فينا لأرض البر

ولكننا .. ما قبلنا الرحىلا ...

تركناك فى شمس سيناء

وحدك ...

تكلم ربك فى الطور وحدك
وتعزى ...

وتشقى ...

وتعطش وحدك ...

ونحن هنا نجلس القرفصاء

نبيع الشعارات للأغبياء

ونحشو الجماهير تبنا وقشا

ونتركهم يعلكون الهواء ...



قتلناك ..

يا جبل الكبرياء

وأخر قنديل زيت

يضىء لنا فى ليالى الشتاء

وأخر سيف من القادسية ...

قتلناك نحن بكلتا يدينا

وقلنا النية ...

لماذا قبلت المجيء إلينا ؟

فمثلك كان كثيرا علينا ...

سقيناك سم العروبة حتى

شبت ...



رميناك فى نار عمان حتى

احترقت ...

أريناك غدر العروبة حتى
كفرت ...
لماذا ظهرت بأرض النفاق
لماذا ظهرت ؟
فنحن شعوب من الجاهلية
ونحن التقلب ...
ونحن التذبذب ...
والباطنية ...
نباع أربابنا فى الصباح
ونأكلهم حين تأتى العشية ...



قتلناك يا حبنا وهوانا
وكننت الصديق وكننت الصدوق
وكننت أبانا ...
وحين غسلنا يدينا .. اكتشفنا
بأننا قتلنا منانا ...
نفضت غبار الدراويش عنا
أعدت إلينا صباننا ...
وسافرت فينا إلى المستحيل
وعلمتنا الزهو والعنفوانا ...
ولكننا
حين طال المسير علينا
وطالت أظافرنا ولحانا

قتلنا الحصانا ...

فتبت يدانا ...



أتينا رليك بعاهاتنا

وأحقادنا وانحرافاتنا ...

إلى أن ذبحناك ذبحا

بسياف أسانا ...

فليتك في أرضنا ما ظهرت

وليتك كنت نبى سوانا ...



أبا خالد يا قصيدة شعر

تقال

فيخضر منها المداد

إلى أين ؟

يا فارس الحلم تمضى

وما الشوط حين يموت الجواد ؟

إلى أين ؟

كل الأساطير ماتت

بموتك وانتحرت شهرزاد

وراء الجنازة سارت قريش

فهذا هشام ...

وهذا زياد ...

وهذا يريق الدموع عليك
 وخنجره تحت ثوب الحداد
 وهذا يجاهد فى نومه ..
 وفى الصحو ..
 يبكى عليه الجهاد ...
 وهذا يحاول بعدك ملكا ...
 وبعدك كل الملوك رماد ...
 وفود الخوارج .. جاءت جميعا
 لتنظم فيك ...
 ملاحم عشق ...
 فمن كفروك ...
 ومن خونوك ...
 ومن صلبوك بباب دمشق ...
 أنادى عليك أبا خالد ...
 وأعرف أنى أنادى بواد
 وأعرف أنك لن تستجيب
 وأن الخوارق ليست تعاد ... (١٢٩) .



ثم كانت المراثية البليغة بعنوان (الهرم الرابع مات) ..

السيد نام

السيد نام

السيد نام كنوم السيف العائد من إحدى الغزوات
السيد يرقد مثل الطفل الغافى .. فى حضن الغابات
السيد نام

وكيف أصدق أن الهرم الرابع مات ؟
القائد لم يذهب أبدا ..

بل دخل الغرفة كى يرتاح
ويصحو حين تطل الشمس
كما يصحو عطر التفاح
الخبز يأكله معنا ..

وسيشرب قهوته معنا ..
ونقول له ..

ويقول لنا ..

القائد يشعر بالإرهاق ..

فخلوه يغفو ساعات ..

يا من تبكون على ناصر ..

السيد كان صديق الشمس

فكفوا عن سكب العبرات ..

السيد مازال هنا ..

يتمشى فوق جسور النيل ..

ويجلس فى ظل النخلات ..

ويزور الجيزة عند الفجر ..

ليلثم حجر الأهرامات ..

يسأل عن مصر .. ومن فى مصر ؟

ويشم أزهار الشرفات ..
ويصلى الجمعة .. والعيد ..
ويقضى للناس الحاجات ..
مازال هنا عبدالناصر ..
فى طمى النيل .. وزهر القطن ..
وفى أطواق الفلاحات ..
فى فرح الشعب ..
وحزن الشعب ..
وفى الأمثال وفى الكلمات ..
مازال هنا عبدالناصر ..
من قال الهرم الرابع مات ؟
يا من يتساءل ، أين مضى عبدالناصر ؟
يا من يتساءل ..
هل يأتى عبدالناصر ؟
السيد موجود فىنا ..
موجود فى أرغفة الخبز ..
وفى أزهار أوانينا ..
مرسوم فوق نجوم الصيف ..
وفوق رمال شواطئنا ..
موجود فى أوراق الصحف ..
فى صلوات مصلينا ..
موجود فى كلمات الحب ..
وفى أصوات مغنينا ..

موجود فى عرق العمال ..
 وفى أسوان .. وفى سينا ..
 مكتوب فوق بناقدنا ..
 مكتوب فوق تحدينا ..
 السيد نام .. وإن رجعت ..
 أسراب الطير سيأتينا .. (١٣٠) .



٤- تطورات الأحداث بعد عبدالناصر :

صراع وخلاف وتناطح ، كما يحدث عادة بين الورثة عندما يختفى القائد أو الزعيم ، وعندما تكون الدولة بلا مؤسسات ديموقراطية راسخة قوية قادرة ، حدثت اجتماعات ومناقشات وتم الاتفاق على من يعتقد أنه الأضعف بين هؤلاء الورثة ليتولى الحكم وبالتالي يتحكم هؤلاء من وراء ظهره ليتقاسموا المنافع ، تولى محمد أنور السادات الحكم ، وظهر أمام مجلس الشعب فى جلسة طارئة رسمية ليلقى أول خطاب يحدد فيه خطه وسياسته ، ركع بطريقة مسرحية أمام تمثال جمال عبدالناصر الذى كان خلفه ، وقال نعاهدك بالسير على طريقك ، فقال البسطاء من المصريين (بالأستيكه) وواصل الحديث .

(لقد جئت إليكم على طريق عبد الناصر وأعتبر أن ترشيحكم لى بتولى رئاسة الجمهورية هو توجيه بالسير على طريق جمال عبدالناصر ، وأيدت جماهير شعبنا فى الاستفتاء العام (بنعم) فإننى سوف أعتبر ذلك أمرا بالسير على طريق جمال عبدالناصر ، وأعلن أمامكم بشرف أننى سأواصل السير فيه على أية حال ، ومن أى موقع ، إن الأيام الماضية فى حياتنا كانت أيام حزن عظيم ، ولكن الأمة الخالدة استطاعت بصمودها الفطرى أن تحول مشاعر حزنها العظيم إلى طاقة قوة

(١٣٠) هذه القصيدة نشرت فى كتاب سنوات مع عبد الناصر - سامى شرف - ص ٧١٢ .

عظيمة ، فخرجت من كل ما عانت بأسرع مما قدر أحد ، وصممت وحسنت فى عبارة قاطعة قائلة فى نفس واحد (طريق جمال) .

أيها الأخوة لقد كنت أفكر طويلا خلال الأيام الأخيرة فيما يمكن أن نقوم به فى مواجهة ما قضت به إرادة الله عز وجل ، وقد وضعت لتفكيرى كله قاعدة واحدة هى أن نبدأ كل تصرف بسؤال محدد هو (ماذا كان يطلب منا لو أنه كان مازال بيننا ؟) وكنت على ضوء معرفتى به ، رفقة ثلاثين سنة ، وزمالة نضال وراءه معركة بعد معركة وفهم صديق لصديق ، كنت أقدر الخطى والمواقع باحثا على النحو ومستلهما ولو كان عبدالناصر بيننا هذه اللحظات لقال لا تحزنوا ولكن تحركوا ، لا تقفوا ولكن تقدموا لا تترددوا ولكن أكملوا الطريق ، وذلك ما فعله شعبنا العظيم ، وذلك ما فعلته تعبيرا عن كل المؤسسات السياسية والدستورية التى تمثل سلطة الشعب .

أيها الإخوة إننى لست بحاجة إلى أن أطيل عليكم فى وصف معالم طريق عبدالناصر ، فأنتم تعرفونه وشعبنا يعرفه وأمتنا العربية تعرفه والدنيا بأسرها تعرفه ، إنه طريق طويل بمسافة آمالنا ، وهو طريق شاق بمقدار ما نواجهه من خطر ، وآمالنا على الأفق عريضة والخطر من أعدائنا وصل إلى احتلال بعضا من ترابنا الوطنى المقدس ، وأريد أن أحدد أمام حضراتكم مجموعة من النقاط أرى لها أهمية خاصة قبل أن نصل إلى مجمل طريق عبدالناصر ، هذه النقاط ذات الأهمية الخاصة هى كما يلي :

أولا : إننا مطالبون بالدرجة الأولى وبكل الوسائل بمواصلة النضال من أجل تحرير كل الأرض العربية المحتلة فى عدوان سنة ١٩٦٧ ، وهى القدس العربية وغزة والضفة الغربية للأردن والمرتفعات السورية وصحراء سيناء ، وذلك مع الحرص الكامل على الحقوق الفلسطينية وعلى استكمال نضال الشعب الفلسطينى فى سبيل أرضه ومن أجل مصيره ، الضمان الحقيقى لهذا الهدف المشروع من نضالنا يتمثل فى مطلب أساسى واحد ، هو تعزيز القدرة القتالية للقوات المسلحة لتكون حماية للسلام القائم على العدل أو أداة لفرضه .

ثانيا : إننا مطالبون بمواصلة النضال من أجل وحدة الأمة العربية ، وأن متناقضات هذه الأمة وتأزمها الطبيعى فى مرحلة الماضى التى تعيشها الأمة لا يجب

أن يلهينا عن جوهر الحقيقة التي طالما نادى بها وعمل من أجلها جمال عبدالناصر وهى أننا أمة عربية واحدة تاريخها واحد ونضالها واحد ومصيرها واحد ..

ثالثا : إننا مطالبون بتحديد أعداء أمتنا تحديدا لا شبهة فيه ، وأعداؤنا هم إسرائيل والصهيونية الدولية والاستعمار العالمى ، ونحن فى صراع مصيرى معهم جميعا وهو صراع لا يستهدف الغزو ولكن يطلب الأمن ، لا يستهدف السيطرة ولكن يطلب الحرية ، لا يستهدف الحرب للحرب ولكن يطلب السلام كما يجب أن يكون السلام .

رابعا : إننا مطالبون بالتمسك بسياسة عدم الانحياز كما علمنا جمال عبدالناصر ، فهى ليست موقفا سلبيا إنما سياسة عدم الانحياز على طريقته هى انحياز لاستقلالنا وانحياز لحریتنا ، وانحياز للسلام وانحياز للتقدم ..

خامسا : إننا مطالبون دواما بأن نذكر ولا ننسى أننا جزء من حركة التحرر الوطنى العظيمة باتجاهها التقدمى المعادى للاستعمار ، وأنها جزء من حركة التقدم العالمى الضخمة ، وأنها شعبنا وأمتنا تيار حضارى مؤثر يعطى ويأخذ ويفعل ويتفاعل .

سادسا : إننا مطالبون أولا وأخيرا بالحفاظ على المكاسب الاشتراكية التى تحققت لجماهير قوى شعبنا العامل ، وبالمضى فى هذا الطريق الذى رسمه وحدده لنا قائدنا جمال عبدالناصر ، وترجمة أمينة لآمال جماهير الشعب العامل وحتمية مصيره ووجوده .

أيها الأخوة بعد هذه الملاحظات أجيء إلى مجمل طريق عبدالناصر ولن نسمعوا فيه منى جديدا وكل ما أفعله فيه هو أن أؤكد عهدا أننى جئت معى إلى هذا المجلس بوثيقة واحدة أودعها فيه وأمشى قائلا لكم هذا برنامجى وهو برنامجى أيضا لأنه إرادة الشعب ، إننى أودع فى هذا المجلس بيان ٣٠ مارس فذلك آخر برنامج متكامل قدمه جمال عبدالناصر لأمتة وصديق عليه جماهير شعبه فى استفتاء عام حر ، واعتمدته طريقا للنضال وامتدادا عضويا للميثاق على ضوء الظروف الطارئة التى واجهت نضالنا ابتداء من يونيو ١٩٦٨ .. انتهى (١٣١) .

(١٣١) مع عبد الناصر - سامى شرف - ص ٧٤١ .

نكتفى بهذا القدر من خطاب السادات فى أول توليته رئاسة الجمهورية العربية المتحدة ، هذا الاسم الذى لغاه فيما بعد ، وهذا البرنامج الذى لم يلتزم بكلمة واحدة منه على الإطلاق وسرى فيما يأتى كيف سارت الأمور بعد هذا الكلام الذى لم يخرج نظريا عن خط سير سياسة عبدالناصر .. والواقع أن ما فعله السادات ينطبق عليه تماما ما قاله الشاعر العربى :

أعلمه الرماية كل يوم

فلما اشتد ساعده رمانى

وكم علمته نظم القوافى

فلما قال قافية هجانى ..

يذكر الأستاذ عبد الله إمام أن المتتبع لمسيرة المجتمع المصرى خلال السنوات التى بدأ فيها السادات يسفر عن وجهه الحقيقى لأحداث مايو يرى أن ما حدث فى تلك السنوات كان انقلابا على ثورة يوليو ، وفى تلك السنوات أجهز السادات على القطاع العام (فى حين كان يتحدث عن الاشتراكية) وبدأ التفكير جديا فى بيعه ، وقد تمت تصفية شركات منه ودخول رأس المال الأجنبى فى شركات أخرى ، وفى تلك السنوات أعلن السادات أن الميثاق وبيان ٣٠ مارس وكل موثيق الثورة التى كان يتمسك بها يجب أن توضع فى المتحف ، بل إنه يتهم على الميثاق فى كتابه (البحث عن الذات) عندما يذكره يقول ، ما أسموه الميثاق ! وفى تلك السنوات لم تتنوع مصادر السلاح وكان الاعتماد على الولايات المتحدة وحدها ، التى قالت بوضوح إنها ستعمل على تسليح إسرائيل لتكون أقوى من كل الدول العربية مجتمعة .

وفى تلك السنوات أيضا كانت سياسة الانفتاح الاستهلاكى وإقامة المجتمع الرأسمالى الطفيلى هى البديل عن الحل الاشتراكى وعن الانجاز الذى تم فى عهد عبدالناصر بإقامة صناعات بمعاونة الشرق والغرب ، وفى عهد السادات أعيدت البنوك الأجنبية والشركات التى خاضت مصر حربا دامية قبل أن تمصرها ، والمتتبع لحركة الضباط الأحرار ، نشأتها وتكوينها ، بل وحركتها ، يعرف أنها قامت للقضاء على الفساد ، ولم يطفح الفساد فى المجتمع المصرى قبل الثورة مثلما طفح فى سنوات ثورة التصحيح (وهذا اسم ثورة السادات فى عهده الأخير) وأهم من ذلك كله ، كانت

ثورة عبدالناصر ردا على السلاح الفاسد وعلى احتلال إسرائيل للأراضي العربية ، وكان الموقف من إسرائيل هو موقف مبدئي وأساسى بالنسبة لثورة يوليو ، وفى ظل ثورة التصحيح أصبحت إسرائيل صديقا وحليفا ، انتهى ..) (١٣٢) .

وما كانت قد نادت به وعملت من أجله فى كل المجالات ثورة عبدالناصر من فكر قومى ونضال قومى على الساحة العربية والإسلامية والدولية تحول فى عهد السادات إلى انقلاب مصر عليه وعلى الأمة العربية وأوحى السادات إلى صحافته وصحفيه بضرورة إبراز الموقف الإقليمى لمصر والابتعاد عن فترة الماضى القريب (المقصود طبعا عهد عبدالناصر) وتبارت تلك الصحف فى الهجوم على كل ما هو عربى ، وأن العرب متخلفون (كأنما مصر أصبحت فى عهد السادات مثل اليابان !) (كما حفل قاموس التصحيح بكثير من التهجم والإساءة للأمة العربية ! ولقد أكدت كل هذه المواقف بأن السادات لم يكن صادقا عندما قال إنه يلتزم بخط ثورة عبدالناصر وقد تحدث عن النضال والتحرير والوحدة العربية فى خطابه أمام مجلس الشعب (مجلس الأمة) وللمفاجأة فقد صار خلال فترة التهجم على العرب يقول أن ٩٩٪ من الأوراق فى يد أمريكا واستتبع ذلك بالقضاء على التعاون المصرى السوفيتى كما طرد الخبراء السوفيت الذين ساهموا فى إعادة بناء القوات المسلحة المصرية وفى الصناعة المصرية بل هو تهادى فى الإساءة إليهم وإلى بلادهم وحتى صناعاتهم وسلاحهم الذى استخدمه الجيش المصرى بكفاءة فى عبور قناة السويس وتدمير خط برليف .

يقول إمام ، إن ما حدث لا يمكن أن يعتبر امتدادا لثورة يوليو (كما زعم السادات فى بداية عهده) ولا تصحيحا لمسارها لأنه انقض على مبادئها الأساسية وإنجازاتها فضلا عن الانقضا على قائدها ، ووصف السادات عبدالناصر بأنه ديكتاتور وهو الذى زرع الحقد والجاسوسية ، وهو بطل المعتقلات والتعذيب وكان هذا الكلام فى ظل الحديث عن الوفاء والقيم وأخلاق القرية ! وفى ظل الثورة الثانية أصبح ذكر اسم عبدالناصر أو الدفاع عنه جريمة ! وقد منعت صورته من التليفزيون حتى فى الإعلانات عن الصحف والكتب وصودرت الأغاني التى

تذكره وسحبت صورته ، وأصبح المؤمنون بفكره منبذين وملاحقين ومطاردين ، ومأجورين ومدعين ، وعملاء ومرتدين لقميص عبدالناصر !!

(وأذكر أنني وقد كنت عضواً في لجنة من لجان الوحدة بين ليبيا ومصر عاصرت وشاهدت الكثير من أوجه ذلك الانقلاب على الناصرية ، وفي سنة ١٩٧٠ كانت اجتماعات تعقد بين لجان تلك الوحدة التي لم تتحقق في فترات متقاربة بين طرابلس والقاهرة وحدث أن تحدث يوم ٢٧ ديسمبر الرئيس السادات أمام أعضاء مجلس الأمة في مصر وهاجم بشدة أولئك الذين قال إنهم يرتدون ثوب عبدالناصر وفي اليوم التالي تم اعتقال عدد كبير من الناصريين بينهم عدد من طلبة جامعة عين شمس وعندما عقد اجتماع اللجنة التي كنت عضواً فيها وتسمى (لجنة التنظيمات السياسية) طالبت بتوضيح الأسباب التي أدت إلى اعتقال الناصريين وخصوصاً الطلبة وتأكيدها لقولي قدمت قائمة بأسماء الطلبة الذين تم اعتقالهم لكن مناقشة طلبى رفضت وكانت النتيجة أنني أخرجت من مصر ومنع دخولي طيلة عهد السادات ، وفي حادثة أخرى وكان اجتماع هذه اللجنة في طرابلس وقد شاركت في هذا الاجتماع إذ أنه لم يكن ممكناً منعى وأنا في بلادى قدم الوفد المصرى فى أول إجتماع للجنة ما أسموه (دليل العمل الوطنى) الذى أرادوه أن يكون بديلاً عن الميثاق ولما رفض الوفد الليبى مناقشة هذا الدليل على اعتبار أن السادات نفسه قال علنا ورسميا إن الميثاق هو دليل الثورة المصرية ، قالوا إن ذلك عهد قد مضى ، بل إن أحدهم وهو (الدكتور) قال إن الميثاق لا يساوى نكله ! ولقد كانت تلك المحادثات من أجل وحدة بين طرفين (ليبيا ومصر) وكل منهما يسير فى إتجاه معاكس تماماً للآخر (واحد وحدوى وواحد إقليمي !!) .

يقول عبدالله إمام ، ولكى تكتمل الصورة لابد أن نطرح رأى السادات نفسه ، ففي ٢ يونيو ١٩٧١ قال السادات إن مجلس الشعب قام بعملية تصحيح وكان هذا هو الجزء الأول من عملية التصحيح التى كان يتطلع إليها قائدنا جمال عبدالناصر ، وفى ١٤ مايو ١٩٧٢ قال إننا بدأنا بتجربة جديدة فى ١٥ مايو وفى ٢٤ يوليو قال إنها حركة تصحيح ، وفى ٢٦ مارس ١٩٧٢ وصفها بأنها تجربة وقال فى بيانه أمام اللجنة المركزية إن مسيرتنا بدأت منذ عبدالناصر بالميثاق وبيان

٣٠ مارس ومضينا إلى أن جاء ١٥ مايو فكانت علامة على الطريق ، وبيان ٣٠ مارس هو الأساس الذى أعطانى فيه الشعب ثقته وانتخبنى على أساسه ، ١٥ مايو هو استمرار للميثاق وبيان ٣٠ مارس ، ١٥ مايو ليس تاريخ ثورة تصحيحية ، ٢٣ يوليو ثورة لا تتجزأ وثائقها ثابتة (الميثاق وبيان ٢٣ مارس) وأضفت إليهما برنامج العمل الوطنى ، وفى ٣ أبريل ١٩٧٤ وصفها أيضا بأنها كانت حركة تصحيح ، وفى سنة ١٩٧٥ وصف السادات أحداث مايو بأنها ثورة ، وفى عيد العمال استخدم لأول مرة كلمة ثورة تصحيح .

ومرة ثانية لابد أن نعود إلى اهتمام السادات بالتاريخ ونحن نذكر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٥ وفى ذكرى جمال عبدالناصر عندما شرح لأول مرة أحداث مايو ، قال ، لعلكم تذكرون أننى كنت أصر على استخدام كلمة حركة ١٥ مايو زمنا طويلا ولكن الآن وقد اكتملت ملامحها يمكننى أن أقول إنها ثورة كاملة بكل أبعادها ، ويوضح السادات فى خطابه يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٥ ملامح الثورة الجديدة بأنها تقوم على سياسة الانفتاح الاقتصادى والانفتاح من نظم اشتراكية مستوردة قائمة على ساق واحدة متورمة بيروقراطية هى القطاع العام إلى اشتراكية مصرية عربية هى اشتراكية الرخاء وأنها أعادت سيادة القانون وألغت جميع الإجراءات الاستثنائية وأقامت المجتمع المفتوح والدولة المصرية ، دولة العلم والإيمان وطردت الخبراء السوفييت ونوعت مصادر السلاح وأنهت خرافة التفوق الإسرائيلى يوم ٦ أكتوبر .

١ - والسؤال هو ، كيف تخلص السادات من أبطال ثورة مايو إذا كانت ثورة بالفعل ؟ فهى إذا كانت ثورة تكون قد أكلت نفسها سريعا فلم تكد تمضى أعوام قليلة حتى تخلص السادات من كل الذين قاموا معه بهذه الثورة ، تخلص من الدكتور عزيز صدقى بعد أن عينه بعد مايو رئيسا للوزراء ، تخلص من محمد عبدالسلام الزيات بعد أن عينه نائبا لرئيس الوزراء ، تخلص من نائبه حسين الشافعى الذى وقف إلى جانبه فى ظروف عصيبة ، كما تخلص من ممدوح سالم بعد أن عينه وزيرا للداخلية ثم رئيسا للوزراء ورئيس بحزب مصر ثم

مستشارا للرئيس ، وتخلص من الفريق محمد أحمد صادق بعد أحداث مايو بشهور قليلة ، وتخلص من سيد مرعى بعد أن عينه أميناً للاتحاد الاشتراكي ثم رئيساً لمجلس الشعب وتخلص من قائد الحرس الجمهوري الليثي ناصف بعد أن منحه رتبة فريق ثم عينه سفيراً بوزارة الخارجية واستخدمه للقبض على كل الذين سجنهم في عملية مايو ثم قتل في لندن بعد أن سقط أو أسقط من الطابق التاسع في منزله في ظروف مازالت غامضة حتى الآن ، وتخلص من النواب الذين قادوا معركة مجلس الأمة وهم يوسف مكاوي وعبدالفتاح جميعه وقدم بعضهم للمحاكمة مثل أحمد يونس ، وتخلص من المدعى العام الاشتراكي الدكتور مصطفى أبوزيد، وتخلص من حافظ بدوي رئيس المحكمة التي حاکمت مجموعة مايو ورئيس المحكمة التي حاکمت مجموعة مايو ورئيس مجلس الشعب .. انتهى) (١٣٣) .

٢- الغريب أن أحداث التاريخ تتكرر وتتماثل ذلك أنه يوم مقتل السادات كان عدد من الذين عاونوه وأيدوه في أحداث شهر مايو داخل نفس السجن الذي كانت فيه مجموعة مايو (وزراء عبدالناصر) وهكذا عادة ما تدور الدوائر على أصحابها .

ولعله من المناسب في عجالة تقييم أحداث تلك المرحلة وما آلت إليه الظروف أو دفعت إليه الأيام والتغيرات السياسية في المنطقة والعالم ، على أننا يجب أن نؤكد ما ليس جديداً وهو أن تغير الحكام يأتي بعده تغير الأحوال والمناصب والرتب الخ :

- أولاً إن مجموعة مايو (وزراء عبدالناصر) لم يكن من المعقول أو المقبول أن يقال أنهم كانوا يريدون الاستيلاء على السلطة مباشرة وإنما هم أرادوا أو اعتقدوا أن السادات رجل ضعيف وبالتالي يمكنهم أن يقودوه كيفما شاءوا ، وعندما قدموا استقالاتهم ربما كانوا يعتقدوا أنها ستثير الرأي العام المصري بحيث يحدث ما توقعوه عن خطأ .

(١٣٣) انقلاب ١٥ مايو - عبد الله إمام - ص ٤٧٦ .

- ولأن تلك المجموعة كانت فى الواقع ومن حيث المناصب تمسك بكل مرافق الدولة كالجيش (وزير الحربية) والبوليس (وزير الداخلية) والتنظيم السياسى (الأمين العام للاتحاد الاشتراكى والمخابرات (مدير عام المباحث) والإعلام (وزير الإعلام) .. إلخ فإنهم لو كانوا أرادوا الاستيلاء على الحكم لكانوا تولوا كل شئ فى ساعات أو دقائق وما احتاجوا لأكثر من إعلان عبر الإذاعة أو التلفزيون .

وعلى أى حال وقد اتجهت الرياح كما أرادها السادات عن يقظة أو غفلة ، عن ارادة او بالصدفة ، فإنه كسب الجولة ، ولابد من التأكيد أن الرئيس السادات كان يعرف تماما ماذا يريد وإلى أين يتجه ليس فقط بعد وفاة عبدالناصر وإنما فى وقت سابق بكثير .

ولابد من الاعتراف أنه استطاع ان يخدع الجميع وهذا ذكاء سياسى يحسد عليه .
ولابد من القول أنه امتلك شجاعة لا مثيل لها فى وقته وضمن تلك الظروف والأيام عندما قرر السفر إلى إسرائيل والتحدث علنا فى الكنيست ، وتلك خطوة جريئة لا يمكن أن يقدم عليها إلا شجاع ومغامر إزاء الحالة النفسية السائدة فى الوطن العربى .

ولابد فى المقابل من القول أنه أساء كثيرا للعرب عندما نزل بمستوى وثقل مصر بالردح والشتائم إلى مستوى دويلات صغيرة ليس لها شأن محلى أو دولى .
كذلك لابد من الإشارة إلى أن موقف الحكام العرب بعد مؤتمر بغداد الذى أسموه (مؤتمر الصمود والتصدى) أنه كان موقفاً هزيباً بل وغيبياً عندما قالوا إنهم سيدفعون مبالغ كذا وكذا لمصر إذا تراجع السادات عن قراره بزيارة إسرائيل وهو الموقف الذى أعطى السادات فرصة أن يقول للشعب المصرى إن الحكام العرب يريدون رشوة مصر وتركيعها ، ولابد من القول أن نظام السادات كان نظاماً فاسداً حيث فتح الأبواب للرشوة والسمسرة والاستغلال بالدرجة الأولى لأسرته وأقاربه والمحيطين به .

ولابد من الاعتراف أن العرب بلا مصر (كائن من يكون الذى يحكمها) لا يمكنهم أن يحاربوا أو يحرروا شبرا واحدا وأنهم لن يعملوا حرباً ولا سلاماً بدليل

أنهم عندما قرروا نقل جامعتهم العربية من القاهرة وقاطعوا مصر لم يفعلوا شيئاً غير وفاة الجامعة وتوقفهم عن عمل أى شئ ، ثم عندما قتل الرئيس السادات (والذين قتلوه هم مصريون ولأسباب مصرية بحتة) أعاد العرب جامعتهم إلى القاهرة وعادوا جميعاً إليها دون أن يتغير شئ من سياسة السادات فى ظل الرئيس الجديد حسنى مبارك ، وما زالت وستبقى سفارة إسرائيل فى القاهرة ، بل يمكن القول أن العرب بعد مرور قرابة ثلاثة عقود من تلك الأحداث صاروا يلهثون وراء الغرب والشرق ولم يحصلوا على واحد من الألف مما حصل عليه السادات فى ذلك الوقت ، وتحديدًا حالة فلسطين والفلسطينيين .

وما قام به السادات كان منسجماً تماماً مع تفكيره وقدراته ، ولأنه أراد أن يحدث شيئاً ما يكون مدوياً قد يعطيه شعبية حتى لو اعتبر نوعاً من التفريط أو شيئاً من ذلك ، ويذكر أنه قال للسيد (كيسنجر) وزير خارجية الولايات المتحدة اليهودى آنئذ أعطونى نصراً أرضى به جنرالات الجيش أعطيك سلاماً ، وهذا يؤكد تطلعه لأن يفعل شيئاً ما يمكنه من تنفيذ ما خطط له ، وهو يدرك تماماً أنه ليس عبدالناصر ، لقد كان عبدالناصر يرفض الحلول الجزئية (كما مر بنا فى هذا الكتاب) لأنه قادر على التأثير على الحكام العرب ولأن ما يقوله فى أى وقت لابد أن يكون له صدى وقبول فى الشارع العربى ، بينما السادات قبل الحلول الجزئية لأنه غير قادر ولأن الوضع العربى فى وقته كان سيئاً ، وقد لجأ إلى كثير من التلفيق والمراوغة كأن يقول نصحنى صديقى الرئيس الرومانى ولذلك أخرت سنة الحسم التى تحدثت عنها وإلخ .

ويمكن القول أن السادات كأى حاكم أثار الكثير من الغبار فى ميدان السباق ولم يعلق طويلاً فى سماء المنطقة ذلك الغبار ، بينما كان جمال عبدالناصر أكبر من حاكم بكل المقاييس ينطبق عليه القول (رجل اتسعت همته لآمال أمته) كما ذكر الأستاذ رشاد كامل فى كتاب صغير الحجم صدر بعنوان (عبدالناصر الذى لا تعرفه) قال :

(فى يوم وليلة دخل جمال عبدالناصر التاريخ _ فى يوم (٢٣ يوليو ١٩٥٢) صار جمال عبدالناصر أسطورة مصرية وعربية وعالمية ، وتصدر اسمه ورسمه وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون ، ومنذ ذلك اليوم وتلك الليلة (٢٣ يوليو ١٩٥٢) احتل عبدالناصر مكانته التاريخية والسياسية والأسطورية .

جاء جمال عبدالناصر فى الوقت المناسب تماما ليحول أحلام البسطاء والفقراء إلى حقيقة ملموسة ، وفى بساطة شديدة ودقة بالغة استطاع المفكر العربى الكبير ساطع الحصرى أن يلخص جمال عبدالناصر فى هذه الكلمات الموجزة البالغة الدلالة عندما قال (رجل اتسعت همته لآمال أمته..) .

لم يخترع جمال عبدالناصر العدالة الاجتماعية وحق الفقراء والبسطاء فى حياة كريمة فقد نادى بذلك عشرات المفكرين وأصحاب الأقلام قبل ظهور جمال عبدالناصر لكنه وحده حولها من مساحة الحلم إلى واقع التطبيق .

وهكذا فى باقى الأحلام والأمانى التى كانت تراود المصريين ،

ولأن جمال عبدالناصر كان حدثا استثنائيا فى حياة مصر فقد كان الخلاف حوله حادا وحادا أيضا ، وما أكثر الكتب والدراسات والمقالات التى صدرت عن جمال عبدالناصر فى حياته وبعد رحيله ، لكنها نسيت أن ترسم لنا صورة جمال عبدالناصر الآخر ، عبدالناصر الذى لا يعرفه أحد !

باختصار عرفنا عبدالناصر الرئيس ولم نعرف عبدالناصر الإنسان ، عرفنا الزعيم ولم نعرف المريض ، عرفنا القائد ولم نعرف الرياضى ، وكأن معرفة عبدالناصر الآخر عيب وفضيحة لا تجوز !

وطوال سنوات حكم عبدالناصر التى امتدت حوالى ١٨ عاما لم نكن نعرف شيئا عن عبدالناصر الآخر ، بعيدا عن هموم السياسة ومشاغل الحكم ورذالات المنصب ! لم نكن نعرف شيئا عن اهتماماته الفنية والأدبية والرياضية ، كانت مصر قد وزعت اهتماماتها الكروية بين الأهلى والزمالك ، ولم يكن سرا أن أغلب قيادات الجيش كانت تتراأس أندية مصر ولم يكن أحد يعرف ، على وجه اليقين ، لمن كان ينحاز عبدالناصر ، الأهلى أم الزمالك ؟

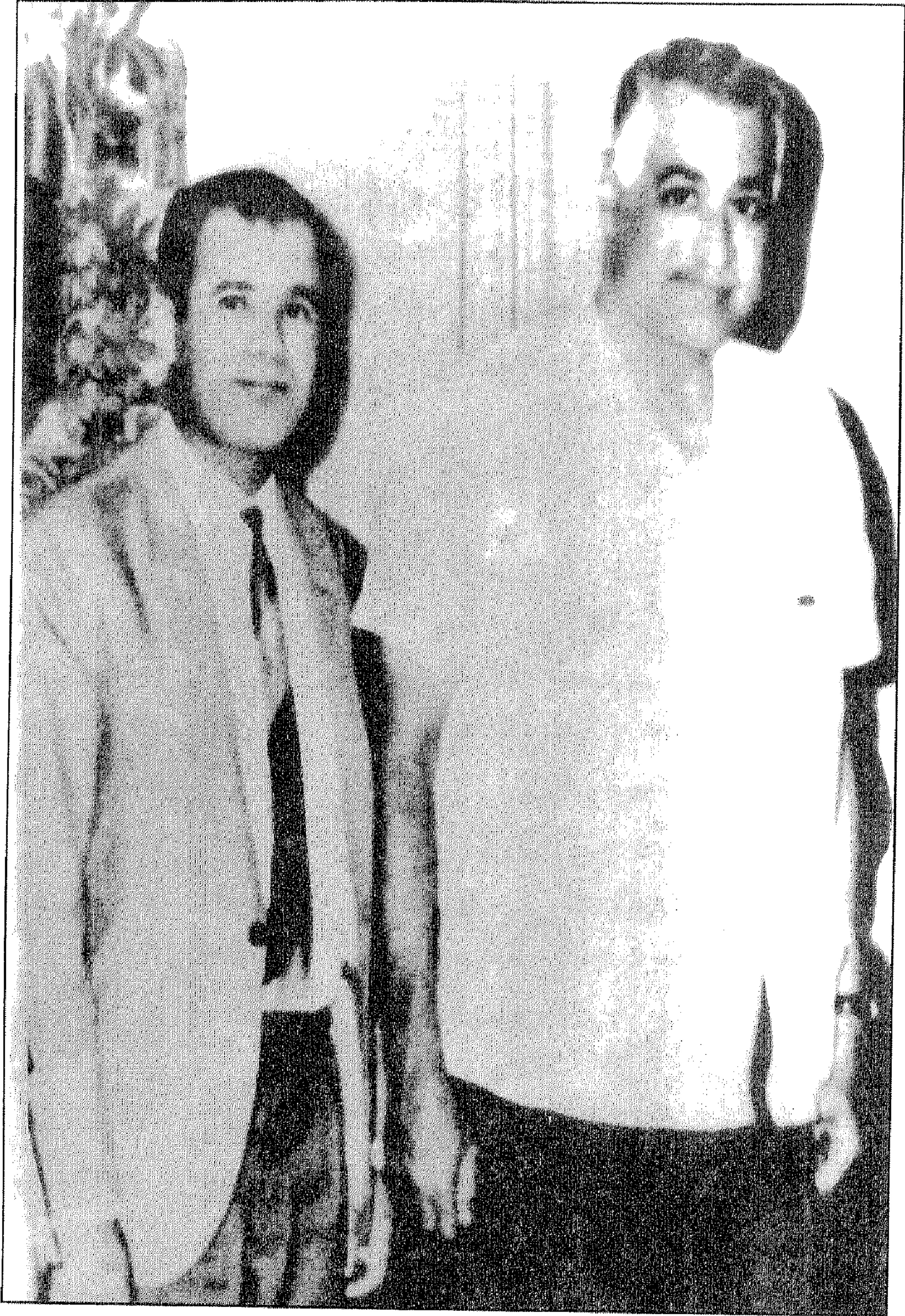
وكنا نعرف عشق عبدالناصر وافتتانه بالفن والسينما ، ولكن لم نعرف أى الأفلام كانت تستهويه أو أى الفنانين كان معجبا بهم ، وسر إعجابه بالسيدة أم كلثوم وانحيازه لعبدالحليم حافظ - أيضا كانت صحة عبدالناصر تدخل فى إطار أسرار الدولة العليا ، فلم نكن نعرف شيئا عن صحة الرجل ، أمراضه ، مم كان يشكو ؟

وهل كان مريضاً نموذجياً يسمع كلام أطبائه دون مناقشة ، وكنا ونحن صغار كثيراً ما نسأل أنفسنا ، هل يأكل عبدالناصر نفس أصناف طعامنا ؟ أم كان يأكل أصنافاً خاصة ؟ وماذا قال وهو يودّع آخر سيجارة ؟ !

لماذا خاصم عبدالناصر الموضة وكان حريصاً على ارتداء البدلة التقليدية ، هل حدث أن رآه أحد وهو يرتدى البيجاما والشبشب ؟ وماذا كان رأيه فى إنشاء حمام سباحة بمنزله ؟

ماذا كان شعور عبدالناصر الأب عندما علم أن ابنه الأكبر خالد ، اعتصم مع طلاب كلية الهندسة عام ١٩٦٨ فى أعقاب أحكام الطيران الشهيرة ؟

وهل صحيح أنه أنشأ جهازاً خاصاً لرصد النكت التى تطلق عليه ؟ ... إلخ ولقد أبرز الكاتب كثيراً من التساؤلات التى يرى أنها تهم القارئ وأجاب على الكثير منها وهو ما أوردنا بعضه على صفحات هذا الكتاب .



المؤلف مع الرئيس عبدالناصر

قائمة تاريخ لصانع التاريخ ورفاقه

- ١- جمال عبدالناصر حسين ولد فى ١٥ يناير ١٩١٨م أسس تنظيم الضباط الأحرار وقاد هذا التنظيم فى ثورة ناجحة حيث غير فى مصر نظام الحكم الملكى وصار رئيس جمهورية بالانتخاب وترجع على قمة التقدير وحب الفقراء والمساكين فى بلاده وفى الوطن العربى، كان ضابطا بسلاح المشاة، شارك فى حرب فلسطين .
- ٢- حسين الشافعى ولد فى سنة ١٩١٨م كان ضابطا بسلاح الفرسان اشترك فى حرب فلسطين ، صار عضوا فى مجلس قيادة الثورة من ٥٢ إلى ٥٦ ثم وزيرا للحربية والبحرية سنة ٥٤ ووزيرا للشئون الاجتماعية من ٥٤ إلى ٦١ فنانبا للرئيس من ٦١ إلى ٦٢ ومن ٦٤ إلى ١٩٧٠ ، توفى فى ٢٠٠٧ .
- ٣- عبدالحكيم عامر ولد سنة ١٩١٩م صار فى مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو من ٥٢ إلى ٥٤ اشترك فى حرب فلسطين .
- عين قائدا عاما للقوات المسلحة المصرية ٥٣ ونائبا أول لرئيس الجمهورية ونائبا للقائد الأعلى من ٦٤ إلى ٦٧ .
- ٤- صلاح سالم ضابط سلاح الفرسان وعضو مجلس قيادة الثورة ٥٢ إلى ٥٤ وزير الإرشاد القومى وشئون السودان ٥٤ إلى ٥٥ توفى سنة ٦٢ .
- ٥- زكريا محبى الدين ولد فى سنة ١٩١٨م عضو مجلس قيادة الثورة من ٥٢ إلى ٥٤ مدير المخابرات العسكرية وزير الداخلية ٥٣ إلى ٦٤ ونائب لرئيس الجمهورية ٦١ إلى ٦٨ .
- ٦- جمال سالم ضابط فى الجيش عضو مجلس قيادة الثورة ٥٢ إلى ٥٦ نائب رئيس الوزراء ، توفى فى سنة ٦٨ .
- ٧- محمد أنور السادات ولد سنة ١٩١٨م ضابط سلاح المشاة عضو مجلس قيادة الثورة ٥٢ إلى ٥٦ رئيس الاتحاد القومى ٥٧ إلى ٦١ رئيس مجلس الأمة ٦١

إلى ٦٩ عضو مجلس الرئاسة ٦٢ إلى ٦٤ نائبا لرئيس الجمهورية ٦٩ إلى ٧٠ وتولى رئاسة الجمهورية فى أكتوبر ١٩٧٠م بعد وفاة جمال عبدالناصر ..

٨- عبداللطيف البغدادى ولد فى سنة ١٩١٧م قائد جناح ضابط طيران ٤٨ إلى ٥٦ عضو مجلس قيادة الثورة ٥٢ إلى ٥٦ اشترك فى حرب فلسطين وزير حربية ٥٣ إلى ٥٤ نائب رئيس الجمهورية وزير التخطيط ٥٨ إلى ٦٢ ..

٩- ثروت عكاشة ولد فى سنة ١٩٢١م اشترك فى حرب فلسطين وزيرا للثقافة ٥٨ إلى ٦٢ رئيسا للبنك الأهلى ٦٢ سقيرا فى فرنسا ثم مرة أخرى وزيرا للثقافة ٧٠ إلى ٧١ .

١٠- على صبرى ولد سنة ١٩٢٠ اشترك فى حرب فلسطين وزيرا لشئون الرئاسة ٥٧ إلى ٥٨ ونفس المنصب أثناء الوحدة مع سوريا ٥٨ إلى ٦١ رئيس وزراء ٦٤ إلى ٦٥ نائب رئيس الجمهورية ٦٥ إلى ٦٧ رئيس الاتحاد الاشتراكى ٦٥ إلى ٦٧ نائب رئيس الجمهورية ٧٠ إلى ٧١ ..

١١- اللواء محمد نجيب ولد فى سنة ١٩١٠م قائد لواء فى حرب فلسطين رئيس مجلس قيادة الثورة ٥٢ إلى ٥٤ قائد عام القوات المسلحة المصرية رئيس الوزراء ٥٢ إلى ٥٤ رئيس الجمهورية ٥٣ إلى ٥٤ (١٣٤) .

محطات تاريخية هامة فى سجل ثورة ٢٣ يوليو ..

- (١) ٢٣ يوليو ١٩٥٦ - قاد جمال عبدالناصر الثورة للقضاء على النظام الملكى الوراثنى .
- (٢) ٩ سبتمبر ١٩٥٢ - إصدار قانون الإصلاح الزراعى وتحرير الفلاح .
- (٣) ١٨ يونيو ١٩٥٣ - إعلان الجمهورية فى مصر وانتهاء الحكم الملكى الوراثنى .
- (٤) ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ - اتفاقية إجلاء القوات البريطانية من مصر بعد استعمار طويل .
- (٥) ٢٦ يونيو ١٩٥٦ - تأميم قناة السويس وإعادة الحق إلى أهله أى الشعب المصرى .

(١٣٤) كتاب ناصر - تأليف أنتونى ناتنج - ص ١١ .

- (٦) ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ - العدوان الثلاثى البريطانى الفرنسى الإسرائيلى وانتصار إرادة الشعب المصرى .
- (٧) ٢٢ فبراير ١٩٥٨ - أول وحدة عربية فى التاريخ الحاضر بين مصر وسوريا .
- (٨) ٨ يناير ١٩٦٠ - البدء فى مشروع السد العالى والرد على غطرسة أمريكا والغرب .
- (٩) ١٩ يوليو ١٩٦١ - إصدار القوانين الاشتراكية لتحقيق العدالة الاجتماعية والقضاء على الاحتكار والرأسمالية .
- (١٠) ٢١ مايو ١٩٦٢ - تقديم الميثاق الوطنى للمناقشة .
- (١١) ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ - الثورة اليمنية ونجدة مصر لهذه الثورة الفتية .
- (١٢) ٩ - ١٠ يونيو ١٩٦٧ - الهزيمة العسكرية وتقديم عبدالناصر استقالته ثم العودة عنها بسبب الموقف الشعبى المؤيد لبقائه رئيسا للبلاد من أجل إزالة آثار العدوان .
- (١٣) ٣٠ مارس ١٩٦٨ - إصدار بيان ٣٠ مارس واعتباره منهجا للعمل المستقبلى .
- (١٤) ١٩٧٠ قرار إعادة بناء القوات المسلحة والبدء فى حرب الاستنزاف وزيارة عبدالناصر للاتحاد السوفيتى من أجل الحصول على الدعم والسلاح .
- (١٥) ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ - الحادث المؤلم والفجعة الكبيرة بوفاة جمال عبدالناصر مساء هذا اليوم ، ومن هذا التاريخ دخلت الأمة العربية فى مرحلة جديدة قد تواجه فيها الكثير من المصاعب والخلافات التى لم يكن هناك من يحسمها كما كان يفعل جمال عبدالناصر ..) .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء ..	٧
مقدمة تاريخية ..	٨
الفصل الأول :	
١- المولد والنشأة	٣١
٢- الوضع العائلى	٣٣
٣- الوضع الاجتماعى	٣٦
الفصل الثانى :	
١- قيام الثورة	٤١
٢- إعلان المبادئ الستة ..	٤٤
٣- بداية المسيرة وحدث الخلاف ..	٤٦
الفصل الثالث :	
١- فتح الأبواب للاستثمار ..	٦٩
٢- بناء التنمية الوطنية ..	٧٢
٣- البدء فى المشاريع الصناعية ..	٧٨
الفصل الرابع :	
١- الضغوط والمؤامرات المحلية ..	٨٥
٢- رد الفعل من أجل حماية النفس والمكتسبات ..	٨٩
الفصل الخامس :	
١- ذمة عبدالناصر - أموال أو عقارات ..	١٣٥

- ٢- سلوكه الشخصى .. ١٦٨
- ٣- اختيار وزرائه ومساعديه .. ١٧٧
- ٤- طريقة عمله الرسمى .. ١٨١
- ٥- تعامله مع عائلته وأسرته .. ١٨٢

الفصل السادس :

- ١- شهامته ووفاءه .. ١٩١
- ٢- رأيه فى التغيير .. ١٩٧
- ٣- رأيه فى الأحزاب .. ٢٠٠
- ٤- رأيه فى حرية الشعب .. ٢١٢
- ٥- رأيه فى الدين والواجب .. ٢١٤

الفصل السابع :

- ١- معركة السد العالى ، لماذا ؟ ٢٣١
- ٢- النصر السياسى فى المعركة .. ٢٣٦
- ٣- الوحدة مع سوريا - فوائد وخسائر .. ٢٤٣
- ٤- دوافع وأسباب الانفصال .. ٢٤٦
- ٥- لماذا الميثاق ؟ ٢٥٦

الفصل الثامن :

- ١- فلسطين فى مرحلة النضال .. ٢٨١
- ٢- اليمن ثورة فى غير وقتها .. ٣١٢
- ٣- هزيمة ٦٧ وآثارها .. ٣٤٤
- ٤- حرب الاستنزاف وما ترتب عليها .. ٣٧٢

الفصل التاسع :

- ١- لماذا الميثاق وبيان ٣٠ مارس ؟ ٣٨٣

٢ - موقف عبدالناصر من علاقة مصر بالسودان ..

٣ - رأى عبدالناصر فى الدين والدولة ..

٤ - البحث عن القوة الرادعة من أجل السلام ..



كتب صدرت للمؤلف ،،



- ١ المسطرة الحاسبة - سنة ١٩٦٦م - أعيد نشره ثلاث مرات .
- ٢ هندسة الراديو والتليفزيون ١٩٦٧م - أعيد نشره أربع مرات .
- ٣ حرب الشرق الأوسط بين الحقيقة والخيال ١٩٦٧م - أعيد نشره مرة واحدة .
- ٤ مستقبل التليفزيون الملون ١٩٦٨م - أعيد نشره مرة واحدة .
- ٥ مذكرات جندي في سيناء ، ترجمة ١٩٦٨م .
- ٦ مولد دولة إفريقية ، ترجمة ١٩٧١م - أعيد نشره مرة واحدة .
- ٧ ثورة الأدغال في أفريقيا ، ترجمة ١٩٧٨م .
- ٨ وثائق الوحدة لا وثنائق أكتوبر تأليف ١٩٧٩م - أعيد نشره مرتين .
- ٩ خرافة الستار الحديدي حول بلاد السوفييت ، تأليف ١٩٨٠م - أعيد نشره وترجم إلى عدة لغات منها الروسية والدارية والألمانية .
- ١٠ نفط الشرق الأوسط وأزمة الطاقة في العالم ، ترجمة ١٩٨١م - أعيد نشره مرة واحدة .
- ١١ الاتحاد السوفيتي نظرة من الداخل ، تأليف ١٩٨٥م - أعيد نشره وترجم إلى عدة لغات كالإنجليزية والروسية والدارية والألمانية .
- ١٢ تاريخ المخابرات الإسرائيلية ، ترجمة ١٩٩٠م .
- ١٣ عدوى نفسى ، أسرار الانتفاضة الاولى ، ترجمة ١٩٩٠م - أعيد نشره مرة واحدة .
- ١٤ الفقى مصباح مؤذن الفجر ، رواية ، تأليف ١٩٩١م - أعيد نشرها مرة واحدة .
- ١٥ مذكرات ذو الفقار على بوتو ، ترجمة ١٩٩٣م - أعيد نشره ثلاث مرات .

- ١٦ تدمير العراق بعد ١٣٥ يوما من المبادرات الدولية ، ترجمه ١٩٩٣ م .
- ١٧ حقيقة معارك الدفاع عن الجبل الغربى ، تأليف ١٩٩٣ م .
- ١٨ قائد معركة القارة ومعارك قبله ، سالم بن عبدالنبي ، تأليف ١٩٩٣ م .
- ١٩ تاريخ الشعوب الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى سابقا ، ترجمة ١٩٩٩ م .
- ٢٠ الجهاد الوطنى أدب وتاريخ ، تأليف ، ١٩٩٩ م _ أعيد نشره مرة واحدة .
- ٢١ تاريخ الاسلام والمسلمين فى البوسنا والهرسك ، ترجمة ٢٠٠٠ م .
- ٢٢ قبرص من معاوية إلى أجاويد ، تأليف ٢٠٠٠ م _ أعيد نشره وترجم إلى اللغة اليونانية والتركية .
- ٢٣ مسافر يبحث عن الموت ، جزء أول ، روايه ، تأليف ٢٠٠٠ م .
- ٢٤ ليلة الحلم الطويل رواية ، تأليف ٢٠٠١ م .
- ٢٥ شهداء الكردون العشرة ، تأليف ٢٠٠١ م .
- ٢٦ مسافر يبحث عن الموت ، جزء ثانى ، رواية ، تأليف ٢٠٠٢ م .
- ٢٧ أزمات السودان بين الديمقراطية والديكتاتورية ، تأليف ٢٠٠٣ م .
- ٢٨ الليبيون والثورة الجزائرية ، تأليف ٢٠٠٤ م .
- ٢٩ حجارة من سجيل ، الانتفاضتان ، دروس ونتائج ، تأليف.... ، مخطوط .
- ٣٠ رحلة فى الصحافة ، ١٩٦٠ - ١٩٩٥ م ، مخطوط .
- ٣١ جمال عبدالناصر والعرب ، تحت الطبع _ ٢٠٠٨ م .
- ٣٢ إسهامات الليبيين فى النضال الفلسطينى من الحسينى إلى عرفات تأليف ، ٢٠٠٥ م .
- ٣٣ الجهاد الوطنى أدب وتاريخ ، الجزء الثانى ، تأليف ٢٠٠٥ م .
- ٣٤ الفقى مصباح فى مستشفى المجانين ، رواية ، جزء ثانى ٢٠٠٥ م .
- ٣٥ انهيار الاتحاد السوفيتى والتغيرات المدوية فى العالم - تأليف ٢٠٠٦ م .

٣٦ تاريخ أفريقيا السمراء - ترجمة - ٢٠٠٧ م .

٣٧ معركة العميان واحدة من معجزات الجهاد الوطنى الليبى - تحت الطبع -

٢٠٠٨ م .

مسرحيات :

٣٨ المجد فى أربعة فصول .

٣٩ صخب المدينة فى فصلين .

٤٠ الجشع فى أربعة فصول .

٤١ الرجل الذى لم يفقد الانتماء فى خمسة فصول .

٤٢ وطن فى محنة بين مشفق وشامت فى أربعة فصول .





المراجع العربية



- ١- مذكراتى فى الثقافة والسياسة - د- ثروت عكاشة - الجزء الأول والثانى ..
- ٢- مذكرات محمود رياض - أ- محمود رياض - الجزء الأول والثانى
- ٣- كتاب فلسفة الثورة - جمال عبدالناصر ..
- ٤- الميثاق الوطنى - جمال عبدالناصر ..
- ٥- قصة ثورة ٢٣ يوليو - أ- أحمد حمروش .. خمسة أجزاء
- ٦- الأسرار الشخصية لجمال عبدالناصر - أ- ضياء الدين بيمرس ..
- ٧- مراحل مجهولة من حياة عبدالناصر - أ- إبراهيم علوان ..
- ٨- صراع فى الكونغو ومولد دولة أفريقية - د- عبدالوهاب الزنتانى ..
- ٩- تاريخ غرب أفريقيا وتجارة الرقيق - د- عبدالوهاب الزنتانى ..
- ١٠- عبدالناصر والثورة الأفريقية - أ- محمد فائق ..
- ١١- عبدالناصر المفترى عليه - أ- حسنين كروم ..
- ١٢- جمال عبدالناصر رائد التاريخ العربى أ- فوزى عطوى ..

- ١٣- على صبرى يتكلم - أ- عبدالله إمام ..
- ١٤- ثورة عبدالناصر - أ- شوقى عبدالناصر ..
- ١٥- لمصر - لا لعبدالناصر - أ- حسنين هيكل ..
- ١٦- مع عبدالناصر - أ- أمين هويدى ..
- ١٧- شاهد حق - أ- أحمد طعيمة ..
- ١٨- سنوات وأيام مع عبدالناصر - أ- سامى شرف ..
- ١٩- عبدالناصر كيف حكم مصر - أ- عبدالله إمام .
- ٢٠- ٢٣ يوليو وعبدالناصر - أ- عصام حسونه .
- ٢١- حرب الثلاث سنوات - فريق أول محمد فوزى . جزئين
- ٢٢- قالوا فى عبدالناصر - أ- حمدى الكنيسى .
- ٢٣- ناصر والحملة الظالمة - أ- عبدالله إمام .
- ٢٤- انقلاب ١٥ مايو - أ- عبدالله إمام .
- ٢٥- عبدالناصر الذى لا تعرفه - أ- رشاد كامل .
- ٢٦- كل رجال عبدالناصر - أ- جابر عبدالسلام .

٢٧- تاريخ السودان الحديث - أ- ضرار صالح ضرار .

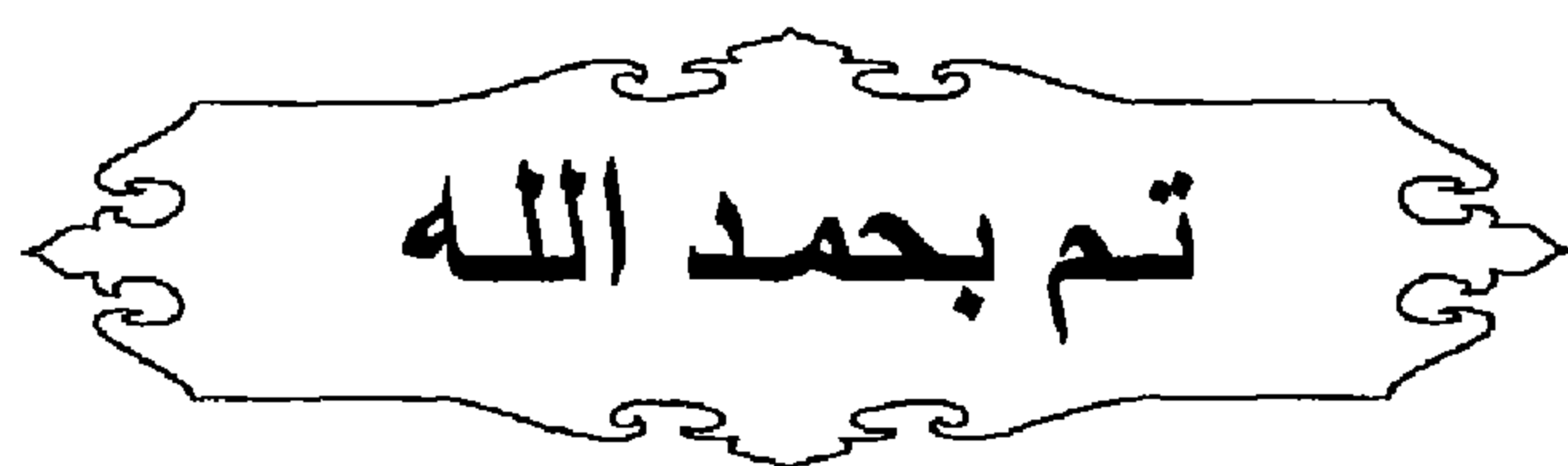
٢٨- السودان بين الديمقراطية والديكتاتورية - د- عبدالوهاب الزنتاني .

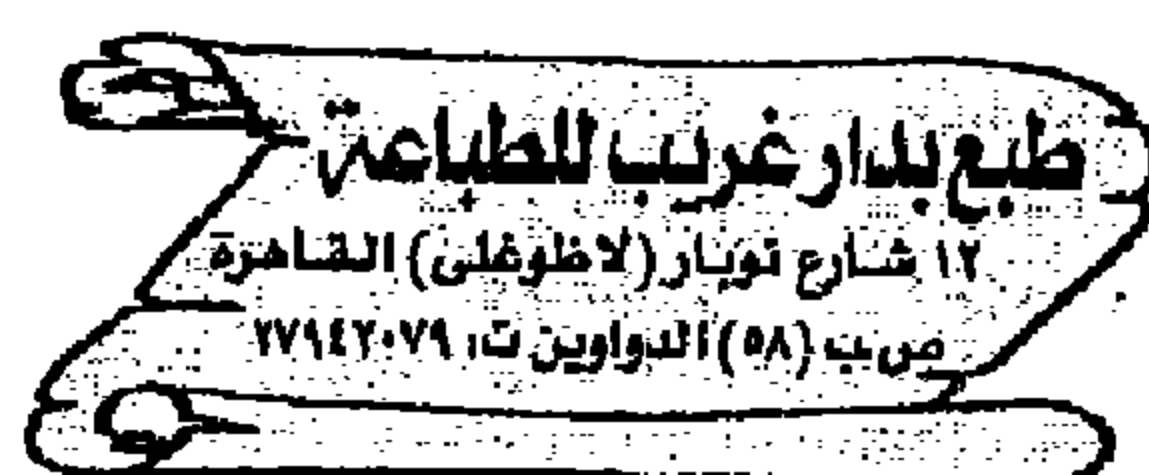
٢٩- مصر والسودان - أ- محسن محمد .

٣٠- الناصرية والإسلام - ندوة - أ- عبدالحليم قنديل .

المراجع الأجنبية

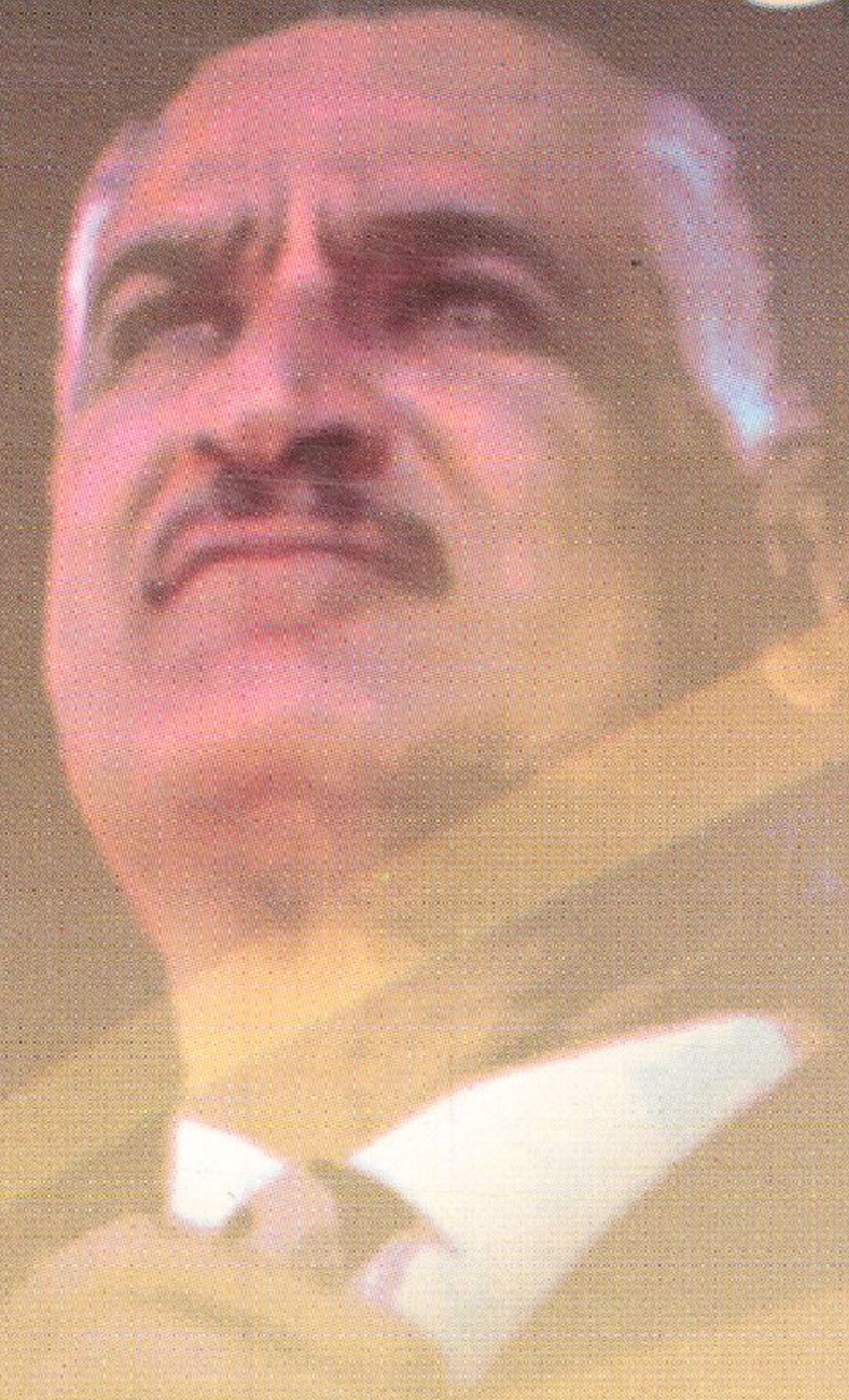
- ١- ناصر - أنتوني ناتنج - لغة إنجليزية .
- ٢- من حصار الفالوجة إلى الاستقالة المستحيلة - جان دومال - لغة فرنسية .
- ٣- السادات - ديفيد هيرتس ودارين ميسون .. لغة إنجليزية .
- ٤- الصراع من أجل السلام - عزرا وايزمان .
- ٥- حياتي - جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل - لغة إنجليزية .
- ٦- قصة حياتي - موسى دايان - لغة إنجليزية .
- ٧- مذكرات إسحاق رابين - إسحاق رابين - لغة إنجليزية - .





جمال عبد الناصر رجل العرب

من الميلاد إلى الرحيل



هذا الكتاب

جمال عبد الناصر بطهارته ونظافة يده وزهده في متاع الدنيا ، وبعده عن كل نزوات البشر ، من حقه تاريخياً أن يحتل شرف تسميته الخليفة السادس لأنه لم يحدث في تاريخ العرب من يماثل طهارة عمر بن عبد العزيز غيره .

وجمال عبد الناصر بدوره التاريخي ومنجزاته الكبيرة لم يغيب عن ضمير الأمة العربية ولم يغادر وجدان أبنائها الشرفاء حتى بعد وفاته ومرور زمن زاد على ثلاثة عقود .

ولقد كان جمال عبد الناصر فارس هذه الأمة بشهادة كل الرجال من حيث عظمتهم وتفانيه وإنسانيته مما جعله أبرز قائد عربي عصراً حالى .

لقد حمل جمال عبد الناصر في وجدانه وعقله طموحات كل العرب وتطلعاتهم وجسدها تجسيدا صادقا في كل عمل قام به وكل كلمة قالها ، وكما يقال فإن بعض الرجال يصنعهم التاريخ والبعض الآخر يصنعون التاريخ ، وكان جمال عبد الناصر من صناع التاريخ بجدارة .

د. عبد الوهَّاب محمد الزنتاني

Bibliotheca Alexandrina



0669769